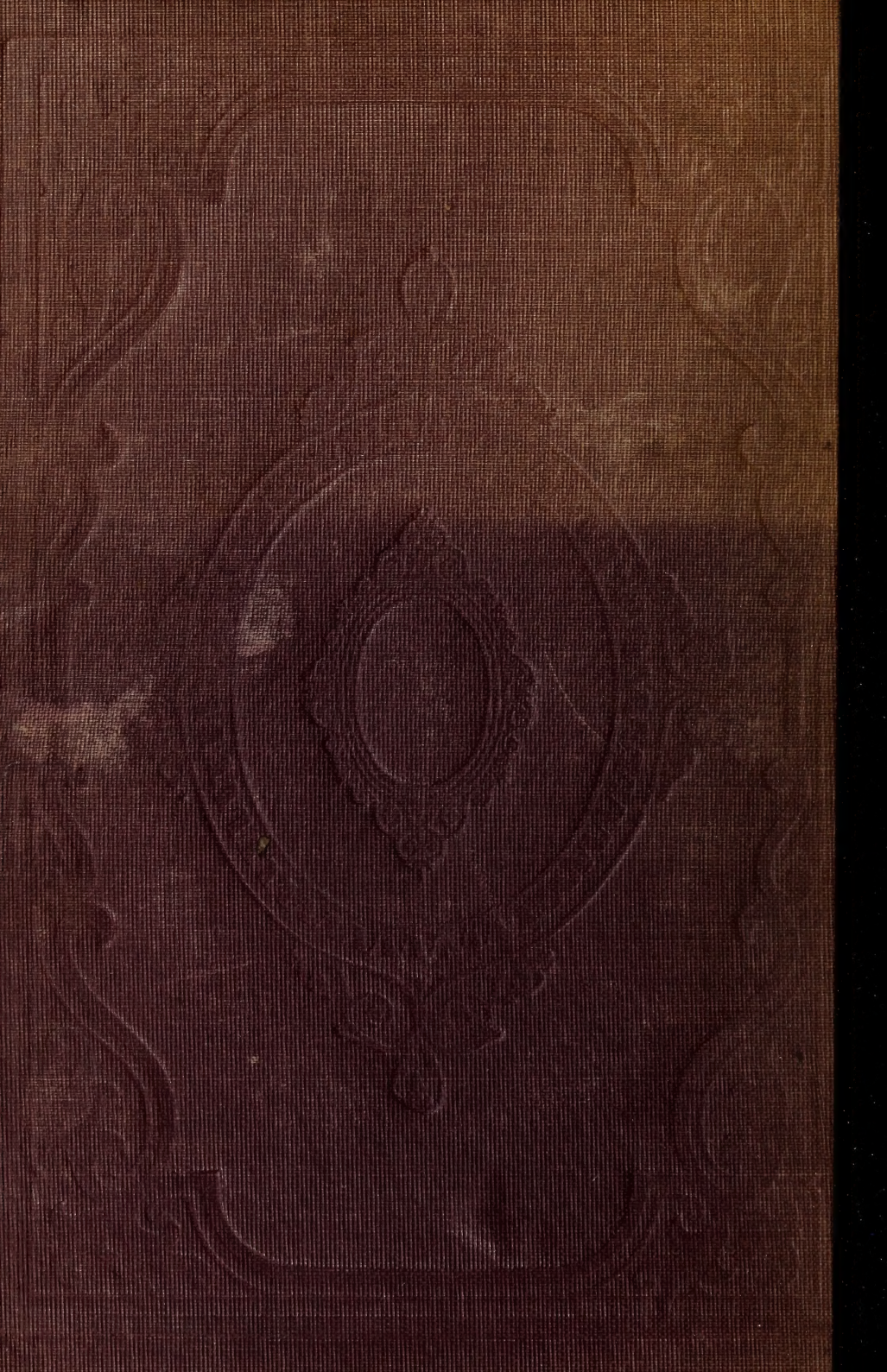




PLEASE DO NOT REMOVE
CARDS OR SLIPS FROM THIS POCKET

UNIVERSITY OF TORONTO LIBRARY

D
16
.7
I23
1904

Ibn Khaldun
al-Muqaddimah

ADD

Ibn Khaldūn

المقدمة للعلامة ابن خلدون

— الجزء الأول —

من كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر
في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم

من ذوى السلطان الأكبر وهو

تاريخ وحيد عصره العلامة

عبد الرحمن بن خلدون

المغربي رحمه الله

أمين

al-Muqaddimah



طبع على ذمة مصطفى فهمي المكتبي بمصر



مطبعة التقدم بشارع محمد علي بمصر

LIBRARY
SEP 14 1972
UNIVERSITY OF TORO

بسم الله الرحمن الرحيم

D
16
.7
I23
1904

يقول العبد الفقير الى رحمة ربه الغني بلطفه عبد الرحمن بن محمد

ابن خلدون الحضرمي وفقه الله تعالى

(الحمد لله) الذي له العزة والجبروت * وبيده الملك والملكوت * وله الاسماء الحسنی
وانعوت * العالم فلا يعزب عنه ما تظهره النجوى أو يخفيه السكوت * القادر فلا يعجزه شيء
في السموات والارض ولا يفوت * أنشأنا من الارض نسما * واستعمرنا فيها احياءا واما * ويسر
لنا منها أرزاقا وقما * تكفينا الارحام والبيوت * ويكفلنا الرزق والقوت * وتبلينا الايام
والوقوت * وتغورنا الآجال التي خط علينا كتبها الموقوت * وله البقاء والثبوت * وهو الحي
الذي لا يموت (والصلاة والسلام) على سيدنا ومولانا محمد النبي الامي العربي المكتوب في
التوراة والانجيل المنعوت * الذي تمخض لفصالة الكون قبل أن تتعاقب الآحاد والسبوت *
ويتبان زحل واليهاموت * وشهد بصدقه الحمام والغنكبوت * وعلى آله وأصحابه الذين لهم في
محبتة وإتباعه الأثر البعيد والصيت * والشمل الجميع في مظاهرتة ولعدوهم الشمل الشيت *
صلى الله عليه وعليهم ما اتصل بالاسلام جده المبخوت * وانقطع بالكفر حبله المبتوت * وسلم
كثيراً (أما بعد) فان فن التاريخ من الفنون التي يتداولها الامم والاجيال * وتشهد اليه
الركائب والرحال * وتسمو الى معرفته السوقة والاغفال * وتتنافس فيه الملوك والاقبال *
ويتساوي في فهمه العلماء والجهال * اذ هو في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الايام والدول
والسوابق من القرون الاول * تنمى فيها الاقوال * وتضرب فيها الامثال * وتطرف بها
الأنذية اذا غصها الاحتفال * وتؤدي اليها شأن الحقيقة كيف تقلبت بها الاحوال * واتسع
للدول فيها النطاق والجمال * وعمرها الارض حتى نادى بهم الارتحال * وحان منهم الزوال *
وفي باطنه نظر وتحقيق * وتعليل للكائنات ومبداها دقيق * وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها
عميق * فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق * وجدير بأن يعد في علومها وخلق * وان
فحول المؤرخين في الاسلام قد استوعبوا أخبار الايام وجمعوها * وسطروها في صفحات
الدفاتر وأودعوها * وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها وأبتدعوها * وزخارف
من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها * واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها *
وأدوها اليها كما سمعوها * ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والاحوال ولم يراعوها * ولا رفضوا

صحيفة

صحيفة

٧	المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق	٦١	الاقليم السادس
	مذاهبه والاماع لما يعرض للمؤرخين	٦٤	الاقليم السابع
	من المغالط والأوهام وذكر شيء من	٦٥	المقدمة الثالثة في المعتدل من الاقاليم
	أسبابها		والمُنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر
٢٧	الكتاب الأول في طبيعة العمران في		والكثير من أحوالهم
	الخليقة وما يعرض فيها من البدو	٦٨	المقدمة الرابعة في أثر الهواء في أخلاق
	والحضر والتغلب والكسب والمعاش		البشر
	والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من	٦٩	المقدمة الخامسة في اختلاف أحوال
	العلل والاسباب (وفيه ستة فصول)		العمران في الخصب والجوع وما ينشأ
٣٣	الفصل الأول من الكتاب الأول في		عن ذلك من الآثار في أبدان البشر
	العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات		وأخلاقهم
٣٣	المقدمة الأولى في أن الاجتماع الانساني	٧٣	المقدمة السادسة في أصناف المدركين
	ضروري		للغيب من البشر بالفطرة أو بالرياضة
٣٥	المقدمة الثانية في قسط العمران من		ويتقدمه الكلام في الوحي والرؤيا
	الارض والاشارة الى بعض مافيه من	٧٦	حقيقة النبوة والكهانة والرؤيا وشأن
	الاشجار والانهار والاقاليم		العرافين وغير ذلك من مدارك الغيب
١٠٤	كلمة هذه المقدمة الثانية في أن الربع	٩٥	الفصل الثاني من الكتاب الأول في
	الريفي الى من الارض أكثر عمراناً من		العمران البدوي والامم الوحشية والقبائل
١٢٥	تفصيلاً لاج الجنوبى وذكر السبب في ذلك		وما يعرض في ذلك من الاحوال وفيه
	الاقاليم في الكلام على هذه الجغرافيا		أصول وتهميدات
١٢٧	الاقليم في الاول	٩٥	فصل في أن احيال البدو والحضر طبيعية
	الاقليم الثاني	٩٦	فصل في أن جيل العرب في الخلقة طبيعي
	الاقليم الثالث	٩٧	فصل في أن البدو أقدم من الحضر
	الاقليم الرابع		وسابق عليه وأن البادية أصل العمران
	الاقليم الخامس		والامصار مدد لها

صحيفة

- ١٠٩ فصل في أن الأمم الوحشية أقدر التغلب بمن سواها
- ١١٠ فصل في أن الغاية التي تجري اليها العصبية هي الملك
- ١١١ فصل في أن من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القليل في النعيم
- ١١٢ فصل في أن من عوائق الملك حصول المذلة للقليل والانتقياد الى سواهم
- ١١٣ فصل في أن من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس
- ١١٥ فصل في أنه اذا كانت الامة وحشية كان ملكها أوسع
- فصل في أن الملك اذا ذهب عن بعض الشعوب من أمة فلا بد من عودته الى شعب آخر منها مادامت لهم العصبية
- ١١٦ فصل في أن المغلوب مولع أبداً بالاقداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته
- أحواله وعوائده
- ١١٧ فصل في أن الامة اذا غلبت وصاحبها في ملك غيرها أسرع اليها
- ١١٨ فصل في أن العرب لا يتقربون الا بالبسائط
- فصل في أن العرب اذا تغلبوا أو طان أسرع اليها
- ١١٩ فصل في أن العرب لا يحصل لهم الا بصيغة دينية من
- أثر عظيم من الدين

صحيفة

- ٩٧ فصل في أن أهل البدو أقرب الى الخير من أهل الحضرة
- ٩٩ فصل في أن أهل البدو أقرب الى الشجاعة من أهل الحضرة
- ٩٩ فصل في أن معاناة أهل الحضرة للاحكام مفسدة للبأس فيهم ذاهبة بالمنعة منهم
- ١٠١ فصل في أن سكني البدو لا يكون الا للقبائل أهل العصبية
- ١٠٢ فصل في أن العصبية انما تكون من الاتحام بالنسب أو ما في معناه
- ١٠٢ فصل في أن الصريح من النسب انما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معنائهم
- ١٠٣ فصل في اختلاط الانساب كيف يقع
- ١٠٤ فصل في أن الرئاسة لا تزال في نصابها الخصوص من أهل العصبية
- ١٠٤ فصل في أن الرئاسة على أهل العصبية لا تكون في غير نسبهم
- ١٠٦ فصل في أن البيت والشرف بالاصالة والحقيقة لاهل العصبية ويكون لغيرهم بالمجاز والشبه
- ١٠٧ فصل في أن البيت والشرف للموالى وأهل الاصطناع انما هو بمواليهم لا بأنسابهم
- ١٠٨ فصل في أن نهاية الحسب في العقب الواحد أربعة آباء

صحيفة

- ١ فصل في أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك
- ١٢١ فصل في أن البوادي من القبائل والعصائب مغلوبون لاهل الامصار
- ١٢١ الفصل الثالث من الكتاب الاول في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه قواعد ومتممات
- ١٢١ فصل في ان الملك والدولة العامة انما يحصل بالقبيل والعصية
- ١٢٢ فصل في أنه اذا استقرت الدولة وتمهدت فقد تستغني عن العصية
- ١٢٣ فصل في انه قد يحدث لبعض أهل النصاب المملكي دولة تستغني عن العصية
- ١٢٤ فصل في ان الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق
- ١٢٤ فصل في ان الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصية التي كانت لها من عددها
- ١٢٥ فصل في ان الدعوة الدينية من غير عصبية لا تم
- ١٢٧ فصل في ان كل دولة لها حصّة من الممالك والايوطان لا تزيد عليها
- ١٢٨ فصل في ان عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة
- ١٢٩ فصل في ان الاوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل ان تستحكم فيها دولة
- ١٣١ فصل في ان من طبيعة الملك الانفراد بالمجد
- ١٣١ فصل في ان من طبيعة الملك الترف
- ١٣٢ فصل في ان من طبيعة الملك الدعة والسكون
- ١٣٢ فصل في انه اذا استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة أقبلت الدولة على الهرم
- ١٣٤ فصل في ان الدولة لها أعمار طبيعية كما للاشخاص
- ١٣٥ فصل في انتقال الدولة من البداوة الى الحضارة
- ١٣٧ فصل في ان الترف يزيد الدولة في أولها قوة الى قوتها
- ١٣٨ فصل في أطوار الدولة واختلاف أحوالها وخلق أهلها باختلاف الأطوار
- ١٣٩ فصل في ان آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها
- ١٤٤ فصل في استظهار صاحب الدولة على قومه واهل عصبته بالموالى والمصطنعين
- ١٤٥ فصل في احوال الموالى والمصطنعين في الدول
- ١٤٦ فصل فيما يعرض في الدول من حجب السلطان والاستبداد عليه

صحيفة	صحيفة
٢٠٥ السريير والمنبر والتخت والكرسي	١٤٧ فصل في ان المتغلبين على السلطان
٢٠٦ السكة	لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك
٢٠٨ الخاتم	١٤٨ فصل في حقيقة الملك واصنافه
٢١٠ الطراز	١٤٩ فصل في ان ارهاق الحد مضر بالملك
٢١١ الفساطيط والسياج	ومفسد له في الاكثر
٢١٢ المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة	١٥٠ فصل في معنى الخلافة والامامة
٢١٤ فصل في الحروب ومذاهب الامم	١٥١ فصل في اختلاف الامة في حكم هذا
ترتيبها	المنصب وشروطه
٢١٥ فصل ومن مذاهب اهل الكر وال	١٥٥ فصل في مذاهب الشيعة في حكم الامامة
في الحروب ضرب المصاف و	١٥٩ فصل في انقلاب الخلافة الى الملك
عسكرهم الخ	١٦٥ فصل في معنى البيعة
٢١٧ فصل ولما ذكرناه من ضرب المصا	١٦٦ فصل في ولاية العهد
وراء العساكر وتأكده في قتال ال	١٧٣ فصل في الخطط الدينية للخلافة
والفرصار ملوك المغرب يتخذ	١٧٩ فصل في اللقب بأمر المؤمنين وانه من
طائفة من الافرنج في جندهم الخ	سمات الخلافة وهو محدث منذ عهد
فصل وبلغنا ان ام الترك لهذا الع	الخلفاء
وتعلمهم مناضلة بالسهم	١٨٢ فصل في شرح اسم البابا والبطرك في
فصل وكان من مذاهب الاو	الملة النصرانية واسم الكوهن عند اليهود
حروبهم حفر الخنادق على معسكر	١٨٥ فصل في مراتب الملك والسلطان
الخ	وألقابهما
٢٢١ فصل في الحياة وسبب قتلها وكثر	١٩٢ ديوان الاعمال والحيايات
٢٢٢ فصل في ضرب المكوس أو	١٩٤ ديوان الرسائل والكتابة
الدولة	١٩٩ قيادة الاساطيل
فصل في ان التجارة من السلطان مضر	٢٠٣ فصل في التفاوت بين مراتب السيف
بالرعايا مفسدة للحياة	والقلم في الدول
٢٢٤ فصل في ان ثروة السلطان وحاشي	٢٠٣ فصل في شارات الملك والسلطان
انما تكون في وسط الدولة	الخاصة به

صحيفة

- ٢٢٥ فصل ولما يتوقعه أهل الدولة من أمثال هذه المعاطب صار الكثير منهم ينزعون الى الفرار عن الرتب والتخلص من ربة السلطان الخ
- ٢٢٦ فصل في أن نقص العطاء من السلطان نقص في الحياة
- ٢٢٧ فصل في أن الظلم مؤذن بخراب العمران
- ٢٢٩ فصل ومن أشد الظلمات وأعظمها في فساد العمران تكليف الاعمال وتسخير الرعايا بغير حق
- ٢٢٩ فصل وأعظم من ذلك في الظلم وافساد العمران والدولة التسلط على أموال الناس بشراء ما بين أيديهم بأبخس الاثمان
- ٢٣٠ فصل في الحجاب كيف يقع في الدول وانه يعظم عند الهرم
- ٢٣١ فصل في انقسام الدولة الواحدة بدولتين
- ٢٣٢ فصل في أن الهرم اذا نزل بالدولة لا يرتفع
- ٢٣٣ فصل في كيفية طروق الخلل للدولة
- ٢٣٦ فصل في حدوث الدولة وتجدها كيف يقع
- ٢٣٦ فصل في أن الدولة المستجدة انما تستولى على الدولة المستقرة بالمطالبة لابلانناجزه

صحيفة

- ٢٣٩ فصل في وفور العمران آخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات
- ٢٤٠ فصل في أن العمران البشري لا بد له من سياسة ينتظم بها أمره
- ٢٤٦ فصل في أمر الفاطمي وما يذهب اليه الناس في شأنه وكشف الغطاء عن ذلك
- ٢٦١ فصل في ابتداء الدول والامم وفيه الكلام على الملاحم والكشف عن مسمى الجفر
- ٢٧٢ الفصل الرابع من الكتاب الاول في البلدان والامصار وسائر العمران وما يعرض في ذلك من الاحوال وفيه سوابق ولواحق
- ٢٧٢ فصل في أن الدول أقدم من المدن والامصار وانما توجد ثانية عن الملك
- ٢٧٣ فصل في أن الملك يدعو الى نزول الامصار
- ٢٧٣ فصل في أن المدن العظيمة والهيكل المرتفعة انما يشيدها الملك الكثير
- ٢٧٤ فصل في أن الهيكل العظيمة جداً لا تستقل بينها الدولة الواحدة
- ٢٧٥ فصل فيما تجب مراعاته في أوضاع المدن وما يحدث اذا غفل عن تلك المراعاة
- ٢٧٧ فصل ومما يراعى في البلاد الساحلية التي على البحر أن تكون في جبل أو تكون بين أمة من الامم الخ

صحيفة

٢٧٧ فصل في المساجد والبيوت العظيمة في

العالم

٢٨٣ فصل في ان المدن والامصار بافريقية

والمغرب قليلة

٢٨٤ فصل في ان المباني والصنائع في الملة

الاسلامية قليلة بالنسبة الى قدرتها والى

من كان قبلها من الدول

٢٨٥ فصل في ان المباني التي كانت تحتطها

العرب يسرع اليها الحراب الا في

الاقل

٢٨٦ فصل في مباني الحراب في الامصار

٢٨٦ فصل في ان تفاضل الامصار والمدن

في كثرة الرفه لاهلها ونفاق الاسواق

انما هو في تفاضل عمراتها في الكثرة

والقلة

٢٨٨ فصل في أسعار المدن

٢٨٩ فصل في قصور اهل البادية عن سكني

المصر الكثير العمران

٢٩٠ فصل في أن الاقطار في اختلاف

أحوالها بالرفه والفقر مثل الامصار

٢٩١ فصل في تأمل العقار والضياع في

الامصار وحال فوائدها ومستغلاتها

٢٩٢ فصل في حاجات المتمولين من أهل

الامصار الى الجاه والمدافمة

٢٩٢ فصل في أن الحضارة في الامصار من

قبل الدول وأنها ترسخ باتصال الدولة

ورسوخها

صحيفة

٢٩٥ فصل في أن الحضارة غاية العمران

ونهاية لعمره وأنها مؤذنة بفساده

٢٩٧ فصل في أن الامصار التي تكون كراسي

للملك تخرب بخراب الدولة وانتقاضها

٢٩٩ فصل في اختصاص بعض الامصار

ببعض الصنائع دون بعض

٢٩٩ فصل في وجود العصبية في الامصار

وتغلب بعضهم على بعض

٣٠١ فصل في لغات أهل الامصار

٣٠٢ الفصل الخامس من الكتاب الاول

في المعاش ووجوهه من الكسب

والصنائع وما يعرض في ذلك كله من

الاحوال وفيه مسائل

٣٠٢ فصل في حقيقة الرزق والكسب

وشرحهما وان الكسب هو قيمة

الاعمال البشرية

٣٠٣ فصل في وجود المعاش وأصنافه ومذاهبه

٣٠٤ فصل في أن الخدمة ليست من المعاش

الطبيعي

٣٠٥ فصل في أن ابتغاء الاموال من الدفائن

والكنوز ليس بمعاش طبيعي

٣٠٨ فصل في أن الجاه مفيد للمال

٣٠٩ فصل في أن السعادة والكسب انما

يحصل غالباً لاهل الخضوع والخلق

وان هذا الخلق من أسباب السعادة

٣١٢ فصل في أن القائمين بامور الدين من

القضاء والقضا والتدريس والامامة

والخطابة والاذان ونحو ذلك لا تعظم
ثروتهم في الغالب

٣١٢ فصل في أن الفلاحة من معاش
المستضعفين وأهل العافية من البدو
٣١٣ فصل في معنى التجارة ومذايبها
وأصنافها

٣١٣ فصل في أي أصناف الناس يحترف
بالتجارة وأيهم ينبغي له اجتنب حرفها
٣١٤ فصل في أن خلق التجار نازلة عن
خلق الاشراف والمملوك

٣١٤ فصل في نقل التاجر للسلع
٣١٥ فصل في الاحتكار

٣١٥ فصل في أن رخص الاسعار مضر
بالمحترفين بالرخص

٣١٦ فصل في أن خلق التجار نازلة عن
خلق الرؤساء وبعيدة من المروءة

٣١٧ فصل في أن الصنائع لا بد لها من المعلم
٣١٨ فصل في أن الصنائع انما تكمل بكمال

العمران الحضري وكثرة
٣١٨ فصل في أن رسوخ الصنائع في

الامصار انما هو برسوخ الحضارة
وطول أمدها

٣١٩ فصل في أن الصنائع انما تستجد وتكثر
اذا كثر طالها

٣٢٠ فصل في أن الامصار اذا قاربت
الحروب انتقصت منها الصنائع

٣٢٠ فصل في أن العرب أبعد الناس عن الصنائع

٣٢١ فصل في أن من حصلت له ملكة في
صناعة فقل أن يجيد بعدها ملكة
اخرى

٣٢١ فصل في الاشارة الى امهات الصنائع
٣٢٢ فصل في صناعة الفلاحة

٣٢٢ فصل في صناعة البناء
٣٢٥ فصل في صناعة التجارة

٣٢٦ فصل في صناعة الحياكة والحيطة
٣٢٧ فصل في صناعة التوليد

٣٢٩ فصل في صناعة الطب وأنها محتاج
اليها في الحواضر والامصار دون

البادية
٣٣١ فصل في أن الخط والكتابة من عداد

الصنائع الانسانية
٣٣٤ فصل في صناعة الوراقة

٣٣٥ فصل في صناعة الغناء
٣٣٩ فصل في أن الصنائع تكسب صاحبها

عقلا وخصوصاً الكتابة والحساب
٣٤٠ الفصل السادس من الكتاب الاول في

العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر
وجوهه وما يعرض في ذلك كله من

الاحوال وفيه مقدمة ولواحق
٣٤٠ فصل في ان العلم والتعليم طبعي في

العمران البشري
٣٤١ فصل في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع

٣٤٤ فصل في ان العلوم انما تسكن حيث
يكثر العمران وتعظم الحضارة

صحيفة

٣٤٥ فصل في اصناف العلوم الواقعة في

العمران لهذا العهد

٣٤٦ علوم القرآن من التفسير والقراآت

٣٤٩ علوم الحديث

٣٥٣ علم الفقه وما يتبعه من الفرائض

٣٥٨ علم الفرائض

٣٥٩ أصول الفقه وما يتعلق به من الجدل

والخلافيات

٣٦٣ علم الكلام

٣٧٠ علم التصوف

٣٧٦ تعبير الرؤيا

٣٧٩ العلوم العقلية واصنافها

٣٨١ العلوم العددية

٣٨٢ ومن فروع علم العدد صناعة الحساب

٣٨٣ ومن فروعها الجبر والمقابلة

٣٨٣ ومن فروعها أيضاً المعاملات

٣٨٤ ومن فروعها أيضاً الفرائض

٣٨٤ العلوم الهندسية

٣٨٥ ومن فروع هذا الفن الهندسة المخصوصة

بالاشكال الكرية والمخروطات

٣٨٥ ومن فروع الهندسة المساحة

٣٨٦ المناظر من فروع الهندسة

٣٨٦ علم الهيئة

٣٨٧ ومن فروع علم الازياج

٣٨٧ علم المنطق

٣٩٠ الطبيعيات

٣٩٠ علم الطب

صحيفة

٣٩١ فصل وللبادية من أهل العمران طب

ينبونه في غالب الامر على تجربة قاصرة

علي بعض الاشخاص الخ

٣٩١ الفلاحة

٣٩٢ علم الالهيات

٣٩٣ علوم السحر والطلسمات

٣٩٨ فصل ومن قيل هذه التأثيرات النفسانية

الاصابة بالعين

٣٩٩ علم أسرار الحروف

٤٠١ ومن فروع علم السيمياء عندهم استخراج

الاجوبة من الاسئلة

٤٠٤ الكلام على استخراج نسبة الاوزان

وكيفياتها ومقادير المقابل منها وقوة

الدرجة المتميزة بالنسبة الى موضع

المعلق من امتزاج طبائع وعلم طب أو

صناعة الكيمياء

٤٠٤ الطب الروحاني

٤٠٤ مطاريج الشعاعات في مواليد الملوك وبينهم

٤٠٥ الانفعال الروحاني والانقياد الرباني

٤٠٥ اتصال أنوار الكواكب

٤٠٦ مقامات المحبة وميل النفوس والمجاهدة

والطاعة والعبادة وحب وتعشق وفناء

الفناء وتوجه ومراقبة وخلة دائمة

٤٠٦ فصل في المقامات والنهاية

٤٠٧ الوصية والتختم والايمان والاسلام

والتحريم والاهلية

٤٠٧ كيفية العمل في استخراج أجوبة المسائل

- من زايرة العالم بحول الله منقولا عن
لقيناه من القائمين عليها
- ٤١٥ فصل في الاطلاع على الاسرار الخفية
من جهة الارتباطات الحرفية
- ٤١٨ فصل في الاستدلال على مافي الضمائر
الخفية بالقوانين الحرفية
- ٤٢٠ علم الكيمياء
- ٤٢٨ فصل في ابطال الفاسفة وفساد متحاجها
- ٤٣٣ فصل في ابطال صناعة التجوم وضعف
مداركها وفساد غايتها
- ٤٣٧ فصل في انكار ثمره الكيمياء واستحالة
وجودها وما ينشأ من المفساد عن اتحاليها
- ٤٤٢ فصل في أن كثرة التأليف في العلوم
عائقة عن التحصيل
- ٤٤٣ فصل في ان كثرة الاختصارات المؤلفة
في العلوم مخلة بالتعليم
- ٤٤٣ فصل في وجه الصواب في تعليم العلوم
وطريق افادته
- ٤٤٥ فصل واعلم أيها المتعلم الخ
- ٤٤٦ فصل في ان العلوم الالهية لا توسع فيها
الانظار ولا تفرع المسائل
- ٤٤٧ فصل في تعليم الولدان واختلاف
مذاهب الامصار الاسلامية في طرقه
- ٤٤٩ فصل في ان الشدة على المتعلمين مضره بهم
- ٤٥٠ فصل في ان الرحلة في طلب العلوم
ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم
- ٤٥٠ فصل في أن العلماء من بين البشر
- أبعد عن السياسة ومذاهبها
- ٤٥١ فصل في أن حملة العلم في الاسلام
أكثرهم المعجم
- ٤٥٣ فصل في علوم اللسان العربي
- ٤٥٤ علم التجو
- ٤٥٥ علم اللغة
- ٤٥٧ علم البيان
- ٤٥٩ علم الادب
- ٤٦٠ فصل في أن اللغة ملكة صناعية
- ٤٦١ فصل في أن لغة العرب لهذا العهد
لغة مستقلة مغايرة لغة مضر وحير
- ٤٦٣ فصل في أن لغة الحضرة والامصار قائمة
بنفسها بخالفة للغة مضر
- ٤٦٤ فصل في تعليم اللسان المضرى
- ٤٦٥ فصل في ان ملكة هذا اللسان غير صناعة
العربية ومستغنية عنها في التعليم
- ٤٦٦ فصل في تفسير الذوق في مصطلح أهل
البيان وتحقيق معناه وبيان أنه لا يحصل
غالباً للمستعربين من المعجم
- ٤٦٨ فصل في أن أهل الامصار على الاطلاق
قاصرون في تحصيل هذه الملكة اللسانية
التي تستفاد بالتعليم ومن كان منهم أبعد
عن اللسان العربي كان حصوله له أصعب
وأعسر
- ٤٧٠ فصل في انقسام الكلام الى في النظم
والنثر
- ٤٧٢ فصل في أنه لا تتفق الاجادة في فني

صحيفه

المنظوم والمنثور معا الالاقل

٤٧٢ فصل في صناعة الشعر ووجه تعلمه

٤٧٨ فصل في أن صناعة النظم والنثر انما

هي في الالفاظ لافي المعاني

٤٧٩ فصل في أن حصول هذه الملكة بكثرة

الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ

صحيفه

٤٨١ فصل في ترفع أهل المراتب عن اتحال

الشعر

٤٨٢ فصل في أشعار العرب وأهل الامصار

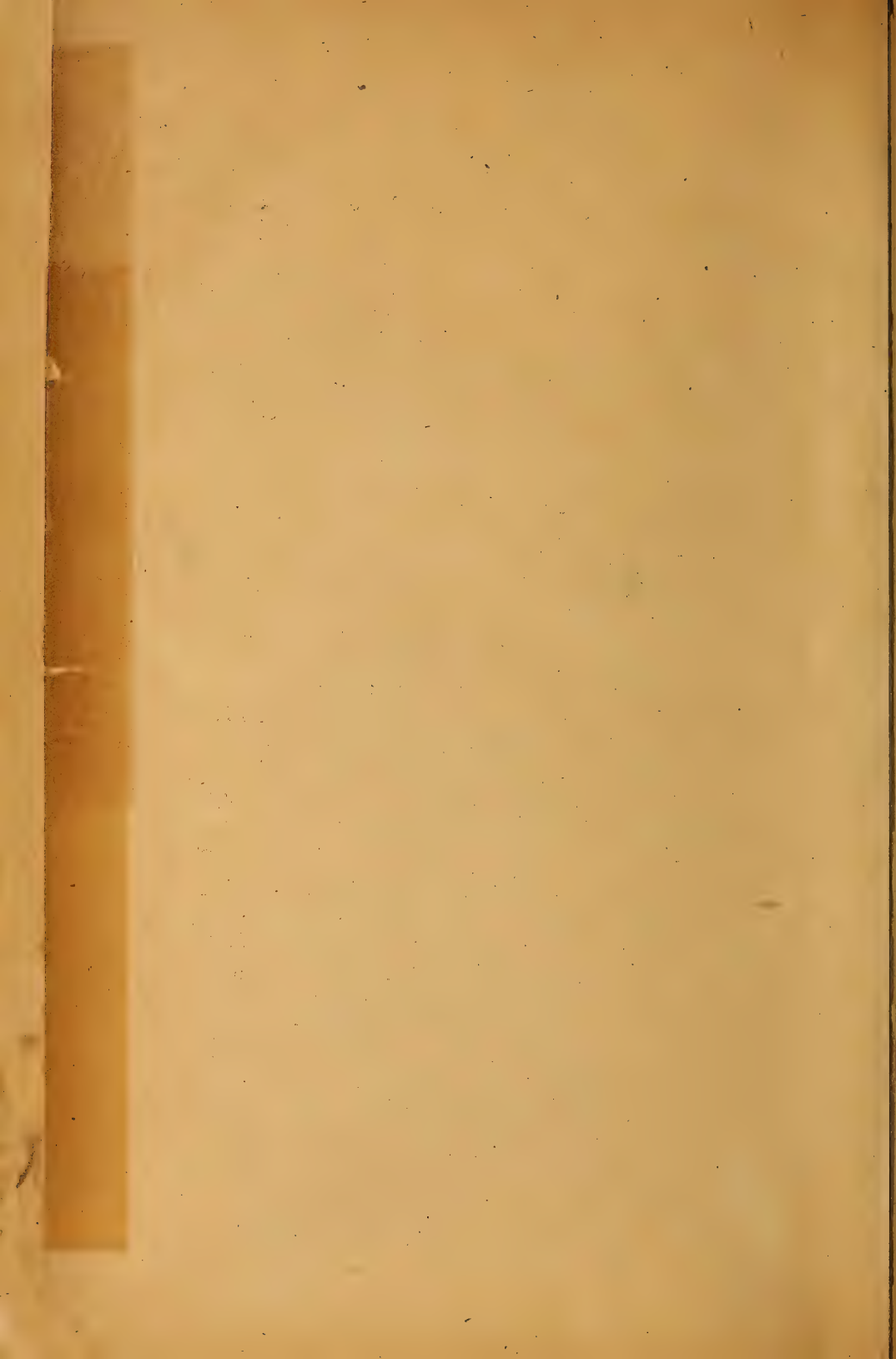
لهذا العهد (وفيه أشعار الهلالية

والزناية)

٤٩١ الموشحات والازجال للاندلس

﴿ تمت ﴾





العلم

عن كتب مطبوعات جديدة
(بمكتبة مصطفى افندي فهمي المكتبي بمصر)

رحلة العلامة ابن بطوطه

حسن المحاضره في اخبار مصر والقاهره

الفصح القسى في الفتح القدسى للوزير الكاتب ابن العماد

الغنيه لسيدى عبد القادر الجيلانى

شرح شواهد المغنى لاجلال السيوطى

الوجيز للغزالي — نهاية العابدين للغزالي — شرح اسماء الله الحسنى للغزالي

التنوير في اسقاط التدبير لابن عطاء الله السكندرى

تعريفات السيد الجرجاني — ادب الدنيا والدين للماوردي

الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن قيم الجوزيه

القسطاس المستقيم للغزالي — انباء نجباء الابناء للغزالي

سيرة صلاح الدين الايوبي

نسيم الصبا — صفاء الاوقات في علم النعمات

زهوة العاشق الوهлан — المزدوجات والارتقاء

الروض العاطر في زهوة الخاطر — المفاخر العليه في المآثر الشاذليه

كتاب السبك والهج ورحلة الشيخ حزنبل

الفتوحات الاسلاميه — الفتوحات النبويه لمفتي مكة دحلان

الفرقان بين اولياء الرحمن واولياء الشيطان لابن تيمه

التمرين العباسي في التعليم الاساسي جزء اول — التمرين العباسي في التعليم الاساسي جزء

فتح الملك القدوس تصوف — قواعد التصوف

متن نور الايضاح — اوراد سيدى احمد التيجاني

شمس المعاني الكبرا — شمس الانوار طبع حروف

الفوائد في الصلات والعوائد — ابو معشر حروف

الدر النظيم في خواص القرآن العظيم

ترهات الاحاديث ولا دفعوها * فالتحقيق قليل * وطرف التنقيح في الغالب قليل * والغلط والوهم نسيب للاخبار وخليل * والتقليد عريق في الادميين وسليل * والتطفل على الفنون عريض وطويل * ومرعي الجهل بين الانام وخيم وبيل * والحق لايقاوم سلطانه * والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه * والناقل انما هو عيى وينقل * والبصيرة تنقد الصحيح اذا ثقل * والعلم يحلوها صفحات الصواب ويصقل * (هذا) وقد دون الناس في الاخبار واكثروا * وجمعوا تواريخ الامم والدول في العالم وسطروا * والذين ذهبوا بفضل الشهرة والامانة المعتبرة * واستقرغوا دواوين من قبلهم في صحفهم المتأخرة * هم قليلون لا يكادون يجاوزون عددا الانامل * ولا حركات العوامل * مثل ابن اسحق والطبري وابن الكلبي ومحمد بن عمر الواقدي وسيف ابن عمر الأسدي والمسعودي وغيرهم من المشاهير * المتميزين عن الجماهير * وان كان في كتب المسعودي والواقدي من المطعن والمغمز ماهو معروف عند الاثبات * ومشهور بين الحفظة الثقات * الا أن الكافة اختصتهم بقبول اخبارهم * واقفاء سنهم في التصنيف وإتباع آثارهم * والناقد البصير قسطاس نفسه في تزييفهم فيما ينقلون أو اعتبارهم * فللمعمران طبائع في أحواله ترجع اليها الاخبار * وتحمل عليها الروايات والآثار * ثم ان أكثر التواريخ لهؤلاء عامة المناهج والمسالك * لعموم الدولتين صدر الاسلام في الآفاق والممالك * وتناولها البعيد من الغايات في المآخذ والمشارك * ومن هؤلاء من استوعب ما قبل الملة من الدول والامم * والأمر العمم * كالمسعودي ومن نأمنحاهم وجاء من بعدهم من عدل عن الاطلاق الى التقييد * ووقف في العموم والاحاطة عن الشأ والبعد * فقيده شوارد عصره * واستوعب أخبار أفقه وقطره * واقتصر على احاديث دولته ومصره * كما فعل أبوحيان مؤرخ الاندلس والدولة الاموية بها وابن الرقيق مؤرخ أفريقية والدول التي كانت بالقيروان ثم لم يأت من بعد هؤلاء الا مقلد * وبليد الطبع والعقل أو متبلد * ينسج على ذلك المنوال * ويحتذى منه بالمثل * ويذهل عما أحالته الايام من الاحوال * واستبدلت به من عوائد الامم والاجيال * فيجلبون الاخبار عن الدول * وحكايات وقائع في العصور الاول * صوراً قد تجردت عن موادها * وصفاحاً أنتضت من أعينها * ومعارف ستكر للجهل بطارفها وتلاوها * انما هي حوادث لم تعلم أصولها * وأنواع لم تعتبر أجناسها ولا حققت فصولها * يكررون في موضوعاتهم الاخبار المتداولة بأعينها * اتباعاً لمن عني من المتقدمين شأنها * ويغفلون أمر الاجيال الناشئة في ديوانها * بما أعوز عليهم من ترجمانها * فتستعجم صحفهم عن بيانها * ثم اذا تعرضوا لذكر الدولة نسقوا أخبارها نسقاً * محافطين على نقابها وهما أوصداق لا يتعرضون لبدايتها * ولا يذكرون السبب الذي رفع من رايها * وأظهر من آيتها * ولا علة لوقوف عند غايتها * فيبقى الناظر مطلعاً بعد الى افتقاد أحوال مبادي الدول ومراتبها * مفتشاً

عن أسباب تراحمها أو تعاقبها * باحثاً عن المنفع في تباينها أو تناسبها * حسباً نذكر ذلك كله في مقدمة الكتاب * ثم جاء آخرون بافراط الاختصار * وذهبوا الى الاكتفاء بأسماء الملوك والاقطار * مقطوعة عن الانساب والاخبار * موضوعة عليها أعداد أيامهم بحروف الغبار * كما فعله ابن رشيقي في ميزان العمل * ومن اقتفى هذا الاثر من الهمل * وليس يعتبر لهؤلاء مقال * ولا يعدلهم ثبوت ولا انتقال * لما أذهبوا من الفوائد * وأخلوا بالمذاهب المعروفة للمؤرخين والعوائد * ولما طالعت كتب القوم * وسبرت غور الامس واليوم * نهت عين القريحة من سنة الغفلة والنوم * وسمت التصنيف من نفسي وأنا المفسل أحسن السوم * فأنشأت في التاريخ كتاباً رفعت به عن أحوال الناشئة من الاحيال حجاباً * وفصلته في الاخبار والاعتبار باباً باباً * وأبدت فيه لاولية الدول وال عمران عللاً وأسباباً * وبنته على أخبار الامم الذين عمروا المغرب في هذه الاعصار * وملأوا كنف النواحي منه والامصار * وما كان لهم من الدول الطوال أو القصار * ومن سنف من الملوك والأ نصار * وهم العرب والبربر اذ هما الجيلان اللذان عرف بالمغرب مأواها * وطال فيه على الاحقاب مشواها * حتى لا يكاد يتصور فيه ما عداها * ولا يعرف أهله من أجيال الآدميين سواها * فهذبت مناحيه تهذيباً * وقربته لافهام العلماء والخاصة تقريباً * وسلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكاً غريباً * واخترعته من بين المناحي مذهباً عجيباً * وطريقة مبتدعة وأسلوباً * وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن وما يعرض في الاجتماع الانساني من العوارض الذاتية ما يمتعك بعلم الكوائن وأسبابها * ويعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها * حتى تنزع من التقليد يدك * وتقف على أحوال من قبلك من الايام والاحيال وما بعدك * (ورتبته) على مقدمة وثلاثة كتب

(المقدمة) في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والاماع بمغالط المؤرخين
(الكتاب الاول) في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وما لذلك من العلل والاسباب
(الكتاب الثاني) في أخبار العرب وأحيالهم ودولهم منذ مبدأ الخليقة الى هذا العهد وفيه الاماع ببعض من عاصرهم من الامم المشاهير ودولهم مثل النبط والسريانيين والفرس وبني إسرائيل والقيط وبونان والروم والترك والافرنجة
(الكتاب الثالث) في أخبار البربر ومن اليهم من زناة وذكر أوليتهم وأحيالهم وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول ثم كانت الرحلة الى المشرق لاجتلاء أنواره * وقضاء الفرض والسنة في مطافه ومزارده * والوقوف على آثاره في دواوينه وأسفاره * فأفدت مانقص من أخبار ملوك العجم بتلك الديار * ودول الترك فيما ملكوه من الاقطار * وأسبعت بهما كتبته

في تلك الأسفار* وأدرجتها في ذكر المعاصرين لتلك الأجيال من أمم النواحي* وملوك الأمصار
والضواحي* سالكا سبيل الاختصار والتلخيص* مفتديا بالمرام السهل من العويص* داخلًا من
باب الأسباب على العموم إلى الأخبار على الخصوص فأستوعب أخبار الخليقة استيعابًا* واذل
من الحكم النافرة ضعابًا* وأعطي لحوادث الدول عللاً وأسبابًا* وأصبح للحكمة صوانًا وللتاريخ
جربابًا* (ولما كان) مشتتملاً على أخبار العرب والبربر* من أهل المدن والوبر* والألماع بمن
عاصرهم من الدول الكبرى* وأفصح بالذكرى والعبر* في مبتدا الأحوال وما بعدها من الخبر*
(سميته) كتاب العبر* ودبوان المبتدا والخبر* في أيام العرب والعجم والبربر* ومن عاصرهم
من ذوي السلطان الأكبر* ولم أترك شيئاً في أولية الأجيال والدول* وتعاصر الأمم الأولى*
وأسباب التصرف والحول* في القرون الحالية والملل* وما يعرض في العمران من دولة وملة*
ومدينة وحلة* وعرة وذلة* وكثرة وقلة* وعلم وصناعة* وكسب وإضاعة* وأحوال متقلبة
مشاعة* وبدو وحضر* وواقع وممتظر* والاستوعبت جملة* وأوضحت براهينه وعلله*
فجاء هذا الكتاب فدايماً ضمنت من العلوم الغربية* والحكم المحجوبة القريه* وأنا من بعدها
موقن بالقصور* بين أهل العصور* معترف بالعجز عن المضاء* في مثل هذا القضاء* راغب
من أهل اليد البيضاء* والمعارف المتسعة القضاء* النظر بعين الانتقاد لابعين الارتضاء* والتعمد
لما يعثرون عليه بالإصلاح والأغضاء* فالإضاعة بين أهل العلم مزاجه* والاعتراف من اللوم
منجاء* والحسن من الإخوان مرتجاء* والله أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم
وهو حسبي ونعم الوكيل* وبعد أن استوفيت علاجه* وأرت مشكاته للمبتصرين* وأذيت
سراجه* وأوضحت بين العلوم طريقه ومنهاجه* وأوسعت في فضاء المعارف نطاقه وأدرت سياجه*
أتحفت بهذه النسخة منه ١ خزانة مولانا السلطان الامام المجاهد* الفاتح الماهد* المتحلى منذ

(١) قوله أتحفت بهذه النسخة منه الخ وجد في نسخة بخط بعض فضلاء المغاربة زيادة قبل
قوله أتحفت وبعد قوله وأدرت سياجه ونصها التمس له الكفاء الذي يامح بعين الاستبصار
فقونه* ويلحظ بمداركة الشريفة معياره الصحيح وقانونه* ويميز رتبة في المعارف عمادونه*
ففرحت فكري في فضاء الوجود* وأجلت نظري ليل التمام والهجوم* بين التهايم والنجوم*
في العلماء الركع السجود* والخلفاء أهل الكرم والجود* حتى وقف الاختيار بساحة الكمال*
وظافت الأفكار بموقف الآمال* وظفرت أيدي المساعي والاعمال* بمتندى المعارف مشرقة
فيه غرر الجمال* وحدائق العلوم الوارثة للظلال عن اليمين والشمال* فأنتجت طلي الأفكار في
عرصاتها* وجاوت محاسن النظائر على منصاتها* وأتحفت بدبوانها مقاصير إبانها* وأطاعته كوكبا

خلع التمام • ولوث العمام • بحلى القانت الزاهد • المتوشح من زكاء المناقب والمحامد • وكرم الشمايل
والشواهد • باجل من القلائد • في فحور الولائد • المتناول بالعزم القوى الساعد • والجد
الموالي المساعد • والمجد الطارف وانتالذ • ذوائب ملكهم الراسي القواعد • الكريم المعالي
والمصاعد • جامع أشات العلوم والفوائد • وناظم شمل المعارف الشوارد • ومظهر الآيات
الربانية • في فضل المدارك الانسانية • بفكره الثاقب الناقد • ورأيه الصحيح المعاهد • النير
المذاهب والعقائد • نور الله الواضح المرشد • ونعمته العذبة الموارد • ولطفه الكامن • بالمرصد
لشدهائد • ورحمته الكريمة المقالذ • التي وسعت صلاح الزمان الفاسد • واستقامة المائد من الاحوال
والعوائد • وذهبت بالخطوب الاوابد • وخلعت على الزمان رونق الشباب العائد • وحجته التي
لا يبطاها انكار الجاحد • ولا شبهات المعاند (أمير المؤمنين) أبو فارس عبد العزيز ابن مولانا
السلطان الكبير المجاهد المقدس أمير المؤمنين • أبي الحسن ابن السادة الاعلام من بني مرين •
الذين جددوا الدين • ونهجوا السبيل للمهتدين • ومحو آثار البغاة المفسدين • أفاء الله على
الامة ظلاله • وبلغه في نصر دعوة الاسلام آماله • وبعثه الى خزائهم الموقفة لطيلة العلم بجامع
القرويين من مدينة فاس حضرة ملكهم • وكسبي سلطانهم • حيث مقر الهدى • ورياض
المعارف خضلة الندي • وفضاء الاسرار الربانية فسيح المدى • والامامة الكريمة الفارسية (١)
العزيزة ان شاء الله بنظرها الشريف • وفضلها الغني عن التعريف • تبسط له من العناية بهاداد •
وتفسح له في جانب القبول آمادا • فتوضح بها أدلة على رسوخه وأشهاد • ففي سوقها تنفق

وقادا في أفق خزائنها وصوانها • ليكون آية للعقلاء يهتدون بمناره • ويعرفون فضل المدارك
الانسانية في آثاره • وهي خزانة مولانا السلطان الامام المجاهد الفاتح الماهد الى آخر التعوت
المذكورة هنا (ثم قال) الخليفة أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين أبو العباس أحمد ابن مولانا
الامير الطاهر المقدس أبي عبد الله محمد ابن مولانا الخليفة المقدس أمير المؤمنين أبي يحيى أبي بكر
ابن الخلفاء الراشدين من أئمة الموحدين الذين جددوا الدين ونهجوا السبل للمهتدين
ومحو آثار البغاة المفسدين من المجسمة والممتدين سلالة أبي حفص الفاروق والبيعة النامية
على تلك المغارس الزاكية والعروق والنور المتلألئ من تلك الاشعة والبروق فأوردته من
مودعها العلي بحيث مقر الهدى ورياض المعارف خضلة الندي الى آخر ما ذكره هنا الا انه لم
يقيد الامامة بالفارسية • لكن النسخة المذكورة مختصرة عن هذه النسخة المنقولة من خزانة
الكتب الفاسية • ولم يقل فيها ثم كانت الرحلة الى المشرق الخ

(١) قوله الفارسية أي المنسوبة الى الامير أبي فارس المتقدم ذكره اه

بضائع الكتاب • وعلى حضرتها تعكف ركائب العلوم والآداب • ومن مدد بصارتها المنيرة
نتائج القرائح والالباب • والله يوزعنا شكر نعمتها • ويوفّر لنا حظوظ المواهب من رحمته • ويعيننا
على حقوق خدمتها • ويجعلنا من السابقين في ميدانها المجلين في حومتها • ويضفي على أهل
إيالتها • وما أوى من الاسلام الى حرم عمالتها لبوس حمايتها وحرمتها • وهو سبحانه المسؤول
أن يجعل أعمالنا خالصة في وجهتها • بريئة من شوائب الغفلة وشبهتها • وهو حسبنا ونعم الوكيل

المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والاماع لما يعرض

للمؤرخين من المغالط والأوهام وذكر شيء من أسبابها

(اعلم) أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية اذ هو يوقفنا على
أحوال الماضين من الامم في أخلاقهم • والانباء في سيرهم • والملوك في دولهم وسياستهم •
حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا فهو محتاج الى ماخذ
متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وثبت يفضيان بصاحبهما الى الحق وينكبان به عن
المزلات والمغالط لان الأخبار اذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد
السياسة وطبيعة العمران والاحوال في الاجتماع الانساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر
بالذهاب فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق وكثيراً ما وقع
للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل
غثاً أو سميناً لم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف
على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الاخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في بقاء
الوهم والغلط سيما في إحصاء الاعداد من الاموال والعساكر اذا عرضت في الحكايات اذهى
مظنة الكذب ومطية الهذر ولا بد من ردها الى الاصول وعرضها على القواعد وهذا كما نقل
المسعودي وكثير من المؤرخين في جيوش بني إسرائيل وأن موسى عليه السلام أحصاهم في
التيه بعد أن أجاز من يطبق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها فكانوا ستمائة ألف
أو يزيدون ويذهل في ذلك عن تقدير مصر والشام واتساعهما مثل هذا العدد من الجيوش
لكل مملكة من الممالك حصّة من الحامية تسع لها وتقوم بوظائفها وتضيق عما فوقها تشهد بذلك
العوائد المعروفة • والاحوال المألوفة • ثم ان مثل هذه الجيوش البالغة الى مثل هذا العدد يبعد أن
يقع بينها زحف أو قتال لضيق ساحة الارض عنها وبعدها اذا اصطفت عن مدي البصر مرتين
أو ثلاثاً أو أزيد فكيف يقتتل هذان الفريقان أو تكون غلبة أحد الصفيين وشيء من جوانبه
لا يشعر بالجانب الآخر والحاضر يشهد لذلك فالماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء (ولقد كان

ملك الفرس ودولتهم أعظم من ملك بني إسرائيل بكثير يشهد لذلك ما كان من غلب بختصر لهم والتهامه بلادهم واستيلائه على أمرهم وتخريب بيت المقدس قاعدة ملتهم وسلطانهم وهو من بعض عمال مملكة فارس يقال انه كان مرزبان المغرب من تخومها وكانت ممالكهم بالعراقين وخراسان وماوراء النهر والابواب أوسع من ممالك بني إسرائيل بكثير ومع ذلك لم تبلغ جيوش الفرس قط مثل هذا العدد ولا قريبا منه وأعظم ما كانت جموعهم بالقادسية مائة وعشرون ألفا كلهم متبوع على ما نقله سيف قال وكانوا في أتباعهم أكثر من مائتي ألف (وعن عائشة والزهري) ان جموع رستم التي زحف بها لسعد بالقادسية انما كانوا ستين ألفا كلهم متبوع وأيضا قتلوا بلع بنو إسرائيل مثل هذا العدد لا تسع نطاق ملكهم وانسحق مدي دولتهم فان العمالات والممالك في الدول على نسبة الحامية والقبيل القاطنين بها في قتلها وكثرتها حسبما نرين في فصل الممالك من الكتاب الاول والقوم لم تتسع ممالكهم الى غير الاردن وفلسطين من الشام وبلاد يثرب وخيبر من الحجاز على ما هو المعروف وأيضا فالذي بين موسى وإسرائيل انما هو أربعة آباء على ما ذكره المحققون فانه موسى بن عمران بن يصر بن قاهث بفتح الهاء وكسرها ابن لاوي بكسر الواو وفتحها ابن يعقوب وهو إسرائيل الله هكذا نسبته في التوراة والمدة بينهما على ما نقله المسعودي قال دخل إسرائيل مصر مع ولده الاسباط وأولادهم حين أتوا الى يوسف سبعين نفسا وكان مقامهم بمصر الى أن خرجوا مع موسى عليه السلام الى اتيه مائتين وعشرين سنة تتداولهم ملوك القبط من الفراعنة وبعده ان يتشعب النسل في أربعة أجيال الى مثل هذا العدد وان زعموا أن عدد تلك الحياوش انما كان في زمن سليمان ومن بعده فبعيد أيضا اذ ليس بين سليمان وإسرائيل الا أحد عشر أباً فانه سليمان بن داود بن ايشا بن عوفيد ويقال ابن عوفد بن باعز ويقال بوعز بن سالمون بن نحشون بن عمينوذب ويقال حيناذاب بن رم بن حصرون ويقال حسرون بن يارس ويقال بيرس بن يهوذا بن يعقوب ولا يتشعب النسل في أحد عشر من الولد الى مثل هذا العدد الذي زعموه اللهم الى المئين والآلاف فربما يكون واما أن يتجاوز الى ما بعدهما من عقود الاعداد فبعيد واعتبر ذلك في الحاضر المشاهد والقريب المعروف تجد زعمهم باطلا ونقلهم كاذبا (والذي ثبت في الاسرائيليات) أن جنود سليمان كانت اثني عشر ألفا خاصة وأن مقرباته كانت ألفا وأربعمائة فرس مرتبطة على أبوابه هذا هو الصحيح من أخبارهم ولا ياتفت الى خرافات العامة منهم (وفي أيام سليمان عليه السلام وملكه) كان غنفوان دولتهم واتساع ملكهم هذا وقد نجد الكافة من أهل العصر اذا أقاضوا في الحديث عن عساكر الدول التي لعهدهم أو قريبا منه وتفاوضوا في الاخبار عن جيوش المسلمين أو النصاري أو أخذوا في احصاء أموال الحبايات وخراج الساطان ونفقات

المترفين وبضائع الاغنياء الموسرين توغلوا في العدد وتجاوزوا حدود العوائد وطوعوا وساوس
الاغراب (١) فاذا استكشفت اصحاب الدواوين عن عساكرهم واستتبعت احوال أهل الثروة
في بضائعهم وفوائدهم واستجلبت عوائد المترفين في نفقاتهم لم يجد معشار ما يعدونه وما ذلك
الا لولوع النفس بالغرائب وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة على المتعقب والمتقدم حتى لا يحاسب
نفسه على خطأ ولا عمد ولا يطالبها في الخبر بتوسط ولا عدالة ولا يرجعها الى بحث وتفتيش
فيرسل عنانه ويسم في مراعات الكذب لسانه ويخذ آيات الله هزوا ويشترى لهو الحديث
ليضل عن سبيل الله وحسبك بهاصفة خاسرة (ومن الاخبار الواهية للمؤرخين) ما يقولونه
كافة في اخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب أنهم كانوا يغزون من قراهم باليمن الى
أفريقية والبربر من بلاد المغرب وأن افريقش بن قيس بن صيني من أعظم ملوكهم الاول
وكان لعهد موسى عليه السلام أو قبله بقليل غزا افريقية وأثنى في البربر وأنه الذي سباهم
بهذا الاسم حين سمع رطاباتهم وقال ماهذه البربرة فأخذ هذا الاسم عنه ودعوا به من حينئذ
وأنه لما انصرف من المغرب حجز هنالك قبائل من حمير فأقاموا بها واختلطوا بأهلها ومنهم
صنهاجة وكتامة ومن هذا ذهب الطبري والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي والبيهي الى أن
صنهاجة وكتامة من حمير وتأباه نسبة البربر وهو الصحيح (وذكر المسعودي أيضاً) أن ذا
الاذعار من ملوكهم قبل افريقش وكان على عهد سليمان عليه السلام غزا المغرب ودوخه
وكذلك ذكر مثله عن ياسر ابنه من بعده وأنه باع وادي الرمل من بلاد المغرب ولم يجد
فيه مسلداً لكثرة الرمل فرجع * وكذلك يقولون في تبع الآخر وهو أسعد أبو كرب وكان
على عهد يستأسف من ملوك الفرس الديكانية انه ملك الموصل وأذربيجان وألقى الترك فهزمهم
وأثنى ثم غزاهم ثانية وثالثة كذلك وأنه بعد ذلك أغزى ثلاثة من بنيه بلاد فارس والى بلاد
الصفد من بلاد أمم الترك وراء النهر والى بلاد الروم فللك الاول البلاد الى سمرقند وقطع
المفازة الى الصين فوجد أخاه الثاني الذي غزا الى سمرقند قد سبقه اليها فأثخناني بلاد الصين
ورجعاً جميعاً بالغنائم وتركوا بلاد الصين قبائل من حمير فهم بها الى هذا العهد وباع الثالث
الى قسطنطينية فدرسها ودوخ بلاد الروم ورجع (وهذه الاخبار) كلها بعيدة عن الصحة
عريقة في الوهم والغلط وأشبهه باحاديث القصص الموضوعة وذلك أن ملك التبابعة إنما كان
بجزيرة العرب وقراهم وكرسيهم بصنعاء اليمن وجزيرة العرب يحيط بها البحر من ثلاث
جبهات شحر الخند من الجنوب وبحر فارس الهابط منه الى البصرة من المشرق وبحر السويس

الهابط منه الى السويس من أعمال مصر من جهة المغرب كما تراه في مصور الجغرافيا فلا يجد
 السالكون من التين الى المغرب طريقاً من غير السويس والمسلك هناك ما بين بحر السويس
 والبحر الشامي قدر مرحلتين فما دونهما ويبعد أن يمر بهذا المسلك ملك عظيم في عساكر
 موفورة من غير أن تصير من أعماله هذا ممتنع في العادة وقد كان بتلك الاعمال العمالة
 وكنعان بالشام والقيظ بمصر ثم ملك العمالة مصر وملك بنو اسرائيل الشام* ولم ينقل قط
 أن النباغة حاربوا أحداً من هؤلاء الامم ولا ملكوا شيئاً من تلك الاعمال* وأيضاً فالشقة من
 البحر الى المغرب بعيدة والازودة والعلوفة للعساكر كثيرة فاذا ساروا في غير أعمالهم احتاجوا
 الى اتياب الزرع والنعم واتياب البلاد فيمرون عليه ولا يكفي ذلك للآزودة والعلوفة عادة وان
 نقلوا كفايتهم من ذلك من أعمالهم فلا تفي لهم الرواحل بنقله فلا بد وأن يمرروا في طريقهم
 كلها بأعمال قد ملكوها ودوخوها لتكون الميرة منها • وان قلنا ان تلك العساكر تمر هؤلاء
 الامم من غير أن تهيجهم فتحصل لهم الميرة بالمسألة فذلك أبعد وأشد امتناعاً فدل على أن هذه
 الاخبار واهية أو موضوعة (وأما) وادي الرمل الذي يعجز السالك فلم يسمع قط ذكره في
 المغرب على كثرة سالكه ومن يقص طريقه من الركاب والقرى في كل عصر وكل جهة وهو
 على ما ذكره من الغربة تتوفر الدواعي على نقله • وأما غزوهم بلاد الشرق وأرض الترك وان
 كانت طريقه أوسع من مسالك السويس الا أن الشقة هنا أبعد وأهم فارس والروم معترضون
 فيها دون الترك ولم ينقل قط أن اتبابعة ملكوا بلاد فارس ولا بلاد الروم وانما كانوا يحاربون
 أهل فارس على حدود بلاد العراق وما بين البحرين والحيرة والجزيرة بين دجلة والفرات وما
 بينهما في الاعمال وقد وقع ذلك بين ذي الاذعار منهم وكيكاوس من ملوك الكيانية وبين
 تبع الاصغر أبو كرب ويستأسف منهم أيضاً ومع ملوك الطوائف بعد الكيانية والساسانية من
 بعدهم بمجاورة أرض فارس بالغزو الى بلاد الترك والتبت وهو ممتنع عادة من أجل الامم • المعترضة
 منهم والحاجة الى الأزودة والعلوفات مع بعد الشقة كما مر فالأخبار بذلك واهية مدخولة وهي
 لو كانت صحيحة أثقل لكان ذلك قادحاً فيها فكيف وهي لم تنقل من وجه صحيح • وقول ابن اسحق
 في خبر يثرب والأوس والخزرج أن تبعاً الآخر سار الى المشرق محمول على العراق وبلاد
 فارس وأما بلاد الترك والتبت فلا يصح غزوهم اليها بوجه لما تقرر فلا تثقن بما ياتي اليك
 من ذلك وتأمل الاخبار واعرضها على القوانين الصحيحة يقع لك تمحيصها بأحسن وجه
 والله الهادي الى الصواب

(فصل) وأبعد من ذلك وأغرق في الوهم ما يتناقله المفسرون في تفسير سورة والفجر
 في قوله تعالى ألم تركيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد فيجعلون لفظة إرم اسماً لمدينة

وصفت بأنها ذات عماد أي أساطين وينقلون أنه كان لعاد بن عوص بن إرم ابنان هما شديد وشداد ملكا من بعده وهلك شديد فخلفه الملك لشداد ودانت له ملوكهم وسمع وصف الجنة فقال لأبنين مثلها فبني مدينة إرم في صحاري عدن في مدة ثلثمائة سنة وكان عمره تسعمائة سنة وانها مدينة عظيمة قصورها من الذهب وأساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها أصناف الشجر والأنهار المطردة ولما تم بناؤها سار اليها بأهل مملكته حتى اذا كان منها على مسيرة يوم وأيلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا كلهم ذكر ذلك الطبري والثعالبي والزنجشري وغيرهم من المفسرين • وينقلون عن عبد الله بن قلابة من الصحابة أنه خرج في طلب ابل له فوقع عليها وحمل منها ما قدر عليه وبلغ خبره الى معاوية فاحضره وقص عليه فبحث عن كعب الاحبار وسأله عن ذلك فقال هي إرم ذات العماد وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال يخرج في طلب ابل له ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال هذا والله ذلك الرجل وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ في شيء من بقاع الارض وصحاري عدن التي زعموا أنها بنيت فيها هي في وسط اليمن وما زال عمرانه متعاقبا والادلاء تقص طرقه من كل وجه ولم ينقل عن هذه المدينة خبر ولا ذكرها أحد من الاخباريين ولا من الامم ولو قالوا انها درست فيما درس من الآثار لكان أشبه إلا أن ظاهر كلامهم أنها موجودة وبعضهم يقول انها دمشق بناء على أن قوم عاد ملكوها وقديته يهذيان ببعضهم الى انها غائبة وانما يعثر عليها أهل الرياضة والسحر مزاعم كلها أشبه بالخرافات • والذي حمل المفسرين على ذلك ما اقتضته صناعة الاعراب في لفظة ذات العماد أنها صفة إرم وحملوا العماد على الاساطين فتمين أن يكون بناء ورشح لهم ذلك قراءة ابن الزبير عاد إرم على الاضافة من غير تنوين ثم وقفوا على تلك الحكايات التي هي أشبه بالاقاصيص الموضوعة التي هي أقرب الى الكذب المنقولة في عداد المضحكات والافالعماد هي عماد الاخوية بل الحيام وان أريد بها الاساطين فلا بدع في وصفهم بانهم أهل بناء وأساطين على العموم بما اشتهر من قوتهم لأنه بناء خاص في مدينة معينة أو غيرها وان أضيفت كما في قراءة ابن الزبير فعلى اضافة الفصيحة الى القليلة كما تقول قریش كنانة والياس مضرور بيعة زار وأي ضرورة الى هذا الحمل البعيد الذي تمحلت لتوجيهه لأمثل هذه الحكايات الواهية التي ينزه كتاب الله عن مثلها لبعدها عن الصحة (ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين) ما ينقلونه كافة في سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباسة أخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه وانه لكلفه بمكانهما من معاقرته إياها الحمر أذن لهما في عقد النكاح دون الخلوة حرصا على اجتماعهما في مجلسه وأن العباسة تحملت عليه في التماس الخلوة لما شغفها من حبه حتى واقعها زعموا في حالة سكر فحملت ووشى

بذلك للرشد فاستغضب وهيات ذلك من منصب العباسية في دينها وأبويها وجلالها وأنها بنت
عبد الله بن عباس ليس بينهما إلا أربعة رجال هم أشرف الدين وعظماء الملة من بعده
والعباسية بنت محمد المهدي بن عبد الله أبي جعفر المنصور بن محمد السجاد بن علي أبي الخلفاء
ابن عبد الله ترجمان القرآن ابن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ابنة خليفة
أخت خليفة محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته وإمامة الملة ونور
الوحي ومهبط الملائكة من سائر جهاتها قريبة عهد ببداوة العربوية وسداجة الدين البعيدة عن
عوائد الترف ومراتع الفواحش فأين يطلب الصون والعفاف اذا ذهب عنها أو أين توجد
الطهارة والذكاء اذا فقد من بيتها أو كيف تلحم نسبها بجمعر بن يحيى وتدنس شرفها العربي
بمولى من موالى العجم بملكه جده من الفرس أو بولاء جدها من عمومرة الرسول وأشرف
قريش وغليته أن جذبت دولتهم بضبعه ووضع أبيه واستخاضتهم ورقمهم إلى منازل الأشراف
وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر إلى موالى الأعمام على بعد همته وعظم أبيه ولو نظر المتأمل
في ذلك نظر المنصف وقاس العباسية بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله
مع مولى من موالى دولتها وفي سلطان قومها واستنكره ولج في تكذيبه وأين قدر العباسية
والرشيد من الناس • وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجاجهم أموال
الحياة حتى كان الرشيد يطالب النيسير من المال فلا يصل إليه فغلبوه على أمره وشاركوه في
سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه فغضبت آثارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب
الدولة وخططوا بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها عن سواهم من وزارة وكتابة
وقيادة وحجابه وسيف وتلم • يقال أنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون
رئيساً من بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحوا فيها أهل الدولة بالملك ودفعوهم عنها
بالراح لمكان أبيهم يحيى من كفالة هرون ولي عهد وخليفة حتى شب في حجره ودرج من
عشه وغلب على أمره وكان يدعوهم يابن قوجه الأيثار من السلطان إليهم وعظمت الدالة منهم
وانبسط الجاه عندهم وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وقصرت عليهم الأموال
وتحطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الأمراء • وسيرت إلى خزائنهم في سبيل
التزلف والاستمالة أموال الحياة • وأفاضوا في رجال الشيعة وعظماء القرباة العطاء وطوقوهم
المنن وكسبوا من بيوتات الأشراف المعدم • وفكوا العاني ومدحوا بالممدوح به خليفهم وسنوا
لعفاتهم الجواز والصلوات واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والامصار في سائر الممالك
حتى أسفوا البطانة وأحققوا الخاصة وأغصوا أهل الولاية فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد
ودبت إلى مهادهم الوثير من الدولة عتارب السعاية حتى لقد كان بنو قحطبة أخوال جعفر

من أعظم الساعين عليهم لم تعطفهم لما وقر في نفوسهم من الحسد عواطف الرحم ولا وزعتهم
أواصر القرابة وقارن ذلك عند محدومهم نواشي الغيرة والاستنكاف من الحجر والنفقة وكامن
الحقود التي بعثها منهم صغائر الدالة وانتهى بها الاصرار على شأنهم الى كباثر المخالفة كقصتهم
في يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أخى محمد المهدي الملقب
بالنفس الزكية الخارج على المنصور ويحيى هذا هو الذي استنزله الفضل بن يحيى من بلاد الديلم
على أمان الرشيد بخطه وبذل لهم فيه ألف ألف درهم على ما ذكره الطبري ودفعه الرشيد الى
جعفر وجعل اعتقاله بداره والى نظره فحبسه مدة ثم حملته الدالة على تخليه سبيله والاستبداد
يحل عقاله حرما لدماء أهل البيت بزعمه ودالة على السلطان في حكمه وسأله الرشيد عنه لما
وشى به اليه ففطن وقال أطلقته فأبدى له وجه الاستحسان وأسرها في نفسه فأوجد السبيل
بذلك على نفسه وقومه حتى ثل عرشهم وألقيت عليهم سلاوهم وخسفت الارض بهم وبادرهم
وزهدت سلفا ومثلا للآخرين أيامهم ومن تأمل أخبارهم واستقصى سير الدولة وسيرهم وجد
ذلك محقق الاثر ممدد الاسباب (وانظر) ما نقله ابن عبد ربه في مفاوضة الرشيد عم جده داود
ابن علي في شأن نكبتهم وما ذكره في باب الشعراء من كتاب العقد في محاوراة الاصمعي للرشيد
وللفضل بن يحيى في سمرهم تفهم انه انما قتلهم الغيرة والمنافسة في الاستبداد من الخليفة فمن
دونه وكذلك ما حيل به أعداؤهم من البطانة فيما دسوه للمغنين من الشعر احتيالا على اسماعه
للخليفة وتحريك حفاظه لهم وهو قوله

ليت هذا انجزتنا ماتعد * وشفت أنفسنا مما نجد

واستبدت مرة واحدة * انما العاجز من لا يستبد

وان الرشيد لما سمعها قال اي والله اني عاجز حتى بعثوا بأمنال هذه كامن غيرة وسلطوا
عليهم بأس انتقامه نعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال (وأما) ماتمودبه الحكاية من معاورة
الرشيد الحمر واقتران سكره بسكر الندمان فحاش لله ما علمنا عليه من سوء وأين هذا من حال
الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة وما كان عليه من صحابة العلماء
والاولياء ومحاوراته للفضيل بن عياض وابن السكك والعمرى ومكاتبته سفيان الثوري وبكائه
من مواعظهم ودعائه بمكة في طوافه وما كان عليه من العبادة والمحافضة على أوقات الصلوات
وشهود الصبح لاول وقتها (حكى الطبري وغيره) انه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة نافلة وكان
يغزو عاما ويحج عاما ولقد زجر ابن أبي مریم مضحكة في سمره حين تعرض له بمثل ذلك
في الصلاة لماسمعه يقرأ ومالى لأعبد الذي فطرني وقال والله ما أدري لم فاما تمالك الرشيد أن ضحك
ثم التفت اليه مغضبا وقال يا ابن أبي مریم في الصلاة أيضا اياك والقرآن والدين ولك ماشئت

بعدهما وأيضا فقد كان من العلم والسذاجة بمكان لقرب عهده من سلفه المنتحلين لذلك ولم يكن بينه وبين جده أبي جعفر بعيد من انما خلفه غلاما وقد كان أبو جعفر بمكان من العلم والدين قبل الخلافة وبعدها وهو القائل لمالك حين أشار عليه بتأليف الموطأ يأبى لعبد الله انه لم يبق على وجه الأرض أعلم مني ومنك واني قد شغلني الخلافة فضع أنت للناس كتابا يتفقون به يحب فيه رخص ابن عباس وشذائد ابن عمر ووطئه للناس توطئة قال مالك فوالله لقد علمني التصنيف يومئذ ولقد أدركه ابنه المهدي أبو الرشيد هذا وهو يتورع عن كسوة الجديد لعياله من بيت المال ودخل عليه يوما وهو يجلسه يبشر الخياطين في ارقاع الخلقان من ثياب عياله فاستدكف المهدي من ذلك وقال يا أمير المؤمنين على كسوة العيال عامنا هذا من عطائي فقال له لك ذلك ولم يصده عنه ولا سمح بالاتفاق من أموال المسلمين فكيف يليق بالرشيد على قرب العهد من هذا الخليفة وأبوتة وما ربي عليه من أمثال هذه السير في أهل بيته والتخلق بها أن يعاقر الحمر أو يجاهر بها وقد كانت حالة الاشراف من العرب الجاهلية في اجتناب الحمر معلومة ولم يكن الكرم شجرتهم وكان شربها مذمة عند الكثير منهم والرشيد وآبؤه كانوا على شبح من اجتناب المذمومات في دينهم وديارهم والتخلق بالمحامد وأوصاف الكمال ونزعات العرب (وانظر) ماقله الطبري والمسعودي في قصة جبريل بن جحيتشوع الطيب حين أحضر له السمك في مأثته فحماء عنه ثم أمر صاحب المائدة بحمله الى منزله وفطن الرشيد وارتاب به ودس خادمه حتي عاينه يتناوله فاعاد ابن جحيتشوع للاعتذار ثلاث قطع من السمك في ثلاثة أقداح خلط احداها بالاحم المعالج بالتوابل والبقول والبوارد والحلوي وصب على الثانية ماء مثلجا وعلى الثالثة خراصرفا وقال في الاول والثاني هذا طعام أمير المؤمنين ان خلط السمك بغيره أولم يخلطه وقال في الثالث هذا طعام ابن جحيتشوع ودفعها الى صاحب المائدة حتي اذا أتبه الرشيد وأحضره للتوبيخ أحضر الثلاثة الاقداح فوجد صاحب الحمر قد اختلط وأماع وتفتت ووجد الآخري قد فسد او تغيرت رائحتهما فكانت له في ذلك معذرة وتبين من ذلك أن حال الرشيد في اجتناب الحمر كانت معروفة عند بطائنه وأهل مأثته • ولقد ثبت عنه أنه عهد بمحبس أبي نواس لما بلغه من انهما كه في المعاقرة حتي تاب وأقلع وانما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق وقتناويهم فيها معروفة • وأما الحمر الصرفة فلا سبيل الى اتهامه به ولا تقليد الاخبار الواهية فيها فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرما من أكبر الكبائر عند أهل الملة ولقد كان أولئك القوم كلهم بمنجاة من ارتكاب السرف والترفع في ملابسهم وزيتهم وسائر متاولاتهم لما كانوا عليه من خشونة البداوة وسذاجة الدين التي لم يفارقوها بعد فما ظنك بما يخرج عن الاباحة الى الحظر وعن الحلية الى الحرمة ولقد اتفق المؤرخون الطبري والمسعودي وغيرهم على أن جميع من سلف من خلفاء بني أمية وبني العباس

انما كانوا يركبون بالخلية الحليفة من الفضة في المناطق والسيوف واللاجم والسروج وأن أول خليفة أحدث الركوب بحلية الذهب هو المعتز بن المتوكل ثامن الخلفاء بعد الرشيد وهكذا كان حالهم أيضاً في ملابسهم فما ظنك بمشاربهم ويتبين ذلك بأنهم من هذا اذا فهمت طبيعة الدولة في أولها من البداوة والغضاضة كما تشرح في مسائل الكتاب الاول ان شاء الله والله الهادي الى الصواب (ويناسب) هذا أو قريب منه ما ينقلونه كافة عن يحيى بن أكرم قاضي المأمون وصاحبه وانه كان يعاقر المأمون الخمر وانه سكر ليلة مع شربه فدفن في الریحان حتى أفاق وينشدون على لسانه

ياسيدي وأمير الناس كلهم * قد جاز في حكمه من كان يسقيني

اني غفلت عن الساق فيصيرني * كما تراني سليب العقل والدين

وحال ابن أكرم والمأمون في ذلك من حال الرشيد وشرابهم انما كان انبيذ ولم يكن محظوراً عندهم وأما السكر فليس من شأنهم وصحبته للمأمون انما كانت خلة في الدين ولقد ثبت انه كان ينام معه في البيت ونقل من فضائل المأمون وحسن عشرته أنه أتته ذات ليلة عطشان فقام تحسس ويلتمس الاناء مخافة أن يوقظ يحيى بن أكرم وثبت أنهما كانا يصليان الصبح جميعاً فأين هذا من المعاقرة وأيضاً فان يحيى بن أكرم كان من عليّة أهل الحديث وقد أثني عليه الامام أحمد بن حنبل واسماعيل القاضي وخرج عنه الترمذي كتابه الجامع وذكر المزي الحافظ أن البخاري روى عنه في غير الجامع قال قدح فيه قدح في جميعهم وكذلك ما نبذه المجان بالمل الى الغلمان بهتاناً على الله وفرية على العلماء ويستندون في ذلك الى أخبار القصص الواهية التي لعلمها من افتراء أعدائه فانه كان محسوداً في كماله وخلته للسلطان وكان دقائه من العلم والدين منزهاً عن مثل ذلك ولقد ذكر لابن حنبل ما يرميه به الناس فقال سبحانه الله سبحانه الله ومن قول هذا وأنكر ذلك انكاراً شديداً وأثني عليه اسمعيل القاضي فقل له ما كان يقال فيه فقال معاذ الله أن تزول عدالة مثله بتكذب باغ وحاسد وقال أيضاً يحيى بن أكرم أبرأ الى الله من أن يكون فيه شيء مما كان يرمي به من أمر الغلمان ولقد كنت أقف على سرائره فأجدهم شديد الخوف من الله لكنه كانت فيه دعاة وحسن خلق فرمى بما يرمي به وذكروا ابن حبان في الثقات وقال لا يشتغل بما يحكى عنه لان أكثرها لا يصح عنه (ومن أمثال هذه الحكايات) ما نقله ابن عبد ربه صاحب العقد من حديث الزنيل في سبب اصهار المأمون الى الحسن بن سهل في بنته بوران وانه عثر في بعض الليالي في تطوافه بسكك بغداد في زنييل مدلي من بعض السطوح بمعالق وجدل مغارة القتل من الحرير فاعتقده وتناول المعالق فاهترت وذهب به صعدا الى مجلس شأنه كذا ووصف من زينة فرشه وتنضيداً ببنته وجمال رؤيته ما يستوقف الطرف ويملك النفس وأن امرأة برزت له من خلال الستور في ذلك المجلس رائعة الجمال

فتاة المحاسن فحيتة ودعته الى المتادمة فلم يزل يعاقرها الخمر حتى الصباح ورجع الى أصحابه
 بمكانهم من انتظاره وقد شغفته حباً بعته على الاصهار الى أبيها وأين هذا كله من حال المأمون
 المعروفة في دينه وعلمه وأقفاؤه سنن الخلفاء الراشدين من آبائه وأخذه بسير الخلفاء الاربعة
 أركان الملة ومناظرته للعلماء وحفظه لحدود الله تعالى في صلواته وأحكامه فكيف تصح عنه
 أحوال الفساق (١) المستهترين في التطواف بالليل وطروق المنازل وغشيان السمر سبيل عشاق
 الاعراب وأين ذلك من منصب ابنة الحسن بن سهل وشرفها وما كان بدار أبيها من الصون
 والعفاف وأمثال هذه الحكايات كثيرة وفي كتب المؤرخين معروفة وانما يبعث على وضعها
 والحديث بها الانهماك في اللذات المحرمة وهتك فتاح المخدرات ويتعللون بالتأسي بالقوم فيما
 يأتونه من طاعة لذاتهم فلذلك تراهم كثيرا ما يلجئون بأشباه هذه الاخبار وينقرون عنها عند
 تصفحهم لاوراق الدواوين ولو أنشوا بهم في غير هذا من أحوالهم وصفات الكمال اللائقة
 بهم المشهورة عنهم لكان خيرا لهم لو كانوا يعلمون ولقد عدت يوما بعض الامراء من أبناء
 الملوك في كلفه بتعلم الغناء وولوعه بالآوتار وقلت له ليس هذا من شأنك ولا يليق بمنصبك
 فقال لي أفلا ترى الى ابراهيم بن المهدي كيف كان امام هذه الصناعة ورئيس المغنين في زمانه
 فقلت له ياسبحان الله وهلا تأسيت بابيه أو أخيه أو مارأيت كيف قعد ذلك بابراهيم عن
 مناصبهم فصم عن عدلى وأعرض والله يهدي من يشاء (ومن الاخبار الواهية) ما يذهب
 اليه الكثير من المؤرخين والاثبات في العبيديين خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة من فهمهم عن
 أهل البيت صلوات الله عليهم والظعن في نسبهم الى اسمعيل الامام ابن جعفر الصادق يعتمدون
 في ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بني العباس نزلقا اليهم بالقدر فيمن ناصبهم
 توقفنا في الثمات بعدوهم حسبنا نذكر بعض هذه الاحاديث في أخبارهم ويغفلون عن التفتن
 لمشاهد الواقع وأدلة الاحوال التي اقتضت خلاف ذلك من تكذيب دعواهم والرد عليهم
 فانهم متفقون في حديثهم عن مبدا دولة الشيعة أن أبا عبد الله المحتسب لما دعا بكتامة للرضي
 من آل محمد واشتر خبره وعلم تحويمه على عبيد الله المهدي وابنه أبي القاسم خشيما على أنفسهما
 فهربا من المشرق محل الخلافة واجتازا بمصر وأنهما خرجا من الاسكندرية في زى التجار
 ونمى خبرهما الى عيسى النوسري عامل مصر والاسكندرية فسرح في طلبهما الخيالة حتي اذا
 أدركا خفي حالهما على تابعمهما بما لبسوا به من الشارة والزى فافلتوا الى المغرب وان المعتضد أوغر
 الى الاغالبه أمراء أفريقية بالقيروان وبني مدرار أمراء سجلماسة بأخذ الافاق عليهما واذكاء

(١) المستهتر بالشيء بالفتح المولع به لا يبالي بما فعل به وشتمه والذي كثرت بأباطيله اه قاموس

العيون في طلبهما فعثر اليسع صاحب سجنهم من آل مدرار على خفي مكانهما ببلده واعتقاهما
مرضاة للخليفة هذا قبل ان تظهر الشيعة على الاغلبة بالقيروان ثم كان بعد ذلك ما كان من
ظهور دعوتهم بالمغرب وافريقية ثم باليمن ثم بالاسكندرية ثم بمصر والشام والحجاز وقاسموا
بني العباس في ممالك الاسلام شق الابله وكادوا يلجون عليهم مواظهم ويزيلون من أمرهم
واقدر أظهر دعوتهم ببغداد وعراقها الأمير الساسري من موالي الديلم المتغلبين على خلفاء بني العباس
في مغاضبة جرت بينهما وبين أمراء العجم وخطب لهم على منابرها حولاً كالأوما زال بنو العباس
يفضون بمكانهم ودولتهم وملوك بني أمية وراء البحر ينادون بالويل والحرب منهم وكيف يقع
هذا كله لدعي في النسب يكذب في التحال الامر واعتبر حال القرمطي اذ كان دعيا في انتسابه كيف
تلاشت دعوته وتفرقت أتباعه وظهر سريعا على خبيثهم ومكرهم فسأت عاقبتهم وذاقوا وبال
أمرهم ولو كان أمر العبيدين كذلك لعرف ولو بعد مهلة

ومهماتكن عند امري من خليفة * وان خالها تخفى على الناس تعلم

فقد اتصلت دولتهم نحو من مائتين وسبعين سنة وملكوا مقام ابراهيم عليه السلام ومصلاه
وموطن الرسول صلى الله عليه وسلم ومدفنه وموقف الحجيج ومهبط الملائكة ثم انقرض
أمرهم وشيعتهم في ذلك كله على أنهم ما كانوا عليه من الطاعة لهم والحب فيهم واعتقادهم بنسب
الامام اسمعيل بن جعفر الصادق ولقد خرجوا مرارا بعد ذهاب الدولة ودروس أثرها دعين
الى بدعتهم هاتفين بأسماء صبيان من أعقابهم يزعمون استحقاقهم للخلافة ويذهبون الى تعيينهم
بالوصية ممن سلف قبلهم من الاثمة ولو ارتابوا في نسبهم لما ركبوا أعناق الاخطار في الانتصار
لهم فصاحب البدعة لا يابس في أمره ولا يشبه في بدعته ولا يكذب نفسه فيما ينتحله (والعجب)
من القاضي أبي بكر الباقلاني شيخ النظار من المتكلمين يمنح الى هذه المقالة المرجوحة ويرى
هذا الرأي الضعيف فان كان ذلك لما كانوا عليه من الاحاد في الدين والتعمق في الرافضية فليس
ذلك بدافع في صدر دعوتهم وليس إثبات منتسبهم بالذي يغني عنهم من الله شيئا في كفرهم فقد
قال تعالى لنوح عليه السلام في شأن ابنه إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس
لك به علم وقال صلى الله عليه وسلم لفاطمة يعظها يافاطمة إعملي فلن أغني عنك من الله شيئا
ومتى عرف امرؤ قضية أو استيقن أمرا وجب عليه أن يصدع به والله يقول الحق وهو
يهدي السبيل والقوم كانوا في مجال لظنون الدول بهم وتحت رقبة من الطغاة لتوفر شيعتهم
واتشارهم في القاصية بدعوتهم وتكرر خروجهم مرة بعد أخرى فلاذت رجالهم بالاختفاء
ولم يكادوا يعرفون كما قيل

فلو تسأل الايام ما سمي مادرت * وأين مكاني ما عرفن مكانيا

حتى لقد سمي محمد بن اسمعيل الامام جد عبيد الله المهدي بالملكوت سمته بذلك شيعتهم لما اتفقوا عليه من إخفائه حذر امن المتغلبين عليهم فتوصل شيعة بني العباس بذلك عند ظهورهم الى الطعن في نسبهم وازدلفوا بهذا الرأي القائل للمستضعفين من خلفائهم وأعجب به أولياؤهم وأمراء دولتهم المتولون لحروبهم مع الاعداء يدفعون به عن أنفسهم وسلطانهم معرفة العجز عن المقاومة والمدافعة لمن غلبهم على الشام ومصر والحجاز من البربر الكتاميين شيعة العبيديين وأهل دعوتهم حتى لقد أسجل القضاة ببغداد بنفيهم عن هذا النسب وشهد بذلك عندهم من أعلام اناس جماعة منهم الشريف الرضى وأخوه المرتضى وابن البطحاوي ومن العلماء أبو حامد الاسفرايني والقنطوري والصيمري وابن الاكفاني والابوردي وأبو عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة وغيرهم من أعلام الامة ببغداد في يوم مشهود وذلك سنة ستين وأربعمائة في أيام القادر وكانت شهادتهم في ذلك على السماع لما اشتهر وعرف بين الناس ببغداد وغالبها شيعة بني العباس الطاعنون في هذا النسب فنقله الاخباريون كما سمعوه ورووه حبا وعوه والحق من ورائه وفي كتاب المعتضد في شأن عبيد الله الى ابن الاغلب بالقيروان وابن مدرار بسجلماسة أصدق شاهد وأوضح دليل على صحة نسبهم فالمعتضد أقعد بنسب أهل البيت من كل أحد والدولة والسلطان سوق للعالم لمجلب اليه بضائع العلوم والصنائع وتلتبس فيه ضوال الحكم وتحدي اليه ركائب الروايات والاخبار ومانفق فيها نفق عند الكفاية فان تزهرت الدولة عن اتعسف والميل والافن والسفسفة وسلكت النهج الامم ولم تجر (١) عن قصد السبيل نفق في سوقها البريز الخالص واللجين المصفي وان ذهبت مع الاغراض والحقود وماجت بسامرة البني والباطل نفق البهرج والزائف والناقد البصير قسطاس نظره وميزان بحته وملتسمه (ومثل هذا) وأبعد منه كثيرا ما يتناجي به الطاعنون في نسب إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين الامام بعد أبيه بالمغرب الأقصى ويعترضون تعريض الحد بالنظن في الحمل الخلف عن إدريس الأكبر إنه لراشد مولا لهم قبضهم الله وأبعدهم ما أبغاهم أما يعلمون أن إدريس الأكبر كان أصهاره في البربر وانه منذ دخل المغرب الى أن توفاه الله عز وجل عريق في البدو وأن حال البداية في مثل ذلك غير خافية اذ لا مكان لهم يتأني فيها الريب وأحوال حرمهم أجمعين بمراي من جارتهم ومسمع من حيرانهم لتلاصق الجدران وتطامن البنيان وعدم الفواصل بين المساكن وقد كان راشدا يتولى خدمة الحرم أجمع من بعد مولا بمشهد من أوليائهم وشيعتهم ومراقبة من كافتهم وقد اتفق برابرة المغرب الأقصى عامة على يعة إدريس الأصغر من بعد أبيه وآتوه طاعتهم عن رضا ووافقا وبإيعوه على

الموت الاحمر وخاضوا دونه بحار المنيا في حروبه وغزواته ولوحدثوا أنفسهم بمثل هذه الرية أو قربت أسماعهم ولومن عدو كاشح أو منافق مراتب لتخلف عن ذلك ولو بعضهم كلا والله انما صدرت هذه الكلمات من بني العباس أقتالهم ومن بني الاغلب عمالهم كانوا بافريقية وولاتهم وذلك أنه لما فر ادريس الاكبر الى المغرب من وقعة فوخ أو عز الهادي الى الاغلبة أن يقعدوا له بالمرصد ويذكوا عليه العيون فلم يظفروا به وخلص الى المغرب فقم أمره وظهرت دعوته وظهر الرشيد من بعد ذلك على ما كان من واضح مولا لهم وعاملهم على الاسكندرية من دسيسة التشيع للعلوية واذهابه في نجاة ادريس الى المغرب فقتله ودرس الشماخ من موالى المهدي أبيه للتحويل على قتل ادريس فظهر الاحاق به والبراءة من بني العباس مواليه فاشتمل عليه ادريس وخلطه بنفسه وناول الشماخ في بعض خلواته سما استهلكه به ووقع خبر مهلكه من بني العباس أحسن المواقع لما رجوه من قطع أسباب الدعوة العلوية بالمغرب واقتلاع جرنوئمتها ولما تأدى اليهم خبر الحمل المخلف لادريس فلم يكن لهم الا كلا ولا واذا بالدعوة قعدت والشيعه بالمغرب قد ظهرت ودولتهم بادرى ابن ادريس قد مجددت فكان ذلك عليهم أنكى من وقع السهام وكان الفشل والهزم قد نزل بدولة الغرب عن أن يسموا الى القاصية فلم يكن منتهى قدرة الرشيد على ادريس الا كبر بمكانه من قاصية المغرب واشتمال البربر عليه الا التحيل في إهلاكه بالسوموم فمئذ ذلك فرعوا الى أوليائهم من الاغلبة بافريقية في سدتك الفرجة من ناحيتهم وحسم الداء المتوقع بالدولة من قباهم واقتلاع تلك العروق قبل أن تشج منهم يخاطبهم بذلك المأمون ومن بعدهم من خلفائهم فكان الاغلبة عن براية المغرب الأقصى أعجز وملتأ من الذبون على ملوكهم أحوج لما طرق الخلافة من انترء ممالك العجم على سدتها وامتطائهم صهوة التغلب عليها وتصريفهم أحكامها طوع أغراضهم في رجالها وجبايتها وأهل خططها وسائر نقضها وبراها كما قال شاعرهم

خليفة في قفص * بين وصيف وبغا يقول ما قال له * كما تقول البيغا

نخشى هؤلاء الامراء الاغلبة بوادر السعايات وتلوا بالمعاذير فطورا باحتقار المغرب وأهله وطورا بالارهاب بشأن ادريس الخارج به ومن قام مقامه من أعقابيه يخاطبونهم بتجاوز حدود التخوم من عملا وينفذون سكتته في تحفهم وهداياهم ومرتفع جباياتهم تعريضا باستفحالته وتهويلا بأشداد شوكرته وتعظيما لما دفعوا اليه من مطالبته ومراسه وتهديدا بقلب الدعوة أن ألجؤا اليه وطورا يطعنون في نسب ادريس بمثل ذلك الطعن الكاذب تخفيفا للشأنه لا يبالون بصدقه من كذبه لبعده المسافة وأفن عقول من خلف من صبية بني العباس ومماليكهم العجم في القبول من كل قائل والسمع لكل ناعق ولم يزل هذا دأبهم حتى انقضى أمر الاغلبة ففرغت هذه الكلمة الشنعاء أسماع الغوغاء وصر عليها بعض الطاعنين أذنه واعتدها ذريعة الى النيل من خلفهم عند المنافسة ومالهم

قبحهم الله والعدول عن مقاصد الشريعة فلا تعارض فيها بين المقطوع والمظنون وادريس ولد على فراش أبيه والولد للفراش على أن تنزيه أهل البيت عن مثل هذا من عقائد أهل الايمان فالله سبحانه قد أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ففراش ادريس طاهر من الدنس ومنزه عن الرجس بحكم القرآن ومن اعتقد خلاف هذا فقد باء بائمه ووج الكفر عن بابه وانما أظنبت في هذا الرسد لآبواب الريب ودفعاً في صدر الحاسد لما سمعته أذناي من قائله المعتدي عليهم به القادح في نسبهم بقريته وينقله بزعمه عن بض مؤرخي المغرب ممن انحرف عن أهل البيت وارتاب في الايمان بسلفهم والافالحل منزعه عن ذلك معصوم منه وفي العيب حيث يستحيل العيب عيب لكفي جادلت عنهم في الحياة الدنيا وأرجو أن يجادلوا عني يوم القيامة (ولتعلم) ان أكثر الطاعنين في نسبهم انما هم الحسدة لعقاب ادريس هذا من منتم الى أهل البيت أو دخيل فيهم فان ادعاء هذا النسب الكريم دعوي شرف عريض على الامم والاحياء من أهل الآفاق فتعرض التهمة فيه ولما كان نسب بني ادريس هؤلاء بمواطنهم من فاس وسائر ديار المغرب قد بلغ من الشهرة والوضوح مبلغاً لا يكاد ياحق ولا يطمع أحد في دركه اذ هو نقل الامة والحيل من الخائف عن الامة والحيل من الساف وبيت جدهم ادريس مخطط فاس ومؤسسا بين بيوتهم ومسجده اصق محاتم ودروبهم وسيفه منتضى برأس المأذنة العظمى من قرار بلدهم وغير ذلك من آثاره التي جاوزت أخبارها حدود التواتر مرات وكادت تلحق بالعيان فاذا نظر غيرهم من أهل هذا النسب الى ما آتاهم الله من أمثالها وما عضد شرفهم النبوي من جلال الملك الذي كان لسلفهم بالمغرب واستيقن انه بمنزل عن ذلك وأنه لا يبلغ مد أحدهم ولا يضيفه وأن غاية أمر المتممين الى البيت الكريم ممن لم يحصل له أمثال هذه الشواهد أن يسلم لهم حالهم لأن الناس مصدقون في أنسابهم وبون ما بين العلم والظن واليقين والتسليم فاذا علم ذلك من نفسه غص بريقه وود كثير منهم لو يردونهم عن شرفهم ذلك سوقة ووضعاء حسداً من عند أنفسهم فيرجعون الى العناد وارتكاب اللجاج والبهت بمنزل هذا الطعن الفائل والقول المكذوب تعالاً بالمساواة في الظنة والمشابهة في تطرق الاحتمال وهيئات لهم ذلك فليس في المغرب فيما نعلمه من أهل هذا البيت الكريم من يبلغ في صراحة نسبه ووضوحه مبالغ أعقاب ادريس هذا من آل الحسن وكبرائهم لهذا العهد بنو عمران بفاس من ولد يحيى الجوطي بن محمد بن يحيى العوام بن القاسم بن ادريس بن ادريس وهم ثقباء أهل البيت هناك والساكنون ببيت جدهم ادريس واهم السيادة على أهل المغرب كافة حسبما نذكرهم عند ذكر الادارسة ان شاء الله تعالى (وياحق) بهذه المقالات الفاسدة والمذاهب الفائلة ما يتناولوه ضعفه الرأي من فقهاء المغرب من القدح في الامام المهدي صاحب دولة الموحدين ونسبته الى الشعوذة والتليس فيما آتاه من

القيام بالتوحيد الحق والنبي على أهل النبي قبله وتكذيبهم لجميع مدعياته في ذلك حتى فيما يزعم الموحدون أتباعه من انتسابه في أهل البيت وإنما حمل الفقهاء على تكذيبه ما كان في نفوسهم من حسده على شأنه فانهم لما رأوا من أنفسهم مناهضته في العلم والفتيا وفي الدين بزعمهم ثم امتاز عنهم بأنه متبوع الرأي مسموع القول موطأ العقب تقموا ذلك عليه وغضوا منه بالقدح في مذاهبه والتكذيب لمدعياته وأيضاً فكانوا يؤنسونه من ملوك لمتونة أعدائه تحلة وكرامة لم تكن لهم من غيرهم لما كانوا عليه من السذاجة وانتحال الديانة فكان لجملة العلم بدولتهم مكان من الوجاهة والانتصاب للشورى كل في بلده وعلى قدره في قومه فاصبحوا بذلك شيعة لهم وحرابا لعدوهم وتقموا على المهدي ماجاء به من خلافهم والتثريب عليهم والمناسبة لهم تشيعاً لامتونة وتصبا لدولتهم ومكان الرجل غير مكانهم وحاله على غير معتقداتهم وما ظنك برجل نقم على أهل الدولة مانقهم من أحوالهم وخالف اجتهاده فقهاءهم فنأدى في قومه ودعا الى جهادهم بنفسه فاقبلع الدولة من اصولها وجعل عاليها سافلها أعظم ما كانت قوة وأشد شوكة وأعز أنصاراً وحامية وتساقطت في ذلك من أتباعه نفوس لا يحصيها الا خلقها قد بايعوه على الموت ووقوه بأنفسهم من الهلكة وتقربوا الى الله تعالى باتلاف مهجهم في اظهار تلك الدعوة والتعصب لتلك الكلمة حتى علت على الكلم ودالت بالعدوتين من الدول وهو بحالة من التقشف والحصر والصبر على المكاره والتقلل من الدنيا حتى قبضه الله و ليس على شيء من الحظ والمتاع في دنياه حتى الولد الذي ربما تخرج اليه النفوس وتحادع عن تمنيه فليت شعري ما الذي قصد بذلك ان لم يكن وجه الله وهو لم يحصل له حظ من الدنيا في عاجله ومع هذا فلو كان قصده غير صالح لما تم أمره وانفسحت دعوته سنة الله التي قد خلت في عبادته (وأما) انكارهم نسبه في أهل البيت فلا تعضده حجة لهم مع أنه ان ثبت أنه ادعاه وانتسب اليه فلا دليل يقوم على بطلانه لأن الناس مصدقون في أنسابهم وان قالوا ان الرياسة لا تكون على قوم في غير أهل جلدتهم كما هو الصحيح حسبما يأتي في الفصل الأول من هذا الكتاب والرجل قد رأس سائر المصامدة ودانوا باتباعه والانقياد اليه والى عصابته من هرغة حتى تم أمر الله في دعوته فاعلم ان هذا النسب الفاطمي لم يكن أمر المهدي يتوقف عليه ولا تبعه الناس بسببه وإنما كان أتباعهم له بصبيبة الهرقية والمصمودية ومكانه منها ورسوخ شجرته فيها وكان ذلك النسب الفاطمي خفياً قد درس عند الناس وبقي عنده وعند عشيرته يتناقلونه بينهم فيكون النسب الأول كأنه انسلخ منه ولبس جلدة هؤلاء وظهر فيها فلا يضره الانتساب الأول في عصبيته اذ هو مجهول عند أهل النصابة ومثل هذا واقع كثيراً اذ كان النسب الاول خفياً (وانظر) قصة عرفة وجرير في رياسة بحيلة وكيف كان عرفة من الازد ولبس جلدة بحيلة حتى تنازع مع جرير رياستهم عند عمر رضي الله عنه كما هو مذکور

تفهّم منه وجه الحق والله الهادي للصواب (وقد) كدنا أن نخرج عن غرض الكتاب بالاطّباب
في هذه المغالط فقد زلت أقدام كثير من الاتّبات والمؤرخين الحفّاظ في مثل هذه الاحاديث والآراء
وعلقت بأفكارهم ونقاهم عنهم الكافة من ضعفة النظر والغفلة عن القياس وتلقوهاهم أيضاً كذلك
من غير بحث ولا روية واندرجت في محفوظاتهم حتي صار فن التاريخ واهيا مختلطاً وناظره مرتبكا
وعد من مناحي العامة فاذا محتاج صاحب هذا الفن الى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات
واختلاف الامم والبقاع والاعصار في السير والاخلاق والعوائد والتجل والمذاهب وسائر
الاحوال والاخاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بون ما بينهما
من الخلاف وتعايل المتفق منها والمختلف والقيام على أصول الدول والملل ومبادي ظهورها
واسباب حدوثها ودواعي كونها واحوال القائمين بها واخبارهم حتي يكون مستوعباً لاسباب
كل حادث واقفاً على أصول كل خبر وحينئذ يعرض خبر المتقول على ما عنده من القواعد
والاصول فان وافقها وجري علي مقتضاها كان صحيحاً والاّزيغه واستغني عنه وما استكبر
القدماء علم التاريخ الا لذلك حتي اتّحله الطبري والبخاري وابن اسحق من قبلهما وأمثالهم
من علماء الامة وقد ذهّل الكثير عن هذا السر فيه حتي صار اتّحاله بمجهلة واستخفّ العوام
ومن لارسوخ له في المعارف مطالعته وحمله والحوّض فيه والتطفل عليه فاختلط المرعي بالهمل
واللباب بالقشر والصادق بالكاذب والى الله عاقبة الامور (ومن الغلط) الخفي في التاريخ
الذهول عن تبدل الاحوال في الامم والاحيال بتبدل الاعصار ومرور الايام وهو داء دوي
شديد الخفاء اذ لا يقع الا بعد أحقاب متطاولة فلا يكاد يتفطن له الا الآحاد من أهل الخليفة
(وذلك) أن أحوال العالم والامم وعوائدهم ونحاهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنها مستقرانما
هو اختلاف على الايام والازمنة والانتقال من حال الى حال وكما يكون ذلك في الاشخاص والاوقات
والامصار فكذلك يقع في الآفاق والاقطار والازمنة والدول سنة الله التي قد خلت في عبادته وقد
كانت في العالم أمّ الفرس الاولى والسرانيون والنبط والتبابعة وبنو اسرائيل والقبط وكانوا على
أحوال خاصة في دولهم وممالكهم وسياساتهم وصنائعهم ولغاتهم واصطلاحاتهم وسائر مشاركاتهم مع
أبناء جنسهم واحوال اعمارهم للعالم تشهد بها آثارهم ثم جاء من بعدهم الفرس الثانية والروم
والعرب فتبدلت تلك الاحوال وانقلبت بها العوائد الى ما يجانسها أو يشابهها والى ما
يباينها أو يباعدها ثم جاء الاسلام بدولة مضرت فانقلبت تلك الاحوال أجمع انقلاباً أخري وصارت
الى ما أكثره متعارف لهذا العهد يأخذه الخلف عن السلف ثم درست دولة العرب وأيامهم
وذهبت الاسلاف الذين شيّدوا عزهم ومهدوا ملكهم وصار الامر في أيدي سواهم من العجم
مثل الترك بالمشرق والبربر بالمغرب والفرنجية بالشمال فذهبت بذهاهم أم وانقلبت أحوال وعوائد

نسى شأنها وأغفل أمرها (والسبب) الشائع في تبدل الاحوال والعوائد أن عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه كما يقال في الامثال الحكيمية الناس على دين الملك وأهل الملك والسلطان اذا استولوا على الدولة والامر فلا بد وأن يفرغوا الى عوائد من قبلهم ويأخذوا الكثير منها ولا يغفلوا عوائد جيلهم مع ذلك فيقع في عوائد الدولة بعض المخالفة لعوائد الجيل الاول فاذا جاءت دولة أخرى من بعدهم ومزجت من عوائدهم وعوائدها خالفت أيضاً بعض الشيء وكانت الاولى أشد مخالفة ثم لا يزال التدرج في المخالفة حتى ينتهي الى المباعدة بالجملة فما دامت الأمم والاحياء تتعاقب في الملك والسلطان لا تزال المخالفة في العوائد والاحوال واقصة والقياس والمحاكاة للانسان طبيعة معروفة ومن الغلط غير مأمونة تخرجه مع الزهول والغفلة عن قصده وتعوج به عن مرامه فربما يسمع السامع كثيراً من أخبار الماضين ولا يتفطن لما وقع من تغير الاحوال وانقلابها فيجريها لاول وهلة على ما عرف ويقيسها بما شهد وقد يكون الفرق بينهما كثيراً فيقع في مهواة من الغلط (فن هذا الباب) ما ينقله المؤرخون من أحوال الحجاج وأن أباه كان من المعلمين مع أن التعليم لهذا العهد من جملة الصنائع المعاشية البعيدة من اعتزاز أهل العصية والمعلم مستضعف مسكين منقطع الجذم (١) فيتشوف الكثير من المستضعفين أهل الحرف والصنائع المعاشية الى نيل الرتب التي ليسوا لها بأهل ويعدونها من الممكنات لهم فتذهب بهم وساوس المطامع وربما انتطع حبها من أيديهم فسقطوا في مهواة الهلكة والتلف ولا يعلمون استحالتها في حقهم وانهم أهل حرف وصنائع للمعاش وأن التعليم صدر الاسلام والدولتين لم يكن كذلك ولم يكن العلم بالجملة صناعة انما كان نقلاً ما سمع من الشارع وتعلماً لما جهل من الدين على جهة البلاغ فكان أهل الانساب والعصية الذين قاموا بالملة هم الذين يعلمون كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم على معنى التبليغ الخبري لاعلى وجه التعليم الصناعي اذ هو كتابهم المنزل على الرسول منهم وبه هدايتهم والاسلام دينهم قاتلوا عليه وقتلوا واختصوا به من بين الامم وشرفوا فيجرحون على تبليغ ذلك وتفهمه للامة لاتصددهم عنه لائمة الكبر ولا يزعمهم عاذل الانفة ويشهد لذلك بعث النبي صلى الله عليه وسلم كبار أصحابه مع وفود العرب يعلمونهم حدود الاسلام وما جاء به من شرائع الدين بعث في ذلك من أصحابه العشرة فمن بعدهم فلما استقر الاسلام ووشجت عروق الملة حتى تناولها الامم البعيدة من أيدي أهلها واستحالت بمرور الايام أحوالها وكثرت استنباط الاحكام الشرعية من النصوص لتعدد الوقائع وتلاحقها فاحتاج ذلك لقانون يحفظه من الخطأ وصار العلم ملكة يحتاج الى التعلم فأصبح من جملة الصنائع والحرف كما يأتي ذكره في

فصل العلم والتعليم واشتغل أهل العصبية بالقيام بالملك والسلطان فدفع العلم من قام به من سواهم وأصبح حرفة للمعاش وشمخت أنوف المترفين وأهل السلطان عن التصدى للتعليم واختص اتخاله بالمستضعفين وصار منتحله محتقرا عند أهل العصبية والملك والحجاج بن يوسف كان أبوه من سادات ثقيف وأشرفهم ومكانهم من عصبية العرب ومناهضة قريش في الشرف ما علمت ولم يكن تعليمه للقرآن على ما هو الأمر عليه لهذا العهد من أنه حرفة للمعاش وإنما كان على ما وصفناه من الأمر الأول في الاسلام (ومن هذا الباب أيضاً) ما تروهمه المتصفحون لكتب التاريخ اذا سمعوا أحوال القضاة وما كانوا عليه من الرياسة في الحروب وقود العساكر فترامى بهم وسأوس الهمم الى مثل تلك الرتب يحسبون أن الشأن في خطة القضاء لهذا العهد على ما كان عليه من قبل ويظنون بأن أبي عامر صاحب هشام المستبد عليه وابن عباد من ملوك الطوائف باشيلية اذا سمعوا أن آباءهم كانوا قضاة أنهم مثل القضاة لهذا العهد ولا يفتقنون لما وقع في رتبة القضاء من مخالفة العوائد كما نينه في فصل القضاء من الكتاب الأول وابن أبي عامر وابن عباد كانا من قبائل العرب القائمين بالدولة الاموية بالاندلس وأهل عصبيتها وكان مكانهم فيها معلوما ولم يكن نيلهم لما نالوه من الرياسة والملك بخطة القضاء كما هي لهذا العهد بل إنما كان القضاء في الأمر القديم لاهل (١) العصبية من قبيل الدولة ومواليها كما هي الوزارة لهذا العهدنا بالانغرب وانظر خروجهم بالعساكر في الطوائف وتقليدهم عظام الأمور التي لا تقلد الا من له الغنى فيها بالعصبية فيغلط السامع في ذلك ويحمل الأحوال على غير ما هي واكثر ما يقع في هذا الغلط ضعف البصائر من اهل الاندلس لهذا العهد لفقدان العصبية في مواطنهم منذ اعصار بعيدة لفناء العرب ودولتهم بها وخروجهم عن ملكة اهل العصبية من البربر فبقيت

(١) العصبية بفتح الحين التعصب وهو أن يذب الرجل عن حريم صاحبه ويشمر عن ساق الجد في نصره منسوبة الى العصبية محرركة وهم أقارب الرجل من قبل أبيه لانهم هم الذابون عن حريم من هو منتهاهم وهي بهذا المعنى ممدوحة واما العصبية المذمومة في حديث الجامع الصغير ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية فهي تعصب رجال لقبيلة على رجال قبيلة أخرى لغير ديانة كما كان يقع من قيام سعد على حرام نسبة الى العصبية بمعنى قوم الرجل الذين يتعصبون له ولو من غير اقاربه ظالما كان او مظلوما وفي الفتاوي الحيرية من موانع قبول الشهادة العصبية وهي ان يبغض الرجل الرجل لانه من بني فلان او من قبيلة كذا والوجه في ذلك ظاهر وهو ارتكاب المحرم في الحديث ليس منا من دعا الى عصبية وهو موجب للفسق ولا شهادة لمرتكبه قاله الاستاذ ابو الوفاء اه

انسابهم العربية محفوظة والذريعة الى العز من العصبية والتناصر مفقودة بل صاروا من جملة
الرايا المتخاذلين الذين تعبدهم القهر ورثوا للمذلة يحسبون ان انسابهم مع مخالطة الدولة
هي التي يكون لهم بها التغلب واتحكم فتجد اهل الحرف والصنائع منهم متصددين لذلك
ساعين في نيله فاما من بشر احوال القبائل والعصبية ودولهم بالعدوة الغربية وكيف يكون
التغلب بين الامم والعشائر فقاما يغلطون في ذلك ويخطئون في اعتباره (ومن هذا الباب)
ايضاً ما يسلكه المؤرخون عند ذكر الدول ونسق ملوكها فيذكرون اسمه ونسبه واباه
وامه ونسائه ولقبه وخاتمه وقاضيه وحاجبه ووزيره كل ذلك تقليد لمؤرخي الدولتين من غير
تقطن لمقاصدهم والمؤرخون لذلك العهد كانوا يضعون تواريحهم لاهل الدولة وابنائها متشفون
الى سير اسلافهم ومعرفة احوالهم ليقفوا آثارهم وينسجوا على منوالهم حتى في اصطناع الرجال
من خلف دولتهم وتقاليدهم والخطط والمراتب لابناء صنائعهم وذوهم والقضاة ايضاً كانوا من
أهل عصبية الدولة وفي عداد الوزراء كما ذكرناه لك فيحتاجون الى ذكر ذلك كله وأما
حين تباينت الدول وتباعد ما بين العصور ووقف الغرض على معرفة الملوك بانفسهم خاصة
ونسب الدول بعضها من بعض في قوتها وغلبتها ومن كان يناهضها من الامم أو يقصر عنها فما
الفائدة للمصنف في هذا العهد في ذكر الابناء والنساء ونقش الخاتم والقب والقاضي والوزير
والحاجب من دولة قديمة لا يعرف فيها أصولهم ولا أنسابهم ولا مقاماتهم انما حملهم على ذلك
التقليد والغفلة عن مقاصد المؤلفين الاتقنين والذهول عن محري الاغراض من التاريخ اللهم
الا ذكر الوزراء الذين عظمت آثارهم وعفت على الملوك أخبارهم كالحجاج وبني المهلب
والبرامكة وبني سهل بن نوبخت وكافور الاخشيدي وابن أبي عامر وأمثالهم فغير نكير الاماع
بآبائهم والاشارة الى احوالهم لانتظامهم في عداد الملوك (ولنذكر) هنا فائدة نحم كلامنا في
هذا الفصل بها وهي أن التاريخ انما هو ذكر الاخبار الخاصة بعصر أو جيل (فاما) ذكر
الاحوال العامة للآفاق والاحيال والاعصار فهو أس للمؤرخ تنبني عليه أكثر مقاصده
وتبين به أخباره وقد كان الناس يفرّدونه بالتأليف كما فعله المسعودي في كتاب مروج الذهب
شرح فيه أحوال الامم والآفاق لعهد في عصر الثلاثين والثمانمائة غرباً وشرقاً وذكر نحلهم
وعوائدهم ووصف البلدان والحيال والبحار والممالك والدول وفرق شعوب العرب والعجم
فصار إماماً للمؤرخين يرجعون اليه وأصلاً يعولون في تحقيق الكثير من أخبارهم عليه ثم جاء
البكري من بعده ففعل مثل ذلك في المسالك والممالك خاصة دون غيرها من الاحوال لان
الامم والاحيال لعهد لم يقع فيها كثير انتقال ولا عظيم تغير وأما لهذا العهد وهو آخر المائة
الثامنة فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدلت بالجملة واعتاض من أحيال

البربر أهله على القدم بمن طراً فيه من لدن المائة الخامسة من أجيال العرب بما كسروهم
وغلبوهم وانتزعوا منهم عامة الاوطان وشاركوهم فيما بقي من البلدان للمكهم هذا الى منازل
بالعمران شرقاً وغرباً في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الامم
وذهب باهل الحيل وطوى كثيراً من محاسن العمران ومحايها وجاء للدول على حين هرمها
وبلوغ الغاية من مداها فقلص من ظلالها وفل من حدها وأوهن من سلطانها وتداغت الى
التلاشي والاضمحلال أحوالها وانتقص عمران الارض بانتقص البشر فخربت الامصار
والمصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل
السكان وكأني بالمشرق قد نزل به مثل منازل بالمغرب لكن على نسبه ومقدار عمرانه وكأنا
نادى لسان الكون في العالم بالتحول والانتقاض فبادر بالاجابة والله وارث الارض ومن عليها
واذا تبدلت الاحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره وكأنه خلق
جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة والآفاق
وأجيالها والعوائد والنحل التي تبدلت لاهلها ويقفو مسلك المسعودي لبعصره ليكون أصلاً
يقتي به من يأتي من المؤرخين من بعده (وأنا ذاكر) في كتابي هذا ما أكنني منه في
هذا القطر المغربي امامي أومندرجاً في أخباره وتوليحاً لاختصاص قصدي في التأليف بالمغرب
وأحوال أجياله وأمه وذاكر مملكه ودوله دون ماسواه من الانتظار لعدم اطلاعي على
أحوال المشرق وأمه وان الاخبار المتناقلة لاتوفي كنه ما أريده منه والمسعودي انما استوفى
ذلك لبعده رحلته وتقلبه في البلاد كما ذكر في كتابه مع أنه لما ذكر المغرب قصر في استيفاء
أحواله وفوق كل ذي علم عليم ومرد العلم كله الى الله والبشر عاجز قاصر والاعتراف متعين
واجب ومن كان الله في عون تيسرت عليه المذاهب وأنجحت له المساعي والمطالب (ونحن)
آخذون بعون الله فيما رمناه من اغراض التأليف والله المسدد والمعين وعليه التكلان (وقد)
بقي علينا أن تقدم مقدمة في كيفية وضع الحروف التي ليست من لغات العرب اذا عرضت في
كتابنا هذا (اعلم) أن الحروف في النطق كما يأتي شرحه بعد هي كيفيات الاصوات الخارجة
من الحنجرة تعرض من تقطيع الصوت بقرع اللهاة وأطراف اللسان مع الحنك والحاق
والاضراس أو بقرع الشفتين أيضاً فتغاير كيفيات الاصوات بتغاير ذلك القرع وتجي الحروف
متميزة في السمع وتتركب منها الكلمات الدالة على مافي الضمائر وليست الامم كلها متساوية في
النطق بتلك الحروف فقد يكون لأمة من الحروف ما ليس لأمة أخرى والحروف التي نطقت
بها العرب هي ثمانية وعشرون حرفاً كما عرفت ونجد للعبرانيين حروفاً ليست في لغتنا وفي
لغتنا أيضاً حروف ليست في لغتهم وكذلك الافرنج والترك والبربر وغير هؤلاء من المعجم ثم

ان أهل الكتاب من العرب اصطلاحوا في الدلالة على حروفهم المسموعة باوضاع حروف مكتوبة متميزة باشخاصها كوضع ألف وباء وجيم وراء وطاء الى آخر الثمانية والعشرين واذا عرض لهم الحرف الذي ليس من حروف لغتهم بقي مهملا عن الدلالة الكتابية مغفلا عن البيان وربما يرسمه بعض الكتاب بشكل الحرف الذي يليه من لغتنا قبله أو بعده وليس ذلك بكاف في الدلالة بل هو تغيير للحرف من أصله * ولما كان كتابنا مشتتلا على أخبار البربر وبعض العجم وكانت تعرض لنا في أسمائهم أو بعض كلماتهم حروف ليست من لغة كتابتنا ولا اصطلاح أوضاعنا اضطررنا الى بيانه ولم نكتف برسم الحرف الذي يليه كما قلناه لانه عندنا غير واف بالدلالة عليه فاصطاحنا في كتابي هذا على أن أضع ذلك الحرف العجمي بما يدل على الحرفين اللذين يكتنفانه ليتوسط القاري بالنطق به بين مخرجي ذينك الحرفين فتحصل تأديته وانما اقتبست ذلك من رسم أهل المصحف حروف الاشمام كالصراط في قراءة خلف فان انطق بصاده فيها معجم متوسط بين الصاد والزاي فوضعوا الصاد ورسموا في داخلها شكل الزاي ودل ذلك عندهم على التوسط بين الحرفين فكذلك رسمت أنا كل حرف يتوسط بين حرفين من حروفنا كالكاف المتوسطة عند البربر بين الكاف الصريحة عندنا والجيم أو القاف مثل اسم بليكن فأضعا كائناً وأقطعا بنقطة الجيم واحدة من أسفل أو بنقطة القاف واحدة من فوق أو ثنتين فيدل ذلك على أنه متوسط بين الكاف والجيم أو القاف وهذا الحرف أكثر ما يجيء في لغة البربر وما جاء من غيره فعلى هذا القياس أضع الحرف المتوسط بين حرفين من لغتنا بالحرفين معا ليعلم القارئ أنه متوسط فينطق به كذلك فتكون قد دللنا عليه ولو وضعناه برسم الحرف الواحد عن جانبيه لكننا قد صرفناه من مخرجه الى مخرج الحرف الذي من لغتنا وغيرنا لغة القوم فاعلم ذلك والله الموفق للصواب بمنه وفضله

الكتاب الاول في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والاسباب

(اعلم) أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتها وما يتجمله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الاحوال * ولما كان الكذب متطرقا للخبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه فيها التشبهات

للآراء والمذاهب فإن النفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمهيص والنظر حتى تبين صدقه من كذبه وإذا خامرها تشيع لرأي أو نحوه قبلت ما يوافقه من الاخبار لأول وهلة وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الاستقاد والتمهيص فتقع في قبول الكذب ونقله * ومن الاسباب المقتضية للكذب في الاخبار أيضاً الثقة بالناقلين وتمهيص ذلك يرجع الى التعديل والتجريح (ومنها) الذهول عن المقاصد فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عين أو سمع وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب (ومنها) توهم الصدق وهو كثير وإنما يحى في الاكثر من جهة الثقة بالناقلين (ومنها) الجهل بتطبيق الاحوال على الوقائع لاجل ما يداخها من التليس والتضع فينقلها الخبر كما رآها وهي بالنسبة على غير الحق في نفسه (ومنها) تقرب الناس في الاكثر لاصحاب التجارة والمراتب بالثناء والمدح وتمهين الاحوال واشاعة الذكر بذلك فيستفيض الاخبار بها على غير حقيقة فالنفوس مولعة بحب الثناء والناس متطلعون الى الدنيا واسبابها من جاه أو ثروة وليسوا في الاكثر براغبين في الفضائل ولا متنافسين في أهلها * ومن الاسباب المقتضية له أيضاً وهي سابقة على جميع ما تقدم الجهل بطبائع الاحوال في العمران فان كل حادث من الحوادث ذاتا كان أو فعلا لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض له من أحواله فاذا كان السامع عارفاً بطبائع الحوادث والاحوال في الوجود ومقتضياتها أعانه ذلك في تمهيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب وهذا أبلغ في التمهيص من كل وجه يعرض وكثيراً ما يعرض للسامعين قبول الاخبار المستحيلة وينقلونها وتؤثر عنهم كما نقله المسعودي عن الاسكندر لما صدته دواب البحر عن بناء الاسكندرية وكيف اتخذ تابوت الخشب وفي باطنه صندوق الزجاج وغاص فيه الى قعر البحر حتى كتب صور تلك الدواب الشيطانية التي رآها وعمل تماثيلها من أجساد معدنية ونصها حذاء البنيان ففرت تلك الدواب حين خرجت وعابتها وتم له بناؤها في حكاية طويلة من أحاديث خرافة مستحيلة من قبل اتخاذه التابوت الزجاج ومصادمة البحر وأما وجه مجرمة ومن قيل أن الملوك لا تحمل أنفسهم على مثل هذا الغرر ومن اعتمده منهم فقد عرض نفسه للهلكة وانتقاض العقدة واجتماع الناس الى غيره وفي ذلك اتلافه ولا يتظرون به رجوعه من غروره ذلك طرفة عين ومن قيل أن الجن لا يعرف لها صور ولا تماثيل تختص بها انما هي قادرة على التشكل وما يذكر من كثرة الرؤس لها فانما المراد به البشاعة والتهويل لأنه حقيقة (وهذه) كلها قاذحة في تلك الحكاية والقادح الخيل لها من طريق الوجود أبين من هذا كله وهو أن المنغمس في الماء ولو كان في الصندوق يضيق عليه الهواء للتنفس الطبيعي وتسخن روحه بسرعة تقلبه فيفقد صاحبه الهواء البارد المعدل لمزاج الرئة والروح القلبي ويهلك مكانه

وهذا هو السبب في هلاك أهل الحمامات اذا أطبقت عليهم عن الهواء البارد والمتدلين في الآبار والمطامير العميقة المهيوى اذا سخن هواؤها بالعفونة ولم تدخلها الرياح فتدخلها فان المتدلي فيها يهلك لحينه وبهذا السبب يكون موت الحوت اذا فارق البحر فان الهواء لا يكفيه في تعديل رثته اذ هو حار بافراط والماء الذي يعدله بارد والهواء الذي خرج اليه حار فيستولى الحار على روحه الحيواني ويهلك دفعة ومنه هلاك المصعوقين وأمثال ذلك (ومن الاخبار) المستحيلة ما نقله المسعودي أيضاً في تمثال الزر زور الذي برومة تجتمع اليه الزرازير في يوم معلوم من السنة حاملة للزيتون ومنه يتخذون زيتهم وانظر ما أبعد ذلك عن الجري الطبيعي في اتخاذ الزيت (ومنها) ما نقله البكري في بناء المدينة المسماة ذات الابواب تحيط بأكثر من ثلاثين مرحلة وتشتمل على عشرة آلاف باب والمدن انما اتخذت للتحصن والاعتصام كما يأتي وهذه خرجت عن أن يحاط بها فلا يكون فيها حصن ولا معصم وكما نقله المسعودي أيضاً في حديث مدينة النحاس وانما مدينة كل بناء نحاس بصحراء سجلماسة ظفر بها موسى بن نصير في غزوة الى المغرب وانما مغلقة الابواب وان الصاعد اليها من أسوارها اذا أشرف على الحائط صفق ورمي بنفسه فلا يرجع آخر الدهر في حديث مستحيل عادة من خرافات القصاص وصحراء سجلماسة قد نفذها الركاب والادلاء ولم يقفوا هذه المدينة على خبر ثم ان هذه الاحوال التي ذكروا عنها كلها مستحيل عادة مناف للامور الطبيعية في بناء المدن واختطاطها وان المعادن غاية الوجود منها أن يصرف في الآنية (١) والحرفي وأما تشييد مدينة منها فكما تراه من الاستحالة والبعد وأمثال ذلك كثير وتمجيده انما هو بمعرفة طبائع العمران وهو أحسن الوجوه وأوثقها في تمحيص الاخبار وتمييز صدقها من كذبها وهو سابق على التمهيص بتعديل الرواة ولا يرجع الى تعديل الرواة حتى يعلم أن ذلك الخبر في نفسه ممكن أو متمنع وأما اذا كان مستحيلاً فلا فائدة للنظر في التعديل والتجريح ولقد عدا أهل النظر من المطاعن في الخبر استحالة مدلول اللفظ وتأويله أن يؤول بما لا يقبله العقل وانما كان التعديل والتجريح هو المعبر في صحة الاخبار الشرعية لان معظمها تكاليف انشائية أوجب الشارع العمل بها حتى حصل الظن بصدقها وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة بالعدالة والضبط (وأما الاخبار) عن الوقائع فلا بد في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة فذلك وجب أن ينظر في امكان وقوعه وصار فيها ذلك أهم من التعديل ومقدماً عليه اذ فائدة الانشاء مقتبسة منه فقط وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة واذا كان ذلك فالتقانون في تمييز الحق من الباطل في الاخبار بالامكان والاستحالة

أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ونميز ما يلحقه من الاحوال لذاته وبمقتضى طبعه وما يكون عارضا لا يتدبه وما لا يمكن أن يعرض له واذا فعلمنا ذلك كان ذلك لنا قانونا في تمييز الحق من الباطل في الاخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه وحينئذ فاذا سمعنا عن شيء من الاحوال الواقعة في العمران علمنا منحكم بقبوله مما يحكم بتزييفه وكان ذلك لنا معيارا صحيحا يجري به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه وهذا هو غرض هذا الكتاب الاول من تأليفنا وكان هذا علم مستقل بنفسه فانه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الانساني وذو مسائل وهي بيان ما يلحقه من العوارض والاحوال لذاته واحدة بعد أخرى وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيا كان أو عقليا (واعلم) أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة غزير الفائدة أعتز عليه البحث وأدي اليه الغوص وليس من علم الخطابة الذي هو أحد العلوم المنطقية فان موضوع الخطابة انما هو الاقوال المقنعة النافعة في استمالة الجمهور الى رأى أو صدهم عنه ولا هو أيضاً من علم السياسة المدنية اذ السياسة المدنية هي تدبير المنزل أو المدينة بما يجب بمقتضى الاخلاق والحكمة ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه فقد خالف موضوعه موضوع هذين الفين الذين ربما يشبهانه وكأنه علم مستنبط النشأة واعمرى لم أقف على الكلام في منحاه لاحد من الخليفة ما أدري لغفلتهم عن ذلك وليس الظن بهم أو لعلمهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ولم يصل إلينا فالعلوم كثيرة والحكماء في أتم النوع الانساني متعددون ولم يصل إلينا من العلوم أكثر مما وصل فأين علوم الفرس التي أمر عمر رضي الله عنه بمحوها عند الفتح وأين علوم الكلدانيين والسريانيين وأهل بابل وما ظهر عليهم من آثارها ونتائجها وأين علوم القبط ومن قبلهم وانما وصل إلينا علوم أمة واحدة وهم يونان خاصة لكلف المأمون باخراجها من لغتهم واقتداره على ذلك بكثرة المترجمين وبذل الاموال فيها ولم تقف على شيء من علوم غيرهم واذا كانت كل حقيقة متعلقة بطبيعة يصالح أن يبحث عما يعرض لها من العوارض لذاتها وجب أن يكون باعتبار كل مفهوم وحقيقة علم من العلوم يخصه لكن الحكماء لعلمهم انما لاحظوا في ذلك العناية بالثمرات وهذا انما ثمرته في الاخبار فقط كما رأيت وان كانت مسائله في ذاتها وفي اختصاصها شريفة لكن ثمرته تصحيح الاخبار وهي ضعيفة فلماذا هجروه والله أعلم وما أوتيتم من العلم الا قليلا (وهذا الفن) الذي لاح لنا النظر فيه نجد منه مسائل تجري بالعرض لاهل العلوم في براهين علومهم وهي من جنس مسائله بالموضوع والطلب مثل ما يذكره الحكماء والعلماء في اثبات النبوة من أن البشر متعاونون في وجودهم فيحتاجون فيه الى الحاكم والوازع ومثل ما يذكر في أصول الفقه في باب اثبات اللغات أن الناس يحتاجون الى العبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون

والاجتماع وتبيان العبارات أخف ومثل ما يذكره الفقهاء في تعليل الاحكام الشرعية بالمقاصد في أن الزنا مخاطب للانساب مفسد للنوع وأن القتل أيضاً مفسد للنوع وأن الظلم مؤذن بخراب العمران المفضي لفساد النوع وغير ذلك من سائر المقاصد الشرعية في الاحكام فانها كلها مبنية على المحافظة على العمران فكان لها النظر فيما يعرض له وهو ظاهر من كلامنا هذا في هذه المسائل المثلة * وكذلك أيضاً يقع اليها القليل من مسائله في كلمات متفرقة لحكام الخليفة لكنهم لم يستوفوه (فن كلام) الموبدان بهرام بن بهرام في حكاية اليوم التي نقلها المسعودي أيها الملك ان الملك لا يتم عزه الا بالشرعية والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه ولا قوام للشرعية الا بالملك ولا عز للملك الا بالرجال ولا قوام للرجال الا بالمال ولا سبيل الى المال الا بالعمارة ولا سبيل للعمارة الا بالعدل والعدل الميزان المنصوب بين الخليفة نصبه الرب وجعل له قيا وهو الملك (ومن كلام أنوشروان) في هذا المعنى بعينه الملك بالجند والجند بالمال والمال بالخراج والخراج بالعمارة والعمارة بالعدل والعدل باصلاح العمال واصلاح العمال باستقامة الوزراء ورأس الكل بائقاد الملك حال رعيته بنفسه واقداره على تأديبها حتى يملكها ولا تملكه (وفي الكتاب) المنسوب لارسطو في السياسة المتداولة بين الناس جزء صالح منه الا أنه غير مستوفي ولا معطي حقه من البراهين ومختلط بغيره وقد أشار في ذلك الكتاب الى هذه الكلمات التي نقلناها عن الموبدان وأنوشروان وجعلها في الدائرة القريبة التي أعظم القول فيها وهو قوله العالم بستان سياحه الدولة الدولة ساطان تحياه السنة السنة سياسة يسوسها الملك الملك نظام يعضده الجند الجند أعوان يكفلهم المال المال رزق تجمعه الرعية الرعية عبيد يكتفهم العدل العدل مألوف وبه قوام العالم العالم بستان ثم ترجع الى أول الكلام فهذه ثمان كلمات حكمية سياسية ارتبط بعضها ببعض وارتدت أعجازها على صدورها واتصلت في دائرة لا يمتين طرفها خربع ثوره عليها وعظم من فوائدها وأنت اذا تأملت كلامنا في فصل الدول والملك وأعطيته حقه من التصريح والتفهيم عثرت في أثناءه على تفسير هذه الكلمات وتفصيل اجمالها مستوفي بينا باوعب بيان وأوضح دليل وبرهان أطلعنا الله عليه من غير تعليم ارسطو ولا افادة موبدان وكذلك نجد في كلام ابن المقفع وما يستطرد في رسائله من ذكر السياسات الكثير من مسائل كتابنا هذا غير مبرهنة كبرهناه انما يحليها في الذكر على منحي الخطابة في أسلوب الترسل وبلاغة الكلام وكذلك حوّم القاضي أبو بكر الطرطوشي في كتاب سراج الملوك وبوّبه على أبواب تقرب من أبواب كتابنا هذا ومسائله لكنه لم يصادف فيه الرمية ولا أصاب الشاكّة ولا استوفي المسائل ولا أوضح الأدلة انما يبوب الباب للمسئلة ثم يستكثر من الاحاديث والآثار وينقل كلمات متفرقة لحكام الفرس

مثل بزرجمهر والموبدان وحكماء الهند والمأثور عن دانيال وهرمس وغيرهم من أكابر الخليفة ولا يكشف عن التحقيق قناعاً ولا يرفع بالبراهين الطبيعية حجاباً إنما هو نقل وترغيب شبهة بالمواعظ وكأنه حوم على الغرض ولم يصادفه ولا تحقق قصده ولا استوفي مسائله ونحن ألهمنا الله إلى ذلك الهاماً وأعثرنا على علم جعلنا بين بكرة وجهينة خبره فإن كنت قد استوفيت مسائله وميزت عن سائر الصنائع أنظاره وأنحاء فتوفيق من الله وهداية وإن فاتني شيء في إحصائه واشتبهت بغيره مسائله فللناظر المحقق إصلاحه وإلى الفضل لاني نهجت له السبيل وأونخت له الطريق والله يهدي بنوره من يشاء (ونحن) الآن نبين في هذا الكتاب ما يعرض للبشر في إجتمعهم من أحوال العمران في الملك والكسب والعلوم والصنائع بوجوده برهانية يتضح بها التحقيق في معارف الخاصة والعامة وتدفع بها الأوهام وترفع الشكوك (ونقول) لما كان الإنسان متميزاً عن سائر الحيوانات بخواص اختص بها فمنها العلوم والصنائع التي هي نتيجة الفكر الذي تميز به عن الحيوانات وشرف بوصفه على المخلوقات ومنها الحاجة إلى الحكم الوازع والسلطان القاهر إذ لا يمكن وجوده دون ذلك من بين الحيوانات كلها إلا ما يقال عن النحل والجراد وهذه وإن كان لها مثل ذلك فبطريق الهامي لا يفكر وروية ومنها السعي في المعاش والاعتمال في تحصيله من وجوهه واكتساب أسبابه لما جعل الله فيه من الاقتدار إلى الغذاء في حياته وبقائه وهده إلى التماسه وطلبه قال تعالى أعطي كل شيء خلقه ثم هدى ومنها العمران وهو التساكن والتنازل في مصر أو حلة للناس بالمشير واقتضاء الحاجات لما في طباعهم من التعاون على المعاش كما سنينه ومن هذا العمران ما يكون بدوياً وهو الذي يكون في الضواحي وفي الجبال وفي الحلال المنتجة في القفار وأطراف الرمال ومنه ما يكون حضرياً وهو الذي بالامصار والقرى والمدن والمداثر للاعتصام بها والتحصن بجدرانها وله في كل هذه الأحوال أمور تعرض من حيث الاجتماع عروضاً ذاتياله فلا جرم انحصر الكلام في هذا الكتاب في ستة فصول (الأول) في العمران البشري على الجملة وأصنافه وقسطه من الأرض (والثاني) في العمران البدوي وذكر القبائل والامم الوحشية (والثالث) في الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية (والرابع) في العمران الحضري والبلدان والامصار (والخامس) في الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه (والسادس) في العلوم واكتسابها وتعلمها وقد قدمت العمران البدوي لأنه سابق على جميعها كما نبين لك بعد وكذا تقديم الملك على البلدان والامصار وأما تقديم المعاش فلأن المعاش ضروري طبيعي وتعلم العلم كالملى أو حاجي والطبيعي أقدم من الكمالى وجعلت الصنائع مع الكسب لأنها منه ببعض الوجوه ومن حيث العمران كما نبين لك بعد والله الموفق للصواب والمعين عليه

الفصل الاول من الكتاب الاول في العمران البشرى على الجملة وفيه مقدمات

(الاولى) في أن الاجتماع الانساني ضروري ويعبر الحكاء عن هذا بقولهم الانسان مدني بالطبع أي لابدله من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم وهو معنى العمران ويانه ان الله سبحانه خلق الانسان وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها الا بالغذاء وهداه الى التماسه بفطرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله الا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادة حياته منه ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الخنطة مثلاً فلا يحصل الا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ وكل واحد من هذه الاعمال الثلاثة يحتاج الى مواعين وآلات لا تتم الا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخوري هب أنه يأكله حبا من غير علاج فهو أيضاً يحتاج في تحصيله حبا الى أعمال أخرى أكثر من هذه من الزراعة والحصاد والدراس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل ويحتاج كل واحد من هذه الى آلات متعددة وصنائع كثيرة أكثر من الاولى بكثير ويستحيل أن توفي بذلك كله أو بعضه قدرة الواحد فلا بد من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لاكثر منهم بأضاف وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضاً في الدفاع عن نفسه الى الاستعانة بأبناء جنسه لان الله سبحانه لما ركب الطباع في الحيوانات كلها وقسم القدر بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة أكمل من حظ الانسان فقدره الفرس مثلاً أعظم بكثير من قدرة الانسان وكذا قدرة الحمار والثور وقدره الاسد والفيل أضعاف من قدرته ولما كان العدوان طبعياً في الحيوان جعل لكل واحد منها عضواً يختص بمدافعته ما يصل اليه من عادية غيره وجعل للانسان عوضاً من ذلك كله الفكر واليد فاليد مهيئة للصنائع بخدمة الفكر والصنائع تحصل له الآلات التي تنوب له عن الجوارح المعدة في سائر الحيوانات للدفاع مثل الرماح التي تنوب عن القرون الناطحة والسيوف الناثبة عن المخالب الجارحة والتراس الناثبة عن البشيرات الجلسية الى غير ذلك مما ذكره جالينوس في كتاب منافع الاعضاء فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العجم سيما المفترسة فهو عاجز عن مدافعها وحده بالجملة ولا تفي قدرته أيضاً باستعمال الآلات المعدة للمدافعة لكثرة الصنائع والمواعين المعدة لها فلا بد في ذلك كله من التعاون عليه بأبناء جنسه ومالم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاء ولا تتم حياته لما ركب الله تعالى عليه من الحاجة الى الغذاء في حياته ولا يحصل له أيضاً دفاع عن نفسه لفقدان السلاح فيكون فريسة للحيوانات ويعاجله الهلاك عن

مدى حياته ويبطل نوع البشر وإذا كان اتعاون حصل له القوة للغذاء والسلاح للمدافعة وتمت حكمة الله في بقاءه وحفظ نوعه فاذن هذا الاجتماع ضروري للنوع الانساني والام يكمل وجودهم ومأراده الله من اعمار العالم بهم واستخلافه اياهم وهذا هو معنى العمران الذى جعلناه موضوعا لهذا العلم وفي هذا الكلام نوع اثبات للموضوع في قوله الذى هو موضوع له وهذا وان لم يكن واجبا على صاحب الفن لما تقرر في الصناعة المنطقية أنه ليس على صاحب علم اثبات الموضوع في ذلك العلم فليس أيضاً من الممنوعات عندهم فيكون اثباته من التبرعات والله الموفق بفضلته ثم ان هذا الاجتماع اذا حصل للبشر كما قررناه وتم عمران العالم بهم فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم وليست آلة السلاح التي جعلت دافعة لعدوان الحيوانات العجم عنهم كافية في دفع العدوان عنهم لانها موجودة لجميعهم فلا بد من شئ آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض ولا يكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم والهاماتهم فيكون ذلك الوازع واحداً منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل أحد الى غيره بعدوان وهذا هو معنى الملك وقد تبين لك بهذا أنه خاصة للانسان طبيعة ولا بد لهم منها وقد يوجد في بعض الحيوانات العجم على ما ذكره الحكماء كما في النحل والجراد لما استقرى فيها من الحكم والانقياد والاتباع لرئيس من اشخاصها متميز عنها في خلقه وجسمه الا أن ذلك موجود لغير الانسان بمقتضى الفطرة والهداية لا بمقتضى الفكرة والسياسة أعطي كل شئ خلقه ثم هدى وتزيد الفلاسفة على هذا البرهان حيث يحاولون اثبات النبوة بالدليل العقلي وأنها خاصة بطبيعة الانسان فيقررون هذا البرهان الى غاية وأنه لا بد للبشر من الحكم الوازع ثم يقولون بعد ذلك وذلك الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله يأتي به واحد من البشر وأنه لا بد أن يكون متميزا عنهم بما يودع الله فيه من خواص هدايته ليقع التسليم له والقبول منه حتى يتم الحكم فيهم وعليهم من غير انكار ولا تزيف وهذه القضية للحكماء غير برهانية كما تراه اذ الوجود وحياة البشر قد تتم من دون ذلك بما يفرضه الحاكم لنفسه أو بالعصية التي يقتدر بها على قهرهم وحماهم على جادته فأهل الكتاب والمتبعون للانبياء قليلون بالنسبة الى المجوس الذين ليس لهم كتاب فانهم أكثر أهل العالم ومع ذلك فقد كانت لهم الدول والآثار فضلا عن الحياة وكذلك هي لهم اهدا العهد في الاقاليم المتحرفة في الشمال والجنوب بخلاف حياة البشر فوضى دون وازع لهم البتة فانه يتمتع وبهذا يتبين لك غلطهم في وجوب النبوات وأنه ليس بعقلي وانما مدركه الشرع كما هو مذهب السلف من الامة والله ولى التوفيق والهداية



— المقدمة الثانية —

(في قسط العمران من الارض والاشارة الى بعض مافيه من الاشجار والانهار والاقليم)

(اعلم) أنه قد تبين في كتب الحكماء الناظرين في أحوال العالم أن شكل الارض كروي وانها محفوفة بعنصر الماء كأنها غنية طافية عليه فاحسر الماء عن بعض جوانبها لما أراد الله من تكوين الحيوانات فيها وعمرانها بالنوع البشري الذي له الخلافة على سائرها وقديتوهم من ذلك أن الماء تحت الارض وليس بصحيح وانما تحت الطيبي قلب الارض ووسط كرتها الذي هو مركزها والكل يطلبه بمافيه من الثقل وماعدا ذلك من جوانبها وأما الماء المحيط بها فهو فوق الارض وان قيل في شيء منها انه تحت الارض فبالاضافة الى جهة أخرى منه وأما الذي انحسر عنه الماء من الارض فهو النصف من سطح كرتها في شكل دائرة أحاط العنصر المائي بها من جميع جهاتها بحر يسمى البحر المحيط ويسمى أيضاً لبلايه بتفخيم اللام الثانية ويسمى أوقيانوس أسماء أعجمية ويقال له البحر الأخضر والاسود ثم ان هذا المنكشف من الارض للعمران فيه القفار والحلاء أكثر من عمرانها والحالي من جهة الجنوب منه أكثر من جهة الشمال وانما المعمور منه قطعة أميل الى الجانب الشمالي على شكل مسطح كرى ينتهي من جهة الجنوب الى خط الاستواء ومن جهة الشمال الى خط كرى ووراء الجبال الفاصلة بينه وبين الماء العنصري الذي بينهما سد يأجوج ومأجوج وهذه الجبال مائلة الى جهة المشرق وينتهي من المشرق والمغرب الى عنصر الماء أيضاً بقطعتين من الدائرة المحيطة وهذا المنكشف من الارض قالوا هو مقدار النصف من الكرة أو أقل والمعمور منه مقدار ربعه وهو المنقسم بالاقليم السبعة وخط الاستواء يقسم الارض بنصفين من المغرب الى المشرق وهو طول الارض وأكبر خط في كرتها كما أن منطقة فلك البروج ودائرة معدل النهار أكبر خط في الفلك ومنطقة البروج منقسمة بثمانية وستين درجة والدرجة من مسافة الارض خمسة وعشرون فرسخاً والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع في ثلاثة أميال لان الميل أربعة آلاف ذراع والبراع أربعة وعشرون أصباً والاصبع ست حبات شعير مصفوفة ملصق بعضها الى بعض ظهر البطن وبين دائرة معدل النهار التي تقسم الفلك بنصفين وتسامت خط الاستواء من الارض وبين كل واحد من القطبين تسعون درجة لكن العمارة في الجهة الشمالية من خط الاستواء أربع وستون درجة والباقي منها خلاء لاعماره فيه لشدة البرد والجمود كما كانت الجهة الجنوبية خلاء كلها لشدة الحر كما نبين ذلك كله ان شاء الله تعالى ثم ان المخبرين عن هذا المعمور وحدوده وما فيه من الامصار والمدن والجبال والبحار والانهار والقفار والرمال

مثل بطليموس في كتاب الجغرافيا وصاحب كتاب زجار من بعده قسموا هذا المعمور بسبعة أقسام يسمونها الأقاليم السبعة بمحدود وهمية بين المشرق والمغرب متساوية في العرض مختلفة في الطول فالأقليم الأول أطول مما بعده وكذا الثاني الى آخرها فيكون السابع أقصر لما اقتضاه وضع الدائرة الناشئة من انحسار الماء عن كرة الارض وكل واحد من هذه الأقاليم عندهم منقسم بعشرة أجزاء من المغرب الى المشرق على التوالي وفي كل جزء الخبر عن أحواله وأحوال عمرانها (وذكروا) أن هذا البحر المحيط يخرج منه من جهة المغرب في الأقليم الرابع البحر الرومي المعروف يبدأ في خليج متضائق في عرض اثني عشر ميلاً أو نحوها ما بين طنجة وطريف ويسمي الزقاق ثم يذهب مشرقاً وينفسخ الى عرض ستائة ميل ونهايته في آخر الجزء الرابع من الأقليم الرابع على ألف فرسخ ومائة وستين فرسخاً من مبدئه وعليه هنالك سواحل الشام وعليه من جهة الجنوب سواحل المغرب أولها طنجة عند الخليج ثم أفريقية ثم برقة الى الاسكندرية ومن جهة الشمال سواحل القسطنطينية عند الخليج ثم البنادقة ثم رومة ثم الافرنجة ثم الاندلس الى طريف عند الزقاق قبالة طنجة ويسمى هذا البحر الرومي والشامي وفيه جزر كثيرة عامرة كبار مثل أقريطش وقبرص وصقلية وميورقة وسردانية ودانية (قالوا) ويخرج منه في جهة الشمال بحران آخران من خليجين أحدهما مسامت للقسطنطينية يبدأ من هذا البحر متضائفاً في عرض رمية السهم ويمر ثلاثة بحار فيتصل بالقسطنطينية ثم ينفسخ في عرض أربعة أميال ويمر في جريه ستين ميلاً ويسمي خليج القسطنطينية ثم يخرج من فوهة عرضها ستة أميال فيمد بحر نيطنش وهو بحر يحرف من هنالك في مذهبه الى ناحية الشرق فيمر بأرض هرقلية وينتهي الى بلاد الجزرية على ألف وثلاثمائة ميل من فوهته وعليه من الجانبين أثم من الروم والترك ورجان والروس والبحر الثاني من خليجي هذا البحر الرومي وهو بحر البنادقة يخرج من بلاد الروم على سمت الشمال فاذا انتهى الى سمت الجبل انحرف في سمت المغرب الى بلاد البنادقة وينتهي الى بلاد انكلية على ألف ومائة ميل من مبدئه وعلى حافته من البنادقة والروم وغيرهم أثم ويسمي خليج البنادقة (قالوا) وينساح من هذا البحر المحيط أيضاً من الشرق على ثلاث عشرة درجة في الشمال من خط الاستواء بحر عظيم متسع يمر الى الجنوب قليلاً حتى ينتهي الى الأقليم الأول ثم يمر فيه مغرباً الى أن ينتهي في الجزء الخامس منه الى بلاد الحبشة والزنج والى بلاد باب المندب منه على أربعة آلاف فرسخ وخمسمائة فرسخ من مبدئه ويسمي البحر الصيني والهندي والحبشي وعليه من جهة الجنوب بلاد الزنج وبلاد بربر التي ذكرها امرؤ القيس في شعره وليسوا من البربر الذين هم قبائل المغرب ثم بلد مقدشو ثم بلد سفالة وأرض الواق

وأتم آخر ليس بعدهم الا القفار والحلاء وعليه من جهة الشمال الصين من عند مبدئه ثم الهند ثم السند ثم سواحل اليمن من الاحقاف وزبيد وغيرها ثم بلاد الزنج عند نهايته وبعدهم الحبشة (قالوا) ويخرج من هذا البحر الحبشي بجران آخران (أحدهما) يخرج من نهايته عند باب المندب فيبدأ متضيقاً ثم يمر مستبحراً الى ناحية الشمال ومغرباً قليلاً الى أن ينتهي الى مدينة القلزم في الجزء الخامس من الاقليم الثاني على ألف وأربعمائة ميل من مبدئه ويسمى بحر القلزم وبحر السويس وبينه وبين فسطاط مصر من هنالك ثلاث مراحل وعليه من جهة الشرق سواحل اليمن ثم الحجاز وجدة ثم مدين وأيلة وفاران عند نهايته ومن جهة الغرب سواحل الصعيد وعيذاب وسواكن وزياح ثم بلاد الحبشة عند مبدئه وآخره عند القلزم يسامت البحر الرومي عند العريش وبينهما محوست مراحل وما زال الملوك في الاسلام وقبلة يرومون خرق ما بينهما ولم يتم ذلك (والبحر الثاني) من هذا البحر الحبشي ويسمى الخليج الاخضر يخرج ما بين بلاد السند والاحقاف من اليمن ويمر الى ناحية الشمال مغرباً قليلاً الى أن ينتهي الى الالة من سواحل البصرة في الجزء السادس من الاقليم الثاني على اربعمائة فرسخ وأربابين فرسخاً من مبدئه ويسمى بحر فارس وعليه من جهة الشرق سواحل السند ومكران وكerman وفارس والالة عند نهايته ومن جهة الغرب سواحل البحرين واليمامة وعمان والشحر والاحقاف عند مبدئه وفيما بين بحر فارس والقلزم جزيرة العرب كأنها دخلة من البر في البحر يحيط بها البحر الحبشي من الجنوب وبحر القلزم من الغرب وبحر فارس من الشرق وتقضي الى العراق فيما بين الشام والبصرة على الف وخمسمائة ميل بينهما وهنالك الكوفة والقادسية وبغداد وایوان كسرى والحيرة ووراء ذلك أمم الاعاجم من الترك والخزر وغيرهم وفي جزيرة العرب بلاد الحجاز في جهة الغرب منها وبلاد اليمامة والبحرين وعمان في جهة الشرق منها وبلاد اليمن في جهة الجنوب منها وسواحلها على البحر الحبشي (قالوا) وفي هذا المعمور بحر آخر منقطع من سائر البحار في ناحية الشمال بارض الديلم يسمى بحر جرجان وطبرستان طول الف ميل في عرض ستمائة ميل في غربيه أذربيجان والديلم وفي شرقيه أرض الترك وخوارزم وفي جنوبيه طبرستان وفي شماليه أرض الخزر واللان (هذه) جملة البحار المشهورة التي ذكرها أهل الجغرافيا * قالوا وفي هذا الجزء المعمور أنهار كثيرة أعظمها أربعة أنهار وهي النيل والفرات ودجلة ونهر بلخ المسمى جيحون (فاما النيل) فمبدؤه من جبل عظيم وراء خط الاستواء بست عشرة درجة على سمت الجزء الرابع من الاقليم الاول ويسمى جبل القمر ولا يعلم في الأرض جبل أعلى منه تخرج منه عيون كثيرة فيصب بعضها في بحيرة هناك وبعضها في أخرى ثم تخرج أنهار من البحيرتين فتصب كلها في بحيرة واحدة عند خط الاستواء

على عشر مراحل من الجبل ويخرج من هذه البحيرة نهران يذهب أحدهما الى ناحية الشمال على سمتة ويمر ببلاد التوبة ثم بلاد مصر فاذا جاوزها تشعب في شعب متقاربة يسمى كل واحد منها خليجاً وتصب كلها في البحر الرومي عند الاسكندرية ويسمى نيل مصر وعليه الصعيد من شرقيه والواحات من غربيه ويذهب الآخر منعطفاً الى المغرب ثم يمر على سمتة الى أن يصب في البحر المحيط وهو نهر السودان وأمهم كلهم على ضفتيه (وأما الفرات) فببؤءه من بلاد أرمينية في الجزء السادس من الاقليم الخامس ويمر جنوباً في أرض الروم وملطية الى منبج ثم يمر بصفين ثم بالركة ثم بالكوفة الى أن يندى الى البطحاء التي بين البصرة وواسط ومن هناك يصب في البحر الحبشي وتجاوب اليه في طريقه أنهار كثيرة ويخرج منه أنهار أخرى تصب في دجلة (وأما دجلة) فببؤءها عين ببلاد خلاط من أرمينية أيضاً وتمر على سمت الجنوب بالموصل وأذربيجان وبغداد الى واسط فتفرق الى خابجان كلها تصب في بحيرة البصرة وتفضى الى بحر فارس وهو في الشرق على يمين الفرات وتجاوب اليه أنهار كثيرة عظيمة من كل جانب وفيما بين الفرات ودجلة من أوله جزيرة الموصل قبالة الشام من عدوتي الفرات وقبالة أذربيجان من عدوة دجلة (وأما نهر جيحون) فببؤءه من بلخ في الجزء الثامن من الاقليم الثالث من عيون هناك كثيرة وتجاوب اليه أنهار عظام ويذهب من الجنوب الى الشمال فيمر ببلاد خراسان ثم يخرج منها الى بلاد خوارزم في الجزء الثامن من الاقليم الخامس فيصب في بحيرة الجرجانية التي بأسفل مدينتها وهي مسيرة شهر في مثله واليها ينصب نهر فرغانة والشاش الآتي من بلاد الترك وعلى غربي نهر جيحون بلاد خراسان وخوارزم وعلى شرقيه بلاد بخاري وترمد وسمرقند ومن هنالك الى ماوراء بلاد الترك وفرغانة والحزلية وأم الاعاجم وقد ذكر ذلك كله بطليموس في كتابه والشريف في كتاب زجار وصوروا في الجغرافيا جميع ما في المعمور من الجبال والبحار والادوية واستوفوا من ذلك ما لا حاجة لنا به لطوله ولأن عنايتنا في الأكثر إنما هي بالمغرب الذي هو وطن البربر وبالأوطان التي للعرب من المشرق والله الموفق

تكملة لهذه المقدمة الثانية في أن الربع الشمالي من الأرض أكثر عمراناً من الربع الجنوبي وذكر السبب في ذلك

ونحن نرى بالشاهدة والخبار المتواترة أن الأول والثاني من الاقليم المعمورة أقل عمراناً مما بعدهما وما وجد من عمرانها فيقتلله الحلاء والقفار والرمال والبحر الهندي الذي في الشرق منهما وأمهم هذين الاقليمين وأناسيها ليست لهم الكثيرة البالغة وأمصاره ومدنه كذلك والثالث

والرابع وما بعدهما بخلاف ذلك فالقفار فيها قليلة والرمال كذلك أو معدومة وأممها وأناسيا تجاوز الحد من الكثرة وأمصارها ومدنها تجاوز الحد عددا والعمران فيها مندرج ما بين الثالث والسادس والجنوب خلاء كله وقد ذكر كثير من الحكماء أن ذلك لأفراط الحر وقلة ميل الشمس فيها عن سمت الرأس فتوضح ذلك ببرهانه ويتبين منه سبب كثرة العمارة فيما بين الثالث والرابع من جانب الشمال الى الخامس والسابع (فقول) ان قطبي الفلك الجنوبي والشمالي اذا كانا على الافق فهناك دائرة عظيمة تقسم الفلك بنصفين هي أعظم الدوائر المارة من المشرق الى المغرب وتسمى دائرة معدل النهار وقد يتبين في موضعه من البيضة أن الفلك الاعلى متحرك من المشرق الى المغرب حركة يومية يحرك بها سائر الافلاك التي في جوفه قهراً وهذه الحركة محسوسة وكذلك تبين أن الكواكب في أفلاكها حركة مخالفة لهذه الحركة وهي من المغرب الى المشرق ويختلف مؤداها باختلاف حركة الكواكب في السرعة والبطء وممرات هذه الكواكب في أفلاكها توازيها كلها دائرة عظيمة من الفلك الاعلى تقسمه بنصفين وهي دائرة فلك البروج منقسمة باثني عشر برجاً وهي على مائتين في موضعه متاطعة لدائرة معدل النهار على نقطتين متقابلتين من البروج هما أول الحمل وأول الميزان فتقسمها دائرة معدل النهار بنصفين نصف مائل عن معدل النهار الى الشمال وهو من أول الحمل الى آخر السنبلة ونصف مائل عنه الى الجنوب وهو من أول الميزان الى آخر الحوت واذا وقع القطبان على الافق في جميع نواحي الارض كان على سطح الارض خط واحد يسامت دائرة معدل النهار يمر من المغرب الى المشرق ويسمى خط الاستواء ووقع هذا الخط بالرصد على ما زعموا في مبدأ الاقاليم الاول من الاقاليم السبعة والعمران كله في الجهة الشمالية عنه والقطب الشمالي يرتفع عن آفاق هذا المعمور بالتدريج الى أن ينتهي ارتفاعه الى أربع وستين درجة وهناك ينقطع العمران وهو آخر الاقاليم السابع * واذا ارتفع على الافق تسعين درجة وهي التي بين القطب ودائرة معدل النهار صار القطب على سمت الرأس وصارت دائرة معدل النهار على الافق وبقيت ستة من البروج فوق الافق وهي الشمالية وستة تحت الافق وهي الجنوبية والعمارة فيما بين الاربعة والستين الى التسعين متممة لان الحر والبرد حيثئذ لا يحصلان متمزجين لبعدهما الزمان بينهما فلا يحصل انسكوبين فاذا الشمس تسامت الرأس على خط الاستواء في رأس الحمل والميزان ثم تميل عن المسامطة الى رأس السرطان ورأس الجدى ويكون نهاية ميلها عن دائرة معدل النهار أربعاً وعشرين درجة ثم اذا ارتفع القطب الشمالي عن الافق مالت دائرة معدل النهار عن سمت الرأس بمقدار ارتفاعه وانخفض القطب الجنوبي كذلك بمقدار متساو في الثلاثة وهو المسمى عند أهل المواقيت عرض البلد واذا مالت دائرة معدل النهار عن سمت الرأس علت عليها

البروج الشمالية مندرجة في مقدار علوها الى رأس السرطان وانخفضت البروج الجنوبية من الافق كذلك الى رأس الجدى لانحرافها الى الجانبين في أفق الاستواء كإقلائها فلا يزال الافق الشمالي يرتفع حتى يصير أبعد الشمالية وهو رأس السرطان في سمت الرأس وذلك حيث يكون عرض البلد أربعاً وعشرين في الحجاز وما يليه وهذا هو الميل الذي اذا مال رأس السرطان عن معدل النهار في أفق الاستواء ارتفع بارتفاع القطب الشمالي حتى صار مسامتا فاذا ارتفع القطب أكثر من أربع وعشرين نزلت الشمس عن المسامطة ولا تزال في انخفاض الى أن يكون ارتفاع القطب أربعاً وستين ويكون انخفاض الشمس عن المسامطة كذلك وانخفاض القطب الجنوبي عن الافق مثلها فينقطع التكوين لافراط البرد والجمد وطول زمانه غير ممتزج بالحر ثم ان الشمس عند المسامطة وما يقاربها تبعث الاشعة على الارض على زوايا قائمة وفيما دون المسامطة على زوايا منفرجة وحادة واذا كانت زوايا الاشعة قائمة عظم الضوء وانتشر بخلافه في المنفرجة والحادة فلماذا يكون الحر عند المسامطة وما يقرب منها أكثر منه فيما بعد لان الضوء سبب الحر والتسخين * ثم ان المسامطة في خط الاستواء تكون مرتين في السنة عند تقاطع الحمل والميزان واذا مالت فغير بعيد ولا يكاد الحر يعتدل في آخر ميلها عند رأس السرطان والجدى الا وقد صمدت الى المسامطة فبقى الاشعة القائمة الزوايا تلح على ذلك الافق ويطول مكثها أو يدوم فيشتعل الهواء حرارة ويفرط في شدتها وكذا مادامت الشمس تسامت مرتين فيما بعد خط الاستواء الى عرض اربعة وعشرين فان الاشعة مامحة على الافق في ذلك بقرب من الحاحها في خط الاستواء وافراط الحريفة في الهواء تجفيا ويسا يمتنع من التكوين لانه اذا افراط الحر جفت المياه والرطوبات وفسد التكوين في المعدن والحيوان والنبات اذ التكوين لا يكون الا بالارطوبية ثم اذا مال رأس السرطان عن سمت الرأس في عرض خمسة وعشرين فما بعده نزلت الشمس عن المسامطة فيصير الحر الى الاعتدال أو يميل عنه ميلا قليلا فيكون التكوين ويزيد على التدرج الى أن يفراط البرد في شدته لقلّة الضوء وكون الاشعة منفرجة الزوايا فينقص التكوين ويفسد الا أن فساد التكوين من جهة شدة الحر أعظم منه من جهة شدة البرد لان الحر أسرع تأثيراً في التجفيف من تأثير البرد في الجمّد فلذلك كان العمران في الاقليم الاول والثاني قليلاً وفي الثالث والرابع والخامس متوسطا لاعتدال الحر بنقصان الضوء وفي السادس والسابع كثيراً لنقصان الحر وأن كيفية البرد لا تؤثر عند أولها في فساد التكوين كما يفعل الحر اذ لا تخفيف فيها الا عند الافراط بما يعرض لها حينئذ من اليبس كما بعد السابع فلماذا كان العمران في الربع الشمالي أكثر وأوفر والله أعلم * ومن هنا أخذ الحكماء خلاء خط الاستواء وما وراءه وأورد عليهم أنه معمور بالمشاهد والاخبار المتواترة فكيف يتم البرهان على ذلك والظاهر

انهم لم يريدوا امتناع العمران فيه بالسكينة إنما أداهم البرهان الى أن فساد التكوين فيه قوى بافراط الحر والعمران فيه اما ممتنع أو ممكن أقل وهو كذلك فان خط الاستواء والذي وراءه وان كان فيه عمران كما نقل فهو قليل جدا * وقد زعم ابن رشد أن خط الاستواء معتدل وأن ماوراءه في الجنوب بمثابة ماوراءه في الشمال فيعمر منه ما عمر من هذا والذي قاله غير ممتنع من جهة فساد التكوين وإنما ممتنع فيما وراء خط الاستواء في الجنوب من جهة أن العنصر المائي غمر وجه الارض هنالك الى الحد الذي كان مقابله من الجهة الشمالية قابلاً للتكوين ولما امتنع المعتدل لغلبة الماء تبعه ماسواه لان العمران متدرج ويأخذ في التدرج من جهة الوجود لامن جهة الامتناع وأما القول بامتناعه في خط الاستواء فيرده النقل المتواتر والله أعلم * ولنرسم بعده هذا الكلام صورة الجغرافيا كما رسمها صاحب كتاب زجارتهم نأخذ في تفصيل الكلام عليها الح

تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا

اعلم أن الحكماء قسموا هذا المعمور كما تقدم ذكره على سبعة أقسام من الشمال الى الجنوب يسمون كل قسم منها اقليماً فانقسم المعمور من الارض كله على هذه السبعة الاقاليم كل واحد منها أخذ من الغرب الى الشرق على طوله * فالاول منها مار من المغرب الى المشرق مع خط الاستواء بمحده من جهة الجنوب وليس وراءه هنالك الا القفار والرمال وبعض عمارة ان صحت فهي كلاعامة ويبلغ من جهة شمالية الاقليم الثاني ثم الثالث كذلك ثم الرابع والخامس والسادس والسابع وهو آخر العمران من جهة الشمال وليس وراء السابع الا الخلاء والقفار الى أن ينتهي الى البحر المحيط كالحال فيما وراء الاقليم الاول في جهة الجنوب الا أن الخلاء في جهة الشمال أقل بكثير من الخلاء الذي في جهة الجنوب ثم ان أزمان الليل والنهار متفاوتة في هذه الاقاليم بسبب ميل الشمس عن دائرة معدل النهار وارتفاع القطب الشمالي عن آفاقها فينبات قوس النهار والليل لذلك وينتهي طول الليل والنهار في آخر الاقليم الاول وذلك عند حلول الشمس برأس الجدى ليل وبرأس السرطان للنهار كل واحد منهما الى ثلاث عشرة ساعة وكذلك في آخر الاقليم الثاني مما على الشمال فينتهي طول النهار فيه عند حلول الشمس برأس السرطان وهو منقلبها الصيفي الى ثلاث عشرة ساعة ونصف ساعة ومثله أطول الليل عند منقلبها الشتوي برأس الجدى ويبقى للأقصر من الليل والنهار ما يبقى بعد الثلاث عشرة ونصف من جملة أربع وعشرين الساعات الزمانية لمجموع الليل والنهار وهو دورة الفلك الكاملة وكذلك في آخر الاقليم الثالث مما يلي الشمال أيضاً يتهيان الى أربع عشرة ساعة وفي آخر الرابع الى أربع عشرة ساعة ونصف ساعة وفي آخر الخامس الى خمس عشرة ساعة وفي آخر

السادس الى خمس عشرة ساعة ونصف وفي آخر السابع الى ست عشرة ساعة وهناك ينقطع العمران فيكون تفاوت هذه الاقاليم في الاطول من ليالها ونهارها بنصف ساعة لكل اقليم يتزايد من اوله في ناحية الجنوب الى آخره في ناحية الشمال موزعة على أجزاء هذا البعد * وأما عرض البلدان في هذه الاقاليم فهو عبارة عن بعد ما بين سمت رأس البلد ودائرة معدل النهار الذي هو سمت رأس خط الاستواء وبمثله سواء ينخفض القطب الجنوبي عن أفق ذلك البلد ويرتفع القطب الشمالي عنه وهو ثلاثة أماد متساوية تسمى عرض البلد كما مر ذلك قبل * والمتكلمون على هذه الجغرافيا قسموا كل واحد من هذه الاقاليم السبعة في طوله من المغرب الى المشرق بعشرة أجزاء متساوية ويدكرون ما شتمل عليه كل جزء منها من البلدان والامصار والحيال والانهار والمسافات بينها في المسالك ونحن الآن نوجز القول في ذلك ونذكر مشاهير البلدان والانهار والبحار في كل جزء منها ونحاذي بذلك ما وقع في كتاب نزهة المشتاق الذي ألفه العلوي الادريسي الحمودي الملك صقلية من الافرنج وهو زجار بن زجار عند ما كان نازلا عليه بصقلية بعد خروج صقلية من امارة مالقة وكان تأليفه للكتاب في منتصف المائة السادسة وجميع له كتباً جمة للمسعودي وابن خرداذيه والحوقلي والقدرى وابن اسحق المنجم وبطليموس وغيرهم ونبدأ منها بالاقليم الاول الى آخرها والله سبحانه وتعالى يعصمنا بمنه وفضله

(الاقليم الاول) وفيه من جهة غربيه الجزائر الحلدات التي منها بدأ بطليموس يأخذ أطوال البلاد وليست في بساط الاقاليم وانما هي في البحر المحيط جزر متكتراً كبيرها وأشهرها ثلاثة ويقال انها معمورة وقد بلغنا أن سفائن من الافرنج مرت بها في أواسط هذه المائة وقتلوهم فغنموا منهم وسبوا وباعوا بعض أسرارهم بسواحل المغرب الاقصى وصاروا الى خدمة السطان فلما تعلموا اللسان العربي أخبروا عن حال جزائرهم وانهم يحتفرون الارض للزراعة بالقرون وأن الحديد مفقود بارضهم وعيشهم من الشعير وما شيتهم المعز وقتلهم بالحجارة يرمونها الى خلف وعبادتهم السجود للشمس اذا طلعت ولا يعرفون ديناً ولم تبلغهم دعوة ولا يوقف على مكان هذه الجزائر الا بالعثور لبالقصد اليها لان سفر السفن في البحر إنما هو بالرياح ومعرفة جهات مهابها والى أين يوصل اذا مرت على الاستقامة من البلاد التي في ممر ذلك المهب واذا اختلف المهب وعلم حيث يوصل على الاستقامة حوذى به القلع محاذة يحمل السفينة بها على قوانين في ذلك محصلة عند النواتية والملاحين الذي هم رؤساء السفن في البحر والبلاد التي في حفا في البحر الرومي وفي عدوته مكتوبة كلها في صحيفة على شكل ماهي عليه في الوجود وفي وضعها في سواحل البحر على ترتيبها ومهاب الرياح وممراتها على اختلافها مرسوم معها في تلك الصحيفة ويسمونها الكنباص وعليها يعتمدون

في أسفارهم وهذا كله مفقود في البحر المحيط فلذلك لاتالجح فيه السفن لانها ان غابت عن
 مرأى السواحل فقل أن تهتدي الى الرجوع اليها مع ماينعقد في جو هذا البحر وعلى سطح
 مائه من الانجرة الممانعة للسفن في سيرها وهي لبعدها لاتدركها أضواء الشمس المنعكسة من
 سطح الارض فتحللها فلذلك عبر الاهتداء اليها وصعب الوقوف على خبرها وأما الجزء
 الاول من هذا الاقليم ففيه مصب النيل الآتي من مبدئه عند جبل القمر كما ذكرناه ويسمى نيل
 السودان ويذهب الى البحر المحيط فيصب فيه عند جزيرة أوليك وعلى هذا النيل مدينة سلا
 وتكرور وغانة وكلها لهذا العهد في مملكة ملك مالى من أمم السودان والى بلادهم تسافر تجار
 المغرب الاقصى وبالقرب منها من شمالها بلاد تونة وسائر طوائف المثلثين ومفاوز يحولون فيها
 وفي جنوبي هذا النيل قوم من السودان يقال لهم الملم وهم كفار ويكتوون في وجوههم وأصدانهم
 وأهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجار فيجلبونهم الى المغرب وكلهم
 عامة رقيقهم وليس وراءهم في الجنوب عمران يعتبر الاناسى أقرب الى الحيوان العجم من
 الناطق يسكنون الفياقي والكهوف ويأكلون العشب والحبوب غير مهياة وربما يأكل بعضهم
 بعضاً وليسوا في عداد البشر وفواكه بلاد السودان كلها من قصور صحراء المغرب مثل توات
 وتكدرارين ووركلان فكان في غانة فيما يقال ملك ودولة لقوم من العلويين يعرفون ببني
 صالح وقال صاحب كتاب زجرائه صالح بن عبد الله بن حسن بن الحسن ولا يعرف صالح هذا
 في ولد عبد الله بن حسن وقد ذهبت هذه الدولة لهذا العهد وصارت غانة لسلطان مالى وفي
 شرق هذا البلد في الجزء الثالث من هذا الاقليم بلد كوكو على نهري نبع من بعض الجبال هناك
 ويمر مغرباً فيغوص في رمال الجزء الثاني وكان ملك كوكو قائماً بنفسه ثم استولى عليها سلطان مالى
 وأصبحت في مملكته وخرت لهذا العهد من أجل قننة وقعت هناك نذكرها عند ذكر دولة
 مالى في محلها من تاريخ البربر وفي جنوبي بلد كوكو بلاد كاتم من أمم السودان وبعدهم ونغارة
 على ضفة النيل من شماليه وفي شرق بلاد ونغارة وكاتم بلاد زغاوة وناجرة المتصلة بارض التوبة
 في الجزء الرابع من هذا الاقليم وفيه يمر نيل مصر ذاهباً من مبدئه عند خط الاستواء الى
 البحر الرومي في الشمال ومخرج هذا النيل من جبل القمر الذي فوق خط الاستواء بست
 عشرة درجة واختلفوا في ضبط هذه اللفظة فضبطها بعضهم بفتح القاف والميم نسبة الى قر
 السماء لشدة بياضه وكثرة ضوئه وفي كتاب المشترك لياقوت بضم القاف وسكون الميم نسبة الى
 قوم من أهل الهند وكذا ضبطه ابن سعيد فيخرج من هذا الجبل عشريون يجتمع كل خمسة
 منها في بحيرة وبينهما ستة أميال ويخرج من كل واحدة من البحيرتين ثلاثة أنهار يجتمع كلها في
 بطيحة واحدة في أسفلها جبل معترض يشق البحيرة من ناحية الشمال وينقسم ماؤها بقسمين

فيمر الغربي منه الى بلاد السودان مغربا حتي يصب في البحر المحيط ويخرج الشرق منه ذاهبا الى الشمال على بلاد الحبشة والنوبة وفيما بينهما وينقسم في أعلى أرض مصر فيصب ثلاثة من جداوله في البحر الرومي عند الاسكندرية ورشيد ودمياط ويصب واحد في بحيرة ملحقة قبل أن يتصل بالبحر في وسط هذا الاقليم الاول وعلى هذا النيل بلاد النوبة والحبشة وبعض بلاد الواحات الى أسوان وحاضرة بلاد النوبة مدينة دنقلة وهي في غربي هذا النيل وبعدها علوة وبلق وبعدها جبل الجنادل على ستة مراحل من بلق في الشمال وهو جبل عال من جهة مصر ومنخفض من جهة النوبة فينفذ فيه النيل ويصب في بهوي بعيد صبا مهولا فلا يمكن أن تسلكه المراكب بل يحول الوسق من مراكب السودان فيحمل على الظهر الى بلد أسوان قاعدة الصعيد وكذا وسق مراكب الصعيد الى فوق الجنادل وبين الجنادل وأسوان اثنا عشرة مرحلة والواحات في غربيها عدوة النيل وهي الآن خراب وبها آثار العمارة القديمة وفي وسط هذا الاقليم في الجزء الخامس منه بلاد الحبشة على واد يأتي من وراء خط الاستواء ذاهبا الى أرض النوبة فيصب هناك في النيل الهابط الى مصر وقد وهم فيه كثير من الناس وزعموا أنه من نيل القمر وبطليموس ذكره في كتاب الجغرافيا وذكر أنه ليس من هذا النيل والى وسط هذا الاقليم في الجزء الخامس ينتهي بحر الهند الذي يدخل من ناحية الصين ويغمر عامة هذا الاقليم الى هذا الجزء الخامس فلا يبقى فيه عمران الا ما كان في الجزائر التي في داخله وهي متعددة يقال تنتهي الى ألف جزيرة أو فيما على سواحل الجنوبية وهي آخر المعمور في الجنوب أو فيما على سواحل من جهة الشمال وليس منها في هذا الاقليم الاول الا طرف من بلاد الصين في جهة الشرق وفي بلاد اليمن وفي الجزء السادس من هذا الاقليم فيما بين البحرين الهابطين من هذا البحر الهندي الى جهة الشمال وهما بحر قلزم وبحر فارس وفيما بينهما جزيرة العرب وتشتمل على بلاد اليمن وبلاد الشحر في شرقها على ساحل هذا البحر الهندي وعلى بلاد الحجاز واليمامة وما اليهما كما نذكره في الاقليم الثاني وما بعده فاما الذي على ساحل هذا البحر من غربيه فبلد زالع من أطراف بلاد الحبشة ومجالات البجة (١) في شمالي الحبشة ما بين جبل العلاقي في أعالي الصعيد وبين بحر القلزم الهابط من البحر الهندي وتحت بلاد زالع من جهة الشمال في هذا الجزء خليج باب المنهد يضيق البحر الهابط هنالك بمزاحمة جبل المنذب المائل في وسط البحر الهندي متدافع ساحل اليمن من الجنوب الى الشمال في طول اثني عشر ميلا فيضيق البحر بسبب ذلك الى أن يصير في عرض ثلاثة أميال أو نحوها

(١) قوله البجة بضم الباء وفتح الجيم ويقال أيضاً البجة وأما زالع فهي زيلع اه

ويسمى باب المندب وعليه تمر مراكب اليمن الى ساحل السويس قريباً من مصر ومحت باب المندب جزيرة سواكن ودهلك وقبالته من غربيه مجالات البجة من أمم السودان كما ذكرناه ومن شرقيه في هذا الجزء تهائم اليمن ومنها على ساحله بلد علي بن يعقوب وفي جهة الجنوب من بلد زالع وعلى ساحل هذا البحر من غربيه قرى بربر يتلو بعضها بعضاً وينعطف مع جنوبيه الى آخر الجزء السادس ويلها هنالك من جهة شرقيها بلاد الزنج ثم بلاد سفالة على ساحله الجنوبي في الجزء السابع من هذا الاقليم وفي شرقي بلاد سفالة من ساحله الجنوبي بلاد الواق واق متصلة الى آخر الجزء العاشر من هذا الاقليم عند مدخل هذا البحر من البحر المحيط وأما جزائر هذا البحر فكثيرة من أعظمها جزيرة سرنديب مدورة الشكل وبها الجبل المشهور يقال ليس في الارض أعلى منه وهي قبالة سفالة ثم جزيرة القمر وهي جزيرة مستطيلة تبدأ من قبالة أرض سفالة وتذهب الى الشرق منحرفة بكثير الى الشمال الى أن تقرب من سواحل أعالي الصين ويختف بها في هذا البحر من جنوبها جزائر الواق واق ومن شرقيها جزائر السيلان الى جزائر أخرى في هذا البحر كثيرة العدد وفيها أنواع الطيب والاقلويه وفيها يقال معادن الذهب والزمرد وعامة أهلها على دين المجوسية وفيهم ملوك متعددون وبهذه الجزائر من أحوال العمران عجائب ذكرها أهل الجغرافيا وعلى الضفة الشمالية من هذا البحر في الجزء السادس من هذا الاقليم بلاد اليمن كلها فمن جهة بحر القلزم بلديد والمهجم وتهامة اليمن وبعدها بلد صعدة مقر الامامة الزيدية وهي بعيدة عن البحر الجنوبي وعن البحر الشرقي وفيها بعد ذلك مدينة عدن وفي شمالها صنعاء وبعدها الى المشرق أرض الاحقاف وظفار وبعدها أرض حضرموت ثم بلاد الشحر ما بين البحر الجنوبي وبحر فارس وهذه القطعة من الجزء السادس هي التي انكشف عنها البحر من أجزاء هذا الاقليم الوسطي وينكشف بعدها قليل من الجزء التاسع وأكثر منه من العاشر فيه أعالي بلاد الصين ومن مدنه الشهيرة خانكو وقبالتها من جهة الشرق جزائر السيلان وقد تقدم ذكرها وهذا آخر الكلام في الاقليم الاول والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق بمنه وفضله

(الاقليم الثاني) وهو متصل بالاول من جهة الشمال وقبالة المغرب منه في البحر المحيط جزيرتان من الجزائر الخالدات التي مر ذكرها في الجزء الاول والثاني منه في الجانب الاعلى منهما أرض فنورية وبعدها في جهة الشرق أعالي أرض غانة ثم مجالات زغاوة من السودان وفي الجانب الاسفل منهما صحراء نيسر متصلة من الغرب الى الشرق ذات مفاوز تسلك فيها التجار ما بين بلاد المغرب وبلاد السودان وفيها مجالات الماشين من صنهجة وهم شعوب كثيرة ما بين كزولة ولتونة ومسرارة ولمطة ووريكة وعلى سمت هذه المفاوز شرقاً أرض فزان ثم مجالات أركار من قبائل البربر ذاهبة الى

أعلى الجزء الثالث على سمتها في الشرق وبعدها من هذا الجزء بلاد كوار من أمم السودان ثم قطعة من أرض الباجويين وفي أسفل هذا الجزء الثالث وهي جهة الشمال منه بقية أرض ودان وعلى سمتها شرقاً أرض سترية وتسمى الواحات الداخلة وفي الجزء الرابع من أعلاه بقية أرض الباجويين ثم يعترض في وسط هذا الجزء بلاد الصعيد حفافي النيل الذاهب من مبدئه في الأقاليم الأولى إلى مصبه في البحر فيمر في هذا الجزء بين الجباين الحاجزين وهما جبل الواحات من غربيه وجبل المقطم من شرقيه وعليه من أعلاه بلاد أسنا وأرمنت ويتصل كذلك حفافيه إلى أسبوط وقوص ثم إلى صول ويفترق النيل هنالك على شعيتين ينتهي إليهم من هذا الجزء عند اللاهون والاسير عند دلاص وفيما بينهما أعلى ديار مصر وفي الشرق من جبل المقطم صحاري عذاب ذاهبة في الجزء الخامس إلى أن تنتهي إلى بحر السويس وهو بحر القلزم الهابط من البحر الهندي في الجنوب إلى جهة الشمال وفي عدوته الشرقية من هذا الجزء أرض الحجاز من جبل يللم إلى بلاد يثرب وفي وسط الحجاز مكة شرفها الله وفي ساحلها مدينة جدة تقابل بلد عذاب في العدو الغربية من هذا البحر وفي الجزء السادس من غربيه بلاد نجد أعلاها في الجنوب وتبالة وجرش إلى عكاظ من الشمال وتحت نجد من هذا الجزء بقية أرض الحجاز وعلى سمتها في الشرق بلاد نجران وخيبر وتحتها أرض اليمامة وعلى سمت نجران في الشرق أرض سبأ ومأرب ثم أرض الشحر وينتهي إلى بحر فارس وهو البحر الثاني الهابط من البحر الهندي إلى الشمال كاسر ويذهب في هذا الجزء بانحراف إلى الغرب فيمر ما بين شرقيه وجوفيه قطعة مثله عليها من أعلاه مدينة قلهاث وهي ساحل الشحر ثم تحتها على ساحله بلاد عمان ثم بلاد البحرين وهجر منها في آخر الجزء وفي الجزء السابع في الأعلى من غربيه قطعة من بحر فارس تتصل بالقطعة الأخرى في السادس ويغمر بحر الهند جانبه الأعلى كله وعليه هنالك بلاد السند إلى بلاد مكران ويقابلها بلاد الطوران وهي من السند أيضاً فيتصل السند كله في الجانب الغربي من هذا الجزء وتحول المفاوز بينه وبين أرض الهند ويمر فيه نهره الآتي من ناحية بلاد الهند ويصب في البحر الهندي في الجنوب وأول بلاد الهند على ساحل البحر الهندي وفي سمتها شرقاً بلاد بلهرا وتحتها الملتان بلاد الصنم المعظم عندهم ثم إلى أسفل من السند ثم إلى أعلى بلاد سجستان وفي الجزء الثامن من غربيه بقية بلاد بلهرا من الهند وعلى سمتها شرقاً بلاد القندهار ثم بلاد ملبار وفي الجانب الأعلى أعلى ساحل البحر الهندي وتحتها في الجانب الأسفل أرض كابل وبعدها شرقاً إلى البحر المحيط بلاد القنوج ما بين قشمير الداخلة وقشمير الخارجة عند آخر الأقاليم وفي الجزء التاسع ثم في الجانب الغربي منه بلاد الهند الأقصى ويتصل فيه إلى الجانب الشرقي فيتصل من أعلاه إلى العاشر وتبقى في أسفل ذلك الجانب قطعة من بلاد الصين فيها مدينة شيغون ثم تتصل بلاد الصين في الجزء

العاشر كله الى البحر المحيط والله ورسوله أعلم وبه سبحانه التوفيق وهو ولي الفضل والكرم
 * (الاقليم الثالث) * هو متصل بالثاني من جهة الشمال في الجزء الاول منه وهو على نحو الثلث
 من أعلاه جبل درن معترض فيه من غربيه عند البحر المحيط الى الشرق عند آخره ويسكن
 هذا الجبل من البربر أم لا يحصيهم الا خالقهم حسبما يأتي ذكره وفي القطعة التي بين هذا
 الجبل والاقليم الثاني وعلى البحر المحيط منها رباط ماسة ويتصل به شرقا بلاد سوس ونول وعلى
 سمتها شرقا بلاد درعة ثم بلاد سجلماسة ثم قطعة من صحراء نيسر المفازة التي ذكرناها في الاقليم
 الثاني وهذا الجبل مطل على هذه البلاد كلها في هذا الجزء وهو قليل الثياب والمسالك في هذه
 الناحية الغربية الى أن يسامت وادي ملوية فتكثر ثنياه ومسالكه الى أن يتهى وفي هذه الناحية
 منه أم المصامدة ثم هنانة ثم تينملك ثم كدميوه ثم مشكورة وهم آخر المصامدة فيه ثم قبائل
 صنهاكة وهم صنهاجة وفي آخر هذا الجزء منه بعض قبائل زناتة ويتصل به هنالك من جوفيه جبل
 أوراس وهو جبل كتامة وبعد ذلك أم أخرى من البرارة نذكرهم في أماكنهم ثم ان جبل درن
 هذا من جهة غربيه مطل على بلاد المغرب الاقصى وهي في جوفيه في الناحية الجنوبية منها
 بلاد مراکش واغمات وتادلا وعلى البحر المحيط منها رباط أسفي ومدينة سلا وفي الجوف
 عن بلاد مراکش بلاد فاس ومكناسة وتازا وقصر كتامة وهذه هي التي تسمى المغرب الاقصى
 في عرف أهلها وعلى ساحل البحر المحيط منها بلدان أصيلا والعرايش وفي سمت هذه البلاد
 شرقا بلاد المغرب الاوسط وقاعدتها تامسان وفي سواحلها على البحر الرومي بلد هين ووهرا
 والجزائر لان هذا البحر الرومي يخرج من البحر المحيط من خليج طنجة في الناحية الغربية
 من الاقليم الرابع ويذهب مشرقا فيتهى الى بلاد الشام فاذا خرج من الخليج المتضائق غير
 بعيد انفسخ جنوبا وشمالا فدخل في الاقليم الثالث والخامس فلهذا كان على ساحله من هذا
 الاقليم الثالث الكثير من بلاده ثم يتصل ببلاد الجزائر من شرقها بلاد بجاية في ساحل البحر
 ثم قسنطينة في الشرق منها وفي آخر الجزء الاول وعلى مرحلة من هذا البحر في جنوب هذه
 البلاد ومرتقا الى جنوب المغرب الاوسط بلد أشير ثم بلد المسيلة ثم الزاب وقاعدتها بسكرة
 تحت جبل أوراس المتصل بدرن كما مر وذلك عند آخر هذا الجزء من جهة الشرق والجزء
 الثاني من هذا الاقليم على هيئة الجزء الاول ثم جبل درن على نحو الثلث من جنوبه ذهابا فيه
 من غرب الى شرق فيقسمه بقطعتين ويغمر البحر الرومي مسافة من شماله فاقطعة الجنوبية
 عن جبل درن غربيها كله مفاوز وفي الشرق منها بلد غدامس وفي سمتها شرقا أرض ودان التي
 بقيتها في الاقليم الثاني كما مر والقطعة الجوفية عن جبل درن ما بينه وبين البحر الرومي في
 الغرب منها جبل أوراس وتبسة والاويس وعلى ساحل البحر بلد بونة ثم في سمت هذه

البلاد شرقا بلاد افريقية فعلى ساحل البحر مدينة تونس ثم سوسة ثم المهدية وفي جنوب هذه البلاد تحت جبل درن بلاد الجريد توزر وقفصة ونقراوة وفيما بينها وبين السواحل مدينة القيروان وجبل وسلات وسيطة وعلى سمت هذه البلاد كلها شرقا بلد طرابلس على البحر الرومي وبازائها في الجنوب جبل دمر ونقرة من قبائل هواة متصلة بجبل درن وفي مقابلة غدامس التي مر ذكرها في آخر القطعة الجنوبية وآخر هذا الجزء في الشرق سويقة ابن مشكورة على البحر وفي جنوبها مجالات العرب في أرض ودان وفي الجزء الثالث من هذا الاقليم يمر أيضا فيه جبل درن الا أنه ينعطف عند آخره الى الشمال ويذهب على سمتة الى أن يدخل في البحر الرومي ويسمى هنالك طرف أوثان والبحر الرومي من شماليه غمر طائفة منه الى أن يضايق ماينه وبين جبل درن فالذي وراء الجبل في الجنوب وفي الغرب منه بقية أرض ودان ومجالات العرب فيها ثم زويلة ابن خطاب ثم رمال وقفار الى آخر الجزء في الشرق وفيما بين الجبل والبحر في الغرب منه بلد سرت على البحر ثم خلاء وقفار تجول فيها العرب ثم أجداية ثم برقة عند منعطف الجبل ثم طلمسة على البحر هنالك ثم في شرق المنعطف من الجبل مجالات هيب ورواحة الى آخر الجزء وفي الجزء الرابع من هذا الاقليم وفي الأعلى من غربيه محاري برقيق وأسفل منها بلاد هيب ورواحة ثم يدخل البحر الرومي في هذا الجزء فيغمر طائفة منه الى الجنوب حتى يزاحم طرفه الأعلى ويبقى بينه وبين آخر الجزء قفار تجول فيها العرب وعلى سمتها شرقا بلاد الفيوم وهي على مصب أحد الشعبين من النيل الذي يمر على اللاهون من بلاد الصعيد في الجزء الرابع من الاقليم الثاني ويصب في بحيرة فيوم وعلى سمتة شرقا أرض مصر ومدينتها الشهيرة على الشعب الثاني الذي يمر بدلاص من بلاد الصعيد عند آخر الجزء الثاني ويفترق هذا الشعب افتراقا ثانية من تحت مصر على شعبين آخرين من شطونف وزفتى وينقسم الأيمن منهما من قرمط بشعبين آخرين ويصب جميعها في البحر الرومي فعلى مصب الغربي من هذا الشعب بلد الاسكندرية وعلى مصب الوسط بلد رشتيد وعلى مصب الشرقي بلد دمياط وبين مصر والقاهرة وبين هذه السواحل البحرية أسافل الديار المصرية كلها محشوة عمراناً وخنجا وفي الجزء الخامس من هذا الاقليم بلاد الشام وأكثرها على ما أصف وذلك لان بحر القلزم يتهى من الجنوب وفي الغرب منه عند السويس لانه في ممره مبتدئ من البحر الهندي الى الشمال ينعطف أخذا الى جهة الغرب فتكون قطعة من انعطافه في هذا الجزء طويلة فيتهى في الطرف الغربي منه الى السويس وعلى هذه القطعة بعد السويس فاران ثم جبل الطور ثم أيلة مدين ثم الحوراء في آخرها ومن هنالك ينعطف بساحله الى الجنوب في أرض الحجاز كما مر في الاقليم الثاني في الجزء الخامس

منه وفي الناحية الشمالية من هذا الجزء قطعة من البحر الرومي غمرت كثيراً من غربيه عليها
الفرما والعريش وقارب طرفها بلد القلزم فيضايق ما بينهما من هنالك وبقي شبه الباب مفضياً
الى أرض الشام وفي غربي هذا الباب فخص التيه أرض جرداء لا تنبت كانت بحالابني اسرائيل
بعد خروجهم من مصر وقبل دخولهم الى الشام أربعين سنة كما قصه القرآن وفي هذه القطعة
من البحر الرومي في هذا الجزء طائفة من جزيرة قبرص وبقيتها في الاقليم الرابع كما ذكره
وعلى ساحل هذه القطعة عند الطرف المتضايق لبحر السويس بلد العريش وهو آخر الديار
المصرية وعسقلان و بينهما طرف هذا البحر ثم تحط هذه القطعة في اعطافها من هنالك الى
الاقليم الرابع عند طرابلس وغزة وهنالك ينتهي البحر الرومي في جهة الشرق وعلى هذه
القطعة أكثر سواحل الشام في شرقه عسقلان وبأحرف يسير عنها الى الشمال بلد قيسارية ثم
كذلك بلد عكا ثم صور ثم صيدا ثم غزة ثم ينعطف البحر الى الشمال في الاقليم الرابع ويقابل
هذه البلاد الساحلية من هذه القطعة في هذا الجزء جبل عظيم يخرج من ساحل أيلة من
بحر القلزم ويذهب في ناحية الشمال منحرفاً الى الشرق الى أن يجاوز هذا الجزء ويسمي جبل
اللكام وكأنه حاجز بين أرض مصر والشام ففي طرفه عند أيلة العقبة التي يمر عليها الحجاج
من مصر الى مكة ثم بعدها في ناحية الشمال مدفن الخليل عليه الصلاة والسلام عند جبل
السراة يتصل من عند جبل اللكام المذكور من شمال العقبة ذاهباً على سمت الشرق ثم ينعطف
قليلاً وفي شرقه هنالك بلد الحجر وديار ثمود وتيماء ودومة الجندل وهي أسفل الحجاز وفوقها
جبل رضوى وحصون خيبر في جهة الجنوب عنها وفيما بين جبل السراة وبحر القلزم صحراء
تبوك وفي شمال جبل السراة مدينة القدس عند جبل اللكام ثم الاردن ثم طبرية وفي شرقها
بلاد الغور الى أذرع وفي سمتها شرقاً دومة الجندل آخر هذا الجزء وهي آخر الحجاز
وعند منعطف جبل اللكام الى الشمال من آخر هذا الجزء مدينة دمشق مقابلة صيدا وبيروت
من القطعة البحرية وجبل اللكام يعترض بينها وبينها وعلى سمت دمشق في الشرق مدينة
بعلبك ثم مدينة حمص في الجهة الشمالية آخر الجزء عند منقطع جبل اللكام وفي الشرق عن
بعلبك وحمص بلد تدمر ومجالات البادية الى آخر الجزء وفي الجزء السادس من أعلاه مجالات
الاعراب تحت بلاد نجد واليمامة ما بين جبل العرج والصمان الى البحرين وهجر على بحر
فارس وفي أسفل هذا الجزء تحت المجالات بلد الحيرة والقادسية ومغايض الفرات* وفيما بعدها
شرقاً مدينة البصرة وفي هذا الجزء ينتهي بحر فارس عند عبادان والأبلة (١) من أسفل

(١) قوله الأبلة بضم الهمزة والباء وتشديد اللام اه

الجزء من شماله ويصب فيه عند عبادان نهر دجلة بعد أن ينقسم بمجداول كثيرة وتختلط به جداول أخرى من الفرات ثم تجتمع كلها عند عبادان وتصب في بحر فارس وهذه القطعة من البحر متسعة في أعلاه متضيقة في آخره في شرقيه وضيقة عند منتهاء مضائقه للحد الشمالي منه وعلى عدوتها الغربية منه أسافل البحرين وهجر والاحساء وفي غربها أخطب والصمان وبقيّة أرض اليمامة وعلى عدوته الشرقية سواحل فارس من أعلاها وهو من عند آخر الجزء من الشرق على طرف قد امتد من هذا البحر مشرقاً ووراء إلى الجنوب في هذا الجزء جبال القفص من كرمان وتحت هرمز على الساحل بلد سيراف ونجيرم على ساحل هذا البحر * وفي شرقيه إلى آخر الجزء وتحت هرمز بلاد فارس مثل صابور ودارابجر دونسا واصطخر والشاهجان وشيراز وهي قاعدتها كلها وتحت بلاد فارس إلى الشمال عند طرف البحر بلاد خوزستان ومنها الأهواز وتستر وصدي وصابور والسوس ورام هرمز وغيرها وأرجان وهي حد ما بين فارس وخوزستان وفي شرقي بلاد خوزستان جبال الاكراد متصلة إلى نواحي أصهان وبها مساكنهم ومجالاتهم وراءها في أرض فارس وتسمى الرسوم وفي الجزء السابع في الأعلى منه من المغرب بقية جبال القفص ويلها من الجنوب والشمال بلاد كرمان ومكران ومن مدنها الرودان والشيرجان وجيرفت وزدشير والهرج وتحت أرض كرمان إلى الشمال بقية بلاد فارس إلى حدود أصهان ومدينة أصهان في طرف هذا الجزء ما بين غربيه وشماله ثم في المشرق عن بلاد كرمان وبلاد فارس أرض سجستان وكوهستان في الجنوب وأرض كوهستان في الشمال عنها ويتوسط بين كرمان وفارس وبين سجستان وكوهستان في وسط هذا الجزء المقافز العظمى القليلة المسالك لصعوبتها ومن مدن سجستان بست والطاق وأما كوهستان فهي من بلاد خراسان ومن مشاهير بلادها سرخس وقوهستان آخر الجزء وفي الجزء الثامن من غربيه وجنوبه مجالات الجلاح من أم الترك متصلة بأرض سجستان من غربها وبارض كابل الهند من جنوبها وفي الشمال عن هذه المجالات جبال الغور وبلادها وقاعدتها غزنة فريضة الهند وفي آخر الغور من الشمال بلاد استراباذ ثم في الشمال عنها إلى آخر الجزء بلاد هراة أوسط خراسان وبها اسفرين وقاشان وبوشنج ومرورود والطالقان والجوزجان وتنتهي خراسان هنالك إلى نهر جيحون * وعلى هذا النهر من بلاد خراسان من غربيه مدينة بلخ وفي شرقيه مدينة ترمذ ومدينة بلخ كانت كرسى مملكة الترك وهذا النهر جيحون مخرجه من بلاد وجار في حدود بدخشان ما يلي الهند ويخرج من جنوب هذا الجزء وعند آخره من الشرق فينعطف عن قرب مغرباً إلى وسط الجزء ويسمى هنالك نهر خرنا ب ثم ينعطف إلى الشمال حتى يمر بخراسان ويذهب على سمته إلى أن يصب في بحيرة خوارزم في الاقليم الخامس كاندكوه ويمده عند انعطافه في

وسط الجزء من الجنوب الى الشمال خمسة أنهار عظيمة من بلاد الحتل والوخش من شرقيه وأبارأخري من جبال البتم من شرقيه أيضاً وجوفي الجبل حتى يتسع ويعظم بمالا كفاءله ومن هذه الانهار الخمسة المدة له نهر وخشاب يخرج من بلاد التبت وهي بين الجنوب والشرق من هذا الجزء فيمر مغربا بانحراف الى الشمال الى أن يخرج الى الجزء التاسع قريبا من شمال هذا الجزء يعترضه في طريقه جبل عظيم يمر من وسط الجنوب في هذا الجزء ويذهب مشرقا بانحراف الى الشمال الى أن يخرج الى الجزء التاسع قريبا من شمال هذا الجزء فيجوز بلاد التبت الى القطعة الشرقية الجنوبية من هذا الجزء ويحول بين الترك وبين بلاد الحتل وليس فيه الامسلك واحد في وسط الشرق من هذا الجزء جعل فيه الفضل بن يحيى سدا وبني فيه بابا كسدي أجوج ومأجوج فاذا خرج نهر وخشاب من بلاد التبت واعترضه هذا الجبل فيمر تحته في مدى بعيد الى أن يمر في بلاد الوخش ويصب في نهر جيحون عند حدود باخ ثم يمر هابطا الى الترمذ في الشمال الى بلاد الجوزجان وفي الشرق عن بلاد الغور فيما بينها وبين نهر جيحون بلاد الناسان من خراسان وفي العدو الشرقية هنالك من النهر بلاد الحتل وأكثرها جبال وبلاد الوخش ويحدها من جهة الشمال جبال البتم تخرج من طرف خراسان غربي نهر جيحون وتذهب مشرقة الى أن يتصل طرفها بالجبل العظيم الذي خلفه بلاد التبت ويمر تحته نهر وخشاب كما قلناه فيتصل به عند باب الفضل بن يحيى ويمر نهر جيحون بين هذه الجبال وأنهار أخرى تصب فيه منها نهر بلاد الوخش يصب فيه من الشرق تحت الترمذ الى جهة الشمال ونهر باخ يخرج من جبال البتم من مبدئه عند الجوزجان ويصب فيه من غربيه وعلى هذا النهر من غربيه بلاد آمد من خراسان وفي شرق النهر من هنالك ارض الصفد وأسروشنة من بلاد الترك وفي شرقها ارض فرغانة أيضاً الى آخر الجزء شرقا وكل بلاد الترك تحوزها جبال البتم الى شمالها وفي الجزء التاسع من غربيه ارض التبت الى وسط الجزء وفي جنوبها بلاد الهند وفي شرقها بلاد الصين الى آخر الجزء وفي أسفل هذا الجزء شمالا عن بلاد التبت بلاد الخزرلية من بلاد الترك الى آخر الجزء شرقا وشمالا ويتصل بها من غربيها ارض فرغانة أيضاً الى آخر الجزء شرقا ومن شرقها ارض التغرغر من الترك الى آخر الجزء شرقا وشمالا وفي الجزء العاشر في الجنوب منه جميعا بقية الصين وأسافله وفي الشمال بقية بلاد التغرغر ثم شرقا عنهم بلاد خرخير من الترك أيضاً الى آخر الجزء شرقا وفي الشمال من ارض خرخير بلاد كتمان من الترك وقبالتها في البحر المحيط جزيرة الياقوت في وسط جبل مستدير لامنفذ منه اليها ولامسلك والصعود الى أعلاه من خارجه صعب في الغاية وفي الجزيرة حيات قتالة وحصى من الياقوت كثيرة فيحتال أهل تلك الناحية في استخراجها بما يلهيهم الله اليه وأهل هذه

البلاد في هذا الجزء التاسع والعاشر فيما وراء خراسان والحيال كلها مجالات للترك أم لا تحصى
وهم طواغن رحالة أهل ابل وشاه وبقر وخيل للتناج والركوب والا كل وطوائفهم كثيرة لا
يحصيهم الاخالقهم وفيهم مسلمون ممالي بلاد النهر نهر حيحون ويعزون الكفار منهم الدائنين
بالجوسية فيبيعون رقيقهم لمن يلبهم ويخرجون الى بلاد خراسان والهند والعراق
(الاقليم الرابع) يتصل بالثالث من جهة الشمال * والجزء الاول منه في غربيه قطعة من
البحر المحيط مستطيلة من اوله جنوبا الى آخره شمالا وعليها في الجنوب مدينة طنجة ومن
هذه القطعة تحت طنجة من البحر المحيط الى البحر الرومي في خليج متضائق بمقدار اثني
عشر ميلا مابين طريف والجزيرة الخضراء شمالا وقصر المجازوسبتة جنوبا ويذهب مشرقا الى
أن ينتهي الى وسط الجزء الخامس من هذا الاقليم وينفسح في ذهابه بتدرج الى أن يغمر
الاربعة أجزاء وأكثر الخامس ويغمر عن جانبه طرفا من الاقليم الثالث والخامس كما سذكروا
ويسمى هذا البحر البحر الشامي أيضاً وفيه جزائر كثيرة أعظمها في جهة الغرب يابسة ثم مايرقة
ثم مزقة ثم سردانية ثم صقاية وهي أعظمها ثم بلونس ثم أقريطش ثم قبرص كما نذكرها كلها
في أجزائها التي وقعت فيها ويخرج من هذا البحر الرومي عند آخر الجزء الثالث منه وفي الجزء
الثالث من الاقليم الخامس خليج البنادقة يذهب الى ناحية الشمال ثم ينعطف عند وسط الجزء
من جوفيه ويمر غربا الى أن ينتهي في الجزء الثاني من الخامس ويخرج منه أيضاً في آخر الجزء
الرابع شرقاً من الاقليم الخامس خليج القسطنطينية يمر في الشمال متضيقاً في عرض رمية السهم
الى آخر الاقليم ثم يفضي الى الجزء الرابع من الاقليم السادس وينعطف الى بحر نيطنش ذاهباً
الى الشرق في الجزء الخامس كله ونصف السادس من الاقليم السادس كما نذكر ذلك في أماكنه
وعند ما يخرج هذا البحر الرومي من البحر المحيط في خليج طنجة وينفسح الى الاقليم الثالث
يبقى في الجنوب عن الخليج قطعة صغيرة من هذا الجزء فيها مدينة طنجة على مجمع البحرين
وبعدها مدينة سبتة على البحر الرومي ثم تطاون ثم بادريس ثم يغمر هذا البحر بقية هذا الجزء
شرقاً ويخرج الى الثالث وأكثر العمارة في هذا الجزء في شماله وشمال الخليج منه وهي كلها
بلاد الاندلس الغربية منها مابين البحر المحيط والبحر الرومي وأهل طريف عند مجمع البحرين
وفي الشرق منها على ساحل البحر الرومي الجزيرة الخضراء ثم مالقة ثم المنكب ثم المربة وتحت
هذه من لدن البحر المحيط غرباً وعلى مقربة منه شريش ثم لبلة وقبالها فيه جزيرة قادس وفي
الشرق عن شريش ولبلة اشيلية ثم استجة وقرطبة ومديلة ثم غرناطة وحيان وأبدة ثم وادياش
وبسطة وتحت هذه شتمرية وشلب على البحر المحيط غرباً وفي الشرق عنهما بطليوس وماردة
ويابرة ثم غافق وبزجالة ثم قلعة رياح وتحت هذه اشبونة على البحر المحيط غرباً وعلى نهر باجة

وفي الشرق عنها شترين وموزية على النهر المذكور ثم قنطرة السيف ويسامت أشبونة من جهة الشرق جبل الشارات يبدأ من المغرب هنالك ويذهب مشرقاً مع آخر الجزء من شماله فينتهي الى مدينة سالم فيما بعد النصف منه وتحت هذا الجبل طابيرة الشرق من فورنه ثم طليطة ثم وادي الحجارة ثم مدينة سالم وعند أول هذا الجبل فيما بينه وبين أشبونة بلد قلمرية هذه غربي الاندلس * وأما شرقي الاندلس فعلى ساحل البحر الرومي منها بعد المرية قرطاجنة ثم لفته ثم دانية ثم بلنسية الى طرطوشة آخر الجزء في الشرق وتحتها شمالاً ليورقة وشقورة تتاخان بسطة وقلعة رياح من غرب الاندلس ثم مرسية شرقاً ثم شاطبة تحت بلنسية شمالاً ثم شقر ثم طرطوشة ثم طركونة آخر الجزء ثم تحت هذه شمالاً أرض منجالة وريدة تتاخان لشقورة وطيطة من الغرب ثم افراغة شرقاً تحت طرطوشة وشمالاً عنها ثم في الشرق عن مدينة سالم قلعة أيوب ثم سرقسطة ثم لاردة آخر الجزء شرقاً وشمالاً والجزء الثاني من هذا الاقليم غمر الماء جميعه إلا قطعة من غربية في الشمال فيها بقية جبل البرنات ومعناه جبل التنايا والسالك يخرج اليه من آخر الجزء الاول من الاقليم الخامس يبدأ من الطرف المنتهى من البحر المحيط عند آخر ذلك الجزء جنوباً وشرقاً ويمر في الجنوب بانحراف الى الشرق فيخرج في هذا الاقليم الرابع منحرفاً عن الجزء الاول منه الى هذا الجزء الثاني فيقع فيه قطعة منه تفضي ثنائها الى البر المتصل وتسمى أرض غشكونية وفيه مدينة خريدة وقرقشونة وعلى ساحل البحر الرومي من هذه القطعة مدينة برسلونة ثم أربونة وفي هذا البحر الذي غمر الجزء جزائر كثيرة والكثير منها غير مسكون لصغرهما ففي غربية جزيرة سردانية وفي شرقه جزيرة صقلية متسعة الاقطار يقال ان دورها سبعة مائة ميل وبها مدن كثيرة من مشاهيرها سرقوسة وبارم وطرابغه ومازر ومسيني وهذه الجزيرة تقابل أرض افريقية وفيها بينهما جزيرة أعدوش ومالطة والجزء الثالث من هذا الاقليم منعمور أيضاً بالبحر الا ثلاث قطع من ناحية الشمال الغربية منها أرض قلورية والوسطى من أرض أبكروده والشرقية من بلاد البنادقة والجزء الرابع من هذا الاقليم معمر أيضاً بالبحر كما من وجزائره كثيرة وأكثرها غير مسكون كما في الثالث والمعمر منها جزيرة بلونس في الناحية الغربية الشمالية وجزيرة أفريطش مستطيلة من وسط الجزء الى ما بين الجنوب والشرق منه والجزء الخامس من هذا الاقليم غمر البحر منه مثلثة كبيرة بين الجنوب والغرب ينتهي الضاع الغربي منها الى آخر الجزء في الشمال وينتهي الضلع الجنوبي منها الى نحو الثلاثين من الجزء وبقى في الجانب الشرقي من الجزء قطعة نحو الثلث يمر الشمالي منها الى الغرب منعطفاً مع البحر كما قلناه وفي النصف الجنوبي منها أسفل الشام ويمر في وسطها جبل الاسكام الى أن ينتهي الى آخر

الشام في الشمال فينطف من هنالك ذاهباً الى القطر الشرق الشمالي ويسمي بعد انعطافه جبل السلسلة ومن هنالك يخرج الى الاقليم الخامس ويجوز من عند منعطفه قطعة من بلاد الجزيرة الى جهة الشرق ويقوم من عند منعطفه من جهة المغرب جبال متصلة بعضها ببعض الى أن يتهي الى طرف خارج من البحر الرومي متأخر الى آخر الجزء من الشمالي وبين هذه الجبال ثانيا تسمى الدروب وهي التي تقضي الى بلاد الارمن وفي هذا الجزء قطعة منها بين هذه الجبال وبين جبل السلسلة فأما الجهة الجنوبية التي قدمنا أن فيها أسافل الشام وأن جبل اللكام معترض فيها بين البحر الرومي وآخر الجزء من الجنوب الى الشمال فعلى ساحل البحر منه بلد أنطراطوس في أول الجزء من الجنوب متاخمة لغزة وطرابلس على ساحله من الاقليم الثالث وفي شمال أنطراطوس جبلة ثم اللازقية ثم اسكندرونة ثم سلوقية وبعدها شمالا بلاد انروم وأما جبل اللكام المعترض بين البحر وآخر الجزء بحفافيه فيصاقبه من بلاد الشام من أعلى الجزء جنوباً من غربيه حصن الحواني وهو للحشيشة الاسماعيليه ويعرفون لهذا العهد بالفداوية ويسمى الحصن مصيات وهو قبالة أنطراطوس وقبالة هذا الحصن في شرق الجبل بلد سلمية في الشمال عن حمص وفي الشمال عن مصيات بين الجبل والبحر بلد أنطاكية ويقابلها في شرق الجبل المعرة وفي شرقها المراغة وفي شمال أنطاكية المصيصة ثم أدنة ثم طرسوس آخر الشام ويحاذيها من غرب الجبل قنسرين ثم عين زربة وقبالة قنسرين في شرق الجبل حلب ويقابل عين زربة منبج آخر الشام وأما الدروب فعن يمينها ما بيننا وبين البحر الرومي بلاد الروم التي هي لهذا العهد للتركان وسلطانها ابن عثمان وفي ساحل البحر منها بلد أنطاكية والعلايا وأما بلاد الارمن التي بين جبل الدروب وجبل السلسلة ففيها بلد مرعش وملطية والمعرة الى آخر الجزء الشمالي ويخرج من الجزء الخامس في بلاد الارمن نهر جيحان ونهر سيحان في شرقيه فيمر بها جيحان جنوباً حتى يتجاوز الدروب ثم يمر بطرسوس ثم بالمصيصة ثم ينطف هابطاً الى الشمال ومغرباً حتى يصب في البحر الرومي جنوب سلوقية ويمر نهر سيحان موازياً لنهر جيحان فيحاذي المعرة ومرعش ويتجاوز جبال الدروب الى أرض الشام ثم يمر بعين زربة ويجوز عن نهر جيحان ثم ينطف الى الشمال مغرباً فيختلط بنهر جيحان عند المصيصة ومن غربها وأما بلاد الجزيرة التي يحيط بها منعطف جبل اللكام الى جبل السلسلة ففي جنوبها بلد الرافضة والرقه ثم حران ثم سروج والرها ثم نصيبين ثم سميساط وآمد تحت جبل السلسلة وآخر الجزء من شماله وهو أيضاً آخر الجزء من شرقيه ويمر في وسط هذه القطعة نهر الفرات ونهر دجلة يخرجان من الاقليم الخامس ويمران في بلاد الارمن جنوباً الى أن يتجاوزا جبل السلسلة فيمر نهر الفرات من غربي سميساط وسروج ويخرف

الى الشرق فيمر بقرب الرافضة والرقعة ويخرج الى الجزء السادس وتمر دجلة في شرق آمد وتنطف قريبا الى الشرق فيخرج قريبا الى الجزء السادس وفي الجزء السادس من هذا الاقليم من غربية بلاد الجزيرة وفي الشرق منها بلاد العراق متصلة بها تنهي في الشرق الى قرب آخر الجزء ويعترض من آخر العراق هنالك جبل أصهان هابطا من جنوب الجزء منحرفا الى الغرب فاذا انتهى الى وسط الجزء من آخره في الشمال يذهب مغربا الى أن يخرج من الجزء السادس ويتصل على سمته بجبل السلسلة في الجزء الخامس فينقطع هذا الجزء السادس بقطعتين غربية وشرقية ففي الغربية من جنوبها يخرج الفرات من الخامس وفي شمالها يخرج دجلة منه أما الفرات فأول ما يخرج الى السادس يمر بقرقيسيا ويخرج من هنالك جدول الى الشمال ينساب في أرض الجزيرة ويغوص في نواحيها ويمر من قرقيسيا غير بعيد ثم ينطف الى الجنوب فيمر بقرب الحابور الى غرب الرحبة ويخرج منه جدول من هنالك يمر جنوبا ويبقى صفيين في غربيته ثم ينطف شرقا وينقسم بشعوب فيمر بعضها بالكوفة وبعضها بقصر ابن هيرة وبالجمعين ويخرج جميعا في جنوب الجزء الى الاقليم الثالث فيغوص هنالك في شرق الحيرة والقادسية ويخرج الفرات من الرحبة مشرقا على سمته الى هيت من شمالها يمر الى الزاب والانبار من جنوبها ثم يصب في دجلة عند بغداد وأما نهر دجلة فاذا دخل من الجزء الخامس الى هذا الجزء يمر مشرقا على سمته ومحاذيا لجبل السلسلة المتصل بجبل العراق على سمته فيمر بجزيرة ابن عمر على شمالها ثم بالموصل كذلك وتكرت وينتهي الى الحديثة فينعطف جنوبا وتبقى الحديثة في شرقه والزاب الكبير والصغير كذلك ويمر على سمته جنوبا وفي غرب القادسية الى أن ينتهي الى بغداد ويختلط بالفرات ثم يمر جنوبا على غرب جرجاريا الى أن يخرج من الجزء الى الاقليم الثالث فتنتشر هنالك شعوبه وجداوله ثم يجتمع ويصب هنالك في بحر فارس عند عبادان وفيما بين نهر الدجلة والفرات قبل مجعهما ببغداد هي بلاد الجزيرة ويختلط بنهر دجلة بعد مفارقه ببغداد نهر آخر يأتي من الجهة الشرقية الشمالية منه وينتهي الى بلاد النهر وان قبالة بغداد شرقا ثم ينطف جنوبا ويختلط بدجلة قبل خروجه الى الاقليم الثالث ويبقى ما بين هذا النهر وبين جبل العراق والاعاجم بلد جولاء وفي شرقها عند الجبل بلد حلوان وصيمرة وأما القطعة الغربية من الجزء فيعترضها جبل يبدأ من جبل الاعاجم مشرقا الى آخر الجزء ويسمي جبل شهرزور ويقسمها بقطعتين وفي الجنوب من هذه القطعة الصغرى بلد خوجان في الغرب والشمال عن أصهان وتسمى هذه القطعة بالدهلوس وفي وسطها بلد نهاوند وفي شمالها بلد شهرزور غربا عند ملتقى الجبلين والدينور شرقا عند آخر الجزء وفي القطعة الصغرى الثانية طرف من بلاد أرمينية قاعدتها المراغة والذي يقابلها من جبل

العراق يسمى بارياء وهو مساكن للاكراد والزاب الكبير والصغير الذي على دجلة من ورائه وفي آخر هذه القطعة من جهة الشرق بلاد أذربيجان ومنها تبريز واليلقان وفي الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء قطعة من بحر نيطنش وهو بحر الخزر وفي الجزء السابع من هذا الاقليم من غربه وجنوبه معظم بلاد الهلوس وفيها همزان وقزوين وبقيتها في الاقليم الثالث وفيها هنالك أصبهان ويحيط بها من الجنوب جبل يخرج من غربها ويمر بالاقليم الثالث ثم ينعطف من الجزء السادس الى الاقليم الرابع ويتصل بجبل العراق في شرقيه الذي مر ذكره هنالك وأنه يحيط ببلاد الهلوس في القطعة الشرقية ويهبط هذا الجبل المحيط بأصبهان من الاقليم الثالث الى جهة الشمال ويخرج الى هذا الجزء السابع فيحيط ببلاد الهلوس من شرقها وتحت هنالك قاشان ثم قم وينعطف في قرب النصف من طريقه مغرباً بعض الشيء ثم يرجع مستديراً فيذهب مشرقاً ومنحرفاً الى الشمال حتي يخرج الى الاقليم الخامس ويشتمل على منعطفه واستدارته على بلد الري في شرقيه ويبدأ من منعطفه جبل آخر يمر غرباً الى آخر الجزء ومن جنوبه من هنالك قزوين ومن جانبه الشمالي وجانب جبل الري المتصل معه ذاهباً الى الشرق والشمال الى وسط الجزء ثم الى الاقليم الخامس بلاد طبرستان فيما بين هذه الجبال وبين قطعة من بحر طبرستان ويدخل من الاقليم الخامس في هذا الجزء في نحو النصف من غربه الى شرقه ويعترض عند جبل الري وعند انعطافه الى الغرب جبل متصل يمر على سمتة مشرقاً وبانحراف قليل الى الجنوب حتى يدخل في الجزء الثامن من غربه ويبقى بين جبل الري وهذا الجبل من عند مبدئهما بلاد جرجان فيما بين الجباين ومنها بسطام ووراء هذا الجبل قطعة من هذا الجزء فيها بقية المفازة التي بين فارس وخراسان وهي في شرقي قاشان وفي آخرها عند هذا الجبل بلاداً ستراباذ وحفا في هذا الجبل من شرقيه الى آخر الجزء بلاد نيسابور من خراسان ففي جنوب الجبل وشرق المفازة بلد نيسابور ثم مرو والشاهجان آخر الجزء وفي شماله وشرقي جرجان بلد مهرجان وخازرون وطوس آخر الجزء شرقاً وكل هذه تحت الجبل وفي الشمال عنها بلاد نسا ويحيط بها عند زاوية الجزأين الشمال والشرق مفاوز معطلة وفي الجزء الثامن من هذا الاقليم وفي غربيه نهر جيحون ذاهباً من الجنوب الى الشمال في عدوته الغربية رم وأمل وبلاد خراسان والظاهرية والجرجانية من بلاد خوارزم ويحيط بالزاوية الغربية الجنوبية منه جبل استراباذ المعترض في الجزء السابع قبله ويخرج في هذا الجزء من غربيه ويحيط بهذه الزاوية وفيها بقية بلاد هراة ويمر الجبل في الاقليم الثالث بين هراة والجوزجان حتي يتصل بجبل البتم كما ذكرناه هنالك وفي شرقي نهر جيحون من هذا الجزء وفي الجنوب منه بلاد بخارى ثم بلاد الصفد وقاعدتها سمرقند ثم بلاد اسروشنه ومنها خجندة آخر الجزء

شرقا وفي الشمال عن سمرقند وأسروشنه أرض ايلاق ثم في الشمال عن يلاق أرض الشاش (١) الى آخر الجزء شرقا ويأخذ قطعة من الجزء التاسع في جنوب تلك القطعة بقية أرض فرغانة ويخرج من تلك القطعة التي في الجزء التاسع نهر الشاش يمر معترضا في الجزء الثامن الى أن ينصب في نهر جيحون عند مخرجه من هذا الجزء الثامن في شماله الى الاقليم الخامس ويختلط معه في أرض ايلاق نهر ياتي من الجزء التاسع من الاقليم الثالث من نخوم بلاد التبت ويختلط معه قبل مخرجه من الجزء التاسع نهر فرغانة وعلى سمته نهر الشاش جبل جيراغون يبدأ من الاقليم الخامس وينعطف شرقا ومنحرفا الى الجنوب حتي يخرج الى الجزء التاسع محيطا بأرض الشاش ثم ينعطف في الجزء التاسع فيحيط بالشاش وفرغانة هناك الى جنوبه فيدخل في الاقليم الثالث وبين نهر الشاش وطرف هذا الجبل في وسط الجزء بلاد فاراب وبينه وبين أرض بخاري وخوارزم مفاوز معطلة وفي زاوية هذا الجزء من الشمال والشرق أرض خجندة وفيها بلد السنجاب وطراز * وفي الجزء التاسع من هذا الاقليم في غربيه بعد أرض فرغانة والشاش أرض الخزلية في الجنوب وأرض الخليجية في الشمال وفي شرق الجزء كله أرض الكيمائية ويتصل في الجزء العاشر كله الى جبل قوقيا آخر الجزء شرقا وعلى قطعة من البحر المحيط هنالك وهو جبل ياجوج وما جوج وهذه الامم كلها من شعوب الترك انتهى

* (الاقليم الخامس) * الجزء الاول منه أكثره مغمور بالماء الا قليلا من جنوبه وشرقه لان البحر المحيط بهذه الجهة الغربية دخل في الاقليم الخامس والسادس والسابع عن الدائرة المحيطة بالاقليم فأما المكتشف من جنوبه فقطعة على شكل مثلث متصلة من هنالك بالاندلس وعليها بقيتها ويحيط بها البحر من جهتين كأنهما ضلعان محيطان بزاوية المثلث ففيها من بقية غرب الاندلس سعيور على البحر عند أول الجزء من الجنوب والغرب وسامنكة شرقا عنها وفي جوفها سمورة وفي الشرق عن سامنكة أيلة آخر الجنوب وأرض قستالية شرقا عنها وفيها مدينة شقونية وفي شمالها أرض ليون وبرغشت ثم وراءها في الشمال أرض جليقية الى زاوية القطعة وفيها على البحر المحيط في آخر الضلع الغربي بلد شتياقو ومعناه يعقوب وفيها من شرق بلاد الاندلس مدينة شطالية عند آخر الجزء في الجنوب وشرقا عن قستالية وفي شمالها وشرقا وشقة وينبلونة على سمتها شرقا وشمالا وفي غرب ينبلونة قسطالة ثم ناجزة فيما بينها وبين برغشت ويعترض وسط هذه القطعة جبل عظيم محاذ للبحر وللضلع الشمالي الشرقي منه وعلى قرب ويتصل به وبطرف

(١) في المشترك اقليم ايلاق متصل باقليم الشاش لافصل بينهما وهو يكسر الهزمة وسكون

الياء بعدها اه

البحر عند ينبلونة في جهة الشرق الذي ذكرنا من قبل أن يتصل في الجنوب بالبحر الرومي في الاقليم الرابع ويصير حجرا على بلاد الاندلس من جهة الشرق وثناياه أبواب لها تقضي الى بلاد غشكونية من أم الفرنج فمنها من الاقليم الرابع برشلونة وأربونة على ساحل البحر الرومي وخريدة وقرقشونة وراهما في الشمال ومنها في الاقليم الخامس طلوشة شمالا عن خريدة وأما المنكشف في هذا الجزء من جهة الشرق فقطعة على شكل مثلث مستطيل زاويته الحادة وراء البرنات شرقا وفيها على البحر المحيط على رأس القطعة التي يتصل بها جبل البرنات بلد نيونة وفي آخر هذه القطعة في الناحية الشرقية الشمالية من الجزء أرض بنطو من الفرنج الى آخر الجزء وفي الجزء الثاني في الناحية الغربية منه أرض غشكونية وفي شمالها أرض بنطو وبرغشت وقد ذكرناها وفي شرق بلاد غشكونية في شمالها قطعة أرض من البحر الرومي دخلت في هذا الجزء كالضرس مائلة الى الشرق قليلا وصارت بلاد غشكونية في غربها داخلية في جون من البحر وعلى رأس هذه القطعة شمالا بلاد جنوة وعلى سمتها في الشمال جبل نيت جون وفي شماله وعلى سمتها أرض برغونة وفي الشرق عن طرف جنوة الخارج من البحر الرومي طرف آخر خارج منه يبق بينهما جون داخل من البر في البحر في غربيه بيش وفي شرقيه مدينة رومة العظمى كرسى ملك الافرنجية ومسكن البابا بتركهم الاعظم وفيها من المباني الضخمة والهايا كل المهولة والكنائس العادية ماهوم معروف الاخبار ومن عجائبها النهر الجارى في وسطها من المشرق الى المغرب مفروش قاعه ببلاط النحاس وفيها كنيسة بطرس وبولس من الحواريين وهما مدفونان بها* وفي الشمال عن بلاد رومة بلاد أفرنسية الى آخر الجزء وعلى هذا الطرف من البحر الذي في جنوبه رومة بلاد نابل في الجانب الشرقى منه متصلة ببلد قلورية من بلاد الفرنج وفي شمالها طرف من خليج البنادقة دخل في هذا الجزء من الجزء الثالث مغربا ومحاذيا للشمال من هذا الجزء وانتهى الى نحو الثلث منه وعليه كثير من بلاد البنادقة دخل في هذا الجزء من جنوبه فيما بينه وبين البحر المحيط ومن شماله بلاد انكلالية في الاقليم السادس وفي الجزء الثالث من هذا الاقليم في غربيه بلاد قلورية بين خليج البنادقة والبحر الرومي يحيط بها من شرقيه يوصل من برها في الاقليم الرابع في البحر الرومي في جون بين طرفين خرجا من البحر على سمت الشمال الى هذا الجزء* وفي شرقى بلاد قلورية بلاد انكردة في جون بين خليج البنادقة والبحر الرومي ويدخل طرف من هذا الجزء في الجون في الاقليم الرابع وفي البحر الرومي ويحيط به من شرقيه خليج البنادقة من البحر الرومي ذاهبا الى سمت الشمال ثم ينطفئ الى الغرب محاذيا لآخر الجزء الشمالى ويخرج على سمتها من الاقليم الرابع جبل عظيم يوازيه ويذهب معه في الشمال ثم يغرب معه في الاقليم السادس الى ان

العرب وفي معانهم ظعون البربروزانة بالمغرب والاكراد والتركان وانترك بالمشرق الا ان العرب أبعد نجعة وأشد بدأة لانهم مختصون بالقيام على الابل فقط وهؤلاء يقومون عليها وعلى الشياه والبقر معها فقد تبين لك ان حيل العرب طبيعي لا بد منه في العمران والله سبحانه وتعالى أعلم

٣ (فصل في ان البدو أقدم من الحضرة وسابق عليه وان البادية أصل العمران والامصار مدد لها)

قد ذكرنا أن البدو هم المقتضرون على الضروري في أحوالهم العاجزون عما فوقه وأن الحضرة المعتنون بمجالات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم ولا شك أن الضروري أقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه لان الضروري أصل والكمالي فرع ناشئ عنه فالبدو أصل للمدن والحضرة وسابق عليهما لان أول مطالب الانسان الضروري ولا ينتهي الى الكمال والترف الا اذا كان الضروري حاصلًا فخشونة البدوة قبل رقة الحضارة ولهذا نجد التمدن غاية للبدوى يجرى اليها وينتهي بسعيه الى مقترحه منها ومتى حصل على الرياش الذي يحصل له به أحوال الترف وعوائده عاج الى الدعة وأمكن نفسه الى قياد المدينة وهكذا شأن القبائل المتبدية كلهم والحضري لا يتشوف الى أحوال البادية الا لضرورة تدعوه اليها أو لتقصير عن أحوال أهل مدينته وما يشهد لنا أن البدو أصل للحضرة ومتقدم عليه أنا اذا فتشنا أهل مصر من الامصار وجدنا أولية أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية ذلك المصر وفي قراءاتهم أيسروا فسكنوا المصر وعدلوا الى الدعة والترف الذي في الحضرة وذلك يدل على ان أحوال الحضرة ناشئة عن أحوال البدوة وانها أصل لها فتفهمه ثم ان كل واحد من البدو والحضرة متفاوت الاحوال من جنسه فرب حي أعظم من حي وقبيلة أعظم من قبيلة ومصر أوسع من مصر ومدينة أكثر عمرانًا من مدينة فقد تبين أن وجود البدو متقدم على وجود المدن والامصار وأصل لها بما أن وجود المدن والامصار من عوائد الترف والدعة التي هي متأخرة عن عوائد الضرورة المعاشية والله أعلم

٤ (فصل في أن أهل البدو أقرب الى الخير من أهل الحضرة)*

وسببه ان النفس اذا كانت على الفطرة الاولى كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير أو شر قال صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه وبقدر ما سبق اليها من أحد الخلقين تبعد عن الآخر ويصعب عليها اكتسابه فصاحب الخير اذا سبقت الى نفسه عوائد الخير وحصلت لها ملكته بعد عن الشر وصعب عليه طريقه وكذا صاحب الشر اذا سبقت اليه أيضا عوائد الشر وأهل الحضرة لكثرة ما يعانون من

فنون الملاذ وعوائد الترف والاقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها قد تلونت أنفسهم
بكثير من مذمومات الخلق والشر وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من
ذلك حتى لقد ذهب عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم فتجد الكثير منهم يقدعون في أقوال
الفحشاء في مجالسهم وبين كبارهم وأهل محارمهم لا يصدهم عنه وازع الحشمة لما أخذتهم به
عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قولاً وعملاً وأهل البدو وإن كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم
الأنه في المقدار الضروري لافي الترف ولا في شيء من أسباب الشهوات واللذات وذوابعها
فعوائدهم في معاملاتهم على نسبتها وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة
الى أهل الحضرة أقل بكثير فهم أقرب الى الفطرة الاولى وأبعد عما ينطبع في النفس من سوء
الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقبحها فيسهل علاجهم عن علاج الحضرة وهو ظاهر وقد
توضح فيما بعد أن الحضرة هي نهاية العمران وخروجه الى الفساد ونهاية الشر والبعد عن الخير
فقد تبين أن أهل البدو أقرب الى الخير من أهل الحضرة والله يحب المتقين ولا يعترض على
ذلك بما ورد في صحيح البخاري من قول الحجاج لسلمة بن الأكوع وقد بلغه أنه خرج الى
سكنى البادية فقال له ارتددت على عقبيك تعربت فقال لا ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن
لي في البدو فأعلم أن الهجرة افترضت أول الاسلام على أهل مكة ليكونوا مع النبي صلى الله
عليه وسلم حيث حل من المواطن ينصرونه ويظاهرونه على أمره ويحرسونه ولم تكن واجبة
على الأعراب أهل البادية لأن أهل مكة يحرسهم من عصية النبي صلى الله عليه وسلم في المظاهرة
والحراسة ما لا يمس غيرهم من بادية الأعراب وقد كان المهاجرون يستعيذون بالله من التعرب
وهو سكنى البادية حيث لا يحب الهجرة* وقال صلى الله عليه وسلم في حديث سعد بن أبي
وقاص عند مرضه بمكة اللهم أمض لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم ومعناه أن يوقفهم
للازمة المدينة وعدم التحول عنها فلا يرجعوا عن هجرتهم التي ابتدأوا بها وهو من باب
الرجوع على عقب في السعي الى وجه من الوجوه وقيل إن ذلك كان خاصاً بما قبل الفتح
حين كانت الحاجة داعية الى الهجرة لقللة المسلمين وأما بعد الفتح وحين كثر المسلمون واعتزوا
وتكفل الله لنيه بالمصمة من الناس فإن الهجرة ساقطة حينئذ لقوله صلى الله عليه وسلم
لا هجرة بعد الفتح وقيل سقطت أنشاؤها عن يسلم بعد الفتح وقيل سقط وجوبها عن أسلم
وهاجر قبل الفتح والكل مجمعون على أنها بعد الوفاة ساقطة لأن الصحابة افترقوا من يومئذ
في الآفاق وانتشروا ولم يبق الا فضل السكنى بالمدينة وهو هجرة فقول الحجاج لسلمة حين
سكن البادية ارتددت على عقبيك تعربت نعى عليه في ترك السكنى بالمدينة بالإشارة الى الدعاء
المأثور الذي قدمناه وهو قوله ولا تردهم على أعقابهم وقوله تعربت إشارة الى أنه صار من

وأن عدة أثمان الواحد ثمانية فإذا جمعت الثمن من الدراهم إلى الثمن الآخر فكان كله ثمن طائر
فهي ثمانية طيور عدة أثمان الواحد وتزيد على الثمانية طائراً آخر وهو المشتري بالفلوس المأخوذة
أولاً وعلى سعره اشترت بالدراهم فتكون تسعة فانت ترى كيف خرج لك الجواب المضمّر
بسر التناسب الذي بين أعداد المسئلة والوهم أول ما يلقي اليك هذه وأمثالها إنما يجعله من
قبيل الغيب الذي لا يمكن معرفته وظهر أن التناسب بين الأمور هو الذي يخرج مجهولها من
معلومها وهذا إنما هو في الواقعات الحاصلة في الوجود أو العلم وأما الكائنات المستقبلية إذ لم تعلم
أسباب وقوعها ولا يثبت لها خبر صادق عنها فهو غيب لا يمكن معرفته وإذا تبين لك ذلك
فالأعمال الواقعة في الزايرة كلها إنما هي في استخراج الجواب من ألفاظ السؤال لأنها كما رأيت
استنباط حروف على ترتيب من تلك الحروف بعينها على ترتيب آخر وسر ذلك إنما هو من
تناسب بينهما يطالع عليه بعض دون بعض فمن عرف ذلك التناسب تيسر عليه استخراج ذلك
الجواب بتلك القوانين والجواب يدل في مقام آخر من حيث موضوع ألفاظه وتراكيبه على
وقوع أحد طرفي السؤال من نفي أو إثبات وليس هذا من المقام الأول بل إنما يرجع لمطابقة
الكلام لما في الخارج ولا سبيل إلى معرفة ذلك من هذه الأعمال بل البشر محجوبون عنه وقد
استأثر الله بعلومه والله يعلم وأتم لاتعلمون

❦ الفصل الثاني ❦

في العمران البدوي والأتم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الأحوال وفيه أصول وتمهيدات

❦ فصل في أن أحيال البدو والحضر طبيعة ❦

١

* (اعلم) * أن اختلاف الأحيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلته من المعاش فإن
اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه ونشيط قبل الحاجة
والكمالي ففهم من يستعمل الفلاح من الغراسة والزراعة ومنهم من يتحلل القيام على الحيوان
من الغنم والبقر والعز والنحل والدود لتتاجها واستخراج فضلاتها وهؤلاء القائمون على الفلاح
والحيوان تدعوهم الضرورة ولا بد إلى البدو لأنه متسع للملايتسع له الحواضر من المزارع
والقطن والمسارح للحيوان وغير ذلك فكان اختصاص هؤلاء بالبدو أمراً ضرورياً لهم وكان
حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والكن والدفء إنما هو
بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك ثم إذا
اتسعت أحوال هؤلاء المتحللين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغني والرفه دعاهم

ذلك الى السكون والدعة وتماونوا في الزائد على الضرورة واستكثروا من الاقوات والملابس والتأنق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والامصار للتحضر ثم تزيد أحوال الرفه والدعة فتجىء عوائد الترف البالغة مبالغها في التأنق في علاج القوت واستجادة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والديباج وغير ذلك ومعالجة البيوت والصروح واحكام وضعها في تنجيدها والانهاء في الصنائع في الخروج من القوة الى الفعل الى غاياتها فيتخذون القصور والمنازل ويجرون فيها المياه ويعالون في صرحها ويبالغون في تنجيدها ويختلفون في استجادة مايتخذونه لمعاشهم من ملبوس أو فراش أو آنية أو ماعون وهؤلاء هم الحضرة ومعناه الحاضرون أهل الامصار والبلدان ومن هؤلاء من يتجمل في معاشه الصنائع ومنهم من يتجمل التجارة وتكون مكاسبهم أنمى وأرفه من أهل البدو لان أحوالهم زائدة على الضروري ومعاشهم على نسبة وجدهم فقد تبين أن أحيال البدو والحضر طيعية لا بد منهما كما قلنا

*(فصل في ان جيل العرب في الحلقة طيعي) *

٢

قد قدمنا في الفصل قبله ان أهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطيعي من الفلح والقيام على الانعام وأنهم مقتصرون على الضروري من الاقوات والملابس والمساكن وسائر الاحوال والعوائد ومقتصرون عما فوق ذلك من حاجي أو كالي يتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة غير منجدة انما هو قصد الاستظلال والكن لاماوراء وقد يأوون الى الغيران والكهوف وأما أقواتهم فيتناولون بها يسيرا بملاج أو بغير علاج البتة الا مامسته النار فمن كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالملح كان المقام به أولى من الضغن وهؤلاء سكان المذار والقرى والحيال وهم عامة البربر والاعاجم ومن كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر فهم ظعن في الاغلب لارتباد المسارح والمياه لحيواناتهم فالتقلب في الارض أصالح بهم ويسمون شاوية ومعناه القائمون على الشاء والبقر ولا يبعدون في القفر لفقدان المسارح الطيبة وهؤلاء مثل البربر والرك واخوانهم من التركان والصقالبة وأما من كان معاشهم في الابل فهم أكثر ظمنا وأبعد في القفر مجالا لان مسارح التلول ونباتها وشجرها لا يستغني بها الابل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفر وورود مياه الملهجة والتقلب فصل الشتاء في نواحيه فرارا من أذي البرد الى دفء هوائه وطلبها لماخض النتاج في رماله اذ الابل أصعب الحيوان فصلا ومخاضا وأحوجها في ذلك الى الدفاء فاضطروا الى ابعاد النجعة وربما زادتهم الحامية عن التلول أيضا فأوغلوا في القفار نفرة عن الضعة منهم فكانوا لذلك أشد الناس توحشا وينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوان العجم وهؤلاء هم

الاعراب الذين لا يهاجرون وأجاب سلمة بانكار ما ألزمه من الامرين وان النبي صلى الله عليه وسلم أذن له في البدو ويكون ذلك خاصا به كشهادة خزيمة وعناق أبي بردة او يكون الحجاج انما نعى عليه ترك السكنى بالمدينة فقط لعلمه بسقوط الهجرة بعد الوفاة واجابه سلمة بان اغتنامه لاذن النبي صلى الله عليه وسلم أولى وأفضل مما آثره به واختصه الا لمعني علمه فيه وعلى كل تقدير فليس دليلا على مذمة البدو الذي عبر عنه بالتعرب لان مشروعية الهجرة انما كانت كما علمت لمظاهرة النبي صلى الله عليه وسلم وحراسته لامتة البدو فليس في النعي على ترك هذا الواجب بالتعرب دليل على مذمة التعرب والله سبحانه أعلم وبه التوفيق

٥ (فصل في أن أهل البدو أقرب الى الشجاعة من أهل الحضرة)

والسبب في ذلك ان أهل الحضرة ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة وانغمسوا في النعم والترف ووكلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم الى واليهم والحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولت حراستهم واستناموا الى الاسوار التي تحوطهم والحرز الذي يحول دونهم فلا تهيجهم هيمة ولا ينفر لهم صيدهم غارون آمنون قد ألقوا السلاح وتوالت على ذلك منهم الاجيال وتبزوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على أبي مشواهم حتى صار ذلك خلقاً يتنزل منزلة الطبيعة وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي وبعدهم عن الحامية وانتبذهم عن الاسوار والابواب قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها الى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم فهم دائماً يحملون السلاح ويتلقون عن كل جانب في الطرق ويحافون عن الهجوع الاغرا في المجالس وعلى الرجال وفوق الاقتاب ويتوجسون للنبات والهيئات ويتفردون في القفر والبيداء مدلين ببأسهم واثقين بانفسهم قد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية يرجعون اليها متى دعاهم داع أو استنفروهم صارخ وأهل الحضرة بهما خالطوهم في البادية أو صاحبوهم في السفر عيال عليهم لا يملكون معهم شيئاً من أمر أنفسهم وذلك مشاهد بالعيان حتى في معرفتي النواحي والجهات وموارد المياه ومشارع السبل وسبب ذلك ما شرهناه وأصله أن الانسان ابن عوائده ومألوفه لابن طبيعته ورازحه فالذي ألفه في الاحوال حتى صار خلقاً وملكاً وعادته تنزل منزلة الطبيعة والحيولة واعتبر ذلك في الآدميين تجده كثيراً صحيحاً والله يخلق ما يشاء

٦ (فصل في أن معاناة أهل الحضرة للاحكام مفسدة للبأس فيهم ذاهبة بالمنعة منهم)

وذلك انه ليس كل أحد مالك أمر نفسه اذ الرؤساء والاراء المالكون لامر الناس قليل

بالنسبة الى غيرهم فمن الغالب أن يكون الانسان في ملكة غيره ولا بد فان كانت الملكة رفيقة وعادلة لا يعاني منها حكم ولا منع وصد كان من تحت يدها مدلين بما في أنفسهم من شجاعة أو حبن واثقين بعدم الوازع حتى صار لهم الادلال جبلة لا يعرفون سواها وأما اذا كانت الملكة وأحكامها بالقهر والسطوة والاخافة فتكسر حينئذ من سورة بأسهم وتذهب المنعة عنهم لما يكون من التسكسل في النفوس المضطهدة كما نينه وقد نهى عمر سعدا رضي الله عنهما عن مثلها لما أخذ زهرة بن حوبة سلب الجالنوس وكانت قيمته خمسة وسبعين ألفا من الذهب وكان اتبع الجالنوس يوم القادسية فقتله وأخذ سلبه فأنزعه منه سعد وقال له هلا انتظرت في اتباعه اذني وكتب الى عمر يستأذنه فكتب اليه عمر تعمد الى مثل زهرة وقد صلى بما صلى به وبقي عليك ما بقي من حربك وتكسر فوقه وتفسد قلبه وأمضي له عمر سلبه وأما اذا كانت الاحكام بالعقاب فذهبة للبأس بالكلية لان وقوع العقاب به ولم يدافع عن نفسه يكسبه المذلة التي تكسر من سورة بأسه بلا شك وأما اذا كانت الاحكام تأديبية وتعليمية وأخذت من عهد الصبا أثرت في ذلك بعض الشيء لمرابه على المخافة والانقياد فلا يكون مدلا بآسه ولهذا نجد المتوحشين من العرب أهل البدو أشد بأساً ممن تأخذ الاحكام ونجد أيضاً الذين يعانون الاحكام وملكتها من لدن مرباهم في التأديب والتعليم والصنائع والعلوم والديانات ينتص ذلك من بأسهم كثيراً ولا يكادون يدفعون عن أنفسهم عادية بوجه من الوجوه وهذا شأن طلبة العلم المتبحرين للقراءة والأخذ عن المشايخ والأئمة الممارسين للتعليم والتأديب في مجالس الوقار والهمية فيهم هذه الاحوال وذهابها بالمنعة والبأس ولا تستنكر ذلك بما وقع في الصحابة من أخذهم بأحكام الدين والشرعية ولم ينتص ذلك من بأسهم بل كانوا أشد الناس بأساً لأن الشارع صلوات الله عليه لما أخذ المسلمون عنه دينهم كان وازعهم فيه من أنفسهم لما تلى عليهم من الترغيب والترهيب ولم يكن بتعليم صناعي ولا تأديب تعليمي انما هي أحكام الدين وآدابه المتلقاة نقلاً يأخذون أنفسهم بها بما رسخ فيهم من عقائد الايمان والتصديق فلم تزل سورة بأسهم مستحكمة كما كانت ولم تحدها ظفار التأديب والحكم * قال عمر رضي الله عنه من لم يؤدبه الشرع لأدبه الله حرصاً على أن يكون الوازع لكل أحد من نفسه وقيناً بأن الشارع أعلم بمصالح العباد ولما تناقص الدين في الناس واخذوا بالاحكام الوازعة ثم صار الشرع علماً وصناعة يؤخذ بالتعليم والتأديب ورجع الناس الى الحضارة وخلق الانقياد الى الاحكام فنقص بذلك سورة البأس فيهم فقد تين أن الاحكام السلطانية والتعليمية مفسدة للبأس لان الوازع فيها أجنبي وأما الشرعية فغير مفسدة لان الوازع فيها ذاتي ولهذا كانت هذه الاحكام السلطانية والتعليمية مما تؤثر في أهل الحواضر في ضعف نفوسهم وخضد الشوكة منهم بمعاتهم في وليدهم وكهولهم والبدو بمعزل عن هذه المنزلة لبعدهم عن

أحكام الساطان والتعليم والآداب ولهذا قال محمد بن أبي زيد في كتابه في أحكام المعلمين والمتعلمين انه لا ينبغي للمؤدب أن يضرب أحدا من الصبيان في التعليم فوق ثلاثة أسواط نقله عن شريح القاضي واحتج له بعضهم بما وقع في حديث بدء الوحي من شأن الغط وأنه كان ثلاث مرات وهو ضعيف ولا يصلح شأن الغط أن يكون دليلا على ذلك لبعده عن التعليم المتعارف والله الحكيم الخبير

٧ * (فصل في أن سكنى البدو لا يكون الالقبائل أهل العصية) *

(اعلم) أن الله سبحانه ركب في طبائع البشر الخير والشر كما قال تعالى وهديناه التجدين وقال فآلهمها فجورها وتقواها والشر أقرب الحلال إليه إذا أهمل في مرعي عوائده ولم يهذب الاقتداء بالدين وعلى ذلك الجمل الغفير الأمن وفقه الله ومن أخلاق البشر فيهم الظلم والعدوان بعض على بعض فمن امتدت عينه إلى متاع أخيه امتدت يده إلى أخذه إلا أن يصده وازع كما قال والظلم من شيم النفوس فان نجد * ذاعفة فلعللة لا يظلم

فأما المدن والامصار فعدوان بعضهم على بعض تدفعه الحكام والدولة بما قبضوا على أيدي من تحتم من الكافة أن يمتد بعضهم على بعض أو يعدو عليه فهم مكبو حون (١) بحكمة القهر والسلطان عن الظلم إلا إذا كان من الحاكم بنفسه وأما العدوان الذي من خارج المدينة فيدفعه سياج الاسوار عند الغفلة أو الغرة ليلا أو العجز عن المقاومة نهارا أو يدفعه ذباد الحامية من أعوان الدولة عند الاستعداد والمقاومة وأما أحياء البدو فيذع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبرائهم بما وقر في نفوس الكافة لهم من الوقار والتجلة وأما حللمهم فانما يذود عنها من خارج حامية الحى من أجدادهم وقتنائهم المعروفين بالشجاعة فيهم ولا يصدق دفاعهم وذبادهم إلا إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد لانهم بذلك تشدد شوكتهم ويخشى جانبهم اذ نعة (٢) كل أحد على نسبه وعصبيته أهم وما جعل الله في قلوب عباده من الشفقة والنعة على ذوي أرحامهم وقربائهم موجودة في الطبائع البشرية وبها يكون التعاضد والتناصر وتعظم رهبة العدو لهم واعتبر ذلك فيما حكاه القرآن عن إخوة يوسف عليه السلام حين قالوا لأبيه لئن أكله الذئب ونحن عصبية إنا إذا لخاسرون والمعنى أنه لا يتوهم العدوان على أحد مع وجود العصبية له وأما المتفردون في أنسابهم فقل أن تصيب أحدا منهم نعة على صاحبه فاذا أظلم الجوب بالشر يوم الحرب تسلل كل

(١) قوله بحكمة بفتح الحاء والكاف

(٢) النعة والتعار بالضم فيهما والنعر الصراخ والصياح في حرب أو شركا في القاموس

واحد منهم يبني النجاة لنفسه خيفة واستيحاشا من التخاذل فلا يقدرّون من أجل ذلك على سكني الفقر لما أنهم حينئذ طعمة لمن ياتهمهم من الأثم سواهم وإذا تبين ذلك في السكني التي تحتاج للمدافعة والحماية فبمثلها يتبين لك في كل أمر يحمل الناس عليه من نبوة أو إقامة ملك أو دعوة أو بلوغ الغرض من ذلك كله إنما يتم بالقتال عليه لما في طبائع البشر من الاستعصاء ولا بد في القتال من العصية كما ذكرناه آنفاً فاتخذها ماماتقتدى به فيها نورده عليك بعد والله الموفق للصواب

٨ * (فصل في أن العصية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه) *

وذلك ان صلة الرحم طبيعي في البشر الا في الاقل ومن صلّتها النعمة على ذوى القربى واهل الارحام ان ينالهم ضيم أو تصيهم هلكة فان القريب يجد في نفسه غضاظة من ظلم قريبه أو العداء عليه ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والممالك نزعاً طبعية في البشر منذ كانوا فاذا كان النسب المتوصل بين المتناصرين قريباً جداً بحيث حصل به الاتحاد والالتحام كانت الوصلة ظاهرة فاستدعت ذلك بمجرد ووضوحها وإذا بعد النسب بعض الشيء فرمما تنوحي بعضها ويبقى منها شهرة فتحمل على النصرة لذوى نسبه بالأمر المشهور منه فراراً من الغضاظة التي يتوهمها في نفسه من ظلم من هو منسوب اليه بوجه ومن هذا الباب الولاء والحنف اذ نعمة كل احد على اهل ولائه وحلفه للالفة التي تلحق انفس من اهتمام جارها أو قريبها أو نسبها بوجه من وجوه النسب وذلك لاجل اللحمة الحاصلة من الولاء مثل لحمة النسب أو قريباً منها ومن هذا تفهم معنى قوله صلى الله عليه وسلم تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم بمعنى أن النسب إنما فائدته هذا الالتحام الذي يوجب صلة الارحام حتى تقع المناصرة والنعرة وما فوق ذلك مستغني عنه اذ النسب أمر وهمي لاحقيقة له ونفعه إنما هو في هذه الوصلة والالتحام فاذا كان ظاهراً واضحاً حمل انفس على طبيعتها من النعمة كما قلناه واذا كان إنما يستفاد من الخبر البعيد ضعف فيه الوهم وذهبت فائدته وصار الشغل به مجاناً ومن أعمال الله المنهي عنه ومن هذا الاعتبار معنى قولهم النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر بمعنى أن النسب اذا خرج عن الوضوح وصار من قبيل العلوم ذهبت فائدة الوهم فيه عن النفس وانتفت النعمة التي تحمل عليها العصية فلا منفعة فيه حينئذ والله سبحانه وتعالى أعلم

٩ (فصل في أن الصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين في الفقر من العرب ومن في معنائهم)

وذلك لما اختصوا به من نكد العيش وشظف الاحوال وسوء المواطن حملتهم عليها الضرورة التي عينت لهم تلك القسمة وهي لما كان معاشهم من القيام على الابل ونجاحها ورعايتها والابل

والعجم * وانظر خلاف الناس في نسب آل المنذر وغيرهم يتبين لك شيء من ذلك ومنه شأن بحيلة في عرقة بن هرثة لما ولاء عمر عليهم فسألوه الاعفاء منه وقالوا هو فينا لزيق أي دخيل ولصيق وطلبوا أن يولى عليهم جريراً فسأله عمر عن ذلك فقال عرقة صدقوا يا أمير المؤمنين أنا رجل من الأزد أصبت دماً في قومي ولحقت بهم وانظر منه كيف اختلط عرقة بحيلة ولبس جلدتهم ودعى بنسبهم حتى ترشح للرياسة عليهم لولا علم بعضهم بوشائجه ولو غفلوا عن ذلك وامتد الزمن لتوسى بالجملة وعد منهم بكل وجه ومذهب فافهمه واعتبر سر الله في خليقته ومثل هذا كثير لهذا العهد ولما قبله من اليهود والله الموفق للصواب بمنه وفضله وكرمه

١١ - فصل في أن الرياسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العvisية

(اعلم) أن كل حي أو بطن من القبائل وإن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام ففهم أيضاً عvisيات أخرى لأنساب خاصة هي أشد التحاماً من النسب العام لهم مثل عشير واحد أو أهل بيت واحد أو أخوة بني أب واحد لا مثل بني العم الأقربين أو الأبعدين فهؤلاء أقعد بنسبهم المخصوص ويشاركون من سواهم من العvisائب في النسب العام والنعرة تقع من أهل نسبهم المخصوص ومن أهل النسب العام إلا أنها في النسب الخاص أشد لقرب اللحم والرياسة فيهم إنما تكون في نصاب واحد منهم ولا تكون في الكل ولما كانت الرياسة إنما تكون بالغلب وجب أن تكون عvisية ذلك النصاب أقوى من سائر العvisائب ليقع الغلب بها وتم الرياسة لاهما فإذا وجب ذلك تعين أن الرياسة عليهم لا تزال في ذلك النصاب المخصوص أهل الغلب عليهم إذ لو خرجت عنهم وصارت في العvisائب الأخرى النازلة عن عvisابتهم في الغلب لما تمت لهم الرياسة فلا تزال في ذلك انصباب متناقلة من فرع منهم إلى فرع ولا تنتقل إلا إلى الأقوى من فروعه لما قلنا من سر الغلب لأن الاجتماع والعvisية بمثابة المزاج للمتكون والمزاج في المتكون لا يصح إذا تكافأت العناصر فلا بد من غلبة أحدها وإلا لم يتم التكوين فهذا هو سر اشتراط الغلب في العvisية ومنه تعين استمرار الرياسة في النصاب المخصوص بها كما قررناه

١٢ - فصل في أن الرياسة على أهل العvisية لا تكون في غير نسبهم

وذلك أن الرياسة لا تكون إلا بالغلب والغلب إنما يكون بالعvisية كما قدمناه فلا بد في

(١١) هذا الفصل ساقط من النسخ الفاسية وموجود في النسخة التونسية وإثباته

أولى ليطابق كلامه أول الفصل ١٢ اهـ

تدعوهم الى اتوحش في القفر لرعيهم من شجر ذوناجها في رماله كما تقدم والقفر مكان الشظف والسغب فصار لهم إلفا وعادة ورئت فيه أحيالهم حتى تمكنت خلقاً وجيلة فلا ينزع اليهم أحد من الامم أن يساهمهم في حالهم ولا يأنس بهم أحد من الاجيال بل لو وجد واحد منهم السيل الى الفرار من حاله وأمكنه ذلك لما تركه فيؤمن عليهم لاجل ذلك من اختلاط أنسابهم وفسادها ولا تزال بينهم محفوفة صريحة واعتبر ذلك في مضر من قریش وكنانة وثقيف وبنی أسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة لما كانوا أهل شظف ومواطن غير ذات زرع ولا ضرع وبعدوا من أرياف الشام والعراق ومعادن الأدم والجبوب كيف كانت أنسابهم صريحة محفوفة لم يدخلها اختلاط ولا عرف فيهم شوب * وأما العرب الذين كانوا بالتلول وفي معادن الحصب للمراعى والعيش من حمير وكهلان مثل الحُم وجذام وغسان وطی وقضاعة وإياد فاختلقت أنسابهم وتداخلت شعوبهم ففي كل واحد من بيوتهم من الخلاف عند الناس ما تعرف وإنما جاءهم ذلك من قبل العجم ومخالطتهم وهم لا يعتبرون المحافظة على النسب في بيوتهم وشعوبهم وإنما هذا للعرب فقط * قال عمر رضي الله تعالى عنه تعاملوا بالنسب ولا تحكوا كنيت السواد اذا سئل أحدهم عن أصله قال من قرية كذا هذا الى مالحق هؤلاء العرب أهل الارياض من الازدحام مع الناس على البلد الطيب والمراعى الخصيبة فكثرت الاختلاط وتداخلت الانساب وقد كان وقع في صدر الاسلام الانتماء الى المواطن فيقال جند قنسرین جند دمشق جند العواصم وانتقل ذلك الى الاندلس ولم يكن لاطراح العرب أمر النسب وإنما كان لاختصاصهم بالمواطن بعد الفتح حتى عرفوا بها وصارت لهم علامة زائدة على النسب يميزون بها عند أمرائهم ثم وقع الاختلاط في الحواضر مع العجم وغيرهم وفسدت الانساب بالجملة وفقدت ثمرتها من العصبية فاطرحت ثم تلاشت القبائل ودرثت فدرثت العصبية بدثورها وبقي ذلك في البدو كما كان والله وارث الارض ومن عليها

فصل في اختلاط الانساب كيف يقع

١٠

(اعلم) أنه من الين أن بعضاً من أهل الانساب يسقط الى أهل نسب آخر بقربة اليهم أو حلف أو ولاء أو لفرار من قومه بجنابة أصابها فيدعى بنسب هؤلاء ويعد منهم في ثمراته من الثمرة والقود وحمل الديات وسائر الاحوال واذا وجدت ثمرات النسب فكأنه وجدلانه لامعنى لكونه من هؤلاء ومن هؤلاء إلا جريان أحكامهم وأحوالهم عليه وكأنه التحم بهم ثم انه قد يتناسى النسب الاول بطول الزمان ويذهب أهل العلم به فيخفي على الاكثر وما زالت الانساب تسقط من شعب الى شعب ويلتحم قوم بأخرين في الجاهلية والاسلام والعرب

الرياسة على القوم أن تكون من عصية غالبة لعصياتهم واحدة واحدة لان كل عصية منهم اذا أحست بغلب عصية الرئيس لهم أقروا بالاذعان والاتباع والساقط في نسبهم بالجملة لا تكون له عصية فيهم بالنسب انما هو ملصق لزيق وغاية التعصب له بالولاء والحلف وذلك لا يوجب له غالبا عليهم البتة واذا فرضنا أنه قد التحم بهم واحتلط وتنوسي عهده الاول من الالتصاق ولبس جلدتهم ودعي بنسبهم فكيف له الرياسة قبل هذا الالتحام أولا حدم من سلفه والرياسة على القوم انما تكون متناقلة في منبت واحد تعين له الغلب بالعصية فالاولوية التي كانت لهذا الملتصق قد عرف فيها التصاقه من غير شك ومنعه ذلك الالتصاق من الرياسة حينئذ فكيف تنوقلت عنه وهو على حال الالتصاق والرياسة لا بد وان تكون موروثه عن مستحقها لما قلناه من التغلب بالعصية وقد يتشوف كثير من الرؤساء على القبائل والعصائب الى أنساب يلهجون بها اما الخصوصية فضيلة كانت في أهل ذلك النسب من شجاعة أو كرم أو ذكر كيف اتفق فيزعمون الى ذلك النسب ويتورطون بالدعوي في شعوبه ولا يعلمون مايقعون فيه أنفسهم من القبح في رياستهم والظعن في شرفهم وهذا كثير في الناس لهذا العهد فمن ذلك مايدعيه زناتة جملة أنهم من العرب ومنه ادعاء اولاد رباب المعروفين بالحجازيين من بني عامر أحد شعوب زغبة أنهم من بني سليم ثم من الشريد منهم لحق جددهم بني عامر بنجارا يصنع الحرجان (١) واحتلط بهم والتحم بنسبهم حتى رأس عليهم ويسمونه الحجازي * ومن ذلك ادعاء بني عبد القوي بن العباس بن توحين أنهم من ولد العباس بن عبد المطلب زغبة في هذا النسب الشريف وغلطا باسم العباس بن عطية أبي عبد القوي ولم يعلم دخول أحد من العباسيين الى المغرب لانه كان منذ أول دولتهم على دعوة العلويين أعدائهم من الادارسة والعيديين فكيف يسقط العباس الى أحد من شيعة العلويين وكذلك مايدعيه أبناء زيان ملوك تلمسان من بني عبد الواحد أنهم من ولد القاسم بن ادريس ذهبا الى مااشتهر في نسبهم أنهم من ولد القاسم فيقولون بلسانهم الزناتي أنت القاسم أي بنو القاسم ثم يدعون أن القاسم هذا هو القاسم بن ادريس أو القاسم بن محمد بن ادريس ولو كان ذلك صحيحا فغاية القاسم هذا أنه فر من مكان سلطانه مستجيرا بهم فكيف تتم له الرياسة عليهم في باديتهم وانما هو غلط من قبل اسم القاسم فانه كثير الوجود في الادارسة فتوهموا أن قاسمهم من ذلك النسب وهم غير محتاجين لذلك فان منالهم للملك والعزة انما كان بعصيتهم ولم يكن بادعاء علوية ولا عباسية ولا شيء من الانساب وانما يحمل على هذا المتقربون الى الملوك بمنازعهم ومذاهبهم

(١) قوله الحرجان بكسر الحاء جمع خرج بفتحيتين نعتش الموتى راه

ويشتهر حتى يبعد عن الرد * ولقد بلغني عن يغمراسن بن زيان مؤثر سلطانهم أنه لما قيل له ذلك أنكروه وقال بلغته الزناية مامعناه أما الدنيا والملك فقلناه بسيفنا لا بهذا النسب وأما نفعه في الآخرة فردود الى الله واعرض عن التقرب اليه بذلك * ومن هذا الباب ما يدعيه بنوسعد شيوخ بني يزيد من زغبة أنهم من ولد أبي بكر الصديق رضي الله عنه وبنو سلامة شيوخ بني بدلائن من توحين أنهم من سايم والزواودة شيوخ رباح أنهم من أعقاب البرامكة وكذبوا مهني أمراء طيء بالمشرق يدعون فيما بلغنا أنهم من أعقابهم وأمثال ذلك كثير ورياستهم في قومهم مامعة من ادعاء هذه الانساب كما ذكرناه بل تعين أن يكونوا من صريح ذلك النسب وأقوى عصبياته فاعتبره واجتنب المغالط فيه ولا تجعل من هذا الباب الحاق مهدي الموحدين بنسب العلوية فإن المهدي لم يكن من منبت الرياسة في هرثمة قومه وإنما رأس عليهم بعداشتهاره بالعلم والدين ودخول قبائل المصامدة في دعوته وكان مع ذلك من أهل المنابت المتوسطة فيهم والله عالم الغيب والشهادة

١٣ ﴿ فصل في أن البيت والشرف بالاصالة والحقيقة لاهل العصبية ويكون لغيرهم بالحجاز والشبه ﴾

وذلك أن الشرف والحسب إنما هو بالخلال ومعنى البيت أن يعد الرجل في آباءه أشرفاً مذكورين يكون له بولادتهم اياه والانتساب اليهم تجلة في أهل جلدته لما وقر في نفوسهم من تجلة سلفه وشرفهم بخلالهم والناس في نشأتهم وتناسلهم معادن قال صلى الله عليه وسلم الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا فغنى الحسب راجع الى الانساب وقد بينا أن ثمرة الانساب وفائدتها إنما هي العصبية للنصرة والتناصر فحث تكون العصبية مرهوبة ومحشية والمذبت فيها زكي محمي تكون فائدة النسب أوضح وثمرتها أقوى وتعدد الاشراف من الآباء زائد في فائدتها فيكون الحسب والشرف أصيلاً في أهل العصبية لوجود ثمرة النسب وتفاوت البيوت في هذا الشرف بتفاوت العصبية لانه سرها ولا يكون للمنفردين من أهل الامصار بيت الا بالحجاز وان توهموه فزخرف من الدعاوي واذا اعتبرت الحسب في أهل الامصار وجدت معناه أن الرجل منهم يعد سلفاً في خلال الخير ومخالطة أهله مع الركون الى العافية ما استطاع وهذا مغاير لسر العصبية التي هي ثمرة النسب وتعدد الآباء لكنه يطلق عليه حسب وبيت بالحجاز لعلاقة ما فيه من تعدد الآباء المتعاقبين على طريقة واحدة من الخبر ومسالكه وليس حسباً بالحقيقة وعلى الاطلاق وان ثبت أنه حقيقة فيهما بالوضع اللغوي فيكون من المشكك الذي هو في بعض مواضعه أولي وقد يكون للبيت شرف أول بالعصبية والخلال ثم ينسلخون منه لذهابها بالحضارة كما تقدم ويختلطون بالغمار ويبقى في نفوسهم وسواس ذلك الحسب يعدون به أنفسهم

وهذا شأن الموالى في الدول والخدمة كلهم فانهم انما يشرفون بالرسوخ في ولاء الدولة وخدمتها وتعدد الآباء في ولايتها ألا ترى الى موالى الأتراك في دولة بني العباس والى بني برمك من قبلهم وبني نوبخت كيف أدركوا البيت والشرف وبنوا المجد والاصالة بالرسوخ في ولاء الدولة فكان جعفر بن يحيى بن خالد من أعظم الناس بيتا وشرفا بالانتساب الى ولاء الرشيد وقومه لا بالانتساب في الفرس وكذا موالى كل دولة وخدمها انما يكون لهم البيت والحسب بالرسوخ في ولائها والاصالة في اصطناعها ويضاهل نسبه الاقدم من غير نسبها ويبقى ملغى لاعبرة به في أصلاته ومجده وانما المعتبر نسبة ولائه واصطناعه اذ فيه سر العصية التي بها البيت والشرف فكان شرفه مشتقا من شرف مواليه وبنائه من بنائهم فلم ينفعه نسب ولادته وانما بني مجده نسب الولاء في الدولة ولحمة الاصطناع فيها والتربية وقديكون نسبه الاول في لحمة عصيته ودولته فاذا ذهب وصار ولاؤه واصطناعه في أخري لم تنفعه الاولى لذهاب عصيتها وانتفع بالثانية لوجودها وهذا حال بني برمك اذ المنقول انهم كانوا أهل بيت في الفرس من سدة بيوت النار عندهم ولما صاروا الى ولاء بني العباس لم يكن بالاول اعتبار وانما كان شرفهم من حيث ولايتهم في الدولة واصطناعهم وما سوى هذا فوهم توسوس به النفوس الجاحمة ولا حقيقة له والوجود شاهد بما قلناه وان أكرمكم عند الله أتقاكم والله ورسوله أعلم

١٥ (فصل في أن نهاية الحسب في العقب الواحد أربعة آباء)

(اعلم) أن العالم العنصري بما فيه كائن فاسد لامن ذواته ولا من أحواله فالذكوونات من المعدن والنبات وجميع الحيوانات الانسان وغيره كائنة فاسدة بالمعينة وكذلك ما يعرض لهما من الاحوال وخصوصاً الانسانية فالعلوم تنشأ ثم تدرس وكذا الصنائع وأمثالها والحسب من العوارض التي تعرض للأدميين فهو كائن فاسد لاحالة وليس يوجد لاحد من أهل الخليفة شرف متصل في آباءه من لدن آدم اليه الا ما كان من ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم كرامة به وحياطة على السر فيه وأول كل شرف خارجية (١) ككيفية وهي الخروج الى الرياسة والشرف عن الضعة والابتدال وعدم الحسب ومعناه أن كل شرف وحسب فعدمه سابق عليه شأن كل محدث ثم ان نهايته في أربعة آباء وذلك أن باني المجد عالم بما عاناه في بنائه ومحافظ على الحلال التي هي أسباب كونه وبقائه وابنه من بعده مباشر لأبيه قد سمع منه ذلك وأخذ عنه الا أنه مقصر في ذلك تقصير السامع بالشيء عن المعين له ثم اذا جاء الثالث كان حظه الاقتفاء والتقليد خاصة فقصر عن الثاني تقصير المقلد عن المجتهد ثم اذا جاء الرابع قصر عن طريقهم جملة

(١) قوله خارجية اي حالة خارجية كذا بهامش اه

من أشرف البيوت أهل العصائب وليسوا منها في شئ لذهاب العvisية جملة وكثير من أهل الامصار الناشئين في بيوت العرب أو العجم لاول عهدهم موسسون بذلك وأكثر مارسخ الوسواس في ذلك لبني اسرائيل فانه كان لهم بيت من أعظم بيوت العالم بالمتبت أولا لما تعدد في سلفهم من الانبياء والرسل من لدن ابراهيم عليه السلام الى موسى صاحب ملتهم وشريعهم ثم بالعvisية ثانياً وما آتاهم الله بها من الملك الذي وعدهم به ثم انسلخوا من ذلك أجمع وضربت عليهم الذلة والمسكنة وكتب عليهم الجلاء في الارض وانفردوا بالاستعباد للكفر الآفا من السنين وما زال هذا الوسواس مصاحباً لهم فتجدهم يقولون هذا هاروني هذا من نسل يوشع هذا من عقب كالب هذا من سبط يهوذا مع ذهاب العvisية ورسوخ الذل فيهم منذ أحقاب متطاولة وكثير من أهل الامصار وغيرهم المنقطعين في أنسابهم عن العvisية يذهب الى هذا الهذيان وقد غاط أبو الوليد بن رشد في هذا لما ذكر الحسب في كتاب الخطابة من تلخيص كتاب المعلم الاول والحسب هو أن يكون من قوم قديم نزلهم بالمدينة ولم يتعرض لما ذكرناه وليت شعري ما الذي ينفعه قدم نزلهم بالمدينة ان لم تكن له عvisية يرهب بها جانبه وتحمل غيرهم على القبول منه فكأنه أطلق الحسب على تعدد الآباء فقط مع أن الخطابة انما هي استمالة من تؤثر استمالته وهم أهل الحل والعقد وأما من لاقدرة له البتة فلا يلتفت اليه ولا يقدر على استمالة أحد ولا يستمال هو وأهل الامصار من الحضر بهذه المثابة الا أن ابن رشد ربي في حيل وبلد لم يمارسوا العvisية ولا آنسوا أحوالها فبقى في أمر البيت والحسب على الامر المشهور من تعدد الآباء على الاطلاق ولم يراجع فيه حقيقة العvisية وسرها في الخليفة والله بكل شئ عليم

١٤ ﴿ فصل في أن البيت والشرف للموالى وأهل الاصطناع انما هو بمواليهم لا بأنسابهم ﴾

وذلك انا قدمنا ان الشرف بالاصالة والحقيقة انما هو لاهل العvisية فاذا اصطنع أهل العvisية قوما من غير نسبهم أو استرقوا العبدان والموالى والتحموا به كما قلناه ضرب معهم أولئك الموالى والمصطنعون بنسبهم في تلك العvisية ولبسوا جلدها كأنها عvisيتهم وحصل لهم من الانتظام في العvisية مساهمة في نسبها كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم مولى القوم منهم وسواء كان مولى رق أو مولى اصطناع وحلف وليس نسب ولادته ينفع له في تلك العvisية اذ هي مباينة لذلك النسب وعvisية ذلك النسب مفقودة لذهاب سرها عند التحامه بهذا النسب الآخر وفقدانه أهل عvisيتها فيصير من هؤلاء ويندرج فيهم فاذا تعددت له الآباء في هذه العvisية كان له بينهم شرف وبيت على نسبته في ولائهم واصطناعهم لا يتجاوز به الى شرفهم بل يكون أدون منهم على كل حال

وأضاع الحلال الحافظة لبناء مجدهم واحتقرها وتوهم أن ذلك البنين لم يكن بمعاملة ولا تكلف
وانما هو امر وجب لهم منذ أول النشأة بمجرد انتسابهم وليس بعصاة ولا بخلال لما يري من
التجلة بين الناس ولا يعلم كيف كان حدودها ولا سببها وتوهم أنه النسب فقط فيربأ بنفسه عن
أهل عصبته ويرى الفضل له عليهم وثوقا بما ربي فيه من استتباعهم وجهلا بما أوجب ذلك
الاستتباع من الحلال التي منها التواضع لهم والاخذ بمجامع قلوبهم فيحتقرهم بذلك فينقصون
عليه ويحتقرونه ويدلون منه سواء من أهل ذلك المنبت ومن فروعه في غير ذلك العقب للاذعان
لعصيتهم كإقنائه بعد الوثوق بما يرضونه من خلاله فتتمو فروع هذا وتذوي فروع الاول وينهدم
بناء بيته هذا في الملوك وهكذا في بيوت القبائل والامراء وأهل العصبية أجمع ثم في بيوت أهل
الامصار اذا انحطت بيوت نشأت بيوت أخرى من ذلك النسب ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد
وما ذلك على الله بعزير واشترط الاربعة في الاحساب انما هو في الغالب والا فقد يذرا لبيت من دون
الاربعة ويتلاشى وينهدم وقه يتصل امرها الى الخامس والسادس الا انه في انحطاط وذهاب
واعتبار الاربعة من قبل الاحياء الاربعة بان ومباشر له ومقدد وهادم وهو اقل ما يمكن وقد
اعتبرت الاربعة في نهاية الحسب في باب المدح والثناء قال صلى الله عليه وسلم انما الكريم ابن
الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم اشارة الى انه بلغ الغاية
من المجد* وفي التوراة ما معناه ان الله ربك طائق غيور مطالب بذنوب الآباء لابنين على الثواب
وعلى الروابع وهذا يدل على أن الاربعة الالعقاب غاية في الانساب والحسب ومن كتاب
الاغاني في اخبار عزيز الغواني أن كسري قال للنعمان هل في العرب قبيلة تشرف على قبيلة
قال نعم قال بأى شيء قال من كان له ثلاثة آباء متوالية رؤساء ثم اتصل ذلك بكمال الرابع فاليست
من قبيلته وطلب ذلك فلم يجده الا في آل حذيفة بن بدر الفزاري وهم بيت قيس وآل ذي الجدين
بيت شيبان وآل الاشعث بن قيس من كندة وآل حاجب بن زرارة وآل قيس بن عاصم
المنقرى من بني تميم فجمع هؤلاء الرهط ومن تبعهم من عشائهم وأقعد لهم الحكم والعدول
فقام حذيفة بن بدر ثم الاشعث بن قيس لقربته من النعمان ثم بسطام بن قيس بن شيبان ثم
حاجب بن زرارة ثم قيس بن عاصم وخطبوا ونزوا فقال كسري كلهم سيد يصلح لموضعه وكانت
هذه البيوتات هي المذكورة في العرب بعد بني هاشم ومعهم بيت بني الذبيان من بني الحرث بن
كعب بيت النجني وهذا كله يدل على أن الاربعة الآباء نهاية في الحسب والله أعلم

الوحشى أشد شجاعة من الحيل الآخر فهم أقدر على التغلب وانتزاع مافي أيدي سواهم من الأثم بل الحيل الواحد تختلف أحواله في ذلك باختلاف الأعصار فكلما نزلوا الأرياف وتفنكوا النعيم وألفوا عوائد الخصب في المعاش والنعيم نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحشهم وبدوتهم واعتبر ذلك في الحيوانات المعجم بدواجن الطباء والبقر الوحشية والحر اذا زال توحشها بمخالطة الأدميين وأخصب عيشها كيف يختلف حالها في الانتهاض والشدة حتي في مشيتها وحسن اديمها وكذلك الأدمي المتوحش اذا أنس وألف وسببه أن تكون السجاياء والطبائع انما هي عن المألوفات والعوائد واذا كان الغلب للامم انما يكون بالاقدام والبسالة فمن كان من هذه الاجيال أعرق في البداوة وأكثر توحشا كان أقرب الى التغلب على سواء اذا تقارب في العدد وتكافأ في القوة والعصية وانظر في ذلك شأن مضرع من قبلهم من حمير وكهلان السابقين الى الملك والنعيم ومع ربيعة المتوطنين أرياف العراق ونعيمه لما بقي مضر في بداوتهم وتقدمهم الآخرون الى خصب العيش وغضارة النعيم كيف أرهفت البداوة حدهم في التغلب فغلبوهم على مافي أيديهم وانتزعوه منهم وهذا حال بني طيء وبني عامر بن صعصعة وبني ساييم بن منصور من بعدهم لما تأخروا في باديتهم عن سائر قبائل مضر واليمن ولم يتابسوا بشيء من دنياهم كيف أمسكت حال البداوة عليهم قوة عصيتهم ولم تخلفها مذاهب الترف حتي صاروا أغلب على الامر منهم وكذا كل حي من العرب يلي نعيما وعيشا خصباً دون الحي الآخر فان الحي المتبدي يكون أغلب له وأقدر عليه اذا تكافأ في القوة والعدد سنة الله في خلقه

١٧ * (فصل في أن الغاية التي تجري اليها العصية هي الملك) *

وذلك لانا قدما أن العصية بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة وكل أمر يجتمع عليه وقدما أن الآدميين بالطبيعة الانسانية يحتاجون في كل اجتماع الى وازع وحاكم يزع بعضهم عن بعض فلا بد أن يكون متغلبا عليهم بتلك العصية والالم تتم قدرته على ذلك وهذا التغلب هو الملك وهو أمر زائد على الرياسة لان الرياسة انما هي سودد وصاحبها متبوع وليس له عليهم قهر في أحكامه وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر وصاحب العصية اذا بلغ الي رتبة طلب ما فوقها فاذا بلغ رتبة السودد والاتباع ووجد السبيل الى التغلب والقهر لا يتركه لانه مطلوب للنفس ولا يتم اقتدارها عليه الا بالعصية التي يكون بها متبوعا فالتغلب الملكي غاية للعصية كما رأيت ثم ان القليل الواحد وان كانت فيه بيوتات متفرقة وعصيات متعددة فلا بد من عصية تكون أقوى من جميعها تغلبها وتستبعمها وتلتحم جميع العصيات فيها وتصير كأنها عصية واحدة كبرى والواقع الافتراق المفضي الى الاختلاف والتنازع ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض

١٩ (فصل في أن من عوائق الملك حصول المذلة للقبيل والانقياد الى سواهم)

وسبب ذلك أن المذلة والانقياد كاسران لسورة العصية وشدتها فان انقيادهم ومذلتهم دليل على فقدانها فما رمؤا للمذلة حتي عجزوا عن المدافعة ومن عجز عن المدافعة فالولى أن يكون عاجزا عن المقاومة والمطالبة واعتبر ذلك في بني اسرائيل لما دعاهم موسى عليه السلام الى ملك الشام وأخبرهم بأن الله قد كتب لهم ملكها كيف عجزوا عن ذلك وقالوا ان فيها قوماً جبارين وانا لن ندخلها حتي يخرجوا منها أي يخرجهم الله تعالى منها بضرب من قدرته غير عصيتنا وتكون من معجزاتك يا مرسي ولما عزم عليهم لجوا وارتكبوا العصيان وقالوا له اذهب أنت وربك فقاتلا وما ذلك الا لما أنسوا من أنفسهم من العجز عن المقاومة والمطالبة كما تقضي الآية وما يؤثر في تفسيرها وذلك بما حصل فيهم من خالق الانقياد وما رمؤا من الذل للقبط أحقابا حتي ذهبت العصية منهم جملة مع انهم لم يؤمنوا حق الايمان بما أخبرهم به موسى من أن الشام لهم وان العمالة الذين كانوا بأريحا فريستهم بحكم من الله قدره لهم فأقصروا عن ذلك وعجزوا تعويلا على ما علموا من أنفسهم من العجز عن المطالبة لما حصل لهم من خالق المذلة وطعنوا فيما أخبرهم به نبيهم من ذلك وما أمرهم به فعاقبهم الله بالتيه وهو أنهم تاهوا في قفر من الارض ما بين الشام ومصر أربعين سنة لم يأووا فيها لعمران ولا نزلوا مصرا ولا خلطوا بشرا كما قصه القرآن لغاظة العمالة بالشام والقبط يمسر عليهم لعجزهم عن مقاومتهم كما زعموه ويظهر من مساق الآية ومفهومها أن حكمة ذلك التيه مقصودة وهي فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر والقوة وتحلقوا به وأفسدوا من عصيتهم حتى نشأ في ذلك التيه جيل آخر عزيز لا يعرف الاحكام والتهر ولا يسام بالمذلة فنشأت لهم عصبية أخرى اقتدروا بها على المطالبة والتعاب ويظهر لك من ذلك أن الاربعين سنة أقل ما يأتي فيها فناء جيل ونشأة جيل آخر سبحانه الحكيم العليم وفي هذا أوضح دليل على شأن العصية وأنها هي التي تكون بها المدافعة والمقاومة والحماية والمطالبة وأن من فقدوها عجز عن جميع ذلك كله ويلحق بهذا الفصل فيما يوجب المذلة للقبيل لان في المغارم والضرائب فان القبيل الغارمين مأعطوا اليد من ذلك حتى رضوا بالمذلة فيه لان في المغارم والضرائب ضيا ومذلة لا تحتملها النفوس الابية الا اذا استهنوته عن القتل واتناف وان عصيتهم حينئذ ضعيفة عن المدافعة والحماية ومن كانت عصبيتها لاتدفع عنه الضيم فكيف له بالمقاومة والمطالبة وقد حصل له الانقياد للذل والمذلة عاتقة كما قدمناه ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في شأن الحرث لما رأى سكة المحراث في بعض دور

ثم اذا حصل التغلب بتلك العصية على قومها طلبت بطبعها التغلب على أهل عصية أخرى بعيدة عنها فان كفايتها أو مانعتها كانوا اقثالا أو نظارا ولكل واحدة منهما التغلب على حوزتها وقومها شأن القبائل والامم المفترقة في العالم وان غلبتها واستتبعتها التحمت بها أيضا وزادتها قوة في التغلب الي قوتها وطلبت غاية من التغلب والتحكم أعلي من الغاية الاولى وأبعد وهكذا دائما حتي تكفي بتموتها قوة الدولة فان أدركت الدولة في هزمها ولم يكن لها ممانع من أولياء الدولة أهل المصيبات استولت عليها وانتزعت الامر من يدها وصار الملك أجمع لها وان انتهت الى قوتها ولم يقارن ذلك هرم الدولة وانما قارن حاجتها الى الاستظهار باهل العصيات انتظمتها الدولة في أوليائها تستظهر بها علي مايعن من مقاصدها وذلك ملك آخردون الملك المستبدوهو كما وقع للترك في دولة بني العباس ولصنهاجة وزناتة مع كتامة ولبنى حمدان مع ملوك الشيعة من العلوية والعباسية فقد ظهر أن الملك هو غاية العصية وأنها اذا بلغت الى غايتها حصل للقبيلة الملك اما بالاستبداد أو بالمظاهرة علي حسب مايسعه الوقت المقارن لذلك وان عافها عن بلوغ الغاية عوائق كما نينه ووقف في مقامها الى أن يقضى الله بامر.

١٨ (فصل في أن من عوائق الملك حصول الترف وانعماش القليل في النعم)

وسبب ذلك أن القليل اذا غلبت بعصيتها بعض الغلب استولت على النعمة بمقداره وشاركت أهل النعم والخصب في نعمتهم وخصبهم وضربت معهم في ذلك بسهم وحصه بمقدار غلبها واستظهار الدولة بها فان كانت الدولة من القوة بحيث لايطمع أحد في انتزاع أمرها ولا مشاركتها فيه أذعن ذلك القليل لولايتها والقنوع بما يسوغون من نعمتها ويشركون فيه من جبايتها ولم تسم آمالهم الى شئ من منازع الملك ولا أسبابه انما همتهم النعم والكسب وخصب العيش والسكون في ظل الدولة الى الدعة والراحة والاخذ بمذاهب الملك في المباني والملابس والاستكثار من ذلك والتأنق فيه بمقدار ماحصل من الرياش والترف وما يدعو اليه من توابع ذاك فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصية والبسالة ويتنعمون فيما آتاهم الله من البسطة وتنشأ بنوهم وأعقابهم في مثل ذلك من الترف عن خدمة أنفسهم وولاية حاجاتهم ويستسكفون عن سائر الامور الضرورية في العصية حتي يصير ذلك خلقاً لهم وسجية فتتقص عصيتهم وبسالتهن في الاجيال بعدهم بتعاقبها الى أن تنقرض العصية فيأذنون بالانقراض وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون اشرافهم على الفناء فضلا عن الملك فان عوارض الترف والفرق في النعم كاسر من سورة العصية التي بها التغلب واذا انقرضت العصية قصر القليل عن المدافعة والحماية فضلا عن المطالبة والتهتمهم الامم سواهم فقد تبين أن الترف من عوائق الملك والله

يتهي قباله خليج في شماله في بلاد انكلاية من أم الممانين كما نذكر وعلى هذا الخليج وبينه وبين هذا الجبل مادام اذاهين الى الشمال بلاد البنادقة فاذا ذهبا الى المغرب فينهما بلاد حروايا ثم بلاد الممانين عند طرف الخليج وفي الجزء الرابع من هذا الاقليم قطعة من البحر الرومي خرجت اليه من الاقليم الرابع مخرسة كلها بقطع من البحر ويخرج منها الى الشمال وبين كل مخرجين منها طرف من البحر في الجوف بينهما وفي آخر الجزء شرقا قطع من البحر ويخرج منها الى الشمال خليج القسطنطينية يخرج من هذا الطرف الجنوبي ويذهب على سمت الشمال الى أن يدخل في الاقليم السادس وينعطف من هنالك عن قرب مشرقا الى بحر نيطش في الجزء الخامس وبعض الرابع قبله والسادس بعده من الاقليم السادس كما نذكر وبلد القسطنطينية في شرق هذا الخليج عند آخر الجزء من الشمال وهي المدينة العظيمة التي كانت كرسي القيصرية وبها من آثار البناء والضخامة ما كثرت عنه الاحاديث والقطعة التي ما بين البحر الرومي وخليج القسطنطينية من هذا الجزء وفيها بلاد مقدونية التي كانت لليونانيين ومنها ابتداء ملكهم وفي شرق هذا الخليج الى آخر الجزء قطعة من أرض باطوس وأظنها لهذا العهد مجالات للتركان وبها ملك ابن عثن وقاعدته بها برصة وكانت من قبلهم للروم وغلبهم عليها الائم الى أن صارت للتركان وفي الجزء الخامس من هذا الاقليم من غربيه وجنوبه أرض باطوس وفي الشمال عنها الى آخر الجزء بلاد عمورية وفي شرق عمورية نهر قباقي الذي يمد الفرات يخرج من جبل هنالك ويذهب في الجنوب حتى يخاطب الفرات قبل وصوله من هذا الجزء الى ممره في الاقليم الرابع وهنالك في غربيه آخر الجزء في مبدأ نهر سيحان ثم نهر حيحان غربيه الذاهين على سمتهم وقد مر ذكرهما وفي شرقه هنالك مبدأ نهر الدجلة الذاهب على سمتهم وفي موازاته حتى يخاطبه عند بغداد وفي الزاوية التي بين الجنوب والشرق من هذا الجزء وراء الجبل الذي يبدأ من نهر دجلة بلد ميا فارتين ونهر قباقي الذي ذكرناه يقسم هذا الجزء بقطعتين احدهما غربية جنوبية وفيها أرض باطوس كما قلناه وأسافها الى آخر الجزء شمالا ووراء الجبل الذي يبدأ منه نهر قباقي أرض عمورية كما قلناه والقطعة الثانية شرقية شمالية على الثلث في الجنوب منها مبدأ الدجلة والفرات وفي الشمال بلاد اليلقان متصلة بأرض عمورية من وراء جبل قباقي وهي عريضة وفي آخرها عند مبدأ الفرات بلد خرشنة وفي الزاوية الشرقية الشمالية قطعة من بحر نيطش الذي يمدد الخليج القسطنطينية وفي الجزء السادس من هذا الاقليم في جنوبه وغربه بلاد أرمينية متصلة الى أن يتجاوز وسط الجزء الى جانب الشرق وفيها بلد أردن في الجنوب والغرب وفي شمالها قفليس ودبيل وفي شرق أردن مدينة خلاط ثم بردعة وفي جنوبها بالحراف الى الشرق مدينة أرمينية ومن هنالك

مخرج بلاد أرمينية الى الاقليم الرابع وفيها هنالك بلد المراغة في شرق جبل الاكراد المسمى بارمي وقد مر ذكره في الجزء السادس منه ويتأخر بلاد أرمينية في هذا الجزء وفي الاقليم الرابع قبله من جهة الشرق فيها بلاد أذربيجان وآخرها في هذا الجزء شرقا بلاد أردبيل على قطعة من بحر طبرستان دخلت في الناحية الشرقية من الجزء السابع ويسمى بحر طبرستان وعليه من شماله في هذا الجزء قطعة من بلاد الخزر وهم التركان ويبدأ من عند آخر هذه القطعة البحرية في الشمال جبال يتصل بعضها ببعض على سمت الغرب الى الجزء الخامس فتمر فيه منعطفة ومحطة ببلد ميفارقين ويخرج الى الاقليم الرابع عند آمد ويتصل بجبل السلسلة في أسافل الشام ومن هنالك يتصل بجبل اللكام كما مر وبين هذه الجبال الشمالية في هذا الجزء شيا كالابواب تفضي من الجانبين ففي جنوبها بلاد الابواب متصلة في الشرق الى بحر طبرستان وعليه من هذه البلاد مدينة باب الابواب وتتصل بلاد الابواب في الغرب من ناحية جنوبها ببلد أرمينية وبها في الشرق وبين بلاد أذربيجان الجنوبية بلاد الزاب متصلة الى بحر طبرستان وفي شمال هذه الجبال قطعة من هذا الجزء في غربها مملكة السرر في الزاوية الغربية الشمالية وفي زاوية الجزء كله قطعة أيضاً من بحر نيطن الذي يمدده خليج القسطنطينية وقد مر ذكره ويحفر بهذه القطعة من نيطن بلاد السرر وعليها منها بلد أطرار يده وتتصل بلاد السرر بين جبال الابواب والجهة الشمالية من الجزء الى أن يتهي شرقا الى جبل حاجز بينها وبين أرض الخزر وعند آخرها مدينة صول ووراء هذا الجبل الحاجز قطعة من أرض الخزر تنهي الى الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء من بحر طبرستان وآخر الجزء شمالا والجزء السابع من هذا الاقليم غربيه كله مغمور بحر طبرستان وخرج من جنوبه في الاقليم الرابع القطعة التي ذكرنا هنالك أن عليها بلاد طبرستان وجبال الديلم الى قزوین وفي غربي تلك القطعة متصلة بها القطيعة التي في الجزء السادس من الاقليم الرابع ويتصل بها من شمالها القطعة التي في الجزء السادس من شرقه أيضاً وينكشف من هذا الجزء قطعة عند زاويته الشمالية الغربية يصب فيها نهر أثل في هذا البحر ويبقى من هذا الجزء في ناحية الشرق قطعة منكشفة من البحر في مجالات للغز من أمم الترك يحيط بها جبل من جهة الجنوب داخل في الجزء الثامن ويذهب في الغرب الى مادون وسطه فينعطف الى الشمال الى أن يلاقى بحر طبرستان فيحتف به ذاهباً معه الى بقيته في الاقليم السادس ثم ينعطف مع طرفه ويفارقه ويسمى هنالك جبل سياه ويذهب مغرباً الى الجزء السادس من الاقليم السادس ثم يرجع جنوباً الى الجزء السادس من الاقليم الخامس وهذا الطرف منه هو الذي اعترض في هذا الجزء بين أرض السرر وأرض الخزر واطصلت أرض الخزر في الجزء السادس والسابع خفا في هذا الجبل المسمى

جبل سياه كما سيأتي* والجزء الثامن من هذا الاقليم الخامس كله مجالات للغز من أم الترك وفي الجهة الجنوبية الغربية منه بحيرة خوارزم التي يصب فيها نهر جيحون دورها ثلثائة ميل ويصب فيها أنهار كثيرة من أرض هذه المجالات وفي الجهة الشمالية الشرقية منه بحيرة عرعون دورها أربعمائة ميل وماؤها حلو وفي الناحية الشمالية من هذا الجزء جبل مرغار ومعناه جبل الثلج لانه لا يذوب فيه وهو متصل بآخر الجزء وفي الجنوب عن بحيرة عرعون جبل من الحجر الصلد لا ينبت شيأ يسمى عرعون وبه سميت البحيرة ويحلب منه ومن جبل مرغار شمالي البحيرة أنهار لا تنحصر عدتها فصب فيها من الجانبين* وفي الجزء التاسع من هذا الاقليم بلاد أركس من أم الترك في غرب بلاد الغز وشرق بلاد الكيماكية ويحف به من جهة الشرق آخر الجزء جبل قوقيا المحيط بياجوج وماجوج يعترض هنالك من الجنوب الى الشمال حتى ينطف أول دخوله من الجزء العاشر وقد كان دخل اليه من آخر الجزء العاشر من الاقليم الرابع قبله احتف هنالك بالبحر المحيط الى آخر الجزء في الشمال ثم انعطف مغربا في الجزء العاشر من الاقليم الرابع الى مادون نصفه وأحاط من أوله الى هنا ببلاد الكيماكية ثم خرج الى الجزء العاشر من الاقليم الخامس فذهب فيه مغربا الى آخره وبقيت في جنوبيه من هذا الجزء قطعة مستطيلة الى الغرب قبل آخر بلاد الكيماكية ثم خرج الى الجزء التاسع في شرقيه وفي الاعلى منه وانعطف قريبا الى الشمال وذهب على ستمته الى الجزء التاسع من الاقليم السادس وفيه السد هنالك كما ذكره وبقيت منه القطعة التي أحاط بها جبل قوقيا عند الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء مستطيلة الى الجنوب وهي من بلاد يا جوج وماجوج وفي الجزء العاشر من هذا الاقليم أرض يا جوج متصلة فيه كلة الا قطعة من البحر المحيط غمرت طرفا في شرقيه من جنوبه الى شماله والا القطعة التي يفصلها الى جهة الجنوب والغرب جبل قوقيا حين مرفيه وما سوى ذلك فأرض يا جوج وماجوج والله سبحانه وتعالى أعلم

* (الاقليم السادس) فالجزء الاول منه غمر البحر أكثر من نصفه واستدار شرقا مع الناحية الشمالية ثم ذهب مع الناحية الشرقية الى الجنوب وانتهى قريبا من الناحية الجنوبية فانكشف قطعة من هذه الارض في هذا الجزء داخلة بين طرفين وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من البحر المحيط كالجون فيه وينفسح طولا وعرضا وهي كلها أرض بريطانيا وفي بابها بين الطرفين وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من هذا الجزء بلاد صاقس متصلة ببلاد بنطو التي مر ذكرها في الجزء الاول والثاني من الاقليم الخامس* والجزء الثاني من هذا الاقليم دخل البحر المحيط من غربه وشماله فمن غربه في قطعة مستطيلة أكبر من نصفه الشمالي من شرق أرض بريطانيا في الجزء الاول واتصلت بها القطعة الاخرى في الشمال من غربه الى شرقه وانفسحت في

النصف الغربي منه بعض الشيء وفيه هنالك قطعة من جزيرة انكلترا وهي جزيرة عظيمة متسعة مشتملة على مدن وبها ملك ضخم وبقيتها في الاقليم السابع وفي جنوب هذه القطعة وجزيرتها في النصف الغربي من هذا الجزء بلاد ارمنية وبلاد افلاطش متصلين بها ثم بلاد افرسية جنوبا وغربا من هذا الجزء وبلاد برغونية شرقا عنها وكلها الامم الافرنجية وبلاد اللامانيين في النصف الشرقي من الجزء فجنوبه بلاد انكلالية ثم بلاد برغونية شمالا ثم أرض لهويكة وشطونية وعلى قطعة البحر المحيط في الزاوية الشمالية الشرقية أرض أفريرة وكلها لامم اللامانيين * وفي الجزء الثالث من هذا الاقليم في الناحية الغربية بلاد مراثية في الجنوب وبلاد شطونية في الشمال وفي الناحية الشرقية بلاد انكوية في الجنوب وبلاد بلونية في الشمال يعترض بينهما جبل بلواط داخلا من الجزء الرابع ويمر مغربا بالبحر الى الشمال الى أن يقف في بلاد شطونية آخر النصف الغربي * وفي الجزء الرابع من ناحية الجنوب أرض جنولية وتحتها في الشمال بلاد الروسية ويفصل بينهما جبل بلواط من أول الجزء غربا الى أن يقف في النصف الشرقي وفي شرق أرض جنولية بلاد جرمانية وفي الزاوية الجنوبية الشرقية أرض القسطنطينية ومدينتها عند آخر الخليج الخارج من البحر الرومي وعند مدفعه في بحر نيطنش فيقع قطعة من بحر نيطنش في أعالي الناحية الشرقية من هذا الجزء ويمدها الخليج وبينهما في الزاوية بلد مسيناه * وفي الجزء الخامس من الاقليم السادس ثم في الناحية الجنوبية عند بحر نيطنش يتصل من الخليج في آخر الجزء الرابع ويخرج على سمته مشرقا فيمر في هذا الجزء كله وفي بعض السادس على طول ألف وثلاثمائة ميل من مبدئه في عرض ستمائة ميل ويبقى وراء هذا البحر في الناحية الجنوبية من هذا الجزء في غربها الى شرقها بر مستطيل في غربه هرقلية على ساحل بحر نيطنش متصلة بأرض اليلقان من الاقليم الخامس وفي شرقه بلاد اللانية وقاعدتها سوتلي على بحر نيطنش وفي شمال بحر نيطنش في هذا الجزء غربا أرض ترخان وشرقاً بلاد الروسية وكلها على ساحل هذا البحر وبلاد الروسية محيطة ببلاد ترخان من شرقها في هذا الجزء من شمالها في الجزء الخامس من الاقليم السابع ومن غربها في الجزء الرابع من هذا الاقليم * وفي الجزء السادس في غربيه بقية بحر نيطنش وينحرف قليلا الى الشمال ويبقى بينه هنالك وبين آخر الجزء شمالا بلاد قانية وفي جنوبه ومنفسحا الى الشمال بما انحرف هو كذلك بقية بلاد اللانية التي كانت آخر جنوبه في الجزء الخامس وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء متصل أرض الحزر وفي شرقها أرض برطاس وفي الزاوية الشرقية الشمالية أرض بلغار وفي الزاوية الشرقية الجنوبية أرض بلجر يحوزها هناك قطعة من جبل سياه كوه المنعطف مع بحر الحزر في الجزء السابع بعده ويذهب بعد مفارقه مغربا فيحوز في هذه القطعة ويدخل الى الجزء

السادس من الاقليم الخامس فيتصل هنالك بجبل الابواب وعليه من هنالك ناحية بلاد الحزر
 * وفي الجزء السابع من هذا الاقليم في الناحية الجنوبية ما جازه جبل سياه بعد مفارقه بحر
 طبرستان وهو قطعة من أرض الحزر الى آخر الجزء غربا وفي شرقها القطعة من بحر
 طبرستان التي يجوزها هذا الجبل من شرقها وشمالها ووراء جبل سياه في الناحية الغربية
 الشمالية أرض برطاس وفي الناحية الشرقية من الجزء أرض شحرب ويخناك وهم أم الترك
 * وفي الجزء الثامن واناحية الجنوبية منه كلها أرض الجوخ من الترك في الناحية الشمالية
 غربا أو الأرض المنتنة وشرق الأرض التي يقال ان يأجوج ومأجوج خربوها قبل بناء
 السد وفي هذه الأرض المنتنة مبدأ نهر الامل من أعظم أنهار العالم وممره في بلاد الترك
 ومصبه في بحر طبرستان في الاقليم الخامس وفي الجزء السابع منه وهو كثير الانعطاف
 يخرج من جبل في الأرض المنتنة من ثلاثة ينابيع تجتمع في نهر واحد ويمر على سمت
 الغرب الى آخر السابع من هذا الاقليم فينعطف شمالا الى الجزء السابع من الاقليم السابع
 فيمر في طرفه بين الجنوب والمغرب فيخرج في الجزء السادس من السابع ويذهب مغربا
 غير بعيد ثم ينعطف ثانية الى الجنوب ويرجع الى الجزء السادس من الاقليم السادس
 ويخرج منه جدول يذهب مغربا ويصب في بحر نيطش في ذلك الجزء ويمر هو في قطعة بين
 الشمال والشرق فيخرج في بلاد بلغار في الجزء السابع من الاقليم السادس ثم ينعطف ثالثة
 الى الجنوب وينفذ في جبل سياه ويمر في بلاد الحزر ويخرج الى الاقليم الخامس في الجزء
 السابع منه فيصب هنالك في بحر طبرستان في القطعة التي انكشفت من الجزء عند الزاوية
 الغربية الجنوبية * وفي الجزء التاسع من هذا الاقليم في الجانب الغربي منه بلاد خفشاخ من
 الترك وهم قفجاق وبلاد التركس منهم أيضا وفي الشرق منه بلاد يأجوج يفصل بينهما جبل
 قوقيا المحيط وقد مر ذكره يبدأ من البحر المحيط في شرق الاقليم الرابع ويذهب معه الى آخر
 الاقليم في الشمال ويفارقه مغربا وبحراف الى الشمال حتي يدخل في الجزء التاسع من
 الاقليم الخامس فيرجع الى سمتة الاول حتي يدخل في هذا الجزء التاسع من الاقليم من
 جنوبه الى شماله وبحراف الى المغرب وفي وسطه هناك السد الذي بناه الاسكندر ثم يخرج على
 سمتة الى الاقليم السابع وفي الجزء التاسع منه فيمر فيه الى الجنوب الى أن يلقى البحر المحيط
 في شماله ثم ينعطف معه من هنالك مغربا الى الاقليم السابع الى الجزء الخامس منه فيتصل هنالك
 بقطعة من البحر المحيط في غربيه وفي وسط هذا الجزء التاسع هو السد الذي بناه الاسكندر
 كما قلناه والصحيح من خبره في القرآن وقد ذكر عبد الله بن خزدادبه في كتابه في الجغرافيا
 أن الواثق رأى في منامه كأن السد انفتح فانتبه فزاع وبعث سلاما لالترجان فوقف عليه وجاء بخبره

ووصفه في حكاية طويلة ليست من مقاصد كتابنا* وفي الجزء العاشر من هذا الاقليم بلاد مأجوج متصلة فيه الى آخره على قطعة من هنالك من البحر المحيط أحاطت به من شرقه وشماله مستطيلة في الشمال وعريضة بض الشيء في الشرق

(الاقليم السابع) والبحر المحيط قد غمر عامته من جهة الشمال الى وسط الجزء الخامس حيث يتصل بجبل قوقيا المحيط بياجوج ومأجوج فالجزء الاول والثاني مغموران بالماء الا ما انكشف من جزيرة انكلكره التي معظمها في الثاني وفي الاول منها طرف انعطف بانحراف الى الشمال وبقيتها مع قطعة من البحر مستديرة عليه في الجزء الثاني من الاقليم السادس وهي مذكورة هناك والحجاز منها الى البر في هذه القطعة سعة اثني عشر ميلا ووراء هذه الجزيرة في شمال الجزء الثاني جزيرة رسلانده مستطيلة من الغرب الى الشرق والجزء الثالث من هذا اقليم مغمور أكثره بالبحر الا قطعة مستديرة في جنوبه وتتسع في شرقها وفيها هنالك متصل أرض فلونية التي مر ذكرها في الثالث من الاقليم السادس وأنها في شماله وفي القطعة من البحر التي تغمر هذا الجزء ثم في الجانب الغربي منها مستديرة فسيحة وتتصل بالبر من باب في جنوبها يفضي الى بلاد فلونية وفي شمالها جزيرة بوقاعة مستطيلة مع الشمال من المغرب الى المشرق والجزء الرابع من هذا الاقليم شماله كله مغمور بالبحر المحيط من المغرب الى المشرق وجنوبه منكشف وفي غربه أرض قيازك من الترك وفي شرقها بلاد طست ثم أرض رسلانده الى آخر الجزء شرقا وهي دائمة الثلوج وعمرانها قليل ويتصل ببلاد الروسية في الاقليم السادس وفي الجزء الرابع والخامس منه* وفي الجزء الخامس من هذا الاقليم في الناحية الغربية منه بلاد الروسية وينتهي في الشمال الى قطعة من البحر المحيط التي يتصل بها جبل قوقيا كما ذكرناه من قبل وفي الناحية الشرقية منه متصل أرض القمانيه التي على قطعة بحر نيطنش من الجزء السادس من الاقليم السادس وينتهي الى بحيرة ظرمي من هذا الجزء وهي عذبة تجلب اليها أنهار كثيرة من الجبال عن الجنوب والشمال وفي شمال الناحية الشرقية من هذا الجزء أرض التتارية من التركان الى آخره وفي الجزء السادس من الناحية الغربية الجنوبية متصل بلاد القمانيه وفي وسط الناحية بحيرة عثور عذبة تجلب اليها الأنهار من الجبال في التواحي الشرقية وهي جامدة دائما لشدة البرد الا قليلا في زمن الصيف وفي شرق بلاد القمانيه بلاد الروسية التي كان مبدؤها في الاقليم السادس في الناحية الشرقية الشمالية من الجزء الخامس منه وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من هذا الجزء بقية أرض بلغار التي كان مبدؤها في الاقليم السادس وفي الناحية الشرقية الشمالية من الجزء السادس منه وفي وسط هذه القطعة من أرض بلغار ومنعطف نهر أثل القطعة الاولى الى الجنوب كما مر وفي آخر هذا الجزء

السادس من شماله جبل قوقيا متصل من غربه الى شرقه وفي الجزء السابع من هذا الاقليم في غربه بقية أرض يحنك من أم الترك وكان مبدؤها من الناحية الشمالية الشرقية من الجزء السادس قبله وفي الناحية الجنوبية الغربية من هذا الجزء ويخرج الى الاقليم السادس من فوقه وفي الناحية الشرقية بقية أرض سحر ثم بقية الأرض المنتنة الى آخر الجزء شرقا وفي آخر الجزء من جهة الشمال جبل قوقيا المحيط متصلا من غربه الى شرقه وفي الجزء الثامن من هذا الاقليم في الجنوبية الغربية منه متصل الأرض المنتنة وفي شرقها الأرض المحفورة وهي من العجائب خرق عظيم في الأرض بعيد المهوي فسيح الاقطار تمتع الوصول الى قعره يستدل على عمرانه بالدخان في النهار والثيران في الليل تضيء وتحنق وربما رؤي فيها نهر يشقها من الجنوب الى الشمال وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء البلاد الحراب المتاخمة للسد وفي آخر الشمال منه جبل قوقيا متصلا من الشرق الى الغرب وفي الجزء التاسع من هذا الاقليم في الجانب الغربي منه بلاد خفشاخ وهم قفجق يحوزها جبل قوقيا حين ينعطف من شماله عند البحر المحيط ويذهب في وسطه الى الجنوب بالخراف الى الشرق فيخرج في الجزء التاسع من الاقليم السادس ويمر معترضا فيه وفي وسطه هناك سد يأجوج ومأجوج وقد ذكرناه وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء أرض يأجوج وراء جبل قوقيا على البحر قليلة العرض مستطيلة أحاطت به من شرقه وشماله والجزء العاشر غمر البحر جميعه هذا آخر الكلام على الجغرافيا وأقاليمها السبعة وفي خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات للعالمين

❦ المقدمة الثالثة ❦

(*) في المعتدل من الاقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم *

(قدينا) أن المعمور من هذا المنكشف من الأرض انما هو وسطه لافراط الحر في الجنوب منه والبرد في الشمال ولما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين في الحر والبرد وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما الى الوسط فيكون معتدلا فالاقليم الرابع أعدل العمران والذي حفافيه من الثالث والخامس أقرب الى الاعتدال والذي يليهما من الثاني والسادس بعيدان من الاعتدال والاول والسابع أبعد بكثير فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والاقوات والفواكه بل والحيوانات وجميع ما يتكون في هذه الاقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال وسكانها من البشر أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا وأديانا حتي الثبوت فاما توجد في الاكثر فيها ولم تنفق على خبر بعثة في الاقاليم الجنوبية ولا الشمالية وذلك أن الانبياء والرسل

انما يختص بهم أكل النوع في خلقهم وأخلاقهم قال تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس وذلك ليتم القبول لما يأتهم به الانبياء من عند الله وأهل هذه الاقاليم أكل لوجود الاعتدال لهم فتجدهم على غاية من التوسط في مساكنهم وأقواتهم وصنائعهم يتخذون البيوت المنجدة بالحجارة المنمقة بالصناعة ويتأغون في استجادة الآلات والمواعين ويذهبون في ذلك الى الغاية وتوجد لديهم المعادن الطبيعية من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والقصدير ويتصرفون في معاملاتهم بالنقدين العريزين ويبتعدون عن الانحراف في عامة أحوالهم وهؤلاء أهل المغرب والشام والحجاز واليمن والعراق والهند والسند والصين وكذلك الاندلس ومن قرب منها من الفرنجة والجلالفة والروم واليونانيين ومن كان مع هؤلاء أو قريباً منه في هذه الاقاليم المعتدلة ولهذا كان العراق والشام أعدل هذه كلها لانها وسط من جميع الجهات وأما الاقاليم البعيدة من الاعتدال مثل الاول والثاني والسادس والسابع فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم فبنائهم بالطين والقصب وأقواتهم من الذرة والعشب وملابسهم من أوراق الشجر يخضفونها عليهم أو بالجلود وأكثرهم عرايا من اللباس وفواكه بلادهم وأدماها غريبة التكوين مائلة الى الانحراف ومعاملاتهم بغير الحجرين الشريفين من نحاس أو حديد أو جلود يقدرونها للمعاملات وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خالق الحيوانات العجم حتي ينقل عن الكثير من السودان أهل الاقليم الاول أنهم يسكنون الكهوف والغياض ويأكلون العشب وأنهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضاً وكذا السقاية والسبب في ذلك أنهم أبعدهم عن الاعتدال يقرب عرض أمرجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العجم ويبعدون عن الانسانية بمقدار ذلك وكذلك أحوالهم في الديانة أيضاً فلا يعرفون نبوة ولا يدينون بشريعة الا من قرب منهم من جوانب الاعتدال وهو في الاقل اثنان مثل الحبشة المجاورين لليمن الدائنين بالنصرانية فيما قبل الاسلام وما بعده لهذا العهد ومثل أهل مالي وكوكو والتكرور المجاورين لارض المغرب الدائنين بالاسلام لهذا العهد يقال أنهم دائنوا في المائة السابعة ومثل من دان بالنصرانية من أمم الصقالبة والافرنجة والترك من الشمال ومن سوى هؤلاء من أهل تلك الاقاليم المنحرفة جنوباً وشمالاً فالدين مجهول عندهم والعلم مفقود بينهم وجميع أحوالهم بعيدة من أحوال الاناسي قريبة من أحوال البهائم ويخلق مالا تعلمون ولا يعترض على هذا القول بوجود الدين وحضر موت والاحقاف وبلاد الحجاز واليامة وما اليها من جزيرة العرب في الاقليم الاول والثاني فان جزيرة العرب كلها أحاطت بها البحار من الجهات الثلاث كما ذكرنا فكان لرطوبة أثر في رطوبة هوائها فتقص ذلك من اليبس والانحراف الذي يقتضيه الحر و صار فيها بعض الاعتدال بسبب رطوبة البحر وقد توهم بعض التسابين ممن لا علم لديه بطباع الكائنات أن السودان

هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها في لونه وفيما جعل الله من الرق في عقبه وينقلون في ذلك حكاية من خرافات القصاص ودعا نوح على ابنه حام قد وقع في التوراة وليس فيه ذكر السواد وانما دعا عليه بان يكون ولده عبدا لولد اخوته لا غير وفي القول بنسبة السواد الى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد وأثرها في الهواء وفيما يتكون فيه من الحيوانات وذلك أن هذا اللون شمل أهل الاقليم الأول والثاني من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب فان الشمس تسامت رؤسهم مرتين في كل سنة قريبة احدهما من الاخرى فتطول المسامطة عامة الفصول فيكثر الضوء لاجلها ويباح القيظ الشديد عليهم وتسود جلودهم لافراط الحر ونظير هذين الاقليمين فيما يقابلهما من الشمال الاقليم السابع والسادس شمل سكانهما أيضاً البياض من مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال اذ الشمس لاتزال بأفقهم في دائرة مرأى العين أو ما قرب منها ولا ترتفع الى المسامطة ولا ما قرب منها فيضعف الحر فيها ويشتد البرد عامة الفصول فتبيض ألوان أهلها وتنتهي الى الزعورة ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون وبرش الجلود وصهوبة الشعور وتوسط بينهما الاقليم الثلاثة والخامس والرابع والثالث فكان لها في الاعتدال الذي هو مزاج المتوسط حظ وافر والزابع أبلغها في الاعتدال غاية لهائته في المتوسط كما قدمناه فكان لأهلها من الاعتدال في خلقهم وخلقهم ما اقتضاه مزاج أهويتهم وتبعه عن جانبيه الثالث والخامس وان لم يبلغا غاية المتوسط لميل هذا قليلا الى الجنوب الحار وهذا قليلا الى الشمال البارد الا انهما لم ينتهيا الى الانحراف وكانت الاقليم الاربعة منحرفة وأهلها كذلك في خلقهم وخلقهم فالاول والثاني للحر والسواد والسابع والسادس للبرد والبياض ويسمي سكان الجنوب من الاقليمين الاول والثاني باسم الحبشة والزنج والسودان أسماء مترادفة على الامم المتغيرة بالسواد وان كان اسم الحبشة مختصا منهم بمن تجاه مكة واليمن والزنج بمن تجاه بحر الهند وليست هذه الاسماء لهم من أجل انتسابهم الى آدمي أسود لاحام ولا غيره وقد نجد من السودان أهل الجنوب من يسكن الرابع المعتدل أو السابع المنحرف الى البياض فتبيض ألوان أعقابهم على التدرج مع الايام وبالعكس فيمن يسكن من أهل الشمال أو الرابع بالجنوب فتسود ألوان أعقابهم وفي ذلك دليل على أن اللون تابع لمزاج الهواء قال ابن سينا في أرجوزته في الطب

بالزنج حر غير الاجسادا * حتى كسا جلودها سوادا

والصقبا كتسبت البيضا * حتى غدت جلودها بضا

وأما أهل الشمال فلم يسموا باعتبار ألوانهم لان البياض كان لونا لاهل تلك اللغة الواضحة للاسماء فلم يكن فيه غرابة تحمل على اعتباره في التسمية لموافقته واعتياده ووجدنا سكانه من

الترك والصقالبة والطغرغز والحزر واللان والكثير من الافرنجة ويأجوج ومأجوج أسماء متفرقة وأجيالا متعددة مسمين بأسماء متنوعة وأما أهل الاقاليم الثلاثة المتوسطة أهل الاعتدال في خلقهم وخلقهم وسيرهم وكافة الاحوال الطبيعية للاعتدال لديهم من المعاش والمساكن والصنائع والعلوم والرياسات والمملك فكانت فيهم النبوات والمملك والدول والشرائع والعلوم والبلدان والامصار والمباني والغراسه والصنائع الفائقة وسائر الاحوال المعتدلة وأهل هذه الاقاليم التي وقفنا على أخبارهم مثل العرب والروم وفارس وبني اسرائيل واليونان وأهل الهند والهند والصين * ولما رأى النسابون اختلاف هذه الامم بسماتها وشعارها حسبوا ذلك لاجل الانساب فجعلوا أهل الجنوب كلهم السودان من ولد حام وارتابوا في ألوانهم فتكافؤوا نقل تلك الحكاية الواهية وجعلوا أهل الشمال كلهم أو أكثرهم من ولد يافث وأكثر الامم المعتدلة وأهل الوسط المنتحايين للعلوم والصنائع والشرائع والسياسة والمملك من ولد سام وهذا الزعم وان صادف الحق في انتساب هؤلاء فليس ذلك بقياس مطرد انما هو اخبار عن الواقع لأن تسمية أهل الجنوب بالسودان والحبشان من أجل انتسابهم الى حام الاسود وما أدام الى هذا الغلط الا اعتقادهم أن التمييز بين الامم انما يقع بالانساب فقط وليس كذلك فان التمييز للجيل والامة يكون بالنسب في بعضهم كما للعرب وبني اسرائيل والفرس ويكون بالجهة والسمة كما للزنج والحبشة والصقالبة والسودان ويكون بالعوائد والشعار والنسب كما للعرب ويكون بغير ذلك من أحوال الامم وخواصهم وبميزاتهم فتعميم القول في أهل جهة معينة من جنوب أو شمال بانهم من ولد فلان المعروف لما شملهم من تحلة أولون أو سمة وجدت لذلك الاب انما هو من الاغاليط التي أوقع فيها الغفلة عن طبائع الاكوان والجهات وأن هذه كلها تبدل في الاعقاب ولا يجب استمرارها سنة الله في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا والله ورسوله أعلم بغيه وأحكم وهو المولى المنعم الرؤف الرحيم

❦ المقدمة الرابعة في أثر الهواء في أخلاق البشر ❦

(قد رأينا) من خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع موصوفين بالحلق في كل قطر والسبب الصحيح في ذلك أنه تقرر في موضعه من الحكمة أن طبيعة القرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني وتنشيه وطبيعة الحزن بالعكس وهو انقباضه وتكاثفه وتقرر أن الحرارة مفشية للهواء والبخار مخاخلة له زائدة في كميته ولهذا يجد المنتشي من الفرح والسرور مالا يعبر عنه

وذلك بما يداخل بخار الروح في القلب من الحرارة الغريزية التي تتبعها سورة الحمر في الروح من مزاجه فيتفشي الروح ويحيى طبيعة الفرح وكذلك نجد المتعمين بالحمامات اذا تنفسوا في هوائها واتصلت حرارة الهواء في ارواحهم فتسخنت لذلك حدث لهم فرح وربما انبعث الكثير منهم بالغناء الناشئ عن السرور ولما كان السودان ساكنين في الاقليم الحار واستولى الحر على أمزجتهم وفي أصل تكوينهم كان في ارواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم واقليمهم فتكون ارواحهم بالقياس الى ارواح أهل الاقليم الرابع أشد حراً فتكون أكثر نقشياً فتكون أسرع فرحاً وسروراً وأكثر انبساطاً ويحيى الطيش على أثر هذه وكذلك يلحق بهم قليلا أهل البلاد البحرية لما كان هوائها متضاعف الحرارة بما يتعكس عليه من أضواء بسيط البحر وأشعته كانت حصتهم من توابع الحرارة في الفرح والخفة موجودة أكثر من بلاد التلول والحيال الباردة وقد نجد يسيرا من ذلك في أهل البلاد الجزيرية من الاقليم الثالث لتوفر الحرارة فيها وفي هوائها لانها عريقة في الجنوب عن الارياف والتلول واعتبر ذلك أيضاً بأهل مصر فانها في مثل عرض البلاد الجزيرية أقربياً منها كيف غلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب حتى انهم لا يدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم وعامة ما كلهم من أسواقهم * ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها في التوغل في التلول الباردة كيف ترى أهلها مطرقين اطراق الحزن وكيف أفرطوا في نظر العواقب حتى ان الرجل منهم لا يدخر قوت سنتين من حبوب الخنطة ويباكر الاسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يرزأ شيئاً من مدخره وتتبع ذلك في الاقليم والبلدان تجدد في الاخلاق أثراً من كيفيات الهواء والله الخلاق العليم وقد تعرض المسعودي للبحث عن السبب في خفة السودان وطيشهم وكثرة الطرب فيهم وحاول تعاليله فلم يأت بشيء أكثر من أنه نقل عن جالينوس ويعقوب بن اسحق الكندي أن ذلك لضعف أدمغتهم وما نشأ عنه من ضعف عقولهم وهذا كلام لا محصل له ولا برهان فيه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

❦ المقدمة الخامسة ❦

في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم

(اعلم) أن هذه الاقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد بها الخصب ولا كل سكانها في رغد من العيش بل فيها ما يوجد لاهله خصب العيش من الجبوب والادم والخنطة والفواكه لذكاء

المنابت واعتدال الطينة ووفور العمران وفيها الارض الحرة التي لا تنبت زرعاً ولا عشباً بالجملة فسكانها في شظف من العيش مثل أهل الحجاز وجنوب اليمن ومثل المثلثين من ضهاجة الساكنين بصحراء المغرب وأطراف الرمال فيما بين البربر والسودان فان هؤلاء يفقدون الجبوب والادم جملة وانما أغذيتهم وأقواتهم الالبان والاحوم ومثل العرب أيضاً الجائلين في القفار فانهم وان كانوا يأخذون الجبوب والادم من التلول الا أن ذلك في الاحايين وتحت رقبة من حاميتها وعلى الاقلال لقلة وجدهم فلا يتوصلون منه الا الى سد الحلة أو دونها فضلاً عن الرغد والخصب وتجدهم يقتصرون في غالب أحوالهم على الالبان وتعوضهم من الخطة أحسن معاص وتجد مع ذلك هؤلاء الفاقرين للحبوب والادم من أهل القفار أحسن حالاً في جسومهم وأخلاقهم من أهل التلول المنغمسين في العيش فالوانهم أصفى وأبدانهم أنقى وأشكالهم أتم وأحسن وأخلاقهم أبعد من الانحراف وأذهانهم أثقب في المعارف والادراكات هذا أمر تشهد له التجربة في كل جيل منهم فكثير ما بين العرب والبربر فيما وصفناه وبين المثلثين وأهل التلول يعرف ذلك من خبره والسبب في ذلك والله اعلم ان كثرة الاغذية ورطوباتها تولد في الجسم فضلات رديئة ينشأ عنها بعد أقطارها في غير نسبة وكثرة الاخلاط الفاسدة العفنة ويتبع ذلك انكساف الألوان وقبح الاشكال من كثرة اللحم كما قلناه وتغطي الرطوبات على الازدهان والافكار بما يصعد الى الدماغ من أبخرتها الرديئة فتجيب البلادة والغفلة والانحراف عن الاعتدال بالجملة واعتبر ذلك في حيوان القفر ومواطن الجذب من الغزال والنعام والمها والزرافة والحمير الوحشية والبقر مع أمثالها من حيوان التلول والارياف والمراعي الخصبه كيف تجدينها بونا بعيدا في صفاء اديمها وحسن رونقها واشكالها وتناسب اعضائها وحدة مداركها فالغزال اخو المعز والزرافة أخو البعير والحمير والبقر أخو الحمير والبقر والبون بينها ما رأيت وما ذاك الا لاجل أن الخصب في التلول فعل في أبدان هذه من الفضلات الرديئة والاخلاط الفاسدة ما ظهر عليها أثره والجوع لحيوان القفر حسن في خلقها واشكالها ماشاء واعتبر ذلك في الآدميين أيضاً فاننا نجد أهل الاقاليم الخصبه العيش الكثيرة الزرع والضرع والادم والفواكه يتصف أهلها غالباً بالبلادة في أذهانهم والحشونة في أجسامهم وهذا شأن البربر المنغمسين في الادم والخطة مع المتقشفين في عيشهم المقتصرين على الشعير أو الذرة مثل المصامدة منهم وأهل غمارة والسوس فتجد هؤلاء أحسن حالاً في عقولهم وجسومهم وكذا أهل بلاد المغرب على الجملة المنغمسون في الادم والبر مع أهل الاندلس المفقود بارضهم السمن جملة وغالب عيشهم الذرة فتجد لاهل الاندلس من ذكاء العقول وخفة الاجسام وقبول التعليم ما لا يوجد لغيرهم وكذا أهل الضواحي من المغرب بالجملة مع أهل الحضرة والامصار فان أهل الامصار وان كانوا يكثرين مثلهم من الادم ومخصيين في

العيش الآن استعماهم اياها بعد العلاج بالطبخ والتلطيف بما يخاطون معها فيذهب لذلك غلظها ويرق قوامها وعامة ما كانهم لحوم الضأن والدجاج ولا يغبطون السمن من بين الادم لتفاهته فتقل الرطوبات لذلك في أغذيتهم ويخف مათوئيه الى أجسامهم من الفضلات الرديئة فلذلك تجد جسوم أهل الامصار ألطف من جسوم البادية الخشنين في العيش وكذلك تجد المعودين بالجوع من أهل البادية لافضالات في جسومهم غليظة ولا لطيفة * واعلم أن أثر هذا الحصب في البدن وأحواله يظهر حتي في حال الدين والعبادة فيجد المتقشفين من أهل البادية أو الحاضرة ممن يأخذ نفسه بالجوع والتجافي عن الملاذ أحسن دينا واقبالا على العبادة من أهل الترف والحصب بل نجد أهل الدين قليلين في المدن والامصار لما يعمها من القساوة والغفلة المتصلة بالاكثر من الاحمان والادم ولباب البر ويختص وجود اليباد والزهاد لذلك بالمتقشفين في غذائهم من أهل البوادي وكذلك نجد حال أهل المدينة الواحدة في ذلك مختلفا باختلاف حالها في الترف والحصب وكذلك نجد هؤلاء المحصنين في العيش المنعمسين في طبيائهم من أهل البادية وأهل الحواضر والامصار اذا نزلت بهم السنون وأخذتهم المجاعات يسرع اليهم الهلاك أكثر من غيرهم مثل برابرة المغرب وأهل مدينة فاس ومصر فيما يبلغنا لأمثل العرب أهل القفر والصحراء ولأمثل أهل بلاد النخل الذين غالب عيشهم التمر ولأمثل أهل أفريقية لهذا العهد الذين غالب عيشهم الشعير والزيت وأهل الاندلس الذين غالب عيشهم الذرة والزيت فان هؤلاء وان أخذتهم السنون والمجاعات فلا تنال منهم مآتال من أولئك ولا يكثر فيهم الهلاك بالجوع بل ولا يندر والسبب في ذلك والله أعلم أن المنعمسين في الحصب المتعودين للادم والسمن خصوصا تكتسب من ذلك أعماءهم رطوبة فوق رطوبتها الاصلية المزاجية حتي تجاوز حدها فاذا خواف بها العادة بقلّة الاقوات وفقدان الادم واستعمال الحشن غير المألوف من الغذاء أسرع الى المعى اليبس والانكماش وهو عضو ضعيف في الغاية فيسرع اليه المرض ويهلك صاحبه دفعة لانه من المقاتل فالها الكون في المجاعات انما قتلهم الشبع المعتاد السابق لا الجوع الحادث اللاحق * وأما المتعودون للعيمة وترك الادم والسمن فلا تزال رطوبتهم الاصلية واقفة عند حدها من غير زيادة وهي قابلة لجميع الاغذية الطبيعية فلا يقع في معامهم بتبدل الاغذية بيس ولا انحراف فيسلمون في الغالب من الهلاك الذي يعرض لغيرهم بالحصب وكثرة الادم في المآكل وأصل هذا كله أن تعلم أن الاغذية واثلافها أو تركها انما هو بالعادة فمن عود نفسه غذاء ولاءمه تناوله كان له مألوفًا وصار الخروج عنه والتبديل به داء مالم يخرج عن غرض الغذاء بالجملة كالسوموم واليتوع (١)

(١) قال في القاموس اليتوع كصبور أو تنور كل نبات له لبن دار مسهل محرق مقطوع

وما أفرط في الانحراف فأما ما وجد فيه التعذي والملاءمة فيصير غذاء مألوفاً بالعادة فإذا أخذ الإنسان نفسه باستعمال الابن والبقول عوضاً عن الخنطة حتى صار له ديدناً فقد حصل له ذلك غذاء واستغنى به عن الخنطة والحبوب من غير شك وكذا من عود نفسه الصبر على الجوع والاستغناء عن الطعام كما ينقل عن أهل الرياضات فانا نسمع عنهم في ذلك أخباراً غريبة يكاد ينكرها من لا يعرفها والسبب في ذلك العادة فان النفس اذا ألفت شيئاً صار من جبلتها وطبيعتها لانها كثيرة التلون فاذا حصل لها اعتياد الجوع بالتدريج والرياضة فقد حصل ذلك عادة طبيعية لها وميتوهمه الاطباء من أن الجوع مهلك فليس على ميتوهمونه الا اذا حملت النفس عليه دفعة وقطع عنها الغذاء بالكلية فانه حينئذ يخسم الممي ويناله المرض الذي يخشي معه الهلاك وأما اذا كان ذلك القدر تدريجياً ورياضة باقلال الغذاء شيئاً فشيئاً كما يفعله المتصوفة فهو بمنزلة عن الهلاك وهذا التدريج ضروري حتى في الرجوع عن هذه الرياضة فانه اذا رجع به الى الغذاء الاول دفعة خيف عليه الهلاك وانما يرجع به كبداً في الرياضة بالتدريج ولقد شاهدنا من يصبر على الجوع أربعين يوماً وصلاً وأكثر * وحضر أسياحتنا بمجلس السلطان أبي الحسن وقد رفع اليه امرأتان من أهل الجزيرة الخضراء ورندة حبستا أنفسهما عن الاكل جملة منذ سنين وشاع أمرهما ووقع اختبارهما فصح شأنهما واتصل على ذلك حالهما الى أن ماتتا * ورأينا كثيراً من أصحابنا أيضاً من يقتصر على حليب شاة من المغز يلتقم ثديها في بعض النهار أو عند الافطار ويكون ذلك غذاءه واستدام على ذلك خمس عشرة سنة وغيرهم كثير ولا يستنكر ذلك * واعلم أن الجوع أصاح للبدن من اكثار الاغذية بكل وجه لمن قدر عليه أو على الاقلال منها وأن له أثر في الاجسام والعقول في صفاتها وصلاحها كما قلناه واعتبر ذلك بأثار الاغذية التي تحصل منها في الجسم فقد رأيت المتغذين باحوم الحيوانات الفاخرة العظيمة الجثمان تشأ أجياهم كذلك وهذا مشاهد في أهل البادية مع أهل الحاضرة وكذا المتغذون بالبان الابل ولحومها أيضاً مع ما يؤثر في أخلاقهم من الصبر والاحتمال والقدرة على حمل الاثقال الموجود ذلك للابل وتشأ أمعاؤهم أيضاً على نسبة أمعاء الابل في الصحة والغلظ فلا يطرقها الوهن والالضعف ولا ينالها من مضار الاغذية ما ينال غيرهم فيشربون التيوغات لاستطلاق بطونهم غير محجوبة كالخنظل قبل طبعه والدرياس والفربيون ولا ينال أمعاءهم منها ضرر وهي لو تناولها أهل الحضر الرقيقة أمعاؤهم بما نشأت عليه من لطيف الاغذية لكان الهلاك أسرع اليهم من طرفة

والمشهور منه سبعة الشبزم والناعية والعرطيسا والمهاودانة والمازريون والفاجاشت والعشر وكل التيوغات اذا استعملت في غير وجهها أهلكت اه

العين لما فيها من السمية ومن تأثير الاغذية في الابدان ما ذكره أهل الفلاحة وشاهده أهل التجربة أن الدجاج اذا غذيت بالحبوب المطبوخة في برالابل واتخذ بيضها ثم حضنت عليه جاء الدجاج منها أعظم ما يكون وقد يستغنون عن تغذيتها وطبخ الحبوب بطرح ذلك البعر مع البض المحض فيجئ دجاجها في غاية العظم وأمثال ذلك كثير فإذا رأينا هذه الآثار من الاغذية في الابدان فلا شك أن للجوع أيضاً آثاراً في الابدان لان الضدين على نسبة واحدة في التأثير وعدمه فيكون تأثير الجوع في نقاء الابدان من الزيادات الفاسدة والرطوبات المختلطة الخلة بالجسم والعقل كما كان الغذاء مؤثراً في وجود ذلك الجسم والله محيط بعلمه

○ المقدمة السادسة ○

(في أصناف المدركين للغيب من البشر بالفطرة أو بالرياضة ويتقدمه الكلام في الوحي والرؤيا)

(اعلم) أن الله سبحانه اصطفى من البشر أشخاصاً فضلهم بخطابه وفطرهم على معرفته وجعلهم وسائل بينه وبين عباده يعرفونهم بمصالحهم ويحرضونهم على هدايتهم ويأخذون بحجزاتهم عن النار ويدلونهم على طريق النجاة وكان فيما يلقىهم من المعارف ويظهره على ألسنتهم من الخوارق وأخبار الكائنات المغيبة عن البشر التي لا سبيل الى معرفتها الا من الله بوساطتهم ولا يعلمونها الا بتعليم الله اياهم قال صلى الله عليه وسلم ألا واني لأعلم الا ما علمني الله واعلم أن خبرهم في ذلك من خاصيته وضرورته الصديق لما يتبين لك عند بيان حقيقة النبوة وعلامة هذا الصنف من البشر أن توجد لهم في حال الوحي غيبة عن الحاضرين معهم مع غطيظ كأنها غشي أو اغماء في رأي العين وليست منهما في شيء وانما هي في الحقيقة استغراق في لقاء الملك الروحاني بادراكهم المناسب لهم الخارج عن مدارك البشر بالكلية ثم ينزل الى المدارك البشرية اما بسمع دوي من الكلام فيفهمه أو يمثّل له صورة شخص يخاطبه بما جاء به من عند الله ثم تجلي عنه تلك الحال وقد وعي ما ألقى اليه قال صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن الوحي أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال وأحياناً يمثّل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول ويدركه أثناء ذلك من الشدة والفظ ما لا يعبر عنه ففي الحديث كان مما يعالج من التنزيل شدة وقالت عائشة كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً وقال تعالى انا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً ولاجل هذه الحالة في تنزل الوحي كان المشركون يرمون الانبياء بالجنون ويقولون له رأي أو تابع من الجن وانما لبس عليهم بما شاهدوه من ظاهري تلك الاحوال ومن يضل

(١٠ - ابن خلدون)

الله فإله من هاد * ومن علاماتهم أيضاً أنه يوجد لهم قبل الوحي خلق الخير والذكاء ومجانبة المذمومات والرجس أجمع وهذا هو معنى العصمة وكأنه مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها وكأنها منافية لحيثته * وفي الصحيح أنه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة فجعلها في إزاره فانكشف فسقط مغشياً عليه حتى استتر بازاره ودعي الى مجتمع ولية فيها عرس ولعب فأصابه غشى النوم الى أن طلعت الشمس ولم يحضر شيئاً من شأنهم بل نزهه الله عن ذلك كله حتى انه بجلبته يتنزه عن المطعومات المستكرهه فقد كان صلى الله عليه وسلم لا يقرب البصل والثوم ف قيل له في ذلك فقال اني أناجي من لا تناجون (وانظر) لما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم خديجة رضي الله عنها بحال الوحي أول ما لجأه وأرادت اختباره فقالت اجعلني بينك وبين ثوبك فلما فعل ذلك ذهب عنه فقالت انه ملك وليس بشيطان ومعناه انه لا يقرب النساء وكذلك سأله عن احب الثياب اليه ان يأتيه فيها فقال البياض والخضرة فقالت انه الملك يعني أن البياض والخضرة من ألوان الخير والملائكة والسواد من ألوان الشر والشياطين وأمثال ذلك * ومن علاماتهم أيضاً دعاؤهم الى الدين والعبادة من الصلاة والصدقة والعفاف وقد استدلت خديجة على صدقه صلى الله عليه وسلم بذلك وكذلك أبو بكر ولم يحتاج في أمره الى دليل خارج عن حاله * وفي الصحيح ان هرقل حين جاءه كتاب النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الى الاسلام أحضر من وجد ببلده من قريش وفيهم أبو سفيان ليسألهم عن حاله فكان فيما سأل أن قال بم يأمركم فقال أبو سفيان بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف الى آخر ما سأل فأجابه فقال ان يكن ما تقول حقاً فهو نبي وسيملك ما تحت قدمي هاتين والعفاف الذي (١) أشار اليه هرقل هو العصمة فانظر كيف أخذ من العصمة والدعاء الى الدين والعبادة دليلاً على صحة نبوته ولم يحتاج الى معجزة فدل على أن ذلك من علامات النبوة (ومن علاماتهم أيضاً) أن يكونوا ذوي حسب في قومهم وفي الصحيح ما بعث الله نبياً الا في منعة من قومه * وفي رواية أخرى في ثروة من قومه استدركه الحاكم على الصحيحين وفي مسألة هرقل لأبي سفيان كما هو في الصحيح قال كيف هو فيكم فقال أبو سفيان هو فينا ذو حسب فقال هرقل والرسول تبعث في أحساب قومها ومعناه ان تكون له عصية وشوكة تمنعه عن أذى الكفار حتى يبلغ رسالة ربه ويتم مراد الله من إكمال دينه وملته (ومن علاماتهم أيضاً) وقوع الخوارق لهم شاهدة بصدقهم وهي أفعال يعجز البشر عن مثلها فسميت بذلك معجزة وليست من جنس مقدور العباد وانما تقع في غير محل قدرتهم وللناس في كيفية وقوعها ودلائلها على تصديق الانبياء خلاف فالتكلمون

(١) قوله الذي أشار اليه هرقل الظاهر أبو سفيان اه

بناء على القول بالفاعل المختار قائلون بانها واقعة بقدرة الله لا بفعل النبي وان كانت أفعال العباد عند المئزلة صادرة عنهم الا أن المعجزة لا تكون من جنس أفعالهم وليس للنبي فيها عند سائر المتكلمين الا التحدي بها بأذن الله وهو أن يستدل بها النبي صلى الله عليه وسلم قبل وقوعها على صدقه في مدعاه فإذا وقعت تنزل منزلة القول الصريح من الله بأنه صادق وتكون دلالتها حينئذ على الصدق قطعية فالمعجزة الدالة بمجموع الحارق والتحدي ولذلك كان التحدي جزءاً منها (وعبارة المتكلمين) صفة نفسها وهو واحد لانه معنى الذاتي عندهم والتحدي هو الفارق بينها وبين الكرامة والسحر اذ لا حاجة فيهما الى التصديق فلا وجود للتحدي الا أن وجد اتفاقاً وان وقع التحدي في الكرامة عند من يحيزها وكانت لها دلالة فأنما هي على الولاية وهي غير اثبوتية ومن هنا منع الاستاذ أبو اسحق وغيره وقوع الخوارق كرامة فراراً من الالتباس بالنبوة عند التحدي بالولاية وقد أريناك المغايرة بينهما وأنه يتحدى بغير ما يتحدي به النبي فلا لبس على أن النقل عن الاستاذ في ذلك ليس صريحاً وربما حمل على انكار ان تقع خوارق الانبياء لهم بناء على اختصاص كل من الفريقين بخوارق واما المعتزلة فالمانع من وقوع الكرامة عندهم ان الخوارق ليست من افعال العباد وفعالهم معتادة فلا فرق واما وقوعها على يد الكاذب تليسا فهو محال أمامند الاشعرية فلأن صفة نفس المعجزة التصديق والهداية فلو وقعت بخلاف ذلك انقلب الدليل شبهة والهداية ضلالة والتصديق كذباً واستحالت الحقائق وانقلب صفت النفس وما يلزم من فرض وقوعه المحال لا يكون ممكناً وأما عند المعتزلة فلأن وقوع الدليل شبهة والهداية ضلالة قبيح فلا يقع من الله واما الحكماء فالخارق عندهم من فعل النبي ولو كان في غير محل القدرة بناء على مذهبهم في الإيجاب الذاتي ووقوع الحوادث بعضها عن بعض متوقف على الاسباب والشروط الحادثة مستندة اخيراً الى الواجب الفاعل بالذات لا بالاختيار وان النفس النبوية عندهم لها خواص ذاتية منها صدور هذه الخوارق بقدرته وطاعة العناصر له في التكرين والنبي عندهم مجبول على التصريف في الاكوان مهما توجه اليها واستجمع لها بما جعل الله له من ذلك والخارق عندهم يقع للنبي كان للتحدي اولى يكن وهو شاهد بصدقه من حيث دلالاته على تصرف النبي في الاكوان الذي هو من خواص النفس النبوية لا بأنه ينزل منزلة القول الصريح بالتصديق فلذلك لا تكون دلالتها عندهم قطعية كما هي عند المتكلمين ولا يكون التحدي جزءاً من المعجزة ولم يصح فارقالها عن السحر والكرامة وفارقها عندهم عن السحر ان النبي مجبول على افعال الخير مصروف عن افعال الشر فلا يلزم الشر بخوارقه والساحر على الضد فافعله كلها شر وفي مقاصد الشر وفارقها عن الكرامة ان خوارق النبي مخصوصة كالصعود الى السماء والنفوذ في الاجسام

الكشفة واحياء الموتى وتكليم الملائكة والطيران في الهواء وخوارق الولي دون ذلك كتكثير القليل والحديث عن بعض المستقبل وامثاله مما هو قاصر عن تصريف الانبياء ويأتي النبي بجميع خوارقه ولا يقدر هو على مثل خوارق الانبياء وقد قرر ذلك المتصوفة فيما كتبوه في طريقتهم ولقنوه عن اخبرهم* واذا تقرر ذلك فاعلم ان اعظم المعجزات واشرفها واوضحها دلالة القرآن الكريم المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فان الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقه والقرآن هو بنفسه الوحي المدعي وهو الخارق المعجز فشاهده في عينه ولا يفتقر الى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي فهو اوضح دلالة لاتحاد الدليل والمطلوب فيه وهذا معني قوله صلى الله عليه وسلم ما من نبي من الانبياء الا وأوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وانما كان الذي أوتيته وحيا أوحى الي فأنار جوا ان اكون اكثرهم تابعا يوم القيامة يشير الى ان المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح وقوة الدلالة وهو كونها نفس الوحي كان الصدق لها اكثر لوضوحها فكثير المصدق والمؤمن وهو التابع والامة

* (ولندكر الآن تفسير حقيقة النبوة على ماشرحه كثير من المحققين ثم نذكر حقيقة

الكهانة ثم الرؤيا ثم شأن العرافين وغير ذلك من مدارك الغيب فنقول)*

* (اعلم) * أرشدنا الله واياك انا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والاحكام وربط الاسباب بالمسببات واتصال الاكوان بالاكوان واستحالة بعض الموجودات الى بعض لاتنقض عجبته في ذلك ولا تنتهي غايته وأبدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجفاني وأولا عالم العناصر المشاهدة كيف تدرج صاعدا من الارض الى الماء ثم الى الهوائ ثم الى النار متصلا بعضها ببعض وكل واحد منها مستعد الى ان يستحيل الى ما يليه صاعدا وهابطا ويستحيل بعض الاوقات والصاعد منها ألطف مما قبله الى ان ينتهي الى عالم الافلاك وهو ألطف من الكل على طبقات اتصل بعضها ببعض على هيئة لا يدرك الحس منها الا الحركات فقط وبها يهتدي بعضهم الى معرفة مقاديرها وأوضاعها وما بعد ذلك من وجود الذوات التي لها هذه الآثار فيها ثم انظر الى عالم التكوين كيف ابتداء من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدرج آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا يذر له وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف ولم يوجد لهما الا قوة اللمس فقط ومعني الاتصال في هذه المكونات ان آخر أفق منها مستعد بالاستعداد القريب ان يصير أول أفق الذي بعده واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى في تدرج التكوين الى الانسان صاحب الفكر والروية ترتفع اليه من عالم القدرة الذي

اجتمع فيه الحس والادراك ولم ينته الى الروية والفكر بالفعل وكان ذلك أول أفق من الانسان بعده وهذا غاية شهودنا ثم انا نجد في العوالم على اختلافها آثارا متنوعة في عالم الحس آثار من حركات الافلاك والعناصر وفي عالم التكوين آثار من حركة النمو والادراك تشهد كلها بان لها مؤثرا مابيننا للاجسام فهو روحاني ويتصل بالمكونات لوجوب اتصال هذا العالم في وجودها وذلك هو النفس المدركة والحركة ولا بد فوقها من وجود آخر يعطيها قوي الادراك والحركة ويتصل بها أيضا ويكون ذاته ادراكا صرفا وتعقلا محضا وهو عالم الملائكة فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعدادا للانسلاخ من البشرية الى الملكية ليصير بالفعل من جنس الملائكة وقتا من الأوقات في لحظة من اللحظات وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل كما نذكره بعد ويكون لها اتصال بالأفق الذي بعدها شأن الموجودات المرتبة كما قدمناه فلها في الاتصال جهتا العلو والسفل هي متصلة بالبدن من أسفل منها ومكتسبة به المدارك الحسية التي تستعد بها للحصول على التعقل بالفعل ومتصلة من جهة الأعلى منها بأفق الملائكة ومكتسبة به المدارك العلمية والقيمية فان عالم الحوادث موجود في تعقلاتهم من غير زمان وهذا على ما قدمناه من الترتيب المحكم في الوجود باتصال ذواته وقواه بعضها ببعض ثم ان هذه النفس الانسانية غائبة عن العيان وآثارها ظاهرة في البدن فكأنه وجميع أجزائه مجتمعة ومفترقة آلات للنفس ولقواها أما الفاعلية فالبطش باليد والمشي بالرجل والكلام باللسان والحركة الكلية بالبدن متدافعا وأما المدركة وان كانت قوى الادراك مرتبة ومرتقة الى القوة العليا منها ومن المفكرة التي يعبر عنها بالناطقة فقوى الحس الظاهرة بآلاته من السمع والبصر وسائرهما يرتقى الى الباطن وأوله الحس المشترك وهو قوة تدرك المحسوسات مبصرة ومسموعة وملموسة وغيرها في حالة واحدة وبذلك فارتقت قوة الحس الظاهر لان المحسوسات لاتزدهم عليها في الوقت الواحد ثم يؤديه الحس المشترك الى الخيال وهي قوة تمثل الشيء المحسوس في النفس كما هو مجردا عن المواد الخارجية فقط وآلة هاتين القوتين في تصريفهما البطن الاول من الدماغ مقدمه للاولى ومؤخره للثانية ثم يرتقى الخيال الى الواهمة والحافظة فالواهمة لادراك المعاني المتعلقة بالشخصيات كعداوة زيد وصداقة عمرو ورحمة الاب واقتراس الذئب والحافظة لايداع المدركات كلها متخيلة وغير متخيلة وهي لها كالحزانة تحفظها لوقت الحاجة اليها وآلة هاتين القوتين في تصريفهما البطن المؤخر من الدماغ اوله للاولى ومؤخره للاخري ثم ترتقى جميعها الى قوة الفكر وآلة البطن الاوسط من الدماغ وهي القوة التي يقع بها حركة الروية والتوجه نحو التعقل فتحرك النفس بها دائما لما ركب فيها من النزوع للتخلص من درك القوة والاستعداد الذي للبشرية وتخرج الى الفعل في تعقلها متشبهة بالملا الأعلى الروحاني

وتصير في اول مراتب الروحانيات في ادراكها بغير الآلات الجسمانية فهي متحركة دائما ومتوجهة نحو ذلك وقد تنسلخ بالكلية من البشرية وروحانيتها الى الملكية من الافق الاعلى من غير اكتساب بل بما جعل الله فيها من الحيلة والفطرة الاولى في ذلك * والنفوس البشرية على ثلاثة اصناف صنف عاجز بالطبع عن الوصول الى الادراك الروحاني فيقطع بالحركة الى الجهة السفلى نحو المدارك الحسية والخيالية وتركيب المعاني من الحافظة والواهمة على قوانين محصورة وترتيب خاص يستفيدون به العلوم التصورية والتصديقية التي للفكر في البدن وكلها خيالي منحصرة نطاقه اذ هو من جهة مبدئية تنتهى الى الاوليات ولا يتجاوزها وان فسد فسد ما بعدها وهذا هو في الاغلب نطاق الادراك البشري الجسماني واليه تنتهي مدارك العلماء وفيه ترسخ أقدامهم وصنف متوجه بتلك الحركة الفكرية نحو العقل الروحاني والادراك الذي لا يفتقر الى الآلات البدنية بما جعل فيه من الاستعداد لذلك فيتسع نطاق ادراكه عن الاوليات التي هي نطاق الادراك الاول البشري ويسرح في فضاء المشاهدات الباطنية وهي وجدان كلها لانطاق لها من مبدئها ولان من منتهاها وهذه مدارك العلماء الاولياء اهل العلوم الدنية والمعارف الربانية وهي الحاصلة بعد المات لاهل السعادة في البرزخ وصنف مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة جسمانياتها وروحانياتها الى الملائكة من الافق الاعلى ليصير في لجة من اللمحات ملكا بالفعل ويحصل له شهود الملائكة الاعلى في أفقهم وسماع الكلام النفساني والخطاب الالهى في تلك اللمحة وهؤلاء الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم جعل الله لهم الانسلاخ من البشرية في تلك اللمحة وهي حالة الوحي فطرة فطرهم الله عليها وحيلة صورهم فيها وزههم عن موانع البدن وعوائقه ماداموا ملاسين لها بالبشرية بمارك في غرائزهم من القصد والاستقامة التي يحاذون بها تلك الوجهة وركز في طبائعهم رغبة في العبادة تكشف بتلك الوجهة وتسيغ محوها فهم يتوجهون الى ذلك الافق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاؤا بتلك الفطرة التي فطروا عليها لا باكتساب ولا صناعة فلذا توجهوا وانسأخوا عن بشريتهم وتلقوا في ذلك الملائكة الاعلى ما يتلقونه وعاجوابه على المدارك البشرية منزلا في قواها لحكمة التبليغ للعباد فتارة يسمع دوى كأنه رمز من الكلام يأخذ منه المعنى الذي أتى اليه فلا يتقضي الدوى الاوقد وعاء وفهمه وتارة يمثل له الملك الذي يلقى اليه رجلا فيكلمه ويبي ما يقوله والتلقى من الملك والرجوع الى المدارك البشرية وفهمه ما أتى عليه كله كأنه في لحظة واحدة بل اقرب من لمح البصر لانه ليس في زمان بل كلها تقع جميعا فيظهر كأنها سريعة ولذلك سميت وحيا لان الوحي في اللغة الاسراع (واعلم) ان الاولى وهي حالة الدوى هي رتبة الانبياء غير المرسلين على ما حققوه والثانية وهي حالة تمثل الملك رجلا يخاطب هي رتبة الانبياء المرسلين ولذلك كانت اكمل من الاولى وهذا معنى الحديث الذي فسر فيه

النبى صلى الله عليه وسلم الوحي لمأسأله الحرث بن هشام وقال كيف يأتيك الوحي فقال أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فيفصم عني وقد وعيت ما قال وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعنى مايقول وانما كانت الاولى أشد لانها مبدأ الخروج فى ذلك الاتصال من القوة الى الفعل فيعسر بعض العسر ولذلك لما عاج فيها على المدارك البشرية اختصت بالسمع وصعب ماسواه وعند ما يتكرر الوحي ويكثر التلقى يسهل ذلك الاتصال فعند ما يرجع الى المدارك البشرية يأتي على جميعها وخصوصا الاوضح منها وهو ادراك البصر وفى العبارة عن الوعى فى الاولى بصيغة الماضي وفى الثانية بصيغة المضارع لطيفة من البلاغة وهى أن الكلام جاء مجيء التثنية لحالتي الوحي فمثل الحالة الاولى بالدوى الذى هو فى المتعارف غير كلام وأخبر أن الفهم والوعى يتبعه غيب انقضائه فناسب عند تصوير انقضائه وانفصاله العبارة عن الوعى بالماضى المطابق للانقضاء والانقطاع ومثل الملك فى الحالة الثانية برجل يحاطب ويتكلم والكلام يساوقه الوعى فناسب العبارة بالمضارع المقتضى للتجدد * واعلم ان فى حالة الوحي كلها صعوبة على الجملة وشدة تد أشار اليها القرآن قال تعالى انا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً وقالت عائشة كان مما يعانى من التنزيل شدة وقالت كان ينزل عليه الوحي فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقاً ولذلك كان يحدث عنه فى تلك الحالة من النية والغطيظ ما هو معروف وسبب ذلك أن الوحي كما قررناه مفارقة البشرية الى المدارك الملكية وتلقى كلام النفس فيحدث عنه شدة من مفارقة الذات ذاتها وانسلاخها عنها من أفقها الى ذلك الافق الآخر وهذا هو معنى الغط الذى عبر به فى مبدأ الوحي فى قوله فغطني حتى بلغ منى الجهد ثم أرساني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقاري وكذا ثانية وثالثة كما فى الحديث وقد يفضى الاعتقاد بالتدريج فيه شيئاً فشيئاً الى بعض السهولة بالقياس الى ما قبله ولذلك كان تنزل نجوم القرآن وسوره وآية حين كان بمكة أقصر منها وهو بالمدينة وانظر الى ما نقل فى نزول سورة براءة فى غزوة تبوك وأنها نزلت كلها أو أكثرها عليه وهو يسير على ناقته بعد أن كان بمكة ينزل عليه بعض السورة من قصر الفصل فى وقت وينزل الباقي فى حين آخر وكذلك كان آخر ما نزل بالمدينة آية الدين وهى ما هى فى الطول بعد أن كانت الآية تنزل بمكة مثل آيات الرحمن والذاريات والمدثر والضحي والفاق وأمثالها واعتبر من ذلك علامة تميزها بين المكي والمدني من السور والآيات والله المرشد للصواب هذا محصل أمر النبوة (وأما الكهانة) فهى أيضاً من خواص النفس الانسانية وذلك أنه قد تقدم لنا فى جميع ما مر أن للنفس الانسانية استعدادا للانسلاخ من البشرية الى الروحانية التى فوقها وأنه يحصل من ذلك لمحة للبشرى فى صنف الانبياء بما فطروا عليه من ذلك وتقرر أنه يحصل لهم من غير اكتساب ولا استعانة بشيء من المدارك ولا من

التصورات ولا من الافعال البدنية كلاماً أو حركة ولا بأمر من الامور انما هو انسلاخ من البشرية الى الملكية بالفطرة في لحظة أقرب من لمح البصر واذا كان كذلك وكان ذلك الاستعداد موجوداً في الطبيعة البشرية فيعطي التقسيم العقلي أن هنا صنفاً آخر من البشر ناقصاً عن رتبة الصنف الاول نقصان الضد عن ضده الكامل لان عدم الاستعانة في ذلك الادراك ضد الاستعانة فيه وشتان ما بينهما فاذا أعطي تقسيم الوجود أن هنا صنفاً آخر من البشر مفطوراً على أن تحرك قوته العقلية حركتها الفكرية بالارادة عند ما يبعثها النزوع لذلك وهي ناقصة عنه بالحيلة فيكون لها بالحيلة عند ما يعوقها العجز عن ذلك تشبث بأمر جزئية محسوسة أو متخيلة كالأجسام الشفافة وعظام الحيوانات وسجع الكلام وما صنع من طير أو حيوان فيستديم ذلك الاحساس أو التخيل مستعيناً به في ذلك الانسلاخ الذي يقصده ويكون كالشميع له وهذه القوة التي فيهم مبدأ لذلك الادراك هي الكهانة ولكون هذه النفوس مفطورة على النقص والقصور عن السكال كان ادراكها في الجزئيات أكثر من الكليات ولذلك تكون الحيلة فيهم في غاية القوة لانها آلة الجزئيات فتتفد فيها نفوذاً تاماً في نوم أو يقظة وتكون عندها حاضرة عديدة تحضرها الحيلة وتكون لها كالمراتة تنظر فيها دائماً ولا يقوي الكاهن على السكال في ادراك المعقولات لان وحيه من وحي الشيطان وأرفع أحوال هذا الصنف أن يستعين بالكلام الذي فيه السجع والموازنة ليستغل به عن الحواس ويقوي بعض الشيء على ذلك الاتصال الناقص فيهم جس في قلبه عن تلك الحركة والذي يشيعها من ذلك الاجنبي ما يقذفه على لسانه وربما صدق ووافق الحق وربما كذب لانه يتم نقصه بأمر أجنبي عن ذاته المدركة ومباين لها غير ملائم فيعرض له الصدق والكذب جميعاً ولا يكون موثوقاً به وربما يفرع الى الظنون والتخمينات حرصاً على الظفر بالادراك بزعمه وتمويهاً على السائلين وأصحاب هذا السجع هم المخصوصون باسم الكهان لانهم أرفع سائر أصنافهم وقد قال صلي الله عليه وسلم في مثله هذا من سجع الكهان فجعل السجع مختصاً بهم بمقتضى الاضافة وقد قال ابن صياد حين سأله كاشفاً عن حاله بالاختبار كيف يأتيك هذا الامر قال يأتيني صادق وكاذب فقال خلط عليك الامر يعني أن النبوة خاصتها الصدق فلا يعتريها الكذب بحال لانها اتصال من ذات النبي بالملأ الاعلى من غير مشيع ولا استعانة باجنبي والكهانة لما احتاج صاحبها بسبب عجزه الى الاستعانة بالتصورات الاجنبية كانت داخلية في ادراكه والتبست بالادراك الذي توجه اليه فصار مختلطاً بها وطرقه الكذب من هذه الجهة فامتنع أن تكون نبوة وانما قلنا أن أرفع مراتب الكهانة حالة السجع لان معنى السجع أخف من سائر المعانيات من المراثيات والمسموعات وتدل خفة المعنى على قرب ذلك الاتصال والادراك والبعد فيه عن

العجز بعض الشيء (وقد زعم) بعض الناس أن هذه الكهانة قد انقطعت منذ زمن النبوة بما وقع من شأن رجم الشياطين بالشهب بين يدي البعثة وإن ذلك كان لمنعهم من خبر السماء كما وقع في القرآن والكهان إنما يتعرفون أخبار السماء من الشياطين فبطلت الكهانة من يومئذ ولا يقوم من ذلك دليل لأن علوم الكهان كما تكون من الشياطين تكون من نفوسهم أيضاً كما قررناه أيضاً فالآية إنما دلت على منع الشياطين من نوع واحد من أخبار السماء وهو ما يتعلق بخبر البعثة ولم يمنعوا مما سوى ذلك وأيضاً فإنما كان ذلك الانقطاع بين يدي النبوة فقط ولعلها عادت بعد ذلك إلى ما كانت عليه وهذا هو الظاهر لأن هذه المدارك كلها تخمد في زمن النبوة كما تخمد الكواكب والسرّج عند وجود الشمس لأن النبوة هي النور الأعظم الذي يخفي معه كل نور ويذهب وقد زعم بعض الحكماء أنها إنما توجد بين يدي النبوة ثم تنقطع وهكذا مع كل نبوة ووقت لأن وجود النبوة لا بد له من وضع فلكي يقتضيه وفي تمام ذلك الوضع تمام تلك النبوة التي دل عليها ونقص ذلك الوضع عن التمام يقتضي وجود طبيعة من ذلك النوع الذي يقتضيه ناقصة وهو معني الكهان على ما قررناه فقبل أن يتم ذلك الوضع الكامل يقع الوضع الناقص ويقتضي وجود الكهان إما واحداً أو متعدداً فإذا تم ذلك الوضع تم وجود النبي بكامله وانقضت الأوضاع الدالة على مثل تلك الطبيعة فلا يوجد منها شيء بعد وهذا بناء على أن بعض الوضع الفلكي يقتضي بعض أثره وهو غير مسلم فلعل الوضع إنما يقتضي ذلك الأثر بهيئته الخاصة ولو نقص بعض أجزائها فلا يقتضي شيئاً لأنه يقتضي ذلك الأثر ناقصاً كما قالوه ثم إن هؤلاء الكهان إذا عاصروا زمن النبوة فإنهم عارفون بصدق النبي ودلالة معجزته لأن لهم بعض الوجدان من أمر النبوة كما لكل إنسان من أمر النوم ومعقولة تلك النسبة موجودة للكهان بأشد مما للتائم ولا يصدهم عن ذلك ويوقعهم في التكذيب الاقوة المطامع في أنها نبوة لهم فيقعون في العناد كما وقع لأمية بن أبي الصلت فإنه كان يطمع أن يتبأ وكذا وقع لابن صياد ولمسيلة وغيرهم فإذا غلب الإيمان وانقطعت تلك الاماني آمنوا أحسن إيمان كما وقع لطايحة الاسدي وسواد بن قارب وكان لهما في الفتوحات الاسلامية من الآثار الشاهدة بحسن الإيمان (وأما الرؤيا) فحقيقتها مطالعة النفس الناطقة في ذاتها الروحانية لمحّة من صور الواقعات فإنها عند ما تكون روحانية تكون صور الواقعات فيها موجودة بالفعل كما هو شأن الذوات الروحانية كلها وتصير روحانية بان تجرد عن المواد الجسمانية والمدارك البدنية وقد يقع لها ذلك لمحّة بسبب النوم كما نذكر فقتبس بها علم ما تشوف إليه من الامور المستقبلّة وتعود به إلى مداركها فإن كان ذلك الاقباس ضعيفاً وغير جلي بالمحاكاة والمثال في الحبال لتخلطه فيحتاج من أجل هذه المحاكاة إلى اتعير وقد يكون

الاقتراب قويا يستغني فيه عن المحاكاة فلا يحتاج الى تعبير لخواصه من المثال والخيال والسبب في وقوع هذه الامحة للنفس انها ذات روحانية بالقوة مستكملة بالبدن ومداركه حتى تصير ذاتها تعقلا محضا ويكمل وجودها بالفعل فتكون حينئذ ذاتا روحانية مدركة بغير شئ من الآلات البدنية الا أن نوعها في الروحانيات دون نوع الملائكة أهل الافق الاعلى الذين لم يستكملوا ذواتهم بشئ من مدارك البدن ولا غيره فهذا الاستعداد حاصل لها مادامت في البدن ومنه خاص كالذي للاولياء ومنه عام للبشر على العموم وهو أمر الرؤيا * وأما الذي للانبياء فهو استعداد بالانسلاخ من البشرية الى الملكية المحضة التي هي أعلى الروحانيات ويخرج هذا الاستعداد فيهم متكرراً في حالات الوحي وهو عند ما يرجع على المدارك البدنية ويقع فيها ما يقع من الادراك شبيها بحال النوم شبيها بينا وان كان حال النوم أدون منه بكثير فلاجل هذا الشبه عبر الشارع عن الرؤيا بأنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة وفي رواية ثلاثة وأربعين وفي رواية سبعين وليس العدد في جميعها مقصوداً بالذات وانما المراد الكثرة في تفاوت هذه المراتب بدليل ذكر السبعين في بعض طرقه وهو للتكثير عند العرب وما ذهب اليه بعضهم في رواية ستة وأربعين من أن الوحي كان في مبتدئه بالرؤيا ستة أشهر وهي نصف سنة ومدة النبوة كلها بمكة والمدينة ثلاث وعشرون سنة فنصف السنة منها جزء من ستة وأربعين فكلام بعيد من التحقيق لانه انما وقع ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ومن أين لنا أن هذه المدة وقعت لغيره من الانبياء مع أن ذلك انما يعطي نسبة زمن الرؤيا من زمن النبوة ولا يعطي نسبة حقيقتها من حقيقة النبوة واذا تبين لك هذا بما ذكرناه أولاً عامت أن معنى هذا الجزء نسبة الاستعداد الاول الشامل للبشر الى الاستعداد القريب الخاص بصنف الانبياء الفطري لهم صلوات الله عليهم اذ هو الاستعداد البعيد وان كان عاماً في البشر ومعه عوائق وموانع كثيرة من حصوله بالفعل ومن أعظم تلك الموانع الحواس الظاهرة ففطر الله البشر على ارتفاع حجاب الحواس بالنوم الذي هو جبلي لهم فتعرض النفس عند ارتفاعه الى معرفة ما تشوف اليه في عالم الحق فتدرك في بعض الاحيان منه لمحة يكون فيها الظفر المطلوب ولذلك جعلها الشارع من المبشرات فقال لم يبق من النبوة الا المبشرات قالوا وما المبشرات يا رسول الله قال الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له (وأما) سبب ارتفاع حجاب الحواس بالنوم فعلى ما أصفه لك وذلك أن النفس الناطقة انما ادراكها أفعالها بالروح الحيواني الجسماني وهو بخار لطيف مركزه بالتجويف الايسر من القلب على ما في كتب التشریح للجالينوس وغيره وينبعث مع الدم في الشريانات والعروق فيعطي الحس والحركة وسائر الافعال البدنية ويرتفع لطيفه الى الدماغ فيعدل من برده وتتم افعال القوى التي في بطونه فالنفس الناطقة انما تدرك

وتعقل بهذا الروح البخاري وهي متعلقة به لما اقتضته حكمة التكوين في أن اللطيف لا يؤثر في الكثيف ولما لطف هذا الروح الحيواني من بين المواد البدنية صار محلا لآثار الذات المبينة له في جسمانيته وهي النفس الناطقة وصارت آثارها حاصلة في البدن بواسطة وقد كنا قد علمنا أن ادراكها على نوعين ادراك بالظاهر وهو بالحواس الخمس وادراك بالباطن وهو بالقوى الدماغية وأن هذا الادراك كله صار لها عن ادراكها مافوقها من ذواتها الروحانية التي هي مستعدة له بالفطرة ولما كانت الحواس الظاهرة جسمانية كانت معرضة للوسن والفشل بما يدركها من التعب والكلال وتفشي الروح بكثرة التصرف فخلق الله لها طب الاستجمام لتجرد الادراك على الصورة الكاملة وانما يكون ذلك بانخس الروح الحيواني من الحواس الظاهرة كلها ورجوعه الى الحس الباطن ويعين على ذلك ما يغشى البدن من البرد بالليل فطلب الحرارة الغريزية أعماق البدن وتذهب من ظاهره الى باطنه فتكون مشيعة مركبها وهو الروح الحيواني الى الباطن لذلك كان النوم للبشر في الغالب انما هو بالليل فاذا انخس الروح عن الحواس الظاهرة ورجع الى القوى الباطنة وخفت عن النفس شواغل الحس وموانعه ورجعت الى الصورة التي في الحافظة تمثل منها بالتركيب والتحليل صور خيالية وأكثر ما تكون معتادة لانها منتزعة من المدركات المتعاهدة قريبا ثم ينزلها الحس المشترك الذي هو جامع الحواس الظاهرة فيدركها على أنحاء الحواس الخمس الظاهرة وربما التفتت النفس لفتة الى ذاتها الروحانية مع منازعتها القوى الباطنية فتدرك بادراكها الروحاني لانها مفطورة عليه وتقبس من صور الاشياء التي صارت متعلقة في ذاتها حينئذ ثم يأخذ الخيال تلك الصور المدركة فيمثلها بالحقيقة أو المحاكاة في القوالب المعهودة والمحاكاة من هذه هي المحتاجة للتعبير وتصرفها بالتركيب والتحليل في صور الحافظة قبل أن تدرك من تلك اللوحة ما تدركه هي أضغاث أحلام (وفي الصحيح) ان النبي صلى الله عليه وسلم قال الرؤيا ثلاث رؤيا من الله ورؤيا من الملك ورؤيا من الشيطان وهذا التفصيل مطابق لما ذكرناه فالجلى من الله والمحاكاة الداعية الى التعبير من الملك وأضغاث الاحلام من الشيطان لانها كلها باطل والشيطان ينبوع الباطل هذه حقيقة الرؤيا وما يسبها ويشبعها من النوم وهي خواص للنفس الانسانية موجودة في البشر على العموم لا يخلو عنها أحد منهم بل كل واحد من الانساني رأى في نومه ما صدر له في يقظته مرارا غير واحدة وحصل له على القطع أن النفس مدركة للغيب في النوم ولا بد واذا جاز ذلك في عالم النوم فلا يتمتع في غيره من الاحوال لان الذات المدركة واحدة وخواصها عامة في كل حال والله الهادي الى الحق بمنه وفضله

*** (فصل) * ووقوع ما يقع للبشر من ذلك غالبا انما هو من غير قصد ولا قدرة عليه وانما تكون النفس متشوفة لذلك الشيء فيقع لها بتلك اللوحة في النوم لانها تقصد الى ذلك فتراه وقد وقع**

في كتاب الغاية وغيره من كتب أهل الرياضات ذكر أسماء تذكر عند النوم فتكون عنها الرؤيا فيما يتشوف اليه ويسمونها الحالومية وذكر منها مسلمة في كتاب الغاية حالومة سماها حالومة الطباع التام وهو أن يقال عند النوم بعد فراغ السر وصحة التوجه هذه الكلمات الاعجمية وهي تماغس بعد أن يسود وغداس ونوفنا غادس ويذكر حاجته فانه يري الكشف عما يسأل عنه في النوم (وحكى) أن رجلاً فعل ذلك بعد رياضة ليل في مأ كله وذكره فتمثل له شخص يقول له أنا طباعك التام فسأله وأخبره عما كان يتشوف اليه وقد وقع لي أنا بهذه الاسماء مرأى عجيبه واطلعت بها على أمور كنت أتشوف اليها من أحوالي وليس ذلك بدليل على أن القصد للرؤيا يحدتها وانما هذه الحالومات تحدث استعدادا في النفس لوقوع الرؤيا فاذا قوى الاستعداد كان أقرب الى حصول ما يستعده وللشخص أن يفعل من الاستعداد ما أحب ولا يكون دليلا على ايقاع المستعده فالقدرة على الاستعداد غير القدرة على الشيء فاعلم ذلك وتدبره فيما تجد من أمثاله والله الحكيم الخبير

* (فصل) * ثم انما نجد في النوع الانساني أشخاصا يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فيهم يتميز بها صنفهم عن سائر الناس ولا يرجعون في ذلك الى صناعة ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم ولا غيرها انما نجد مداركهم في ذلك بمقتضى فطرتهم التي فطروا عليها وذلك مثل العرافين والناظرين في الاجسام الشفافة كالمريا لوطسائس الماء والناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها وأهل الزجر في الطير والسباع وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والتوي وهذه كلها موجودة في عالم الانسان لا يسع أحدا جحدها ولا انكارها وكذلك المجانين يلقي على ألسنتهم كلمات من الغيب فيخبرون بها وكذلك النائم والميت لأول موته أو نومه يتكلم بالغيب وكذلك أهل الرياضات من المتصوفة لهم مدارك في الغيب على سبيل الكرامة معروفة * ونحن الآن نتكلم على هذه الادراكات كلها ونبتدي منها بالكهانة ثم نأتي عليها واحدة واحدة الى آخرها ونقدم على ذلك مقدمة في أن النفس الانسانية كيف تستعد لادراك الغيب في جميع الاصناف التي ذكرناها وذلك أنها ذات روحانية موجودة بالقوة من بين سائر الروحانيات كما ذكرناه قبل وانما تخرج من القوة الى الفعل بالبدن وأحواله وهذا أمر مدرك لكل أحد وكل ما بالقوة فله مادة وصورة وصورة هذه النفس التي بها يتم وجودها هو عين الادراك والتعقل فهي توجد أولا بالقوة مستعدة للادراك وقبول الصور الكلية والجزئية ثم يتم نشؤها ووجودها بالفعل بمصاحبة البدن وما يعودها بورود مدركتها المحسوسة عليها وما تنزع من تلك الادراكات من المعاني الكلية فتتعقل الصور مرة بعد أخرى حتي يحصل لها الادراك والتعقل بالفعل فتم ذاتها وتبقى النفس كالهولى والصور متعاقبة عليها بالادراك واحدة بعد واحدة ولذلك نجد الصبي في

أول نشأته لا يقدر على الادراك الذى لها من ذاتها لانبوم ولا بكشف ولا بغيرها وذلك لان صورتها التي هي عين ذاتها وهي الادراك والتعقل لم يتم بعد بل لم يتم لها انتراع الكليات ثم اذا تمت ذاتها بالفعل حصل لها مادامت مع البدن نوعان من الادراك ادراك بالآلات الجسم تؤديه اليها المدارك البدنية وادراك بذاتها من غير واسطة وهي محجوبة عنه بالانغماس في البدن والحواس وبشواغها لان الحواس أبدا جاذبة لها الى الظاهر بما فطرت عليه أولا من الادراك الجسماني وربما تنغمس من الظاهر الى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة اما بالخاصية التي هي للانسان على الاطلاق مثل النوم أو بالخاصية الموجودة لبعض البشر مثل الكهانة والطرق أو بالرياضة مثل أهل الكشف من الصوفية فتلتفت حينئذ الى الذوات التي فوقها من الملائكة على لما بين أقدحها وأفقهم من الاتصال في الوجود كما قررناه قبل وتلك الذوات روحانية وهي ادراك محض وعقول بالفعل وفيها صور الموجودات وحقائقها كما مر فيتجلى فيها شيء من تلك الصور وتقتبس منها علوما وربما دفعت تلك الصور المدركة الى الخيال فيصرفه في القوالب المعتادة ثم يراجع الحس بما أدركت اما مجردا أو في قوالبه فتخبر به هذا هو شرح استعداد النفس لهذا الادراك الغيبي ولنرجع الى ما وعدنا به من بيان أصنافه (فأما) الناطرون في الاجسام الشفافة من المرايا وطماس المياه وقلوب الحيوان وأكبادهما وعظامها وأهل الطرق بالحصي والنوى فكلهم من قبيل الكهان الا أنهم أضف رتبة فيه في أصل خلقهم لان الكهان لا يحتاج في رفع حجاب الحس الى كثير معاناة وهؤلاء يعانون بالحصار المدارك الحسية كلها في نوع واحد منها وأشرفها البصر فيعكف على المرئي البسيط حتي يبدوله مدركه الذي يخبره عنه وربما يظن أن مشاهدة هؤلاء لما يرونه هو في سطح المرأة وليس كذلك بل لا يزالون ينظرون في سطح المرأة الى أن يغيب عن البصر ويبدو فيها بينهم وبين سطح المرأة حجاب كأنه غمام يتشبه فيه صورهم مداركهم فيشربون اليهم بالمقصود لما يتوجهون الى معرفته من نفى أو اثبات فيخبرون بذلك علي نحو ما أدركوه وأما المرأة وما يدرك فيها من الصور فلا يدركونه في تلك الحال وانما ينشأ لهم بها هذا النوع الآخر من الادراك وهو نفساني ليس من ادراك البصر بل يتشكل به المدرك النفساني للحس كما هو معروف ومثل ذلك ما يعرض للناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادهما وللناظرين في الماء والطماس وأمثال ذلك وقد شاهدنا من هؤلاء من يشغل الحس بالبخور فقط ثم بالعزائم للاستعداد ثم يخبر كما أدرك ويزعمون أنهم يرون الصور متشخصة في الهواء تحكي لهم أحوال ما يتوجهون الى ادراكه بالمثل والاشارة وغية هؤلاء عن الحس أخف من الاولين والعالم أبو الغرائب وأما الزجر فهو ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سنوح طائر أو حيوان والفكر فيه بعد مغيبه وهي قوة في النفس تبعث على

الحرص والفكر فيما زجر فيه من مرئي أو مسموع وتكون قوته الخيلة كما قدمناه قوية فيبعثها في البحث مستعينا بما رآه أو سمعه فيؤديه ذلك الى ادراك ما كما تفعله القوة المتخيلة في النوم وعند ركود الحواس تتوسط بين المحسوس المرئي في يقظته وتجمعه مع ماعقلته فيكون عنها الرؤيا وأما المجانين فنفسهم الناطقة ضعيفة التعلق بالبدن لفساد مزجهم غالباً وضعف الروح الحيواني فيها فتكون نفسه غير مستغرقة في الحواس ولا منغمسة فيها بما شغلها في نفسها من ألم النقص ومرضه وربما زاحمها على التعاقب به روحانية أخرى شيطانية تثبت به وتضعف هذه عن ممانعتها فيكون عنه التخبط فإذا أصابه ذلك التخبط اما لفساد مزاجه من فساد في ذاتها أو ازاحمة من النفوس الشيطانية في تعلقه غاب عن حسه جملة فادرك لمحة من عالم نفسه وانطبع فيها بعض الصور وصرفها الخيال وربما نطق على لسانه في تلك الحال من غير ارادة النطق وادراك هؤلاء كلهم مشوب فيه الحق بالباطل لانه لا يحصل لهم الاتصال وان فقدوا الحس الا بعد الاستعانة بالتصورات الاجنبية كما قررناه ومن ذلك يحجى الكذب في هذه المدارك وأما العرافون فهم المتعلقون بهذا الادراك وليس لهم ذلك الاتصال فيسلطون الفكر على الامر الذي يتوجهون اليه ويأخذون فيه بالظن والتخمين بناء على ما يتوهمونه من مبادئ ذلك الاتصال والادراك ويدعون بذلك معرفة الغيب وليس منه على الحقيقة (هذا تحصيل هذه الامور) وقد تكلم عليها المسعودي في مروج الذهب فما صادف تحقيقاً ولا اصابة ويظهر من كلام الرجل انه كان بعيداً عن الرسوخ في المعارف فينقل ما سمع من أهله ومن غير أهله وهذه الادراكات التي ذكرناها موجودة كلها في نوع البشر فقد كان العرب يفرعون الى السكمان في تعرف الحوادث ويتنافرون اليهم في الخصومات ليعرفوهم بالحق فيها من ادراك غيبهم وفي كتب أهل الادب كثير من ذلك واشتهر منهم في الجاهلية شق من أنمار بن نزار وسطيح بن مازن بن غسان وكان يدرج كما يدرج الثوب ولا عظم فيه الا الجمجمة ومن مشهور الحكايات عنهما تأويل رؤيا ربعة بن مضر وما أخبر به من ملك الحبشة ليمن وملك مضر من بعدهم وظهور النبوة المحمدية في قريش ورؤيا الموبدان التي أوها سطيح لما بعث اليه بها كسرى عبد المسيح فاخبره بشأن النبوة وخراب ملك فارس وهذه كلها مشهورة وكذلك العرافون كان في العرب منهم كثير وذكروهم في أشعارهم قال

فقلت لعراف اليمامة داوئي * فانك ان داوئتي لطيب

وقال الآخر جعلت لعراف اليمامة حكمه * وعراف نجدان هاشيفاني

فقلا شفاك الله والله مالنا * بما حملت منك الضلوع يدان

وعراف اليمامة هو رباح بن عجلة وعراف نجد الابلق الاسدي (ومن هذه المدارك الغيبية)

ما يصدر لبعض الناس عند مفارقة اليقظة والتباسه بالنوم من الكلام على الشيء الذي يتشوف إليه بما يعطيه غيب ذلك الامر كما يريد ولا يقع ذلك الا في مبادئ النوم عند مفارقة اليقظة وذهاب الاختيار في الكلام فيتكلم كأنه مجبول على النطق وغيتنه أن يسمعه ويفهمه وكذلك يصدر عن المقتولين عند مفارقة رؤسهم وأوساط أبدانهم كلام يمثل ذلك ولقد بلغنا عن بعض الجبابرة الظالمين أنهم قتلوا من سجونهم أشخاصا ليتعرفوا من كلامهم عند القتل عواقب أمورهم في أنفسهم فاعلموهم بما يستبشع وذكر مسلمة في كتاب الغاية له في مثل ذلك أن آدميا اذا جعل في دن مملوء بدهن السمسم ومكث فيه أربعين يوما يغذي بالتين والجوز حتى يذهب لحمه ولا يبقى منه الا العروق وشؤن رأسه فيخرج من ذلك الدهن تخين يحف عليه الهواء يحيب عن كل شيء يستل عنه من عواقب الامور الخاصة والعامة وهذا فعل من مناكير أفعال السحرة لكن يفهم منه عجائب العالم الانساني ومن الناس من يحاول حصول هذا المدرك الغيبي بالرياضة فيحاولون بالمجاهدة موتا صناعيا بامانة جميع القوى البدنية ثم محو آثارها التي تلونت بها النفس ثم تغذيتها بالذكر لتزداد قوة في نشئها ويحصل ذلك بجمع الفكر وكثرة الجوع ومن المعلوم على القطع أنه اذا نزل الموت بالبدن ذهب الحس وحجابها واطاعت النفس على ذاتها وعالمها فيحاولون ذلك بالاكتساب ليقع لهم قبل الموت ما يقع لهم بعده وتطلع النفس على المغيبات ومن هؤلاء أهل الرياضة السحرية يرتاضون بذلك ليحصل لهم الاطلاع على المغيبات والتصرفات في العوالم وأكثر هؤلاء في الاقاليم المنحرفة جنوبا وشمالا خصوصا بلاد الهند ويسمون هنالك الحوكية واهم كتب في كيفية هذه الرياضة كثيرة والأخبار عنهم في ذلك غريبة وأما المتصوفة فرياضتهم دينية وعبرية عن هذه المقاصد المذمومة وانما يقصدون جمع الهمة والاقبال على الله بالكيفية ليحصل لهم أذواق أهل العرفان والتوحيد ويزيدون في رياضتهم الى الجمع والجوع التغذية بالذكر فيها تتم وجهتهم في هذه الرياضة لانه اذا نشأت النفس على الذكر كانت أقرب الى العرفان بالله واذا عريت عن الذكر كانت شيطانية وحصول ما يحصل من معرفة الغيب والتصرف لهؤلاء المتصوفة انما هو بالعرض ولا يكون مقصودا من أول الامر لانه اذا قصد ذلك كانت الوجهة فيه لغير الله وانما هي لقصد التصرف والاطلاع على الغيب وأخسرها صفقة فانها في الحقيقة شرك قال بعضهم من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني فهم يقصدون بوجهتهم المعبود لاشياء سواه واذا حصل أثناء ذلك ما يحصل بالعرض وغير مقصود لهم وكثير منهم يفر منه اذا عرض له ولا يحفل به وانما يريد الله لذاته لا لغيره وحصول ذلك لهم معروف ويسمون ما يقع لهم من الغيب والحديث على الخواطر فراسة وكشفا وما يقع لهم من التصرف كرامة وليس شيء من ذلك بشكير في حقهم وقد ذهب الى انكاره الاستاذ أبو اسحق الاسفرايني

وأبو محمد بن أبي زيد المالكي في آخرين فرارا من التباس المعجزة بغيرها والمعول عليه عند المتكلمين حصول التفرقة بالتحدى فهو كاف وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن فيكم محدثين وأن منهم عمر وقد وقع للصحابية من ذلك وقائع معروفة تشهد بذلك في مثل قول عمر رضي الله عنه ياسارية الجليل وهو سارية بن زئيم كان قائدا على بعض جيوش المسلمين بالعراق أيام الفتوحات وتورط مع المشركين في معترك وهم بالانهزام وكان بقربه جبل يميزه فرفع لعمر ذلك وهو يخطب على المنبر بالمدينة فناداه ياسارية الجليل وسمعه سارية وهو بمكانه ورأى شخصه هنالك والقصة معروفة ووقع مثله أيضاً لأبي بكر في وصيته عائشة ابنته رضي الله عنهما في شأن مناجلها من أوسق التمر من حديثه ثم نهىها على جذاذه لتحوزة عن الورثة فقال في سياق كلامه وإنما هم أخواك وأختك فقالت إنما هي أسماء فمن الأخرى فقال إن ذابطن بنت خارجة أراها جارية فكانت جارية وقع في الموطأ في باب مالا يجوز من التحل ومثل هذه الوقائع كثيرة لهم ولمن بعدهم من الصالحين وأهل الاقتداء الآن أهل التصوف يقولون أنه يقل في زمن النبوة إذ لا يبقى للمريد حالة بحضرة النبي حتى أنهم يقولون إن المريد إذا جاء للمدينة النبوية يسلب حاله مادام فيها حتى يفارقها والله يرزقنا الهداية ويرشدنا إلى الحق

﴿ فصل ﴾ ومن هؤلاء المريدين من المتصوفة قوم بهليل معتوهون أشبه بالمجانين من العقلاء وهم مع ذلك قد صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين وعلم ذلك من أحوالهم من يفهم عنهم من أهل الذوق مع أنهم غير مكلفين ويقع لهم من الأخبار عن المغيبات عجائب لأنهم لا يتقيدون بشيء فيطلبون كلامهم في ذلك ويأتون منه بالعجائب وربما ينكر الفقهاء أنهم على شيء من المقامات لما يرون من سقوط التكليف عنهم والولاية لا تحصل إلا بالعبادة وهو غايتهم فان فضل الله يؤتيه من يشاء ولا يتوقف حصول الولاية على العبادة ولا غيرها وإذا كانت النفس الإنسانية ثابتة الوجود فالله تعالى يخصها بما شاء من مواهب وهؤلاء القوم لم تعدم نفوسهم الناطقة ولا فسدت كحال المجانين وإنما فقد لهم العقل الذي يئط به التكليف وهي صفة خاصة للنفس وهي علوم ضرورية للإنسان يشتد بها نظره ويعرف أحوال معاشه واستقامة منزله وكأنه إذا ميز أحوال معاشه واستقامة منزله لم يبق له عذر في قبول التكليف لإصلاح معاده وليس من فقد هذه الصفة بفاقد لنفسه ولا ذاهل عن حقيقته فيكون موجوداً لحقيقة معدوم العقل التكليفي الذي هو معرفة المعاش والاستحالة في ذلك ولا يتوقف اصطفاء الله عباده للمعرفة على شيء من التكليف وإذا صح ذلك فاعلم أنه ربما يلتبس حال هؤلاء بالمجانين الذين تفسد نفوسهم الناطقة ويلتحقون بالهائم ولك في تمييزهم علامات منها أن هؤلاء البهاليل تجد لهم وجهة ما لا يخلون عنها أصلاً من ذكر وعبادة لكن على غير الشروط الشرعية لما قلناه من عدم التكليف

والمجانين لا تجد لهم وجهة أصلا ومنها أنهم يخلقون على البه من أول نشأته المجانين يعرض لهم الجنون بعد مدة من العمر لعوارض بدنية طبيعية فإذا عرض لهم ذلك وفسدت نفوسهم الناطقة ذهبوا بالحيلة ومنها كثرة تصرفهم في الناس بالخير والشر لأنهم لا يتوقعون على اذن لعدم التكليف في حقهم والمجانين لا تصرف لهم وهذا فصل انتهى بنا الكلام اليه والله المرشد للصواب

❦ فصل ❦ وقد يزعم بعض الناس أن هنامدارك للغيب من دون غيبة عن الحس ففهم المنجمون القائلون بالدلالات النجومية ومقتضي أوضاعها في الفلك وآثارها في العناصر وما يحصل من الامتزاج بين طباعها بالناظر ويتأدي من ذلك المزاج الى الهواء وهؤلاء المنجمون ليسوا من الغيب في شيء انما هي ظنون حدسية وتخمينات مبنية على التأثير النجومية وحصول المزاج منه للهواء مع مزيد حدس يقف به الناظر على تفصيله في الشخصيات في العالم كما قاله بطليموس ونحن نبين بطلان ذلك في محله ان شاء الله وهو لو ثبت ففانيته حدس وتخمين وليس مما ذكرناه في شيء ومن هؤلاء قوم من العامة استنبطوا لاستخراج الغيب وتعرف الكائنات صناعة سموها خط الرمل نسبة الى المادة التي يضعون فيها عملهم ومحصل هذه الصناعة أنهم صيروا من النقط أشكالا ذات أربع مراتب تختلف باختلاف مراتبها في الزوجية والفردية واستوائها فيهما فكانت ستة عشر شكلا لأنها ان كانت أزواجا كلها أو أفرادا كلها فشكلا وان كان افردي فيهما في مرتبة واحدة فقط فأربعة أشكال وان كان افردي في مرتبتين فستة أشكال وان كان في ثلاث مراتب فأربعة أشكال جاءت ستة عشر شكلا ميزوها كلها بأسمائها وأنواعها الى سعدود ونحو شأن الكواكب وجعلوا لها ستة عشر بيتا طبيعية بزعمهم وكأنها البروج الاثنا عشر التي للفلك والافلاك الاربعة وجعلوا لكل شكل منها بيتا وخطوطا ودلالة على صنف من موجودات عالم العناصر يختص به واستنبطوا من ذلك فنا حادوا به فن النجامة ونوع قضائه الا أن أحكام النجامة مستندة الى أوضاع طبيعية كازعم بطليموس وهذه انما مستندة الى أوضاع تحكمية وأهواء اتفاقية ولادليل يقوم على شيء منها يزعمون أن أصل ذلك من الثبوت القديمة في العالم وربما نسبوها الى دانيال أو الي ادريس صلوات الله عليهما شأن الصنائع كلها وربما يدعون مشروعيتها ويحتجون بقوله صلي الله عليه وسلم كان نبي يخط فن وافق خطه فذاك وليس في الحديث دليل على مشروعية خط الرمل كما يزعمه بعض من لا تحصيل لديه لان معني الحديث كان نبي يخط فيأتيه الوحي عند ذلك الخط ولا استحالة في أن يكون ذلك عادة لبعض الانبياء فن وافق خطه ذلك النبي فهو ذاك أي فهو صحيح من بين الخط بما عضده من الوحي لذلك النبي الذي كانت عادته أن يأتيه الوحي عند الخط وأما اذا أخذ ذلك من الخط مجردا من غير موافقة وحي فلا وهذا معني الحديث والله أعلم فاذا أرادوا استخراج مغيب بزعمهم

(١٢ - ابن خلدون)

عمدوا الى قرطاس أو رمل أو دقيق فوضعوا النقط سطورا على عدد المراتب الاربعة ثم كرروا ذلك أربع مرات فتجيء ستة عشر سطرا ثم يطر حون النقط أزواجا ويضعون ما بقى من كل سطر زوجا كان أو فردا في مرتبته على الترتيب فتجيء أربعة أشكال يضعونها في سطر متتالية ثم يولدون منها أربعة أشكال أخرى من جانب العرض باعتبار كل مرتبة وما قبلها من الشكل الذي بازائه وما يجتمع منهما من زوج أو فرد فتكون ثمانية أشكال موضوعة في سطر ثم يولدون من كل شكلين شكلا تحتها باعتبار ما يجتمع في كل مرتبة من مراتب الشكلين أيضاً من زوج أو فرد فتكون أربعة أخرى تحتها ثم يولدون من الاربعة شكلين كذلك تحتها ثم من الشكلين شكلا كذلك تحتها ثم من هذا الشكل الخامس عشر مع الشكل الاول شكلا يكون آخر السته عشر ثم يحكمون على الخط كله بما اقتضته أشكاله من السعودة والنحوسة بالذات والنظر والحلول والامتزاج والدلالة على أصناف الموجودات وسائر ذلك تحكما غريبا وكثرت هذه الصناعة في العمران ووضعت فيها التأليف واشتهر فيها الاعلام من المتقدمين والمتأخرين وهي كآيات تحكيم وهوي والتحقيق الذي ينبغي أن يكون نصب فكرك أن الغيوب لا تدرك بصناعة البتة ولا سيبل الى تعرفها الا بالخواص من البشر المفظورين على الرجوع عن عالم الحس الى علم الروح ولذلك يسمى المنجمون هذا الصنف كلهم بالزهرين نسبة الى ما تنضيه دلالة الزهرة بزعمهم في أصل مواليدهم على ادراك الغيب فالخط وغيره من هذه ان كان الناظر فيه من أهل هذه الخاصية وقصد بهذه الامور التي ينظر فيها من النقط أو العظام أو غيرها اشغال الحس لترجع النفس الى عالم الروحانيات لحظة ما فهو من باب الطرق بالحصى والنظر في قلوب الحيوانات والمرايا الشفافة كما ذكرناه وان لم يكن كذلك وانما قصد معرفة الغيب بهذه الصناعة وأنها تفيد ذلك فهذا من القول والعمل والله يهدي من يشاء واللامه لهذه الفطرة التي فطر عليها أهل هذا الادراك الغيبي أنهم عند توجههم الى تعرف الكائنات يعتريهم خروج عن حالتهم الطبيعية كالنشاوب والتمطط ومبادئ الغيبة عن الحس ويختلف ذلك بالقوة والضعف على اختلاف وجودها فيهم فمن لم توجد له هذه العلامة فليس من ادراك الغيب في شيء وانما هوساع في تنفيق كذبه (فصل) ومنهم طوائف يضعون قوانين لاستخراج الغيب ليست من الطور الاول الذي هو من مدارك النفس الروحانية ولا من الحدس المبني على تأثيرات النجوم كما زعمه بطليموس ولا من الظن والتخمين الذي يحاول عليه العرافون وانما هي مغالط يجمعونها كالمصايد لاهل العقول المستضعفة ولست أذكر من ذلك الا ما ذكره المصنفون وولع به الخواص فمن تلك القوانين الحساب الذي يسمونه حساب النجم وهو مذكور في آخر كتاب السياسة المنسوب لارسطو يعرف به الغالب من المغلوب في المتحاربين من الملوك وهو أن تحسب الحروف التي

في اسم أحدها بحساب أجل المصطلح عليه في حروف أبجد من الواحد الى الالف آحاد او عشرات ومئين وألوف فاذا حسبت الاسم وتحصل لك منه عدد فاحسب اسم الآخر كذلك ثم اطرح كل واحد منهما تسعة تسعة واحفظ بقية هذا وبقية هذا ثم انظر بين العددين الباقيين من حساب الاسمين فان كان العددين مختلفين في الكمية وكنا معاً زوجين أو فردين معاً فصاحب الأقل منهما هو الغالب وان كان أحدهما زوجاً والآخر فرداً فصاحب الأكثر هو الغالب وان كانا متساويين في الكمية وهما معاً زوجان فالمطلوب هو الغالب وان كانا معاً فردين فالطالب هو الغالب ويقال هنالك يتان في هذا العمل اشتها بين الناس وهما أري الزوج والافراد يسمو أقلها * وأكثرها عند التخالف غالب ويغلب مطلوب اذا الزوج يستوي * وعند استواء الفرد يغلب طالب ثم وضعوا المعرفة ما بقي من الحروف بعد طرحها بتسعة قانوناً معروفا عندهم في طرح تسعة وذلك انهم جمعوا الحروف الدالة على الواحد في المراتب الاربع وهي ا الدالة على الواحد وى الدالة على العشرة وهي واحد في مرتبة العشرات و ق الدالة على المائة لانها واحد في مرتبة المئين و ش الدالة على الالف لانها واحد في مرتبة الآلاف وليس بعد الالف عدد يدل عليه بالحروف لان الشين هي آخر حروف أبجد ثم رتبوا هذه الاحرف الاربعة على نسق المراتب فكان منها كلمة رابعة وهي ايقش ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على اثنين في المراتب الثلاث وأسقطوا مرتبة الآلاف منها لانها كانت آخر حروف أبجد فكان مجموع حروف الاثنين في المراتب الثلاث ثلاثة حروف وهي ب الدالة على اثنين في الآحاد و ك الدالة على اثنين في العشرات وهي عشرون و ر الدالة على اثنين في المئين وهي مئتان وصيروها كلمة واحدة ثلاثية على نسق المراتب وهي بكر ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على ثلاثة فنشأت عنها كلمة مجلس وكذلك الى آخر حروف أبجد وصارت تسع كلمات نهاية عدد الآحاد وهي ايقش بكر جلس دمت قوعذ هنت وصخ زعد حفظ طضع مرتبة على توالي الاعداد ولكل كلمة منها عددها الذي هي في مرتبته فالواحد لكلمة ايقش والاثان لكلمة بكر والثلاثة لكلمة مجلس وكذلك الى التاسعة التي هي طضع فتكون لها التسعة فاذا أرادوا طرح الاسم بتسعة نظروا كل حرف منه في أي كلمة هو من هذه الكلمات وأخذوا عددها مكانه ثم جمعوا الاعداد التي يأخذونها بدلا من حروف الاسم فان كانت زائدة على التسعة أخذوا ما فضل عنها والا أخذوه كما هو ثم يفعلون كذلك بالاسم الآخر وينظرون بين الحارحين بما قدمناه والسري في هذا القانون بين وذلك أن الباقي من كل عقد من عقود الاعداد بطرح تسعة انما هو واحد فكانه يجمع عدد العقود خاصة من كل مرتبة فصارت أعداد

العقود كأنها آحاد فلا فرق بين الاثنين والعشرين والمائتين والالفين وكلها اثنان وكذلك الثلاثة والثلاثون والثمانية والثلاثة الآلاف كلها ثلاثة ثلاثة فوضعت الاعداد على التوالى دالة على اعداد العقود لا غير وجعلت الحروف الدالة على أصناف العقود في كل كلمة من الآحاد والعشرات والمئين والالوف (١) وصار عدد الكلمة الموضوع عليها نائبا عن كل حرف فيها سواء دل على الآحاد أو العشرات أو المئين فيؤخذ عدد كل كلمة عوضاً من الحروف التي فيها وتجمع كلها الى آخرها كما قلناه هذا هو العمل المتداول بين الناس منذ الامر القديم وكان بعض من لقيناه من شيوخنا يرى ان الصحيح فيها كلمات أخرى تسعة مكان هذه ومتوالية كتواليها ويفعلون بها في الطرح بتسعة مثل ما يفعلونه بالآخرى سواء وهي هذه أرب يسقك جزلط مدوص هف تحذن عش خغ ثضظ تسع كلمات على توالى العدد ولكل كلمة منها عددها الذي في مرتبته فيها الثلاثي والرابعي والثاني وليست جارية على أصل مطرد كما تراه لكن كان شيوخنا يقولونها عن شيخ المغرب في هذه المعارف من السيميا وأسرار الحروف والنجامة وهو أبو العباس بن البناء ويقولون عنه ان العمل بهذه الكلمات في طرح حساب النيم أصح من العمل بكلمات ايقش والله أعلم كيف ذلك وهذه كلها مدارك للغيب غير مستندة الى برهان ولا تحقيق والكتاب الذى وجد فيه حساب النيم غير معزو الى ارسطو عند المحققين لما فيه من الآراء البعيدة عن التحقيق والبرهان يشهدك بذلك تصفحه ان كنت من أهل الرسوخ اه ومن هذه القوانين الصناعية لاستخراج الغيوب فيما يزعمون الزايرجة المسماة بزايرجة العالم المعزوة الى أبي العباس سيدي احمد السبكي من أعلام المتصوفة بالمغرب كان في آخر المائة السادسة بمراكش ولعهد أبي يعقوب المنصور من ملوك الموحدين وهى غريبة العمل صناعة وكثير من الخواص يولعون بافادة الغيب منها بعملها المعروف الملعوز فيحرضون بذلك على حل رمزه وكشف غامضه وصورتها التي يقع العمل عندهم فيها دائرة عظيمة فى داخلها دوائر متوازية للأفلاك والعناصر والمكونات والروحانيات وغير ذلك من أصناف الكائنات والعلوم وكل دائرة مقسومة بأقسام فلكها اما البروج واما العناصر او غيرها وخطوط كل قسم مارة الى المركز ويسمونها الاوتار وعلى كل وتر حروف متتابعة موضوعة فيها برشوم (٢) الزمام التي هي اشكال الاعداد عند أهل الدواوين والحساب بالمغرب لهذا العهد ومنها برشوم الغبار المتعارفة فى داخل الزايرجة وبين الدوائر أسماء العلوم

(١) قوله والالوف فيه نظر لان الحروف ليس فيها ما يزيد عن الالف كما سبق في كلامه اه

(٢) قوله برشوم أى موضوعة برشوم بضم الراء جمع رشم بالشين المعجمة اه

ومواضع الاكوان وعلى ظاهر الدوائر جدول متكثير البيوت المتقاطعة طولاً وعرضاً يشتمل على خمسة وخمسين بيتاً في العرض ومائة وأحد وثلاثين في الطول جوانب منه معمورة البيوت تارة بالعدد وأخرى بالحروف وجوانب خالية البيوت ولا تلم نسبة تلك الاعداد في أوضاعها ولا القسمة التي عينت البيوت العامرة من الخالية وحفا في الزايرة أبيات من عروض الطويل على روي اللام المنصوبة تتضمن صورة العمل في استخراج المطلوب من تلك الزايرة إلا أنها من قبيل الالغاز في عدم الوضوح والجلء وفي بعض جوانب الزايرة بيت من الشعر منسوب لبعض أكابر أهل الحدنان بالمغرب وهو مالك بن وهيب من علماء أشيلية كان في الدولة الممتونية ونص البيت سؤال عظيم الخلق حزت فصن اذن * غرائب شك ضبطه الحد مثلاً

وهو البيت المتداول عندهم في العمل لاستخراج الجواب من السؤال في هذه الزايرة وغيرها فإذا أرادوا استخراج الجواب عما يسئل عنه من المسائل كتبوا ذلك السؤال وقطعوه حروفاً ثم أخذوا الطالع لذلك الوقت من بروج الفلك ودرجها وعمدوا إلى الزايرة ثم إلى الوتر المكتشف فيها بالبرج الطالع من أوله ماراً إلى المركز ثم إلى محيط الدائرة بقالة الطالع فيأخذون جميع الحروف المكتوبة عليه من أوله إلى آخره والاعداد المرسومة بينهما ويصيرونها حروفاً بحساب الجمل وقد ينقلون أحداها إلى العشرات وعشراتها إلى المئين وبالعكس فيهما كما يقتضيه قانون العمل عندهم ويضعونها مع حروف السؤال ويضيفون إلى ذلك جميع ما على الوتر المكتشف بالبرج الثالث من الطالع من الحروف والاعداد من أوله إلى المركز فقط لا يتجاوزونه إلى المحيط ويفعلون بالاعداد ما فعلوه بالأول ويضيفونها إلى الحروف الأخرى ثم يقطعون حروف البيت الذي هو أصل العمل وقانونه عندهم وهو بيت مالك بن وهيب المتقدم ويضعونها ناحية ثم يضربون عدد درج الطالع في أس البرج وأسهم عندهم هو بعد البرج عن آخر المراتب عكس ما عليه الأس عند أهل صناعة الحساب فإنه عندهم البعد عن أول المراتب ثم يضربونه في عدد آخر يسمونه الأس الأكبر والدور الأصلي ويدخلون بما تجمع لهم من ذلك في بيوت الجدول على قوانين معروفة وأعمال مذكورة وأدوار معدودة ويستخرجون منها حروفاً ويسقطون أخرى ويقابلون بما معهم في حروف البيت وينقلون منه ما ينقلون إلى حروف السؤال وما معها ثم يطرحون تلك الحروف باعداد معلومة يسمونها الادوار ويخرجون في كل دور الحرف الذي ينتهي عنده الدور إما ودون ذلك بعدد الادوار المعينة عندهم لذلك فيخرج آخرها حروف متقطعة وتؤلف على التوالي فتصير كلمات منظومة في بيت واحد على وزن البيت الذي يقابل به العمل ورويه وهو بيت مالك بن وهيب المتقدم حسبما نذكر ذلك كله في فصل العلوم عند كيفية العمل بهذه الزايرة * وقد رأينا كثيراً من الخواص يتهافتون

على استخراج الغيب منها بتلك الاعمال وبحسبون أن ما وقع من مطابقة الجواب للسؤال في توافق الخطاب دليل على مطابقة الواقع وليس ذلك بصحيح لانه قد مر لك أن الغيب لا يدرك بامر صناعي البتة وانما المطابقة التي فيها بين الجواب والسؤال من حيث الافهام والتوافق في الخطاب حتي يكون الجواب مستقيماً أو موافقاً للسؤال ووقوع ذلك بهذه الصناعة في تكسير الحروف المجتمعة من السؤال والاوتار والدخول في الجدول بالاعداد المجتمعة من ضرب الاعداد المفروضة واستخراج الحروف من الجدول بذلك وطرح أخرى ومعاودة ذلك في الادوار المعدودة ومقابلة ذلك كله بحروف البيت على التوالي غير مستنكر وقد يقع الاطلاع من بعض الاذكياء على تناسب بين هذه الاشياء فيقع له معرفة المجهول فالتناسب بين الاشياء هو سبب الحصول على المجهول من المعلوم الحاصل للنفس وطريق لحصوله سيما من أهل الرياضة فانها تقيد العقل قوة على القياس وزيادة في الفكر وقد مر تعليل ذلك غير مرة ومن أجل هذا المعنى ينسبون هذه الزايرة في الغالب لاهل الرياضة فهي منسوبة للسبتي ولقد وقفت على أخرى منسوبة لسهل بن عبد الله ولعمري أنها من الاعمال الغريبة والمعانة العجيبة والجواب الذي يخرج منها فالسر في خروجه منظوماً يظهر لي انما هو المقابلة بحروف ذلك البيت ولهذا يكون النظم على وزنه ورويه ويدل عليه أنا وجدنا أعمالاً أخرى لهم في مثل ذلك أسقطوا فيها المقابلة بالبيت فلم يخرج الجواب منظوماً كما تراه عند الكلام على ذلك في موضعه وكثير من الناس تضيق مداركهم عن التصديق بهذا العمل ونقوذه الى المطلوب فينكر صحتها ويحسب أنها من التخيلات والايهات وأن صاحب العمل بها ثبت حروف البيت الذي ينظمه كما يريد بين أثناء حروف السؤال والاوتار ويفعل تلك الصناعات على غير نسبة ولا قانون ثم يحجىء بالبيت ويوهم أن العمل جاء على طريقة منضبطة وهذا الحسبان توهم فاسد حمل عليه القصور عن فهم التناسب بين الموجودات والمعدومات والتفاوت بين المدارك والعقول ولكن من شأن كل مدرك انكار ما ليس في طوقه ادراكه وكيفنا في رد ذلك مشاهدة العمل بهذه الصناعة والحدس القطعي فانها جاءت بعمل مطرد وقانون صحيح لامرية فيه عند من يباشر ذلك ممن له ذكاء وحدس وإذا كان كثير من المعاينة في العدد الذي هو أوضح الواضحات يعسر على الفهم ادراكه لبعده النسبة فيه وخفاءها فما ظنك بمثل هذا مع خفاء النسبة فيه وغرابتها فلنذكر مسألة من المعاينة يتضح لك بها شيء مما ذكرنا مثاله لوقيل لك خذ عدداً من الدراهم واجعل بازاء كل درهم ثلاثة من الفلوس ثم اجمع الفلوس التي أخذت واشتر بها طائراً ثم اشتري بالدراهم كلها طيوراً بسعر ذلك الطائر فكم الطيور المشتراة بالدراهم فجوابه أن تقول هي تسعة لانك تعلم أن فلوس الدراهم أربعة وعشرون وان الثلاثة منها

الانصار ما دخلت هذه دار قوم الا دخلهم الذل فهو دليل صريح على أن المغرم موجب للذلة هذا الى ما يصحب ذل المغارم من خلق المكر والخديعة بسبب ملكة القهر فاذا رأيت القليل بالمغارم في ربة من الذل فلا تطمعن لها بملك آخر الدهر ومن هنا يتبين لك غلط من يزعم أن زناة المغرب كانوا شايوة يؤدون المغارم لمن كان على عهدهم من الملوك وهو غلط فاحش كما رأيت اذ لو وقع ذلك لما استتب لهم ملك ولا تمت لهم دولة وانظر فيما قاله شهر براز ملك الباب لعبد الرحمن بن ربيعة لما أطل عليه وسأل شهر براز أمانه على أن يكون له فقال أنا اليوم منكم يدي في أيديكم وصعري معكم فرحاً بكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا اليكم النصر لكم والقيام بما تحبون ولا تذولوا بالجزية فوهنونا لعدوكم فاعتبر هذا فيما قلناه فانه كاف

٢٠ ﴿ فصل في أن من علامات الملك التنافس في الحلال الحميدة وبالعكس ﴾

لما كان الملك طبيعياً للانسان لما فيه من طبيعة الاجتماع كما قلناه وكان الانسان أقرب الى خلال الخير من خلال الشر بأصل فطرته وقوته اناطقة العاقلة لان الشر انما جاء من قبل القوى الحيوانية التي فيه وأما من حيث هو انسان فهو الى الخير وخلاله أقرب والملك والسياسة انما كان له من حيث هو انسان لانها خاصة للانسان لا للحيوان فاذن خلال الخير فيه هي التي تناسب السياسة والملك اذ الخير هو المناسب للسياسة وقد ذكرنا أن المجد له أصل ينبئ عليه وتحقق به حقيقته وهو العصية والعشير وفرع يتم وجوده ويكمله وهو الحلال واذا كان الملك غاية للعصية فهو غاية لفرعها ومتعماتها وهي الحلال لان وجوده دون متعماتها كوجود شخص مقطوع الاعضاء أو ظهوره عرباناً بين الناس واذا كان وجود العصية فقط من غير انتحال الحلال الحميدة نقصاً في أهل البيوت والاحساب فما ظنك بأهل الملك الذي هو غاية لكل مجد ونهاية لكل حسب وأيضاً فالسياسة والملك هي كفالة للخلق وخلافة لله في العباد لتنفيذ أحكامه فيهم وأحكام الله في خلقه وعباده انما هي بالخير ومراعاة المصالح كما تشهد به الشرائع وأحكام البشر انما هي من الجهل والشیطان بخلاف قدرة الله سبحانه وقدره فانه فاعل للخير والشر معاً ومقدرهما اذ لا فاعل سواه فمن حصلت له العصية الكفيلة بالقدرة وأونست منه خلال الخير المناسبة لتنفيذ أحكام الله في خلقه فقد تهيأ للخلافة في العباد وكفالة الخلق ووجدت فيه الصلاحية لذلك وهذا البرهان أوثق من الاول وأصح مبنى فقد تبين أن خلال الخير شاهدة بوجود الملك لمن وجدت له العصية فاذا نظرنا في أهل العصية ومن حصل لهم الغلب على كثير من النواحي والأئم فوجدناهم يتنافسون في الخير وخلاله من الكرم والعفو عن الزلات والاحتمال من غير القادر والقرى للضيوف وحمل الكل وكسب المعدم والصبر على المكاره

والوفاء بالعهد وبذل الاموال في صون الاعراض وتعظيم الشريعة وإجلال العلماء الحاملين لها والوقوف عند ما يحد دونه لهم من فعل أو ترك وحسن الظن بهم واعتقاد أهل الدين والتبرك بهم ورغبة الدعاء منهم والحياء من الأكابر والمشايخ وتوقيرهم واجلالهم والانتقياد الى الحق مع الداعي اليه وانصاف المستضعفين من أنفسهم والتبذل في أحوالهم والانتقياد للحق والتواضع للمسكين واستماع شكوي المستغيثين والتدين بالشرائع والعبادات والقيام عليها وعلى أسبابها والتجافي عن الغدر والمكر والخديعة ونقض العهد وأمثال ذلك علمنا أن هذه خلق السياسة قد حصلت لديهم واستحقوا بها أن يكونوا ساسة لمن تحت أيديهم أو على العموم وأنه خير ساقه الله تعالى اليهم مناسب لعصبيتهم وغلبهم وليس ذلك سدي فيهم ولا وجد عبثا منهم والملك أنسب المراتب والحيرات لعصبيتهم فعلمنا بذلك أن الله تأذن لهم بالملك وساقه اليهم وبالعكس من ذلك اذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات واتحال الرذائل وسلوك طرقها فتفقد الفضائل السياسية منهم حجة ولا تزال في انتقاص الى أن يخرج الملك من أيديهم ويتبدل به سواهم ليكون نعيما عليهم في سلب ما كان الله قد آتاهم من الملك وجعل في أيديهم من الخير واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا واستقر ذلك وتبعه في الامم السابقة تجد كثيرا مما قلناه ورسمناه والله يخلق ما يشاء ويختار (واعلم) أن من خلال السكالك التي يتنافس فيها القبائل أولو العصبية وتكون شاهدة لهم بالملك اكرام العلماء والصالحين والاشراف واهل الاحساب وأصناف التجار والغرباء وانزال الناس منازلهم وذلك أن اكرام القبائل وأهل العصبية والعشائر لمن يناهضهم في الشرف ويجاذبهم حبيل العشير والعصبية ويشاركهم في اتساع الجاه أمر طبيعي يحمل عليه في الاكثر الرغبة في الجاه أو المخافة من قوم المكرم أو التماس مثلها منه وأما أمثال هؤلاء ممن ليس لهم عصبية تتقى ولا جاء يرتجى فيندفع الشك في شأن كرامتهم ويتمحض القصد فيهم أنه للمجد واتحال السكالك في الحلال والاقبال على السياسة بالكلية لان اكرام أقتاله وأمثاله ضروري في السياسة الخاصة بين قبيله ونظيرائه و اكرام الطارين من أهل الفضائل والخصوصيات كمال في السياسة العامة فالصالحون للدين والعلماء للجهاد اليهم في اقامة مراسم الشريعة والتجار للترغيب حتي تعم المنفعة بما في أيديهم والغرباء من مكارم الاخلاق وانزال الناس منازلهم من الانصاف وهو من العدل فيعلم بوجود ذلك من أهل عصبية اتماؤهم للسياسة العامة وهي الملك وان الله قد تأذن بوجودها فيهم لوجود علاماتها ولهذا كان اول ما يذهب من القبيل اهل الملك اذا تأذن الله تعالى بسلب ملكهم وسلطانهم اكرام هذا الصنف من الخلق فاذا رأيته قد ذهب من أمة من الامم فاعلم ان الفضائل قد اخذت في الذهاب عنهم وارقتب زوال

الملك منهم واذا اراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له والله تعالى اعلم

٢١ (فصل في انه اذا كانت الامة وحشية كان ملكها أوسع)

وذلك لانهم أقدر على التغلب والاستبداد كما قلناه واستعباد الطوائف لقدرتهم على محاربة الامم سواهم ولانهم يتنزلون من الاهلين منزلة المفترس من الحيوانات العجم وهؤلاء مثل العرب وزناة ومن في معناتهم من الاكراد والتركمان وأهل اللثام من صنهاجة وأيضاً فهؤلاء المتوحشون ليس لهم وطن يرتافون منه ولا بلد ينجحون اليه فنسبة الاقطار والمواطن اليهم على السواء فلماذا لا يقتصرون على ملكة قطرهم وما جاورهم من البلاد ولا يقفون عند حدود أقطابهم بل يطفرون الى الاقاليم البعيدة ويتغلبون على الامم النائية وانظر ما يحكى في ذلك عن عمر رضي الله عنه لما بويع وقام يحرض الناس على العراق فقال ان الحجاز ليس لكم بدار الا على النجعة ولا يقوى عليه أهله الا بذلك أين القراء المهاجرون عن موعد الله سيروا في الارض التي وعدهم الله في الكتاب أن يورثكموها فقال ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون واعتبر ذلك أيضاً بحال العرب السالفة من قبل مثل التبابعة وحمر كيف كانوا يخطون من اليمن الى المغرب مرة وإلى العراق والهند أخرى ولم يكن ذلك لغير العرب من الامم وكذا حال المسلمين من المغرب لما نزعوا الى الملك طفروا من الاقليم الاول ومجالاتهم منه في جوار السودان الى الاقليم الرابع والخامس في ممالك الاندلس من غير واسطة وهذا شأن هذه الامم الوحشية فلذلك تكون دولتهم أوسع نطاقاً وأبعد من مراكزها نهاية والله يقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار لا شريك له

٢٢ (فصل في ان الملك اذا ذهب عن بعض الشعوب من أمة فلا بد من عودته)

الى شعب آخر منها مادامت لهم العصبية)

والسبب في ذلك ان الملك انما حصل لهم بعد سورة الغاب والاذعان لهم من سائر الامم سواهم فيتين منهم المباشرون للامر الحاملون لسرير الملك ولا يكون ذلك لجميعهم لما هم عليه من الكثرة التي يضيق عنها نطاق المراحة والغيرة التي تجدد انوف كثير من المتطاولين للرتبة فاذا تعين أولئك القائمون بالدولة انغمسوا في النعمة وغرقوا في بحر الترف والخصب واستعبدوا اخوانهم من ذلك الحيل وانفقوهم في وجوه الدولة ومذاهبها وبقي الذين بعدوا عن الامر وكبحوا عن المشاركة في ظل من عز الدولة التي شاركوها بنسبهم وبمنجاة من الهرم لبعدهم عن الترف وأسبابه فاذا استولت على الاولين الايام وأباد غضراءهم الهرم فطبختهم الدولة وأكل الدهر عليهم وشرب بما أرهف النعيم من حدهم واشتقت غريزة الترف

من مأثم وبلغوا غايتهم من طيعة التمدن الانساني والتغلب السياسي
كدود القزيسج ثم يفي * بمركز نسجه في الانعكاس

كانت حينئذ عصية الآخرين موفورة وسورة غلبهم من الكاسر محفوظة وشارتهم في الغلب
معلومة فتسمو آمالهم الى الملك الذي كانوا ممنوعين منه بالقوة الغالبة من جنس عصيتهم وترفع
المنازعة لما عرف من غلبهم فيستولون على الامر ويصير اليهم وكذا يتفق فيهم مع من بقي
أيضاً متنبذا عنه من عشائرتهم فلا يزال الملك ملجأ في الامة الى أن تنكسر سورة العصية
منها أوفيني سائر عشائرها سنة الله في الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين واعتبر هذا بما
وقع في العرب لما انقرض ملك عاد قام به من بعدهم اخوانهم من ثمود ومن بعدهم اخوانهم
العمالقة ومن بعدهم اخوانهم من حمير ومن بعدهم اخوانهم التابعة من حمير أيضاً ومن بعدهم
الاذواء كذلك ثم جاءت الدولة لاضر وكذا الفرس لما انقرض أمر الكينية ملك من بعدهم
الساسانية حتى تأذن الله بانقرضهم أجمع بالاسلام وكذا اليونانيون انقرض أمرهم وانتقل
الى اخوانهم من الروم وكذا البربر بالمغرب لما انقرض أمر مغراوة وكتامة الملوك الاول منهم
رجع الى صنهاجة ثم للمثمين من بعدهم ثم المصامدة ثم من بقي من شعوب زناتة وهكذا سنة
الله في عبادته وخلقه وأصل هذا كله انما يكون بالعصية وهي متفاوتة في الاحيال والملك يخلقه
الترف ويذهب كما سذكركه بعد فاذا انقرضت دولة قائما يتناول الامر منهم من له عصية
مشاركة لعصيتهم التي عرف لها التسام والاعتقاد وأونس منها الغالب لجميع العصيات وذلك
انما يوجد في النسب القريب منهم لان تفاوت العصية بحسب ما قرب من ذلك النسب التي هي
فيه أو بعد حتى اذا وقع في العالم تبديل كبير من تحويل ملة أو ذهاب عمران أو ماشاء الله
من قدرته فيئذ يخرج عن ذلك الجيل الى الجيل الذي يأذن الله بقيامه بذلك التبديل كما
وقع لاضر حين غلبوا على الامم والدول وأخذوا الامر من أيدي أهل العالم بعد أن كانوا
مكبوحين عنه أحقاباً

٢٣ ﴿ فصل في أن المغلوب مولع أبداً بالاعتداء بالغالب في شعاره وزيه ونخلته

وسائر احواله وعوائدہ ﴾

والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت اليه اما لنظره بالكمال بما
وقر عندها من تعظيمه أو لما تعالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي انما هو لكمال الغالب
فاذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقاداً فاتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك
هو الاقتداء أو لما تراه والله أعلم من أن غلب الغالب لها ليس بعصية ولا قوة بأس وانما هو

العدل ما علمت وإنما هي طيبة في الانسان اذا غلب على أمره وصار آلة لغيره ولهذا انما تدعى للرق في الغالب أم السودان لنقص الانسانية فيهم وقربهم من عرض الحيوانات العجم كما قلناه أو من يرجو بانتظامه في ربة الرق حصول رتبة أو افادة مال أو عز كما يقع لممالك الترك بالمشرق والعلوج من الجلالقة والافرنجة بالاندلس فان العادة جارية باستخلاص الدولة لهم فلا يأفون من الرق لما يأملونه من الجاه والرتبة باصطفاء الدولة والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٢٥ * (فصل في أن العرب لا يتغلبون الا على البسائط) *

وذلك انهم بطبيعة التوحش الذي فيهم أهل انتهاب وعيث يتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ويفرون الى متجهم بالفقر ولا يذهبون الى المزاخفة والمحاربة الا اذا دفعوا بذلك عن أنفسهم فكل معقل أو مستعصب عليهم فهم تاركوه الى ما يسهل عنه ولا يعرضون له والقبائل الممتعة عليهم باوعار الجبال بمنجاة من عيهم وفسادهم لانهم لا يتسمنون اليهم الهضاب ولا يركبون الصعاب ولا يحاولون الخطر وأما البسائط متي اقتدروا عايناهم بقصدان الحامية وضعف الدولة فهي نهب لهم وطعمة لأكلهم يرددون عليهم الغارة والنهب والزحف لسهولة عليهم الى أن يصبح أهلها مغلبين لهم ثم يتعاورونهم باختلاف الايدي وانحراف السياسة الى أن ينقرض عمرانهم والله قادر على خلقه وهو الواحد القهار لارب غيره

٢٦ * (فصل في أن العرب اذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب) *

والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم فصار لهم خلقا وجيلة وكان عندهم ملذوذ لما فيه من الخروج عن ربة الحكم وعدم الانقياد للسياسة وهذه الطبيعة منافية لل عمران ومناقضة له فغاية الاحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب وذلك مناقض لسكون الذي به العمران ومناف له فالحجر مثلاً انما حاجتهم اليه لنصبه أثافي للقدر فينقلونه من المباني ويجربونها عليه ويعودونه لذلك والحشب أيضاً انما حاجتهم اليه ليعمروا به خيامهم ويخذوا الاوتاد منه ليوهم فيخربون السقف عليه لذلك فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران هذا في حالهم على العموم وأيضاً فطبيعتهم انتهاب مافي أيدي الناس وأن رزقهم في ظلال رماحهم وليس عندهم في أخذ أموال الناس حد يتهون اليه بل كلما امتدت أعينهم الى مال أو متاع أو معون انتهبوه فاذا تم اقتدارهم على ذلك بالتغلب والمملك بطلت السياسة في حفظ أموال الناس وخرب العمران وأيضاً فلانهم يتلفون على أهل الاعمال من الصنائع والحرف أعمالهم لا يرون لها قيمة ولا قسطاً من الاجر والتمن والاعمال كما سذكركه

بما اتحاته من العوائد والمذاهب تغالط أيضاً بذلك عن الغلب وهذا راجع للاول ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها بل وفي سائر أحواله وانظر ذلك في الابناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائماً وما ذلك الا لاعتقادهم الكمال فيهم وانظر الى كل قطر من الاقطار كيف يغلب على أهله زي الحامية وجند السلطان في الاكثر لانهم الغالبون لهم حتى انه اذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها فيسري اليهم من هذا التشبه والافتداء حظ كبير كما هو في الاندلس لهذا العهد مع أئمة الجلالة فانك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة انه من علامات الاستيلاء والامر لله وتأمل في هذا سر قولهم العامة على دين الملك فانه من باب انه اذا الملك غالب لمن تحت يده والريعية مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه اعتقاد الابناء بأبائهم والمتعلمين بمعلميهم والله العليم الحكيم وبه سبحانه وتعالى التوفيق

٢٤ - فصل في أن الامة اذا غلبت وصارت في ملك غيرها أسرع اليها الفناء

والسبب في ذلك والله أعلم ما يحصل في النفوس من التكاسل اذا ملك أمرها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسوادها وعالة عليهم فيقصر الامل ويضعف التناسل والاعتبار انما هو عن جدة الامل وما يحدث عنه من النشاط في القوى الحيوانية فاذا ذهب الامل بالتكاسل وذهب ما يدعو اليه من الاحوال وكانت العصبية ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم تناقص عمرانهم وتلاشت مكاسبهم ومساعيمهم وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم بما خضد الغلب من شوكتهم فاصبحوا مغلبين لكل متغلب طعمة لكل آكل وسواء كانوا حصلوا على غايتهم من الملك أو لم يحصلوا وفيه والله أعلم سر آخر وهو أن الانسان رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذي خلق له والرئيس اذا غلب على رياسته وكبح عن غاية عزه تكاسل حتى عن شبع بطنه ورى كبده وهذا موجود في أخلاق الاناسي ولقد يقال مثله في الحيوانات المفترسة وأنها لاتأسف اذا كانت في ملكة الادميين فلا يزال هذا القليل المملوك عليه أمره في تناقص واضمحلال الى أن يأخذهم الفناء والبقاء لله وحده واعتبر ذلك في أمة الفرس كيف كانت قد ملأت العالم كثرة ولما فئت حاميتهم في أيام العرب بقي منهم كثير وأكثر من الكثير يقال ان سعداً أحصى من وراء المدائن فكانوا مائة ألف وسبعة وثلاثين ألفاً منهم سبعة وثلاثون ألفاً رب بيت ولما تحصلوا في ملكة العرب وقبضة القهر لم يكن بقاؤهم الا قليلا ودثروا كأن لم يكونوا ولا تحسبن أن ذلك لظلم نزل بهم أو عدوان شملهم فذلك الاسلام في

كثرتهم لانظار الحق تم اجتماعهم وحصل لهم التغلب والملك وهم مع ذلك أسرع الناس قبولاً للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الاخلاق الا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة المتهية لقبول الخير ببقائه على الفطرة الاولى وبعده عما ينطبع في النفوس من قبيح العوائد وسوء الملكات فان كل مولود يولد على الفطرة كما ورد في الحديث وقد تقدم

٢٨ (فصل في أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك)

والسبب في ذلك أنهم أكثر بدواة من سائر الأمم وأبعد مجالا في الفقر وأغنى عن حاجات التلؤلؤ وحبوبها لا اعتيادهم الشظف وخشونة العيش فاستغنوا عن غيرهم فصعب انقياد بعضهم لبعض لا يلا فهم ذلك وللتوحش ورئيسهم محتاج اليهم غالبا للعصية التي بها المدافعة فكان مضطرا الى احسان ملكتهم وترك مراغمتهم لئلا يمتثل عليه شأن عصيته فيكون فيها هلاكه وهلاكهم وسياسة الملك والسلطان تقتضي أن يكون السائس وازعا بالقهر والالم تستقم سياسته وأيضا فان من طبيعتهم كما قدمناه أخذ ما في أيدي الناس خاصة والتجافي عما سوي ذلك من الاحكام بينهم ودفاع بعضهم عن بعض فاذا ملكوا أمة من الأمم جعلوا غاية ملكهم الانتفاع بأخذ ما في أيديهم وتركوا ما سوى ذلك من الاحكام بينهم وربما جعلوا العقوبات على المفسد في الاموال حرصا على تكثير الحيايات وتحصيل الفوائد فلا يكون ذلك وازعا وربما يكون باعثا بحسب الاغراض الباعثة على المفسد واستهانة ما يعطي من ماله في جانب غرضه فتمتوا المفسد بذلك ويقع تجريب العمران فتبقى تلك الامة كأنها فوضى مستطيلة أيدي بعضها على بعض فلا يستقيم لها عمران وتخرب سريعا شأن الفوضى كما قدمناه فبعدت طباع العرب لذلك كله عن سياسة الملك وانما يصيرون اليها بعد انقلاب طباعهم وتبدلها بصيغة دينية تمحو ذلك منهم وتجعل الوازع لهم من أنفسهم وتحملهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض كما ذكرناه واعتبر ذلك بدولتهم في الملة لما شيد لهم الدين أمر السياسة بالشرعية واحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهرا وباطنا وتتابع فيها الخلفاء عظم حينئذ ملكهم وقوى سلطانهم كان رستم اذا رأى المسلمين يجتمعون للصلاة يقول أكل عمر كبدي يعلم الكلاب الآداب ثم انهم بعد ذلك انقطعت منهم عن الدولة أجيال نبذوا الدين فنسوا السياسة ورجعوا الى قفرهم وجهلوا شأن عصيتهم مع أهل الدولة ببعدهم عن الانقياد واعطاء النصفة فو حشوا كما كانوا ولم يبق لهم من اسم الملك الا أنهم من جنس الخلفاء ومن حيلهم ولما ذهب أمر الخلافة وانحج رسمها انقطع الامر حلة من أيديهم وغلب عليهم العجم دونهم وأقاموا بادية في قفارهم لا يعرفون الملك ولا سياسته بل قد يجهل الكثير منهم أنهم قد كان لهم ملك في القديم وما كان في القديم لاحد من الأمم في الخليفة

هي أصل المكاسب وحقيقتها واذا فسدت الاعمال وصارت مجانا ضعفت الآمال في المكاسب وانقبضت الايدي عن العمل وابدع السالكين وفسد العمران وأيضاً فلهم عناية بالاحكام وزجر الناس عن المفساد ودفاع بعضهم عن بعض انما همهم ما يأخذونه من أموال الناس منها أو مغرمًا فاذا وصلوا الى ذلك وحصلوا عليه أعرضوا عما بعده من تسديد أحوالهم وانظر في مصالحهم وقهر بعضهم عن أغراض المفساد وربما فرضوا العقوبات في الاموال حرصاً على تحصيل الفائدة والحياة والاستكثار منها كما هو شأنهم وذلك ليس بمن في دفع المفساد وزجر المتعرض لها بل يكون ذلك زائداً فيها لاستسهال الغرم في جانب حصول الغرض فبقى الرعايا في ملكتهم كأنهم فوضي دون حكم والفوضي مهلكة للبشر ففسد العمران بما ذكرناه من أن وجود الملك خاصة طبيعية للانسان لا يستقيم وجودهم واجتماعهم الا بها وتقدم ذلك أول الفصل وأيضاً فهم متنافسون في الرياسة وقل أن يسلم أحد منهم الامر لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته الا في الاقل وعلى كره من أجل الحياء فيتعدد الحكماء منهم والامراء وتختلف الايدي على الرعية في الحياة والاحكام فيفسد العمران وينتقض قال الاعرابي الوافد على عبد الملك لما سأله عن الحجاج وأراد الثناء عليه عنده بحسن السياسة والعمران فقال تركته يظلم وحده وانظر الى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الاوطان من لدن الخليفة كيف تقوض عمرانه واقر ساكنه وبدلت الارض فيه غير الارض فالين قرارهم خراب الا قليلا من الامصار وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذي كان للفرس اجمع والشام لهذا العهد كذلك وافريقية والمغرب لما جاز اليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها الثلاثة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطه خراباً كلها بعد ان كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمرانا تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمدائر والله يرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

٢٧ (فصل في أن العرب لا يحصل لهم الملك الا بصيغة دينية من نبوة

أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة)

والسبب في ذلك أنهم خلقوا التوحش الذي فهم أصعب الائم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والانفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة فقلما يجتمع أهواؤهم فاذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذبح خلق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والانفة الوازع عن التحاسد والتنافس فاذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله ويذهب عنهم مذمومات الاخلاق ويأخذهم بمحمودها ويؤلف

ما كان لأحيائهم من الملك ودول عاد وثمود والعمالة وحمير والتبابعة شاهدة بذلك ثم دولة مضر في الاسلام بني أمية وبني العباس لكن بعد عهدهم بالسياسة لما نسوا الدين فرجعوا الى أصاهم من البداوة وقد يحصل لهم في بعض الاحيان غلب على الدول المستضعفة كافي المغرب لهذا العهد فلا يكون ماله وغايته الا تخريب ما يستولون عليه من العمران كما قدمناه والله يؤتي ملكه من يشاء

٢٩ (فصل في ان البوادي من القبائل والعصائب مغلوبون لاهل الامصار)

قد تقدم لنا أن عمران البادية ناقص عن عمران الحواضر والامصار لان الامور الضرورية في العمران ليس كلها موجودة لاهل البدو وانما توجد لديهم في مواطنهم أمور الفلاح وموادها مغدومة ومعظمها الصنائع فلا توجد لديهم بالكلية من نجار وخياط وحداد وأمثال ذلك مما يقيم لهم ضروريات معاشهم في الفلح وغيره وكذا الدنانير والدراهم مفقودة لديهم وانما بأيديهم أعواضها من مغل الزراعة وأعيان الحيوان أو فضلاته ألباناً وأوبراً وأشعاراً واهاباً مما يحتاج اليه أهل الامصار فيعوضونهم عنه بالدنانير والدراهم الآن حاجتهم الى الامصار في الضروري وحاجة أهل الامصار اليهم في الحاجي والكمالي فهم محتاجون الى الامصار بطبيعة وجودهم فما داموا في البادية ولم يحصل لهم ملك ولا استيلاء على الامصار فهم محتاجون الى أهلها ويتصرفون في مصالحهم وطاعتهم متى دعواهم الى ذلك وطالبوهم به وان كان في المصر ملك كان خضوعهم وطاعتهم لغلب الملك وان لم يكن في المصر ملك فلا بد فيه من رئاسة ونوع استبداد من بعض أهلها على الباقيين والا انتقص عمرانهم وذلك الرئيس يحملهم على طاعته والسعي في مصالحه إما طوعاً ببذل المال لهم ثم يبدي لهم ما يحتاجون اليه من الضروريات في مصره فيستقيم عمرانهم واما كرهاً ان تمت قدرته على ذلك ولو بالتغريب بينهم حتى يحصل له جانب منهم يغالب به الباقيين فيضطر الباقيين الى طاعته بما يتوقعون لذلك من فساد عمرانهم وربما لايسعهم مفارقة تلك النواحي الى جهات اخري لان كل الجهات معمور بالبدو الذين غلبوا عليها ومنعواهم من غيرهم فلا يجد هؤلاء ملجأ الا طاعة المصر فهم بالضرورة مغلوبون لاهل الامصار والله قاهر فوق عباده وهو الواحد الاحد القهار

الفصل الثالث

من الكتاب الاول في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه قواعد ومتممات

١ (فصل في أن الملك والدولة العامة انما يحصل بالقبيل والعصية)

وذلك انا قررنا في الفصل الاول أن المغالبة والممانعة انما تكون بالعصية لما فيها من التمرة

والتذامر واستماتة كل واحد منهم دون صاحبه ثم ان الملك منصب شريف ملذوذ يشتمل على جميع الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية والملاذ النفسانية فيقع فيه اتسافس غالباً وقل أن يسامه أحد لصاحبه الا اذا غلب عليه فتقع المنازعة ونفضي الى الحرب والقتال والمغالبة وشيء منها لا يقع الا بالعصية كما ذكرناه آنفاً وهذا الامر بعيد عن أفهام الجمهور بالجملة ومتناسون له لانهم نسوا عهد تمهيد الدولة منذ أولها وطال أمد مرابهم في الحضارة وتعاقبهم فيها جيلا بعد جيل فلا يعرفون ما فعل الله أول الدولة انما يدركون اصحاب الدولة وقد استحكمت صبتهم ووقع التسليم لهم والاستغناء عن العصية في تمهيد أمرهم ولا يعرفون كيف كان الامر من أوله وما اتى أولهم من المتاعب دونه وخصوصاً أهل الاندلس في نسيان هذه العصية وأثرها لطول الامد واستغنائهم في الغالب عن قوة العصية بما تلاشى وطنهم وخلان العصاب والله قادر على ما يشاء وهو بكل شيء عليم وهو حسبنا ونعم الوكيل

٢ (فصل في انه اذا استقرت الدولة وتمهدت فقد تستغنى عن العصية)

والسبب في ذلك أن الدول العامة في أولها يصعب على النفوس الانقياد لها الا بقوة قوية من الغلب لغرابة وان الناس لم يألّفوا ملكها ولا اعتادوه فاذا استقرت الرياسة في أهل النصاب المخصوص بالملك في الدولة وتوارثوه واحدا بعد آخر في أعقاب كثيرين ودول متعاقبة نسيت النفوس شأن الاولوية واستحكمت لاهل ذلك النصاب صبغة الرياسة ورسخ في العقائد دين الانقياد لهم والتسليم وقاتل الناس معهم على أمرهم قتالهم على العقائد الايمانية فلم يحتاجوا حينئذ في أمرهم الى كبير عصاة بل كان طاعتها كتاب الله لا يبدل ولا يعلم خلافة ولا أمر ما يوضع الكلام في الامامة آخر الكلام على العقائد الايمانية كأنه من جملة عقودها ويكون استظهارهم حينئذ على سلطانهم ودولتهم المخصوصة إما بالوالي والمصطنعين الذين نشؤا في ظل العصية وغيرها واما بالعصائب الخارجين عن نسبها الداخليين في ولايتها ومثل هذا وقع لبني العباس فان عصية العرب كانت فسدت لعهد دولة المعتصم وابنه الواثق واستظهارهم بعد ذلك انما كان بالموالي من العجم والترك والديلم والسلجوقية وغيرهم ثم تغلب العجم الاولياء على النواحي وتقلص ظل الدولة فلم تكن تعدو أعمال بغداد حتى زحف اليها الديلم وملكوها وصار الخلائق في حكمهم ثم انقرض أمرهم وملك السلجوقية من بعدهم فصاروا في حكمهم ثم انقرض أمرهم وزحف آخر التتار فقتلوا الخليفة ومحو رسم الدولة وكذا صنهاجة بالمغرب فسدت عصيتهم منذ المائة الخامسة أو ما قبلها واستمرت لهم الدولة متقلصة الظل بالمهدية وبجاية والقلعة وسائر ثغور أفريقية وربما انتزى بتلك الثغور من نازعهم الملك واعتصم فيها والسلطان

والملك مع ذلك مسلم لهم حتى تأذن الله بانقراض الدولة وجاء الموحدون بقوة قوية من العصبية في المصامدة فحوا آثارهم وكذا دولة بني أمية بالاندلس لما فسدت عصيتها من العرب استولى ملوك الطوائف على أمرها واتسموا خطتها وتنافسوا بينهم وتوزعوا ممالك الدولة وأنشئ كل واحد منهم على ما كان في ولايته وشمخ بأنفه وبلغهم شأن العجم مع الدولة العباسية فتلقبوا بألقاب الملك ولبسوا شارته وأمنوا ممن ينقض ذلك عليهم أو يغيره لان الاندلس ليس بدار عصائب ولا قبائل كما سذكروه واستمر لهم ذلك كما قال ابن شرف

نما يهديني في أرض أندلس * أسماء معصم فيها ومعتمد

القباب مملكة في غير موضعها * كالهريحي انتفاخ صورة الاسد

فاستظهروا على أمرهم بالموالي والمصطنعين والطراء على الاندلس من أهل العدو من قبائل البربر وزناة وغيرهم اقتداء بالدولة في آخر أمرها في الاستظهار بهم حين ضعفت عصبية العرب واستبد ابن أبي عامر على الدولة فكان لهم دول عظيمة استبد كل واحد منها بجانب من الاندلس وحظ كبير من الملك على نسبة الدولة التي اقتسموها ولم يزالوا في سلطانهم حتى جاز اليهم البحر المراتبون أهل العصبية القوية من لمتونة فاستبدلوا بهم وأزالوهم عن مراكزهم ومحو آثارهم ولم يقدر على مدافعهم لفقدان العصبية لديهم فهذه العصبية يكون تمهيد الدولة وحمايتها من أولها وقد ظن الطرطوشي أن حامية الدول باطلاق هم الجنداهل العطاء المفروض مع الاهلة ذكر ذلك في كتابه الذي سماه سراج الملوك وكلامه لا يتناول تأسيس الدول العامة في أولها وإنما هو مخصوص بالدول الاخيرة بعد التمهيد واستقرار الملك في النصاب واستحكام الصبغة لاهله فالرجل انما أدرك الدولة عند هزمها وخلق جذتها ورجوعها الى الاستظهار بالموالي والصنائع ثم الى المستخدمين من ورائهم بالاجر على المدافعة فانه انما أدرك دول الطوائف وذلك عند احتلال دولة بني أمية وانقراض عصيتها من العرب واستبداد كل أمير بقطره وكان في إيالة المستعين بن هود وابنه المظفر أهل سرقسطة ولم يكن بقي لهم من أمر العصبية شيء لاستيلاء الترف على العرب منذ ثلثمائة من السنين وهلاكهم ولم ير الا سلطانا مستبداً بالملك عن عشائره قد استحكمت له صبغة الاستبداد منذ عهد الدولة وبقية العصبية فهو لذلك لا ينزع فيه ويستعين على أمره بالاجراء من المرتزة فأطلق الطرطوشي القول في ذلك ولم يتفطن لكيفية الامر منذ أول الدولة وأنه لا يتم الا لأهل العصبية فتفطن أنت له وافهم سر الله فيه والله يؤتي ملكه من يشاء

٣ * فصل في أنه قد يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية *

وذلك انه اذا كان لعصبية غلب كثير على الامم والاحياء وفي نفوس القامئين بامرهم من

أهل القاصية اذعان لهم وانقياد فاذا نزع الهم هذا الخارج وانتبذ عن مقر ملكه ومنبت عزه
اشتملوا عليه وقاموا بأمره وظاهره على شأنه وعنوا بتهديد دولته يرجون استقراره في نصابه
وتناوله الامر من يد اعياصه وجزاءه لهم على مظاهرتهم باصطفائهم لرتب الملك وخططه من
وزارة أو قيادة أو ولاية ثغر ولا يطعمون في مشاركته في شيء من سلطانه تسليما لعصبيته
وانقيادا لما استحكم له ولقومه من صبغة الغلب في العالم وعقيدة ايمانية استقرت في الاذعان لهم
فلو راموها معه أو دونه لزلزلت الارض زلزالها وهذا كما وقع للادارسة بالمغرب الاقصى
والعبيدين بافريقية ومصر لما انتبذ الطالبيون من المشرق الى القاصية وابتعدوا عن مقر الخلافة
وسموا الى طلبها من أيدي بني العباس بعد أن استحكمت الصبغة لبني عبد مناف لبني أمية
أولاً ثم لبني هاشم من بعدهم فخرجوا بالقاصية من المغرب ودعوا لانفسهم وقام بأمرهم البرابرة
مرة بعد أخرى فأوربة ومغيلة للادارسة وكتامة وصنهاجة وهوارة للعبيدين فشيّدوا دولتهم
ومهدوا بعصائهم أمرهم واقتطعوا من ممالك العباسيين المغرب كله ثم أفريقية ولم يزل ظل الدولة
يتقاص وظل العبيدين يمتد الى أن ملكوا مصر والشام والحجاز وقاسموهم في الممالك الاسلامية
شق الابلمة وهؤلاء البرابرة القائمون بالدولة مع ذلك كلهم مسلمون للعبيدين أمرهم مذعنون
لملكهم وانما كانوا يتنافسون في الرتبة عندهم خاصة تسليما لما حصل من صبغة الملك لبني هاشم
ولما استحكم من الغلب لقريش ومضر على سائر الامم فلم يزل الملك في أعقابهم الى أن انقرضت
دولة العرب بأسرها والله يحكم لامعقب حكمه

٤ ﴿ فصل في أن الدول العائمة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين إمام نبوة أو دعوة حق ﴾

وذلك لان الملك انما يحصل بالتغلب والتغلب انما يكون بالعصية واتفاق الاهواء على المطالبة
وجمع القلوب وتأييدها انما يكون بمعونة من الله في اقامة دينه قال تعالى لو أنفقت ما في الارض
جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم وسره أن القلوب اذا تداعت الى أهواء الباطل والميل الى الدنيا حصل
التنافس وفشا الخلاف واذا انصرفت الى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله اتحدت
وجهتها فذهب التنافس وقل الخلاف وحسن التعاون والتعاقد واتسع نطاق الكلمة لذلك
فعظمت الدولة كما نين لك بعد ان شاء الله سبحانه وتعالى وبه التوفيق لارب سواه

٥ ﴿ فصل في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصية التي كانت لها من عددها ﴾

والسبب في ذلك كما قدمناه أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصية
وتقرّد الوجهة الى الحق فاذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء لان الوجهة

واحدة والمطلوب متساو عندهم وهم مستميتون عليه وأهل الدولة التي هم طالبوها وان كانوا أضعافهم فاغراضهم متباينة بالباطل وتحاذلهم لتقية الموت حاصل فلا يقاومونهم وان كانوا أكثر منهم بل يغلبون عليهم ويعاجلهم الفناء بما فيهم من الترف والذل كإقدامه وهذا كإوقع للعرب صدر الاسلام في الفتوحات فكانت جيوش المسلمين بالقادسية واليرموك بضعا وثلاثين ألفاً في كل معسكر وجموع فارس مائة وعشرين ألفاً بالقادسية وجموع هرقل على ما قاله الواقدي أربع مائة ألف فلم يقف للعرب أحد من الجانيين وهزموهم وغلبوهم على ما بأيديهم واعتبر ذلك أيضاً في دولة لمتونة ودولة الموحدين فقد كان بالمغرب من القبائل كثير ممن يقاومهم في العدد والعصية أو يشف عليهم الا أن الاجتماع الديني ضاعف قوة عصيتهم بالاستبصار والاستماتة كما قلناه فلم يقف لهم شيء واعتبر ذلك اذا حالت صبغة الدين وفسدت كيف ينتقض الامر ويصير الغلب على نسبة العصية وحدها دون زيادة الدين فتغلب الدولة من كان تحت يدها من العصابات المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها الذين غلبتهم بمضاعفة الدين لقوتها ولو كانوا أكثر عصية منها وأشد بدواة واعتبر هذا في الموحدين مع زناتة لما كانت زناتة أبدي من المصادمة وأشد توحشا وكان للمصادمة الدعوة الدينية بآباع المهدي فلبسوا صبغتها وتضاعفت قوة عصيتهم بها فغلبوا على زناتة أولاً واستتبحوهم وان كانوا من حيث العصية والبدواة أشد منهم فلما خلوا عن تلك الصبغة الدينية انتقضت عليهم زناتة من كل جانب وغلبوهم على الامر وانتزعوه منهم والله غالب على أمره

٦ - فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصية لا تتم

وهذا لما قدمناه من أن كل أمر تحمل عليه الكافة فلا بد له من العصية وفي الحديث الصحيح كما مر مابعت الله نبياً الا في منعة من قومه واذا كان هذا في الانبياء وهم أولى الناس بمخرق العوائد فما ظنك بغيرهم أن لا يخرق له العادة في الغلب بغير عصية وقد وقع هذا لابن قتيب شيخ الصوفية وصاحب كتاب خلع النعلين في التصوف ثار بالاندلس داعياً الى الحق وسمي أصحابه بالمرايطين قيل دعوة المهدي فاستتب له الامر قليلاً لشغل لمتونة بما دهمهم من أمر الموحدين ولم تكن هناك عصابات ولا قبائل يدفعونه عن شأنه فلم يلبث حين استولى الموحدون على المغرب أن أذن لهم ودخل في دعوتهم وتابعهم من معقله بمحضر أركش وأمكنهم من ثغره وكان أول داعية لهم بالاندلس وكانت ثورته تسمى ثورة المرابطين ومن هذا الباب أحوال الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء فان كثيراً من المنتحليين للعبادة وسلوك طرق الدين يذهبون الى القيام على أهل الجور من الامراء داعين الى تغيير المنكر والنهي عنه والامر بالمعروف

رجاء في الثواب عليه من الله فيكثر أتباعهم والمتشبهون بهم من الغوغاء والدهاء ويعرضون أنفسهم في ذلك للمهلك وأكثرهم يهلكون في تلك السبيل مأزورين غير مأجورين لأن الله سبحانه لم يكتب ذلك عليهم وإنما أمر به حيث تكون القدرة عليه قال صلى الله عليه وسلم من رأي منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلمه وأحوال الملوك والدول راسخة قوية لا يزحزحها ويهدم بناؤها إلا المطالبة القوية التي من ورائها عصية القبائل والعشائر كما قدمناه وهكذا كان حال الانبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم إلى الله بالعشائر والعصائب وهم المؤيدون من الله بالكون كله لو شاء لكنه إنما أجاز الأمور على مستقر العادة والله حكيم عليم فإذا ذهب أحد من الناس هذا المذهب وكان فيه محققاً قصر به الانفرد عن العصية فطاح في هوة الهلاك وأما أن كان من المتألمين بذلك في طاب الرياسة فأجدر أن تعوقه العوائق وتقطع به المهالك لأنه أمر الله لا يتم إلا برضاه وإعانتة والإخلاص له وإنصيحة للمسلمين ولا يشك في ذلك مسلم ولا يرتاب فيه ذو بصيرة وأول ابتداء هذه الزعة في الملة ببغداد حين وقعت فتنة طاهر وقتل الأمين وأبطأ المأمون بخراسان عن مقدم العراق ثم عهد لـملي بن موسى الرضا من آل الحسين فكشف بنو العباس عن وجه التذكير عليه وتداعوا للقيام وخاع طاعة المأمون والاستبدال منه وبويع إبراهيم بن المهدي فوقع الهرج ببغداد وانطلقت أيدي الزعرة بها من الشطار والحربية على أهل العافية والصون وقطعوا السبيل وامتلات أيديهم من نهاب الناس وابعوها علانية في الأسواق واستعدي أهلها للحكام فلم يعدوهم فتوافر أهل الدين والصالح على منع الفساق وكف عاديهم وقام ببغداد رجل يعرف بخالد الدريوس ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فأجابه خلق وقاتل أهل الزعرة فغلبهم وأطلق يده فيهم بالضرب والتشكيل ثم قام من بعده رجل آخر من سواد أهل بغداد يعرف بسهل بن سلامة الأنصاري ويكنى أبا حاتم وعاق مصحفاً في عنقه ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فاتبعه كافة الناس من بين شريف ووضيع من بني هاشم فمن دونهم ونزل قصر طاهر واتخذ الديوان وطاف ببغداد ومنع كل من أخاف المارة ومنع الحفارة لاولئك الشطار وقال له خالد الدريوس أنا لأعيب على السلطان فقال له سهل لكني أقاتل كل من خالف الكتاب والسنة كأننا من كان وذلك سنة احدي ومائتين ووجه له إبراهيم بن المهدي العساكر فغلبه وأسره وأنحل أمره سريعاً وذهب ونجا بنفسه ثم اقتدي بهذا العمل بعد كثير من الموسوسين يأخذون أنفسهم بإقامة الحق ولا يعرفون ما يحتاجون إليه في إقامته من العصية ولا يشعرون بمغبة أمرهم ومآل أحوالهم والذي يحتاج إليه في أمر هؤلاء أما المداواة إن كانوا من أهل الجنون

وإما التسيك بالقتل أو الضرب ان أحدثوا هرجا واما اذاعة السخرية منهم وعدهم من جملة الصفاين وقد ينتسب بعضهم الى الفاطم المنتظر اما بأنه هو أو بأنه داع له وليس مع ذلك على علم من أمر الفاطمي ولا ماهو وأكثر المتحليلين لمثل هذا تجدهم موسوسين أو مجانين أو ملبسين يطالبون بمثل هذه الدعوة رياسة امتلات بها جوانحهم وعجزوا عن التوصل اليها بشي من أسبابها العادية فيحسبون أن هذا من الاسباب البالغة بهم الى ما يؤملونه من ذلك ولا يحسبون ما ينالهم فيه من الهلكة فيسرع اليهم القتل بما يحدثونه من الفتنة وتسوء عاقبة مكرهم وقد كان لاول هذه المائة خرج بالسوس رجل من المتصوفة يدعي التوبذري عمد الى مسجد ماسة بساحل البحر هنالك وزعم انه الفاطمي المنتظر تليدساً على العامة هنالك بما ملأ قلوبهم من الحداث بانتظاره هنالك وان من ذلك المسجد يكون أصل دعوته فتهاقت عليه طوائف من عامة البربر تهافت الفراش ثم خشي رؤسائهم اتساع نطاق الفتنة فدرس اليه كبير المصاحمة يومئذ عمر السكسيوى من قتله في فراشه وكذلك خرج في غمارة أيضاً لاول هذه المائة رجل يعرف بالعباس وادعي مثل هذه الدعوة واتبع نعيقه الارذلون من سفهاء تلك القبائل وغمارهم وزحف الى بادس من أنصارهم ودخلها غنوة ثم قتل لاربعين يوما من ظهور دعوته ومضى في الهالكين الاولين وأمثال ذلك كثير والغلط فيه من الغفلة عن اعتبار العصية في مثاله واما ان كان التليس فأحرى أن لا يتم له أمر وأن ييؤء بأئمه وذلك جزاء الظالمين والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لارب غيره ولا معبود سواه

٧ (فصل في أن كل دولة لها حصّة من الممالك والاطوان لاتزيد عليها)

والسبب في ذلك أن عصابة الدولة وقومها القائمين بها الممهدين لها لابد من توزيعهم حصصاً على الممالك والثغور التي تصير اليهم ويستولون عليها لحمايتها من العدو وائضاء أحكام الدولة فيها من حباية وردع وغير ذلك فاذا توزعت العصابات كلهم على الثغور والممالك فلا بد من نفاد عددهم وقد بلغت الممالك حينئذ الى حد يكون ثغراً للدولة وتحماً لوطنها ونطاقاً لمركز ملكها فان تكلفت الدولة بعد ذلك زيادة على ما بيدها بقي دون حامية وكان موضعاً لانتهاز الفرصة من العدو المجاور ويعود وبال ذلك على الدولة بما يكون فيه من التجاسر وخرق سياج الهيبة وما كانت العصابة موفورة ولم ينفد عددها في توزيع الحصص على الثغور والنواحي بقي في الدولة قوة على تناول ما وراء الغاية حتى ينفصح نطاقها الى غايته والعلة الطبيعية في ذلك هي قوة العصية من سائر القوي الطبيعية وكل قوة يصدر عنها فعل من الافعال فشأنها ذلك في فعالها والدولة في مركزها أشد مما يكون في الطرف والنطاق واذا انتهت الى النطاق الذي

هو الغاية عجزت وأقصرت عما وراءه شأن الاشعة والانوار اذا انبعثت من المراكز والدوائر المنفسحة على سطح الماء من التقر عليه ثم اذا أدركها الهرم والضعف فانما تأخذ في التناقص من جهة الاطراف ولا يزال المركز محفوظاً الى أن يتأذن الله بانقرض الامر جملة فحينئذ يكون انقرض المركز واذا غلب على الدولة من مركزها فلا ينفعها بقاء الاطراف والنطاق بل تضمحل لوقتها فان المركز كالقلب الذي تنبعث منه الروح فاذا غلب القلب وملك انهمز جميع الاطراف وانظر هذا في الدولة الفارسية كان مركزها المدائن فلما غلب المسلمون على المدائن انقرض أمر فارس أجمع ولم ينفذ يزدجرد ما بقي بيده من أطراف مملكته وبالعكس ومن ذلك الدولة الرومية بالشام لما كان مركزها القسطنطينية وغلبهم المسلمون بالشام تحيزوا الى مركزهم بالقسطنطينية ولم يضرهم انزعاع الشام من أيديهم فلم يزل ملكهم متصلاً بها الى أن تأذن الله بانقرضه وانظر أيضاً شأن العرب أول الاسلام لما كانت عصائبهم موفورة كيف غلبوا على ماجاورهم من الشام والعراق ومصر لأسرع وقت ثم تجاوزوا ذلك الى ما وراءه من السند والحبشة وأفريقية والمغرب ثم الى الاندلس فلما تفرقوا حصصاً على الممالك والثغور ونزلوها حامية ونفذ عددهم في تلك التوزيمات أقصروا عن الفتوحات بعد وانتهى أمر الاسلام ولم يتجاوز تلك الحدود ومنها تراجعت الدولة حتي تأذن الله بانقرضها وكذا كان حال الدول من بعد ذلك كل دولة على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة وعند نفاد عددهم بالتوزيع ينقطع لهم الفتح والاستيلاء سنة الله في خلقه

٨ ﴿ فصل في أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة ﴾

والسبب في ذلك أن الملك انما يكون بالعصية وأهل العصية هم الحامية الذين ينزلون بممالك الدولة وأقطارها وينقسمون عليها فما كان من الدولة العامة قبيلها وأهل عصابتها أكثر كانت أقوى وأكثر ممالك وأوطاناً وكان ملكها أوسع لذلك واعتبر ذلك بالدولة الاسلامية لما ألف الله كلمة العرب على الاسلام وكان عدد المسلمين في غزوة تبوك آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم مائة ألف وعشرة آلاف من مضروقي حطان مابين فارس وراجل الى من أسلم منهم بعد ذلك الى الوفاة فلما توجهوا لطاب ما في أيدي الأمم من الملك لم يكن دونه حمى ولا وزر فاستيبح حمى فارس والروم أهل الدولتين العظيمتين في العالم لعهدهم والترك بالشرق والافرنجة والبربر بالمغرب والقوط بالاندلس وخطوا من الحجاز الى السوس الاقصى ومن اليمن الى الترك بأقصى الشمال واستولوا على الاقاليم السبعة ثم انظر بعد ذلك دولة صنهاجة والموحدين مع العبيدين قبلهم لما كان قبيل كتامة القائمين بدولة العبيدين أكثر من صنهاجة ومن المصامدة كانت دولتهم

أعظم فملكوا أفريقية والمغرب والشام ومصر والحجاز ثم انظر بعد ذلك دولة زنادة لما كان عددهم أقل من المصامدة قصر ملكهم عن ملك الموحدين لقصور عددهم عن عدد المصامدة منذ أول أمرهم ثم اعتبر بعد ذلك حال الدولتين لهذا العهد لزناة بني مرين وبني عبد الواد لما كان عدد بني مرين لأول ملكهم أكثر من بني عبد الواد كانت دولتهم أقوى منها وأوسع نطاقا وكان لهم عليهم الغلب مرة بعد أخرى يقال ان عدد بني مرين لأول ملكهم كان ثلاثة آلاف وان بني عبد الواد كانوا ألفا الا أن الدولة بالرقة وكثرة التابع كثرت من أعدادهم وعلى هذه النسبة في أعداد المتغلبين لأول الملك يكون اتساع الدولة وقوتها وأما طول أمدها أيضا فعلى تلك النسبة لان عمر الحادث من قوة مزاجه ومزاج الدول انما هو بالعصية فاذا كانت العصية قوية كان المزاج تابعا لها وكان أمد العمر طويلا والعصية انما هي بكثرة العدد ووفوره كما قلناه والسبب الصحيح في ذلك أن النقص انما يبدو في الدولة من الاطراف فاذا كانت مملكتها كثيرة كانت اطرافها بعيدة عن مركزها وكثيرة وكل نقص يقع فلا بد له من زمن فتكثر أزمان النقص لكثرة الممالك واختصاص كل واحد منها بنقص وزمان فيكون أمدها طويلا وانظر ذلك في دولة العرب الاسلامية كيف كان أمدها أطول الدول لابنو العباس أهل المركز ولا بنو أمية المستبدون بالاندلس ولم ينقص أمر جميعهم الا بعد الاربعماية من الهجرة ودولة العبيديين كان أمدها قريبا من مائتين وثمانين سنة ودولة صنهاجة دونهم من لدن تقليد معز الدولة أمر أفريقية لبلكين بن زيري في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة الى حين استيلاء الموحدين على القلعة وبجاية سنة سبع وخمسين وخمسماية ودولة الموحدين لهذا العهد تناهز مائتين وسبعين سنة وهكذا نسب الدول في أعمارها على نسبة القائمين بها سنة الله التي قد خلت في عبادته

٩ (فصل في أن الاوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل أن تستحكم فيها دولة)

والسبب في ذلك اختلاف الآراء والاهواء وأن وراء كل رأي منها وهوى عصبية تمنع دونها فيكثر الانتقاض على الدولة والخروج عليها في كل وقت وان كانت ذات عصبية لان كل عصبية ممن تحت يدها تظن في نفسها منعة وقوة وانظر ما وقع من ذلك بأفريقية والمغرب منذ أول الاسلام ولهذا العهد فان ساكن هذه الاوطان من البربر أهل قبائل وعصبيات فلم يغن فيهم الغلب الاول الذي كان لابن أبي سرح عليهم وعلى الافرنجة شيئا وعادوا بعد ذلك الثورة والردة مرة بعد أخرى وعظم الانحان من المسلمين فيهم ولما استقر الدين عندهم عادوا الى الثورة والخروج والاخذ بدين الحوارج مرات عديدة قال ابن أبي زيد ارتدت البرابرة بالمغرب (١٧ - ابن خلدون)

اثنتي عشرة مرة ولم تستقر كلمة الاسلام فيهم الا لعهد ولاية موسى بن نصير فما بعده وهذا
معني ما ينقل عن عمر أن أفريقية مفرقة لقلوب أهلها اشارة الى ما فيها من كثرة العصابات
والقبائل الحاملة لهم على عدم الاذعان والانقياد ولم يكن العراق لذلك العهد بتلك الصفة ولا
الشام انما كانت حاميتهما من فارس والروم والكافة دهاء أهل مدن وأمصار فلما غلبهم المسلمون
على الامر وانتزعوه من أيديهم لم يبق فيها ممانع ولا مشاق والبربر قبائلهم بالمغرب أكثر من
أن تحصى وكلهم بادية وأهل عصابات وعشائر وكلها هلكت قبيلة عادت الاخرى مكانها والى
دينها من الخلاف والردة فطال أمر العرب في تمهيد الدولة بوطن أفريقية والمغرب وكذلك
كان الامر بالشام لعهد بني اسرائيل كان فيه من قبائل فلسطين وكنعان وبني عيصور وبني
مدن وبني لوط والروم ويونان والعمالقة واكريكش والنبط من جانب الجزيرة والموصل
مالا يحصى كثرة وتنوعا في العصبية فصعب على بني اسرائيل تمهيد دولتهم ورسوخ أمرهم
واضطرب عليهم الملك مرة بعد أخرى وسري ذلك الخلاف اليهم فاختلّفوا على سلطانهم
وخرجوا عليه ولم يكن له ملك موطن سائر أيامهم الى أن غلبهم الفرس ثم يونان ثم الروم
آخر أمرهم عند الجلاء والله غالب على أمره وبالعكس هذا أيضا الاوطان الحالية من العصبية
يسهل تمهيد الدولة فيها ويكون سلطانها وازعا لقلّة الهرج والانتقاض ولا يحتاج الدولة فيها الى
كثير من العصبية كما هو الشأن في مصر والشام لهذا العهد اذ هي خلوة من القبائل والعصبية
كان لم يكن الشام معدنا لهم كما قلناه فملك مصر في غاية الدعة والرسوخ لقلّة الحوارج وأهل
العصابات انما هو سلطان ورعية ودولتها قائمة بملوك الترك وعصائبهم يغلبون على الامر واحدا
بعد واحد وينتقل الامر فيهم من منبت الى منبت والخلافة سماء للعباسي من أعقاب الخلفاء
ببغداد وكذا شأن الأندلس لهذا العهد فان عصبية ابن الاحمر سلطانها لم تكن لاول دولتهم
بقوية ولا كانت كرات انما يكون أهل بيت من بيوت العرب أهل الدولة الاموية بقوا من
ذلك القلّة وذلك ان أهل الاندلس لما انقرضت الدولة العربية منه وملكهم البربر من لمتونة
والموحدين سئموا ملكتهم وثقلت وطأنهم عليهم فأشربت القلوب بغضاءهم وأمكن الموحدون
والسادة في آخر الدولة كثيرا من الحصول للطاغية في سبيل الاستظهار به على شأنهم من تملك
الحضرة مراکش فاجتمع من كان بقي بها من أهل العصبية القديمة معادن من بيوت العرب
تجافي بهم المنبت عن الحضرة والامصار بعض الشيء ورسخوا في العصبية مثل ابن هود وابن
الاحمر وابن مردنيس وأمثالهم فقام ابن هود بالامر ودعا بدعوة الخلافة العباسية بالمشرق
وحمل الناس على الخروج على الموحدين فنبذوا اليهم العهد وأخرجوهم واستقل ابن هود
بالامر بالاندلس ثم سما ابن الاحمر للامر وخالف ابن هود في دعوته فدعا هؤلاء لابن أبي

حفص صاحب افريقية من الموحدين وقام بالامر وتناوله بعصاة قليلة من قرابته كانوا يسمون الرؤساء ولم يحتاج لاكثر منهم لقلّة العصائب بالاندلس وانما سلطان ورعية ثم استظهر بعد ذلك على الطاغية بمن يحيز اليه البحر من أعياص زنّانة فصاروا معه عصبة على المناغرة والرباط ثم سما لصاحب المغرب من ملوك زنّانة أمل في الاستيلاء على الاندلس فصار أولئك الاعياص عصابة ابن الأحمر على الامتناع منه الى أن تأئل أمره ورسخ وألفته النفوس وعجز الناس عن مطالبته وورثه أعقاب لهذا العهد فلا تظن أنه بغير عصابة نليس كذلك وقد كان مبدؤه بعصابة الا انها قليلة وعلى قدر الحاجة فان قطر الاندلس لقلّة العصائب والقبائل فيه يعني عن كثرة العصية في التغلب عليهم والله غني عن العالمين

(فصل في أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد)

١٠

وذلك أن الملك كما قدمناه انما هو بالعصية والعصية متألفة من عصبات كثيرة تكون واحدة منها أقوى من الاخرى كلها فتغلبها وتستولي عليها حتى تصيرها جميعاً في ضمنها وبذلك يكون الاجتماع والغلب على الناس والدول وسره أن العصية العامة للقبيل هي مثل المزاج للمتكون والمزاج انما يكون عن العناصر وقد تبين في موضعه أن العناصر اذا اجتمعت متكافئة فلا يقع منها مزاج أصلاً بل لابد أن تكون واحدة منها هي الغالبة على الكل حتى تجتمعها وتؤلفها وتصيرها عصية واحدة شاملة لجميع العصائب وهي موجودة في ضمنها وتلك العصية الكبرى انما تكون لقوم أهل بيت ورياسة فيهم ولا بد أن يكون واحد منهم رئيساً لهم غالباً عليهم فيتبين رئيساً للعصبيات كلها لغلب منبته لجمعها واذا تبين له ذلك من الطبيعة الحيوانية خالق الكبر والأنفة فيألف حينئذ من المساهمة والمشاركة في استباعتهم والتحكم فيهم ويجيء خلق التآله الذي في طباع البشر مع ما تقتضيه السياسة من انفراد الحاكم لفساد الكل باختلاف الحكماء لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا فتجدع حينئذ أنوف العصبيات ويفلج شكائهم عن أن يسموا الى مشاركته في التحكم وتقرع عصبيتهم عن ذلك وينفرد به ما استطاع حتى لا يترك لاحد منهم في الامر لآنافه ولا جملاً فينفرد بذلك المجد بكليته ويدفعهم عن مساهمته وقد تبين ذلك للاول من ملوك الدولة وقد لا يتم الا للثاني والثالث على قدر ممانعة العصبيات وقوتها الا أنه أمر لابد منه في الدول سنة الله التي قد خلت في عباده والله تعالى أعلم

(فصل في أن من طبيعة الملك الترف)

١١

وذلك أن الامة اذا تغلبت وملكت ما يبغي أهل الملك قبلها كثر رياسها ونعمتها فتكثر عوائدهم

وتجاوزون ضرورات العيش وخشونته الى نوافله ورقته وزينته ويذهبون الى اتباع من قبلهم في عوائدهم وأحوالهم وتصير تلك النوافل عوائد ضرورية في تحصيلها وينزعون مع ذلك الى رقة الاحوال في الطعام واللباس والفرش والآنية ويتفاحرون في ذلك ويفخرون فيه غيرهم من الامم في أكل الطيب ولبس الانيق وركوب الفاره وبناعي خلفهم في ذلك سلفهم الى آخر الدولة وعلى قدر ملكهم يكون حظهم من ذلك وترفعهم فيه الى أن يبلغوا من ذلك الناية التي للدولة أن تبلغها بحسب قوتها وعوائد من قبلها سنة الله في خلقه والله تعالى أعلم

١٢ فصل في أن من طبيعة الملك الدعة والسكون

وذلك أن الامة لا يحصل لها الملك الا بالمطالبة والمطالبة غايتها الغلب والملك واذا حصلت الغاية انقضى السعى اليها قال الشاعر

عجبت لسعى الدهر بيني وبينها * فلما انقضى مايتنا سكن الدهر

فاذا حصل الملك أقصروا عن المتاع التي كانوا يتكلفونها في طلبه وآثروا الراحة والسكون والدعة ورجعوا الى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمسكن والملابس فينبون القصور ويجرون المياه ويفرسون الرياض ويستمتعون باحوال الدنيا ويؤثرون الراحة على المتاع ويتأنقون في أحوال الملابس والمطاعم والآنية والفرش ما استطاعوا ويألفون ذاك ويورثونه من بعدهم من أحيالهم ولا يزال ذلك يتزايد فيهم الى أن يتأذن الله بامرده وهو خير الحاكمين والله تعالى أعلم

١٣ فصل في أنه اذا استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف

والدعة أقبلت الدولة على الهرم

وبيانه من وجوه * الاول انها تقتضي الانفراد بالمجد كما قلناه ومهما كان المجد مشتركا بين العصابة وكان سعيهم له واحدا كانت همهم في التغلب على الغير والذب عن الحوزة أسوة في طموحها وقوة شكائهم ومرماهم الى العز جميع وهم يستطيعون الموت في بناء مجدهم ويؤثرون الهلكة على فساده واذا انفرد الواحد منهم بالمجد قرع عصبيتهم وكبح من أعنتهم واستأثر بالاموال دونهم فتكاسلوا عن الغزو وفشل ريحهم ورموا المذلة والاستعباد ثم ربي الجيل الثاني منهم على ذلك يحسبون ماينالهم من العطاء أجرا من السلطان لهم على الحماية والمعونة لا يجري في عقولهم سواد وقل أن يستأجر أحد نفسه على الموت فيصير ذلك وهنا في الدولة وخضدا من الشوكة وتقبل به على مناحي الضعف والهرم فساد العصية بذهاب البأس من أهلها

* الوجه الثاني ان طبيعة الملك تقتضي الترف كما قدمناه فتكثر عوائدهم وتزيد نفقاتهم على أعطياتهم ولا يفي دخلهم بخرجهم فالفقير منهم يهلك والمترف يستغرق عطائه بترفه ثم يزداد ذلك في أحيالهم المتأخرة الى أن يقصر العطاء كله عن الترف وعوائده وتسمهم الحاجة وتطالبهم ملوكهم بمحصر نفقاتهم في الغزو والحروب فلا يجدون وليجة عنها فيوقعون بهم العقوبات ويتزعجون مافي أيدي الكثير منهم يستأثرون به عليهم أو يؤثرون به أبناءهم وصنائع دولتهم فيضعفونهم لذلك عن اقامة أحوالهم ويضعف صاحب الدولة بضعفهم وأيضاً اذا كثرت الترف في الدولة وصار عطاؤهم مقصر عن حاجاتهم ونفقاتهم احتاج صاحب الدولة الذي هو السلطان الى الزيادة في أعطياتهم حتى يسد خللهم ويزيح عنهم والحماية مقدارها معلوم ولا تزيد ولا تنقص وان زادت بما يستحدث من المكوس فيصير مقدارها بعد الزيادة محدوداً فاذا وزعت الحماية على الاعطيات وقد حدثت فيها الزيادة لكل واحد بما حدث من ترفهم وكثرة نفقاتهم نقص عدد الحماية حيثئذ عما كان قبل زيادة الاعطيات ثم يعظم الترف وتكثر مقادير الاعطيات لذلك فينقص عدد الحماية وثالثاً ورابعاً الى أن يعود العسكر الى أقل الاعداد فتضعف الحماية لذلك وتسقط قوة الدولة ويتجاسر عليها من يحاورها من الدول أو من هو تحت يديها من القبائل والعصائب ويأذن الله فيها بالفناء الذي كتبه على خليقته وأيضاً فالترف مفسد للخلق بما يحصل في النفس من ألوان الشر والفسافة وعوائدها كما يأتي في فصل الحضارة فتذهب منهم خلال الخير التي كانت علامة على الملك ودليلاً عليه ويتصفون بما يناقضها من خلال الشر فيكون علامة على الادبار والانقراض بما جعل الله من ذلك في خليقته وتأخذ الدولة مبادي العطب وتتضعف أحوالها وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم الى أن يقضي عليها * الوجه الثالث ان طبيعة الملك تقتضي الدعة كما ذكرناه واذا اتخذوا الدعة والراحة مألفاً وخلقاً صار لهم ذلك طبيعة وحيلة شأن العوائد كلها وايلافها فتربي أحيالهم الحادثة في غضارة العيش ومهاد الترف والدعة وينقلب خلق التوحش وينسون عوائد البداوة التي كان بها الملك من شدة البأس وتعود الافتراس وركوب البيداء وهداية الفقر فلا يفرق بينهم وبين السوق من الحضر الا في الثقافة والشارة فتضعف حمايتهم ويذهب بأسهم وتتخدد شوكتهم ويعود وبال ذلك على الدولة بما تلبس به من ثياب الهرم ثم لا يزالون يتلونون بعوائد الترف والحضارة والسكون والدعة ورقة الحاشية في جميع أحوالهم وينغمسون فيها وهم في ذلك يبعدون عن البداوة والحشونة وينسأخون عنها شيئاً فشيئاً وينسون خلق البسالة التي كانت بها الحماية والمدافعة حتي يعودوا عيالا على حامية أخرى ان كانت لهم واعتبر ذلك في الدول التي أخبارها في الصحف لديك تجد ماقالتك لك من ذلك صحيحا في غير ريبة وربما يحدث في الدولة اذا طرقها هذا الهرم بالترف والراحة أن

يتخير صاحب الدولة أنصاراً وشيعة من غير جلدتهم ممن تعود الخشونة فيتعذبهم جندا يكون أصبر على الحرب وأقدر على معاناة الشدائد من الجوع والشظف ويكون ذلك دواء للدولة من الهرم الذي عساه أن يطرقها حتى يأذن الله فيها بأمره وهذا كما وقع في دولة الترك بالشرق فان غالب جندھا الموالي من الترك فتخير ملوكهم من أولئك الممالك المجلوبين اليهم فرسانا وجندا فيكونون أجراً على الحرب وأصبر على الشظف من أبناء الممالك الذين كانوا قبلهم وربوا في ماء النعيم والسلطان وظلّه وكذلك في دولة الموحدين بأفريقية فان صاحبها كثيراً ما يتخذ أجناده من زناتة والعرب ويستكثر منهم ويترك أهل الدولة المتعودين للترف فتستجد الدولة بذلك عمراً آخر سالماً من الهرم والله وارث الارض ومن عليها

١٤ فصل في أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص

اعلم أن العمر الطبيعي للأشخاص على مازعم الأطباء والمنجمون مائة وعشرون سنة وهي سنو القمر الكبرى عند المنجمين ويختلف العمر في كل حيل بحسب القرائن فيزيد عن هذا وينقص منه فتكون أعمار بعض أهل القرائن مائة تامة وبعضهم خمسين أو ثمانين أو سبعين على ما تقتضيه أدلة القرائن عند الناظرين فيها وأعمار هذه الملة مابين الستين الى السبعين كما في الحديث ولا يزيد على العمر الطبيعي الذي هو مائة وعشرون الا في الصور النادرة وعلى الاوضاع الغريبة من الفلك كما وقع في شأن نوح عليه السلام وقليل من قوم عاد وثمود وأما أعمار الدول أيضاً وان كانت تختلف بحسب القرائن الا أن الدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط فيكون أربعين الذي هو انتهاء النمو والنشوى غاية قال تعالى حتى اذا باغ أشده وبلغ أربعين سنة ولهذا قلنا ان عمر الشخص الواحد هو عمر الجيل ويؤيد ما ذكرناه في حكمة التيه الذي وقع في بني اسرائيل وأن المقصود بالأربعين فيه فناء الجيل الاحياء ونشأة جيل آخر لم يعدوا الذل ولا عرفوه فدل على اعتبار الأربعين في عمر الجيل الذي هو عمر الشخص الواحد وانما قلنا ان عمر الدولة لا يعدو في الغالب ثلاثة أجيال لان الجيل الاول لم يزلوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم فخدمهم مرهف وجانبهم مرهوب والناس لهم مغلوبون والجيل الثاني تحول حالهم بالملك والترفع من البداوة الى الحضارة ومن الشظف الى الترف والخصب ومن الاشتراك في المجد الى انفراد الواحد به وكسل الباقيين عن السعي فيه ومن عز الاستطالة الى ذل الاستكانة فتكسر سورة العصبية بعض الشيء وتؤنس منهم المهانة والخضوع ويبقى لهم

الكثير من ذلك بما أدركوا الجيل الاول وباشروا أحوالهم وشاهدوا من اعتزازهم وسعيهم الى
المجد ومراميمهم في المدافعة والحماية فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية وان ذهب منه مذهب ويكونون
على رجاء من مراجعة الاحوال التي كانت للجيل الاول أو على ظن من وجودها فيهم وأما
الجيل الثالث فينسبون عهد البداوة والحشونة كأن لم تكن ويفقدون حلاوة العز والعصية بما هم
فيه من ملكة القهر ويباغ فيهم الترف غايته بما تنكوه من النعيم وغضارة العيش فيصرون عيالا
على الدولة ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم وتسقط العصية بالجملة وينسبون
الحماية والمدافعة والمطالبة ويلبسون على الناس في الشارة والزي وركوب الجيل وحسن الثقافة
يموهون بها وهم في الاكثر أجيال من النسوان على ظهورها فاذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا
مدافته فيحتاج صاحب الدولة حينئذ الى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة ويستكثر
بالموالي ويصطنع من يغني عن الدولة بعض الغناء حتي يتأذن الله بانقراضها فتذهب الدولة بما
حملت فهذه كما تراه ثلاثة أجيال فيها يكون هرم الدولة ومخلقها ولهذا كان انقراض الحسب
في الجيل الرابع كما مر في أن المجد والحسب انما هو في أربعة آباء وقد أتيناك فيه ببرهان طبيعي
كاف ظاهر مبني على ما مهدناه قبل من المقدمات فتأمله فلن تعدو وجه الحق ان كنت من
أهل الانصاف وهذه الاجيال الثلاثة عمرها مائة وعشرون سنة على مامر ولا تعدو الدول في
الغالب هذا العمر بتقريب قبله أو بعده الا ان عرض لها عرض آخر من فقدان المطالب فيكون
الهرم حاصلًا مستويا والمطالب لم يحضرها ولو قد جاء الطالب لما وجد مدافعا فاذا جاء أجيالهم
لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فهذا العمر للدولة بمثابة عمر الشخص من التزايد الى سن
الوقوف ثم الى سن الرجوع ولهذا يجري على السنة الناس في المشهور أن عمر الدولة مائة سنة
وهذا معناه فاعتبره واتخذ منه قانونا يصحح لك عدد الآباء في عمود النسب الذي تريده من
قبل معرفة السنين الماضية اذا كنت قد استرقت في عددهم وكانت السنين الماضية منذ أولهم
محصلة لديك فعد لكل مائة من السنين ثلاثة من الآباء فان نفدت على هذا القياس مع نفود
عددهم فهو صحيح وان نقصت عنه بجيل فقد غلط عددهم بزيادة واحد في عمود النسب وان
زادت بمثله فقد سقط واحد كذلك تأخذ عدد السنين من عددهم بزيادة واحد في عمود النسب
وان زادت بمثله فقد سقط واحد كذلك تأخذ عدد السنين من عددهم اذا كان محصلا لديك
فتأمله تجده في الغالب صحيحا والله يقدر الليل والنهار

من شدة البأس وتعود الاقتراس ولا يكون ذلك غالبا الا مع البداوة فطور الدولة من أوها بداوة ثم اذا حصل الملك تبعه الرفه واتساع الاحوال والحضارة انما هي تفتن في الترف واحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والابنية وسائر عوائد المنزل وأحواله فلكل واحد منها صنائع في استجادة والتأني فيه تختص به ويتلو بعضها بعضها وتكثر باختلاف ما تنزع اليه النفوس من الشهوات والملاذ والتنعيم باحوال الترف ومتلون به من العوائد فصار طور الحضارة في الملك يتبع طور البداوة ضرورة لضرورة تبعية الرفه للملك وأهل الدول أبدا يقلدون في طور الحضارة واحوالها للدول السابقة قبلهم فاحوالهم يشاهدون ومنهم في الغالب يأخذون ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح ومدكوا فارس والروم واستخدموا بناتهم وأبناءهم ولم يكونوا لذلك العهد في شئ من الحضارة فقد حكى انه قدم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رقعا وعثروا على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في عجينهم ما جأ وأمثال ذلك فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم واستعملوهم في مهمهم وحاجات منازلهم واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك والقومة عليه أفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن فيه مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتفنن في أحواله فبالغوا الغاية في ذلك وتطوروا بطور الحضارة والترف في الاحوال واستجادة المطاعم والمشارب والملابس والمباني والاسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والحرفي وكذلك أحوالهم في أيام المباحاة والولائم وليالى الاعراس فأثروا من ذلك وراء الغاية وانظر ما نقله المسعودي والطبري وغيرها في اعراس المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل وما بذل أبوها لحاشية المأمون حين وافاه في خطبتها الى داره بقم الصلح وركب اليها في السفين وما أنفق في املاكها وما نحلها المأمون وأنفق في عرسها تقف من ذلك على العجب فنه أن الحسن بن سهل شر يوم الاملاك في الصنيع الذي حضره حاشية المأمون فنثر على الطبقة الاولى منهم بنادق المسك ملثوة على الرقاع بالضياح والعقار مسوغة لمن حصلت في يده يقع لكل واحد منهم ما أداه اليه الاتفاق والبخت وفرق على الطبقة الثانية بدر الدنانير في كل بدرة عشرة آلاف وفرق على الطبقة الثالثة بدر الدراهم كذلك بعد أن أنفق في مقامة المأمون بداره أضعاف ذلك ومنه أن المأمون أعطاها في مهرها ليلة زفافها ألف حصاة من الياقوت وأوقد شموع العنبر في كل واحدة مائة من وهو رطل وثلثان (١) وبسط لها فرشاً كان الحصر منها منسوجا بالذهب مكللا بالدر والياقوت وقال المأمون

(١) قوله وثلثان الذي في كتب اللغة ان المن رطل وقيل رطلان ولم يوجد في النسخة

حين رآه قاتل الله أبانواس كانه أبصر هذا حيث يقول في صفة الحمر

كان صغري وكبرى من فواقها * حصاء در على أرض من الذهب

وأعد بدار الطبخ من الحطب لليلة الوليمة نقل مائة واربعين بغلام مدة عام كامل ثلاث مرات في كل يوم وفي الحطب لليتين وواقدا الجريد يصبون عليه الزيت وأوعز الى النواتية باحضار السفن لاجازة الخواص من الناس بدجلة من بغداد الى قصور الملك بمدينة المأمون لحضور الوليمة فكانت الحراقات (١) المدة لذلك ثلاثين ألفاً أجازوا الناس فيها أخريات نهارهم وكثير من هذا وأمثاله وكذلك عرس المأمون بن ذي النون بطليطلة نقله ابن بسام في كتاب الذخيرة وابن حبان بعد أن كانوا كلهم في الطور الاول من البداوة عاجزين عن ذلك جملة لفقدان أسبابه والفقائين على صنائعه في غضاظتهم وسداجتهم * يذكر أن الحجاج أولم في اختتان بض ولده فاستحضر بعض الدهاقين يسأله عن ولائم الفرس وقال اخبرني بأعظم صنيع شهدته فقال له نعم أيها الأمير شهدت بعض مرازية كسرى وقد صنع لأهل فارس صنيعاً أحضر فيه صحاف الذهب على أخونة النضة أربعاً على كل واحد وتحمله أربع وصائف ويجلس عليه أربعة من الناس فإذا طعموا أتبعوا أربعهم المائدة بصحائفها ووصائفها فقال الحجاج يا غلام انحر الحزير وأطعم اناس وعلم أنه لا يستقل بهذه الابهة وكذلك كان * ومن هذا الباب أعطية بني أمية وجوائزهم فالتما كان أكثرها الابل أخذوا بمذاهب العرب وبدأوتهم ثم كانت الجوائز في دولة بني العباس والعبيديين من بعدهم ما علمت من أحمال المال وتحت الثياب واعداد الخيل بمراكبها وهكذا كان شأن كتمانهم مع الاغلبة بافريقية وكذا بني طنج بمصر وشأن لمتونة مع ملوك الطوائف بالاندلس والموحدين كذلك وشأن زناتة مع الموحدين وهلم جرا تنتقل الحضارة من الدول السالفة الى الدول الخالفة فانتقلت حضارة الفرس للعرب بني أمية وبني العباس وانتقلت حضارة بني أمية بالاندلس الى ملوك المغرب من الموحدين وزناتة لهذا العهد وانتقلت حضارة بني العباس الى الديلم ثم الى الترك ثم الى السلجوقية ثم الى الترك المماليك بمصر والترك بالعراقين وعلى قدر عظم الدولة يكون شأنها في الحضارة اذ امور الحضارة من توابع الترف والترفع من توابع الثروة والنعمة والثروة والنعمة من توابع الملك ومقدار ما يستولى عليه أهل الدولة فعلى نسبة الملك يكون ذلك كله فاعتبره وتفهمه وتأمله تجده صحيحاً في العمران والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

١٦ (فصل في أن الترف يزيد الدولة في أولها قوة الى قوتها)

(١) الحراقات بالفتح جمع حراقة سفينة فيها مرامي نار يرمى بها العدو اه مختار

(١٨ - ابن خلدون)

والسبب في ذلك أن القبيل اذا حصل لهم الملك والترف كثر انتاسل والولدو العمومية فكثرت العصابة واستكثروا أيضاً من الموالى والصنائع وربيت أحيالهم في جو ذلك النعيم والرفه فازدادوا بهم عدداً الى عددهم وقوة الى قوتهم بسبب كثرة العصاب حيثئذ بكثرة العدد فاذا ذهب الحيل الاول والثاني وأخذت الدولة في الهرم لم تستقل أولئك الصنائع والموالى بأنفسهم في تأسيس الدولة وتمهيد ملكها لانهم ليس لهم من الامر شيء انما كانوا عيالاً على أهلها ومعونة لها فاذا ذهب الاصل لم يستقل الفرع بالرسوخ فيذهب ويتلاشى ولا تبقى الدولة على حالها من القوة واعتبر هذا بما وقع في الدولة العربية في الاسلام كان عدد العرب كما قلناه لعهد النبوة والخلافة مائة وخمسين ألفاً أو ما يقاربها من مضر وقحطان ولما بلغ الترف مبالغه في الدولة وتوفر نموهم بتوفر النعمة واستكثر الحلفاء من الموالى والصنائع بلغ ذلك العدد الى أضعافه يقال ان المعتصم نازل عمورية لما افتتحها في تسعمائة ألف ولا يبعد مثل هذا العدد أن يكون صحيحاً اذا اعتبرت حاميتهم في الثغور الدائية والقاصية شرقاً وغرباً الى الجند الحاملين سرير الملك والموالى والمصطنعين وقال المسعودي أحصى بنو العباس بن عبد المطلب خاصة أيام المأمون للاتفاق عليهم فكانوا ثلاثين ألفاً بين ذكران وإناث فانظر مبالغ هذا العدد لاقل من مائتي سنة واعلم أن سببه الرفه والنعيم الذي حصل للدولة وربي فيه أحيالهم والا فعدد العرب لاول الفتح لم يبلغ هذا ولا قريباً منه والله الخلاق العليم

١٧ (فصل في أطوار الدولة واختلاف أحوالها وخلق أهلها باختلاف الاطوار)

(اعلم) أن الدولة تنتقل في أطوار مختلفة وحالات متجددة ويكتسب القائمون بها في كل طور خلقاً من أحوال ذلك الطور لا يكون مثله في الطور الآخر لان الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال الذي هو فيه وحالات الدولة وأطوارها لا تعدو في الغالب خمسة أطوار* الطور الاول طور الظفر بالبغيه وغلب المدافع والممانع والاستيلاء على الملك وانتزاعه من أيدي الدولة السالفة قبلها فيكون صاحب الدولة في هذا الطور أسوة قومه في اكتساب المجد وجباية المال والمدافعة عن الحوزة والحماية لا ينفرد دونهم بشيء لان ذلك هو مقتضى العصبية التي وقع بها الغلب وهي لم تزل بعد بجهاجها* الطور الثاني طور الاستبداد على قومه والافتراء دونهم بالملك وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنياً باصطناع الرجال واتخاذ الموالى والصنائع والاستكثار من ذلك لجذع أنوف أهل عصبية وعشيرته المقاسمين له في نسبة الضاربين في الملك بمثل سهمه فهو يذافهم عن الامر ويصددهم عن موارده ويردهم على أعقابهم أن يخلصوا اليه حتي يقر الامر في نصابه ويفرد أهل بيته بما يبي من مجد

فيعانى من مدافعتهم ومغالبتهم مثل ما عانا الاولون في طلب الامر واشد لان الاولين دافعوا
 الأجنب فكان ظهورهم على مدافعتهم اهل العصية باجمهم وهذا يدافع الاقارب لا يظاھر
 على مدافعتهم الا الاقل من الابعاد فيركب صعبا من الامر * الطور الثالث طور الفراغ والدعة
 لتحصيل ثمرات الملك مما تنزع طباع البشر اليه من تحصيل المال وتخليد الآثار وبعد الصيت
 فيستفرغ وسعه في الحياة وضبط الدخل والخرج واحصاء النفقات والقصد فيها وتشديد
 المباني الحافلة والمصانع العظيمة والاضمار المتسعة والاهياكل المرتفعة واجازة الوفود من أشرف
 الامم ووجوه القبائل وبث المعروف في أهله هذا مع التوسعة على صنائعه وحاشيته في
 أحوالهم بالمال والجاه واعتراض جنوده وادرار أرزاقهم وانصافهم في أعطياتهم لكل هلال
 حتى يظهر أثر ذلك عليهم في ملابسهم وشكيتهم وشاراتهم يوم الزينة فيباهي بهم الدول المسالمة
 ويرهب الدول المحاربة وهذا الطور آخر أطوار الاستبداد من أصحاب الدولة لانهم في هذه
 الاطوار كلها مستقلون بأرائهم بانون لعزمهم موضحون الطرق لمن بعدهم * الطور الرابع
 طور القنوع والمسالمة ويكون صاحب الدولة في هذا قانعا بما بنى أولوه سلماً لا نظاره من
 الملوك وأقتاله مقلداً لماضين من سلفه فيتبع آثارهم حذو النعل بالنعل ويقتفي طرقهم بأحسن
 مناهج الاقتداء ويرى أن في الخروج عن تقليدهم فساد أمره وانهم أبصر بما بنوا من مجده
 * الطور الخامس طور الاسراف والتبذير ويكون صاحب الدولة في هذا الطور متلفاً لما جمع
 أولوه في سبيل الشهوات والملاذ والكرم على بطانته وفي مجالسه واصطناع أخذان السوء
 وخضراء الدمن وتقليدهم عظائم الامور التي لا يستقلون بحماها ولا يعرفون ما يأتون ويدرون
 منها مستفسداً لكبار الاولياء من قومه وصنائع سلفه حتى يضطغفوا عليه ويتخاذلوا عن نصرته
 مضيعاً من جنده بما أنفق من أعطياتهم في شهواته وحجب عنهم وجه مباشرته وتفقدته فيكون
 مخرباً لما كان سلفه يؤسسون وهادماً لما كانوا يبنون وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة
 الهرم ويستولى عليها المرض المزمن الذي لا تكاد تخاص منه ولا يكون لها معه براء الى أن
 تنقرض كما نينه في الاحوال التي نسردها والله خير الوارثين

١٨ فصل في أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها

والسبب في ذلك أن الآثار انما تحدث عن القوة التي بها كانت أولا وعلى قدرها يكون الاثر
 فمن ذلك مباني الدولة وهياكلها العظيمة فانما تكون على نسبة قوة الدولة في أصلها لانها لاتتم
 الا بكثرة الفعلة واجتماع الايدي على العمل والتعاون فيه فاذا كانت الدولة عظيمة فسيحة
 الجوانب كثيرة الممالك والرعيا كان الفعلة كثيرين جداً وحشروا من آفاق الدولة وأقطارها

قم العمل على أعظم هياكله ألا ترى الى مصانع قوم عاد وثمود وما قصه القرآن عنهما وانظر
 بالمشاهدة ايوان كسري وما اقتدر فيه الفرس حتي انه عزم الرشيد على هدمه وتخريبه فتكاد
 عنه وشرع فيه ثم أدركه العجز وقصة استشارته ليحيى بن خالد في شأنه معروفة فانظر كيف
 تقتدر دولة على بناء لا تستطيع أخرى على هدمه مع بون مابين الهدم والبناء في السهولة
 تعرف من ذلك بون مابين الدولتين وانظر الى بلاط الوليد بدمشق وجامع بني أمية بقرطبة
 والقنطرة التي على واديها وكذلك بناء الحنايا لجلب الماء الى قرطاجنة في القناة الراكبة عليها
 وآثار شرشال بالمغرب والاهرام بمصر وكثير من هذه الآثار الماثلة للعيان تعلم منه اختلاف
 الدول في القوة والضعف واعلم أن تلك الافعال للاقدمين انما كانت بالهندام واجتماع القبلة
 وكثرة الايدي عليها فبذلك شيدت تلك الهياكل والمصانع ولا تتوهم ماتوهم العامة أن ذلك
 لعظم أجسام الاقدمين عن أجسامنا في أطرافها وأقطارها فليس بين البشر في ذلك كبير بون
 كما تجد بين الهياكل والآثار ولند ولع القصاص بذلك وتغالوا فيه وسطروا عن عاد وثمود
 والعمالة في ذلك أخبارا عريقة في الكذب من أغربها ما يحكون عن عوج (١) بن عناق
 رجل من العمالة الذين قاتلهم بنو اسرائيل في الشام زعموا أنه كان لطوله يتناول السمك من
 البحر ويشويه الى الشمس ويزيدون الى جهلهم باحوال البشر الجهل باحوال الكواكب لما
 اعتقدوا أن للشمس حرارة وأنها شديدة فيما قرب منها ولا يعلمون أن الحر هو الضوء وان الضوء
 فيما قرب من الارض أكثر لانعكاس الاشعة من سطح الارض بمقابلة الاضواء فتضاعف الحرارة
 هنا لاجل ذلك واذا تجاوزت مطارج الاشعة المنعكسة فلا حر هناك بل يكون فيه البرد حيث
 مجاري السحاب وأن الشمس في نفسها لا حارة ولا باردة وانما هو جسم بسيط مضي لامزاج
 له وكذلك عوج بن عناق هو فيما ذكره من العمالة أو من الكنعانيين الذين كانوا فريسة
 بني اسرائيل عند فتحهم الشام وأطوال بني اسرائيل وجسمانهم لذلك العهد قريبة من هياكلنا
 يشهد لذلك أبواب بيت المقدس فانها وان خربت وجددت لم تزل المحافظة على أشكالها ومقادير
 أبوابها وكيف يكون التفاوت بين عوج وبين أهل عصره بهذا المقدار وانما ماثار غلظتهم
 في هذا أنهم استعظموا آثار الامم ولم يفهموا حال الدول في الاجتماع والتعاون وما يحصل
 بذلك وبالهندام من الآثار العظيمة فصر فوه الى قوة الاجسام وشدها بعظم هياكلها وليس
 الامر كذلك وقد زعم المسعودي ونقله عن الفلاسفة مزعما لامستند له الا التحكم وهو أن

(١) قوله ابن عناق الذي في القاموس في باب الجيم عوج بن عوق بالواو والمشهور على

الطبيعة التي هي جيلة للأجسام لما برأ الله الخلق كانت في تمام الكثرة ونهاية القوة والكمال وكانت الأعمار أطول والأجسام أقوى لكمال تلك الطبيعة فان طرأ الموت انما هو بالتحلل القوي الطبيعية فاذا كانت قوية كانت الأعمار أزيد فكان العالم في أولية نشأته تام الأعمار كامل الأجسام ثم لم يزل يتناقص لتقصان المادة الى أن بلغ الى هذه الحال التي هو عليها ثم لا يزال يتناقص الى وقت الانحلال وانقراض العالم وهذا رأى لا وجه له الا التحكم كما تراه وليس له علة طبيعية ولا سبب برهاني ونحن نشاهد مساكن الاولين وأبوابهم ودارهم فيما أحدثوه من البنيان والهيكل والديار والمساكن كديار ثمود المنحوتة في الصلد من الصخر بيونا صناراً وأبوابها ضيقة وقد أشار صلى الله عليه وسلم الى أنها ديارهم ونهي عن استعمال مياههم وطرح ما عجن به وأهرق وقال لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم الا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم وكذلك أرض عاد ومصر والشام وسائر بقاع الأرض شرقاً وغرباً والحق ما قرئناه ومن آثار الدول أيضاً حالها في الاعراس والولائم كما ذكرناه في ولية بوران وصنيع الحجاج وابن ذي النون وقد مر ذلك كله ومن آثارها أيضاً عطايا الدول وأنها تكون على نسبتها ويظهر ذلك فيها ولو أشرفت على الهرم فإن الهرم التي لاهل الدولة تكون على نسبة قوة ملكهم وغلبهم للناس والهرم لا تزال مصاحبة لهم الى انقراض الدولة واعتبر ذلك بجواز بن ذي وزن لو قد قرئ كيف أعطاهم من أرطال الذهب والفضة والاعبد والوصائف عشرا عشرا ومن كرش العنبر واحدة وأضعف ذلك بعشرة أمثاله لعبد المطلب وانما ملكه يومئذ قرارة اليمن خاصة تحت استبداد فارس وانما حمله على ذلك همه نفسه بما كان لقومه التابعة من الملك في الأرض والغلب على الأمم في العراقيين والهند والمغرب وكان الصنهاجيون بإفريقية أيضاً اذا أجازوا الوفد من أمراء زناتة الوافدين عليهم فانما يعطونهم المال أحمالاً والكساء نحو ثمان مائة والحملان جنائب عديدة وفي تاريخ ابن الرقيق من ذلك أخبار كثيرة وكذلك كان عطاء البرامكة وجوائزهم وفققاتهم وكانوا اذا كسبوا معدما فانما هو الولاية والنعمة آخر الدهر لا العطاء الذي يستفده يوم أو بعض يوم وأخبارهم في ذلك كثيرة مسطورة وهي كلها على نسبة الدول جارية هذا جوهر الصقلي الكاتب قائد جيش العبيديين لما ارتحل الى فتح مصر استعد من القيروان بألف حمل من المال ولا تنهى اليوم دولة الى مثل هذا وكذلك وجد بخط أحمد بن محمد بن عبد الحميد عمل بما يحمل الى بيت المال ببغداد أيام المأمون من جميع التواحي نقلته من جراب الدولة (غلات السواد) سبع وعشرون ألف ألف درهم مئتين وثمانمائة ألف درهم ومن الحلل التجارية مائتا حلة ومن طين الحتم مائتان وأربعون رطلا (كنشكر) أحد عشر ألف ألف درهم مئتين وستمائة ألف درهم (كوردجلة) عشرون ألف ألف درهم

وثمانية دراهم (حلوان) أربعة آلاف ألف درهم مرتين وثمانمائة ألف درهم (الاهواز)
 خمسة وعشرون ألف درهم مرة ومن السكر ثلاثون ألف رطل (فارس) سبعة وعشرون
 ألف ألف درهم ومن ماء الورد ثلاثون ألف قارورة ومن الزيت الاسود عشرون ألف رطل
 (كرمان) أربعة آلاف ألف درهم مرتين ومائتا ألف درهم ومن المتاع اليماني خمسمائة ثوب
 ومن التمر عشرون ألف رطل (مكران) أربعمائة ألف درهم مرة (السند وما يليه)
 أحد عشر ألف ألف درهم مرتين وخمسمائة ألف درهم ومن العود الهندي مائة وخمسون
 رطلا (سيجستان) أربعة آلاف ألف درهم مرتين ومن الثياب المعينة ثلثمائة ثوب ومن الفانيذ
 عشرون رطلا (خراسان) ثمانية وعشرون ألف ألف درهم مرتين ومن نقر الفضة ألفانقرة
 ومن البراذين أربعة آلاف ومن الرقيق ألف رأس. ومن المتاع عشرون ألف ثوب ومن
 الاهلياج ثلاثون ألف رطل (جرجان) اثنا عشر ألف ألف درهم مرتين ومن الابرسم
 ألف شقة (قومس) ألف ألف درهم مرتين وخمسمائة ألف من نقر الفضة (طبرستان والروبان
 ونهاوند) ستة آلاف ألف درهم مرتين وثلاثمائة ألف ومن الفرش الطبري ستمائة قطعة ومن
 الاكسية مائتان ومن الثياب خمسمائة ثوب ومن المناديل ثمانمائة ومن الجامات ثمانمائة (الري)
 اثنا عشر ألف ألف درهم مرتين ومن العسل عشرون ألف رطل (همدان) أحد عشر
 ألف ألف درهم مرتين وثلاثمائة ألف ومن رب الرمانين ألف رطل ومن العسل اثنا عشر ألف رطل
 (مابين البصرة والكوفة) عشرة آلاف ألف درهم مرتين وسبعمائة ألف درهم (مابيدان
 والدينار) (١) أربعة آلاف ألف درهم مرتين (شهرزور) ستة آلاف ألف درهم مرتين
 وسبعمائة ألف درهم (الموصل وما اليها) أربعة وعشرون ألف ألف درهم مرتين ومن العسل
 الابيض عشرون ألف ألف رطل (اذربيجان) أربعة آلاف ألف درهم مرتين (الجزيرة
 وما يليها من أعمال الفرات) أربعة وثلاثون ألف ألف درهم مرتين ومن الرقيق ألف رأس
 ومن العسل اثنا عشر ألف زق (٢) ومن البزاة عشرة ومن الاكسية عشرون (أرمينية)
 ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين ومن القسط المحفور عشرون ومن الزقم خمسمائة وثلاثون
 رطلا ومن المساجح السورماهي عشرة آلاف رطل ومن الصونج عشرة آلاف رطل ومن البغال
 مائتان ومن المهرة ثلاثون (قنسرين) أربعمائة ألف دينار ومن الزيت ألف حمل (دمشق)
 ربعمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار (الاردن) سبعة وتسعون ألف دينار (فلسطين)

(١) قوله والدينار الظاهر انها الدينور وفي الترجمة التركية ما سندان وربان اه

(٢) قوله ومن البزاة الخ في التركية ومن السكر عشرة صناديق اه

ثلثمائة ألف دينار وعشرة آلاف دينار ومن الزيت ثلثمائة ألف رطل (مصر) ألف ألف دينار وتسعمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار (برقة) ألف ألف درهم مرتين (أفريقية) ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين ومن البسط مائة وعشرون (اليمن) ثلثمائة ألف دينار وسبعون ألف دينار سوي المتاع (الحجاز) ثلثمائة ألف دينار انتهى وأما الاندلس فالذي ذكره الثقات من مؤرخيها أن عبدالرحمن الناصر خلف في بيوت أمواله خمسة آلاف ألف دينار مكررة ثلاث مرات يكون جاتها بالقناطير خمسمائة ألف قنطار* ورأيت في بعض تواريخ الرشيد أن المحمول الى بيت المال في أيامه سبعة آلاف قنطار وخمسمائة قنطار في كل سنة فاعتبر ذلك في نسب الدول بعضها من بعض ولا تنكرن ما ليس بمعهود عندك ولا في عصرك شيء من أمثاله فتضيق حوصلتك عند ملتقط الممكنات فكثير من الخواص اذا سمعوا أمثال هذه الاخبار عن الدول السالفة بادربالانكار وليس ذلك من الصواب فان أحوال الوجود والعمران متفاوتة ومن أدرك منها رتبة سفلى أو وسطى فلا يحرص المدارك كلها فيها ونحن اذا اعتبرنا ما ينقل لنا عن دولة بني العباس وبني أمية والعبيدين وناسبنا الصحيح من ذلك والذي لاشك فيه بالذي نشاهده من هذه الدول التي هي أقل بالنسبة اليها وجدنا بينها بونا وهو لما بينها من التفاوت في أصل قوتها وعمران ممالكها فالأثار كلها جارية على نسبة الاصل في القوة كما قدمناه ولا يسعنا انكار ذلك عنها اذ كثير من هذه الاحوال في غاية الشهرة والوضوح بل فيها ما يلحق بالمستفيض والمتواتر وفيها المعائن والمشاهد من آثار البناء وغيره فنخذ من الاحوال المتقولة مراتب الدول في قوتها أو ضعفها وضخامتها أو صغرها واعتبر ذلك بما نقصه عليك من هذه الحكاية المستطرفة وذلك أنه ورد بالمغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة (١) كان رحل منذ عشرين سنة قبلها الى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند وهو السلطان محمد شاه واتصل بملكها لذلك العهد وهو فيروزجوه وكان له منه مكان واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله ثم انقلب الى المغرب واتصل بالسلطان أبي عنان وكان يحدث عن شأن رحلته ومارأي من العجائب بممالك الارض وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ويأتي من أحواله بما يستغربه السامعون مثل أن ملك الهند اذا خرج الى السفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة أشهر تدفع لهم من عطائه وأنه

(١) كان ابتداء رحلة ابن بطوطة سنة ٧٢٥ وانهاؤها سنة ٧٥٤ وهي عجبية ومختصرها

عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة الى صحراء البلد
ويطوفون به وينصب أمامه في ذلك الحفل منجنيقات على الظهر ترمى بها شكاكر الدراهم
والدنانير على الناس الى أن يدخل إيوانه وأمثال هذه الحكايات فتناجي الناس بتكذيبه
* ولقيت أيا مئذ وزير السلطان فارس بن وردار البعيد الصيت ففاوضته في هذا الشأن وأريته
انكار اخبار ذلك الرجل لما استفاض في الناس من تكذيبه فقال لي الوزير فارس اياك أن
تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما أنك لم تره فتكون كابن الوزير الناشئ في السجن
وذلك أن وزيرا اعتقله ساطانه ومكث في السجن سنين ربي فيها ابنه في ذلك الحبس فلما
أدرك وعقل سأل عن اللحم الذي كان يتغذي به فقال له أبوه هذا لحم الغنم فقال وما الغنم فيصفها
له أبوه بشياتها ونعوتها فيقول يا أبت تراها مثل الفأر فينكر عليه ويقول أين الغنم من الفأر
وكذا في لحم الابل والبقر اذ لم يعاين في محبسه من الحيوانات الا الفأر فيحبسها كلها أبناء
جنس الفأر وهذا كثيرا ما يعترى الناس في الاخبار كما يعترهم الوسواس في الزيادة عند قصد
الاغراب كما قدمناه أول الكتاب فليرجع الانسان الى أصوله ولكن مهيمناً على نفسه ومميزاً
بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته فما دخل في نطاق الامكان قبله وما
خرج عنه رفضه وليس مرادنا الامكان العقلي المطلق فان نطاقه أوسع شيء فلا يفرض حداً
بين الواقعات وانما مرادنا الامكان بحسب المادة التي للشيء فاننا اذا نظرنا اصل الشيء وجنسه
وصنفه ومقدار عظمه وقوته أجرينا الحكم من نسبة ذلك على أحواله وحكمنا بالامتناع على
ما خرج من نطاقه وقل رب زدني علماً وانت أرحم الراحمين والله سبحانه وتعالى أعلم

١٩ ﴿ فصل في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبته بالموالى والمصطنعين ﴾

(اعلم) أن صاحب الدولة انما يتم أمره كما قلناه بقومه فهم عصابته وظهراؤه على شأنه وبهم
يقارع الخوارج على دولته ومنهم من يقلد أعمال مملكته ووزارة دولته وجباية أمواله لانهم
أعوانه على الغلب وشركاؤه في الامر ومساهموه في سائر مهماته هذا مادام الطور الاول للدولة
كما قلناه فاذا جاء الطور الثاني وظاهر الاستبداد عنهم والافراد بالمجد ودافعهم عنه بالراح
صاروا في حقيقة الامر من بعض أعدائه واحتاج في مدافعهم عن الامر وصدهم عن مشاركة
الى أولياء آخرين من غير جلدتهم يستظهر بهم عليهم ويتولاهم دونهم فيكونون أقرب اليه من
سائرهم وأخص به قرباً واصطناعاً وأولي ايثاراً وجاهاً لما أنهم يستميون دونه في مدافعة قومه
عن الامر الذي كان لهم والرتبة التي ألفوها في مشاركتهم فيستخلصهم صاحب الدولة حينئذ
وينحصرهم بمنزلة التكرمة والايثار ويقسم لهم مثل مال الكثير من قومه ويقلدتهم جليل الاعمال

والولايات من الوزارة والقيادة والحماية وما يختص به لنفسه وتكون خالصة له دون قومه من ألقاب المملكة لأنهم حينئذ أولياؤه الأقربون ونصحاؤه المخلصون وذلك حينئذ مؤذن باهتضام الدولة وعلامة على المرض المزمن فيها لفساد العصية التي كان بناء الغلب عليها ومرض قلوب أهل الدولة حينئذ من الاتهام وعداوة السلطان فيضطغنون عليه ويترصون به الدوائر ويعود وبال ذلك على الدولة ولا يطمع في برئها من هذا الداء لأن ماضى يتأ كد في الاعقاب الى أن يذهب رسمها واعتبر ذلك في دولة بني أمية كيف كانوا إنما يستظهرون في حروبهم وولاية أعمالهم رجال العرب مثل عمرو بن سعد بن أبي وقاص وعبيد الله بن زياد بن أبي سفيان والحجاج بن يوسف والمهلب بن أبي صفرة و خالد بن عبد الله القسري وابن هيرة وموسى بن نصير وبلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري ونصر بن سيار وأمثالهم من رجالات العرب وكذا صدر من دولة بني العباس كان الاستظهار فيها أيضاً بـرجالات العرب فلما صارت الدولة للانفراد بالمجد وكبح العرب عن التناول للولايات صارت الوزارة للعجم والصنائع من البرامكة وبني سهل بن نوح وبني طاهر ثم بني بويه وموالي الترك مثل بغا ووصيف وأنامش وباكنك وابن طولون وأبنائهم وغير هؤلاء من موالي العجم فتكون الدولة لغير من مهدها والعز لغير من اجتلبه سنة الله في عبادته والله تعالى أعلم

(فصل في أحوال الموالي والمصطنعين في الدول)

٢٠

اعلم أن المصطنعين في الدول يتفاوتون في الالتحام بصاحب الدولة بتفاوت قديمهم وجديهم في الالتحام بصاحبها والسبب في ذلك أن المقصود في العصية من المدافعة والمغالبة إنما يتم بالنسب لاجل التناصر في ذوي الارحام والقربى والتخاذل في الاجانب والبعداء كما قدمناه والولاية والمخالطة بالرق أو بالخلف تنزل منزلة ذلك لان أمر النسب وان كان طبيعياً فانما هو وهمى والمعنى الذي كان به الالتحام إنما هو العشرة والمدافعة وطول الممارسة والصحة بالمرى والرضاع وسائر أحوال الموت والحياة وإذا حصل الالتحام بذلك جاءت الترة والتناصر وهذا مشاهد بين الناس واعتبر مثله في الاصطناع فانه يحدث بين المصطنع ومن اصطعنه نسبة خاصة من الوصلة تنزل هذه المنزلة وتؤكد اللحمة وان لم يكن نسب فثمرات النسب موجودة فاذا كانت هذه الولاية بين القليل وبين أوليائهم قبل حصول الملك لهم كانت عروقتها أوشج وعقائدها أصح ونسبها أصرح لوجهين* أحدهما أنهم قبل الملك أسوة في حالهم فلا يتميز النسب عن الولاية الا عند الأقل منهم فيتزولون منهم منزلة ذوي قرابتهم وأهل أرحامهم وإذا اصطنعوهم بعد الملك كانت مرتبة الملك مميزة للسيد عن المولى ولاهل القرابة عن أهل الولاية والاصطناع

لما تقتضيه أحوال الرياسة والملك من تميز الرتب وتفاوتها فتميز حالتهم ويتنزلون منزلة الاجانب ويكون الالتحام بينهم أضعف والتناصر لذلك أبعد وذلك أنقص من الاصطناع قبل الملك *الوجه الثاني أن الاصطناع قبل الملك يبعد عهده عن أهل الدولة بطول الزمان ويخفى شأن تلك اللحمة ويظن بها في الأكثر النسب فيقوى حال العصية وأما بعد الملك فيقرب العهد ويستوي في معرفته الأكثر فتبين اللحمة وتتميز عن النسب فتضعف العصية بالنسبة الى الولاية التي كانت قبل الدولة واعتبر ذلك في الدول والرياسات تجده فكل من كان اصطناعه قبل حصول الرياسة والملك لمصطنعه أشد التحاماً به وأقرب قرابة اليه ويتنزل منه منزلة أبنائه واخوانه وذوي رحمه ومن كان اصطناعه بعد حصول الملك والرياسة لمصطنعه لا يكون له من القرابة واللحمة ما للاولين وهذا مشاهد بالعيان حتى ان الدولة في آخر عمرها ترجع الى استعمال الاجانب واصطناعهم ولا يني لهم مجد كبنائه المصطنعون قبل الدولة لقرب العهد حينئذ بأوليتهم ومشاركة الدولة على الانقراض فيكونون منحطين في مهاوي الضعة وانما يحمل صاحب الدولة على اصطناعهم والعدول اليهم عن أوليائهم الاقدمين وصنائعها الاولين ما يترجمهم في أنفسهم من العزة على صاحب الدولة وقلة الخضوع له ونظرة بما ينظره به قبيله وأهل نسبه لتأكد اللحمة منذ العصور المتطاولة بالمربي والاتصال بأبائه وسلف قومه والانتظام مع كبراء أهل بيته فيحصل لهم بذلك دالة عليه واعتزازاً فينافرهم بسببها صاحب الدولة ويعدل عنهم الى استعمال سواهم ويكون عهد استخلاصهم واصطناعهم قريباً فلا يبلغون رتب المجد ويبقون على حالهم من الخارجية وهكذا شأن الدول في أواخرها وأكثر ما يطلق اسم الصنائع والاولياء على الاولين وأما هؤلاء المحدثون نخدم وأعوان والله ولى المؤمنين وهو على كل شيء وكيل

٢١ ﴿ فصل فيما يعرض في الدول من حجب السلطان والاستبداد عليه ﴾

إذا استقر الملك في نصاب معين ومنبت واحد من القبيل القاعين بالدولة وانفردوا به ودفموا سائر القبيل عنه وتداوله بنوهم واحداً بعد واحد بحسب الترشيح فرما حدث التغلب على المنصب من وزراءهم وحاشيتهم وسببه في الأكثر ولاية صبي صغير أو مضعف من أهل المنبت يترشح للولاية بعهد أبيه أو بترشيح ذويه وخوله ويؤنس منه العجز عن القيام بالملك فيقوم به كافلة من وزراء أبيه وحاشيته ومواليه أو قبيله ويوري بحفظ أمره عليه حتى يؤنس منه الاستبداد ويجعل ذلك ذريعة للملك فيحجب الصبي عن الناس ويعوده اللذات التي يدعوها إليها ترف أحواله ويسيمه في مراعيها متى أمكنه وينسيه النظر في الامور السلطانية حتى يستبد عليه وهو بما عوده يعتقد أن حظ السلطان من الملك إنما هو جلوس السرير واعطاء الصفقة وخطاب

التحويل والقعود مع النساء خلف الحجاب وان الحل والربط والامر والنهي ومباشرة الاحوال الملوكة وتقدها من النظر في الحيش والمال والشعور انما هو للوزير ويسلم له في ذلك الى أن تستحكم له صبغة الرياسة والاستبداد ويحول الملك اليه ويؤثر به عشيرته وأبناءه من بعده كما وقع لبني بويه والترك وكافور الاخشيدي وغيرهم بالمشرق وللمنصور بن أبي عامر بالاندلس وقديتقطن ذلك المحجور المغاب لشأنه فيحاول على الخروج من ربة الحجر والاستبداد ويرجع الملك الى نصابه ويضرب على أيدي المتغلبين عليه اما بقتل أو برفع عن الرتبة فقط الا أن ذلك في النادر الاقل لان الدولة اذا أخذت في تغلب الوزراء والاولياء استمر لها ذلك وقل أن تخرج عنه لان ذلك انما يوجد في الاكثر عن أحوال الترف ونشأة أبناء الملك منغمسين في نعيمه قد نسوا عهد الرجولة وألفوا أخلاق الدايات والآثار وربوا عليها فلا ينزعون الى رياسة ولا يعرفون استبدادا من تغلب انما همهم في القنوع بالأبهة والتفنن في اللذات وأنواع الترف وهذا التغلب يكون للموالى والمصطنعين عند استبداد عشير الملك على قومهم وانفرادهم به دونهم وهو عارض للدولة ضرورى كما قدمناه وهذان مرضان لابرء للدولة منهما الا في الاقل النادر والله يؤتي ملكه من يشاء وهو على كل شئ قدير

٢٢ * فصل في أن المتغلبين على الساطان لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك *

وذلك أن الملك والساطان حصل لاوليه مذأول الدولة بعصية قومه وعصيته التي استتبعتهم حتي استحكمت له ولقومه صبغة الملك والغلب وهي لم تنزل باقية وبها انحفظ رسم الدولة وبقاؤها وهذا التغلب وان كان صاحب عصية من قبيل الملك أو الموالى والصنائع فعصيته مندرجة في عصية أهل الملك وتابعة لها وليس له صبغة في الملك وهو لا يحاول في استبداده انتزاع الملك ظاهرا وانما يحاول انتزاع ثمراته من الامر والنهي والحل والعقد والابرار والنقض يومهم فيها أهل الدولة أنه متصرف عن سطاتنه منفذ في ذلك من وراء الحجاب لاحكامه فهو يجافي عن سمات الملك وشاراته وألقابه جهده وبعده نفسه عن التهمة بذلك وان حصل له الاستبداد لانه مستتر في استبداده ذلك بالحجاب الذي ضربه السلطان وأولوه على أنفسهم عن القليل منذ أول الدولة ومغالط عنه بالنيابة ولو تعرض لشيء من ذلك لنفسه (١) عليه أهل العصية وقيل الملك وحاولوا الاستئثار به دونه لانه لم تستحكم له في ذلك صبغة تحملهم على التسليم له

(١) قوله لنفسه بفتح اللام والنون وكسر الفاء يقال نفس عليه الشيء كفرح لم يره أهاله

والانقياد فيملك لأول وهلة وقد وقع مثل هذا لعبد الرحمن بن الناصر بن المنصور بن أبي عامر حين سما الى مشاركة هشام وأهل بيته في لقب الخلافة ولم يقنع بما قنع به أبوه وأخوه من الاستبداد بالحل والعقد والمراسم المتتابعة فطلب من هشام خليفته أن يعهد له بالخلافة فنفس ذلك عليه بنو مروان وسائر قریش وباعوا لابن عم الخليفة هشام محمد بن عبد الجبار بن الناصر وخرجوا عليهم وكان في ذلك خراب دولة العامريين وهلاك المؤيد خليفهم واستبدل منه سواه من أغياص الدولة الى آخرها واختلت مراسم ملكهم والله خير الوارثين

❦ فصل في حقيقة الملك وأصنافه ❦

٢٣

الملك منصب طبيعي للانسان لانا قد بينا أن البشر لا يمكن حياتهم ووجودهم الا باجتماعهم وتعاونهم على تحصيل قوتهم وضروراتهم واذا اجتمعوا دعت الضرورة الى المعاملة واقضاء الحاجات ومد كل واحد منهم يده الى حاجته يأخذها من صاحبه لما في الطبيعة الحيوانية من الظلم والعدوان بعضهم على بعض ويمانهه الآخر عنها بمقتضى الغضب والنفقة ومقتضى القوة البشرية في ذلك فيقع التنازع المفضي الى المقاتلة وهي تؤدي الى الهرج وسفك الدماء وازهاب النفوس المفضي ذلك الى انقطاع النوع وهو مما خضه الباري سبحانه بالحفاضة فاستبحل بقاؤهم فوضي دون حاكم يزع بعضهم عن بعض واحتاجوا من أجل ذلك الى الوازع وهو الحاكم عليهم وهو بمقتضى الطبيعة البشرية الملك القاهر المتحكم ولا بد في ذلك من العصية لما قدمناه من أن المطالبات كلها والمدافعات لا تتم الا بالعصية وهذا الملك كما تراه منصب شريف تتوجه نحوه المطالبات ويحتاج الى المدافعات ولا يتم شيء من ذلك الا بالعصيات كما مر والعصيات متفاوتة وكل عصية فلها يحكم وتغلب على من يليها من قومها وعشيرها وليس الملك لكل عصية وانما الملك على الحقيقة لمن يستعبد الرعية ويحجي الاموال ويبعث البعوث ويحمي الثغور ولا تكون فوق يده يد قاهرة وهذا معنى الملك وحقيقته في المشهور فمن قصرت به عصيته عن بعضها مثل حماية الثغور أو جباية الاموال أو بعث البعوث فهو ملك ناقص لم تتم حقيقته كواقع لكثير من ملوك البربر في دولة الاغلبة بالقيروان وملوك العجم صدر الدولة العباسية ومن قصرت به عصيته أيضاً عن الاستعلاء على جميع العصبيات والضرب على سائر الايدي وكان فوقه حكم غيره فهو أيضاً ملك ناقص لم تتم حقيقته وهؤلاء مثل أمراء النواحي ورؤساء الجهات الذين مجتمعهم دولة واحدة وكثيراً ما يوجد هذا في الدولة المتسعة النطاق أعني توجد ملوك على قومهم في النواحي القاصية يدينون بطاعة الدولة التي جمعهم مثل صنهاجة مع العبيدين وزناتة مع الامويين تارة والعبيدين تارة أخرى ومثل ملوك العجم في

دولة بني العباس ومثل أمراء البربر وملوكهم مع الفرنجة قبل الاسلام ومثل ملوك الطوائف من الفرس مع الاسكندر وقومه اليونانيين وكثير من هؤلاء فاعتبره تجده والله القاهر فوق عباده

٢٤ (فصل في أن أرهاق الحد مضر بالملك ومفسد له في الاكثر)

اعلم أن مصلحة الرعية في السلطان ليست في ذاته وجسمه من حسن شكله أو ملاحه وجهه أو عظم جسمانه أو اتساع علمه أو جودة خطه أو ثقب ذهنه وإنما مصالحهم فيه من حيث اضافته اليهم فان الملك والسلطان من الامور الاضافية وهي نسبة بين منتسبين فحقيقة السلطان انه المالك للرعية القائم في أمورهم عليهم فالسلطان من له رعية والرعية من لها سلطان والصفة التي له من حيث اضافته لهم هي التي تسمى الملكية وهي كونه يملكهم فإذا كانت هذه الملكية وتوابعها من الجودة بمكان حصل المقصود من السلطان على أمم الوجوه فانها ان كانت جميلة صالحة كان ذلك مصلحة لهم وان كانت سيئة متعسفة كان ذلك ضررا عليهم واهلا كالمهم ويعود حسن الملكية الى الرفق فان الملك اذا كان قاهرا باطشا بالعقوبات متقبا عن عورات الناس وتعدد ذنوبهم شملهم الخوف والذل ولاذوا به بالكذب والمكر والحديعة فتخاقلوا بها وفسدت بصائرهم وأخلاقهم وربما خذلوه في مواطن الحروب والمدافعات ففسدت الحماية بفساد النيات وربما أجمعوا على قتله لذلك تفسد الدولة ويحرب السياج وان دام أمره عليهم وقهره فسدت العصية لماقلناه أولا وفسد السياج من أصله بالعجز عن الحماية واذا كان رفيقاهم متجاوزا عن سيئاتهم استناموا اليه ولاذوا به وأشربوا محبته واستأثروا بدونه في محاربة أعدائه فاستقام الامر من كل جانب وأما توابع حسن الملكية فهي النعمة عليهم والمدافعة عنهم فالمدافعة بها تتم حقيقة الملك وأما النعمة عليهم والاحسان لهم فمن جملة الرفق بهم والنظر لهم في معاشهم وهي أصل كبير في التجب الى الرعية واعلم أنه قلما تكون ملكة الرفق فيمن يكون يقظا شديدا لذكاء من الناس وأكثر ما يوجد الرفق في الغفل والمتغفل وأقل ما يكون في اليقظ أنه يكلف الرعية فوق طاقتهم لنفوذ نظره فيما وراء مداركهم وإطلاعه على عواقب الامور في مبادئها بأبعيته فيها يكون لذلك قال صلى الله عليه وسلم سيروا على سير أضعفكم ومن هذا الباب اشترط الشارع في الحاكم قلة الافراط في الذكاء ومأخذه من قصة زياد بن أبي سفيان لما عزره عمر عن العراق وقال لم عزلني يأمر المؤمنين العجز أم الحيانة فقال عمر لم أعزلك لواحدة منهما ولكني كرهت أن أحمل فضل عقلك على الناس فأخذ من هذا أن الحاكم لا يكون مفرط الذكاء والكيس مثل زياد بن أبي سفيان وعمر بن العاص لما يتبع ذلك من التعسف وسوء الملكية وحمل الوجود على ما ليس في طبعه كما يأتي في آخر هذا الكتاب والله خير المالكين وتقرر من هذا أن الكيس والذكاء

عيب في صاحب السياسة لانه افراط في الفكر كما أن البلادة افراط في الجود والطرفان مذمومان من كل صفة انسانية والمحمود هو التوسط كما في الكرم مع التبذير والبخل وكما في الشجاعة مع الهوج والحين وغير ذلك من الصفات الانسانية ولهذا يوصف الشديد الكيس بصفات الشيطان فيقال شيطان ومتشيطان وأمثال ذلك والله يخاف ما يشاء وهو العالم القدير

❖ فصل في معنى الخلافة والامامة ❖

٢٥

لما كانت حقيقة الملك انه الاجتماع الضروري للبشر ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما من آثار الغضب والحيوانية كانت أحكام صاحبه في الغالب جائرة على الحق مجحفة بمن تحت يده من الخلق في أحوال دنياهم لملهم اياهم في الغالب على ما ليس في طوتهم من أغراض وشهوات ويختلف ذلك باختلاف المقاصد من الخلف والسلف منهم فتعسر طاعته لذلك وتحجى العصية المفضية الى الهرج والقتل فوجب أن يرجع في ذلك الى قوانين سياسية مفروضة يسامها الكافة وينقادون الى أحكامها كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الأمم واذا خلت الدولة من مثل هذه السياسة لم يستتب أمرها ولا يتم استيلاؤها سنة الله في الذين خلوا من قبل فاذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكبر الدولة وبصرائها كانت سياسة عقلية واذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشعرها كانت سياسة دينية نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط فانها كلها عبث وباطل اذ غايتها الموت والفناء والله يقول أحسبتم أنما خلقناكم عبثاً فآلئكم المقصود بهم انما هو دينهم المفضي بهم الى السعادة في آخرتهم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الارض فجاءت الشرائع بمجملهم على ذلك في جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة حتى في الملك الذي هو طبيعي للاجتماع الانساني فأجبرته على منهاج الدين ليكون الكل محوطةً بنظر الشارع فما كان منه بمقتضى القهر والتغلب واهمال القوة القضائية في مرعاها فجور وعدوان ومذموم عنده كما هو مقتضى الحكمة السياسية وما كان منه بمقتضى السياسة وأحكامها فمذموم أيضاً لانه نظر بغير نور الله ومن لم يجعل الله نورا فانه من نور لان الشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم من أمور آخرتهم وأعمال البشر كما عأنة عليهم في معادهم من ملك أو غيره قال صلى الله عليه وسلم انما هي أعمالكم ترد عليكم وأحكام السياسة انما تطلع على مصالح الدنيا فقط يعامون ظاهراً من الحياة الدنيا ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الاحكام الشرعية في أحوال دنياهم وآخرتهم وكان هذا الحكم لاهل الشريعة وهم الانبياء ومن قام فيه مقامهم وهم الخلفاء فقدتين لك من ذلك معنى الخلافة وأن الملك الطبيعي هو حمل الكافة على مقتضى الغرض

والشهوة والسياسي هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة اليها اذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع الى اعتبارها بمصالح الآخرة فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به فافهم ذلك واعتبره فيما نورده عليك من بعد والله الحكيم العليم

٢٦ فصل في اختلاف الامة في حكم هذا المنصب وشروطه

واذ قد بينا حقيقة هذا المنصب وأنه نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا به تسمى خلافة وامامة والقائم به خليفة واماماً فأما تسميته إماماً فتشبيهاً بامام الصلاة في اتباعه والافتداء به ولهذا يقال الامامة الكبرى وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي في أمته فيقال خليفة باطلاق وخليفة رسول الله واختلف في تسميته خليفة الله فأجازوه بعضهم اقتباساً من الخلافة العامة التي للآدميين في قوله تعالى اني جاعل في الارض خليفة وقوله جعلكم خلائف في الارض ومنع الجمهور منه لان معنى الآية ليس عليه وقد نهى أبو بكر عنه لما دعي به وقال لست خليفة الله ولكني خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولان الاستخلاف انما هو في حق الغائب وأما الحاضر فلا ثم ان نصب الامام واجب قد عرف وجوبه في الشرع باجماع الصحابة والتابعين لان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند وفاته بادروا الى بيعة أبي بكر رضي الله عنه وتسليم النظر اليه في أمورهم وكذا في كل عصر من بعد ذلك ولم تترك الناس فوضى في عصر من الاعصار واستقر ذلك إجماعاً دالاً على وجوب نصب الامام وقد ذهب بعض الناس الى أن مدرك وجوب العقل وأن الاجماع الذي وقع انما هو قضاء بحكم العقل فيه قالوا وانما وجب بالعقل لضرورة الاجتماع للبشر واستحالة حياتهم ووجودهم منفردين ومن ضرورة الاجتماع التنازع لازدحام الاغراض فما لم يكن الحاكم الوازع أفضى ذلك الى الهرج المؤذن بهلاك البشر وانقطاعهم مع أن حفظ النوع من مقاصد الشرع الضرورية وهذا المعنى بعينه هو الذي لحظه الحكماء في وجوب اثبات في البشر وقد نهى على فساد وأن احدى مقدماته أن الوازع انما يكون بشر من الله تسلم له الكافة تسليم ايمان واعتقاد وهو غير مسلم لان الوازع قد يكون بسطوة الملك وقهر أهل الشوكة ولولم يكن شرع كافٍ أُم المجوس وغيرهم ممن ليس له كتاب أولم تبلغه الدعوة أو تقول يكفي في رفع التنازع معرفة كل واحد بتحريم الظلم عليه بحكم العقل فادعائهم أن ارتفاع التنازع انما يكون بوجود الشرع هناك ونصب الامام هنا غير صحيح بل كما يكون بنصب الامام يكون بوجود الرؤساء أهل الشوكة أو بامتناع الناس عن

التنازع والتظالم فلا ينهض دليلهم العقلي المبني على هذه المقدمة فدل على أن مدرك وجوبه
 إنما هو بالشرع وهو الاجماع الذي قدمناه وقد شذ بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا
 النصب رأساً بالعقل ولا بالشرع منهم الاصم من المعتزلة وبدض الخوارج وغيرهم والواجب
 عند هؤلاء إنما هو امضاء أحكام الشرع فاذا تواطأت الأمة على العدل وتنفيذ أحكام الله تعالى
 لم يحتاج الى إمام ولا يجب نصبه وهؤلاء محجوجون بالاجماع والذي حملهم على هذا المذهب
 إنما هو الفرار عن الملك ومذاهبه من الاستطالة والتغلب والاستمتاع بالدنيا لما رأوا الشريعة
 ممثلة بدم ذلك والنهي على أهله ومرغبة في رفضه واعلم أن الشرع لم يذم الملك لذاته ولا حظر
 القيام به وإنما ذم المفساد الناشئة عنه من التهر والظلم والتمتع بالذات ولا شك أن في هذه مفساد
 محظورة وهي من توابعه كما أنني على العدل والصفة وإقامة مراسم الدين والذب عنه وأوجب
 بازائها الثواب وهي كلها من توابع الملك فاذا اتما وقع الذم للملك على صفة وحال دون حال
 أخرى ولم يذمه لذاته ولا طلب تركه كما ذم الشهوة والغضب من المكلفين وليس مراده تركهما
 بالكلية لدعاية الضرورة اليها وإنما المراد تصريفهما على مقتضى الحق وقد كان لداود وسليمان
 صلوات الله وسلامه عليهما الملك الذي لم يكن لغيرهما وهما من أنبياء الله تعالى وأكرم الخلق
 عنده ثم نقول لهم ان هذا الفرار عن الملك بعدم وجوب هذا النصب لا يغنيكم شيئاً لأنكم
 موافقون على وجوب إقامة أحكام الشريعة وذلك لا يحصل الا بالعصية والشوكة والعصية
 متتنية بظبعها للملك فيحصل الملك وان لم ينصب إمام وهو عين ما فررت عنه واذا تقرر ان
 هذا النصب واجب باجماع فهو من فروض الكفاية وراجع الى اختيار أهل العقد والحل
 فيتمين عليهم نصبه ويجب على الخلق جميعاً طاعته لقوله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى
 الامر منكم * وأما شروط هذا المنصب فهي أربعة العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس
 والاعضاء مما يؤثر في الرأي والعمل واختلاف في شرط خامس وهو النسب القرشي * فأما اشتراط
 العلم فظاهر لانه انما يكون منفذا لأحكام الله تعالى اذا كان عالماً بها وما لم يعلمها لا يصح تقديمه
 لها ولا يكفي من العلم الآن ان يكون مجتهداً لان التقليد نقص والامامة تستدعي الكمال في الاوصاف
 والاحوال * وأما العدالة فلانه منصب ديني ينظر في سائر المناصب التي هي شرط فيها فكان
 أولى باشتراطها فيه ولا خلاف في انتفاء العدالة فيه بنفس الخوارج من ارتكاب المحظورات
 وأمثالها وفي انتفاء البدع الاعتقادية خلاف * وأما الكفاية فهو أن يكون جريئاً على إقامة
 الحدود واقحام الحروب بصيراً بها كفيلاً بحمل الناس عليها عارفاً بالعصية وأحوال الدهاء
 قوياً على معاناة السياسة ليصح له بذلك ما جعل اليه من حماية الدين وجهاد العدو وإقامة الاحكام
 وتدبير المصالح * وأما سلامة الحواس والاعضاء من النقص والمظلة كالجنون والعمى والصمم

والحرس وما يؤثر ففسده من الاعضاء في العمل كفقده الدين والرجلين والاثنتين فتشترط السلامة منها كلها لتأثير ذلك في تمام عمله وقيامه بما جعل اليه وان كان انما يشين في المنظر فقط كفقده احدى هذه الاعضاء فشرط السلامة منه شرط كمال ويلحق بفقده الاعضاء المنع من التصرف وهو ضربان ضرب يلحق بهذه في اشتراط السلامة منه شرط وجوب وهو القهر والعجز عن التصرف جملة بالاسر وشبهه وضرب لا يلحق بهذه وهو الحجر باستيلاء بعض أعوانه عليه من غير عصيان ولا مشاقة فينتقل النظر في حال هذا المستولى فان جرى على حكم الدين والعدل وحيد السياسة جاز اقراره والا استصر المسلمون بمن يقبض يده عن ذلك ويدفع علة حتى ينفذ فعل الخليفة* وأما النسب القرشي فلاجماع الصحابة يوم السقيفة على ذلك واحتجت قريش على الانصار لما هموا يومئذ ببيعة سعد بن عباد وقلوا منا أمير ومنكم أمير بقوله صلى الله عليه وسلم الأئمة من قريش وبأن النبي صلى الله عليه وسلم أوصانا بأن نحسن الى محسنكم وتجاوز عن مسيئكم ولو كانت الامارة فيكم لم تكن الوصية بكم فجاء الانصار ورجعوا عن قولهم منا أمير ومنكم أمير وعدلوا عما كانوا هموا به من بيعة سعد لذلك وثبت أيضا في الصحيح لا يزال هذا الامر في هذا الحي من قريش وأمثال هذه الادلة كثيرة الا أنه لما ضعف أمر قريش وتلاشت عصبيتهم بما نالهم من الترف والنعيم وبما أنفقهم الدولة في سائر أقطار الارض عجزوا بذلك عن حمل الخلافة وتغلبت عليهم الاعاجم وصار الحل والعقد لهم فاشتبه ذلك على كثير من المحققين حتي ذهبوا الى نفي اشتراط القرشية وعولوا على ظواهر في ذلك مثل قوله صلى الله عليه وسلم اسعوا وأطيعوا وان ولى عليكم عبد حبشي ذو زبينة وهذا لا تقوم به حجة في ذلك فانه خرج مخرج التمثيل والفرض للمبالغة في ايجاب السمع والطاعة ومثل قول عمر لو كان سالم مولى حذيفة حيا لولمته أولا دخلتني فيه الظنة وهو أيضا لا يفيد ذلك لما علمت أن مذهب الصحابي ليس بحجة وأيضا فولى القوم منهم وعصية الولاء حاصلة لسالم في قريش وهي الفائدة في اشتراط النسب ولما استعظم عمر أمر الخلافة ورأى شروطها كأنها مفقودة في ظنه عدل الى سالم لتوفر شروط الخلافة عنده فيه حتى من النسب المفيد للعصية كما نذكر ولم يبق الا صراحة النسب فراه غير محتاج اليه اذ الفائدة في النسب انما هي العصية وهي حاصلة من الولاء فكان ذلك حرصا من عمر رضى الله عنه على النظر للمسلمين وتقليد أمرهم لمن لا تلحقه فيه لأئمة ولا عليه فيه عهدة ومن القائلين بنفى اشتراط القرشية القاضي أبو بكر الباقلاني لما أدرك عليه عصية قريش من التلاشي والاضمحلال واستبداد ملوك العجم على الخلفاء فأسقط شرط القرشية وان كان موافقا لرأى الحوارج لما رأى عليه حال الخلفاء لعهدده وبقى الجمهور على القول باشتراطها وصحة الامامة

للقرشي ولو كان عاجزا عن القيام بأمور المسلمين ورد عليهم سقوط شرط الكفاية التي يقوي بها على أمره لانه اذا ذهبت الشوكة بذهاب العصية فقد ذهبت الكفاية واذا وقع الاختلال بشرط الكفاية اتطرق ذلك أيضا الى العلم والدين وسقط اعتبار شروط هذا المنصب وهو خلاف الاجماع ولنتكلم الآن في حكمة اشتراط النسب ليتحقق به الصواب في هذه المذاهب فنقول ان الاحكام الشرعية كلها لا بد لها من مقاصد وحكم تشتمل عليها وتشرع لاجلها ونحن اذا بحثنا عن الحكمة في اشتراط النسب القرشي ومقصد الشارع منه لم يقتصر فيه على التبرك بوصلة النبي صلى الله عليه وسلم كاهو في المشهور وان كانت تلك الوصلة موجودة والتبرك بها حاصل لكن التبرك ليس من المقاصد الشرعية كما علمت فلا بد إذن من المصلحة في اشتراط النسب وهي المقصودة من مشروعيتها واذا سبرنا وقسمنا لم نجد لها الا اعتبار العصية التي تكون بها الحماية والمطالبة ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب فتسكن اليه الملة وأهلها وينتظم جبل الالفة فيها وذلك أن قريشا كانوا عصبة مضر وأصلهم وأهل الغلب منهم وكان لهم على سائر مضر العزة بالكثرة والعصية والشرف فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك ويستكينون لغلبهم فلو جعل الامر في سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم وعدم انقيادهم ولا يقدر غيرهم من قبائل مضر أن يردهم عن الخلاف ولا يحملهم على الكرة فتفترق الجماعة وتختلف الكلمة والشارع يحذر من ذلك حريص على اتفاهم ورفع التنازع والشتات بينهم لتحصل الوحدة والعصية وتحسن الحماية بخلاف ما اذا كان الامر في قريش لانهم قادرون على سوق الناس بعصا الغلب الى ما يراود منهم فلا يخشى من أحد خلاف عليهم ولا فرقة لانهم كفيلون حينئذ بدفعها ومنع اناس منها فاشترط نسبهم القرشي في هذا المنصب وهم أهل العصبة القوية ليكون أبلغ في انتظام الملة واتفاق الكلمة واذا انتظمت كلمتهم انتظمت بانتظامها كلمة مضر أجمع فأدعن لهم سائر العرب وانقادت الامة سواهم الى أحكام الملة ووطئت جنودهم قاصية البلاد كما وقع في أيام الفتوح واستمر بعدها في الدولتين الى أن اضمحل أمر الخلافة وتلاشت عصية العرب ويعلم ما كان لقريش من الكثرة والتغلب على بطون مضر من مارس أخبار العرب وسيرهم وتفظن لذلك في أحوالهم وقد ذكر ذلك ابن اسحق في كتاب السير وغيره فاذا ثبت أن اشتراط القرشية انما هو لدفع التنازع بما كان لهم من العصية والغلب وعلمنا أن الشارع لا يخلص الاحكام بحيل ولا عصر ولا أمة علمنا أن ذلك انما هو من الكفاية فرددناه اليها وطردنا العلة المشتملة على المقصود من القرشية وهي وجود العصية فاشترطنا في القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولى عصية قوية غالبية على من معها لعصرها ليستتبعوا من سواهم وتجتمع الكلمة على

حسن الحماية ولا يعلم ذلك في الاقطار والآفاق كما كان في القرشية اذ الدعوة الاسلامية التي كانت لهم كانت عامة وعصبية العرب كانت وافية بها فغلبوا سائر الامم واما يخص لهذا العهد كل قطر بمن تكون له فيه العصبية الغالبة واذا نظرت سر الله في الخلافة لم تعد هذا لانه سبحانه انما جعل الخليفة نائباً عنه في القيام بامور عبادته ليحماهم على مصالحهم ويردهم عن مضارهم وهو مخاطب بذلك ولا يخاطب بالامر الا من له قدرة عليه ألا ترى ما ذكره الامام ابن الخطيب (١) في شأن النساء وأنهن في كثير من الاحكام الشرعية جعلن تبعاً للرجال ولم يدخلن في الخطاب بالوضع واما دخان عنده بالقياس وذلك لما لم يكن لهن من الامر شيء وكان الرجال قوامين عليهن اللهم الا في العبادات التي كل أحد فيها قائم على نفسه فخطابهن فيها بالوضع بالقياس ثم ان الوجود شاهد بذلك فانه لا يقوم بأمر أمة أو حيل الا من غلب عليهم وقل ان يكون الامر الشرعي مخالفاً للامر الوجودي والله تعالى أعلم

٢٧ فصل في مذاهب الشيعة في حكم الامامة

(اعلم) أن الشيعة لغة هم الصاحب والاتباع ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على أتباع علي وبنه رضي الله عنهم ومذهبهم جميعاً متفقين عليه أن الامامة ليست من المصالح العامة التي تفوض الى نظر الامة ويتعين القائم بها بتعيينهم بل هي ركن الدين وقاعدة الاسلام ولا يجوز لني اغفاله ولا تفويضه الى الامة بل يجب عليه تعيين الامام لهم ويكون معصوماً من الكبار والصغار وأن علياً رضي الله عنه هو الذي عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص يتقونها ويؤثرونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها جاذبة السنة ولا نقلة الشريعة بل أكثرها موضوع أو مطعون في طريقه أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة وتنقسم هذه النصوص عندهم الى حلي وخفي فالجلي مثل قوله من كنت مولاه فعلي مولاه قالوا ولم تطرد هذه الولاية الا في علي ولهذا قال له عمر أصبحت مولي كل مؤمن ومؤمنة ومنها قوله أقضاكم على ولا معنى للامامة الا القضاء بأحكام الله وهو المراد بأولى الامر الواجبة طاعتهم بقوله أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم والمراد الحكم والقضاء ولهذا كان حكماً في قضية الامامة يوم السقيفة دون غيره ومنها قوله من يبايعني على روحه وهو وصي وولي هذا الامر من بعدي فلم يبايعه الا علي ومن الخفي عندهم بعث النبي صلى الله عليه وسلم علياً لقراءة سورة براءة في الموسم حين أنزلت فانه بعث بها أولاً بأبكر ثم أوحى اليه ليلغره رجل

منك أو من قومك فبعث علياً ليكون القارئ المبلغ قالوا وهذا يدل علي تقديم علي وإيضاً فلم يعرف أنه قدم أحداً علي علي وأما أبو بكر وعمر فقدّم عليهما في غزاتين أسامة بن زيد مرة وعمر بن العاص أخرى وهذه كلها أدلة شاهدة بتعيين علي للخلافة دون غيره فنها ما هو غير معروف ومنها ما هو بعيد عن تأويلهم ثم منهم من يرى أن هذه النصوص تدل علي تعيين علي وتشخيصه وكذلك تنتقل منه إلى من بعده وهؤلاء هم الامامية ويتبرؤن من الشيخين حيث لم يقدموا علياً ويباعوه بمقتضي هذه النصوص وينعصون في إمامتهم، ولا يلتفت إلى نقل القدر فيها من غلاتهم فهو مردود عندنا وعندهم ومنهم من يقول إن هذه الأدلة إنما اقتضت تعيين علي بالوصف لا بالشخص والناس مقصرون حيث لم يضعوا الوصف موضعوه وهؤلاء هم الزيدية ولا يتبرؤن من الشيخين ولا ينعصون في إمامتهم مع قولهم بأن علياً أفضل منهما لكنهم يجوزون إمامة المفصول مع وجود الأفضل ثم اختلفت تقول هؤلاء الشيعة في مساق الخلافة بعد علي فمنهم من ساقها في ولد فاطمة بالنص عليهم واحداً بعد واحد علي ما ذكر بعدوه هؤلاء يسمون الامامية نسبة إلى مقالهم باشتراط معرفة الامام وتعيينه في الايمان وهي أصل عندهم ومنهم من ساقها في ولد فاطمة لكن بالاختيار من الشيوخ ويشترط أن يكون الامام منهم علماً زاهداً جواداً شجاعاً ويخرج داعياً إلى امامته وهؤلاء هم الزيدية نسبة إلى صاحب المذهب وهو زيد ابن علي بن الحسين السبط وقد كان يناظر أخاه محمد الباقر على اشتراط الخروج في الامام فيلزمه الباقر أن لا يكون أبوها زين العابدين إماماً لأنه لم يخرج ولا تعرض للخروج وكان مع ذلك ينعي عليه مذاهب المعتزلة وأخذها إياها عن واصل بن عطاء ولما ناظر الامامية زيداً في امامة الشيخين ورأوه يقول بإمامتهما ولا يتبرأ منهما رفضوه ولم يجعلوه من الأئمة وبذلك سمو رافضة ومنهم من ساقها بعد علي وابنيه السبطين على اختلافهم في ذلك إلى أخيهما محمد بن الحنفية ثم إلى ولده وهم الكيسانية نسبة إلى كيسان مولاة وبين هذه الطوائف اختلافات كثيرة تركناه اختصاراً ومنهم طوائف يسمون الغلاة تجاوزوا حد العقل والايمان في القول بالوهمية هؤلاء الأئمة إما على أنهم بشر اتصفوا بصفات الالهية أو أن الاله حل في ذاته البشرية وهو قول بالخلول يوافق مذهب النصارى في عيسى صلوات الله عليه ولقد حرق علي رضي الله عنه بالنار من ذهب فيه إلى ذلك منهم وسخط محمد بن الحنفية المختار بن أبي عبيد لما بلغه مثل ذلك عنه فصرح بلغته والبراء منه وكذلك فعل جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه بمن بلغه مثل هذا عنه ومنهم من يقول إن كمال الامام لا يكون لغيره فإذا مات انتقلت روحه إلى امام آخر ليكون فيه ذلك الكمال وهو قول بالتناسخ ومن هؤلاء الغلاة من يقف عند واحد من الأئمة لا يتجاوزوه إلى غيره بحسب من يعين لذلك عندهم وهؤلاء هم الواقفية بعضهم يقول هو حي

لم يمت الا أنه غائب عن أعين الناس ويستشهدون لذلك بقصة الخضر قيل مثل ذلك في علي رضي الله عنه وأنه في السحاب والرعد صوته والبرق في سوطه وقالوا مثله في محمد بن الحنفية وأنه في جبل رضوي من أرض الحجاز وقال شاعرهم

ألا ان الأئمة من قریش * ولالة الحق أربعة سواء
علي والثلاثة من بنيہ * هم الاسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر * وسبط غيته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى * يقود الجيش يقدمه اللواء
تغيب لا يرى فيهم زمانا * برضوي عنده غسل وماء

وقال مثله غلاة الامامية وخصوصا الاثني عشرية منهم يزعمون أن الثاني عشر من أئمتهم وهو محمد بن الحسن العسكري ويلقبونه المهدي دخل في سرداب بدارهم بالحلة وتغيب حين اعتقل مع أمه وغاب هنالك وهو يخرج آخر الزمان فيملأ الأرض عدلا يشيرون بذلك الى الحديث الواقع في كتاب الترمذي في المهدي وهم الى الآن ينتظرونه ويسمونه المنتظر لذلك ويقفون في كل ليلة بعد صلاة المغرب بباب هذا السرداب وقد قدموا مركبا فيتهفون باسمه ويدعونه للخروج حتى تشتبك النجوم ثم ينفضون ويرجئون الامر الى الليلة الآتية وهم على ذلك لهذا العهد وبعض هؤلاء الواقفية يقول ان الامام الذي مات يرجع الى حياته الدنيا ويستشهدون لذلك بما وقع في القرآن الكريم من قصة أهل الكهف والذي مر على قرية وقيل بني اسرائيل حين ضرب بعظام البقرة التي أمروا بذبحها ومثل ذلك من الحوارق التي وقعت على طريق المعجزة ولا يصح الاستشهاد بها في غير مواضعها وكان من هؤلاء السيد الحميري ومن شعره في ذلك

اذا ما المرء شاب له قذال * وعالله المواشط بالحضاب
فقد ذهبت بشاشته وأودى * فقم يا صاح نبك على الشباب
الى يوم تؤب الناس فيه * الى دنياهمو قبل الحساب
فليس بعائد ما فات منه * الى أحد الى يوم الاياب
أدين بأن ذلك دين حق * وما أنا في النشور بذى ارتياب
كذلك الله أخبر عن أناس * حيوا من بعد درس في التراب

وقد كفانا مؤنة هؤلاء الغلاة أئمة الشيعة فانهم لا يقولون بها ويبطلون احتجاجاتهم عليها وأما الكيسانية فساقوا الامامة من بعد محمد بن الحنفية الى ابنه أبي هاشم وهؤلاء هم الهاشمية ثم افترؤا ففهم من ساقها بعده الى أخيه علي ثم الى ابنه الحسن بن علي وآخرون يزعمون أن ملامات بارض السراة منصرفا من الشام أوصى الى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس

وأوصى محمد الى ابنه ابراهيم المعروف بالامام وأوصى ابراهيم الى أخيه عبد الله بن الحارثية الملقب بالسفاح وأوصى هو الى أخيه عبد الله أبي جعفر الملقب بالمنصور وانتقلت في ولده بالنص والعهد واحدا بعد واحد الى آخرهم وهذا مذهب الهاشمية القائمين بدولة بني العباس وكان منهم أبو مسلم وسليمان بن كثير وأبوسلمة الخلال وغيرهم من شيعة العباسية وربما يعضدون ذلك بان حقهم في هذا الامر يصل اليهم من العباس لانه كان حيًا وقت الوفاة وهو أولي بالوراثة بعصية العمومة وأما الزيدية فساقوا الامامة على مذهبهم فيها وأنها باختيار أهل الحل والعقد لا بالنص فقالوا بامامة علي ثم ابنه الحسن ثم أخيه الحسين ثم ابنه علي زين العابدين ثم ابنه زيد ابن علي وهو صاحب هذا المذهب وخرج بالكوفة داعيا الى الامامة فقتل وصلب بالكنايسة وقال الزيدية بامامة ابنه يحيى من بعده فمضى الى خراسان وقتل بالجوزجان بعد أن أوصى الى محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن السبط ويقال له النفس الزكية فخرج بالحجاز وتلقب بالمهدي وجاءته عساكر المنصور فقتل وعهد الى أخيه ابراهيم فقام بالبصرة ومعه عيسى بن زيد بن علي فوجه اليهم المنصور عساكره فهزم وقتل ابراهيم وعيسى وكان جعفر الصادق أخبرهم بذلك كله وهي معدودة في كراماته وذهب آخرون منهم الى أن الامام بعد محمد بن عبد الله النفس الزكية هو محمد بن القاسم بن علي بن عمر وعمر هو أخو زيد بن علي فخرج محمد بن القاسم بالطالقان فقبض عليه وسيق الى المعتصم فحبسه ومات في حبسه وقال آخرون من الزيدية أن الامام بعد يحيى بن زيد هو أخوه عيسى الذي حضر مع ابراهيم بن عبد الله في قتاله مع المنصور ونقلوا الامامة في عقبه واليه انتسب دعي الزنج كآذكره في اخبارهم وقال آخرون من الزيدية أن الامام بعد محمد بن عبد الله أخوه ادريس الذي فر الى المغرب ومات هنالك وقام بامر ابنه ادريس واختط مدينة فاس وكان من بعده عقبه ملوكا بالمغرب الى أن انقرضوا كآذكره في اخبارهم وبقي أمر الزيدية بعد ذلك غير منتظم وكان منهم الداعي الذي ملك طبرستان وهو الحسن بن زيد بن محمد بن اسمعيل بن الحسن بن زيد بن علي بن الحسين السبط وأخوه محمد بن زيد ثم قام بهذه الدعوة في الديلم الناصر الاطروش منهم وأسلموا على يده وهو الحسن ابن علي بن الحسن بن علي بن عمر وعمر أخو زيد بن علي فكانت لبنه بطبرستان دولة وتوصل الديلم من نسبهم الى الملك والاستبداد على الخلفاء ببغداد كما نذكر في اخبارهم * وأما الامامية فساقوا الامامة من علي الرضا الى ابنه الحسن بالوصية ثم الى أخيه الحسين ثم الى ابنه علي زين العابدين ثم الى ابنه محمد الباقر ثم الى ابنه جعفر الصادق ومن هنا افترقوا فرقتين فرقة ساقوها الى ولده اسمعيل ويعرفونه بينهم بالامام وهم الاسماعيلية وفرقة ساقوها الى ابنه موسى الكاظم وهم الاثنا عشرية لوقوفهم عند الثاني عشر من الأئمة وقولهم بغيبته

الى آخر الزمان كما مر فأما الاسماعيلية فقالوا بامامة اسمعيل الامام بالنص من أبيه جعفر وفائدة النص عليه عندهم وان كان قد مات قبل أبيه انما هو بقاء الامامة في عقبه كقصة هرون مع موسي صلوات الله عليهما قالوا ثم انتقلت الامامة من اسمعيل الى ابنه محمد المكتوم وهو أول الأئمة المستورين لان الامام عندهم قد لا يكون له شوكة فيستتر وتكون دعائه ظاهرين اقامة للخجة على الخاق واذا كانت له شوكة ظهر وأظهر دعوته قالوا وبعد محمد المكتوم ابنه جعفر الصادق وبعده ابنه محمد الحبيب وهو آخر المستورين وبعده ابنه عبد الله المهدي الذي أظهر دعوته أبو عبد الله الشيعي في كتامة وتتابع الناس على دعوته ثم أخرجه من معتقله بسجلماسة وملك القيروان والمغرب وملك بنوه من بعده مصر كما هو معروف في أخبارهم ويسمي هؤلاء الاسماعيلية نسبة الى القول بامامة اسمعيل ويسمون أيضاً بالباطنية نسبة الى قولهم بالامام الباطن أي المستور ويسمون أيضاً الملحدة لما في ضمن مقاتلهم من الالحاد ولهم مقالات قديمة ومقالات جديدة دعا اليها الحسن بن محمد الصباح في آخر المائة الخامسة وملك حصونا بالشام والعراق ولم تزل دعوته فيها الى أن توزعه الهلاك بين ملوك الترك بمصر وملوك التتر بالعراق فانقرضت ومقالة هذا الصباح في دعوته مذكورة في كتاب الملل والنحل للشهرستاني وأما الاثنا عشرية فربما خصوا باسم الامامية عند المتأخرين منهم فقالوا بامامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق لوفاة أخيه الاكبر اسمعيل الامام في حياة أبيهما جعفر فقص على امامة موسي هذا ثم ابنه علي الرضا الذي عهد اليه المأمون ومات قبله فلم يتم له أمر ثم ابنه محمد الثاني ثم ابنه علي الهادي ثم ابنه محمد الحسن العسكري ثم ابنه محمد المهدي المنتظر الذي قدمناه قبل وفي كل واحدة من هذه المقالات للشيعية اختلاف كثير الا أن هذه أشهر مذاهبهم ومن أراد استيعابها ومطالعتها فعليه بكتاب الملل والنحل لابن حزم والشهرستاني وغيرها ففيها بيان ذلك والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم وهو العلي الكبير

٢٨ (فصل في انقلاب الخلافة الى الملك)

(اعلم) أن الملك غاية طبيعية للعصية ليس وقوعه عنها باختيار انما هو بضرورة الوجود وترتيبه كما قلناه من قبل وان الشرائع والديانات وكل أمر يحمل عليه الجمهور فلا بد فيه من العصية اذ المطالبة لا تتم الا بها كما قدمنا فالعصية ضرورية للملة وبوجودها يتم أمر الله منها وفي الصحيح ما بعث الله نبياً الا في منعة من قومه ثم وجدنا الشارع قد ذم العصية وندب الى اطراحها وتركها فقال ان الله اذهب عنكم عية الجاهلية (١) ونفخها بالآباء أتم بنو

(١) عية بضم العين وكسرها وكسر الموحدة مشددة وتشديد الياء الكبر والفخر والتخوة اه

آدم وآدم من تراب وقال تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم ووجدناه أيضاً قد ذم الملك وأهله ونبي على أهله أحوالهم من الاستمتاع بالخلق والاسراف في غير القصد والتسكب عن صراط الله وانما حض على الالفة في الدين وحذر من الخلاف والفرقة * وعلم أن الدنيا كلها وأحوالها عند الشارع مطية للآخرة ومن فقد المطية فقد الوصول وليس مراده فيما ينهي عنه أو يذمه من أفعال البشر أو يندب الى تركه إهماله بالكلية أو اقتلاعه من أصله وتعطيل القوي التي ينشأ عليها بالكلية انما قصده تصريفها في أغراض الحق جهد الاستطاعة حتي تصير المقاصد كلها حقاً وتحد الوجهة كما قال صلى الله عليه وسلم من كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ماهاجر اليه فلم يذم الغضب وهو يقصد نزع من الانسان فانه لو زالت منه قوة الغضب لفقد منه الانتصار للحق وبطل الجهاد واعلاء كلمة الله وانما يذم الغضب للشيطان وللأغراض الذميمة فاذا كان الغضب لذلك كان مذموماً واذا كان الغضب في الله والله كان ممدوحاً وهو من شئنا الله صلى الله عليه وسلم وكذا ذم الشهوات أيضاً ليس المراد ابطالها بالكلية فان من بطلت شهوته كان نقصاً في حقه وانما المراد تصريفها فيما أبيع له بأشئها على المصالح ليكون الانسان عبداً متصرفاً طوع الاوامر الالهية وكذا العصية حيث ذمها الشارع وقال ان تنفعكم أرحامكم ولأولادكم فانما مراده حيث تكون العصية على الباطل وأحواله كما كانت في الجاهلية وأن يكون لاحد غفرها أو حق على أحد لان ذلك بحان من أفعال العقلاء وغير نافع في الآخرة التي هي دار القرار فاما اذا كانت العصية في الحق واقامة أمر الله فأمره مطلوب ولو بطلت الشرائع اذ لا يتم قوامها الا بالعصية كما قلناه من قبل وكذا الملك لما ذمه الشارع لم يذم منه الغلب بالحق وقهر الكافة على الدين ومراعاة المصالح وانما ذمه لما فيه من التعاب بالباطل وتصريف الأدميين طوع الاغراض والشهوات كما قلناه فلو كان الملك مختصاً في غلبه للناس أنه لله ولحلمهم على عبادة الله وجهاد عدوه لم يكن ذلك مذموماً وقد قال سليمان صلوات الله عليه رب هب لي ملكاً لا ينبغي لاحد من بعدي لما علم من نفسه أنه بمعزل عن الباطل في النبوة والملك ولما لاقى معاوية عمر بن الخطاب رضى الله عنهما عند قدومه الى الشام في أبهة الملك وزيه من العبيد والعدة استنكر ذلك وقال أكرسوية معاوية فقال يا أمير المؤمنين إنا في ثغر تجاه العدو وبنا الى مباحاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة فسكت ولم يخطئه لما احتج عليه بمقاصد الحق والدين فلو كان القصد رفض الملك من أصله لم يقع هذا الجواب في تلك الكسروية واتحاليها بل كان يحرض على خروجه عنها بالجملة وانما أراد عمر بالكسروية ما كان عليه أهل فارس في ملكهم من ارتكاب الباطل والظلم والبغى وسلوك سبيله والغفلة عن الله وأجابه معاوية بان القصد بذلك

ليس كسروية فارس وباطلهم وانما قصده بها وجه الله فسكت وهكذا كان شأن الصحابة في رفض الملك وأحواله ونسيان عوائده جذرا من التباسها بالباطل فلما استحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم استخلف أبابكر على الصلاة اذ هي أهم أمور الدين وارتضاء الناس للخلافة وهي حمل الكفاية على أحكام الشريعة ولم يجز للملك ذكر لما أنه مظنة للباطل ونحلة يومئذ لاهل الكفر وأعداء الدين فقام بذلك أبو بكر ماشاء الله متبعاً سنن صاحبه وقاتل أهل الردة حتي اجتمع العرب على الاسلام ثم عهد الى عمر فاقفي أثره وقاتل الامم فغلهم واذن للعرب في انتزاع ما بأيديهم من الدنيا والملك فغلبوهم عليه وانتزعوه منهم ثم صارت الى عثمان بن عفان ثم الى علي رضي الله عنهما والكل متبرئون من الملك متسكون عن طريقه وأكد ذلك لديهم ما كانوا عليه من غضاظة الاسلام وبدواة العرب فقد كانوا أبعد الامم عن أحوال الدنيا وترفعها لامن حيث دينهم الذي يدعوهم الى الزهد في النعيم ولا من حيث بداوتهم ومواطنهم وما كانوا عليه من خشونة العيش وشظفه الذي ألفوه فلم تكن أمة من الامم أسغب عيشامن مضر لما كانوا بالحجاز في أرض غير ذات زرع ولا ضرع وكانوا ممنوعين من الارياض وحبوبها لبعدها واختصاصها بمن وليها من ربيعة واليمن فلم يكونوا يتطاولون الى خصبها ولقد كانوا كثيرا ما يأكلون العقارب والحنافس ويفخرون بأكل العاهز وهو ورا الابل يمهونه بالحجارة في الدم ويطبخونه وقرىبا من هذا كانت حال قريش في مطاعهم ومساكنهم حتى اذا اجتمعت عصبية العرب على الدين بما أكرمهم الله من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم زحفوا الى أمم فارس والروم وطلبوا ما كتب الله لهم من الارض بوعد الصدق فابتزوا ملكهم واستباحوا دنياهم فزحرت بحار الرفه لديهم حتى كان الفارس الواحد يقسم له في بعض الغزوات ثلاثون ألفا من الذهب أو نحوها فاستولوا من ذلك على ما لا يأخذه الحصر وهم مع ذلك على خشونة عيشهم فكان عمر يرقع ثوبه بالجلد وكان علي يقول يا صفراء ويا بيضاء غري غري وكان أبو موسى يتجافى عن أكل الدجاج لانه لم يعهدا للعرب لقلتها يومئذ وكانت المناخل مفقودة عندهم بالجملة وانما كانوا يأكلون الخنطة بخالها وبكاسهم مع هذا أنهم ما كانت لأحد من أهل العالم * قال المسعودي في أيام عثمان اقنى الصحابة الضياع والمال فكان له يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف درهم وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرها مائتا ألف دينار وخلف إبلا وخيلا كثيرة وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار وخلف ألف فرس وألف أمة وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراة أكثر من ذلك وكان على مربي عبد الرحمن بن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفا وخلف يزيد بن ثابت من

الفضة والذهب ما كان يكسر بالفؤس غير ما خلف من الاموال والضياع بمائة ألف دينار وبني الزبير داره بالبصرة وكذلك بني بمصر والكوفة والاسكندرية وكذلك بني طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبنائها بالحص والاجر والساج وبني سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أهلها شرفات وبني المقداد داره بالمدينة وجعلها بمحصة الظاهر والباطن وخلف علي بن منبه خمسين ألف دينار وعقارا وغير ذلك ما قيمته ثمانية آلاف درهم اه كلام السعدي فكانت مكاسب القوم كآراء ولم يكن ذلك منعيا عليهم في دينهم اذ هي أموال حلال لانها غنائم وفيه ولم يكن تصرفهم فيها باسراف انما كانوا على قصد في احوالهم كإقلائه فلم يكن ذلك بقادح فيهم وان كان الاستكثار من الدنيا مذموما فانما يرجع الى ما أشرنا اليه من الاسراف والخروج به عن القصد واذا كان حالهم قصدا ونفقاتهم في سبل الحق ومذاهبه كان ذلك الاستكثار عوناً لهم على طرق الحق واكتساب الدار الآخرة فلما تدرجت البداوة والغضاضة الى نهايتها وجاءت طبيعة الملك التي هي مقتضى العvisية كإقلائه وحصل التغلب والقهر كان حكم ذلك الملك عندهم حكم ذلك الرفه والاستكثار من الاموال فلم يصرفوا ذلك التغلب في باطل ولا خرجوا به عن مقاصد الديانة ومذاهب الحق ولما وقعت الفتنة بين علي ومعاوية وهي مقتضى العvisية كان طريقهم فيها الحق والاجتهاد ولم يكونوا في محاربتهم لغرض دنيوي أو لا يشار باطل أو لاستشعار حقد كإقائهم متوهم وينزع اليه ملحد وانما اختلف اجتهادهم في الحق وسفاه كل واحد نظر صاحبه باجتهاده في الحق فاقبلوا عليه وان كان المصيب علياً فلم يكن معاوية قائماً فيها بقصد الباطل انما قصد الحق وأخطأ والكل كانوا في مقاصدهم على حق ثم اقتضت طبيعة الملك الانفراد بالمجد واستئثار الواحد به ولم يكن لمعاوية أن يدفع ذلك عن نفسه وقومه إلهو أمر طبيعي ساقته العvisية بطبيعتها واستشمرته بنو أمية ومن لم يكن على طريقة معاوية في اقتفاء الحق من أتباعهم فاعصوبوا عليه واستماتوا دونه ولو حملهم معاوية على غير تلك الطريقة وخالفهم في الانفراد بالامر لوقع في افتراق الكلمة التي كان جمعها وتأليفها أهم عليه من أمر ليس وراءه كبير مخالفة وقد كان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يقول اذا رأى القاسم بن محمد بن أبي بكر لو كان لي من الامر شيء لوليت الخلافة ولو أراد أن يعهد اليه لفعل ولكنه كان يخشى من بني أمية أهل الحل والعقد لما ذكرناه فلا يقدر أن يحول الامر عنهم لثلا تقع الفرقة وهذا كله انما حمل عليه منازع الملك التي هي مقتضى العvisية فالملك اذا حصل وفرضنا أن الواحد انفراد به وصرفه في مذاهب الحق ووجوهه لم يكن في ذلك تكبر عليه ولقد انفرد سليمان وأبوه داود صلوات الله عليهما بملك بني اسرائيل لما اقتضته طبيعة الملك فيهم من الانفراد به وكانوا على

ما علمت من النبوة والحق وكذلك عهد معاوية الى يزيد خوفا من افتراق الكلمة بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم الامر الى من سواهم فلو قد عهد الى غيره اختلفوا عليه مع أن ظنهم كان به صالحا ولا يرتاب أحد في ذلك ولا يظن بمعاوية غيره فلم يكن ليعهد اليه وهو يعتقد ما كان عليه من الفسق حاشا لله لمعاوية من ذلك وكذلك كان مروان بن الحكم وابنه وان كانوا ملوكا فلم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة والبغي انما كانوا متحررين لمقاصد الحق جهدهم الا في ضرورة محملهم على بعضها مثل خشية افتراق الكلمة الذي هو أهم لديهم من كل مقصد يشهد لذلك ما كانوا عليه من الاتباع والافتداء وما علم السلف من أحوالهم فقد احتج مالك في الموطأ بعمل عبد الملك وأما مروان فكان من الطبقة الاولى من التابعين وعداتهم معروفة ثم تدرج الامر في ولد عبد الملك وكانوا من الدين بالمكان الذي كانوا عليه وتوسطهم عمر ابن عبد العزيز فنزع الى طريقة الخلفاء الاربعة والصحابة جهده ولم يهمل ثم جاء خلفهم واستعملوا طبيعة الملك في أغراضهم الدنيوية ومقاصدهم ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحري القصد فيها واعتماد الحق في مذاهبها فكان ذلك مما دعا الناس الى أن نعوا عليهم أفعالهم وأدالوا بالدعوة العباسية منهم وولي رجالها الامر فكانوا من العدالة بمكان وصرفوا الملك في وجوه الحق ومذاهبه ما استطاعوا حتى جاء بنو الرشيد من بعده فكان منهم الصالح والطالح ثم أفضى الامر الى بنينهم فأعطوا الملك والترف حقه وانغمسوا في الدنيا وباطلها ونبدوا الدين وراءهم ظهريا فتأذن الله بحريهم وانتزاع الامر من أيدي العرب جملة وأمكن سواهم منه والله لا يظلم مثقال ذرة ومن تأمل سير هؤلاء الخلفاء والملوك واختلافهم في تحري الحق من الباطل علم صحة ما قلناه وقد حكى المسعودي مثله في أحوال بني أمية عن أبي جعفر المنصور وقد حضر عمومته وذكروا بني أمية فقال أما عبد الملك فكان جباراً لا يبالي بما صنع وأما سليمان فكان همه بطنه وفرجه وأما عمر فكان أعور بين عميان وكان رجل القوم هشام قال ولم يزل بنو أمية ضابطين لما مهد لهم من السلطان يحوطونه ويصونون ما وهب الله لهم منه مع تسنهم معالى الامور ورفضهم دنياها حتى أفضى الامر الى أبنائهم المترفين فكانت همتهم قصد الشهوات وركوب اللذات من معاصي الله جهلا باستدراجه وأما لمكره مع أطراحهم صيانة الخلافة واستخفافهم بحق الرياسة وضعفهم عن السياسة فسلمهم الله العز والبسم الذل وتقي عنهم النعمة ثم استحضر عبد الله (١) بن مروان فقص عليه خبره مع ملك النبوة لما دخل أرضه فارا

(١) قوله عبد الله كذا في النسخة التونسية وبعض الفاسية وفي بعضها عبد الملك وأظنه

ايام السفاح قال أقت ملياً ثم أتاني ملكهم فقعدي على الارض وقد بسطت لي فرش ذات قيمة فقلت له ما منعك من القعود على ثيابنا فقال اني ملك وحق لكل ملك أن يتواضع لعظمة الله اذ رفعه الله ثم قال لي لم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم في كتابكم فقلت اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا قال فلم تطؤون الزرع بدوا بكم والفساد محرم عليكم قلت فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهاهم قال فلم تلبسون الديباج والذهب والحريز وهو محرم عليكم في كتابكم قلت ذهب منا الملك وانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا فاطرق ينكت بيده في الارض ويقول عبيدنا وأتباعنا وأعاجم دخلوا في ديننا ثم رفع رأسه الي وقال ليس كاذ كرت بل أتم قوم استحلتم محرم الله عليكم وأتيتهم ماعنه نهيتهم وظلمتهم فيما ملكتم فسلبكم الله العز والبسكم الذل بذنوبكم والله نعمة لم تبلغ غايتها فيكم وأنا خائف أن يحل بكم العذاب وأنتم بيلدي فينالي معكم وانما الضيافة ثلاث فترود ما احتجت اليه وارتحل عن أرضي فتعجب المنصور وأطرق فقد تبين لك كيف انقلبت الخلافة الى الملك وأن الامر كان في أوله خلافة ووازع كل أحد فيها من نفسه وهو الدين وكانوا يؤثرونه على أمور دنياهم وان أفضت الى هلاكهم وحدهم دون الكافة فهذا عثمان لما حصر في الدار جاءه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر وابن جعفر وأمثالهم يريدون المدافة عنه فأبي ومنع من سل السيوف بين المسلمين مخافة الفرقة وحفظاً للالفة التي بها حفظ الكلمة ولو أدي الى هلاكه وهذا علي أشار عليه المغيرة لاول ولايته باستبقاء الزبير ومعاوية وطلحة على أعمالهم حتى يجتمع الناس على بيعته وتتفق الكلمة وله بعد ذلك ما شاء من أمره وكان ذلك من سياسة الملك فأبي فراراً من الغش الذي ينافيه الاسلام وغدا عليه المغيرة من الغداة فقال لقد أشرت عليك بالامس بما أشرت ثم عدت الى نظري ففعلت أنه ليس من الحق والنصيحة وأن الحق فيما رأيته أنت فقال علي لا والله بل أعلم أنك نصحتني بالامس وغششتني اليوم ولكن منعني مما أشرت به ذائد الحق وهكذا كانت أحوالهم في اصلاح دينهم بفساد دنياهم ونحن

نرفع دنيانا بتزريق ديننا * فلا ديننا يبق ولا مارقع

فقد رأيت كيف صار الامر الى الملك وبقيت معاني الخلافة من تحري الدين ومذاهبه والجرى على منهاج الحق ولم يظهر التغير الا في الوازع الذي كان ديناً ثم انقلب عصبية وسيفاً وهكذا كان الامر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك والصدر الاول من خلفاء بني العباس الى الرشيد وبعض ولده ثم ذهب معاني الخلافة ولم يبق الا اسمها وصار الامر ملكاً محتاجاً وجرت طبيعة التغلب الى غايتها واطعمت في أغراضها من القهر والتغلب في الشهوات والملاذ وهكذا كان الامر لولد عبد الملك ولمن جاء بعد الرشيد من بني العباس واسم الخلافة باقياً فيهم لبقاء

عصية العرب والخلافة والملك في الطورين ملتبس بعضهما ببعض ثم ذهب رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصية العرب وفناء جيلهم وتلاشي أحوالهم وبقي الأمر ملكاً بحتاً كما كان الشأن في ملوك العجم بالمشرق يدينون بطاعة الخليفة تبركا والملك بجميع ألقابه ومناحيه لهم وليس للخليفة منه شيء وكذلك فعل ملوك زناتة بالمغرب مثل صنهاجة مع العبيدين ومغراوة وبني يفرن أيضاً مع خلفاء بني أمية بالاندلس والعبيدين بالقيروان فقد تبين أن الخلافة قد وجدت بدون الملك أولاً ثم التبست معانيهما واختلطت ثم انفرد الملك حيث افرقت عصيته من عصية الخلافة والله مقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار

﴿ فصل في معنى البيعة (١) ﴾

٢٩

(اعلم) أن البيعة هي العهد على الطاعة كأن المبايع يعاهد أميره على أنه يسلم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين لا ينازعه في شيء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكروه وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيداً للعهد فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري فسمى بيعة مصدر باع وصارت البيعة مصافحة بالأيدي هذا مدلولها في عرف اللغة ومعهود الشرع وهو المراد في الحديث في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وعند الشجرة وحيثما ورد هذا اللفظ ومنه بيعة الخلفاء ومنه أيمان البيعة كأن الخلفاء يستحلفون على العهد ويستوعبون الأيمان كلها لذلك فسمى هذا الاستيعاب أيمان البيعة وكان الإكراه فيها أكثر وأغلب ولهذا لما أفقي ملكاً رضي الله عنه بسقوط يمين الإكراه أنكرها الولاة عليه ورأوها قاذحة في أيمان البيعة ووقع ما وقع من محنة الإمام رضي الله عنه وأما البيعة المشهورة لهذا العهد فهي تحية الملوك الكسروية من تقبيل الأرض أو اليد أو الرجل أو الذيل أطلق عليها اسم البيعة التي هي العهد على الطاعة مجازاً لما كان هذا الخضوع في التحية والتزام الآداب من لوازم الطاعة وتوابعها وغلب فيه حتى صارت حقيقة عرفية واستغنى بها عن مصافحة أيدي الناس التي هي الحقيقة في الأصل لما في المصافحة لكل أحد من التزل والابتدال المنافين للرياسة ووصون المنصب الملوكي إلا في الأقل بمن يقصد التواضع من الملوك فيأخذ به نفسه مع خواصه ومشاهير أهل الدين من رعيته فافهم معنى البيعة في العرف فانه أكد على الإنسان معرفته لما يلزمه من حق سلطانه وامامه ولا تكون أفعاله عبثاً ومجاناً واعتبر ذلك من أفعاله

(١) قوله البيعة بفتح الموحدة أما بكسرها على وزن شيعه بسكون الياء فيها فهي معبد

التصاري ١٥

٣٠ (فصل في ولاية العهد)

(اعلم) أنا قدمنا الكلام في الامامة ومشروعيتها لما فيها من المصاحبة وإن حقيقتها النظر في مصالح الامة لدينهم ودنياهم فهو وليهم والامين عليهم ينظر لهم ذلك في حياته وتبع ذلك أن ينظر لهم بعد مماته ويقم لهم من يتولى أمورهم كما كان هو يتولاها ويتقون بنظره لهم في ذلك كما وثقوا به فيما قبل وقد عرف ذلك من الشرع باجماع الامة على جوازه وانعقاده اذ وقع بعهد أبي بكر رضي الله عنه لعمر بمحضر من الصحابة وأجازوه وأوجبوا على أنفسهم به طاعة عمر رضي الله عنه وعنهم وكذلك عهد عمر في الشوري الى الستة بقية العشرة وجعل لهم أن يختاروا للمسلمين فقوض بعضهم الى بعض حتي أفضى ذلك الى عبد الرحمن بن عوف فاجتهد وناظر المسلمين فوجدهم متفقين على عثمان وعلي فآثر عثمان بالعبية على ذلك لموافقته اياه على لزوم الاقتداء بالشيخين في كل مايعن دون اجتهداه فانعقد أمر عثمان لذلك وأوجبوا طاعته والملا من الصحابة حاضرون للاولى والثانية ولم ينكره أحد منهم فدل على أنهم متفقون على صحة هذا العهد عارفون بمشروعيته والاجماع حجة كما عرف ولايتهم الامام في هذا الامر وان عهد الى أبيه أو ابنه لانه مأمون على النظر لهم في حياته فأولى أن لا يحتمل فيها تبعة بعد مماته خلافا لمن قال باتباهم في الولد والوالد أولان خصص التهمة بالولد دون الوالد فانه بعيد عن الظنة في ذلك كله لا سيما اذا كانت هناك داعية تدعو اليه من ايثار مصلحة أو توقع مفسدة فتزني الظنة عند ذلك رأسا كما وقع في عهد معاوية لابنه يزيد وان كان فعل معاوية مع وفاق الناس له حجة في الباب والذي دعا معاوية لايثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه انما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بني أمية اذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم فآثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها وعدل عن الفاضل الى المفضول حرصا على الاتفاق واجتماع الاهواء الذي شأنه أهم عند الشارع وان كان لا يظن بمعاوية غير هذا فعدالته وحُجَّتُه مانعة من سوى ذلك وحضوراً كبير الصحابة لذلك وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب فيه فليسوا ممن يأخذهم في الحق هوادة وليس معاوية ممن تأخذه العزة في قبول الحق فانهم كلهم أجل من ذلك وعدالتهم مانعة منه وفرار عبد الله بن عمر من ذلك انما هو محمول على تورعه من الدخول في شيء من الامور مباحا كان أو محظورا كما هو معروف عنه ولم يبق في المخالفة لهذا العهد الذي اتفق عليه الجمهور الا ابن الزبير ودور الخالف معروف

ثم انه وقع مثل ذلك من بعد معاوية من الخلفاء الذين كانوا يحرون الحق ويعملون به مثل عبد الملك وسليمان من بني أمية والسفاح والمنصور والمهدي والرشد من بني العباس وأمثالهم ممن عرفت عدالتهم وحسن رأيهم للمسلمين والنظر لهم ولا يعاب عليهم ايثارا بنائهم واخوانهم وخروجهم عن سنن الخلفاء الاربعة في ذلك فشانهم غير شأن أولئك الخلفاء فانهم كانوا على حين لم تحدث طبيعة الملك وكان الوازع دينيا فعند كل أحد وازع من نفسه فعهدوا الى من يرتضيه الدين فقط وآثروه على غيره ووكلوا كل من يسمو الى ذلك الى وازعه وأما من بعدهم من لدن معاوية فكانت العصية قد أشرفت على غايتها من الملك والوازع الديني قد ضعف واحتيج الى الوازع السلطاني والعصبي فلوعده الى غير من ترتضيه العصية لردت ذلك العهد وانتقض أمره سريعا وصارت الجماعة الى الفرقة والاختلاف * سأل رجل عليا رضي الله عنه مابال المسلمين اختلفوا عليك ولم يختلفوا على أبي بكر وعمر فقال لان أبابكر وعمر كانا واليين على مثلي وأنا اليوم وال على مثلك يشير الى وازع الدين أفلا تري الى المأمون لماعهد الى علي بن موسى بن جعفر الصادق وسماه الرضا كيف أنكرت العباسية ذلك ونقضوا بيعته وبيعوا لعنه ابراهيم بن المهدي وظهر من الهرج والخلاف وانقطاع السبل وتهدد الثوار والخوارج ما كاد أن يصطلم الامر حتى بادى المأمون من خراسان الى بغداد ورد أمرهم لمعاذه فلا بد من اعتبار ذلك في العهد فالعصور تختلف باختلاف ما يحدث فيها من الامور والقبائل والعصبيات وتختلف باختلاف المصالح ولكل واحد منها حكم يخصه لظفا من الله بعباده وأما أن يكون القصد بالعهد حفظ التراث على الابناء فليس من المقاصد الدينية اذ هو أمر من الله يخص به من يشاء من عباده ينبغي أن تحسن فيه النية ما أمكن خوفا من العتب بالمناصب الدينية والملك لله يؤتبه من يشاء * وعرض هنا أمور تدعو للضرورة الى بيان الحق فيها * فالاول منها ما حدث في يزيد من الفسق أيام خلافته فاياك أن تظن بمعاوية رضي الله عنه أنه علم ذلك من يزيد فانه أعدل من ذلك وأفضل بل كان يعدله أيام حياته في سماع الغناء ونهاه عنه وهو أقل من ذلك وكانت مذاهبهم فيه مختلفة ولما حدث في يزيد ما حدث من الفسق اختلف الصحابة حينئذ في شأنه فمنهم من رأي الخروج عليه ونقض بيعته من أجل ذلك كفاعل الحسين وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ومن اتبعهما في ذلك ومنهم من أباه لما فيه من اثاره القسوة وكثرة القتل مع العجز عن الوفاء به لان شوكة يزيد يومئذ هي عصاية بني أمية وجهور أهل الحل والعقد من قريش وتستتبع عصية مضرا جمع وهي أعظم من كل شوكة ولا تطاق مقاومتهم فأقصروا عن يزيد بسبب ذلك وأقاموا على الدعاء بهديته والراحة منه وهذا كان شأن جمهور المسلمين والكل مجتهدون ولا يشكر على أحد من الفريقين فمقاصدهم في البر ومحري

الحق معروفة وفقنا الله للاقتداء بهم * والامر الثاني هو شأن العهد من النبي صلى الله عليه وسلم وما تدعيه الشيعة من وصيته لعلي رضي الله عنه وهو أمر لم يصح ولا نقله أحد من أئمة الثقل والذي وقع في الصحيح من طاب الدواة والقرطاس لكتب الوصية وأن عمر منع من ذلك فدليل واضح على أنه لم يقع وكذا قول عمر رضي الله عنه حين طعن وسئل في العهد فقال إن أعهد فقد عهد من هو خير مني يعني أبا بكر وإن أترك فقد ترك من هو خير مني يعني النبي صلى الله عليه وسلم لم يعهد وكذلك قول علي للعباس رضي الله عنهما حين دعاه للدخول الى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله عن شأنهما في العهد فأبى علي من ذلك وقال انه إن منعنا منها فلا نطمع فيها آخر الدهر وهذا دليل على أن عليا علم انه لم يوص ولا عهد الى أحد وشبهة الامامية في ذلك انما هي كون الامامة من أركان الدين كما يزعمون وليس كذلك وإنما هي من المصالح العامة المفوضة الى نظر الخلق ولو كانت من أركان الدين لكان شأنها شأن الصلاة ولكن يستخلف فيها كما استخلف أبا بكر في الصلاة ولكن يشتهر كما اشتهر أمر الصلاة واحتجاج الصحابة على خلافة أبي بكر بقياسها على الصلاة في قولهم ارتضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لدينا أفلا نرضاه لدينا دليل على أن الوصية لم تقع وبدل ذلك أيضاً على أن أمر الامامة والعهد لم يكن مهما كما هو اليوم وشأن العصية المراجعة في الاجتماع والافتراق في مجاري العادة لم يكن يومئذ بذلك الاعتبار لأن أمر الدين والاسلام كان كله بخوارق العادة من تأليف القلوب عليه واستماتة الناس دونه وذلك من أجل الأحوال التي كانوا يشاهدونها في حضور الملائكة لصبرهم وتردد خبر السماء بينهم وتجدد خطاب الله في كل حادثة تتلى عليهم فلم يحتاج الى مراعاة العصية لما شغل الناس من صبغة الاقياد والاذعان وما يستفزهم من تنابع المعجزات الخارقة والأحوال الالهية الواقعة والملائكة المترددة التي وجوا منها ودهشوا من متابعتها فكان أمر الخلافة والملك والعهد والعصية وسائر هذه الأنواع مندرجا في ذلك القليل كواقع فلما انحصر ذلك المدد بذهاب تلك المعجزات ثم بقاء القرون الذين شاهدوها فاستحالت تلك الصبغة قليلا قليلا وذهبت الخوارق وصار الحكم للعادة كما كان فاعتبر أمر العصية ومجاري العوائد فيما ينشأ عنها من المصالح والمفاسد وأصبح الملك والخلافة والعهد بهما مهما من المهمات الاكيدة كما زعموا ولم يكن ذلك من قبل فانظر كيف كانت الخلافة لعهد النبي صلى الله عليه وسلم غير مهمة فلم يعهد فيها ثم تدرجت الأهمية زمان الخلافة بعض الشيء بما دعت الضرورة اليه في الحماية والجهاد وشأن الردة والفتوحات فكانوا بالحيار في الفعل والترك كما ذكرنا عن عمر رضي الله عنه ثم صارت اليوم من أهم الأمور للالفة على الحماية والقيام بالمصالح فاعتبرت فيها العصية التي هي سر الوازع عن الفرقة والتخاذل ومنشأ الاجتماع والتوافق الكفيل بمقاصد

الشريعة وأحكامها * والامر الثالث شأن الحروب الواقعة في الاسلام بين الصحابة والتابعين فاعلم أن اختلافهم انما يقع في الامور الدينية وينشأ عن الاجتهاد في الادلة الصحيحة والمدارك المعبرة والمجتهدون اذا اختلفوا فان قلنا ان الحق في المسائل الاجتهادية واخدم الطرفين ومن لم يصادفه فهو مخطئ فان جهته لاتعين باجماع فيبقى الكل على احتمال الاصابة ولا يتعين الخطي منها والتأثم مدفوع عن الكل اجماعا وان قلنا ان الكل حق وان كل مجتهد مصيب فأحرى بنفي الخطأ والتأثم وغاية الخلاف الذي بين الصحابة والتابعين انه خلاف اجتهادي في مسائل دينية ظنية وهذا حكمه والذي وقع من ذلك في الاسلام انما هو واقعة علي مع معاوية وبع الزبير وعائشة وطليحة وواقعة الحسين مع يزيد وواقعة ابن الزبير مع عبد الملك * فأما واقعة علي فان الناس كانوا عند مقتل عثمان مفترقين في الأمصار فلم يشهدوا بيعة علي والذين شهدوا فمنهم من بايع ومنهم من توقف حتى يجتمع الناس ويتفقوا على إمام كسعد وسعيد وابن عمر وأسامة بن زيد والمغيرة بن شعبة وعبد الله بن سلام وقدامة بن مظعون وأبي سعيد الخدري وكعب بن عجرة وكعب بن مالك والنعمان بن بشير وحسان بن ثابت ومسلمة بن مخلد وفضالة بن عبيد وأمثالهم من أكابر الصحابة والذين كانوا في الأمصار عدلوا عن بيعته أيضا الى الطلب بدم عثمان وتركوا الامر فوضى حتى يكون شوري بين المسلمين لمن يولونه وظنوا بعلي هوادة في السكوت عن نصر عثمان من قاتليه لافي الممالة عليه فحاش لله من ذلك ولقد كان معاوية اذا صرح بملامته انما يوجهها عليه في سكوته فقط ثم اختلفوا بعد ذلك فرأي علي أن بيعته قد انعقدت ولزمت من تأخر عنها باجماع من اجتمع عليها بالمدينة دار النبي صلى الله عليه وسلم وموطن الصحابة وأرجأ الامر في المطالبة بدم عثمان الى اجتماع الناس واتفاق الكلمة فيتمكن حينئذ من ذلك ورأي الآخرون ان بيعته لم تنعقد لافتراق الصحابة أهل الحل والعقد بالآفاق ولم يحضر الا قليل ولا تكون البيعة الا باتفاق أهل الحل والعقد ولا تلزم بعقد من تولاها من غيرهم أو من القليل منهم وان المسلمين حينئذ فوضى فيطالبون أولا بدم عثمان ثم يجتمعون على إمام وذهب الى هذا معاوية وعمر بن العاص وأم المؤمنين عائشة والزبير وابنه عبد الله وطليحة وابنه محمد وسعد وسعيد والنعمان بن بشير ومعاوية بن خديج ومن كان على رأيهم من الصحابة الذين تخلفوا عن بيعة علي بالمدينة كما ذكرنا الآن أهل العصر الثاني من بعدهم اتفقوا على انعقاد بيعة علي ولزومها للمسلمين أجمعين وتصويب رأيه فيما ذهب اليه وتعين الخطأ من جهة معاوية ومن كان على رأيه وخصوصا طليحة والزبير لاتنقضاهما على علي بعد البيعة فيما نقل مع دفع التأثم عن كل من الفريقين كالشأن في المجتهد وصار ذلك اجماعا من أهل العصر الثاني على أحد قولي أهل العصر الاول كما هو معروف ولقد

سئل علي رضي الله عنه عن قتلى الجمل وصفين فقال والذي نفسي بيده لا يموتن أحد من هؤلاء وقلبه بقي الادخل الجنة يشير الى الفريقين نقله الطبري وغيره فلا يقعن عندك ريب في عدالة أحد منهم ولا قدح في شيء من ذلك فهم من علمت وأقوالهم وأفعالهم إنما هي بمن من المستندات وعدالتهم مفروغ منها عند أهل السنة الا قولاً للمعتزلة فيمن قاتل علياً لم يلتفت اليه أحد من أهل الحق ولا عرج عليه واذا نظرت بعين الانصاف عذرت الناس أجمعين في شأن الاختلاف في عثمان واختلاف الصحابة من بعد وعلمت أنها كانت فتنة ابتلى الله بها الأمة بينا المسلمون قد أذهب الله عدوهم وملكهم وأرضهم وديارهم ونزلوا الامصار على حدودهم بالبصرة والكوفة والشام ومصر وكان أكثر العرب الذين نزلوا هذه الامصار حفاة لم يستكثروا من حجة النبي صلى الله عليه وسلم ولا هذبهم سيرته وآدابه ولا ارتاضوا بحلقه مع ما كان فيهم في الجاهلية من الجفاء والعصية والفاخر والبعد عن سكينة الايمان واذا بهم عند استفحال الدولة قد أصبحوا في ملكة المهاجرين والانصار من قريش وكنانة وثقيف وهذيل وأهل الحجاز ويثرب السابقين الاولين الى الايمان فاستسكفوا من ذلك وغصوا به لما يرون لانفسهم من التقدم بأنسابهم وكثرتهم ومصادمة فارس والروم مثل قبائل بكر بن وائل وعبد القيس بن ربيعة وقبائل كندة والأزد من اليمن وتميم وقيس من مضر فصاروا الى الغض من قريش والاتفة عليهم والتمريض في طاعتهم والتعلل في ذلك بالنظم منهم والاستعداد عليهم والطعن فيهم بالعجز عن السوية والعدول في القسم عن التسوية وفشت المقالة بذلك وانتهت الى المدينة وهم من علمت فأعظموه وأبلغوه عثمان فبعث الى الأمصار من يكشف له الخبر بعث ابن عمر ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد وأمثالهم فلم ينكروا على الأمراء شيئاً ولا رأوا عليهم طعناً وأدوا ذلك كما علموه فلم ينقطع الطعن من أهل الامصار وما زالت الشناعات تنمو ورمى الوليد ابن عتبة وهو على الكوفة بشرب الخمر وشهد عليه جماعة منهم وحده عثمان وعزله ثم جاء الى المدينة من أهل الامصار يسألون عزل العمال وشكوا الى عائشة وعلي والزبير وطاحنة وعزل لهم عثمان بعض العمال فلم تنقطع بذلك ألسنتهم بل وفد سعيد بن العاص وهو على الكوفة فلما رجع اعترضوه بالطريق وردوه معزولاً ثم انتقل الخلاف بين عثمان ومن معه من الصحابة بالمدينة ونقموا عليه امتناعه عن العزل فإني الا أن يكون على جرحة ثم نقلوا التكرير الى غير ذلك من أفعاله وهو متمسك بالاجتهاد وهم أيضاً كذلك ثم تجمع قوم من الغوغاء وجاءوا الى المدينة يظهرون طلب النصفة من عثمان وهم يضمرون خلاف ذلك من قتله وفيهم من البصرة والكوفة ومصر وقام معهم في ذلك علي وعائشة والزبير وطاحنة وغيرهم يحاولون تسكين الامور ورجوع عثمان الى رأيهم وعزل لهم عامل مصر فانصرفوا قليلاً ثم رجعوا

وقد لبسوا بكتاب مدلس يزعمون أنهم لقوه في يد حامله الى عامل مصر بان يقتلهم وحلف
عثمان على ذلك فقالوا ^{مكتنا} من مروان فانه كاتبك خلف مروان فقال عثمان ليس في الحكم
أكثر من هذا فحاصروه بداره ثم يتوه على حين غفلة من الناس وقتلوه وافتح باب الفتنة
فلكل من هؤلاء عذر فيما وقع وكلهم كانوا مهتمين بأمر الدين ولا يضعون شيئاً من تعلقاته
ثم نظروا بعد هذا الواقع واجتهدوا والله مطلع على أحوالهم وعالم بهم ونحن لا نظن بهم الا
خيراً لما شهدت به أحوالهم ومقالات الصادق فيهم* وأما الحسين فانه لما ظهر فسق يزيد عند
الكافة من أهل عصره بعث شيعة أهل البيت بالكوفة للحسين أن يأتيهم فيقوموا بأمره
فأرأي الحسين أن الخروج على يزيد متعين من أجل فسقه لاسيما ^{من} له القدرة على ذلك وظنها
من نفسه بأهليته وشوكته فأما الأهلية فكانت كآظن وزيادة وأما الشوكة فغاط يرحمه الله
فيها لأن عصية مضر كانت في قريش وعصية قريش في عبد مناف وعصية عبد مناف انما
كانت في بني أمية تعرف ذلك لهم قريش وسائر الناس ولا ينكرونه وانما نسي ذلك أول
الاسلام لما شغل الناس من الذهول بالحوارق وأمر الوحي وتردد الملائكة لنصرة المسلمين
فأغفلوا أمور عواندهم وذهبت عصية الجاهلية ومنازعها ونسيت ولم يبق الا العصية الطبيعية
في الحماية والدفاع يتفجع بها في إقامة الدين وجهاد المشركين والدين فيها محكم والعادة معزولة
حتى اذا انقطع أمر النبوة والحوارق المهولة تراجع الحكم بعض الشيء للعوائد فعدت العصية
كما كانت ولما كانت وأصبحت مضر أطوع لبني أمية من سواهم بما كان لهم من ذلك قبل
(فقد) تبين لك غلط الحسين الا أنه في أمر دنيوى لا يضره الغلط فيه وأما الحكم الشرعى
فلم يغلط فيه لانه منوط بظنه وكان ظنه القدرة على ذلك ولقد عدله ابن عباس وابن الزبير
وابن عمر وابن الحنفية أخوه وغيره في مسيره الى الكوفة وعلموا غلطه في ذلك ولم يرجع
عما هو بسبيله لما أراده الله وأما غير الحسين من الصحابة الذين كانوا بالجهاز ومع يزيد بالشام
والعراق ومن التابعين لهم فآروا أن الخروج على يزيد وان كان فاسقا لا يجوز لما ينشأ عنه
من الهرج والدماء فأقصرنا عن ذلك ولم يتابعوا الحسين ولا أنكروا عليه ولا أئموه لانه مجتهد
وهو أسوة المجتهدين ولا يذهب بك الغلط أن تقول بتأييم هؤلاء بمخالفة الحسين وقعودهم عن
نصره فانهم أكثر الصحابة وكانوا مع يزيد ولم يروا الخروج عليه وكان الحسين يستشهدهم
وهو يقاتل بكر بلاء على فضله وحقه ويقول سلوا جابر بن عبد الله وأبا سعيد الخدري وأنس بن
مالك وسهل بن سعيد وزيد بن أرقم وأمثالهم ولم ينكر عليهم قعودهم عن نصره ولا تعرض
لذلك لعلمه أنه عن اجتهاد منهم كما كان فعله عن اجتهاد منه وكذلك لا يذهب بك الغلط أن
تقول بتصويب قتله لما كان عن اجتهاد وان كان هو على اجتهاد ويكون ذلك كما يحمد

الشافعي والمالكي الخنفي على شرب النبيذ واعلم أن الأمر ليس كذلك وقتاله لم يكن عن
اجتهاد هؤلاء وإن كان خلافه عن اجتهادهم وإنما انفرد بقتاله يزيد وأصحابه ولا تقولن
أن يزيد وإن كان فاسقاً ولم يجرّ هؤلاء الخروج عليه فأفعاله عندهم صحيحة واعلم أنه إنما
ينفذ من أعمال الفاسق ما كان مشروعا وقتال البغاة عندهم من شرطه أن يكون مع
الامام العادل وهو مفقود في مسئلتنا فلا يجوز قتال الحسين مع يزيد ولا يزيد بل هي
من فعلاته المؤكدة لفسقه والحسين فيها شهيد مثاب وهو على حق واجتهاد والصحابة
الذين كانوا مع يزيد على حق أيضاً واجتهاد وقد غلط القاضي أبو بكر بن العربي المالكي
في هذا فقال في كتابه الذي سماه بالعواصم والقواصم مامعناه أن الحسين قتل بشرع جده
وهو غلط حملته عليه الغفلة عن اشتراط الامام العادل ومن أعدل من الحسين في زمانه
في إمامته وعدالته في قتال أهل الآراء وأما ابن الزبير فإنه رأى في قيامه مارآه الحسين وظن
كما ظن وغلطه في أمر الشوكة أعظم لأن بني أسد لا يقاومون بني أمية في جاهلية ولا اسلام
والقول يتعين الخطأ في جهة مخالفة كما كان في جهة معاوية مع علي لاسيما إليه لان الاجماع
هنالك قضي لنا به ولم نجد ههنا وأما يزيد فعين خطاه فسقه وعبد الملك صاحب ابن الزبير
أعم الناس عدالة وناهيك بعدالته احتجاج مالك بفعله وعدول ابن عباس وأبن عمر إلى بيعته
عن ابن الزبير وهم معه بالحجاز مع أن الكثير من الصحابة كانوا يرون أن بيعه ابن الزبير
لم تنفقد لانه لم يحضرها أهل العقد والحل كبيعة مروان وابن الزبير على خلاف ذلك والكل
مجتهدون محمولون على الحق في الظاهر وإن لم يتعين في جهة منهما والقتل الذي نزل به بعد
تقرير ما قرره ينبغي على قواعد الفقه وقوانينه مع أنه شهيد مثاب باعتبار قصده وتحريره الحق
هذا هو الذي ينبغي أن يحمل عليه أفعال السلف من الصحابة والتابعين فهم خيار الامة وإذا
جعلناهم عرضة للقدح فمن الذي يختص بالعدالة والنبي صلى الله عليه وسلم يقول خير الناس
قرني ثم الذين يلونهم مرتين أو ثلاثاً ثم يفشو الكذب فجعل الحيرة وهي مختصة بالقرن الاول
والذي يليه فإياك أن تعود نفسك أو لسانك التعرض لاحد منهم ولا تشوش قلبك بالريب في
شيء مما وقع منهم والتمس لهم مذاهب الحق وطرقه ما استطعت فهم أولى الناس بذلك وما
اختلفوا الا عن بينة وما قاتلوا أو قتلوا الا في سبيل جهاد أو اظهار حق واعتقد مع ذلك أن
اختلافهم رحمة لمن بعدهم من الامة ليقنّدي كل واحد من يختاره منهم ويجعله امامه وهاديه
ودليلاً فافهم ذلك وتبين حكمة الله في خلقه وأكوانه واعلم أنه على كل شيء قدير وإلى الملجأ
والمصير والله تعالى أعلم

لما تبين أن حقيقة الخلافة نيابة عن صاحب الشرع في حفظ الدين وسياسة الدنيا فصاحب الشرع متصرف في الأمرين أما في الدين فبمقتضى التكليف الشرعية الذي هو مأمور بتبليغها وحمل الناس عليها وأما سياسة الدنيا فبمقتضى رعايته لمصالحهم في العمران البشري وقد قدمنا أن هذا العمران ضروري للبشر وأن رعاية مصالحه كذلك لئلا يفسد أن أهملت وقدّمنا أن الملك وسطوته كاف في حصول هذه المصالح نعم إنما تكون أكل إذا كانت بالأحكام الشرعية لأنه أعلم بهذه المصالح فقد صار الملك يندرج تحت الخلافة إذا كان إسلامياً ويكون من توابعها وقد ينفرد إذا كان في غير الملة وله على كل حال مراتب خادمة ووظائف تابعة تتعين خططا وتتوزع على رجال الدولة ووظائف فيقوم كل واحد بوظيفته حسبما يعينه الملك الذي تكون يده عالية عليهم فيتم بذلك أمره ويحسن قيامه بسلطانه * وأما المنصب الخلافى وإن كان الملك يندرج تحته بهذا الاعتبار الذى ذكرناه فتصرفه الدينى يختص بخطط ومراتب لا تعرف إلا للخلفاء الإسلاميين فلنذكر الآن الخطط الدينية المختصة بالخلافة ونرجع إلى الخطط المملوكية السلطانية فاعلم أن الخطط الدينية الشرعية من الصلاة والقتيا والقضاء والجهاد والحسبة كلها مندرجة تحت الإمامة الكبرى التى هي الخلافة فكأنها الإمام الكبير والأصل الجامع وهذه كلها متفرعة عنها وداخلة فيها لعموم نظر الخلافة وتصرفها في سائر أحوال الملة الدينية والدنيوية وتنفيذ أحكام الشرع فيها على العموم * فإمامة الصلاة فهي أرفع هذه الخطط كلها وأرفع من الملك بمخصوصه المندرج معها تحت الخلافة ولقد يشهد لذلك استدلال الصحابة في شأن أبي بكر رضي الله عنه باستخلافه في الصلاة على استخلافه في السياسة في قولهم ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لدينا أفلا نرضاه لدينا فلولاً أن الصلاة أرفع من السياسة لما صح القياس وإذا ثبت ذلك فاعلم أن المساجد في المدينة صنفان مساجد عظيمة كثيرة الغاشية معدة للصلاة المشهودة وأخرى دونها مختصة بقرى أو محلة وليست للصلاة العامة فاما المساجد العظيمة فامرها راجع إلى الخليفة أو من يفوض إليه من سلطان أو وزير أو قاض فينصب لها الإمام في الصلوات الخمس والجمعة والعيد والحسوفين والاستسقاء وتعين ذلك إنما هو من طريق الأولى والاستحسان ولئلا يفئات الرعايا عليه في شيء من النظر في المصالح العامة وقد يقول بالوجوب في ذلك من يقول بوجوب إقامة الجمعة فيكون نصب الإمام لها عنده واجباً * وأما المساجد المختصة بقرى أو محلة فامرها راجع إلى الحيران ولا تحتاج إلى نظر خليفة ولا سلطان وأحكام هذه الولاية وشروطها والمولى فيها معروفة في كتب الفقه ومبسوطة

في كتب الاحكام السلطانية للماوردي وغيره فلا نطول بذكرها ولقد كان الخلفاء الاولون لا يقلدونهم الغيرهم من الناس وانظر من طعن من الخلفاء في المسجد عند الاذان بالصلاة وترصدهم لذلك في أوقاتها يشهد لك ذلك بمباشرتهم لها وانهم لم يكونوا يستخلفون فيها وكذا كان رجال الدولة الاوية من بعدهم استثنائها واستعظاما لرتبتها يحكي عن عبد الملك انه قال لحاجبه قد جعلت لك حجابة بابي الا عن ثلاثة صاحب الطعام فانه يفسد بالتأخير والآذن بالصلاة فانه داع الى الله والبريد فان في تأخيرهم فساد القافية فلما جاءت طبيعة الملك وعوارضه من الغاظة والترفع عن مساواة الناس في دينهم ودنياهم استنابوا في الصلاة فكانوا يستأثرون بها في الاحيان وفي الصلوات العامة كالعيدين والجمعة اشادة وتبويها فعل ذلك كثير من خلفاء بني العباس والعيدين صدر دولتهم* وأما الفتياء فللمخليفة تفحص أهل العلم والتدريس ورد الفتياء الى من هو أهل لها واعانتة على ذلك ومنع من ليس أهلها وزجره لانها من مصالح المسلمين في أديانهم فجب عليه مراعاتها لئلا يتعرض لذلك من ليس له بأهل فيفضل الناس وللمدرس الانتصاب لتعليم العلم وبثه والجلوس لذلك في المساجد فان كانت من المساجد العظام التي للسلطان الولاية عليها وانظر في أمتها كما مر فلا بد من استئذانه في ذلك وان كانت من مساجد العامة فلا يتوقف ذلك على اذن على أنه ينبغي أن يكون لكل أحد من المفتين والمدرسين زاجر من نفسه يتمتع عن التصدي لما ليس له بأهل فيدل به المستهدي ويضل به المسترشد وفي الأثر أجروكم على الفتياء أجروكم على جرائم جهنم فلا سلطان فيهم لذلك من النظر ما توجه المصلحة من اجازة أورد* وأما القضاء فهو من الوظائف الداخلة تحت الخلافة لانه منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسبا للتداعي وقطعا للتنازع الا أنه بالاحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة فكان لذلك من وظائف الخلافة ومندرجا في عمومها وكان الخلفاء في صدر الاسلام يباشرونه بأنفسهم ولا يجعلون القضاء الى من سواهم وأول من دفعه الى غيره وفوضه فيه عمر رضي الله عنه فولى أبا الدرداء معه بالمدينة وولى شريحا بالبصرة وولى أبا موسى الاشعري بالكوفة وكتب له في ذلك الكتاب المشهور الذي تدور عليه أحكام القضاة وهي مستوفاة فيه يقول (أما بعد) فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم اذا أدي اليك فانه لا ينفع تكلم بحق لانفاذه وآس بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا يأس ضعيف من عدلك البينة على من ادعي واليمين على من أنكر والصالح جائز بين المسلمين الاصلحا أحل حراما أو حرم حلالا ولا يمتنعك قضاء قضيته أمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع الى الحق فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل الفهم الفهم فيما تالجج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ثم اعرف الامثال

والاشياء والامور بنظائرها واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أوينة أمداً ينتهي اليه فان أحضر بيته أخذت له بحقه والاستجلات القضية عليه فان ذلك أنفى للشك وأجلى للعلماء المسلمون عدول بعضهم على بعض المجلودا في حد أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنيماً في نسب أو ولاء فان الله سبحانه عفا عن الايمان ودرأ بالبينات واياك والقلق والضجر والتأفف بالخصوم فان استقرار الحق في مواطن الحق يعظم الله به الاجر ويحسن به الذكر والسلام انتهى كتاب عمر وانما كانوا يقدلون القضاء لغيرهم وان كان مما يتعلق بهم لقيامهم بالسياسة العامة وكثرة أشغالها من الجهاد والفتوح وسد الثغور وحماية البيضة ولم يكن ذلك مما يقوم به غيرهم لعظم العناية فاستحقوا القضاء في الواقعات بين الناس واستخلفوا فيه من يقوم به تخفيفاً على أنفسهم وكانوا مع ذلك انما يقدرونه أهل عصيتهم بالنسب أو الولاء ولا يقدرونه لمن بعدهم في ذلك وأما أحكام هذا المنصب وشروطه فعمروفة في كتب الفقه وخصوصاً كتب الاحكام السلطانية الا أن القاضي انما كان له في عصر الخلفاء الفصل بين الخصوم فقط ثم دفع لهم بعد ذلك أمور أخرى على التدرج بحسب اشتغال الخلفاء والملوك بالسياسة الكبرى واستقر منصب القضاء آخر الامر على انه يجمع مع الفصل بين الخصوم استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر في أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامي والمفلسين وأهل السفه وفي وصايا المسلمين وأوقافهم وترويح الأيتام عند فقد الاولياء على رأى من رآه والنظر في مصالح الطرقات والابنية وتصفح الشهود والأمناء والنواب واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح ليحصل له الوثوق بهم وصارت هذه كلها من تعلقات وظيفته وتوابع ولايته وقد كان الخلفاء من قبل يجعلون للقاضي النظر في المظالم وهي وظيفة متميزة من سطوة السلطنة ونصفه القضاء ويحتاج الى علو يد وعظم رهبة تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المتعدي وكأنه يمضي ما يحجز القضية أو غيرهم عن امضاءه ويكون نظره في البينات والتقارير واعتماد الامارات والقرائن وتأخير الحكم الى استجلاء الحق وحمل الخصمين على الصلح واستحلاف الشهود وذلك أوسع من نظر القاضي * وكان الخلفاء الاولون يباشرونها بأنفسهم الى أيام المهتدي من بني العباس وربما كانوا يجعلونها لقضاتهم كما فعل عمر رضي الله عنه مع قاضيه أبي ادريس الخولاني وكما فعله المأمون ليحيى بن أكرم والمعتصم لاحمد بن أبي دواد وربما كانوا يجعلون للقاضي قيادة الجهاد في عساكر الطوائف وكان يحيى ابن أكرم يخرج أيام المأمون بالطائفة الى أرض الروم وكذا منذر بن سعيد قاضي عبدالرحمن الناصر من بني أمية بالاندلس فكانت تولية هذه الوظائف انما تكون للخلفاء او من يجعلون ذلك له من وزير مفوض او سلطان متغلب وكان أيضاً انظر في الجرائم واقامة الحدود في الدولة العباسية والاموية بالاندلس والبيديين بمصر والمغرب راجعاً الى صاحب الشرطة وهي وظيفة

أخرى دينية كانت من الوظائف الشرعية في تلك الدول توسع النظر فيها عن أحكام القضاء قليلا فيجعل للتهمة في الحكم مجالا ويفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ويقيم الحدود الثابتة في محالها ويحكم في القود والقصاص ويقيم التعزير والتأديب في حق من لم يذنبه عن الجريمة ثم تتوسى شأن هاتين الوظيفتين في الدول التي تتوسى فيها امر الخلافة فصار امر المظالم راجعا الى السلطان كان له تفويض من الخليفة او لم يكن وانقسمت وظيفة الشرطة قسمين منها وظيفة التهمة على الجرائم واقامة حدودها ومباشرة القطع والقصاص حيث يتعين ونصب لذلك في هذه الدول حاكم يحكم فيها بموجب السياسة دون مراجعة الاحكام الشرعية ويسمى تارة باسم الوالى وتارة باسم الشرطة وبقي قسم التعازير واقامة الحدود في الجرائم الثابتة شرعا فجمع ذلك للقاضي مع ما تقدم وصار ذلك من توابع وظيفته وولايته واستقر الامر لهذا العهد على ذلك وخرجت هذه الوظيفة عن اهل عصية الدولة لان الامر لما كان خلافة دينية وهذه الخطبة من مراسم الدين فكانوا لا يولون فيها الامن اهل عصيتهم من العرب ومواليهم بالحلف أو بالرق أو بالاصطناع ممن يوثق بكفايته أو غنائه فيما يدفع اليه * ولما انقضى شأن الخلافة وطورها وصار الامر كله ملكا أو سلطانا صارت هذه الخطط الدينية بعيدة عنه بعض الشيء لانها ليست من ألقاب الملك ولا مراسمه ثم خرج الامر جملة من العرب وصار الملك لسواهم من أمم الترك والبربر فازدادت هذه الخطط الخلافية بعدا عنهم بمنحها وعصيتها وذلك أن العرب كانوا يرون أن الشريعة دونهم وأن النبي صلى الله عليه وسلم منهم وأحكامه وشرائعه نزلت عليهم بين الأمم وطريقهم وغيرهم لا يرون ذلك انما يولونها جانباً من التعظيم لما دانوا بالملّة فقط فصاروا يتلدونها من غير عصابتهم ممن كان تأهل لها في دول الخلفاء السالفة وكان أولئك المتأهلون لما أخذهم ترف الدول منذميين من سنيين قد نسوا عهد البداوة وخشوتها والتبسوا بالحضارة في عوائد ترفهم ودعوتهم وقلة الممانعة عن أنفسهم وصارت هذه الخطط في الدول المملوكية من بعد الخلفاء مختصة بهذا الصنف من المستضعفين في أهل الامصار ونزل أهلها عن مراتب العزلة فقد الاهية بأنسابهم وماهم عليه من الحضارة فلحقهم من الاحتقار ملحق الحضرة المنغمسين في الترف والدعة البعداء عن عصية الملك الذين هم عيال على الحماية وصار اعتبارهم في الدولة من أجل قيامها بالملّة وأخذها بأحكام الشريعة لما أنهم الحاملون للاحكام المقتدون بها ولم يكن إيثارهم في الدولة حينئذ اكراماً لذواتهم وانما هو لما يتلذذ من التجميل بمكانهم في مجالس الملك لتعظيم الرتب الشرعية ولم يكن لهم فيها من الحل والعقد شيء وان حضروه فحضور رسمي لاحقيقة وراءه اذ حقيقة الحل والعقد انما هي لأهل القدرة عليه فمن لا قدرة له عليه فلا حل له ولا عقد لديه اللهم الا أخذ الاحكام

الشرعية عنهم وتلقى الفتاوى منهم فنعى والله الموفق وربما يظن بعض الناس ان الحق فيما وراء ذلك وان فعل الملوک فيما فعلوه من اخراج الفقهاء والقضاة من الشورى مرجوح وقد قال صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الانبياء فاعلم ان ذلك ليس كما ظنه وحكم الملك والسلطان انما يجري على ما تقتضيه طبيعة العمران والا كان بعيداً عن السياسة فطبيعة العمران في هؤلاء لا تقتضي لهم شيئاً من ذلك لان الشورى والحل والعقد لا تكون الا لصاحب عصية يقتدر بها على حل أو عقد أو فعل أو ترك وأما من لاعصية له ولا يملك من أمر نفسه شيئاً ولا من حمايتها وانما هو عيال على غيره فأی مدخل له في الشورى أو أي معنى يدعو الى اعتباره فيها اللهم الا شورا فيما يعلمه من الاحكام الشرعية فوجوده في الاستفتاء خاصة وأما شورا في السياسة فهو بعيد عنها لفقدانه العصية والقيام على معرفة أحوالها وأحكامها وانما اكرامهم من تبرعات الملوک والامراء الشاهدة لهم بحمیل الاعتقاد في الدين وتعظيم من ينتسب اليه بأي جهة انتسب وأما قوله صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الانبياء فاعلم ان الفقهاء في الاغلب لهذا العهد وما احتف به انما حملوا الشريعة أقوالا في كيفية الاعمال في العبادات وكيفية القضاء في المعاملات ينصونها على من يحتاج الى العمل بها هذه غاية أكبرهم ولا يتصفون الا بالاقل منها وفي بعض الاحوال والسلف رضوان الله عليهم وأهل الدين والورع من المسلمين حملوا الشريعة اتصافا بها وتحققا بمذاهبها فمن حماها اتصافا وتحققا دون نقل فهو من الوارثين مثل أهل رسالة القشيري ومن اجتمع له الامر ان فهو العالم وهو الوارث على الحقيقة مثل فقهاء التابعين والسلف والأئمة الاربعة ومن اقتفى طريقةهم وجاء على أثرهم واذا انفرد واحد من الامة باحد الامرین فالعابد أحق بالوراثة من الفقيه الذي ليس بعابد لان العابد ورث صفة والفقيه الذي ليس بعابد لم يرث شيأ انما هو صاحب أقوال ينصها علينا في كيفية العمل وهؤلاء أكثر فقهاء عصرنا الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم

(العدالة) وهي وظيفة دينية تابعة للقضاء ومن مواد تصريفه وحقيقة هذه الوظيفة القيام عن اذن القاضي بالشهادة بين الناس فيما لهم وعلمهم تحملا عند الاشهاد وأداء عند التنازع وكتبا في السجلات تحفظ به حقوق الناس وأعمالهم وديونهم وسائر معاملاتهم وشرط هذه الوظيفة الاتصاف بالعدالة الشرعية والبراءة من الجرح ثم القيام بكتب السجلات والعقود من جهة عباراتها وانتظام فصولها ومن جهة احكام شروطها الشرعية وعقودها فيحتاج حينئذ الى ما يتعاق بذلك من الفقه ولاجل هذه الشروط وما يحتاج اليه من الماران (١) على ذلك

(١) قوله الماران في كتب اللغة مرن على الشيء مرونا ومرونة ومرانة تعوده واستمر عليه انه

والممارسة له اختص ذلك ببعض العدول وصار الصنف القائمون به كأنهم محتصون بالعدالة وليس كذلك وإنما العدالة من شروط اختصاصهم بالوظيفة ويجب على القاضي تصفح أحوالهم والكشف عن سيرهم رعاية لشرط العدالة فيهم وإن لا يهمل ذلك لما يتعين عليه من حفظ حقوق الناس فالعهدة عليه في ذلك كله وهو ضامن دركه وإذا تعين هؤلاء لهذه الوظيفة عمت الفائدة في تعيين من تخفى عدالته على القضاة بسبب اتساع الامصار واشتباه الاحوال واضطرار القضاة الى الفصل بين المتنازعين بالبينات الموثوقة فيعملون غالباً في الوثوق بها على هذا الصنف ولهم في سائر الامصار دكاكين ومصاطب يختصون بالجلوس عليها فيتعاهددهم أصحاب المعاملات للاشهاد وتقييده بالكتاب وصار مدلول هذه اللفظة مشتركاً بين هذه الوظيفة التي تبين مدلولها وبين العدالة الشرعية التي هي أخت الجرح وقد يتواردان ويفترقان والله تعالى أعلم

(الحسبة والسكة) أما الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمر المسلمين يعين لذلك من يراه أهلاً له فيتعين فرضه عليه ويتخذ الاعوان على ذلك ويبحث عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الحمالين وأهل السفن من الاكثار في الحمل والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وازالة ما يتوقع من ضررها على السابلة والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الابلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداد بل له النظر والحكم فيما يصل الى علمه من ذلك ويرفع اليه وليس له امضاء الحكم في الدعاوى مطلقاً بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعاش وغيرها وفي المكاييل والموازين وله أيضاً حمل المماطلين على الانصاف وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا انفاذ حكم وكأنها أحكام ينزه القاضي عنها لعمومها وسهولة أغراضها فتدفع الى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء وقد كانت في كثير من الدول الاسلامية مثل العبيديين بمصر والمغرب والأمويين بالاندلس داخلة في عموم ولاية القاضي يولي فيها باختياره ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة وصار نظره عام في أمور السياسة اندرجت في وظائف الملك وأفردت بالولاية (وأما السكة) فهي النظر في النقود المتعامل بها بين الناس وحفظها مما يداخها من الغش أو النقص إن كان يتعامل بها عدداً أو ما يتعلق بذلك ويوصل اليه من جميع الاعتبارات ثم في وضع علامة السلطان على تلك النقود بالاستجداء والخلوص برسم تلك العلامة فيها من خاتم حديد اتخذ لذلك ونقش فيه نقوش خاصة به فيوضع على الديار بعد أن يقدر ويضرب عليه بالطريقة حتى ترسم فيه تلك النقوش وتكون علامة على جودته بحسب الغاية التي وقف عندها السبك

والتخليص في متعارف أهل القطر ومذاهب الدولة الحاكمة فإن السبك والتخايف في النقود لا يقف عند غاية وإنما ترجع غايته الى الاجتهاد فاذا وقف أهل أفق أو قطر على غاية من التخليص وقفوا عندها وسموها إماما وغيارا يعتبرون به نقودهم وينتقدونها بمعاملته فإن نقص عن ذلك كان زيفا والنظر في ذلك كله لصاحب هذه الوظيفة وهي دينية بهذا الاعتبار فتدرج تحت الخلافة وقد كانت تدرج في عموم ولاية القاضي ثم أفردت لهذا العهد كما وقع في الحسبة * هذا آخر الكلام في الوظائف الخلافية وبقيت منها وظائف ذهبت بذهاب ما ينظر فيه وأخرى صارت سلطانية فوظيفة الامارة والوزارة والحرب والخراج صارت سلطانية نتكلم عليها في أما كتبها بعد وظيفة الجهاد ووظيفة الجهاد بطلت ببطلانه الا في قليل من الدول يمارسونه ويدرجون أحكامه غالبا في السلطانيات وكذا نقابة الانساب التي يتوصل بها الى الخلافة أو الحق في بيت المال قد بطلت لدثور الخلافة ورسومها وبالجملة قد اندرجت رسوم الخلافة ووظائفها في رسوم الملك والسياسة في سائر الدول لهذا العهد والله مصرف الأمور كيف يشاء

٣٣ (فصل في اللقب بأمر المؤمنين وأنه من سمات الخلافة وهو محدث منذ عهد الخلفاء)

وذلك أنه لما بويع أبو بكر رضي الله عنه كان الصحابة رضي الله عنهم وسائر المسلمين يسمونه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يزل الأمر على ذلك الى أن هلك فلما بويع لعمر بعده اليه كانوا يدعونه خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكأنهم استنقلوا هذا اللقب بكثرة وطول اضافته وأنه يتزايد فيما بعد دائما الى أن ينتهي الى الهجنة ويذهب منه التميز بتعدد الاضافات وكثرتها فلا يعرف فكانوا يعدلون عن هذا اللقب الى ما سواه مما يناسبه ويدعي به مثله وكانوا يسمون قواد البعوث باسم الامير وهو فصيل من الامارة وقد كان الجاهلية يدعون النبي صلى الله عليه وسلم أمير مكة وأمير الحجاز وكان الصحابة أيضا يدعون سعد بن أبي وقاص أمير المؤمنين لامارته على جيش القادسية وهم معظم المسلمين يومئذ واتفق أن دعا بعض الصحابة عمر رضي الله عنه بأمر المؤمنين فاستحسنه الناس واستصوبوه ودعوه به يقال ان أول من دعاه بذلك عبد الله بن جحش وقيل عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وقيل يريد جاء بالفتح من بعض البعوث ودخل المدينة وهو يسأل عن عمر يقول أين أمير المؤمنين وسمعتها أصحابه فاستحسنوه وقالوا أصبت والله اسمه انه والله أمير المؤمنين حقا فدعوه بذلك وذهب لقبه في الناس وتوارثه الخلفاء من بعده سمة لا يشاركون فيها أحد سواهم سائر دولة بني أمية ثم ان الشيعة خصوا عليها باسم الامام نعتا له بالامامة التي هي أخت الخلافة

وتعريضاً بمذهبهم في أنه أحق بأمامة الصلاة من أبي بكر لما هو مذهبهم وبدعهم فخصوه بهذا اللقب ولمن يسوقون إليه منصب الخلافة من بعده فكانوا كلهم يسمون بالأمام ماداموا يدعون لهم في الخفاء حتى إذا استولوا على الدولة يحولون اللقب فيمن بعده إلى أمير المؤمنين كما فعله شيعة بني العباس فانهم مازالوا يدعون أئمتهم بالأمام إلى إبراهيم الذي جهر وبالبدع له ووقعوا الرايات للحرب على أمره فلما هلك دعى أخوه السفاح بأمير المؤمنين وكذا الرافضة بأفريقية فانهم مازالوا يدعون أئمتهم من ولد اسمعيل بالأمام حتى انتهى الأمر إلى عبيد الله المهدي وكانوا أيضاً يدعونه بالأمام ولابنه أبي القاسم من بعده فلما استوثق لهم الأمر دعوا من بعدها بأمير المؤمنين وكذا الإدارة بالمغرب كانوا يلقبون أدريس بالأمام وابنه أدريس الأصغر كذلك وهكذا شأنهم وتوارث الخلفاء هذا اللقب بأمير المؤمنين وجعلوه سمة لمن يملك الحجاز والشام والعراق المواطن التي هي دار العرب ومراكز الدولة وأهل الملة والفتح وازداد لذلك في عنفوان الدولة وبذخها لقب آخر للخلفاء يتميز به بعضهم عن بعض لما في أمير من الاشتراك بينهم فاستحدث ذلك بنو العباس حجاباً لأسماهم الاعلام عن امتثالها في أسنة السوقة وصونا لها عن الابتذال فلقبوا بالسفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشد إلى آخر الدولة واقفي أثرهم في ذلك العبيديون بأفريقية ومصر وتجاوى بنو أمية عن ذلك بالمشرق قبلهم مع الغضاظة والسذاجة لان العروبية ومنازعها لم تفارقهم حينئذ ولم يتحول عنهم شعار البداوة إلى شعار الحضارة وأما بالاندلس فلقبوا كسلفهم مع ما علموه من أنفسهم من القصور عن ذلك بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة والبعد عن دار الخلافة التي هي مركز العصية وأنهم إنما منعوا بأمامة القاصية أنفسهم من مهالك بني العباس حتى إذا جاء عبد الرحمن الداخل الآخر منهم وهو الناصر بن محمد بن الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط لأول المائة الرابعة واشتهر مانال الخلافة بالمشرق من الحजर واستبداد الموالي وعيهم في الخلفاء بالعزل والاستبدال والقتل والسمل ذهب عبد الرحمن هذا إلى مثل مذاهب الخلفاء بالمشرق وأفريقية وتسمى بأمير المؤمنين وتلقب بالناصر لدين الله وأخذت من بعده عادة ومذهب لقن عنه ولم يكن لآبائه وسلف قومه واستمر الحال على ذلك إلى أن انقرضت عصية العرب أجمع وذهب رسم الخلافة وتغلب الموالي من العجم على بني العباس والصنائع على العبيديين بالقاهرة وصنّاجة على أمراء أفريقية وزنّاة على المغرب وملوك الطوائف بالاندلس على أمر بني أمية واقتسموه واقترق أمر الاسلام فاختلفت مذاهب الملوك بالمغرب والشرق في الاختصاص بالالقباب بعد أن تسموا جميعاً باسم السلطان * فأما ملوك المشرق من العجم فكان الخلفاء يخصوصونهم باللقاب تشريفية حتى يستشعر منها انقيادهم وطاعتهم وحسن ولايتهم مثل شرف

الدولة وعضد الدولة وركن الدولة ومعر الدولة ونصير الدولة ونظام الملك وبهاء الدولة وذخيرة الملك وأمثال هذه وكان العبيديون أيضاً يحرصون بها أمراء صنهاجة فلما استبدوا على الخلافة قنعوا بهذه الألقاب وتجاؤوا عن ألقاب الخلافة أدبا معها وعدولا عن سماتها المختصة بها شأن المتغلبين المستبدين كما قلناه قبل ونزع المتأخرون أعاجم المشرق حين قوى استبدادهم على الملك وعلا كبرهم في الدولة والسلطان وتلاشت عصية الخلافة واضمحلت بالجملة الى اتحال الألقاب الخاصة بالملك مثل الناصر والمنصور زيادة على ألقاب يحرصون بها قبل هذا الاتحال مشعرة بالخروج عن رتبة الولاء والاصطناع بما أضافوها الى الدين فقط فيقولون صلاح الدين أسد الدين نور الدين * وأما ملوك الطوائف بالاندلس فاقسموا ألقاب الخلافة وتوزعوها لقوة استبدادهم عليها بما كان من قبيلها وعصيتها فلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمظفر وأمثالها كما قال ابن أبي شرف يني عليهم

مما يزهدني في أرض أندلس * أسماء معتمد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها * كاهل يحيى انتفاخا صورة الاسد

وأما صنهاجة فاقصروا على الألقاب التي كان الخلفاء العبيديون يلقبون بها للتبويه مثل نصير الدولة ومعر الدولة واتصل لهم ذلك لما أدالوا من دعوة العبيديين بدعوة العباسيين ثم بعدت الشقة بينهم وبين الخلافة ونسوا عهدا ففسوا هذه الألقاب واقتصروا على اسم السلطان وكذا شأن ملوك مغراوة بالمغرب لم يتجملوا شيئا من هذه الألقاب الا اسم السلطان جريا على مذاهب البداوة والغضاة ولما محي رسم الخلافة وتعطل دستها وقام بالمغرب من قبائل البربر يوسف بن تاشفين ملك لمتونة فلما العدوتين وكان من أهل الخير والاقداء نزعته به همته الى الدخول في طاعة الخليفة تكميلا لمراسم دينه فخطب المستظهر العباسي وأوفد عليه بيعته عبد الله بن العربي وابنه القاضي أبا بكر من مشيخة اشبيلية يطلبان توليته اياه على المغرب وتقليده ذلك فانقلبوا اليه بعهد الخلافة له على المغرب واستشعار زعيمهم في لبوسه ورتبته وخطبه فيه بأمر المؤمنين تشريفا له واختصاصا فاتخذها لقبا ويقال انه كان دعي له بأمر المؤمنين من قبل أدبا مع رتبة الخلافة لما كان عليه هو ووقومه المرابطون من اتحال الدين واتباع السنة وجاء المهدي على أثرهم داعيا الى الحق آخذا بمذاهب الاشعرية ناعيا على أهل المغرب عدوهم عنها الى تقليد السلف في ترك التأويل لظواهر الشريعة وما يؤل اليه ذلك من التجسيم كما هو معروف من مذهب الاشعرية وسمى أتباعه الموحدين تعريضا بذلك التكبير وكان يرى رأي أهل البيت في الامام المعصوم وأنه لا بد منه في كل زمان يحفظ بوجوده نظام هذا العالم فسمي بالامام لما قلناه أولا من مذاهب الشيعة في ألقاب خلفائهم وأردف بالمعصوم اشارة الى مذهبه في عصمة

الامام وتنزه عند أتباعه عن أمير المؤمنين أخذا بمذاهب المتقدمين من الشيعة ولما فيها من مشاركة الاغمار والولدان من أعقاب أهل الخلافة يومئذ بالمشرق ثم انحل عبد المؤمن ولي عهده اللقب بأمر المؤمنين وجرى عليه من بعده خلفاء بني عبد المؤمن وآل أبي حفص من بعدهم استشاراه عن سواهم لما دعا اليه شيخهم المهدي من ذلك وأنه صاحب الامر وأوليأؤه من بعده كذلك دون كل أحد لانتفاء عصبية قريش وتلاشيها فكان ذلك دأبهم لما انتقض الامر بالمغرب وانتزعه زنادة ذهب أولهم مذاهب البداوة والسذاجة واتباع لمتونة في انحلال اللقب بأمر المؤمنين أدامع رتبة الخلافة التي كانوا على طاعتها لبني عبد المؤمن وأولولي بني أبي حفص من بعدهم ثم نزح المتأخرون منهم الى اللقب بأمر المؤمنين واتخلوه لهذا العهد استبلاغا في منازع الملك وتيمنا لمذاهبه وسمائه والله غالب على أمره

٣٤ ﴿ فصل في شرح اسم البابا والبطرك في الملة النصرانية واسم الكوهن عند اليهود ﴾

(اعلم) أن الملة لا بد لها من قائم عندغية النبي يحماهم على أحكامها وشرائعها ويكون كالخليفة فيهم للنبي فيما جاء به من التكليف والنوع الانساني أيضاً بما تقدم من ضرورة السياسة فيهم للاجتماع البشري لا بد لهم من شخص يحماهم على مصالحهم ويزعهم عن مفسدهم بالقهر وهو المسمى بالملك والملة الاسلامية لما كان الجهاد فيها مشروعاً لعموم الدعوة وحمل الكافة على دين الاسلام طوعاً أو كرها اتخذت فيها الخلافة والملك لتوجه الشوكة من القائمين بها اليهما معا وأما ماسوى الملة الاسلامية فلم تكن دعوتهم عامة ولا الجهاد عندهم مشروعاً إلا في المدافعة فقط فصار القائم بأمر الدين فيها لا يعنيه شيء من سياسة الملك وانما وقع الملك لمن وقع منهم بالعرض ولأمر غير ديني وهو ما اقتضته لهم العصبية لما فيها من الطاب للملك بالطبع لما قدمناه لانهم غير مكلفين بالتغلب على الامم كما في الملة الاسلامية وانما هم مطلوبون باقامة دينهم في خاصتهم ولذلك بقي بنو إسرائيل من بعد موسى ويوشع صلوات الله عليهما نحو أربع مائة سنة لا يعتنون بشيء من أمر الملك انما هم اقامة دينهم فقط وكان القائم به بينهم يسمى الكوهن كأنه خليفة موسى صلوات الله عليه يقيم لهم أمر الصلاة والقربات ويشترطون فيه أن يكون من ذرية هرون صلوات الله عليه لان موسى لم يعقب ثم اختاروا لاقامة السياسة التي هي للبشر بالطبع سبعين شيخاً كانوا يتلون أحكامهم العامة والكوهن أعظم منهم رتبة في الدين وأبعد عن شعب الاحكام واتصل ذلك فيهم الى ان استحكمت طبيعة العصبية وتمحضت الشوكة للملك فغلبوا الكنعانيين على الارض التي أورثهم الله بيت المقدس وما جاورها كما بين لهم على لسان موسى صلوات الله عليه فخارتهم أمم الفلسطينيين والكنعانيين والارمن وأردن وعمان

ومأرب ورياستهم في ذلك راجعة الى شيوخهم وأقاموا على ذلك نحواً من اربع مائة سنة ولم تكن لهم صولة الملك وضجربوا اسرائيل من مطالبة الامم فطلبوا على لسان شمويل من أنبيائهم أن يأذن الله لهم في تملك رجل عليهم فولى عليهم طالوت وغلب الأمم وقتل جالوت ملك الفلسطينيين ثم ملك بعده داود ثم سليمان صلوات الله عليهم واستفحل ملكه وامتد الى الحجاز ثم أطراف اليمن ثم الى أطراف بلاد الروم ثم افترق الاسباط من بعد سليمان صلوات الله عليه بمقتضى العصية في الدول كما قد مناه الى دولتين كانت احدهما بالجزيرة والموصل للاسباط العشرة والاخرى بالقدس والشام ابني يهوذا وبنيامين ثم غلبهم تحتصر ملك بابل على ما كان بأيديهم من الملك اولا الاسباط العشرة ثم ثانياً بني يهوذا وبيت المقدس بعد اتصال ملكهم نحو ألف سنة وخرب مسجدهم وأحرق توراتهم وأمات دينهم ونقلهم الى أصبهان وبلاد العراق الى أن ردهم بعض ملوك الكيلانية من الفرس الى بيت المقدس من بعد سبعين سنة من خروجهم فبنوا المسجد وأقاموا أمر دينهم على الرسم الاول للكهنة فقط والملك للفرس ثم غلب الاسكندر وبنو يونان على الفرس وصار اليهود في ملكهم ثم فشل أمر اليونانيين فاعتر اليهود عليهم بالعصية الطبيعية ودفعوهم عن الاستيلاء عليهم وقام بملكهم الكهنة الذين كانوا فيهم من بني حشمتاي وقتلوا يونان حتي انقراض أمرهم وغلبهم الروم فصاروا تحت أمرهم ثم رجعوا الى بيت المقدس وفيها بنو هيردوس أصهار بني حشمتاي وبقيت دولتهم فحاصروهم مدة ثم افتتحوها عنوة وأخشوا في القتل والهدم والتجريق وخربوا بيت المقدس وأجلوهم عنها الى رومة وما وراءها وهو الخراب الثاني للمسجد ويسميه اليهود بالجلوة الكبرى فلم يبق لهم بعدها ملك لفقدان العصية منهم وبقوا بعد ذلك في ملكة الروم ومن بعدهم يقيم لهم أمر دينهم الرئيس عليهم المسمي بالكوهن * ثم جاء المسيح صلوات الله وسلامه عليه بما جاءهم به من الدين والنسخ لبعض أحكام التوراة وظهرت على يديه الخوارق العجيبة من ابراء الالكه والابرص واحياء الموتى واجتمع عليه كثير من الناس وآمنوا به وأكثرهم الحواريون من أصحابه وكانوا اثني عشر وبعث منهم رسلاً الى الآفاق داعين الى ملته وذلك أيام أوغسطس أول ملوك القيصرية وفي مدة هيردوس ملك اليهود الذي انتزع الملك من بني حشمتاي أصهاره فحسده اليهود وكذبوه وكاتب هيردوس ملكهم ملك القيصرية أوغسطس يغريه به فأذن لهم في قتله ووقع ماثلاً للقرآن من أمره وافترق الحواريون شيعاً ودخل أكثرهم بلاد الروم داعين الى دين النصرانية وكان بطرس كبيرهم فنزل برومة دار ملك القيصرية ثم كتبوا الانجيل الذي أنزل على عيسى صلوات الله عليه في نسخ أربع على اختلاف رواياتهم فكتب متى انجيله في بيت المقدس بالعبرانية ونقله يوحنا بن زبدي منهم الى اللسان اللطيني وكتب لوقا منهم انجيله باللاتيني الى بعض أكابر الروم وكتب

يوحنا بن زبدي منهم انجيله برومة وكتب بطرس انجيله باللاتيني ونسبه الى مرقس تلميذه
واختلفت هذه النسخ الاربع من الانجيل مع انها ليست كلها وحياصرفا بل مشوبة بكلام
عيسى عليه السلام وبكلام الحواريين وكلها مواعظ وقصص والاحكام فيها قليلة جدا واجتمع
الحواريون الرسل لذلك العهد برومة ووضعوا قوانين الملة النصرانية وصيروها بيد اقليمطس
تلميذ بطرس وكتبوا فيها عدد الكتب التي يجب قبولها والعمل بها فن شرعية اليهود القديمة
التوراة وهي خمسة أسفار وكتاب يوشع وكتاب القضاة وكتاب راعوث وكتاب يهوذا وأسفار
الملوك أربعة وسفر بنيامين وكتب المقدسيين لابن كريون ثلاثة وكتاب عزرا الامام وكتاب
أوشير وقصة هامان وكتاب أيوب الصديق ومزامير داود عليه السلام وكتب ابنه سليمان
عليه السلام خمسة ونبوات الانبياء الكبار والصغار ستة عشر وكتاب يشوع بن شارخ وزير
سليمان ومن شرعية عيسى صلوات الله عليه المتلقة من الحواريين نسخ الانجيل الاربعة
وكتب القتاليقون سبع رسائل وثامنها الايريكييس في قصص الرسل وكتاب بولس أربع
عشرة رسالة وكتاب اقليمطس وفيه الاحكام وكتاب أبوغالميس وفيه رؤيا يوحنا بن زبدي
واختلف شأن القياصرة في الاخذ بهذه الشريعة تارة وتعظيم أهلها ثم تركها أخرى والتسلط
عليهم بالقتل والبغي الى أن جاء قسطنطين وأخذ بها واستمروا عليها وكان صاحب هذا الدين
والمقيم لمراسمه يسمونه البطرك وهو رئيس الملة عندهم وخليفة المسيح فيهم يبعث نوابه
وخلفاءه الى ما بعد عنه من أم النصرانية ويسمونه الاسقف أي نائب البطرك ويسمون الامام
الذي يقيم الصلوات ويفتيهم في الدين بالقديس ويسمون المنقطع الذي حبس نفسه في الخلوة
للعباداة بالراهب وأكثر خلواتهم في الصوامع وكان بطرس الرسول رأس الحواريين وكبير
التلاميذ برومة يقيم بها دين النصرانية الى أن قتله نيروز خامس القياصرة فيمن قتل من
البطارقة والاساقفة ثم قام بخلافته في كرسي رومة أريوس وكان مرقاس الانجيلي بالاسكندرية
ومصر والمغرب داعيا سبع سنين فقام بعده حنانيا وتسمي بالبطرك وهو أول البطارقة فيها
وجعل معه اثني عشر قسا على أنه اذا مات البطرك يكون واحد من اثني عشر مكانه ويختار
من المؤمنين واحداً مكان ذلك الثاني عشر فكان أمر البطارقة الى القسوس ثم لما وقع الاختلاف
بينهم في قواعد دينهم وعقائده واجتمعوا ببنية ايام قسطنطين لتحرير الحق في الدين
واتفق ثلثمائة وثمانية عشر من أساقفتهم على رأي واحد في الدين فكتبوه وسموه الامام وصروه
اصلا يرجعون اليه وكان فيما كتبوه ان البطرك القائم بالدين لا يرجع في تعيينه الى اجتهاد
الاقسة كما قرره حنانيا تلميذ مرقاس وأبطلوا ذلك الرأي وانما يقدم عن ملا واختيار من أئمة
المؤمنين ورؤسائهم فبقى الامر كذلك ثم اختلفوا بعد ذلك في تقرير قواعد الدين وكانت لهم

مجموعات في تقريره ولم يختلفوا في هذه القاعدة فبقى الامر فيها على ذلك واتصل فيهم نيابة الاساقفة عن البطاركة وكان الاساقفة يدعون البطرك بالاب أيضاً تعظيماً له فاشتبه الاسم في أعصار متطاولة يقال آخرها بطركية هرقل بالاسكندرية فارادوا أن يميزوا البطرك عن الاسقف في اتعظيم فدعوه البابا ومعناه أبو الآباء وظهر هذا الاسم أول ظهوره بمصر على مازعم جرجيس بن العميد في تاريخه ثم نقلوه الى صاحب الكرسي الاعظم عندهم وهو كرسي رومة لانه كرسي بطرس الرسول كما قدمناه فلم يزل سمة عليه الى الآن ثم اختلفت النصرارى في دينهم بعد ذلك وفيما يعتقدونه في المسيح وصاروا طوائف وفرقا واستظهروا بملوك النصرانية كل على صاحبه فاختلف الحال في المصور في ظهور فرقة دون فرقة الى أن استقرت لهم ثلاث طوائف هي فرقتهم ولا يلتفتون الى غيرها وهم الملكية واليعقوبية والنسطورية ولم نر أن نسخم أوراق الكتاب بذكر مذاهب كفرهم فهي على الجملة معروفة وكلها كفر كما صرح به القرآن الكريم ولم يبق بيننا وبينهم في ذلك جدال ولا استدلال اتما هو الاسلام أو الجزية أو القتل ثم اختلفت كل فرقة منهم ببطرك فبطرك رومة اليوم المسمى بالبابا على رأى الملكية ورومة الأفرنجية وما حكمهم قائم بتلك الناحية وبطرك المعاهدين بمصر على رأي اليعقوبية وهو ساكن بين ظهرانيهم والحشية يديون بدينهم ولبطرك مصر فيهم أساقفة يتوبون غدا في إقامة دينهم هنالك واختص اسم البابا ببطرك رومة لهذا العهد ولا تسمى اليعاقبة بطركهم بهذا الاسم وضبط هذه اللفظة بباءين موحدين من أسفل والنطق بها مفخمة والثانية مشددة ومن مذاهب البابا عند الأفرنجية أنه يحضهم على الاتقياد للملك واحد يرجعون اليه في اختلافهم واجتماعهم يخرجون من افتراق الكلمة ويجرى به العصية التي لافوقها منهم لتكون يده عالية على جميعهم ويسمونه الانبرذور وحرفه الوسط بين الذال والطاء المعجمتين ومباشره يضع التاج على رأسه للتبرك فيسمي المتوج ولعله معنى لفظة الانبرذور وهذا ما خص ما أورده من شرح هذين الاسمين اللذين هما البابا والكوهن والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء

(فصل في مراتب الملك والسلطان وألقابهما)

٣٥

اعلم أن السلطان في نفسه ضعيف يحمل أمراً ثقيلاً فلا بد له من الاستعانة بأبناء جنسه وإذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وسائر مهنة فما ظنك بسياسة نوعه ومن استرعاه الله من خلقه وعباده وهو محتاج الى حماية الكفاية من عدوهم بالمدافعة عنهم والى كف عدوان بعضهم على بعض في أنفسهم بامضاء الاحكام الوازنة فيهم وكف العدوان عليهم في أموالهم باصلاح سبلتهم والى حملهم على مصالحهم وما تعمهم به البلوى في معاشهم ومعاملاتهم من تفقد المعاش

والمكاييل والموازين حذرا من التظنيف والى النظر في المسكة بحفظ النقود التي يتعاملون بها من النش والى سياستهم بما يريد من الاقياد له والرضا بمقاصده منهم وانفراده بالمجد دونهم فيتحمل من ذلك فوق الغاية من معانة القلوب قال بعض الاشراف من الحكماء لمعانة قتل الحيال من أما كتبها أهون علي من معانة قلوب الرجال ثم ان الاستعانة اذا كانت بأولى القربى من أهل النسب أو التربية أو الاصطناع القديم للدولة كانت أكمل لما يقع في ذلك من محاسنة خلقهم لخلقهم فتم المشاكلة في الاستعانة قال تعالى واجعل لى وزيرا من أهلي هرون أخى أشد به أزري وأشركه في أمري وهو إما أن يستعين في ذلك بسيفه أو قلمه أو رأيه أو معارفه أو بحجابه عن الناس أن يزدحموا عليه فيشغلوه عن النظر في مهماتهم أو يدفع النظر في الملك كله ويعول على كفايته في ذلك واضطلاعه فلذلك قد توجد في رجل واحد وقد تفرق في أشخاص وقد يتفرع كل واحد منها الى فروع كثيرة كالقلم ينفرع الى قلم الرسائل والمحاطبات وقلم الصكوك والاقطاعات والى قلم المحاسبات وهو صاحب الحياية والعطاء وديوان الحيش وكالسيف يتفرع الى صاحب الحرب وصاحب الشرطة وصاحب البريد وولاية الثغور * ثم اعلم أن الوظائف السلطانية في هذه الملة الاسلامية مندرجة تحت الخلافة لاشمال منصب الخلافة على الدين والدنيا كما قدمناه فالاحكام الشرعية متعلقة بجميعها وموجودة لكل واحدة منها في سائر وجوهها لعموم تعاق الحكم الشرعي بجميع أفعال العباد والفقهاء ينظر في مرتبة الملك والسلطان وشروط تقايدها استبدادا على الخلافة وهو معنى السلطان أو تعويضا منها وهو معنى الوزارة عندهم كما يأتي وفي نظره في الاحكام والاموال وسائر السياسات مطلقا أو مقيدا وفي موجبات العزل ان عرضت وغير ذلك من معاني الملك والسلطان وكذا في سائر الوظائف التي تحت الملك والسلطان من وزارة أو جباية أو ولاية لا بد للفقهاء من النظر في جميع ذلك كما قدمناه من انسحاب حكم الخلافة الشرعية في الملة الاسلامية على رتبة الملك والسلطان الا أن كلامنا في وظائف الملك والسلطان ورتبته انما هو بمقتضى طبيعة العمران ووجود البشر لا بما يخصها من أحكام الشرع فليس من غرض كتابنا كما علمت فلا نحتاج الى تفصيل أحكامها الشرعية مع أنها مستوفاة في كتب الاحكام السلطانية مثل كتاب القاضي أبي الحسن الماوردي وغيره من اعلام الفقهاء فان أردت استيفاءها فعليك بمطالعها هنالك وانما تكلمنا في الوظائف الخلافية وأفردناها لتمييزها وبين الوظائف السلطانية فقط لالتحقيق أحكامها الشرعية فليس من غرض كتابنا وانما نكلم في ذلك بما تقتضيه طبيعة العمران في الوجود الانساني والله الموفق

﴿الوزارة﴾ وهي أم الخطط السلطانية والرتب الملوكية لان اسمها يدل على مطابق الاعانة

فان الوزارة مأخوذة امانا من الموازنة وهى المعاونة أو من الوزر وهو الثقل كأنه يحمل مع مفاعله أوزاره وأقاله وهو راجع الى المعاونة المطلقة وقد كنا قد منا في أول الفصل أن أحوال السلطان وتصرفاته لاتعدوا أربعة لانها اما أن تكون في أمور حماية الكافة وأسبابها من النظر في الجند والسلاح والحروب وسائر أمور الحماية والمطالبة وصاحب هذا هو الوزير المتعارف في الدول القديمة بالشرق ولهذا العهد بالمغرب واما أن تكون في أمور مخاطباته لمن بعد عنه في المكان أو في الزمان وتنفيذه الاوامر فيمن هو محجوب عنه وصاحب هذا هو الكاتب واما أن تكون في أمور جباية المال واتفاقه وضبط ذلك من جميع وجوهه أن يكون بمضيعة وصاحب هذا هو صاحب المال والجباية وهو المسمى بالوزير لهذا العهد بالشرق واما أن يكون في مدافعة الناس ذوى الحاجات عنه أن يزدحموا عليه فيشغلوه عن فهمه وهذا راجع لصاحب الباب الذى يحجبه فلا تعدو أحواله هذه الاربعة بوجه وكل خطة أو رتبة من رتب الملك والسلطان فاليها يرجع الا أن الارتفاع منها ما كانت الاعانة فيه عامة فيما تحت يد السلطان من ذلك الصنف اذ هو يقتضي مباشرة السلطان دائماً ومشاركته في كل صنف من أحوال ملكه وأما ما كان خاصاً ببعض الناس أو ببعض الجهات فيكون دون الرتبة الاخرى كقيادة ثغر أو ولاية جباية خاصة أو النظر في أمر خاص كحسبة الطعام أو النظر في السكة فان هذه كلها نظر في أحوال خاصة فيكون صاحبها تبعاً لأهل النظر العام وتكون رتبته مرؤسة لأولئك وما زال الأمر في الدول قبل الاسلام هكذا حتى جاء الاسلام وصار الأمر خلافة فذهبت تلك الخطط كلها بذهاب رسم الملك الى ما هو طبعى من المعاونة بالرأى والمفاوضة فيه فلم يمكن زواله اذ هو أمر لا بد منه فكان صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه ويفاضهم في مهماته العامة والخاصة ويخص مع ذلك أبابكر بمخصوصيات أخرى حتى كان العرب الذين عرفوا الدول وأحوالها في كسرى وقصر والنجاشي يسمون أبابكر وزيره ولم يكن لفظ الوزير يعرف بين المسلمين لذهاب رتبة الملك بسداجة الاسلام وكذا عمر مع أبي بكر وعلي وعثمان مع عمر وأما حال الجباية والاتفاق والحساب فلم يكن عندهم رتبة لان القوم كانوا عرباً أميين لا يحسنون الكتاب والحساب فكانوا يستعملون في الحساب أهل الكتاب أو أفراداً من موالى العجم ممن يجيده وكان قليلاً فيهم وأما أشرافهم فلم يكونوا يجيدونه لان الامية كانت صفتهم التي امتازوا بها وكذا حال مخاطبات وتنفيذ الامور لم تكن عندهم رتبة خاصة للأمية التي كانت فيهم والامانة العامة في كتمان القول وتاديبه ولم تخرج السياسة الى اختياره لان الخلافة انما هي دين ليست من السياسة الملكية في شيء وايضاً فلم تكن الكتابة صناعة فيستجداد للخليفة أحسنها لان الكل كانوا يعبرون عن مقاصدهم بأبلغ العبارات ولم يبق الا الخط فكان الخليفة يستتيب

في كتابته متى عن له من يحسنه * وأما مدافعة ذوي الحاجات عن أبوابهم فكان محظورا بالشرعية فلم يفعلوه فلما انقلب الخلافة الى الملك وجاءت رسوم السلطان وألقابه كان أول شيء يديء به في الدولة شأن الباب وسدّه دون الجمهور بما كانوا ينجشون على أنفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم كما وقع بعمر وعلي ومعاوية وعمر بن العاص وغيرهم مع ما في فتحه من ازدحام الناس عليهم وشغاهم بهم عن المهمات فاتخذوا من يقوم لهم بذلك وسموه الحاجب وقد جاء أن عبد الملك لما ولى حاجبه قال له قد وليتك حجابة بابي الا عن ثلاثة المؤذن للصلاة فانه داعي الله وصاحب البريد فأمر ما جاء به وصاحب الطعام لئلا يفسد ثم استفحل الملك بعد ذلك فظهر المشاور والمعين في أمور القبائل والعصائب واستثلافهم وأطلق عليه اسم الوزير وبقي أمر الحسبان في الموالي والذميين واتخذ للسجلات كاتب مخصوص حوطة على أسرار السلطان أن تشتهر فتفسد سياسته مع قومه ولم يكن بمثابة الوزير لانه انما احتيج له من حيث الخط والكتاب لا من حيث اللسان الذي هو الكلام اذ اللسان لذلك العهد على حاله لم يفسد فكانت الوزارة لذلك أرفع رتبهم يومئذ هذا في سائر دولة بني أمية فكان النظر للوزير علما في أحوال التدبير والمفاوضات وسائر أمور الحماية والمطالبات وما يتبعها من النظر في ديوان الجند وفرض العطاء بالاهالة وغير ذلك فلما جاءت دولة بني العباس واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت عظم شأن الوزير وصارت اليه النيابة في انفاذ الحل والعقد وتعينت مرتبته في الدولة وعنت لها الوجوه وخضعت لها الرقاب وجعل لها النظر في ديوان الحسبان لما يحتاج اليه خطه من قسم الاعطيات في الجند فاحتاج الى النظر في جمعه وتفريقه وأضيف اليه النظر فيه ثم جعل له النظر في القلم واترسل لصون أسرار السلطان ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذيع والشياع ودفع اليه فصار اسم الوزير جامعا لخطي السيف والتم وسائر معاني الوزارة والمعاونة حتي لقد دعي جعفر بن يحيى بالسلطان أيام الرشيد اشارة الى عموم نظره وقيامه بالدولة ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها الا الحجابة التي هي القيام على الباب فلم تكن له لاستنكافه عن مثل ذلك ثم جاء في الدولة العباسية شأن الاستبداد على السلطان وتعاور فيها استبداد الوزارة مرة والسلطان أخرى وصار الوزير اذا استبد محتاجا الى استتابة الخليفة اياه لذلك لتصح الاحكام الشرعية وتجيء على حالها كما تقدم فانقسمت الوزارة حينئذ الى وزارة تنفيذ وهي حال ما يكون السلطان قائما على نفسه والى وزارة تفويض وهي حال ما يكون الوزير مستبدا عليه ثم استمر الاستبداد وصار الامر للملك العجم وتعطل رسم الخلافة ولم يكن لأولئك المتغلبين أن ينتحلوا ألقاب الخلافة واستنكفوا من مشاركة الوزراء في اللقب لانهم خول لهم فقسموا بالامارة والسلطان وكان المستبد على الدولة يسمى أمير الامراء

أو بالسلطان الى مياحيه به الخليفة من القابيه كما تراء في ألقابهم وتركوا اسم الوزارة الى من يتولاها للخليفة في خاصته ولم يزل هذا الشأن عندهم الى آخر دولتهم وفسد اللسان خلال ذلك كله وصارت صناعة يتحلفها بعض الناس فامتنت وترفع الوزراء عنها لذلك ولائهم عجم وليست تلك البلاغة هي المقصودة من لسانهم فتخير لها من سائر الطبقات واختصت به وصارت خادمة للوزير واختص اسم الامير بصاحب الحروب والجند وما يرجع اليها ويده مع ذلك عالية على أهل الرتب وأمره نافذ في الكل إما نيابة أو استبداد أو استمرار الأمر على هذا ثم جاءت دولة الترك آخرًا بمصر فرأوا أن الوزارة قد ابتذلت بترفع أولئك عنها ودفعها لمن يقوم بها للخليفة المحجور ونظره مع ذلك متعقب بنظر الامير فصارت مرؤسة ناقصة فاستنكف أهل هذه الرتبة العالية في الدولة عن اسم الوزارة وصار صاحب الاحكام والنظر في الجند يسمى عندهم بالنائب لهذا العهد وبقي اسم الحاجب في مدلوله واختص اسم الوزير عندهم بالنظر في الحياة * وأما دولة بني أمية بالاندلس فأنتفوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة ثم قسموا خطته أصنافًا وأفردوا لكل صنف وزيرًا فجعلوا لحساب المال وزيرًا وللتربيل وزيرًا ولللنظر في حوائج المتظلمين وزيرًا ولللنظر في أحوال أهل الثغور وزيرًا وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت فارتفع مجلسه عن مجلسهم وخصوه باسم الحاجب ولم يزل الشأن هذا الى آخر دولتهم فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب حتى صار ملوك الطوائف يتحلون لقبها فأكثرهم يومئذ يسمى الحاجب كما ذكره ثم جاءت دولة الشيعة بأفريقية والقيروان وكان للقايمين بها رسوخ في البداوة فأغفلوا أمر هذه الخطط أولًا وتنقيح أسماؤها حتى أدركت دولتهم الحضارة فصاروا الى تقليد الدولتين قبلهم في وضع أسماؤها كما تراء في أخبار دولتهم * ولما جاءت دولة الموحدين من بعد ذلك أغفلت الأمر أولًا للبداوة ثم صارت الى اتحال الاسماء والالقب وكان اسم الوزير في مدلوله ثم اتبعوا دولة الامويين وقلدوها في مذاهب السلطان واختاروا اسم الوزير لمن يحجب السلطان في مجلسه ويقف بالوفود والداخلين على السلطان عند الحدود في تحيتهم وخطابهم والآداب التي تلزم في الكون بين يديه ورفعتوا خطة الحجابة عنه ماشاؤا ولم يزل الشأن ذلك الى هذا العهد * وأما في دولة الترك بالمشرق فيسمون هذا الذي يقف بالناس على حدود الآداب في اللقاء والنجية في مجالس السلطان والتقدم بالوفود بين يديه الدويدار ويضيفون اليه استتباع كاتب السر وأصحاب البريد المتصرفين في حاجات السلطان بالقاصية وبالخاضرة وحالهم على ذلك لهذا العهد والله مولى الامور لمن يشاء

(الحجابه) قد قدمنا أن هذا اللقب كان مخصوصاً في الدولة الاموية والعباسية بمن يحجب السلطان عن العامة ويفلق بابه دونهم أو يفتح له على قدره في مواقيته وكانت هذه منزلة يومئذ عن الخطط مرسومة لها إذ الوزير متصرف فيها بما يراه وهكذا كانت سائر أيام بني العباس والى هذا العهد فهي بمصر مرسومة لصاحب الخطة العليا المسمى بالنائب* وأما في الدولة الاموية بالاندلس فكانت الحجابه لمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فمن دونهم فكانت في دولتهم رقيقة غاية كما تراه في أخبارهم كبن حديد وغيره من حجابهم ثم لما جاء الاستبداد على الدولة اختص المستبد باسم الحجابه لشرعها فكان المنصور ابن أبي عامر وأبناءؤه كذلك ولما بدوا في مظاهر الملك وأطواره جاء من بعدهم من ملوك الطوائف فلم يتركوا لقبها وكانوا يعدونه شرفاً لهم وكان أعظمهم ملكاً بعد اتحال ألقاب الملك وأسماؤه لا بد له من ذكر الحجاب وذو الوزارتين يعنون به السيف والقلم ويدلون بالحجابه على حجابه السلطان على العامة والخاصة وبذى الوزارتين على جمعه لخطي السيف والقلم ثم لم يكن في دول المغرب وأفريقية ذكر لهذا الاسم للبداهة التي كانت فيهم وربما يوجد في دولة العبيديين بمصر عند استعظامها وحضارتها إلا أنه قليل* ولما جاءت دولة الموحدين لم تستمكن فيها الحضارة الداعية الى اتحال الألقاب وتمييز الخطط وتعيينها بالاسماء إلا آخر أفلم يكن عندهم من الرتب إلا الوزير فكانوا أولاً يخصون بهذا الاسم الكتاب المتصرف المشارك للسلطان في خاص أمره كبن عطية وعبد السلام الكومي وكان له مع ذلك النظر في الحساب والاشغال المالية ثم صار بعد ذلك اسم الوزير لاهل نسب الدولة من الموحدين كبن جامع وغيره ولم يكن اسم الحجاب معروفاً في دولتهم يومئذ (وأما بنو أبي حفص بافريقية) فكانت الرياسة في دولتهم أولاً والتقديم لوزير الرأي والمشورة وكان يخص باسم شيخ الموحدين وكان له النظر في الولايات والعزل وقود العساكر والحروب واختص الحساب والديوان برتبة أخرى ويسمى متوليها بصاحب الاشغال ينظر فيها النظر المطلق في الدخل والخرج ويحاسب ويستخلص الاموال ويعاقب على التفريط وكان من شرطه أن يكون من الموحدين واختص عندهم القلم أيضاً بمن يجيد الترسيل ويؤمن على الاسرار لان الكتابة لم تكن من متحل القوم ولا الترسيل بلسانهم فلم يشترط فيه النسب واحتاج السلطان لاتساع ملكه وكثرة المرتزقين بداره الى قهرمان خاص بداره في أحواله يجربها على قدرها وترتيبها من رزق وعطاء وكسوة ونفقة في المطابخ والاصطبلات وغيرها وحصر الذخيرة وتنفيذ ما يحتاج اليه في ذلك على أهل الحياة نخسوه باسم الحجاب وربما أضافوا اليه كتابة العلامة على السجلات اذا اتفق أنه يحسن صناعة الكتابة وربما جعلوه لغيره واستمر الامر على ذلك وحجب السلطان نفسه عن الناس فصار

هذا الحاجب واسطة بين الناس وبين أهل الرتب كلهم ثم جمع له آخر الدولة السيف والحرب ثم الرأي والمشورة فصارت الخطة أرفع الرتب وأوعبها للخطط ثم جاء الاستبداد والحجر مدة من بعد السلطان الثاني عشر منهم ثم استبد بعد ذلك حفيده السلطان أبو العباس على نفسه وأذهب آثار الحجر والاستبداد بأذهاب خطة الحجابة التي كانت سلما اليه وبأشرف أموره كلها بنفسه من غير استعانة بأحد والامر على ذلك لهذا العهد

﴿ وأما دولة زنادة بالمغرب ﴾ وأعظمها دولة بني مرين فلا أثر لاسم الحاجب عندهم وأما رئاسة الحرب والعساكر فهي للوزير ورتبة القلم في الحسبان والرسائل راجعة الى من يحسنها من أهلها وان اختصت ببعض البيوت المصطنعين في دولتهم وقد تجمع عندهم وقد تفرق ﴿ وأما باب السلطان وحجبه عن العامة فهي رتبة عندهم فيسمى صاحبها عندهم بالزوار ومعهما المقدم على الجندارة المتصرفين بباب السلطان في تنفيذ أوامره وتصريف عقوباته وانزال سطواته وحفظ المعتقلين في سجنونه والعريف عليهم في ذلك فالباب له وأخذ الناس بالوقوف عند الحدود في دار العامة راجع اليه فكأنها وزارة صغرى

﴿ وأما دولة بني عبد الواد ﴾ فلا أثر عندهم لشيء من هذه الألقاب ولا تمييز للخطط لبداءة دولتهم وتصورها وانما يخصون باسم الحاجب في بعض الاحوال منفذ الخاص بالسلطان في داره كما كان في دولة بني أبي حفص وقد يجمعون له الحسبان والسجل كما كان فيها حامهم على ذلك تقليد الدولة بما كانوا في تبعها وقائمين بدعوتها منذ أول أمرهم

﴿ وأما أهل الاندلس لهذا العهد ﴾ فالخصوص عندهم بالحسبان وتنفيذ حال السلطان وسائر الامور المالية يسمونه بالوكيل وأما الوزير فكالوزير الا أنه قد يجمع له الترسل والسلطان عندهم يضع خطه على السجلات كلها فليس هناك خطة العلامة كما لغيرهم من الدول

﴿ وأما دولة الترك بمصر ﴾ فاسم الحاجب عندهم موضوع لحاكم من أهل الشوكة وهم الترك ينفذ الاحكام بين الناس في المدينة وهم متعددون وهذه الوظيفة عندهم تحت وظيفة النيابة التي لها الحكم في أهل الدولة وفي العامة على الاطلاق وللنائب التولية والعزل في بعض الوظائف على الاحيان ويقطع القليل من الارزاق ويشتهها وتنفذ أوامره كما تنفذ المراسم السلطانية وكان له النيابة المطلقة عن السلطان وللحجاب الحكم فقط في طبقات العامة والجند عند الترافع اليهم واجبار من أبي الانقياد للحكم وطورهم تحت طور النيابة والوزير في دولة الترك هو صاحب حياية الاموال في الدولة على اختلاف أصنافها من خراج أو مكس أو جزية ثم في تصرفها في الانفاقات السلطانية أو الجرايات المقدرة وله مع ذلك التولية والعزل في سائر العمال المباشرين لهذه الحياية والتنفيذ على اختلاف مراتبهم وتباين أصنافهم ومن عوائدهم

أن يكون هذا الوزير من صنف القبط القائمين على ديوان الحسبان والحياة لاختصاصهم بذلك في مصر منذ عصور قديمة وقد يوليها السلطان بعض الاحيان لاهل الشوكة من رجالات الترك أو أبنائهم على حسب الداعية لذلك والله مدبر الامور ومصرفها بحكمته لا اله الا هو رب الاولين والآخرين

(ديوان الاعمال والحيات)

اعلم أن هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك وهي القيام على أعمال الحيات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج وإحصاء العساكر باسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم في إبانها والرجوع في ذلك إلى القوانين التي يريتها قومة تلك الأعمال وقهارة الدولة وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج مبني على جزء كبير من الحساب لا يقوم به الا المهرة من أهل تلك الاعمال ويسمى ذلك الكتاب بالديوان وكذلك مكان جلوس العمال المباشرين لها ويقال ان اصل هذه التسمية ان كسرى نظر يوماً الى كتاب ديوانه وهم يحسبون على أنفسهم كأنهم يحادثون فقال (ديوانه) أي مجانين باغة الفرس فسمي موضعهم بذلك وحذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفاً فقل ديوان ثم نقل هذا الاسم الى كتاب هذه الاعمال المتضمن للقوانين والحسابات وقيل انه اسم للشياطين بالفارسية سمي الكتاب بذلك لسرعة نفوذهم في فهم الامور ووقوفهم على الحلي منها والخفي وجمعهم لما شذ وتفرق ثم نقل الى مكان جلوسهم لتلك الاعمال وعلى هذا فيتناول اسم الديوان كتاب الرسائل ومكان جلوسهم بباب السلطان على ما يأتي بعد وقد تفرد هذه الوظيفة بناظر واحد ينظر في سائر هذه الاعمال وقد يفرد كل صنف منها بناظر كما يفرد في بعض الدول النظر في العساكر واقطاعاتهم وحسبان أعطياتهم أو غير ذلك على حسب مصطلح الدولة وما قرره أولوها* واعلم أن هذه الوظيفة انما تحدث في الدول عند تمكن الغلب والاستيلاء والنظر في أعطاف الملك وفنون التمهيد وأول من وضع الديوان في الدولة الاسلامية عمر رضى الله عنه يقال لسبب مال أتى به أبو هريرة رضى الله عنه من البحرين فاستكثره وتعبوا في قسمه فسموا الى إحصاء الاموال وضبط العطاء والحقوق فأشار خالد بن الوليد بالديوان وقال رأيت ملوك الشام يدنون فقبل منه عمر وقيل بل أشار عليه به الهرمزان لما رأيبعث البعوث بغير ديوان فقبل له ومن يعلم بغية من يغيب منهم فان من تخلف أخل بمكانه وانما يضبط ذلك الكتاب فأثبت لهم ديواناً وسأل عمر عن اسم الديوان فعبه له ولما اجتمع ذلك أمر عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير ابن مطعم وكانوا من كتاب قریش فكتبوا ديوان العساكر الاسلامية على ترتيب الانسان مبتداً

من قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما بعدها الاقرب فالاقرب هكذا كان ابتداء ديوان الجيش وروي الزهري عن سعيد بن المسيب ان ذلك كان في المحرم سنة عشرين وأما ديوان الخراج والحيايات فبقي بعد الاسلام على ما كان عليه من قبل ديوان العراق بالفارسية وديوان الشام بالرومية وكتاب الدواوين من اهل العهد من الفريقين ولما جاء عبد الملك بن مروان واستحال الامر ملكا وانتقل القوم من غضاضة البداوة الى رونق الحضارة ومن سداجة الأمية الى حذق الكتابة وظهر في العرب ومواليهم مهرة في الكتاب والحسبان فأمر عبد الملك سليمان بن سعد والى الاردن لعهد ان ينقل ديوان الشام الى العربية فأكملة لسنة من يوم ابتداءه ووقف عليه سرحون كاتب عبد الملك فقال لكتاب الروم اطلبوا العيش في غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم وأما ديوان العراق فأمر الحجاج كاتبه صالح بن عبد الرحمن وكان يكتب بالعربية والفارسية ولحق ذلك عن زاذان فروخ كاتب الحجاج قبله ولما قتل زاذان في حرب عبد الرحمن بن الاشعث استخلف الحجاج صالحا هذا مكانه وأمره أن ينقل الديوان من الفارسية الى العربية ففعل ورغم لذلك كتاب الفرس وكان عبد الحميد بن يحيى يقول لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب ثم جعلت هذه الوظيفة في دولة بني العباس مضافة الى من كان له النظر فيه كما كان شأن بني برمك وبني سهل بن نوبخت وغيرهم من وزراء الدولة وأما ما يتعلق بهذه الوظيفة من الاحكام الشرعية مما يختص بالجيش أو بيت المال في الدخل والخرج وتميز النواحي بالصلاح والغنوة وفي تقليد هذه الوظيفة لمن يكون وشروط الناظر فيها والكتاب وقوانين الحسابات فأمر راجع الى كتب الاحكام السلطانية وهي مسطورة هنالك وليست من غرض كتابنا وانما نتكلم فيها من حيث طبيعة الملك الذي نحن بصدد الكلام فيه وهذه الوظيفة جزء عظيم من الملك بل هي ثالثة أركانه لان الملك لا بد له من الجند والمال والمخاطبة لمن غاب عنه فاحتاج صاحب الملك الى الاعوان في أمر السيف وأمر القلم وأمر المال فينفرد صاحبها لذلك بحجزه من رياسة الملك وكذلك كان الامر في دولة بني أمية بالاندلس والطوائف بعدهم وأما في دولة الموحدين فكان صاحبها انما يكون من الموحدين يستقل بالنظر في استخراج الاموال وجمعها وضبطها وتعقب نظر الولاة والعمال فيها ثم تنفيذها على قدرها وفي مواقيتها وكان يعرف بصاحب الاشغال وكان ربما يليها في الجهات غير الموحدين ممن يحسنها ولما استبد بنو أبي حفص بافريقية وكان شأن الجالية من الاندلس فقدم عليهم أهل البيوتات وفيهم من كان يستعمل ذلك في الاندلس مثل بني سعيد أصحاب القلعة جوار غرناطة المعروفين ببني أبي الحسن فاستكفوا بهم في ذلك وجعلوا لهم النظر في الاشغال كما كان لهم بالاندلس ودلوا فيها بينهم وبين الموحدين ثم استقل بها أهل الحسبان والكتاب وخرجت عن الموحدين

ثم لما استعاض أمر الحاجب ونفذ أمره في كل شأن من شؤون الدولة تعطل هذا الرسم وصار صاحبه مرؤسا للحاجب وأصبح من جملة الحياة وذهبت تلك الرياسة التي كانت له في الدولة * وأما دولة بني مرين لهذا العهد فحسبان العطاء والخراج مجموع لواحد وصاحب هذه الرتبة هو الذي يصحح الحسابات كلها ويرجع الى ديوانه ونظره معقب بنظر السلطان أو الوزير وخطه معتبر في صحة الحساب في الخراج والعطاء هذه أصول الرتب والخطط السلطانية وهي الرتب العالية التي هي عامة النظر ومباشرة للسلطان * وأما هذه الرتبة في دولة الترك فتتوعة وصاحب ديوان العطاء يعرف بناظر الجيش وصاحب المال مخصوص باسم الوزير وهو الناظر في ديوان الحياة العامة للدولة وهو أعلى رتب الناظرين في الاموال لان النظر في الاموال عندهم يتنوع الى رتب كثيرة لانفساح دولتهم وعظمة ساطاتهم واتساع الاموال والحيايات عن أن يستقل بضبطها الواحد من الرجال ولو بلغ في الكفاية مبالغة فتعين للنظر العام منها هذا المخصوص باسم الوزير وهو مع ذلك رديف لمولى من موالي السلطان وأهل عصبته وأرباب السيوف في الدولة يرجع نظر الوزير الى نظره ويجهده في متابعتها ويسمى عندهم أستاذ الدولة وهو أحد الأمراء الأكابر في الدولة من الجند وأرباب السيوف ويتبع هذه الخطة خطط عندهم أخرى كلها راجعة الى الاموال والحسبان مقصورة النظر على أمور خاصة مثل ناظر الخاص وهو المباشر لأموال السلطان الخاصة به من أقطاعه أو سهمانه من أموال الخراج وبلاد الحياة مما ليس من أموال المسلمين العامة وهو تحت يد الأمير أستاذ الدار وان كان الوزير من الجند فلا يكون لأستاذ الدار نظر عليه ونظر الخاص تحت يدا الخازن لاموال السلطان من مماليكه المسمى خازن الدار لاختصاص وظيفتهما بمال السلطان الخاص هذا بيان هذه الخطة بدولة الترك بالمشرق بعد ما قدمناه من أمرها بالمغرب والله مصرف الأمور لارب غيره

(ديوان الرسائل والكتابة)

هذه الوظيفة غير ضرورية في الملك لاستغناء كثير من الدول عنها رأسا كما في الدول العريقة في البداوة التي لم يأخذها تهذيب الحضارة ولا استحكام الصنائع وانما أكد الحاجة اليها في الدولة الاسلامية شأن اللسان العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد فصار الكتاب يؤدي كنه الحاجة بأبلغ من العبارة اللسانية في الأكثر وكان الكاتب للأمير يكون من أهل نسله ومن عظماء قبيله كما كان للخلفاء وأمراء الصحابة بالشأم والعراق لعظم أمانتهم وخلوص أسرارهم فاما فسد اللسان وصار صناعة اختص بمن يحسنه وكانت عند بني العباس رفيعة وكان

الكتاب يصدر السجلات مطلقة ويكتب في آخرها اسمه ويحتم عليها بخاتم السلطان وهو طابع منقوش فيه اسم السلطان أو اشارته يغمس في طين أحمر مذاب بالماء ويسمى طين الختم ويطبع به على طرفي السجل عند طيه والصاقه ثم صارت السجلات من بعدهم تصدر باسم السلطان ويضع الكتاب فيها علامة أو لا أو آخراً على حسب الاختيار في محلها وفي لفظها ثم قد تنزل هذه الحطة بارتفاع المكان عند السلطان لغير صاحبها من أهل المراتب في الدولة أو استبداد وزير عليه فتصير علامة هذا الكتاب ملغاة الحكم بعلامة الرئيس عليه يستبدل بها فيكتب صورة علامته المعهودة والحكم لعلامة ذلك الرئيس كما وقع آخر الدولة الحفصية لما ارتفع شأن الحجابة وصار أمرها الى التفويض ثم الاستبداد صار حكم العلامة التي للكتاب ملغى وصورتها ثابتة اتباعاً لما سلف من أمرها فصار الحاجب يرسم للكتاب امضاء كتابه ذلك بخط يصنعه ويخبر له من صيغ الانفاذ ماشاء فيأتمر الكتاب له ويضع العلامة المعتادة وقد يختص السلطان بنفسه بوضع ذلك اذا كان مستبدأ بامر قائماً على نفسه فيرسم الامر للكتاب ليضع علامته ومن خطط الكتابة التوقيع وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله ويوقع على القصص المرفوعة اليه أحكامها والفصل فيما متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه فاما أن تصدر كذلك واما أن يحذو الكاتب على مثاله في سجل يكون بيد صاحب القصة ويحتاج الموقع الى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه وقد كان جعفر بن يحيى يوقع في القصص بين يدي الرشيد ويرمي بالقصة الى صاحبها فكانت توقعاته يتنافس البلاغة في تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها حتى قيل انها كانت تباع كل قصة منها بدينار وهكذا كان شأن الدول * وان لم أن صاحب هذه الحطة لا بد أن يتخير من أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم وزيادة العلم وعارضة البلاغة فانه معرض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك مع ما تدعو اليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل مع ما يضطر اليه في الترسل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها وقد تكون الرتبة في بعض الدول مستندة الى أرباب السيوف لما يقتضيه طبع الدولة من البعد عن معاناة العلوم لاجل سذاجة العصبية فيختص السلطان أهل عصبية بخط دولته وسائر رتبة فيقلد المال والسيف والكتابة منهم فاما رتبة السيوف فتستغنى عن معاناة العلم واما المال والكتابة فيضطر الى ذلك للبلاغة في هذه والحسبان في الاخرى فيختارون لها من هذه الطبقة ما دعت اليه الضرورة ويقلدونه الا أنه لا تكون يد آخر من أهل العصبية غالبية على يده ويكون نظره متصرفاً عن نظره كما هو في دولة الترك لهذا العهد بالمشرق فان الكتابة عندهم وان كانت لصاحب الانشاء الا أنه تحت يد أمير من أهل عصبية السلطان يعرف بالدويدار

وتعويل السلطان ووثوقه به واستنامته في غالب أحواله اليه وتعويله على الآخر في احوال
 البلاغة وتطبيق المقاصد وكتبان الأسرار وغير ذلك من توابها وأما الشروط المعتمدة في صاحب
 هذه الرتبة التي يلاحظها السلطان في اختياره وانتقائه من أصناف الناس فهي كثيرة وأحسن
 من استوعبها عبد الحميد الكاتب في رسالته الى الكتاب وهي *أما بعد حفظكم الله يا أهل صناعة
 الكتابة وحاطكم ووفقكم وأرشدكم فان الله عز وجل جعل الناس بعد الانبياء والمرسدين
 صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ومن بعد الملوك المكرمين أصنافا وان كانوا في الحقيقة سواء
 وصرفهم في صنوف الصناعات وضروب المحاولات الى أسباب معاشهم وأبواب أرزاقهم
 فجعلكم معشر الكتاب في أشرف الجهات أهل الأدب والروايات والعلم والرياسة بكم ينظم للخلافة
 محاسنها وتستقيم أمورها وبصالحكم يصلح الله للعالم سلطانهم وتعمر بلدانهم لا يستغني الملك
 عنكم ولا يوجد كاف الا منكم فوقكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون وأبصارهم
 التي بها يبصرون وألسنتهم التي بها ينطقون وأيديهم التي بها يبطشون فامتكم الله بما خصكم
 من فضل صناعتكم ولا نزع عنكم مآضاه من النعمة عليكم وليس أحد من أهل الصناعات
 كلها أحوج الى اجتماع خلال الخير المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم أيها
 الكتاب اذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم فان الكتاب يحتاج من نفسه
 ويحتاج منه صاحبه الذي يشق به في مهمات أموره أن يكون حليما في موضع الحلم فهما في
 موضع الحكم مقداما في موضع الاقدام محجاما في موضع الاحجام مؤثرا للعفاف والعدل
 والانصاف كتوما للأسرار وفيما عند الشدائد عالما بما يأتي من التوازل يضع الأمور مواضعها
 والطوارق في أماكنها قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكمه وان لم يحكمه أخذ منه بمقدار
 ما يكتفي به يعرف بغريزة عقله وحسن أدبه وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده وعاقبة ما
 يصدر عنه قبل صدوره فيعد لكل أمر عدته وعتاده ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته فتتأفوا
 يا معشر الكتاب في صنوف الآداب وفقهوا في الدين وأبدؤا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض
 ثم العربية فانها ثقاف ألسنتكم ثم أحيّدوا الخطفاته حلية كتبكم وارووا الاشعار واعرفوا غيرها
 ومعانيها وايام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها فان ذلك معين لكم على ماتسمو اليه هممكم ولا
 تضعوا النظر في الحساب فانه قوام كتاب الخراج وارغبوا بانفسكم عن المطامع سنيها ودنياها
 وسفساف الامور ومحارها فانها مذلة للرقاب مفسدة للكتاب ونزهوا صناعتكم عن الدناءة
 واربؤا بانفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات واياكم والكبر والسخف والعظمة
 فانها عداوة مجتلبة من غير احنة ومحابوا في الله عز وجل في صناعتكم وتواصوا عليها بالذي
 هو أليق لاهل الفضل والعدل والتبيل من سلفكم وان نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا

عليه وواسوه حتى يرجع اليه حاله ويثوب اليه أمره وان أقعد أحدا منكم الكبير عن مكسبه ولقاء اخوانه فزوروه وعظموه وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته اليه أحوط منه على ولده وأخيه فان عرضت في الشغل محمدا فلا يصرفها الا الى صاحبه وان عرضت مذمة فليحملها هو من دونه وليحذر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال فان العيب اليكم معشر الكتاب أسرع منه الى الغراء وهو لكم أفسد منه لها فقد علمتم ان الرجل منكم اذا صحبه من يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره واحتماله وخيره ونصيحته وكمآن سره وتدير أمره ما هو جزاء لحقه ويصدق ذلك تبعاله غدا الحاجة اليه والاضطراب الى ماله فاستشعروا ذلك وفقكم الله من أنفسكم في حالة الرخاء والشدّة والحرمات والمواساة والاحسان والسراء والضراء فنعمة الشيمة هذه من وسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة واذا ولي الرجل منكم أو صير اليه من أمر خلق الله وعياله أمر فليراقب الله عز وجل وليؤثر طاعته وليكن على الضعيف رفيقا وللمظلوم منصفا فان الخلق عيال الله وأحبهم اليه أرفقهم بعياله ثم ليكن بالعدل حاكما وللأشراف مكرما وللفي موفرا وللبلاد عامرا وللارعية متألفا وعن أذاهم متخلفا وليكن في مجلسه متواضعا حليما وفي سجلات خراجة واستقضاء حقوقه رفيقا واذا صحب أحدكم رجلا فليختبر خلأقه فاذا عرف حسنها وقبيحها أعانه على ما يوافق من الحسن واحتال على صرفه عما يهواه من القبح بالطف حيلة وأجمل وسيلة وقد علمتم أن سائس البهيمة اذا كان بصيرا بسياستها التمس معرفة أخلاقها فان كانت رموحا لم يهجمها اذاركها وان كانت شبوبا اتقاهما من بين يديها وان خاف منها شروا توقاها من ناحية رأسها وان كانت حرونا قمع برفق هوأها في طرقها فان استمرت عطفها يسيرا فيساس له قيادها وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجربهم وداخلهم والكتاب لفضل أدبه وشريف صنعه ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوله من الناس وينظره ويفهم عنه أو يخاف سطوته أولى بالرفق لصاحبه ومداراة وتقويم أوده من سائس البهيمة التي لا تحير جوابا ولا تعرف صوابا ولا تفهم خطابا الا بقدر ما يصيرها اليه صاحبها الراكب عليها الأفارققوا رحمكم الله في النظر واعملوا ما أمكنكم فيه من الروية والفكر تأمنا باذن الله ممن صحبتموه النبوة والاستقلال والخفوة ويصير منكم الى الموافقة وتصيروا منه الى المؤاخاة والشفقة ان شاء الله ولا يجاوزن الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه ونباله وخدمه وغير ذلك من فنون أمره قدر حقه فانكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعتكم خدمة لا تحملون في خدمتكم على التقصير وحفظة لا تحتمل منكم أفعال التضييع والتبذير واستعينوا على عفافكم بالقصد في

كل ما ذكرته لكم وقصصته عليكم واحذروا متالف السرف وسوء عاقبة الترف فانهما يعقبان
 الفقر ويدلان الرقاب ويفضحان أهلها ولا سيما الكتاب وأرباب الآداب وللأمور أشباه وبعضها
 دليل على بعض فاستدلوا على مؤتلف أعمالكم بما سبقت اليه تجربتكم ثم اسلكوا من مسالك
 التدبير وأوضحها بحجة وأصدقها حجة وأحمد عاقبة واعلموا أن للتدبير آفة متلفة وهو الوصف
 الشاغل لصاحبه عن انفاذ علمه ورويته فليقتصد الرجل منكم في مجلسه قصد الكافي من منطقته
 وليؤجز في ابتدائه وجوابه وليأخذ بمجامع حججه فان ذلك مصلحة لفعله ومدفعة للشاغل
 عن اكثاره وليصرع الى الله في صلة توفيقه وامداده بتسديده مخافة وقوعه في الغلط المضر
 ببذنه وعقله وآدابه فانه ان ظن منكم ظان أو قال قائل ان الذي برز من جميل صناعته وقوة حركته
 انما هو بفضل حيلته وحسن تدبيره فقد تعرض بحسن ظنه أو مقالته الى أن يكله الله عز وجل
 الى نفسه فيصير منها الى غير كاف وذلك على من تأمله غير خاف ولا يقول أحد منكم انه أبصر
 بالأمور وأحمل لعب التدبير من مرافقه في صناعته ومصاحبه في خدمته فان أعقل الرجائين
 عند ذوى الالباب من رمي بالعجب وراء ظهره ورأى أن أصحابه أعقل منه وأجل في طريقته
 وعلى كل واحد من الفريقين أن يعرف فضل نعم الله جل ثناؤه من غير اغترار برأيه ولا
 تزكية لنفسه ولا يكثر على أخيه أو نظيره وصاحبه وعشيرته وحمد الله واجب على الجميع وذلك
 بالتواضع لعظمته والتذلل لعزته والتحدث بنعمته (وأنا أقول) في كتابي هذا ما سبق به المثل
 من تلزمه النصيحة يلزمه العمل وهو جوهر هذا الكتاب وغرة كلامه بعد الذي فيه من ذكر
 الله عز وجل فلذلك جعلته آخره وتممته به تولانا الله وإياكم يا معشر الطلبة والكتبة بما يتولى
 به من سبق علمه باسعاده وارشاده فان ذلك اليه ويده والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته اه
 (الشرطة) ويسمى صاحبها لهذا العهد بأفريقية الحاكم وفي دولة أهل الاندلس صاحب المدينة
 وفي دولة الترك الوالى وهي وظيفة مروسة لصاحب السيف في الدولة وحكمه نافذ في صاحبها
 في بعض الاحيان وكان أصل وضعها في الدولة العباسية لمن يقيم أحكام الجرائم في حال استبدائها
 أولا ثم الحدود بعد استيفائها فان التهم التي تعرض في الجرائم لا نظر للشرع الا في استيفاء
 حدودها وللسياسة النظر في استيفاء موجباتها باقرار يكرهه عليه الحاكم اذا احتفت به القرائن
 لما توجه المصلحة العامة في ذلك فكان الذي يقوم بهذا الاستبداد وباستيفاء الحدود بعده اذا
 تنزه عنه القاضي يسمى صاحب الشرطة وربما جعلوا اليه النظر في الحدود والدماء باطلاق
 وأفردوها من نظر القاضي ونزها هذه المرتبة وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليم
 ولم تكن عامة التنفيذ في طبقات الناس انما كان حكمهم على الدهاء وأهل الريب والضرب على
 أيدي الرعاع والفجرة ثم عظمت نباهتها في دولة بني أمية بالاندلس ونوعت الى شرطة كبرى

وشرطة صغرى وجعل حكم الكبرى على الخاصة والدهاء وجعله على أهل المراتب السلطانية والضرب على أيديهم في الظلمات وعلى أيدي أقاربهم ومن اليهم من أهل الحياه وجعل صاحب الصغرى مخصوصا بالعامه ونصب لصاحب الكبرى كرسي بباب دار السلطان ورجال يتبوؤن المقاعد بين يديه فلا يرحون عنها الا في تصرفه وكانت ولايتها الاكبر من رجالات الدولة حتي كانت ترشيحا للوزارة والحجابه وأما في دولة الموحدين بالمغرب فكان لها حظ من التتويه وان لم يجعلوها عامه وكان لا يلبها الا رجالات الموحدين وكبرائهم ولم يكن له التحكم على أهل المراتب السلطانية ثم فسد اليوم منصبها وخرجت عن رجال الموحدين وصارت ولايتها لمن قام بها من المصطنعين وأما في دولة بني مرين لهذا العهد بالمشرق فولايتها في بيوت من مواليهم وأهل اصطناعهم وفي دولة الترك بالمشرق في رجالات الترك أو أعقاب أهل الدولة قبلهم من الكرد يتخبرونهم لها في النظر بما يظهر منهم من الصلابه والمضاء في الاحكام لقطع مواد الفساد وحسم أبواب الذخارة وتخريب مواطن الفسوق وتفريق مجامعه مع اقامة الحدود الشرعية والسياسة كما تقتضيه رعاية المصالح العامة في المدينة والله مقلب الليل والنهار وهو العزيز الجبار والله تعالى أعلم

(قيادة الاساطيل) وهي من مراتب الدولة وخطتها في ملك المغرب وأفريقية ومروسة لصاحب السيف وتحت حكمه في كثير من الاحوال ويسمى صاحبها في عرفهم الملند بتفخيم اللام منقولا من لغة الافرنجة فانه اسمها في اصطلاح لغتهم وانما اختصت هذه المرتبة بملك أفريقية والمغرب لانهما جميعاً على ضفة البحر الرومي من جهة الجنوب وعلى عدوته الجنوبية بلاد البربر كلهم من سبتة الى الاسكندرية الى الشام وعلى عدوته الشمالية بلاد الاندلس والافرنجة والصقالبة والروم الى بلاد الشام أيضاً ويسمى البحر الرومي والبحر الشامي نسبة الى أهل عدوته والساكنون بسيف هذا البحر وسواحه من عدوته يعانون من احواله مالا تعانيه أمة من أمم البحار فقد كانت الروم والافرنجة والقوط بالعدوة الشمالية من هذا البحر الرومي وكانت أكثر حروبهم ومتاجرهم في السفن فكانوا مهرة في ركوبه والحرب في أساطيله ولما أسف من أسف منهم الى ملك العدو الجنوبية مثل الروم الى أفريقية والقوط الى المغرب أجازوا في الاساطيل وماكوها وتغلبوا على البربر بها واثرتوا من أيديهم أمرها وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة وسيطلة وجبلولاء ومرواق وشرشال وطنجة وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يحارب صاحب رومة ويبعث الاساطيل لحربه مشحونة بالعساكر والعدد فكانت هذه عادة لاهل هذا البحر الساكنين حقا فيه معروفة في القديم والحديث ولما ملك المسلمون مصر كتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص

رضي الله عنهما أن صف لي البحر فكتب اليه أن البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف دود على عود فأوعز حينئذ بمنع المسلمين من ركوبه ولم يركبه أحد من العرب الا من اقتات على عمر في ركوبه ونال من عقابه كما فعل بعرجة بن هرمثة الازدي سيد بحيلة لما أغزاه عمان فبلغه غزوه في البحر فانكر عليه وعنفه أنه ركب البحر للغزو ولم يزل الشأن ذلك حتى اذا كان لعهد معاوية أذن للمسلمين في ركوبه والجهاد على أعواده والسبب في ذلك أن العرب لبدوتهم لم يكونوا أول الامر مهرة في ثقافته وركوبه والروم والافرنجة لممارستهم أحواله ومراباهم في التقلب على أعواده مرتوا عليه وأحكموا الدربة بثقافته فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أم العجم خولا لهم وتحت أيديهم وتقرب كل ذي صنعة اليهم بمبلغ صناعته واستخدموا من انتوائية في حاجاتهم البحرية أنما تكررتم ممارستهم للبحر وثقافته استحدثوا بصراء بها فشرهوا الى الجهاد فيه وأنشؤا السفن فيه والشواني وشحنوا الاساطيل بالرجال والسلاح وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أم الكفر واختصوا بذلك من ممالكهم وتغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافظته مثل الشام وأفريقية والمغرب والاندلس وأوعز الخليفة عبد الملك الى حسان بن النعمان عامل أفريقية باتخاذ دار الصناعة بتونس لانشاء الآلات البحرية حرصا على مراسم الجهاد ومنها كان فتح صقلية أيام زيادة الله الاول ابن ابراهيم ابن الاغلب على يد أسد بن الفرات شيخ الفتيا وفتح قوصرة أيضاً في أيامه بعدان كان معاوية ابن خديج أغزى صقلية أيام معاوية بن أبي سفيان فلم يفتح الله على يديه وفتحت على يد ابن الاغلب وقائده أسد بن الفرات وكانت من بعد ذلك أساطيل أفريقية والاندلس في دولة العبيدين والامويين تتعاقب الى بلادها في سبيل الفتنة فتجوس خلال السواحل بالافساد والتخريب وانتهى اسطول الاندلس أيام عبد الرحمن الناصر الى مائتي مركب أو نحوها واسطول أفريقية كذلك مثله أو قريباً منه وكان قائد الاساطيل بالاندلس ابن رماحس ومرفوها لاحت والاقلاع بجاية والمرية وكانت أساطيلها مجتمعة من سائر الممالك من كل بلد تتخذ فيه السفن أسطول يرجع نظره الى قائد من النوائية يدبر أمر حربه وسلاحه ومقاتلته ورئيس يدبر أمر جريته بالريح أو بالمجاذيف وأمرار سائه في مرفئه فاذا اجتمعت الاساطيل لغز ومحفل أو غرض سلطاني مهم عسكرت بمرفئها المعلوم وشحنها السلطان برجاله وانجاد عساكره ومواليه وجعلهم لنظر أمير واحد من أعلى طبقات أهل مملكته يرجعون كلهم اليه ثم يسرحهم لوجههم وينتظر ايهم بالفتح والغنمة وكان المسلمون لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه فلم يكن للامم النصرانية قبل بأساطيلهم بشيء من جوانبه وامطوا ظهره للفتح سائر أيامهم فكانت لهم المقامات المألوفة من الفتح والغنائم

وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنورقة وبابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وأفريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والأفرنج وكان أبو القاسم الشيعي وأبناءؤه يغزون أساطيلهم من المهديّة جزيرة جنوة فتقلب بالظفر والغنيمة واقتح مجاهد العامري صاحب دانية من ملوك الطوائف جزيرة سردانية في أساطيله سنة خمس وأربعمئة وارتجها النصراني لوقتها والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر وسارت أساطيلهم فيهم جائية وزاهية والعساكر الاسلاميّة تجز البحر في الاساطيل من صقلية الى البر الكبير المقابل لها من العدوّة الشماليّة فتوقع بملوك الأفرنج وتخنّ في ممالكهم كما وقع في أيام بني الحسين ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة العبيديين وأحازت أمّ النصرانية بأساطيلهم الى الجانب الشمالي الشرقي منه من سواحل الأفرنجية والصقلية وجزائر الرومانية لا يعدونها وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الأسد على فريسته وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعددا واختلفت في طرقه سائما وحربا فلم تسبح للنصرانية فيه ألواح حتى اذا أدرك الدولة العبيدية والاموية الفشل والوهن وطرقها الاعتدال مد النصراني أيديهم الى جزائر البحر الشرقية مثل صقلية وأفريطش ومالطة فملكوها ثم ألحوا على سواحل الشام في تلك الفطرة وملكوا طرابلس وعسقلان وصور وعكا واستولوا على جميع الثغور بسواحل الشام وغلبوا على بيت المقدس وبنوا عليه كنيسة لظاهر دينهم وعبادتهم وغلبوا بني خزرون على طرابلس ثم على قابس وصفاقس ووضعوا عليهم الجزية ثم ملكوا المهديّة مقر ملوك العبيديين من يد أعقاب بلديّ بن زيري وكانت لهم في المائة الخامسة الكرة بهذا البحر وضعف شأن الاساطيل في دولة مصر والشام الى أن انقطع ولم يعتنوا بشيء من أمره لهذا العهد بعد أن كان لهم به في الدولة العبيدية عناية تجاوزت الحد كما هو معروف في أخبارهم فبطل رسم هذه الوظيفة هنالك وبقيت بأفريقية والمغرب فصارّت محتصة بها وكان الجانب الغربي من هذا البحر لهذا العهد موفور الاساطيل ثابت القوة لم يخيفه عدو ولا كانت لهم به كرة فكان قائد الاسطول به لعهد لمتونة بني ميمون رؤساء جزيرة قادس ومن أيديهم أخذها عبد المؤمن بتسليمهم وطاعتهم وانتهى عدد أساطيلهم الى المائة من بلاد العدوتين جميعا * ولما استفحلت دولة الموحيدين في المائة السادسة وملكوا العدوتين أقاموا خطة هذا الاسطول على أتم ماعرف وأعظم ماعهد وكان قائد اسطولهم أحمد الصقلي أصله من صديغار الوطنين بجزيرة جربة من سرويكنش أسره النصراني من سواحها وربّي عندهم واستخلصه صاحب صقلية واستكفاه ثم هلك وولى ابنه فأسخطه ببعض النزغات وخشي على نفسه ولحق بتونس ونزل على السيد بها من بني عبد المؤمن وأجاز الى مراكنش فتلقاته الحليفة يوسف بن عبد

المؤمن بالمبرة والكرامة وأجزل الصلة وقلده أمر أساطيله فجلى في جهاد أم النصرانية وكانت له آثار وأخبار ومقامات مذكورة في دولة الموحدين وانتهت أساطيل المسلمين على عهده في الكثرة والاستجادة الى ما لم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه ولما قام صلاح الدين يوسف ابن أيوب ملك مصر والشام لعهد باسترجاع ثغور الشام من يد أم النصرانية وتطهير بيت المقدس من رجس الكفر وبنائه تتابعت أساطيلهم الكفرية بالمدد لتلك الثغور من كل ناحية قريبة لبيت المقدس الذي كانوا قد استولوا عليه فأمدوهم بالعدد والأقوات ولم تقاومهم أساطيل الاسكندرية لاستمرار الغلب لهم في ذلك الجانب الشرقي من البحر وتعدد أساطيلهم فيه وضعف المسلمين منذ زمان طويل عن مماثلتهم هناك كما أشرنا اليه قبل فأوفد صلاح الدين على أبي يعقوب المنصور سلطان المغرب لعهد من الموحدين رسوله عبد الكريم بن منقذ من بيت بني منقذ ملوك شيزر وكان ملكها من أيديهم وأبقى عليهم في دولته فبعث عبد الكريم منهم هذا الى ملك المغرب طالبا مدد الاساطيل لتجول في البحر بين أساطيل الكفرة وبين مراءهم من امداد النصرانية بثغور الشام وأحجبه كتابه اليه في ذلك من انشاء الفاضل اليبساني يقول في افتتاحه فتح الله لسيدنا أبواب المناجح والميامن حسبا نقله العماد الاصفهاني في كتاب الفتح القدسي فقم عليهم المنصور مخافهم عن خطابه بأمر المؤمنين وأسرهم في نفسه وحملهم على مناهج البر والكرامة وردهم الى مرساهم ولم يجبه الى حاجته من ذلك وفي هذا دليل على اختصاص ملك المغرب بالاساطيل وما حصل للنصرانية في الجانب الشرقي من هذا البحر من الاستطالة وعدم عناية الدول بمصر والشام لتلك العهد وما بعده لشأن الاساطيل البحرية والاستعداد منها للدولة ولما هلك أبو يعقوب المنصور واعتلت دولة الموحدين واستولت أم الجلالة على الاكثر من بلاد الاندلس وأجزاء المسلمين الى سيف البحر وملكوا الجزائر التي بالجانب الغربي من البحر الرومي قويت ريجهم في بسط هذا البحر واشتدت شوكتهم وكثرت فيه أساطيلهم وتراجعت قوة المسلمين فيه الى المساواة معهم كما وقع لعهد السلطان ابي الحسن ملك زنادة بالمغرب فان أساطيله كانت عند مرامه الجهاد مثل عدة النصرانية وعديدهم ثم تراجعت عن ذلك قوة المسلمين في الاساطيل لضعف الدولة ونسيان عوائد البحر بكثرة العوائد البدوية بالمغرب وانقطاع العوائد الاندلسية ورجع النصارى فيه الى دينهم المعروف من الدربة فيه والمران عليه والبصر بأحواله وغلب الامم في لجته وعلى أعواده وصار المسلمون فيه كالأجانب الاقليلا من أهل البلاد الساحلية لهم المران عليه لو وجدوا كثرة من الانصار والاعوان أو قوة من الدولة تستجيش لهم أعوانا وتوضح لهم في هذا الغرض مسلكو بقت الرتبة لهذا العهد في الدولة الغربية محفوظة والرسم في معانة الاساطيل بالانشاء والركوب معهودا لما عساه تدعو اليه الحاجة من

الاغراض السلطانية في البلاد البحرية والمسلمون يستهونون الريج على الكفر وأهله فمن المشتهر بين أهل المغرب عن كتب الحدنان أنه لا بد للمسلمين من الكرة على النصرانية وافتتاح ما وراء البحر من بلاد الافرنجة وان ذلك يكون في الاساطيل والله ولي المؤمنين وهو حسبنا ونعم الوكيل

٣٦ فصل في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول

(اعلم) أن السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بهما على أمره الا أن الحاجة في أول الدولة الى السيف مادام أهلها في تمهيد أمرهم أشد من الحاجة الى القلم لان القلم في تلك الحال خادم فقط منفذ للحكم السلطاني والسيف شريك في المعونة وكذلك في آخر الدولة حيث تضعف عصبيتها كما ذكرناه ويقل أهلها بما ينالهم من الهرم الذي قدمناه فتححتاج الدولة الى الاستظهار بأرباب السيوف وتقوى الحاجة اليهم في حماية الدولة والمدافعة عنها كما كان الشأن أول الامر في تمهيدها فيكون للسيف مزية على القلم في الحالتين ويكون أرباب السيف حينئذ أوسع جاها وأكثر نعمة وأسنى اقطاعا وأما في وسط الدولة فيستغني صاحبها ببعض الشيء عن السيف لانه قد تمهد أمره ولم يبق همه الا في تحصيل ثمرات الملك من الجباية والضبط ومباهاة الدول وتنفيذ الاحكام والقلم هو المعين له في ذلك فتعظم الحاجة الى تصريفه وتكون السيوف مهمة في مضاجع أغمارها الا اذا نابت نائبة أودعيت الى سد فرجة وماسوي ذلك فلا حاجة اليها فتكون أرباب الاقلام في هذه الحاجة أوسع جاها وأعلى رتبة وأعظم نعمة وثروة وأقرب من السلطان محاسنا وأكثر اليه ترددا وفي خلواته نجيا لانه حينئذ آله التي بها يستظهر على تحصيل ثمرات ملكه والنظر في اعطافه وتثقيف أطرافه والمباهاة بأحواله ويكون الوزراء حينئذ وأهل السيوف مستغني عنهم مبعدين عن باطن السلطان حذرين على أنفسهم من بوارده وفي معنى ذلك ما كتب به أبو مسلم للمنصور حين أمره بالقدوم أما بعد فانه مما حفظناه من وصايا الفرس أخوف ما يكون الوزراء اذا سكنت الدهاء سنة الله في عبادته والله سبحانه وتعالى أعلم

٣٧ فصل في شارات الملك والسلطان الخاصة به

(اعلم) أن للسلطان شارات وأحوالا تقتضيها الابهة والبذخ فيختص بها ويميز بانتمائها عن الرعية والبطانة وسائر الرؤساء في دولته فلنذكر ما هو مشتهر منها بمبلغ المعرفة وفوق كل ذي علم عليم (الآلة) فمن شارات الملك اتخاذ الآلة من نشر الأولوية والرايات وقرع الطبول والنفخ في الأبواق والقرون وقد ذكر ارسطو في الكتاب المنسوب اليه في السياسة أن السر في ذلك ارباب العدو في الحرب فان الاصوات الهائلة لها تأثير في النفوس بالروعة ولعمري

انه أمر وجداني في مواطن الحرب يجده كل أحد من نفسه وهذا السبب الذي ذكره ارسطوان كان ذكره فهو صحيح ببعض الاعتبارات وأما الحق في ذلك فهو أن النفس عند سماع النغم والاصوات يدركها الفرح والطرب بلا شك فيصيب مزاج الروح نشوة يستسهل بها الصعب ويستمت في ذلك الوجه الذي هو فيه وهذا موجود حتي في الحيوانات العجم بآفعال الابل بالخداء والحيل بالصفير والصريح كما علمت ويزيد ذلك تأثيرا اذا كانت الاصوات متناسبة كما في الغناء وأنت تعلم ما يحدث لسامعه من مثل هذا المعنى ولاجل ذلك تتخذ العجم في مواطن حروبهم الآلات الموسيقية (١) لاطبلا ولابوقا فيحذق المغنون بالسلطان في موكبه بالآتهم ويغنون فيحركون نفوس الشجعان بضرهم الي الاستماتة ولقد رأينا في حروب العرب من يتغني أمام الموكب بالشعر ويطرب فتجيش همم الابطال بما فيها ويسارعون الي مجال الحرب وينبث كل قرن الي قرنه وكذلك زناتة من أمم المغرب بتقديم الشاعر عندهم أمام الصفوف ويتغني فيحرك بغنائها الحبال الرواسي ويبعث على الاستماتة من لا يظن بها ويسمون ذلك الغناء تاصوكايت وأصله كله فرح يحدث في النفس فتنبعث عنه الشجاعة كما تنبث عن نشوة الخمر بما حدث عنها من الفرح والله أعلم

(وأما) تكثير الرايات وتلوينها واطالها فالقصد به التحويل لا أكثر وربما يحدث في النفوس من التحويل زيادة في الاقدام وأحوال النفوس وتلوناتها غريبة والله الخلاق العليم ثم ان الملوك والدول يختلفون في اتخاذ هذه الشارات فمنهم مكثر ومنهم مقلد بحسب اتساع الدولة وعظمتها فأما ارايات فانها شعار الحروب من عهد الخليفة ولم تزل الامم تعقدها في مواطن الحروب والغزوات ولعهد النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعده من الخلفاء وأما قرع الطبول والنفخ في الابواق فكان المسلمون لاول الملة متجافين عنه تنزها عن غلظة الملك ورفضاً لأحواله واحتقارا لأبته التي ليست من الحق في شيء حتي اذا انقلبت الخلافة ملكا وتجبحوا زهرة الدنيا ونعيمها ولا بسهم الموالي من الفرس والروم أهل الدول السالفة وأروهم ما كان أولئك يتحلونه من مذاهب البذخ والترف فكان مما استحسنوه اتخاذ الآلة فأخذوها وأذنوا لعمالهم في اتخاذها تنويعا بالملك وأهله فكثيرا ما كان العامل صاحب الثغرة وأقائد الجيش يعقله الخليفة من العباسيين أو الغبيديين لواءه ويخرج الي بعثه أو عمله من دار الخليفة أوداره في موكب من

(١) قوله الموسيقية وفي نسخة الموسيقارية وهي صحيحة لان الموسيقى بكسر القاف بين التحتيتين اسم للنغم والالحن ويقال فيها موسيقير ويقال لضارب الآلة موسيقاراً نظراً أول سفينة

أحباب الرايات والآلات فلايميز بين موكب العامل والخليفة الا بكثرة الألوية ووقلتها أو بما اختص به الخليفة من الالوان لرايته كالسواد في رايات بني العباس فان راياتهم كانت سودا حزنا على شهدائهم من بني هاشم ونعيا على بنى أمية في قتلهم ولذلك سموها المسودة ولما افترق أمر الهاشميين وخرج الطالبيون على العباسيين في كل جهة وعصر ذهبوا الى مخالفتهم في ذلك فاتخذوا الرايات بيضا وسموا المبيضة لذلك سائر أيام العبيديين ومن خرج من الطالبيين في ذلك العهد بالمشرق كالدايمي بطبرستان وداعي صعدة أو من دعا الى بدعة الرافضة من غيرهم كالقرامطة ولما نزع المأمون عن لبس السواد وشعاره في دولته عدل الى لون الخضرة فجعل رايته خضراء وأما الاستكثار منها فلا ينتهى الى حد وقد كانت آلة العبيديين لما خرج العزيز الى فتح الشام خمسمائة من الجنود وخمسمائة من الابواق وأما ملوك البربر بالمغرب من صنهاجة وغيرها فلم يختصوا بلون واحد بل وشوها بالذهب واتخذوها من الحرير الخالص ملونة واستمروا على الاذن فيها لعمالهم حتى اذا جاءت دولة الموحدين ومن بعدهم من زناتة قصروا الآلة من الطبول والبند على السلطان وحظروها على من سواه من عماله وجعلوا لها موكبا خاصا يتبع أثر السلطان في مسيره يسمى الساقة وهم فيه بين مكثر ومقلل باختلاف مذاهب الدول في ذلك فمنهم من يقتصر على سبع من العدد تبركا بالسبعة كما هو في دولة الموحدين وبني الاحمر بالاندلس ومنهم من يبلغ العشرة والعشرين كما هو عند زناتة وقد بلغت في أيام السلطان أبي الحسن فيما أدركناه مائة من الطبول ومائة من البند ملونة بالحرير منسوجة بالذهب ما بين كبير وصغير ويأذنون للولاة والعمال والقواد في اتخاذ راية واحدة صغيرة من الكتان بيضاء وطويل صغير أيام الحرب لا يتجاوزون ذلك وأما دولة الترك لهذا العهد بالمشرق فيتخذون أولا راية واحدة عظيمة وفي رأسها خصلة كبيرة من الشعر يسمونها الشالش والحتر وهي شعار السلطان عندهم ثم تتعدد الرايات ويسمونها السناجق واحدها سنجق وهي الراية بلسانهم وأما الطبول فيبالغون في الاستكثار منها ويسمونها الكوسات ويديحون لكل أمير أو قائد عسكر أن يتخذ من ذلك ما يشاء الا الحتر فانه خاص بالسلطان وأما الجلالة لهذا العهد من أمم الافرنجة بالاندلس فأكثر شأنهم اتخاذ الألوية القليلة ذاهبة في الجو صعدا ومعها قرع الاوتار من الطنابير ونفخ الغيطات يذهبون فيها مذهب الغناء وطريقه في مواطن حروبهم هكذا يبلغنا عنهم وعمن وراءهم من ملوك العجم ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك آيات للعالمين

(السري) وأما السرير والمثبر والتخت والكرسي وهو أعواد منصوبة أو أرائك منصدة لجلوس السلطان عليها مرتفعا عن أهل مجلسه أن يساويهم في الصعيد ولم يزل ذلك من سنن الملوك

قبل الاسلام وفي دول العجم وقد كانوا يجلسون على أسرة الذهب وكان لسليمان بن داود صلوات الله عليهما وسلامه كرسي وسرير من عاج مغشي بالذهب الا أنه لا تأخذ به الدول الا بعد الاستفحال والترف شأن الأبهة كلها كإكلته وأما في أول الدولة عند البداوة فلا يشوفون اليه * وأول من اتخذ في الاسلام معاوية واستأذن الناس فيه وقال لهم اني قد بدنت فأذنوا له فاتخذ واتبه الملوك الاسلاميون فيه وصار من منازع الأبهة ولقد كان عمرو بن العاص بمصر يجلس في قصره على الارض مع العرب ويأتيه المقوقس الى قصره ومعه سرير من الذهب محمول على الأيدي لجلوسه شأن الملوك فيجلس عليه وهو أمامه ولا يغيرون عليه وفاء له بما اعتقد معهم من الذمة واطراحا لأبهة الملك ثم كان بعد ذلك لبني العباس والعبيديين وسائر ملوك الاسلام شرقا وغربا من الاسرة والمنابر والتخوت ماعفا عن الأكسرة والقيصرة والله مقلب الليل والنهار (السكة) وهي الحتم على الدنانير والدراهم المتعامل بهما بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدينار أو الدرهم فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة بعد أن يعتبر عيار النقدمن ذلك الجنس في خلوصه بالسبك مرة بعد أخرى وبعد تقدير أشخاص الدراهم والدنانير بوزن معين صحيح يصطلح عليه فيكون التعامل بها عددا وان لم تقدر أشخاصها يكون التعامل بها وزنا ولفظ السكة كان اسما للطابع وهي الحديدة المتخذة لذلك ثم نقل الى أثرها وهي النقوش الماثلة على الدنانير والدراهم ثم نقل الى القيام على ذلك والنظر في استيفاء حاجاته وشروطه وهي الوظيفة فصار علما عليها في عرف الدول وهي وظيفة ضرورية للملك اذ بها يتميز الخالص من المغشوش بين الناس في التقود عند المعاملات ويتقون في سلامتها الغش بحتم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة وكان ملوك العجم يتخذونها وينقشون فيها تماثيل تكون مخصوصة بها مثل تمثال السلطان لعهدها أو تمثيل حصن أو حيوان أو مصنوع أو غير ذلك ولم يذل هذا الشأن عند العجم الى آخر أمرهم * ولما جاء الاسلام أغفل ذلك لسذاجة الذين وبداءة العرب وكانوا يتعاملون بالذهب والفضة وزنا وكانت دنانير الفرس ودرهمهم بين أيديهم يردونها في معاملتهم الى الوزن ويتصارفون بها بينهم الى أن تفاحش الغش في الدنانير والدراهم لغفلة الدولة عن ذلك وأمر عبد الملك الحجاج على مائقل سعيد بن المسيب وأبو الزناد بضرب الدراهم وتمييز المغشوش من الخالص وذلك سنة أربع وسبعين وقال المدايني سنة خمس وسبعين ثم أمر بصرفها في سائر النواحي سنة ست وسبعين وكتب عليها الله أحد الله الصمد ثم ولي ابن هبيرة العراق أيام يزيد بن عبد الملك فجود السكة ثم بالغ خالد القسري في تجويدها ثم يوسف بن عمر بعده وقيل أول من ضرب الدنانير والدراهم مصعب بن الزبير بالعراق سنة سبعين بامر أخيه عبد

الله لما ولي الحجاز وكتب عليها في أحد الوجهين بركة الله وفي الآخر اسم الله ثم غيرها الحجاج بعد ذلك بسنة وكتب عليها اسم الحجاج وقدر وزنها على ما كانت استقرت أيام عمر وذلك أن الدرهم كان وزنه أول الاسلام ستة دوانق والمثقال وزنه درهم وثلاثة أسباع درهم فتكون عشرة دراهم بسبعة مثاقيل وكان السبب في ذلك أن أوزان الدرهم أيام الفرس كانت مختلفة وكان منها على وزن المثقال عشرون قيراطاً ومنها اثنا عشر ومنها عشرة فلما احتسب إلى تقديره في الزكاة أخذ الوسط وذلك اثنا عشر قيراطاً فكان المثقال درهماً وثلاثة أسباع درهم وقيل كان منها البغلي ثمانية دوانق والطبري أربعة دوانق والمغربي ثمانية دوانق واليماني ستة دوانق فأمر عمر أن ينظر الأغلب في التعامل فكان البغلي والطبري وهما اثنا عشر دانقاً وكان الدرهم ستة دوانق وإن زدت ثلاثة أسباعه كان مثقالاً وإذا نقصت ثلاثة أعشار المثقال كان درهماً فلما رأى عبد الملك اتخاذ السكة لصيانة التقدين الجاريين في معاملة المسلمين من الغش فعين مقدارها على هذا الذي استقر لعهد عمر رضي الله عنه وأخذ طابع الحديد واتخذ فيه كلمات لا صور لأن العرب كان الكلام والبلاغة أقرب مناحيهم وأظهرها مع أن الشرع ينهى عن الصور فلما فعل ذلك استمر بين الناس في أيام الملة كلها وكان الدينار والدرهم على شكلين مدورين والكتابة عليهما في دوائر متوازية يكتب فيها من أحد الوجهين أسماء الله تهللاً وتحميداً وصلاة على النبي وآله وفي الوجه الثاني التاريخ واسم الخليفة وهكذا أيام العباسيين والعباسيين والأمويين وأما صنماجة فلم يتخذوا سكة إلا آخر الأمر اتخذها منصور صاحب بجاية ذكر ذلك ابن حماد في تاريخه ولما جاءت دولة الموحدين كان مما سن لهم المهدي اتخاذ سكة الدرهم مربع الشكل وأن يرسم في دائرة الدينار شكل مربع في وسطه ويلاً من أحد الجانبين تهللاً وتحميداً ومن الجانب الآخر كتب في السطور باسمه واسم الخلفاء من بعده ففعل ذلك الموحدون وكانت سكنتهم على هذا الشكل لهذا العهد ولقد كان المهدي فيما ينقل ينعت قبل ظهوره بصاحب الدرهم والمربع نعتهم بذلك المتكلمون بالحدثنان من قبله المخبرون في ملاحمهم عن دولته* وأما أهل المشرق لهذا العهد فسكنتهم غير مقدرة وإنما يتعاملون بالدينار والدرهم وزناً بالصنماجات المقدرة بعدة منها ولا يطبعون عليها بالسكة نقوش الكلمات بالتهليل والصلاة واسم السلطان كما يفعله أهل المغرب ذلك تقدير العزيز العليم (ولتختم الكلام) في السكة بذلك حقيقة الدرهم والدينار الشرعيين وبيان حقيقة مقدارها وذلك أن الدينار والدرهم مختلفا السكة في المقدار والموازين بالآفاق والأمصار وسائر الأعمال والشرع قد تعرض لذلك كثيراً من الأحكام بهما في الزكاة والأنكحة والحدود وغيرها فلا بد لهما عنده من حقيقة ومقدار معين في تقدير تجري عليهما أحكامه دون غير الشرعي منهما فاعلم أن الإجماع من مقدم منذ صدر الاسلام وعهد الصحابة والتابعين أن الدرهم

الشرعي هو الذي وزن العشرة منه سبعة مثاقيل من الذهب والالوية منه أربعين درهما وهو على هذا سبعة أعشار الدينار ووزن المثقال من الذهب ثنتان وسبعون حبة من الشعير فالدرهم الذي هو سبعة أعشاره خمسون حبة وخمسا حبة وهذه المقادير كلها ثابتة بالاجماع فان الدرهم الجاهلي كان بينهم على أنواع أجودها الطبري وهو ثمانية دوانق والبغلي وهو أربعة دوانق فجعلوا الشرعي بينهما وهو ستة دوانق فكانوا يوجبون الزكاة في مائة درهم بغلية ومائة طبرية خمسة دراهم وسطا وقد اختلف الناس هل كان ذلك من وضع عبد الملك أو اجماع الناس بعد عليه كما ذكرناه ذكر ذلك الخطاط في كتاب معالم السنن والماوردي في الاحكام السلطانية وأنكره المحققون من المتأخرين لما يلزم عليه أن يكون الدينار والدرهم الشرعيان مجهولين في عهد الصحابة ومن بعدهم مع تعلق الحقوق الشرعية بهما في الزكاة والانكحة والحدود وغيرها كما ذكرناه والحق أنهما كانا معلومي المقدار في ذلك العصر لجريان الاحكام يومئذ بما يتعلق بهما من الحقوق وكان مقدارهما غير مشخص في الخارج وانما كان متعارفاً بينهم بالحكم الشرعي على المقدر في مقدارهما وزنتهما حتى استفحل الاسلام وعظمت الدولة ودعت الحال الى تشخيصهما في المقدار والوزن كما هو عند الشرع ليستريحوا من كلفة التقدير وقارن ذلك أيام عبد الملك فشخص مقدارهما وعينهما في الخارج كما هو في الذهن ونقش عليهما السكة باسمه وتاريخه اثر الشهادتين الايمائيتين وطرح النقود الجاهلية رأساً حتى خلصت ونقش عليهما سكة وتلاشي وجودها فهذا هو الحق الذي لا محيد عنه ومن بعد ذلك وقع اختيار أهل السكة في الدول على مخالفة المقدار الشرعي في الدينار والدرهم واختلفت في كل الاقطار والآفاق ورجع الناس الى تصور مقاديرهما الشرعية ذهناً كما كان في الصدر الاول وصار أهل كل أفق يستخرجون الحقوق الشرعية من سكتهم بمعرفة النسبة التي بينها وبين مقاديرها الشرعية وأما وزن الدينار بأثنين وسبعين حبة من الشعير الوسط فهو الذي نقله المحققون وعليه الاجماع الا ابن حزم خالف ذلك وزعم أن وزنه أربعة وثمانون حبة نقل ذلك عنه القاضي عبد الحق ورده المحققون وعدوه وهما غلطاً وهو الصحيح والله يحق الحق بكلماته وكذلك تعلم أن الالوية الشرعية ليست هي المتعارفة بين الناس لان المتعارفة مختلفة باختلاف الاقطار والشرعية متحدة ذهناً لا يختلف فيها والله خالق كل شيء فقدره تقديراً

(الخاتم) وأما الخاتم فهو من الخطاط السلطانية والوظائف الملوكية والختم على الرسائل والصكوك معروف للملوك قبل الاسلام وبعده* وقد ثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يكتب الى قيصر فقبل له إن العجم لا يقبلون كتاباً الا أن يكون محتوماً فآخذ خاتماً من فضة ونقش فيه محمد رسول الله* قال البخاري جعل الثلاث كلمات في ثلاثة أسطر

وَحْتَمَ بِهِ وَقَالَ لَا يَنْقُشُ أَحَدٌ مِثْلَهُ قَالَ وَتَحْتَمَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ ثُمَّ سَقَطَ مِنْ يَدِ عُثْمَانَ فِي بَيْتِ أَرَيْسٍ وَكَانَتْ قَلِيلَةُ الْمَاءِ فَلَمْ يَدْرِكْ قَعْرَهَا بَعْدَ وَاعْتَمَ عُثْمَانُ وَتَطِيرُ مِنْهُ وَصَنَعَ آخِرَ عَلَى مِثْلِهِ وَفِي كَيْفِيَةِ نَقْشِ الْخَاتَمِ وَالْحَتْمِ بِهِ وَجُوهٌ وَذَلِكَ أَنَّ الْخَاتَمَ يُطَاقُ عَلَى الْآلَةِ الَّتِي تَجْعَلُ فِي الْأَصْبَعِ وَمِنْهُ تَحْتَمُ إِذَا لَبَسَهُ وَيُطَاقُ عَلَى النَّهْيَةِ وَالْتِمَامِ وَمِنْهُ خَتَمَتِ الْأُمْرَ إِذَا بَلَغَتْ آخِرَهُ وَخَتَمَتِ الْقُرْآنَ كَذَلِكَ وَمِنْهُ خَاتَمَ النَّبِيُّينَ وَخَاتَمَ الْأُمْرَ وَيُطَاقُ عَلَى السِّدَادِ الَّذِي يَسُدُّهُ الْأَوَانِي وَالذَّنَانُ وَيُقَالُ فِيهِ خَتَامٌ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى خَتَامُهُ مَسْكٌ وَقَدْ غَاطَ مِنْ فُسْرِهِذَا بِالْهَيْأَةِ وَالتَّمَامِ قَالَ لِأَنَّ آخِرَ مَا يَجِدُونَهُ فِي شِرَاهِمِهِمْ رِيحَ الْمَسْكِ وَلَيْسَ الْمَعْنَى عَلَيْهِ وَأَمَّا هُوَ مِنَ الْخَتَامِ الَّذِي هُوَ السِّدَادُ لِأَنَّ الْحَرَّ يَجْعَلُ لَهَا فِي الدَّنِّ سِدَادَ الطِّينِ أَوِ الْقَارِ يَحْفَظُهَا وَيُطِيبُ عَرْفَهَا وَذَوْقَهَا فَبُولُغٌ فِي وَصْفِ خَمْرِ الْجَنَّةِ بِأَنَّ سِدَادَهَا مِنَ الْمَسْكِ وَهُوَ أَطْيَبُ عَرْفًا وَذَوْقًا مِنَ الْقَارِ وَالطِّينِ الْمَعْهُودِينَ فِي الدُّنْيَا فَذَا صَحَّاطُ الْخَاتَمِ عَلَى هَذِهِ كُلِّهَا صَحَّاطُ الْخَاتَمِ عَلَى أَثَرِهَا النَّاشِئِ عَنْهَا وَذَلِكَ أَنَّ الْخَاتَمَ إِذَا نَقَشَتْ بِهِ كَلِمَاتٌ أَوْ أَشْكَالٌ ثُمَّ غَسَمَتْ فِي مِدَافٍ مِنَ الطِّينِ أَوْ مِدَادٍ وَوَضَعَتْ عَلَى صَفْحِ الْقُرْطَاسِ بَقِيَ أَكْثَرُ الْكَلِمَاتِ فِي ذَلِكَ الصَّفْحِ وَكَذَلِكَ إِذَا طُبِعَ بِهِ عَلَى جِسْمٍ لَيْنٍ كَالشَّعْمِ فَانْهَبَتْ بَقِيَّةُ نَقْشِ ذَلِكَ الْمَكْتُوبِ مَرْتَمًا فِيهِ وَإِذَا كَانَتْ كَلِمَاتٌ وَارْتَسَمَتْ فَقَدْ يَقْرَأُ مِنَ الْجِهَةِ الْيُسْرَى إِذَا كَانَ النَّقْشُ عَلَى الْإِسْقَامَةِ مِنَ الْيَمْنِ وَقَدْ يَقْرَأُ مِنَ الْجِهَةِ الْيُسْرَى إِذَا كَانَ النَّقْشُ مِنَ الْجِهَةِ الْيُسْرَى لِأَنَّ الْخَاتَمَ يَقَابُ جِهَةَ الْخَطِّ فِي الصَّفْحِ عَمَّا كَانَ فِي النَّقْشِ مِنْ يَمِينٍ أَوْ يَسَارٍ فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْخَاتَمُ هَذَا الْخَاتَمُ بِنَعْمَتِهِ فِي الْمِدَادِ أَوِ الطِّينِ وَوَضَعَهُ عَلَى الصَّفْحِ فَتَنْقُشُ الْكَلِمَاتُ فِيهِ وَيَكُونُ هَذَا مِنْ مَعْنَى النَّهْيَةِ وَالتَّمَامِ بِمَعْنَى صَحَّةِ ذَلِكَ الْمَكْتُوبِ وَنَفُوذِهِ كَأَنَّ الْكِتَابَ انْتَهَيْتِ الْعَمَلَ بِهِ بِهَذِهِ الْعَلَامَاتِ وَهُوَ مِنْ دُونِهَا مَا فِي لَيْسَ بِتَمَامٍ وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الْخَاتَمُ بِالْخَطِّ آخِرَ الْكِتَابِ أَوْ أَوَّلَهُ بِكَلِمَاتٍ مُنْتَظِمَةٍ مِنْ تَحْمِيدٍ أَوْ تَسْبِيحٍ أَوْ بِاسْمِ السُّلْطَانِ أَوْ الْأَمِيرِ أَوْ صَاحِبِ الْكِتَابِ مِنْ كَانَ أَوْشِيٍّ مِنْ نَعْوَتِهِ يَكُونُ ذَلِكَ الْخَطُّ عِلَامَةً عَلَى صَحَّةِ الْكِتَابِ وَنَفُوذِهِ وَيُسَمَّى ذَلِكَ فِي الْمُتَعَارِفِ عِلَامَةً وَيُسَمَّى خَتْمًا تَشْبِيهَا لَهُ بِأَثَرِ الْخَاتَمِ الْآصِفِ فِي النَّقْشِ وَمِنْ هَذَا خَاتَمُ الْقَاضِي الَّذِي يَبْعَثُ بِهِ لِلْخَصُومِ أَيْ عِلَامَتَهُ وَخَطَهُ الَّذِي يَنْفُذُهُمَا أَحْكَامُهُ وَمِنْهُ خَاتَمُ السُّلْطَانِ أَوِ الْخَلِيفَةِ أَيْ عِلَامَتُهُ قَالَ الرَّشِيدُ إِيحْيَى بْنُ خَالِدٍ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَسْتَوِزَرَ جَعْفَرًا أَوْ يَسْتَبْدِلَ بِهِ مِنَ الْفَضْلِ أَخِيهِ فَقَالَ لَا يَهْمَا لِيحْيَى يَا أَبَتَانِي أَرَدْتُ أَنْ أَحُولَ الْخَاتَمَ مِنْ يَمِينِي إِلَى شِمَالِي فَكُنِّي لَهُ بِالْخَاتَمِ عَنِ الْوِزَارَةِ لَمَّا كَانَتْ الْعِلَامَةُ عَلَى الرِّسَالِ وَالصُّكُوكِ مِنْ وَظَائِفِ الْوِزَارَةِ لَعَهْدِهِمْ وَيَشْهَدُ لَصَحَّةِ هَذَا الْإِطْلَاقِ مَا نَقَلَهُ الطَّبْرِيُّ أَنَّ مَعَاوِيَةَ أَرْسَلَ إِلَى الْحَسَنِ عِنْدَ مَرَاوِدَتِهِ إِيَّاهُ فِي الصَّلَاحِ صَحِيفَةً بَيْضَاءَ خَتَمَ عَلَى أَسْفَلِهَا وَكُتِبَ إِلَيْهِ أَنَّ اشْتَرَطَ فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ الَّتِي خَتَمَتْ أَسْفَلُهَا مَا شِئْتُ فَهُوَ لَكَ وَمَعْنَى الْخَاتَمِ هُنَا عِلَامَةُ فِي آخِرِ الصَّحِيفَةِ بِخَطٍّ أَوْ غَيْرِهِ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَحْتَمَ بِهِ فِي جِسْمٍ لَيْنٍ فَتَنْقُشُ فِيهِ حُرُوفُهُ وَيَجْعَلُ عَلَى

موضع الحزم من الكتاب اذا حزم وعلى المودوعات وهو من السداد كما مر وهو في الوجهين
 آثار الخاتم فيطلق عليه خاتم واول من أطلق الختم على الكتاب أي الدلالة معاوية لانه أمر
 لعمر بن الزبير عند زياد بالكوفة بمائة ألف فقطح الكتاب وصير المائة مائتين ورفع زياد حسابه
 فأنكرها معاوية وطلب بها عمر وحبسه حتي قضاها عنه أخوه عبد الله واتخذ معاوية عند
 ذلك ديوان الخاتم ذكره الطبري وقال آخره وحزم الكتب ولم تكن تحزم أي جعل لها
 السداد وديوان الختم عبارة عن الكتاب القائمين على انفاذ كتب السلطان والختم عليها إما بالعلامة
 أو بالحزم وقد يطلق الديوان على مكان جلوس هؤلاء الكتاب كما ذكرناه في ديوان الاعمال
 والحزم للكتب يكون إما بدس الورق كما في عرف كتاب المغرب واما بلصق رأس الصحيفة
 على ماتطوى عليه من الكتاب كما في عرف اهل المشرق وقد يجعل على مكان الدس أو الاصاق
 علامة يؤمن معها من فتحه والاطلاع على ما فيه فأهل المغرب يحملون على مكان الدس قطعة
 من الشمع ويختتمون عليها بخاتم نقشت فيه علامة لذلك فيرسم النقش في الشمع وكان في المشرق
 في الدول القديمة يختم على مكان اللصق بخاتم منقوش أيضاً قد غمس في مداف من الطين معد
 لذلك صبغه أحمر فيرسم ذلك النقش عليه وكان هذا الطين في الدولة العباسية يعرف بطين
 الختم وكان يجلب من سيراف فيظهر أنه مخصوص بها فهذا الخاتم الذي هو العلامة المكتوبة
 أو النقش للسداد والحزم للكتب خاص بديوان الرسائل وكان ذلك للوزير في الدولة العباسية
 ثم اختلف العرف وصار لمن اليه الترسل وديوان الكتاب في الدولة ثم صاروا في دول المغرب
 يعدون من علامات الملك وشاراته الخاتم للاصبع فيستجيدون صوغه من الذهب ويرصونه
 بالفصوص من الياقوت والفيروزج والزمرد ويلبسه السلطان شارة في عرفهم كما كانت البردة
 والقضيب في الدولة العباسية والمظلة في الدولة العبيدية والله مصرف الامور بحكمه

(الطراز) من أهبة الملك والسلطان ومذاهب الدول أن ترسم أسماءهم أو علامات تختص
 بهم في طراز أثوابهم المعدة لباسهم من الحرير أو الديباج أو الابريسم تعتبر كتابة خطها في
 نسج الثوب الحما وسدي بخيط الذهب أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير
 الذهب على ما يحكمه الصناع في تقدير ذاك ووضعه في صناعة نستجهم قصير الثياب الملوكة معلمة
 بذلك الطراز قصداً للتبويه بلباسها من السلطان فمن دونه أو التبويه بمن يختصه السلطان بملبوسه
 اذا قصد تشريفه بذلك أو ولايته لوظيفة من وظائف دولته وكان ملوك العجم من قبل
 الاسلام يحملون ذلك الطراز بصور الملوك وأشكالهم أو أشكال وصور معينة لذلك ثم اعتاض
 ملوك الاسلام عن ذلك بكتب أسمائهم مع كلمات أخرى تجري مجرى القال أو السجلات
 وكان ذلك في الدولتين من أهبة الامور وأنغم الاحوال وكانت الدور المعدة لنسج أثوابهم

في قصورهم تسمى دور الطراز لذلك وكان القائم على النظر فيها يسمى صاحب الطراز ينظر في أمور الصياغ والآلة والحماكة فيها واجراء أرزاقهم وتسهيل آلتهم ومشاركة أعمالهم وكانوا يقدون ذلك لخواص دولتهم وثقات مواليهم وكذلك كان الحال في دولة بني أمية بالاندلس والطوائف من بعدهم وفي دولة العبيديين بمصر ومن كان على عهدهم من ملوك العجم بالمشرق ثم لما ضاق نطاق الدول عن الترف والتفنن فيه لضيق نطاقها في الاستيلاء وتعددت الدول تعطلت هذه الوظيفة والولاية عليها من أكثر الدول بالجملة * ولما جاءت دولة الموحدين بالمغرب بعد بني أمية أول المائة السادسة ولم يأخذوا بذلك أول دولتهم لما كانوا عليه من منازع الديانة والسذاجة التي لفتوها عن إمامهم محمد بن تومرت المهدي وكانوا يتورعون عن لباس الحرير والذهب فسطقت هذه الوظيفة من دولتهم واستدرك منها أعقابهم آخر الدولة طرفا لم يكن بتلك التباهة وأما لهذا العهد فأدركنا بالمغرب في الدولة المرينية لعنفوانها وشموخها رسما جليلا لفتوه من دولة ابن الأحمر معاصريهم بالاندلس واتبع هوفي ذلك ملوك الطوائف فأثنى منه بلمحة شاهدة بالاثرة * وأما دولة الترك بمصر والشام لهذا العهد ففيه من الطرز تحرير آخر على مقدار ملكهم وعمران بلادهم إلا أن ذلك لا يصنع في دورهم وقصورهم وليست من وظائف دولتهم وإنما ينسج ما تطلبه الدولة من ذلك عند صنائه من الحرير ومن الذهب الخالص ويسمونه المزركش لفظة أعجمية ويرسم اسم السلطان أو الأمير عليه ويعد الصانع لهم فيما يعدونه للدولة من طرف الصناعة اللائقة بها والله مقدر الليل والنهار والله خير الوارثين

الفساطيط والسياج

اعلم أن من شارات الملك وترفيه اتخاذ الاخشية والفساطيط والفازات من ثياب الكتان والصوف والقطن بجدل الكتان والقطن فيباهي بها في الاسفار وتنوع منها الالوان مابين كبير وصغير على نسبة الدولة في الثروة واليسار وإنما يكون الامر في أول الدولة في بيوتهم التي جرت عادتهم باتخاذها قبل الملك وكان العرب لعهد الخلفاء الاولين من بني أمية إنما يسكنون بيوتهم التي كانت لهم خياما من الوبر والصوف ولم تزل العرب لذلك العهد بادين الا الاقل منهم فكانت أسفارهم لغزواتهم وحروبهم بظعونهم وسائر حللهم وأحيائهم من الاهل والولد كما هو شأن العرب لهذا العهد وكانت عساكرهم لذلك كثيرة الحلل بعيدة مابين المنازل متفرقة الاحياء يغيب كل واحد منها عن نظر صاحبه من الأخرى كشأن العرب ولذلك ما كان عبد الملك يحتاج الى ساقية تحشد الناس على أثره أن يقيموا اذا ظعن ونقل انه استعمل في ذلك الحجاج

حين أشار به روح بن زنباع وقصتها في إحراق فساطيط روح وخيامه لأول ولايته حين وجدهم مقيدين في يوم رحيل عبد الملك قصة مشهورة ومن هذه الولاية تعرف رتبة الحجاج بين العرب فانه لا يتولى ارادتهم على الظعن الا من يأمن بوادى السفهاء من أحيائهم بماله من الصبية الحائلة دون ذلك ولذلك اختصه عبد الملك بهذه الرتبة ثقة بغناؤه فيها بعصيته وصرامته فلما تقننت الدولة العربية في مذاهب الحضارة والبذخ ونزلوا المدن والأصهار وانتقلوا من سكنى الخيام الى سكنى القصور ومن ظهر الخف الى ظهر الحافر اتخذوا للسكنى في أسفارهم ثياب الكتان يستعملون منها بيوتاً مختلفة الأشكال مقدرة الأمثال من القوراء والمستطيلة والمربعة ويحتفلون فيها بأبغ مذاهب الاحتفال والزيينة وبدير الامير والقائد للعساكر على فساطيطه وفازاته من بينهم سياجا من الكتان يسمى في المغرب بلسان البربر الذي هو لسان أهله أفراك بالكاف التي بين الكاف والقاف ويختص به السلطان بذلك القطر لا يكون لغيره وأما في المشرق فيتخذ كل أمير وان كان دون السلطان ثم جنحت الدعة بالنساء والولدان الى المقام بقصورهم ومنازلهم خفف لذلك ظهرهم وتقاربت الساح بين منازل العسكر واجتمع الجيش والسلطان في معسكر واحد يحصره البصر في بسطة زهواً أنيقاً لاختلاف ألوانه واستمر الحال على ذلك في مذاهب الدول في بذخها وترفها وكذا كانت دولة الموحيدين وزناة التي أظلمت كان سفرهم أول أمرهم في بيوت سكنائهم قبل الملك من الخيام والقياطن حتى اذا أخذت الدولة في مذاهب الترف وسكنى القصور عادوا الى سكنى الاخية والفساطيط وبلغوا من ذلك فوق ما أرادوه وهو من الترف بمكان الا أن العساكر به تصير عرضة للبيات لاجتماعهم في مكان واحد تشملهم فيه الصيحة ولحقهم من الاهل والولد الذين تكون الاستماتة دونهم فيحتاج في ذلك الى تحفظ آخر والله القوى العزيز

المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة

وهما من الامور الخلافية ومن شارحات الملك الاسلامي ولم يعرف في غير دول الاسلام * فأما البيت المقصورة من المسجد لصلاة السلطان فيتخذ سياجاً على الحراب فيحوزه وما يليه فأول من اتخذها معاوية بن أبي سفيان حين طعنه الخارجي والقصة معروفة وقيل أول من اتخذها مروان بن الحكم حين طعنه اليماني ثم اتخذها الخلفاء من بعدها وصارت سنة في تمييز السلطان عن الناس في الصلاة وهي انما تحدث عند حصول الترف في الدول والاستفحال شأن أحوال الأبهة كلها وما زال الشأن ذلك في الدول الاسلامية كلها وعند افتراق الدولة العباسية وتعدد الدول بالمشرق وكذا بالاندلس عند انقراض الدولة الأموية وتعدد ملوك

الطوائف وأما المغرب فكان بنو الاغلب يتخذونها بالقيروان ثم الخلفاء العبيديون ثم ولاتهم على المغرب من صنهاجة بنو باديس بفاس وبنو حماد بالقلعة ثم ملك الموحدون سائر المغرب والاندلس ومحو ذلك الرسم على طريقة البداوة التي كانت شعارهم ولما استفحلت الدولة وأخذت بحظها من الترف وجاء أبو يعقوب المنصور ثالث ملوكهم فاتخذ هذه المتصورة وبقيت من بعده سنة لملوك المغرب والاندلس وهكذا كان الشأن في سائر الدول سنة الله في عباده * (وأما الدعاء على المنابر) في الخطبة فكان الشأن أولا عند الخلفاء ولاية الصلاة بأنفسهم فكانوا يدعون لذلك بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والرضاعن أصحابه وأول من اتخذ المنبر عمرو ابن العاص لما بني جامعہ بمصر وأول من دعا للخليفة على المنبر ابن عباس دعا لعلي رضي الله عنهما في خطبته وهو بالبصرة عامل له عليها فقال اللهم انصر عليا على الحق واتصل العمل على ذلك فيما بعد وبعد أخذ عمرو بن العاص المنبر بلغ عمر بن الخطاب ذلك فكتب اليه عمر بن الخطاب أما بعد فقد بلغني أنك اتخذت منبرا ترقى به على رقاب المسلمين أو مايكفيك أن تكون قائما والمسلمون تحت عقبك فغزمت عليك الاما كسرتة فلما حدثت الأبهة وحدث في الخلفاء المانع من الخطبة والصلاة استنابوا فيها فكان الخطيب يشيد بذكر الخليفة على المنبر تنويها باسمه ودعاه بما جعل الله مصلحة العالم فيه ولأن تلك الساعة مظنة للإجابة ولما ثبت عن السلف في قولهم من كانت له دعوة صالحة فليضعها في السلطان وكان الخليفة يفرد بذلك فلما جاء الحजर والاستبداد صار المتغلبون على الدول كثيرا ما يشاركون الخليفة في ذلك ويشاد باسمهم عقب اسمه وذهب ذلك بذهاب تلك الدول وصار الامر الى اختصاص السلطان بالدعاء له على المنبر دون من سواه وحظر أن يشاركه فيه أحد أو يسمو اليه وكثيرا ما يفعل الماهدون من أهل الدول هذا الرسم عند ما تكون الدولة في أسلوب الغضاضة ومناحي البداوة في التغافل والخشونة ويقنعون بالدعاء على الابهام والاحمال لمن ولي أمور المسلمين ويسمون مثل هذه الخطبة اذا كانت على هذا المنحى عباسية يعنون بذلك أن الدعاء على الاحمال انما يتناول العباسي تقليدا في ذلك لما سلف من الامر ولا يحفلون بما وراء ذلك من تعيينه والتصريح باسمه * يحكى أن يعمر اسن بن زيان ماهد دولة بني عبد الواد لما غلبه الامير أبو زكريا يحيى بن أبي حفص على تلمسان ثم بدا له في إعادة الامر اليه على شروط شرطها كان فيها ذكر اسمه على منابر عمله فقال يعمر اسن تلك أعوادهم يذكرون عليها من شاؤا وكذلك يعقوب بن عبد الحق ماهد دولة بني مرين حضره رسول المستنصر الخليفة بتونس من بني أبي حفص وثالث ملوكهم وتختلف بعض أيامه عن شهود الجمعة فقل له لم يحضر هذا الرسول كراهية لخلو الخطبة من ذكر سلطانه فأذن في الدعاء له وكان ذلك سببا لاخذهم بدعوته وهكذا شأن الدول في بدايتها وتمككها

في الفضاضة والبدواة فاذا انتهت عيون سياستهم ونظروا في أعطاف ملكهم واستتموا شيات الحضارة ومعاني البذخ والأبهة اتحلوا جميع هذه السمات وتفننوا فيها وتجاروا الى غايتها وأنفوا من المشاركة فيها وجزعوا من اقتقادها وخلودولتهم من آثارها والعالم بستان والله على كل شيء رقيب

٣٨ فصل في الحروب ومذاهب الامم في ترتيبها

اعلم أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ يرأها الله وأصلها ارادة انتقام بعض البشر من بعض ويتعصب لكل منها أهل عصيته فاذا تذامروا لذلك وتوافقت الطائفتان احداها تطلب الانتقام والاخري تدافع كانت الحرب وهو أمر طبيعي في البشر لا تخلوعنه أمة ولا حيل وسبب هذا الانتقام في الاكثر اما غيرة ومنافسة واما عدوان واما غضب لله ولدينه واما غضب للملك وسعي في تمهيد فالاول أكثر ما يجري بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة والثاني وهو العدوان أكثر ما يكون من الامم الوحشية الساكنين بالقر كالعرب والترك والتركان والاكراد وأشباههم لانهم جعلوا أرزاقهم في رماحهم ومعاشهم فيما بأيدي غيرهم ومن دافعهم عن متاعه آذنه بالحرب ولا بغية لهم فيما وراء ذلك من رتبة ولا ملك وانما همهم ونصب أعينهم غلب الناس على مافي أيديهم والثالث هو المسمى في الشريعة بالجهاد والرابع هو حروب الدول مع الخارجين عليها والمائنين لطاعتها فهذه أربعة أصناف من الحروب الصنفان الاولان منها حروب بغية وقشة والصنفان الاخيران حروب جهاد وعدل* وصفة الحروب الواقعة بين الخليقة منذ اول وجودهم على نوعين نوع بالزحف صفوفا ونوع بالكر والفر أما الذي بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم وأما الذي بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب و قتال الزحف أو ثق وأشد من قتال الكر والفر وذلك لان قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوي كما تسوي القداح أو صفوف الصلاة ويمشون بصفوفهم الى العدو قدما فلذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق في القتال وأرهب للعدو لانه كالحائط الممتد والقصر المشيد لا يطمع في إزالته وفي التنزيل ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص أي يشد بعضهم بعضا بالنبات* وفي الحديث الكريم المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ومن هنا يظهر لك حكمة ايجاب الثبات وتحريم التولي في الزحف فان المقصود من الصف في القتال حفظ النظام كما قلناه فن ولي العهد وظهره فقد أخل بالمصاف وباء بأثم الهزيمة ان وقعت وصار كأنه جرها على المسلمين وأمكن منهم عدوهم فعظم الذنب لعموم المفسدة وتعميدها الى الدين بخرق سياجه فعد من

الكبار ويظهر من هذه الأدلة ان قتال الزحف أشد عند الشارع وأما قتال الكر والفر فليس فيه من الشدة والأمن من الهزيمة ما في قتال الزحف الا أنهم قد يتخذون وراءهم في القتال مصافاً ثابتاً ياجئون اليه في الكر والفر ويقوم لهم مقام قتال الزحف كما نذكره بعد ثم ان الدول القديمة الكثيرة الجنود المتسعة الممالك كانوا يقسمون الحيوش والعساكر أقساماً يسمونها كراديس ويسوون في كل كرادوس صفوفه وسبب ذلك انه لما كثرت جنودهم الكثيرة البالغة وحشدوا من قاصية النواحي استدعى ذلك أن يجهل بعضهم بعضاً اذا اختلطوا في مجال الحرب واعتوروا مع عدوهم الطعن والضرب فيخشى من تدافعهم فيما بينهم لاجل النكراء وجهل بعضهم ببعض فلذلك كانوا يقسمون العساكر جموعاً ويضمون المتعارفين بعضهم لبعض ويرتبونها قريباً من الترتيب الطبيعي في الجهات الاربع ورئيس العساكر كلها من سلطان أو قائد في القلب ويسمون هذا الترتيب التعية وهو مذكور في أخبار فارس والروم والدولتين صدر الاسلام فيجعلون بين يدي الملك عسكرياً منفرداً بصفوفه متميزاً بقائده ورايته وشعاره ويسمونه المقدمة ثم عسكرياً آخر من ناحية اليمين عن موقف الملك وعلى سمتة يسمونه الميمنة ثم عسكرياً آخر من ناحية الشمال كذلك يسمونه الميسرة ثم عسكرياً آخر من وراء العسكر يسمونه الساتة ويقف الملك وأصحابه في الوسط بين هذه الاربع ويسمون موقفه القلب فاذا تم لهم هذا الترتيب المحكم اما في مدى واحد للبصر أو على مسافة بعيدة أكثرها اليوم واليومان بين كل عسكريين منها أو كيفما أعطاه حال العساكر في القلة والكثرة فيخذل يكون الزحف من بعد هذه التعية وانظر ذلك في أخبار الفتوحات وأخبار الدولتين بالشرق وكيف كانت العساكر لعهد عبد الملك تخاف عن رحيله بعد المدى في التعية فاحتيج لمن يسوقها من خلفه وعين لذلك الحجاج بن يوسف كما أشرنا اليه وكما هو معروف في أخباره وكان في الدولة الاموية بالاندلس أيضاً كثير منه وهو مجهول فيما لدينا لأننا انما أدركنا دولا قليلة العساكر لا انتهى في مجال الحرب الى التناكر بل أكثر الحيوش من الطائفتين معا يجمعهم لدينا حلة أو مدينة ويعرف كل واحد منهم قرنه وينادي به في حومة الحرب باسمه ولقبه فاستغنى عن تلك التعية

﴿فصل﴾ ومن مذاهب أهل الكر والفر في الحروب ضرب المصاف وراء عسكريهم من الجمادات والحيوانات العجم فيتخذونها ملجأ للخيلة في كرههم وفرهم يطلبون به ثبات المقاتلة ليكون أدوم للحرب وأقرب الى الغلب وقد يفعله أهل الزحف أيضاً ليزيدهم ثباتاً وشدة فقد كان الفرس وهم أهل الزحف يتخذون القيلة في الحروب ويحملون عليها أبراجاً من الخشب أمثال الصروح مشحونة بالمقاتلة والسلاح والرايات ويصفونها وراءهم

في حومة الحرب كأنهم حصون فتقوى بذلك نفوسهم ويزداد وثوقهم وانظر ما وقع من ذلك في القادسية وأن فارس في اليوم الثالث اشتدوا بها على المسلمين حتى اشتدت رجالات من العرب نخالطوهم وبعجوها بالسيوف على خراطمها فنفرت ونكصت على أعقابها الى مرابطها بالمدائن خجفاً معسكر فارس لذلك وانهمزوا في اليوم الرابع * وأما الروم وملوك القوط بالاندلس وأكثر العجم فكانوا يتخذون لذلك الاسرة ينصبون للملك سريره في حومة الحرب ويحف به من خدمه وحاشيته وجنوده من هو زعيم بالاستماتة دونه وترفع الرايات في اركان السرير ويحرق به سياج آخر من الرماة والرجالة فيعظم هيكل السرير ويصير قبة للمقاتلة وملجأ للكر والفر وجعل ذلك الفرس أيام القادسية وكان رستم جالساً فيها على سرير نصبه لجلوسه حتي اختلفت صفوف فارس وخالطه العرب في سريره ذلك فتحول عنه الى الفرات وقتل وأما أهل الكر والفر من العرب وأكثر الامم البدوية الرحالة فيصفون لذلك ابلهم والظهر الذي يحمل طعامهم فيكون قبة لهم ويسمونهم المجبودة وليس أمة من الامم الا وهي تفعل ذلك في حروبها وتراه أوثق في الجولة وأمن من الغرة والهزيمة وهو أمر مشاهد وقد أغفلته الدول لاهدانها بالجملة واعتراضه بالظهر الحامل للاتقال والفساطيط يحملونها ساقية من خلفهم ولا تنفي غناء القبيلة والابل فصارت العساكر بذلك عرضة للهزائم ومستشعرة للفرار في المواقف وكان الحرب أول الاسلام كله زحفاً وكان العرب انما يعرفون الكر والفر لكن حمائم على ذلك أول الاسلام أمران * احدهما أن عدوهم كانوا يقاتلون زحفاً فيضطرون الى مقاتلتهم بمثل قتالهم * الثاني أنهم كانوا مستميتين في جهادهم لما رغبوا فيه من الصبر ولما رسخ فيهم من الايمان والزحف الى الاستماتة أقرب * وأول من أبطل الصف في الحروب وصار الى التعمية كراديس مروان بن الحكم في قتال الضحاك الحارجي والحيري بعده قال الطبري لما ذكر قتال الحيري فولى الخوارج عليهم شيبان بن عبد العزيز الشكري وياقبا بالدفاء وقتالهم مروان بعد ذلك بالكراديس وأبطل الصف من يومئذ انتهى فتوسى قتال الزحف بإبطال الصف ثم تنوسى الصف وراء المقاتلة بما داخل الدول من الترف وذلك انها حينما كانت بدوية وسكنائهم الحيام كانوا يستكثرون من الابل وسكنى النساء والولدن معهم في الأحياء فلما حصلوا على ترف الملك وألفوا سكنى القصور والحواضر وتركوا شأن البادية والفقر نسوا لذلك عهد الابل والظعائن وصعب عليهم اتحادها فخلفوا النساء في الاسفار وحمائم الملك والترف على اتخاذ الفساطيط والأخبية فاقصروا على الظهر الحامل للاتقال والأبنية (١) وكان ذلك صفتهم

(١) قوله للاتقال والأبنية مراده بالأبنية الحيام كما يدل له قوله في فصل الخندق الآتي قريباً اذا نزلوا وضرخوا أبنيتهم اهـ

في الحرب ولا يغني كل الغناء لانه لا يدعو الى الاستماتة كما يدعو اليها الاهل والمال فيخفف الصبر من أجل ذلك وتصرفهم الهيعات ونحزم صفوفهم

(فصل) ولما ذكرناه من ضرب المصاف وراء العساكر وتأكدكم في قتال الكر والفر صار ملوك المغرب يتخذون طائفة من الافرنج في جندهم واختصوا بذلك لان قتال أهل وطنهم كله بالكر والفر والسلطان يتأكد في حقه ضرب المصاف ليكون رداً للمقاتلة أمامه فلا بد وأن يكون أهل ذلك الصف من قوم متعودين للثبات في الزحف والا أفضلوا على طريقة أهل الكر والفر فانهزم السلطان والعساكر باحقالهم فاحتاج الملوك بالمغرب أن يتخذوا جنداً من هذه الأمة المتعودة للثبات في الزحف وهم الافرنج ويرتبون مصافهم المحدث بهم منها هذا على ما فيه من الاستعانة بأهل الكفر وانما استخفوا ذلك للضرورة التي أرينا كما من تخوف الاحفال على مصاف السلطان والافرنج لا يعرفون غير الثبات في ذلك لان عادتهم في القتال الزحف فكانوا أقوم بذلك من غيرهم مع أن الملوك في المغرب انما يفعلون ذلك عند الحرب مع أمم العرب والبربر وقتالهم على الطاعة وأما في الجهاد فلا يستعينون بهم حذرا من ممالأتهم على المسلمين هذا هو الواقع بالمغرب لهذا العهد وقد أبدينا سببه والله بكل شيء عليم

(فصل) وبلغنا أن أمم الترك لهذا العهد وقتالهم مناضلة بالسهام وأن تعمية الحرب عندهم بالمصاف وأنهم يقسمون بثلاثة صفوف يضربون صفاً وراء صف ويترجلون عن خيولهم ويفرغون سهامهم بين أيديهم ثم يتناضلون جلوساً وكل صف ردة للذي أمامه أن يكسبهم العدو الى أن يتهيأ النصر لاحدى الطائفتين على الاخرى وهي تعمية محكمة غريبة

(فصل) وكان من مذاهب الاول في حروبهم حفر الخنادق على معسكرهم عند ما يتقاربون للزحف حذرا من معرة البيات والهجوم على العسكر بالليل لما في ظلمته ووحشته من مضاعفة الجوف فيلوذ الجيش بالفرار وتحيد النفوس في الظلمة ستر من عاره فاذا تساوا في ذلك أرجف العسكر ووقعت الهزيمة فكانوا لذلك يحتفرون الخنادق على معسكرهم اذ انزلوا وضربوا أبنتهم ويديرون الحفائر نطاقا عليهم من جميع جهاتهم حرصا أن يخالطهم العدو بالبيات فيتخاذلوا وكانت للدول في أمثال هذا قوة وعليه اقتدار باحتشاد الرجال وجمع الأيدي عليه في كل منزل من منازلهم بما كانوا عليه من وفور العمران وضخامة الملك فلما خرب العمران وتبعه ضعف الدول وقلة الجنود وعدم الفعالة نسي هذا الشأن جملة كأنه لم يكن والله خير القادرين وانظر وصية علي رضي الله عنه وتحريره لأصحابه يوم صفين تجد كثيرا من علم الحرب ولم يكن أحد أبصر بها منه قال في كلام له فسوا صفوفكم كالبنيان المرصوص وقدموا الدارع وأخروا الحاسر وعضوا على الأضراس فانه أنبي للسيوف عن الهام والتوا

على أطراف الرماح فانه أصون للأسنة وغضوا الأبصار فانه أربط للجاش وأسكن للقلوب
وأخفتوا الأصوات فانه أطرده للفشل وأولى بالوقار وأقيموا راياتكم فلا تملوها ولا تجعلوها
الابأيدي شجعانكم واستعينوا بالصدق والصبر فانه بقدر الصبر ينزل النصر * وقال الأشر
يومئذ يحرض الأزد عضوا على النواخذ من الأضراس واستقبلوا القوم بهامكم وشدوا شدة
قوم موتورين يثأرون بآبائهم واخوانهم حناقا على عدوهم وقد وطنوا على الموت أنفسهم لثلا
يسبقوا بوتر ولا يلحقهم في الدنيا عار * وقد أشار الى كثير من ذلك أبو بكر الصيرفي شاعر
لمتونة وأهل الأندلس في كلمة يمدح بها تاشفين بن علي بن يوسف ويصف ثباته في حرب شهدها
ويذكره بأمور الحرب في وصايا وتحذيرات تنبهك على معرفة كثير من سياسة الحرب يقول فيها

يأليها الملاء الذي يتقنع * من منكم الملك الهمام الاروع
ومن الذي غدر العدو به دجي * فانقض كل وهو لا يترزعزع
تمضي الفوارس والطعان يصدها * عنه ويدمرها الوفاء فترجع
والليل من وضح الترائك انه * صبح على هام الحيوش يلمع
أنى فزعتم يابني صنهاجة * واليكمو في الروع كان المفزع
انسان عين لم يصبه منكم * حزن وقلب أسلمته الأضلع
وصددتمو عن تاشفين وانه * لعقابه لو شاء فيكم موضع
مأنتمو إلا أسود خفية * كل لكل كريمة مستطلع
ياتاشفين أقم لحيشك عذره * بالليل والقدر الذي لا يدفع
ومنها في سياسة الحرب

أهديك من أدب السياسة مابه * كانت ملوك الفرس قبلك تولع
لأنني أدري بها لكنها * ذكرى تحض المؤمنين وتنفع
والبس من الخلق المضاعفة التي * وصى بها صنع الصنائع تبع
والهندواني الرقيق فانه * أمضي على حد الدلاص وأقطع
واركب من الخيل السوابق عدة * حصنا حصينا ليس فيه مدفع
خندق عليك اذا ضربت محلة * سيان تتبع ظافرا أو تتبع
والواد لا تعبره وانزل عنده * بين العدو وبين جيشك يقطع
واجمل مناجزة الحيوش عشية * ووراءك الصدق الذي هو أمتع
واذا تضايقت الحيوش بمعرك * ضحك فأطراف الرماح توسع
واصدمه أول وهلة لانكترت * شيأ فإظهار التكلول يضعضع

واجعل من الطلاع أهل شهامة * للصديق فيهم شيمة لاتخذع

لاتسمع الكذاب جاءك مرجفا * لارأى للكذاب فيما يصنع

قوله واصدمه أول وهلة لاتكثرث البيت مخالف لما عليه الناس في أمر الحرب فقد قال عمر لابي عبيد بن مسعود الثقفي لما ولاه حرب فارس والعراق فقال له اسمع وأطع من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأشركهم في الامر ولا تحيين مسرعا حتي تبين فانها الحرب ولا يصلح لها الا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف وقال له في أخري انه لن يمنعني أن أؤمر سليطا الا سرعتني في الحرب وفي التسرع في الحرب الا عن بيان ضياع واللهولاء ذلك لأمرته لكن الحرب لا يصلحها الا الرجل المكيث هذا كلام عمر وهو شاهد بان التناقل في الحرب أولى من الخفوف حتي يتبين حال تلك الحرب وذلك عكس ما قاله الصيرفي الا أن يريد أن الصدم بعد البيان فله وجه والله تعالى أعلم

(فصل) ولا وثوق في الحرب بالظفر وان حصلت أسبابه من العدة والعديد وانما الظفر فيها والغلب من قبيل البخت والاتفاق وبيان ذلك أن أسباب الغلب في الاكثر مجتمعة من أمور ظاهرة وهي الجيوش ووفورها وكال الاساحة واستجادتها وكثرة الشجعان وترتيب المصاف ومنه صدق القتال وما جرى مجري ذلك ومن أمور خفية وهي اما من خدع البشر وحيلهم في الارجاف والتشائيع التي يقع بها التخذيل وفي التقدم الى الاماكن المرتفعة ليكون الحرب من أعلى فيتوهم المنخفض لذلك وفي الكمون في الغياض ومطمئن الارض والتواري بالكدي عن العدو حتي يتداولهم العسكر دفعة وقد تورطوا فيتلعمون الى التجاة وأمثال ذلك واما أن تكون تلك الاسباب الخفية أمورا سماوية لاقدره للبشر على اكتسابها تاتي في القلوب فيستولى الرهب عليهم لاجلها فتختل مراكرهم فتقع الهزيمة وأكثر ماتقع الهزائم عن هذه الاسباب الخفية لكثرة مايعتمل لكل واحد من الفريقين فيها حرصا على الغلب فلا بد من وقوع التأثير في ذلك لاحدهما ضرورة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الحرب خدعة* ومن أمثال العرب رب حيلة أنفع من قبيلة فقد تبين أن وقوع الغلب في الحروب غالبا عن أسباب خفية غير ظاهرة ووقوع الاشياء عن الاسباب الخفية هو معنى البخت كما تقرر في موضعه فاعتبره وتفهّم من وقوع الغلب عن الامور السماوية كما شرخناه معنى قوله صلى الله عليه وسلم نصرت بالرعب مسيرة شهر وما وقع من غلبه للمشركين في حياته بالعدد القليل وغلب المسلمين من بعده كذلك في الفتوحات فان الله سبحانه وتعالى تكفل لنبية بالقاء الرعب في قلوب الكافرين حتي يستولى على قلوبهم فيهنزوا ومعجزة لرسوله صلى الله عليه وسلم فكان الرعب في قلوبهم سببا للهزائم في الفتوحات الاسلامية كلها الا أنه خفي عن العيون * وقد ذكر الطرطوشي

أن من أسباب الغلب في الحروب أن تفضل عدة الفرسان المشاهير من الشجعان في أحد الجانبين على عدتهم في الجانب الآخر مثل أن يكون أحد الجانبين فيه عشرة أو عشرون من الشجعان المشاهير وفي الجانب الآخر ثمانية أو ستة عشر فالجانب الزائد ولو بواحد يكون له الغلب وأعاد في ذلك وأبدي وهو راجع إلى الأسباب الظاهرة التي قدمنا وليس بصحيح وإنما الصحيح المعتبر في الغلب حال العصية أن يكون في أحد الجانبين عصية واحدة جامعة لكلهم وفي الجانب الآخر عصائب متعددة لأن العصائب إذا كانت متعددة يقع بينها من التخاذل ما يقع في الوجدان المتفرقين الفاقدين للعصية إذ تنزل كل عصاية منهم منزلة الواحد ويكون الجانب الذي عصيته متعددة لا يقاوم الجانب الذي عصيته واحدة لاجل ذلك فتفهمه واعلم أنه أصح في الاعتبار مما ذهب إليه الطرطوشي ولم يحمله على ذلك الانسيان شأن العصية في حلة وبلدة وانهم إنما يرون ذلك الدفاع والحماية والمطالبة إلى الوجدان والجماعة الناشئة عنهم لا يعتبرون في ذلك عصية ولا نسبا وقد بينا ذلك أول الكتاب مع أن هذا وأمثاله على تقدير صحته إنما هو من الأسباب الظاهرة مثل اتفاق الجيش في العدة وصدق القتال وكثرة الأسلحة وما أشبهها فكيف يجعل ذلك كفيلا بالغلب ونحن قد قررنا لك الآن أن شيئاً منها لا يعارض الأسباب الخفية من الحيل والخداع ولا الأمور السماوية من الرعب والتخذلان الإلهي فافهمه وتفهم أحوال الكون والله مقدر الليل والنهار

(فصل) ويلحق بمعنى الغلب في الحروب وأن أسبابه خفية وغير طبيعية حال الشهرة والصيت فقل أن تصادف موضعها في أحد من طبقات الناس من الملوك والعلماء والصالحين والمنتحلين للفضائل على العموم وكثير ممن اشتهر بالشر وهو بخلافه وكثير ممن تجاوزت عنه الشهرة وهو أحق بها وأهلها وقد تصادف موضعها وتكون طبقاً على صاحبها والسبب في ذلك أن الشهرة والصيت إنما هما بالآخبار والآخبار يدخلها الذهول عن المقاصد عند التناقل ويدخلها التعصب والتشيع ويدخلها الأوهام ويدخلها الجهل بمطابقة الحكايات للأحوال لحفاها بالتلييس والتصنع أو لجهل الناقل ويدخلها التقرب لأصحاب التجارة والمراتب الدنيوية بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك والنقوس مولعة بحب الثناء والناس متناولون إلى الدنيا وأسبابها من جاء أوثرة وليسوا في الأكثر براغين في الفضائل ولا منافسين في أهلها وأين مطابقة الحق مع هذه كلها فتحتل الشهرة عن أسباب خفية من هذه وتكون غير مطابقة وكل ما حصل بسبب خفي فهو الذي يعبر عنه باليخت كما تقرر والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

اعلم أن الحياة أول الدولة تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة وآخر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة والسبب في ذلك أن الدولة ان كانت على سنن الدين فليست الا المغارم الشرعية من الصدقات والخراج والجزية وهي قليلة الوزائع لان مقدار الزكاة من المال قليل كما علمت وكذا زكاة الحبوب والماشية وكذا الجزية والخراج وجميع المغارم الشرعية وهي حدود لا تتعدى وان كانت على سنن التغلب والعصية فلا بد من البداوة في أولها كما تقدم والبداوة تقتضي المسامحة والمكارمة وخفض الجناح والتجاني عن أموال الناس والغفلة عن محصيل ذلك الا في النادر فيقل لذلك مقدار الوظيفة الواحدة والوزيعة التي تجمع الاموال من مجموعها واذا قلت الوزائع والوظائف على الرعايا نشطوا للعمل ورغبوا فيه فيكثر الاعتمار ويتزايد محصول الاغتباط بقلة المغموم واذا كثر الاعتمار كثرت أعداد تلك الوظائف والوزائع فكثرت الحياة التي هي جملةا فاذا استمرت الدولة واتصلت وتعاقب ملوكها واحداً بعد واحد واتصفوا بالكيس وذهب شر البداوة والسذاجة وخلفها من الاغضاء والتجاني وجاء الملك العضوض والحضارة الداعية الى الكيس وتحلق اهل الدولة حينئذ بخلق التحذلق وتكثرت عوائدهم وحوالحجهم بسبب ما انغمسوا فيه من النعيم والترف فيكثرون الوظائف والوزائع حينئذ على الرعايا والاكررة والفلاحين وسائر أهل المغارم ويزيدون في كل وظيفة ووزيعة مقدار أعظيا لتكثر لهم الحياة يضعون المكوس على المبيعات وفي الابواب كما نذكر بعد ثم تدرج الزيادات فيها بمقدار بعد مقدار لتدرج عوائد الدولة في الترف وكثرة الحاجات والاتفاق بسببه حتى تثقل المغارم على الرعايا وتنهضم وتصير عادة مفروضة لان تلك الزيادة تدرجت قليلا قليلا ولم يشعر أحد بمن زادها على التعيين ولا من هو واضعها انما ثبت على الرعايا في الاعتمار لذهاب الامل من نفوسهم بقلة النفع اذا قابل بين نفعه ومغارمه وبين ثمرته وفائدته فتنقبض كثير من الايدي عن الاعتمار جملة فتقص جملة الحياة حينئذ بنقصان تلك الوزائع منها وربما يزيدون في مقدار الوظائف اذا رأوا ذلك النقص في الحياة ويحسبونه جبرا لما نقص حتى تنتهي كل وظيفة ووزيعة الى غاية ليس وراءها نفع ولا فائدة لكثرة الاتفاق حينئذ في الاعتمار وكثرة المغارم وعدم وفاء الفائدة المرجوة به فلا تزال الجملة في نقص ومقدار الوزائع والوظائف في زيادة لما يعتقدونه من جبر الجملة بها الى ان ينقبض العمران بذهاب آلام من الاعتمار ويعود وبال ذلك على الدولة لان فائدة الاعتمار عائدة اليها واذا فهمت ذلك علمت ان أقوى الاسباب في الاعتمار تقليل مقدار الوظائف على المعتمرين ما

أمكن فبذلك تنبسط النفوس اليه لثقتها بادراك المنفعة فيه والله سبحانه وتعالى مالك الامور كلها وبيده ملكوت كل شيء

٤٠ فصل في ضرب المكوس أو اخر الدولة

اعلم ان الدولة تكون في أولها بدوية كما قلنا فتكون لذلك قليلة الحاجات لعدم الترف وعوائده فيكون خرجها وانفاقها قليلا فيكون في الحياة حينئذ وفاء بأزيد منها بل يفضل منها كثير عن حاجتهم ثم لا تلبث ان تأخذ بدين الحضارة في الترف وعوائدها وتجري على نهج الدول السابقة قباهم فيكثر لذلك خرج أهل الدولة ويكثر خرج السلطان خصوصاً كثرة بالغة بنفقته في خاصته وكثرة عطائه ولا تفي بذلك الحياة فتحتاج الدولة الى الزيادة في الحياة لما تحتاج اليه الحامية من العطاء والسلطان من النفقة فيزيد في مقدار الوظائف والوزائع أولاً كما قلناه ثم يزيد الخراج والحاجات والتدريج في عوائد الترف وفي العطاء للحامية ويدرك الدولة الهرم وتضعف عصابها عن حباية الاموال من الاعمال والقاصية فتقل الحياة وتكثر العوائد ويكثر بكثرتها ارزاق الجند وعطاؤهم فيستحدث صاحب الدولة انواعاً من الحياة يضربها على البياعات ويفرض لها قدراً معلوماً على الاثمان في الاسواق وعلى أعيان السلع في أموال المدينة وهو مع هذا مضطر لذلك بما دعاه اليه ترف الناس من كثرة العطاء مع زيادة الحيوش والحامية وربما يزيد ذلك في أواخر الدولة زيادة بالغة فتكسد الاسواق لفساد الآمال ويؤذن ذلك باختلال العمران ويعود على الدولة ولا يزال ذلك يتزايد الى أن تضمحل وقد كان وقع منه بامصار المشرق في أخريات الدولة العباسية والعبيدية كثير وفرضت المغارم حتى على الحاج في الموسم وأسقط صلاح الدين أيوب تلك الرسوم جملة وأعضاها بآثار الخير وكذلك وقع بالاندلس لعهد الطوائف حتى محارسه يوسف بن تاشفين أمير المرابطين وكذلك وقع بامصار الجريد بأفريقية لهذا العهد حين استبد بها رؤساؤها والله تعالى أعلم

٤١ فصل في أن التجارة من السلطان مضرّة بالرعايا مفسدة للحياة

اعلم أن الدولة اذا ضاقت جبايتها بما قدمناه من الترف وكثرة العوائد والنفقات وقصر الحاصل من جبايتها على الوفاء بمحاجاتها ونفقاتها واحتاجت الى مزيد المال والحياة فتارة توضع المكوس على بيعات الرعايا وأسواقهم كما قدمنا ذلك في الفصل قبله وتارة بالزيادة في القاب المكوس ان كان قد استحدث من قبل وتارة بمقاسمة العمال والحياة وامتلاك عظامهم لما يرون أنهم قد حصلوا على شيء طائل من أموال الحياة لا يظهره الحسبان وتارة باستحداث التجارة

والفلاحة للسلطان على تسمية الحياة لما يرون التجار والفلاحين يحصلون على الفوائد والغلات مع يسارة أموالهم وأن الأرباح تكون على نسبة رؤس الأموال فيأخذون في اكتساب الحيوان والنبات لاستغلاله في شراء البضائع والتعرض بها لحالة الأسواق ويحسبون ذلك من أدرار الحياة وتكثير الفوائد وهو غلط عظيم وادخال الضرر على الرعايا من وجوه متعددة فأولا مضايقة الفلاحين والتجار في شراء الحيوان والبضائع وتيسير أسباب ذلك فإن الرعايا متكافئون في اليسار متقاربون ومزاحمة بعضهم بعضاً تنتهي إلى غاية موجودهم أو تقرب وإذا رافقهم السلطان في ذلك وماله أعظم كثيراً منهم فلا يكاد أحد منهم يحصل على غرضه في شيء من حاجاته ويدخل على النفوس من ذلك غم ونكد ثم إن السلطان قد ينتزع الكثير من ذلك إذا تعرض له غضا أو بأيسر ثمن أو لا يجد من يناقشه في شرائه فيخس ثمنه على بائعه ثم إذا حصل فوائد الفلاحة ومغلاها كله من زرع أو حرير أو عسل أو سكر أو غير ذلك من أنواع الغلات وحصلت بضائع التجارة من سائر الأنواع فلا ينتظرون به حوالة الأسواق ولا تفاق البياعات لما يدعوههم إليه تكاليف الدولة فيكلفون أهل تلك الأصناف من ناجر أو فلاح بشراء تلك البضائع ولا يرضون في أثمانها إلا القيم وأزيد فيستوعبون في ذلك ناض أموالهم وتبقى تلك البضائع بأيديهم عروضا جامدة ويمكثون عطلا من الإدارة التي فيها كسبهم ومعاشهم وربما تدعوهم الضرورة إلى شيء من المال فيبيعون تلك السلع على كساد من الأسواق بأبخس ثمن وربما يتكرر ذلك على التاجر والفلاح منهم بما يذهب رأس ماله فيقعده عن سوقه ويتعدد ذلك ويتكرر ويدخل به على الرعايا من العنت والمضايقة وفساد الأرباح ما يقبض آمالهم عن السعي في ذلك جملة ويؤدي إلى فساد الحياة فإن معظم الحياة إنما هي من الفلاحين والتجار لاسيما بعد وضع المكوس ونمو الحياة بها فإذا انقبض الفلاحون عن الفلاحة وقعد التجار عن التجارة ذهبت الحياة جملة أو دخلها النقص المتفاحش وإذا قايس السلطان بين ما يحصل له من الحياة وبين هذه الأرباح القليلة وجدها بالنسبة إلى الحياة أقل من القليل ثم إنه ولو كان مفيداً فيذهب له بحظ عظيم من الحياة فيما يعانيه من شراء أو بيع قاته من البعيد أن يوجد فيه من المكس ولو كان غيره في تلك الصفقات لكان تكسبها كلها حصلا من جهة الحياة ثم فيه التعرض لأهل عمرانه واحتلال الدولة بفسادهم ونقصه فإن الرعايا إذا قعدوا عن تثير أموالهم بالفلاحة والتجارة نقصت وتلاشت بالنفقات* وكان فيها اتلاف أحوالهم فافهم ذلك* وكان الفرس لا يملكون عليهم الأمن أهل بيت المملكة ثم يختارونه من أهل الفضل والدين والأدب والسخاء والشجاعة والكرم ثم يشترطون عليه مع ذلك العدل وأن لا يتخذ صنعة فيضر بحيرانه ولا يتاجر فيحب غلاء الأسعار في البضائع وأن لا يستخدم العبيد فانهم لا يشيرون بخير ولا مصلحة* واعلم أن

السلطان لا ينمي ماله ولا يدر موجوده الا الحياية وادرارها انما يكون بالعدل في أهل الاموال والنظر لهم بذلك فبذلك تنبسط آمالهم وتشرح صدورهم للاخذ في تثير الاموال وتتميتها فمعظم منها حباية السلطان * وأما غير ذلك من تجارة أو فلاح فأنما هو مضررة عاجلة للرعايا وفساد للحباية ونقص للعمارة وقديتهى الحال بهؤلاء المتسلخين للتجارة والفلاحة من الامراء والمثقلين في البلدان انهم يتعرضون لشراء الغلات والسلع من اربابها الواردين على بلدهم ويفرضون لذلك من الثمن ما يشاؤون ويبيعونها في وقتها لمن تحت أيديهم من الرعايا بما يفرضون من الثمن وهذه أشد من الاولى وأقرب الى فساد الرعية واختلال احوالهم وربما يحمل السلطان على ذلك من يداخله من هذه الاصناف أعنى التجار والفلاحين لما هي صناعته التي نشأ عليها فيحمل السلطان على ذلك ويضرب معه بسهم لنفسه ليحصل على غرضه من جمع المال سريعا سيما مع ما يحصل له من التجارة بلا مقرم ولا مكس فأنها أجدر بنمو الاموال وأسرع في تثيره ولا يفهم ما يدخل على السلطان من الضرر بنقص حبايته فينبغي للسلطان أن يحذر من هؤلاء ويعرض عن سعاتهم المضررة بحبايته وسلطانه والله يلهيهمنا رشداً أنفسنا وينفعنا بصلاح الاعمال والله تعالى أعلم

٤٢ فصل في أن ثروة السلطان وحاشيته انما تكون في وسط الدولة

والسبب في ذلك أن الحياية في أول الدولة تتوزع على أهل القليل والعصية بمقدار غنائم وعصيتهم ولأن الحاجة اليهم في تمهيد الدولة كما قلناه من قبل فرئيسهم في ذلك متجاف لهم عما يسمون اليه من الحباية معترض عن ذلك بما هو يروم من الاستبداد عليهم فله عزة وله اليهم حاجة فلا يطير في سهمانه من الحباية الا الاقل من حاجته فتجد حاشيته لذلك وأذيله من الوزراء والكتاب والموالي مملقين في الغالب وجاههم متقاص لانه من جاء مخدومهم ونطاقه قد ضاق بمن يزاحه فيه من أهل عصيته فاذا استفحلت طبيعة الملك وحصل لصاحب الدولة الاستبداد على قومه قبض أيديهم عن الحبايات الا ما يطير لهم بين الناس في سهمانهم وتقل حظوظهم اذ ذاك لقلّة غنائمهم في الدولة بما انكبح من أغنتهم وصار الموالي والصنائع مساهمين لهم في القيام بالدولة وتمهيد الامر فينفرد صاحب الدولة حينئذ بالحباية أو معظمها ويحتوي على الاموال ويحتجها للتفقات في مهمات الاحوال فتكثر ثروته وتمتلئ خزائنه ويتسع نطاق جاهه ويعتز على سائر قومه فيعظم حال حاشيته وذويه من وزير وكتاب وحاجب ومولى وشرطي ويتسع جاههم ويقتنون الاموال ويتأثّلونها ثم اذا أخذت الدولة في الهرم بتلاشي العصية وفناء القليل الماهدين للدولة احتاج صاحب الامر حينئذ الى الاعوان والانصار لكثرة الخوارج والمنازعين والثوار وتوهم الانتفاض فصار خراجهم اظهرا وأعوانه وهم أرباب السيوف وأهل العصبية

وأنفق خزائنه وحاصله في مهمات الدولة وقلت مع ذلك الجباية لما قدمناه من كثرة العطاء والانفاق فيقل الخراج وتشتد حاجة الدولة الى المال فيتقاص ظل النعمة والترفع عن الخواص والحجاب والكتاب بتقاص الجاه عنهم وضيق نطاقه على صاحب الدولة ثم تشتد حاجة صاحب الدولة الى المال وتتفق أبناء البطانة والحاشية ما تأله آباؤه من الاموال في غير سبيلها من اعانة صاحب الدولة ويقبلون على غير ما كان عليه آباؤهم وسلفهم من المناصحة ويرى صاحب الدولة أنه أحق بتلك الاموال التي اكتسبت في دولة سلفه وبجاههم فيصطلمها وينتزعها منهم لنفسه شيئاً فشيئاً وواحد بعد واحد على نسبة رتبهم وتنكر الدولة لهم ويعود وبال ذلك على الدولة بفناء حاشيتها ورجالاتها وأهل الثروة والنعمة من بطانتها ويتقوض بذلك كثير من مباني المجد بعد أن يدعمه أهله ويرفعوه وانظر ما وقع من ذلك لوزراء الدولة العباسية في بني قحطبة وبني برمك وبني سهل وبني طاهر وأمثالهم ثم في الدولة الاموية بالاندلس عند انحلالها أيام الطوائف في بني شهيد وبني أبي عبدة وبني حدير وبني برد وأمثالهم وكذا في الدولة التي أدركنها لعهدنا سنة الله التي قد خلت في عبادته

(فصل) ولما يتوقعه أهل الدولة من أمثال هذه المعاطب صار الكثير منهم ينزعون الى الفرار عن الرتب والتخاض من رتبة السلطان بما حصل في أيديهم من مال الدولة الى قطر آخر ويرون انه أنفأ لهم وأسلم في اتفاقه وحصول ثمرته وهو من الاغلاط الفاحشة والأوهام المفسدة لاحوالهم وديناهم واعلم ان الخلاص من ذلك بعد الحصول فيه عسير ممتنع فان صاحب هذا الغرض اذا كان هو الملك نفسه فلا تمكنه الرعاية من ذلك طرفة عين ولا أهل العصية المزاحون له بل في ظهور ذلك منه هدم للملكة واتلاف لنفسه بمجاري العادة بذلك لان رتبة الملك يعسر الخلاص منها سيما عند استبدال الدولة وضيق نطاقها وما يعرض فيها من البعد عن المجد والحلال والتخلق بالشر وأما اذا كان صاحب هذا الغرض من بطانة السلطان وحاشيته وأهل الرتب في دولته فقل أن يخلي بينه وبين ذلك أما أولاً فلما يراه المملوك أن ذويهم وحاشيتهم بل وسائر رعاياه ممالك لهم مطلعون على ذات صدورهم فلا يسمعون بحل ربقته من الخدمة ضناً بأسرارهم وأحوالهم أن يطلع عليهم أحد وغيره من خدمته لسواهم ولقد كان بنو أمية بالاندلس يمنعون أهل دولتهم من السفر لفريضة الحج لما يتوهمونه من وقوعهم بأيدي بني العباس فلم يحج سائر أيامهم أحد من أهل دولتهم وما أيسح الحج لاهل الدول من الاندلس الا بعد فراغ شأن الاموية ورجوعها الى الطوائف وأما ثانياً فلأنهم وان سمحوا بحل ربقته هو فلا يسمعون بالتجافي عن ذلك المال لما يرون انه جزء من مالهم كما كان ربه جزءاً من دولتهم اذ لم يكتسب الا بها وفي ظل جاهها فتحوم نفوسهم على انتزع ذلك المال والتقامه كما هو جزء من الدولة

ينتفعون به ثم اذا توهمنا أنه خاص بذلك المال الى قطر آخر وهو في النادر الاقل فتمتد
اليه أعين الملوك بذلك القطر ويتزعونه بالارهاب والتخويف تعريضاً أو بالقهر ظاهراً لما
يرون أنه مال الحياة والدول وأنه مستحق للانفاق في المصالح واذا كانت أعينهم تمتد الى أهل
الثروة واليسار المكتسبين من وجوه المعاش فأحرى بها أن تمتد الى أموال الحياة والدول
التي تجد السبيل اليه بالشرع والعادة ولقد حاول السلطان أبو يحيى زكريا بن أحمد اللحياني
تاسع أو عاشر ملوك الحفصيين بإفريقية الخروج عن عهدة الملك واللاحق بمصر فراراً من
طلب صاحب الثغور الغربية لما استجمع لغزو تونس فاستعمل اللحياني الرحلة الى نغرطرابلس
يوري بتمهيد وركب السفين من هنالك وخلص الى الاسكندرية بعد أن حمل جميع ما وجدته
بيت المال من الصامت والذخيرة وباع كل ما كان يخزأئهم من المتاع والعقار والجوهر حتى
الكتب واحتمل ذلك كله الى مصر ونزل على الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة سبع عشرة
من المائة الثامنة فأكرم نزله ورفع مجلسه ولم يزل يستخلص ذخيرته شيئاً فشيئاً بالتعريض الى
أن حصل عليها ولم يبق معاش ابن اللحياني الا في جرابته التي فرض له الى أن هلك سنة
ثمان وعشرين حسباً نذكره في أخباره فهذا وأمثاله من جملة الوسواس الذي يعترى أهل
الدول لما يتوقعونه من ملوكهم من المعاطب وانما يخلصون ان اتفق لهم الخلاص بأنفسهم وما
يتوهمونه من الحاجة فغلاط ووههم والذي حصل لهم من الشهرة بخدمة الدول كاف في
وجدان المعاش لهم بالجرايات السلطانية أو بالجاء في اتحال طرق الكسب من التجارة والفلاحة
والدول أنساب لكن

النفس راغبة اذا رغبها * واذا ترد الى قليل تقنع

والله سبحانه هو الرزاق وهو الموفق بمنه وفضله والله أعلم

٤٣ ﴿ فصل في أن نقص العطاء من السلطان نقص في الحياة ﴾

والسبب في ذلك أن الدولة والسلطان هي السوق الاعظم للعالم ومنه مادة العمران فاذا احتجن
السلطان الاموال أو الحيايات أو فقدت فلم يصرفها في مصارفها قل حينئذ ما بأيدي الحاشية
والحامية وانقطع أيضاً ما كان يصل منهم لحاشيتهم وذويهم وقلت نفقاتهم جملة وهو معظم
السواد ونفقاتهم أكثر مادة للاسواق ممن سواهم فيقع الكساد حينئذ في الاسواق وتضعف
الارباح في المتاجر فيقل الخراج لذلك لان الخراج والحياة انما تكون من الاعتمار والمعاملات
ونفاق الاسواق وطلب الناس للفوائد والارباح ووبال ذلك عائد على الدولة بالنقص لقلّة أموال
السلطان حينئذ بقلة الخراج فان الدولة كما قلناه هي السوق الاعظم أم الاسواق كلها وأصلها

ومادتها في الدخل والخرج فان كسدت وقلت مصارفها فأجدر بما بعدها من الاسواق أن يلحقها مثل ذلك وأشد منه وأيضاً فالمال انما هو متردد بين الرعية والسلطان منهم اليه ومنه اليهم فاذا حبسه السلطان عنده فقدته الرعية سنة الله في عبادہ

٤٤ (فصل في أن الظلم مؤذن بخراب العمران)

اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم واذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب فاذا كان الاعتداء كثيراً عاماً في جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالآمال جملة بدخوله من جميع أبوابها وان كان الاعتداء يسيراً كان الانقباض عن الكسب على نسبته والعمران ووفوره ونفاق أسواقه انما هو بالاعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين فاذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران وانتقضت الاحوال وابتدع الناس في الافاق من غير تلك الايالة في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها خفف ساكن القطر وختل دياره وخربت أمصاره واختل باختلاله حال الدولة والسلطان لما انما صورة للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورة وانظر في ذلك ما حكاه المسعودي في أخبار الفرس عن الموبذان صاحب الدين عندهم أيام بهرام بن بهرام وما عرض به للملك في انكار ما كان عليه من الظلم والغفلة عن عائدته على الدولة بضرر المثال في ذلك على لسان اليوم حين سمع الملك أصواتها وسأله عن فهم كلامها فقال له ان يوماً ذكرا يروم نكاح يوم أنثى وانها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب في أيام بهرام فقبل شرطها وقال لها ان دامت أيام الملك أقطعتك ألف قرية وهذا أسهل مرام فتنبه الملك من غفلته وخللا بالموبذان وسأله عن مراده فقال له أيها الملك ان الملك لا يتم عزه الا بالشرعية والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه ولا قوام للشرعية الا بالملك ولا عز للملك الا بالرجال ولا قوام للرجال الا بالمال ولا سبيل الى المال الا بالعمارة ولا سبيل للعمارة الا بالعدل والعدل الميزان المنصوب بين الخليفة نصبه الرب وجعل له قيا وهو الملك وأنت أيها الملك عمدت الى الضياع فاتترعتما من أربابها وعمارها وهم ارباب الخراج ومن تؤخذ منهم الاموال وأقطعتما الحاشية والخدم وأهل البطالة فتركوا العمارة والنظر في العواقب وما يصلح الضياع وسومحوا في الخراج لقرهم من الملك ووقع الحيف على من بقى من أرباب الخراج وعمار الضياع فانجلوا عن ضياعهم وخلوا ديارهم وأووا الى ما تعذر من الضياع فسكنوها فقلت العمارة وخربت الضياع وقلت الاموال وهلك

الجنود والرعية وطمع في ملك فارس من جاورهم من الملوك لعلمهم بانقطاع المواد التي لا تستقيم دعائم الملك الا بها فلما سمع الملك ذلك أقبل على النظر في ملكه واتزعت الضياع من أيدي الخاصة وردت على اربابها وحملوا على رسومهم السالفة وأخذوا في العمارة وقوى من ضعف منهم فعمرت الارض وأخصبت البلاد وكثرت الاموال عند حياة الخراج وقويت الجنود وقطعت مواد الاعداء وشحنت الثغور وأقبل الملك على مباشرة أموره بنفسه خسنت أيامه وانتظم ملكه فتفهم من هذه الحكاية أن الظلم مخرب للعمران وان عائدة الخراب في العمران على الدولة بالفساد والانتقاص ولا تنظر في ذلك الى ان الاعتداء قد يوجد بالامصار العظيمة من الدول التي بها ولم يقع فيها خراب واعلم ان ذلك انما جاء من قبل المناسبة بين الاعتداء وأحوال اهل المصير فلما كان المصير كبيراً وعمرانه كثيراً وأحواله متسعة بما لا يخصر كان وقوع النقص فيه بالاعتداء والظلم يسيراً لان النقص انما يقع بالتدرج فاذا خفي بكثرة الاحوال واتساع الاعمال في المصير لم يظهر أثره الا بعد حين وقد تذهب تلك الدولة المعتدية من أصلها قبل خراب المصير وتجيء الدولة الاخرى فترقع بحديثها وتجير النقص الذي كان خفياً فيه فلا يكاد يشعر به الا أن ذلك في الاقل النادر والمراد من هذا أن حصول النقص في العمران عن الظلم والعدوان أمر واقع لا بد منه لما قدمناه ووباله عائد على الدول ولا تحسبن الظلم انما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكة من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور بل الظلم أعم من ذلك وكل من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حقاً لم يفرضه الشرع فقد ظلمه فحياة الاموال بغير حقها ظلمة والمعتدون عليها ظلمة والمنتهبون لها ظلمة والممانعون لحقوق الناس ظلمة وغصاب الاملاك على العموم ظلمة ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذي هو مادتها لاذهابه الآمال من اهلها واعلم ان هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري وهي الحكمة العامة المراعاة للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال فلما كان الظلم كما رأيت مؤذناً بانقطاع النوع لما أدى اليه من تخريب العمران كانت حكمة الخطر فيه موجودة فكان تحريمه مهما وأداته من القرآن والسنة كثير اكثر من أن يأخذها قانون الضبط والحصر ولو كان كل واحد قادراً عليه لوضع بازائه من العقوبات الزاجرة ما وضع بازاء غيره من المفسدات للنوع التي يقدر كل أحد على اقترافها من الزنا والقتل والسكر الا ان الظلم لا يقدر عليه الا من يقدر عليه لانه انما يقع من أهل القدرة والسلطان قبوله في ذمه وتكرير الوعيد فيه عسى ان يكون الوازع فيه لئلا يدركه في نفسه وما ربك بظلام للعبيد * ولا تقولن ان العقوبة قد وضعت بازاء الخراب

في الشرع وهي من ظلم القادر لان المحارب زمن حرايته قادر فان في الجواب عن ذلك طريقين * أحدهما أن تقول العقوبة على ما يقتضيه من الجنايات في نفس أو مال على ما ذهب اليه كثير وذلك انما يكون بعد القدرة عليه والمطالبة بجنايته وأما نفس الحراية فهي خلو من العقوبة * لطريق الثاني أن تقول المحارب لا يوصف بالقدرة لانا انما نعني بقدرة الظالم اليد المبسوطة التي لا تعارضها قدرة فهي المؤذنة بالخراب وأما قدرة المحارب فانما هي اخافة يجعلها ذريعة لاخذ الاموال والمدافعة عنها بيد الكل موجودة شرعا وسياسة فليست من القدر المؤذن بالخراب والله قار على ما يشاء (فصل) ومن أشد الظالمان وأعظمها في افساد العمران تكليف الاعمال وتسخير الرعايا بغير حق وذلك أن الاعمال من قبيل الممتلكات كما سنبين في باب الرزق لان الرزق والكسب انما هو قيم أعمال أهل العمران فاذا مساعهم وأعمالهم كلها ممتلكات ومكاسب لهم بل لا مكاسب لهم سواها فان الرعية المعتمدين في العمارة انما معاشهم ومكاسبهم من أعمالهم ذلك فاذا كلفوا العمل في غير شأنهم واتخذوا سخريا في معاشهم بطل كسبهم واعتصبوا قيمة عملهم ذلك وهو ممولهم فدخل عليهم الضرر وذهب لهم حظ كبير من معاشهم بل هو معاشهم بالجملة وان تكرر ذلك عليهم افسد آمالهم في العمارة وقعدوا عن السعي فيها جملة فأدي ذلك الى انتقاض العمران وتخريبه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

(فصل) وأعظم من ذلك في الظلم وفساد العمران والدولة التساطع على أموال الناس بشراء ما بين أيديهم بأجنس الاثمان ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الاثمان على وجه الغصب والاكراه في الشراء والبيع وربما تفرض عليهم تلك الاثمان على النواحي والتأجيل فيتعلمون في تلك الحسارة التي تلحقهم بما تحذتهم المطامع من جبر ذلك بحالة الاسواق في تلك البضائع التي فرضت عليهم بالغلاء الى بيعها بأجنس الاثمان وتعود خسارة ما بين الصفتين على رؤس أموالهم وقد يعم ذلك اصناف التجار المقيمين بالمدينة والواردين من الآفاق في البضائع وسائر السوق وأهل الدكاكين في المأكول والفواكه وأهل الصنائع فيما يتخذ من الآلات والمواعين فتشمل الحسارة سائر الاصناف والطبقات وتتوالى على الساعات وتجنح برؤس الاموال ولا يجدون عنها وليجة الا القعود عن الاسواق لذهاب رؤس الاموال في جبرها بالارباح ويتناقل الواردون من الآفاق لشراء البضائع وبيعها من أجل ذلك فتكسد الاسواق ويبطل معاش الرعايا لان عامته من البيع والشراء واذا كانت الاسواق عطلا منها بطل معاشهم وتنقص جباية السلطان أو تفسد لان معظمها من أوسط الدولة وما بعدها انما هو من المكوس على البياعات كما قدمناه ويؤول ذلك الى تلاشي الدولة وفساد عمران المدينة ويتطرق هذا الحلل على التدرج ولا يشعر به هذا ما كان بمثابة هذه الذرائع والاسباب الى أخذ الاموال وأما أخذها بمجانا والعدوان

على الناس في أموالهم وحرمة دمائهم وأعراضهم فهو يفضي إلى الخلل والفساد دفعة وتنتقض الدولة سريعاً بما ينشأ عنه من الهرج المفضي إلى الانتقاض ومن أجل هذه المفسدات يحظر الشرع ذلك كله وشرع المكايسة في البيع والشراء وحظر أكل أموال الناس بالباطل سداً لأبواب المفساد المفضية إلى انتقاض العمران بالهرج أو بطلان المعاش واعلم أن الداعي لذلك كله إنما هو حاجة الدولة والسلطان إلى الاكثار من المال بما يعرض لهم من الترف في الأحوال فتكثر نفقاتهم ويعظم الخرج ولا يفي به الدخل على القوانين المعتادة يستحدثون ألقاباً ووجوهاً يوسعون بها الحياة ليفي لهم الدخل بالخرج ثم لا يزال الترف يزيد والخرج يسببه يكثر والحاجة إلى أموال الناس تشتد ونطاق الدولة بذلك يزيد إلى أن تمحي دائرتها ويذهب برسمها ويغلبها طالبها والله أعلم

٤٥ فصل في الحجاب كيف يقع في الدول وأنه يعظم عند الهرم

اعلم أن الدولة في أول أمرها تكون بعيدة عن منازع الملك كما قدمناه لأنه لا بد لها من العصية التي بها يتم أمرها ويحصل استيلائها والبدواة هي شعار العصية والدولة إن كان قيامها بالدين فإنه بعيد عن منازل الملك وإن كان قيامها بعز الغلب فقط فالبدواة التي بها يحصل الغلب بعيدة أيضاً عن منازع الملك ومذاهبه فإذا كانت الدولة في أول أمرها بدوية كان صاحبها على حال الغضاضة والبدواة والقرب من الناس وسهولة الأذن فإذا رسخ عزه وصار إلى الانفراد بالمجد واحتاج إلى الانفراد بنفسه عن الناس للحديث مع أوليائه في خواص شؤنه لما يكثر حينئذ من بحاشيته فيطلب الانفراد من العامة ما استطاع ويخذ الأذن ببابه على من لا يأمنه من أوليائه وأهل دولته ويتخذ حاجباً له عن الناس يقيمه ببابه لهذه الوظيفة ثم إذا استفحل الملك وجاءت مذاهبه ومنازعه استحالت خلق صاحب الدولة إلى خلق الملك وهي خلق غريبة مخصوصة يحتاج مباشرها إلى مداراتها ومعاملتها بما يجب لها وربما جهل تلك الخلق منهم بعض من يباشرهم فوق فيأمرهم فيسخطوه وصاروا إلى حالة الانتقام منه فانفرد بمعرفة هذه الآداب مع الخواص من أوليائهم وحجبوا غير أولئك الخاصة عن لقاءهم في كل وقت حفظاً على أنفسهم من معاينة ما يسخطهم وعلى الناس من التعرض لعقابهم فصار لهم حجاب آخر أخص من الحجاب الأول يفضي إليهم منه خواصهم من الأولياء ويحجب دونه من سواهم من العامة والحجاب الثاني يفضي إلى مجالس الأولياء ويحجب دونه من سواهم من العامة والحجاب الأول يكون في أول الدولة كما ذكرنا كما حدث لآيام معاوية وعبد الملك وخلفاء بني أمية وكان القائم على ذلك الحجاب يسمى عندهم الحجاب جزي على مذهب الاشتقاق الصحيح ثم لما جاءت دولة بني العباس

وجدت الدولة من الترف والعز ما هو معروف وكملة خاق الملك على ما يجب فيها فدعا ذلك الى الحجاب الثاني وصار اسم الحجاب أخص به وصار بباب الخلفاء داران للعباسية دار الخاصة ودار العامة كما هو مسطور في أخبارهم ثم حدث في الدول حجاب ثالث أخص من الاولين وهو عند محاولة الحجر على صاحب الدولة وذلك أن أهل الدولة وخواص الملك اذا نصبوا الابناء من الاعقاب وحاولوا الاستبداد عليهم فأول ما يبدأ به ذلك المستبد أن يحجب عنه بطانة ابنه وخواص أوليائه ويوهمه أن في مباشرتهم اياه خرق حجاب الهيبة وفساد قانون الأدب ليقطع بذلك لقاء الغير ويعوده ملاسة أخلاقه هو حتى لا يتبدل به سواء الى أن يستحكم الاستيلاء عليه فيكون هذا الحجاب من دواعيه وهذا الحجاب لا يقع في الغالب الا أواخر الدولة كما قدمناه في الحجر ويكون دليلا على هرم الدولة ونفاد قوتها وهو مما يخشاه أهل الدول على أنفسهم لان القائمين بالدولة يحاولون على ذلك بطاعهم عند هرم الدولة وذهاب الاستبداد من أعقاب ملوكهم للمركب في النفوس من محبة الاستبداد بالملك وخصوصا مع الترشيح لذلك وحصول دواعيه ومباده

٤٦ (فصل في انقسام الدولة الواحدة بدولتين)

اعلم أن أول ما يقع من آثار الهرم في الدولة انقسامها وذلك أن الملك عندما يستفحل و يبلغ أحوال الترف والنعيم الى غايتها ويستبد صاحب الدولة بالمجد وينفرد به يأنف حينئذ عن المشاركة ويصير الى قطع أسبابها ما استطاع باهلاك من استراب به من ذوي قرابته المرشحين لمنصبه فرما ارتاب المشاهمون له في ذلك بانفسهم ونزعوا الى القاصية اليهم من يالحق بهم مثل حالهم من الاغترار والاسترابة ويكون نطاق الدولة قد أخذ في التضيق ورجع عن القاصية فيستبد ذلك النازع من القرابة فيها ولا يزال أمره يعظم بتراجع نطاق الدولة حتى يقاسم الدولة أو يكاد وانظر ذلك في الدولة الاسلامية العربية حين كان أمرها حريزا مجتمعاً ونطاقها ممتدا في الاتساع وعصبة بني عبد مناف واحدة غالبية على سائر مضر فلم ينبض عرق من الخلاف سائر أيامه الا ما كان من بدعة الخوارج المستميتين في شأن بدعتهم لم يكن ذلك لنزعة ملك ولا رياسة ولم يتم أمرهم لمزاحمتهم العصبة القوية ثم للمخرج الامر من بني أمية واستقل بنو العباس بالامر وكانت الدولة العربية قد بلغت الغاية من الغلب والترف وأذنت بالتقلص عن القاصية نزع عبد الرحمن الداخل الى الاندلس قاصية دولة الاسلام فاستحدث بها ملكا و اقتطعها عن دولتهم وصير الدولة دولتين ثم نزع ادريس الى المغرب وخرج به وقام بامرهم وأمر ابنه من بعده البربرة من أوربة ومغيلة وزنانة واستولى على ناحية المغربين ثم ازدادت الدولة

تقلصا فاضطرب الأغلبة في الامتاع عليهم ثم خرج الشيعة وقام بأمرهم كتامة وصنهاجة واستولوا على افريقية والمغرب ثم مصر والشام والحجاز وغلبوا على الادارسة وقسموا الدولة دولتين آخرين وصارت الدولة العربية ثلاث دول دولة بني العباس بمركز العرب وأصلهم ومادتهم الاسلام ودولة بني أمية المجددين بالاندلس ملكهم القديم وخالقهم بالشرق ودولة العبيديين بافريقية ومصر والشام والحجاز ولم تزل هذه الدولة الى أن كان انقراضها متقاربا أوجيها وكذلك انقسمت دولة بني العباس بدول أخرى وكان بالقاصية بنو ساسان فيما وراء النهر وخراسان والملوية في الديلم وطبرستان وآل ذلك الى استيلاء الديلم على العراقيين وعلى بغداد والخلفاء ثم جاء الساجونية فلكوا جميع ذلك ثم انقسمت دولتهم أيضا بعد الاستفحال كما هو معروف في أخبارهم وكذلك اعتبره في دولة صنهاجة بالمغرب وافريقية لما بلغت الى غايتها أيام باديس بن المنصور خرج عليه عمه حماد واقطع ممالك العرب لنفسه ما بين جبل أوراس الى تلمسان وملوية واحتط القلعة بجبل كتامة حمال المسيلة ونزلها واستولى على مركزهم أشير بجبل تيطري واستحدث ملكا آخر قسيما الملك آل باديس وبقي آل باديس بالقيروان وما إليها ولم يزل ذلك الى أن انقرض أمرها جميعا وكذلك دولة الموحدون لما تنقص ظلمها نار بافريقية بنو أبي حنص فاستقلوا بها واستحدثوا ملكا لأعقابهم بنوا حيا ثم لما استفحل أمرهم واستولى على الغاية خرج على الممالك الغربية من أعقابهم الأمير أبو زكريا يحيى ابن السلطان أبي اسحق ابراهيم رابع خلفائهم واستحدث ملكا بجاية وقسنطينة وما إليها أورثة بنيه وقسموا به الدولة قسمين ثم استولى على كرسي الحضرة بتونس ثم انقسم الملك ما بين أعقابهم ثم عاد الاستيلاء فيهم وقد ينهي الانقسام الى أكثر من دولتين وثلاثة وفي غير أعياص الملك من قومه كما وقع في ملوك الطوائف بالاندلس وملوك العجم بالشرق وفي ملك صنهاجة بافريقية فقد كان لاخر دولتهم في كل حصن من حصون افريقية نأثر مستقل بأمره كما تقدم ذكره وكذا حال الجريد والزاب من افريقية قبيل هذا العهد كما نذكره وهكذا شأن كل دولة لا بد وأن يعرض فيها عوارض الهرم بالترف والدعة وتقلص ظل الغلب فيقتسم أعياصها أو من يغلب من رجال دولتها الامر ويتعدد فيها الدولة والله وارث الارض ومن عليها

٤٧ فصل في أن الهرم اذا نزل بالدولة لا يرتفع

قد قدمنا ذكر العوارض المؤذنة بالهرم وأسبابه واحدا بعد واحد وبيننا أنها تحدث للدولة بالطبع وأنها كلها أمور طبيعية لها واذا كان الهرم طبيعيا في الدولة كان حدوثه بمثابة حدوث الامور الطبيعية كما يحدث الهرم في المزاج الحيواني والهرم من الامراض المزمنة التي لا يمكن

دواؤها ولا ارتفاعها لما انه طبعى والامور الطبيعية لا تبدل وقد يتنبه كثير من أهل الدول ممن له يقظة في السياسة فيرى ما نزل بدولتهم من عوارض الهرم ويظن أنه يمكن الارتقاء فيأخذ نفسه بتلافي الدولة واصلاح مزاجها عن ذلك الهرم وبحسبه انه لحقها بتقصير من قبله من أهل الدولة وغفلتهم وليس كذلك فانها أمور طبيعية للدولة والعوائد هي الماندة له من تلافها والعوائد منزلة طبيعية أخرى فان من أدرك مثلاً أباه وأكثر أهل بيته يلبسون الحرير والديباة ويتحلون بالذهب في السلاح والمراكب ويحتجبون عن الناس في المجالس والصلوات فلا يمكنه مخالفة سلفه في ذلك الى الحشونة في اللباس والزى والاختلاط بالناس اذ العوائد حينئذ تمنعه وتقبح عليه مرتكبها ولو فعله لرمي بالجبن والوسواس في الخروج عن العوائد دفعة وخشى عليه عائدة ذلك وعاقبه في سلطانه وانظر شأن الانبياء في انكار العوائد ومخالفتها لولا التأييد الالهي والنصر السماوي وربما تكون العصية قد ذهبت فتكون الأبهة تعوض عن موقعها من النفوس فاذا أزيات تلك الأبهة مع ضعف العصية تجاسرت الرعايا على الدولة بذهاب أوهاهم الأبهة فتندرع الدولة بتلك الأبهة ما أمكنها حتى ينتضي الأمر وربما يحدث عند آخر الدولة قوة توهم أن الهرم قد ارتفع عنها ويومض ذبالها ايماضة الحمد كما يقع في الذبال المشتعل فانه عند مقارنة انطفائه يومض ايماضة توهم أنها اشتعال وهي انطفاء فاعتبر ذلك ولا تغفل سر الله تعالى وحكمته في اطراد وجوده على ما قدر فيه ولكل أجل كتاب

فصل في كيفية طروق الخلل للدولة

٤٨

اعلم أن مبنى الملك على أساسين لا بد منهما فالاول الشوكة والعصية وهو المعبر عنه بالجند والثاني المال الذي هو قوام أولئك الجند واقامة ما يحتاج اليه الملك من الاحوال والخلل اذا طروق الدولة طرقتها في هذين الاساسين فلنذكر أولاً طروق الخلل في الشوكة والعصية ثم نرجع الى طروقه في المال والحياة واعلم أن تهديد الدولة وتأسيسها كما قلناه انما يكون بالعصية وأنه لا بد من عصية كبرى جامعة للعصائب مستتعبة لها وهي عصية صاحب الدولة الخاصة من عشيرة وقبيلة فاذا جاءت الدولة طبيعة الملك من الترف وجدع أنوف أهل العصية كان أول ما يجدد أنوف عشيرته وذوي قريبه المقاسمين له في اسم الملك فيستبد في جدع أنوفهم بما بلغ من سواهم ويأخذهم الترف أيضاً أكثر من سواهم لكانهم من الملك والعز والغلب فيحيط بهم هادمان وهما الترف والقهر ثم يصير القهر آخر الى القتل لما يحصل من مرض قلوبهم عند رسوخ الملك لصاحب الأمر فيقلب غيرته منهم الى الخوف على ملكه فيأخذهم بالقتل والاهانة وسلب النعمة والترف الذي تعودوا الكثير منه فيملكون ويقلون وتفسد عصية

صاحب الدولة منهم وهي العصية الكبرى التي كانت تجمع بها العصابات وتستبعضها فتحل عروتها وتضعف شكيمةا وتستبدل عنها بالبطالة من موالي النعمة وصنائع الاحسان وتخذ منهم عصية الا أنها ليست مثل تلك الشدة الشكيمة لفقدان الرحم والقرابة منها وقد كنا قدمنا أن شأن العصية وقوتها انما هي بالقرابة والرحم لما جعل الله في ذلك فينفرد صاحب الدولة عن العشير والانصار الطبيعية ويحس بذلك أهل العصابات الأخرى فيتجاسرون عليه وعلى بطانته تجاسرا طبعيا فيهلكهم صاحب الدولة ويتبعهم بالقتل واحدا بعد واحد ويقلد الآخر من أهل الدولة في ذلك الاول مع ما يكون قد نزل بهم من مهلكة الترف الذي قدمنا فيستولى عليهم الهلاك بالترف والقتل حتى يخرجوا عن صبغة تلك العصية وينشوا بعزتها وشورتها ويصيروا أوجز على الحماية ويقولون لذلك فقتل الحامية التي تنزل بالاطراف والثغور فيتجاسر الزعيا على بعض الدعوة في الاطراف ويبادر الخوارج على الدولة من الاعياص وغيرهم الى تلك الاطراف لما يرجون حينئذ من حصول غرضهم بمبايعة أهل القاصية لهم وأنهم من وصول الحامية اليهم ولا يزال ذلك يتدرج ونطاق الدولة يتضايق حتى تصير الخوارج في أقرب الاماكن الى مركز الدولة وربما انقسمت الدولة عند ذلك بدولتين أو ثلاثة على قدر قوتها في الاصل كما قلناه ويقوم بأمرها غير أهل عصيتها لكن اذعانا لاهل عصيتها ولغلبهم المعهود واعتبر هذا في دولة العرب في الاسلام انتهت أولا الى الاندلس والهند والصين وكان أمر بني أمية نافذاً في جميع العرب بعصية بني عبد مناف حتى لقد أمر سليمان بن عبد الملك من دمشق بقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير بقرطبة فقتل ولم ير دأمره ثم تلاشت عصية بني أمية بما أصابهم من الترف فاقرضوا وجاء بنو العباس ففضوا من أعنة بني هاشم وقتلوا الطالبين وشردهم فالتحت عصية عبد مناف وتلاشت وتجاسر العرب عليهم فاستبد عليهم أهل القاصية مثل بني الاغلب بافريقية وأهل الأندلس وغيرهم وانقسمت الدولة ثم خرج بنو ادريس بالغرب وقام البربر بأمرهم اذعانا للعصية التي لهم وأما أن تصلهم مقاتلة أو حامية للدولة فاذا خرج الدعاة آخرأ فيتغلبون على الاطراف والقاصية وتحصل لهم هناك دعوة وملك تنقسم به الدولة وربما يزيد ذلك متى زادت الدولة تقلصاً الى أن ينتهي الى المركز وتضعف البطانة بعد ذلك بما أخذ منها الترف فهلك وتضمحل وتضعف الدولة المنقسمة كلها وربما طال أمدھا بعد ذلك فتستغنى عن العصية بما حصل لها من الصبغة في نفوس أهل إياتها وهي صبغة الانقياد والتسليم منذ السنين الطويلة التي لا يعقل أحد من الاجيال مبدأها ولا أوليتها فلا يعقلون الا التسليم لصاحب الدولة فيستغنى بذلك عن قوة العصابات ويكفي صاحبها بما حصل لها في تمهيد أمرها الاجراء على الحامية من جندي ومرزق ويعضد ذلك ماوقع في النفوس عامة من

التسليم فلا يكاد أحد أن يتصور عصياناً أو خروجاً إلا والجمهور منكرون عليه مخالفون له فلا يقدر على التصدي لذلك ولو جهد جهده وربما كانت الدولة في هذا الحال أسلم من الحوارج والمنازعة لاستحكام صبغة التسليم والانقياد لهم فلا تصكاد النفوس تحدث سرها بمخالفة ولا يمتلج في ضميرها انحراف عن الطاعة فيكون أسلم من الهرج والانتقاض الذي يحدث من العصاب والعشائر ثم لا يزال أمر الدولة كذلك وهي تتلاشى في ذاتها شأن الحرارة الغريزية في البدن العادم للغذاء الى أن تنتهي الى وقفها المقدور ولكل أجل كتاب ولكل دولة أمد والله يقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار * وأما الحلل الذي يتطرق من جهة المال فاعلم أن الدولة في أولها تكون بدوية كما مر فيكون خلق الرفق بالرعيا والقصد في النفقات والتعفف عن الاموال فتجاني عن الامعان في الحياة والتجذلق والكيس في جمع الاموال وحسبان العمال ولا داعية حينئذ الى الاسراف في النفقة فلا يحتاج الدولة الى كثرة المال ثم يحصل الاستيلاء ويعظم ويستفحل الملك فيدعو الى الترف ويكثر الانفاق بسببه فتعظم نفقات السلطان وأهل الدولة على العموم بل يتعدى ذلك الى أهل المصر ويدعو ذلك الى الزيادة في أعطيات الجند وأرزاق أهل الدولة ثم يعظم الترف فيكثر الاسراف في النفقات ويتشتر ذلك في الرعية لان الناس على دين ملوكها وعوائدها ويحتاج السلطان الى ضرب المكوس على ائمان البياعات في الاسواق لادرار الحياة لمسايراه من ترف المدينة الشاهد عليهم بالرفه ولما يحتاج هو اليه من نفقات سلطانه وأرزاق جنده ثم يزيد عوائد الترف فلا تفي بها المكوس وتكون الدولة قد استفحلت في الاستطالة والقهر لمن تحت يدها من الرعايا فتتمد ايديهم الى جمع المال من أموال الرعايا من مكس أو تجارة أو نقد في بعض الاحوال بشبهة أو بغير شبهة ويكون الجند في ذلك الطور قد نجاسر على الدولة بما لحقها من الفشل والهرم في العصية فتتوقع ذلك منهم وتداوى بسكينة العطايا وكثرة الانفاق فيهم ولا تجدد عن ذلك وليجة وتكون حياة الاموال في الدولة قد عظمت ثروتهم في هذا الطور بكثرة الحياة وكونها بأيديهم وبما اتسع لذلك من جاههم فيتوجه اليهم باحتجان الاموال من الحياة وتفشوا لسعاية فيهم بعضهم من بعض للمنافسة والحقد قمعهم التكببات والمصادرات واحداً واحداً الى أن تذهب ثروتهم وتتلاشى احوالهم ويفقد ما كان للدولة من الأبهة والجمال بهم واذا اصطلمت نعمتهم تجاوزتهم الدولة الى أهل الثروة من الرعايا سواهم ويكون الوهن في هذا الطور قد لحق الشوكة وضعت عن الاستطالة والقهر فتصرف سياسة صاحب الدولة حينئذ الى مداراة الامور ببذل المال ويراها أرفع من السيف قلقة غنائها فتعظم حاجته الى الاموال زيادة عن النفقات وأرزاق الجند ولا يغنى فيما يريد ويعظم الهرم بالدولة ويجاسر عليها أهل النواحي والدولة تخل عراها في كل طور من هذه الى أن تقضي

الى الهلاك وتتعوض من الاستيلاء الكلل فان قصدها طالب اتزعها من أيدي القائم بها
والأبقيت وهي تتلاشى الى أن تضمحل كالذباب في السراج اذا فنى زيته وطوى والله مالك
الامور ومدير الاكوان لاله الا هو

٤٩ فصل في حدوث الدولة وتجدها كيف يقع

اعلم أن نشأة الدول وبدايتها اذا أخذت الدولة المستقرة في الهرم والانتقاص يكون على
نوعين اما بأن يستبد ولاية الاعمال في الدولة بالقافية عند ما يتقلص ظلها عنهم فيكون لكل
واحد منهم دولة يستجدها لقومه وما يستقر في نصابه يرثه عنه أبناؤه أو مواليه ويستفحل
لهم الملك بالتدريج وربما يزدحمون على ذلك الملك ويتقارعون عليه ويتنازعون في الاستئثار به
ويغلب منهم من يكون له فضل قوة على صاحبه ويتترع مافي يده كما وقع في دولة بني العباس
حين أخذت دولتهم في الهرم وتقلص ظلها عن القافية واستبد بنو سامان بما وراء النهر
وبنو حمدان بالموصل والشام وبنو طولون بمصر وكما وقع بالدولة الأموية بالاندلس واقترب
ملكها في الطوائف الذين كانوا ولاتها في الاعمال وانقسمت دولا وملوكا أورثوها من بعدهم
من قرابتهم أو مواليتهم وهذا النوع لا يكون بينهم وبين الدولة المستقرة حرب لانهم مستقرون
في رياستهم ولا يطمعون في الاستيلاء على الدولة المستقرة بحرب وانما الدولة أدركها الهرم
وتقلص ظلها عن القافية وعجزت عن الوصول اليها والنوع الثاني بأن يخرج على الدولة خارج
مما يجاورها من الامم والقبائل اما بدعوة يحمل الناس عليها كما أشرنا اليه أو يكون صاحب شوكة
وعصية كبيرا في قومه قد استفحل أمره فيسمو بهم الى الملك وقد حدثوا به أنفسهم بما حصل
لهم من الاعتزاز على الدولة المستقرة وما نزل بها من الهرم فيتعين له ولقومه الاستيلاء عليها
ويعارسونها بالمطالبة الى أن يظفروا بها ويزنون (١) أمرها كما يتبين والله سبحانه وتعالى أعلم

٥٠ فصل في أن الدولة المستجدة انما تستولي على الدولة المستقرة بالمطاوله لا بالناجزة

قد ذكرنا أن الدول الحادثة المتجددة نوعان * نوع من ولاية الاطراف اذا تقلص ظل
الدولة عنهم وانحسر تيارها وهؤلاء لا يقع منهم مطالبة للدولة في الاكثر كما قدمناه لان
قصاراهم القنوع بما في أيديهم وهو نهاية قوتهم * والنوع الثاني نوع الدعاة والحوارج على الدولة
وهؤلاء لا بد لهم من المطالبة لان قوتهم وافية بها فان ذلك انما يكون في نصاب يكون له من
العصية والاعتزاز ما هو كفاء ذلك وواف به فيقع بينهم وبين الدولة المستقرة حروب سجال

(١) قوله ويزنون في نسخة ويرفون من الرفو بالراء والفاء اه

تتكرر وتصل الى أن يقع لهم الاستيلاء والظفر بالمطلوب ولا يحصل لهم في الغالب ظفر بالمناجزة والسبب في ذلك أن الظفر في الحروب إنما يقع كما قدمناه بأمور نفسانية وهمية وان كان العدد والسلاح وصدق القتال كفيلاً به لكنه قاصر مع تلك الامور الوهمية كما مر ولذلك كان الخداع من أنفع ما يستعمل في الحرب وأكثر ما يقع الظفر به وفي الحديث الحرب خدعة والدولة المستقرة قدصيرت العوائد المألوفة طاعتها ضرورية واجبة كما تقدم في غير موضع فتكثر بذلك العوائق لصاحب الدولة المستقرة ويكثر من هم أتباعه وأهل شوكته وان كان الاقربون من بطانته على بصيرة في طاعته وموازرته الا أن الآخرين أكثر وقد داخلهم الفشل بتلك العقائد في التسليم للدولة المستقرة فيحصل بعض الفتور منهم ولا يكاد صاحب الدولة المستقرة يقاوم صاحب الدولة المستقرة فيرجع الى الصبر والمطاوله حتي يتضح همم الدولة المستقرة فتضمحل عقائد التسليم لها من قومه وتنبعث منهم الهمم لصدق المطالبة معه فيقع الظفر والاستيلاء وأيضاً فالدولة المستقرة كثيرة الرزق بما استحكم لهم من الملك وتوسع النعيم والذات واختصوا به دون غيرهم من أموال الحياة فيكثر عندهم ارتباط الخيول واستجادة الاسلحة وتعظم فيهم الأبهة الملكية ويفيض العطاء بينهم من ملوكهم اختياراً واضطراً فيرهبون بذلك كله عدوهم وأهل الدولة المستقرة بمعزل عن ذلك لما هم فيه من البداوة وأحوال الفقر والخصاصة فيسبق الى قلوبهم أو هام الرعب بما يبلغهم من أحوال الدولة المستقرة ويحرمون عن قتالهم من أجل ذلك فيصير أمرهم الى المطاوله حتي تأخذ المستقرة مأخذها من الهرم ويستحكم الخلل فيها في العvisية والحياة فينهز حينئذ صاحب الدولة المستقرة فرصته في الاستيلاء عليها بعد حين منذ المطالبة سنة الله في عباده وأيضاً فأهل الدولة المستقرة كلهم مباينون للدولة المستقرة بأنسابهم وعوائدهم وفي سائر مناحيهم ثم هم مفاخرون لهم ومناذون بما وقع من هذه المطالبة وبطمعهم في الاستيلاء عليه فتتمكن المباعدة بين أهل الدولتين سرّاً وجهراً ولا يصل الى أهل الدولة المستقرة خبر عن أهل الدولة المستقرة يصيبون منه غرة (١) باطنا وظاهراً لانقطاع المداخلة بين الدولتين فيقيمون على المطالبة وهم في احجام وينكفون عن المناجزة حتي يأذن الله بزوال الدولة المستقرة وفناء عمرها ووفور الخلل في جميع جهاتها واتضح لأهل الدولة المستقرة مع الايام ما كان يخفي منهم من همها وتلاشيها وقد عظمت قوتهم بما اقتطعوه من أعمالها ونقصوه من أطرافها فتنبعث همهم يدا واحدة للمناجزة ويذهب ما كان بث في عزائمهم من التوهّمات وتنتهي المطاوله الى حدها

ويقع الاستيلاء آخرًا بالمعاجلة واعتبر ذلك في دولة بني العباس حين ظهورها حين قام الشيعة بخراسان بعد انعقاد الدعوة واجتماعهم على المطالبة عشر سنين أو تزيد وحينئذ تم لهم الظفر واستولوا على الدولة الأموية وكذا العلوية بطبرستان عند ظهور دعوتهم في الديلم كيف كانت مطاولتهم حتي استولوا على تلك الناحية ثم لما تقضي أمر العلوية وسما الديلم الى ملك فارس والعراقين فمكثوا سنين كثيرة يطاولون حتي اقتطعوا أصهبان ثم استولوا على الخليفة ببغداد وكذا العبيديون أقام داعيتهم بالمغرب أبو عبد الله الشيعي بنى كتامة من قبائل البربر عشر سنين ويزيد تطاول بني الاغلب بأفريقية حتي ظفر بهم واستولوا على المغرب كله وسموا الى ملك مصر فمكثوا ثلاثين سنة وأنحوها في طلبها يجزون اليها العساكر والاساطيل في كل وقت ومحجى المدد لمداقتهم برا وبحرا من بغداد والشام وملكوا الاسكندرية والقيوم والصعيد وتخطت دعوتهم من هنالك الى الحجاز وأقيمت بالحرمين ثم نازل قائدهم جوهر الكاتب بعساكره مدينة مصر واستولى عليها واقتلع دولة بني طنجج من أصولها واحتط القاهرة فجاء الخليفة بعد المعز لدين الله ففزلها ستين سنة وأنحوها منذ استيلائهم على الاسكندرية وكذا السلجوقية ملوك الترك لما استولوا على بني سامان وأجازوا من وراء النهر مكثوا نحوًا من ثلاثين سنة يطاولون بني سبكتكين بخراسان حتي استولوا على دولته ثم زحفوا الى بغداد فاستولوا عليها وعلى الخليفة بها بعد أيام من الدهر وكذا التتر من بعدهم خرجوا من المفازة أعوام سبعة عشر وستائة فلم يتم لهم الاستيلاء الا بعد أربعين سنة وكذا أهل المغرب خرج به المرابطون من لمتونة على ملوكه من مغراوة فطاولوهم سنين ثم استولوا عليه ثم خرج الموحدون بدعوتهم على لمتونة فمكثوا نحوًا من ثلاثين سنة يحاربونهم حتي استولوا على كرسيمهم بمراكش وكذا بنو مرين من زناتة خرجوا على الموحدين فمكثوا يطاولونهم نحوًا من ثلاثين سنة واستولوا على فاس واقطعوها وأعمالها من ملكهم ثم أقاموا في محاربتهم ثلاثين أخرى حتي استولوا على كرسيمهم بمراكش حسبما نذكر ذلك كله في تواريخ هذه الدول فهكذا حال الدول المستجدة مع المستقرة في المطالبة والمطولة سنة الله في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولا يعارض ذلك بما وقع في الفتوحات الاسلامية وكيف كان استيلائهم على فارس والروم لثلاث أو أربع من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم واعلم أن ذلك انما كان معجزة من معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم سرها اسمائته المسلمين في جهاد عدوهم استبعادا بالايمان وما أوقع الله في قلوب عدوهم من الرعب والتخاذل فكان ذلك كله خارقاً للعادة المقررة في مطاوله الدول المستجدة للمستقرة واذا كان ذلك خارقاً فهو من معجزات نبينا صلوات الله عليه المتعارف ظهورها في الملة الاسلامية والمعجزات لا يقاس عليها الامور العادية ولا يعترض بها والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٥١ فصل في وفور العمران آخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات

اعلم أنه قد تقرر لك فيما سلف أن الدولة في أول أمرها لا بد لها من الرفق في ملكيتها والاعتدال في أياها أما من الدين أن كانت الدعوة دينية أو من المكارمة والمحاسنة التي تقتضيها البداوة الطبيعية للدول وإذا كانت المملكة رفيقة محسنة أنبسط آمال الرعايا وانتشطوا للعمران وأسبابه فتوفر ويكثر التناسل وإذا كان ذلك كله بالتدريج فانما يظهر أثره بعد حيل أو حيلين في الأقل وفي انقضاء الحيلين تشرف الدولة على نهاية عمرها الطبيعي فيكون حينئذ العمران في غاية الوفور والنماء ولا تقولن أنه قد مر لك أن أواخر الدولة يكون فيها الإجحاف بالرعايا وسوء المملكة فذلك صحيح ولا يعارض ما قلناه لأن الإجحاف وإن حدث حينئذ وقلت الجبايات فانما يظهر أثره في تناقص العمران بعد حين من أجل التدرج في الأمور الطبيعية ثم إن المجاعات والموتان تكثر عند ذلك في أواخر الدول والسبب فيه أما المجاعات فلقبض الناس أيديهم عن الفلح في الأكثر بسبب ما يقع في آخر الدولة من العدوان في الأموال والجبايات أو الفتن الواقعة في انتقاص الرعايا وكثرة الحوارج لهرم الدولة فيقل احتكار الزرع غالباً وليس صلاح الزرع وثمرته بمستمع الوجود ولا على وتيرة واحدة فطبيعة العالم في كثرة الأمطار وقلتها مختلفة والمطر يقوي ويضعف ويقل ويكثر والزرع والثمار والضرع على نسبه إلا أن الناس واثقون في أقواتهم بالاحتكار فإذا فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات فعلا الزرع وعجز عنه أولوا الخصاصة فهلكوا وكان بعض السنوات والاحتكار مفقود فشمّل الناس الجوع وأما كثرة الموتان فلها أسباب من كثرة المجاعات كما ذكرناه أو كثرة الفتن لاختلال الدولة فيكثر الهرج والقتل أو وقوع الوباء وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة وإذا فسد الهواء وهو غذاء الروح الحيوانى وملابسه دائماً فيسري الفساد إلى مزاجه فان كان الفساد قويا وقع المرض في الرئة وهذه هي الطواعين وأمراضها مخصوصة بالرئة وإن كان الفساد دون القوي والكثير فيكثر العفن ويتضاعف فتكثر الحمايات في الأمزجة وتمرض الأبدان وتهلك وسبب كثرة العفن والرطوبات الفاسدة في هذا كله كثرة العمران ووفوره آخر الدولة لما كان في أوائلها من حسن المملكة ورفقها وقلة المغرم وهو ظاهر ولهذا تبين في موضعه من الحكمة أن تخلل الحلاء والقفور بين العمران ضروري ليكون تموج الهواء يذهب بما يحصل في الهواء من الفساد والعفن بمخالطة الحيوانات ويأتي بالهواء الصحيح ولهذا أيضاً فإن الموتان يكون في المدن الموفورة العمران أكثر من غيرها بكثير كمصر بالشرق وفاس بالمغرب والله يقدر ما يشاء

اعلم أنه قد تقدم لنا في غير موضع أن الاجتماع للبشر ضروري وهو معنى العمران الذي نتكلم فيه وأنه لا بد لهم في الاجتماع من وازع حاكم يرجعون اليه وحكمه فيهم تارة يكون مستنداً إلى شرع منزل من عند الله يوجب انقيادهم اليه إيمانهم بالثواب والعقاب عليه الذي جاء به مبلغه وتارة إلى سياسة عقلية يوجب انقيادهم اليها ما يتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعد معرفته بمصالحهم فالأولى يحصل نفعها في الدنيا والآخرة لعلم الشارع بالمصالح في العاقبة ولمراعاته نجا العباد في الآخرة والثانية إنما يحصل نفعها في الدنيا فقط وما تسمعه من السياسة المدنية فليس من هذا الباب وإنما معناه عند الحكماء ما يجب أن يكون عليه كل واحد من أهل ذلك المجتمع في نفسه وخلقه حتى يستغنوا عن الحكم رأساً ويسمون المجتمع الذي يحصل فيه ما يسمى من ذلك بالمدنية الفاصلة والقوانين المراعاة في ذلك بالسياسة المدنية وليس مرادهم السياسة التي يحمل عليها أهل الاجتماع بالمصالح العامة فإن هذه غير تلك وهذه المدنية الفاصلة عندهم نادرة أو بعيدة الوقوع وإنما يتكلمون عليها على جهة الغرض والتقدير ثم إن السياسة العقلية التي قدمناها تكون على وجهين * أحدهما يراعى فيها المصالح على العموم ومصالح السلطان في استقامة ملكه على الخصوص وهذه كانت سياسة الفرس وهي على جهة الحكمة وقد أغنانا الله تعالى عنها في الملة ولعهد الخلافة لأن الأحكام الشرعية مغنية عنها في المصالح العامة والخاصة والآفات وأحكام الملك مندرجة فيها * الوجه الثاني أن يراعى فيها مصلحة السلطان وكيف يستقيم له الملك مع القهر والاستطالة وتكون المصالح العامة في هذه تبعاً وهذه السياسة التي يحمل عليها أهل الاجتماع التي لساير الملوك في العالم من مسلم وكافر الآن ملوك المسلمين يجرون منها على ما تقتضيه الشريعة الإسلامية بحسب جهدهم فقوانينها إذا مجتمعة من أحكام شرعية وآداب خلقية وقوانين في الاجتماع طبيعية وأشياء من مراعاة الشوكة والعصية ضرورية والاقضاء فيها بالشرع أولاً ثم الحكماء في آدابهم والملوك في سيرهم ومن أحسن ما كتب في ذلك وأودع كتاب طاهر ابن الحسين لابنه عبد الله بن طاهر لما ولاه المأمون الرقة وبصر وما بينهما فكتب إليه أبوه طاهر كتابه المشهور عهد إليه فيه ووصاه بجميع ما يحتاج إليه في دولته وسلطانه من الآداب الدينية والخلقة والسياسة الشرعية والملوكية وحثه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم بما لا يستغني عنه ملك ولا سوقة * ونص الكتاب (بسم الله الرحمن الرحيم) أما بعد فعليك بتقوي الله وحده لا شريك له وخشيته ومراقبته عز وجل ومزايلة سخطه واحفظ رعيك في الليل والنهار والزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك ومأنت صائر إليه وموقوف

عليه ومسؤول عنه والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله عز وجل ويخيك يوم القيامة من عقابه وأليم عذابه فإن الله سبحانه قد أحسن اليك وأوجب الرأفة عليك بمن استرعاك أمرهم من عباده وألزمك العدل فيهم والقيام بحقه وحنوده عليهم والذب عنهم والدفع عن حريمهم ومنصبهم والحقن لدمائهم والأمن لسرهم وادخال الراحة عليهم ومؤاخذك بما فرض عليك وموقفك عليه وسائلك عنه ومثيبك عليه بما قدمت وأخرت ففرغ لذلك فهمك وعقلك وبصرك ولا يشغلك عنه شاغل وأنه رأس أمرك وملاك شأنك وأول ما يوقفك الله عليه وليكن أول ما تلزم به نفسك وتنسب إليه فعلك المواظبة على ما فرض الله عز وجل عليك بالصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قلبك وتوابعها على سننها من أسبغ الوضوء لها وافتتاح ذكر الله عز وجل فيها ورتل في قراءتك وتمكن في ركوعك وسجودك وتشهدك ولتصرف فيه رأيك ونيتك واحضض عليه جماعة ممن معك وتحت يدك وادأب عليها فانها كما قال الله عز وجل تهبي عن الفحشاء والمنكر ثم اتبع ذلك بالآخذ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمثابرة على خلافته واقتفاء أثر السلف الصالح من بعده وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله عز وجل وتقواه وبلزوم ما أنزل الله عز وجل في كتابه من أمره ونهيه وحلاله وحرامه وإتمام ما جاءت به الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قم فيه بالحق لله عز وجل ولا تملن عن العدل فيما أحببت أو كرهت لقريب من الناس أو لبعيد وأثر الفقه وأهله والدين وحملته وكتاب الله عز وجل والعالمين به فإن أفضل ما يترين به المرء الفقه في الدين والطلب له والحث عليه والمعرفة بما يتقرب به إلى الله عز وجل فانه الدليل على الخير كله والقائد إليه والآمر به والناهي عن المعاصي والموبقات كلها ومع توفيق الله عز وجل يزداد المرء معرفة واجلالاً له ودركاً للدرجات العلى في المعاد مع ما في ظهوره للناس من التوقير لأمره والهيبة لسلطانه والأنسية بك والثقة بعدلك وعليك بالاقتصاد في الأمور كلها فليس شيء أبين نفعاً ولا أخص أمناً ولا أجمع فضلاً منه والقصد داعية إلى الرشد والرشد دليل على التوفيق والتوفيق قائد إلى السعادة وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد وكذا في دنياك كلها ولا تقصر في طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة والسنن المعروفة ومعالم الرشد والاعانة والاستكثار من البر والسعي له إذا كان يطلب به وجه الله تعالى ومرضاه ومرافقة أولياء الله في دار كرامته أما تعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث العز ويمحص من الذنوب وأنت لن تحوط نفسك من قائل ولا تنصلح أمورك بأفضل منه فأنه واهتد به سبيل أمورك وتزيد مقدرتك ويصالح عامتك وخاصتك وأحسن ظنك بالله عز وجل تستقم لك رعتك والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها تستدم به النعمة عليك ولا تتهمن أحداً من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف أمره فإن ايقاع التهم

بالبراء والظنون السيئة بهم اثم فاجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك واطرد عنك سوء
الظن بهم وارفضه فيهم يعنيك ذلك على استطاعتهم ورياضتهم ولا تتخذن عدو الله الشيطان في
أمرك معمدا فانه انما يكتفي بالقليل من وهنك ويدخل عليك من الغم بسوء الظن بهم ما ينقص
لذاذة عيشك واعلم أنك تجد بحسن الظن قوة وراحة وتكتفي به ملاحيات كفايته من أمورك
وتدعوه الناس الى محبتك والاستقامة في الأمور كلها ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك والرافة
برعيتك أن تستعمل المسئلة والبحث عن أمورك والمباشرة لأمر الأولياء وحياطة الرعية
والنظر في حوائجهم وحمل مؤاتهم أيسر عندك مما سوى ذلك فانه أقوم للدين وأحيى للسنة
واخلص نيتك في جميع هذا وتفرد بتقويم نفسك تفرد من يعلم أنه مسؤول عما صنع ومجزى
بما أحسن ومؤاخذ بما أساء فان الله عز وجل جعل الدنيا حرزا وعزا ورفع من اتبعه وعززه
واسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقه الأهدى وأقم حدود الله تعالى في أصحاب
الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ولا تعطل ذلك ولا تتهاون به ولا تؤخر عقوبة أهل
العقوبة فان في تفريطك في ذلك ما يفسد عليك حسن ظنك واعتزم على أمرك في ذلك بالسنن
المعروفة وجانب البدع والشبهات يسلم لك دينك وتتم لك مروءتك واذا عاهدت عهدا فأوف
به واذا وعدت الخير فأتجزه واقل الحسنه وادفع بها وأنغض عن عيب كل ذي عيب من
رعيك واشدد لسانك عن قول الكذب والزور وابغض أهل النيمة فان أول فساد أمورك
في عاجلها وآجلها تقريب الكذوب والجرأة على الكذب لان الكذب رأس المآثم والزور
والنيمة خاتمها لان النيمة لا يسلم صاحبها وقائلها لا يسلم له صاحب ولا يستقيم له أمر وأحب
أهل الصلاح والصدق وأعن الاشراف بالحق وأعن الضعفاء وصل الرحم وابتغ بذلك وجه
الله تعالى واعزاز أمره والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة واجتنب سوء الأهواء والجور
واصرف عنهما رأيك وأظهر براءتك من ذلك لرعيك وأنعم بالعدل سياستهم وقم بالحق فيهم
وبلمعرفة التي تنتهي بك الى سبيل الهدى واملك نفسك عند الغضب وآثر الحلم والوقار
واياك والحدة والطيش والغرور فيما أنت بسبيله واياك أن تقول أنا مسلم أفعل ما أشاء فان ذلك
سريع الى نقص الرأي وقلة اليقين لله عز وجل وأخلص لله وحده التبة فيه واليقين واعلم
أن الملك لله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء وينزعه من يشاء ولن تجد تغير النعمة وحلول النعمة
الى أحد أسرع منه الى جهلة النعمة من أصحاب السلطان والمبسوط لهم في الدولة اذا كفروا
نعم الله وأحسنه واستطالوا بما أعطاهم الله عز وجل من فضله ودع عنك شره نفسك ولتكن
ذخائرُك وكنوزك التي تدخر وتكنز البر والتقوى واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم والتفقد
لأموالهم والحفظ لدمائهم والاغانة لمهوفهم واعلم أن الأموال اذا اكتنزت وادخرت في

الحزائن لاتنمو واذا كانت في صلاح الرعية واعطاء حقوقهم وكف الأذية عنهم نمت وزكت وصاحت به العامة وترتبت به الولاية وطاب به الزمان واعتقد فيه العز والمنفعة فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال في عمارة الاسلام وأهله ووفر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم وأوف من ذلك حصصهم وتعهّد ما يصلح أمورهم ومعاشهم فانك اذا فعلت قرت النعمة لك واستوجبت المزيد من الله تعالى وكنت بذلك على جباية أموال رعيتك وخزاجك أقدر وكان الجمع لما شملهم من عدلك واحسانك أسس لطاعتك وطب نفسا بكل ما أردت وأجهد نفسك فيما حدثت لك في هذا الباب وليعظم حَقُّك فيه وانما يبقى من المال ما أنفق في سبيل الله وفي سبيل حقه واعرف للشاكرين حقهم وأثمهم عليه واياك أن تنسيك الدنيا وغرورها هول الآخرة فتهاون بما يحق عليك فان التهاون يورث التفريط والتفريط يورث البوار وليكن عملك لله عزوجل وفيه وارج الثواب فان الله سبحانه قد أسبغ عليك فضله واعتمد بالشكر وعليه فاعتمد يزدك الله خيراً واحساناً فان الله عزوجل يشب بقدر شكر الشاكرين واحسان المحسنين ولا تحقرن ذنباً ولا تملئن حاسداً ولا ترحن فاجراً ولا تصلن كفوراً ولا تدهنن عدواً ولا تصدقن نماماً ولا تأمنن عدواً ولا توالين فاسقاً ولا تتبعن غاويّاً ولا تحمدن مزائياً ولا تحقرن انساناً ولا تردن سائلاً فقيراً ولا تحسنن باطلاً ولا تلاحظن مضحكاً ولا تحلفن وعداً ولا تذهبن نفراً ولا تظهرن غضباً ولا تباین رجاء ولا تمشين مرحاً ولا تزكين سفهاً ولا تفرطن في طلب الآخرة ولا ترفع للنمام عيناً ولا تغمض عن ظالم رهبة منه أو محابة ولا تطلبن ثواب الآخرة في الدنيا وأكثر مشاورة الفقهاء واستعمل نفسك بالحلم وخذ عن أهل التجارب وذوي العقل والرأي والحكمة ولا تدخلن في مشورتك أهل الرفه والبخل ولا تسمعن لهم قولا فان ضررهم أكثر من نفعهم وليس شيء أسرع فساداً لما استقبلت فيه أمر رعيتك من الشح واعلم أنك اذا كنت حريصاً كنت كثير الاخذ قليل العطية واذا كنت كذلك لم يستقم أمرك الا قليلاً فان رعيتك انما تعتمد على محبتك بالكف عن أموالهم وترك الجور عليهم ووال من صفالك من أوليائك بالاتصال اليهم وحسن العطية لهم واجتنب الشح واعلم أنه أول ماعصي به الانسان ربه وأن العاصي بمنزلة الحرى وهو قول الله عز وجل ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون فسهل طريق الجود بالحق واجعل للمسلمين كلهم في بيتك حظاً ونصيباً وأيقن أن الجود أفضل أعمال العباد فأعده لنفسك خلقاً وارض به عملاً ومذهباً وتفقد الجند في دواوينهم ومكاتبهم وأدر عليهم أرزاقهم ووسع عليهم في معاشهم يذهب الله عزوجل بذلك فاقهم فيقوى لك أمرهم وتزيد قلوبهم في طاعتك وأمرك خلوصاً وانسراحاً وحسب ذي السلطان من

السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمة في عدله وعطيته وانصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته فذل مكره أحد البابين باستشعار فضل الباب الآخر ولزوم العمل به تلق ان شاء الله تعالى به نجاحاً وصلاًحاً وفلاحاً واعلم أن القضاء من الله تعالى بالمكان الذي ليس له به شيء من الامور لانه ميزان الله الذي يعدل عليه أحوال الناس في الارض وباقامة العدل في القضاء والعمل تصلح أحوال الرعية وتأمين السبل وينتصف المظلوم وتأخذ الناس حقوقهم وتحسن المعيشة ويؤدي حق الطاعة ويرزق من الله العافية والسلامة ويقم الدين ويجري السنن والشرائع في مجاريها واشتد في أمر الله عز وجل وتورع عن النطق وامض لاقامة الحدود وأقلل العجلة وابعد عن الضجر والقلق واقنع بالقسم وانتفع بحجرتك وانتبه في صحتك وسدد في منطقك وأنصف الخصم وقف عند الشبهة وأبلغ في الحجة ولا يأخذك في أحدم رعيته محابة ولا مجاملة ولا لومة لائم وتثبت وتأن وراقب وانظر وتفكر وتدبر واعتبر وتواضع لربك وارفق بجميع الرعية وسلط الحق على نفسك ولا تسرعن الى سفك الدماء فان الدماء من الله عز وجل بمكان عظيم انتها كالحا بغير حقها وانظر هذا الخراج الذي استقامت عليه الرعية وجعله الله للإسلام عزاً ورفعة ولاهله توسعة ومنعة ولعدوه كبتاً وغيظاً ولاهل الكفر من معاديه ذلاً وصغاراً فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم ولا تدفعن شيئاً منه عن شريف لشرفه ولا عن غنى لغناه ولا عن كاتب لك ولا لاحد من خاصتك ولا حاشيتك ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له ولا تكلف أمراً فيه شطط واحمل الناس كلهم على مر الحق قال ذلك أجمع لأفقههم والزم ارضاء العامة واعلم أنك جعلت بولايته خازناً وحافظاً وراعياً وانما سمي أهل عملك رعيته لانك راعيهم وقيمهم فخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ونفذه في قوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أودهم واستعمل عليهم أولى الرأي والتدبير والتجربة والخبرة بالعلم والعدل بالسياسة والعفاف ووسع عليهم في الرزق فان ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأسند اليك فلا يشغلك عنه شاغل ولا يصرفك عنه صارف فانك متى آثرته وقت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك وحسن الاحدوث في عملك واستجرت به المحبة من رعيته وأعنت على الصلاح فدرت الخيرات ببلدك وفشت العمارة بناحيته وظهر الخصب في كورك وكثر خراجك وتوفرت أموالك وقويت بذلك على إرتباط جنده وارضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم من نفسك وكنت محمود السياسة مرضي العدل في ذلك عند عدوك وكنت في أمورك كلها ذا عدل وآلة وقوة وعدة فتنافس فيها ولا تقدم عليها شيئاً محمد عاقبة أمرك إن شاء الله تعالى واجعل في كل كورة من عملك أميناً يخبرك خبر عمالك ويكتب اليك بسيرهم وأعمالهم حتى كأنك مع كل عامل في عمله معاييناً لاموره كلها واذا أردت أن تأمرهم

بأمر فانظر في عواقب ما أردت من ذلك فان رأيت السلامة فيه والعافية ورجوت فيه حسن الدفاع والصنع فأمضه والا فتوقف عنه وراجع أهل البصر والعلم به ثم خذ فيه عدته فانه ربما نظر الرجل في أمره. وقد أتاه على ما يهوى فأغواه ذلك وأعجبه فان لم ينظر في عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره فاستعمل الحزم في كل ما أردت وبأشره بعد عون الله عز وجل بالقوة وأكثر من استخارة ربك في جميع أمورك وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره وأكثر مباشرة بنفسك فان لغد أموراً وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذي أخرت واعلم أن اليوم اذا مضى ذهب بما فيه فاذا أخرت عمله اجتمع عليك عمل يومين فيشغلك ذلك حتي ترضي منه واذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت بدنك ونفسك وجمعت أمر سلطانك وانظر أحرار الناس وذوي الفضل منهم ممن بلوت صفاء طويتهم وشهدت مودتهم لك ومظاهرتهم بالنصح والمحافظة على أمرك فاستخلصهم واحسن اليهم وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة واحتمل مؤنتهم وأصلح حالهم حتي لا يجحدوا لخالئهم منافرا وافر دنفك بالنظر في أمور الفقراء والمساكين ومن لا يقدر على رفع مظلمته اليك والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه فصل عنه أخفى مسئلة وكل بأمثاله أهل الصلاح في رعيك ومرهم برفع حوائجهم وخالئهم لتتظر فيما يصلح الله به أمرهم وتعاهد ذوي البأساء ويتاماهم وأراملهم واجعل لهم أرزاقا من بيت المال اقتداء بأمير المؤمنين أعزه الله تعالى في العطف عليهم والصلة لهم ليصلح الله بذلك عيشهم ويرزقك به بركة وزيادة وأجر للامراء من بيت المال وقدم حملة القرآن منهم والحفاظين لاكثره في الجرائد على غيرهم وانصب لمرضى المسلمين دورا وتأويهم وقوما يرفقون بهم وأطباء يعالجون أسقامهم وأسعفهم بشهواتهم مالم يؤد ذلك الى سرف في بيت المال واعلم أن الناس اذا أعطوا حقوقهم وفضل أماتهم لم تبرمهم وربما تبرم المتصفح لأمور الناس لكثرة ما يرد عليه ويشغل ذكره وفكره منها ما ينال به مؤنة ومشقة وليس من يرغب في العدل ويعرف محاسن أموره في العاجل وفضل ثواب الآجل كالذي يستقري ما يقربه الى الله تعالى ويلتمس رحمته وأكثر الاذن للناس عليك وأرهم وجهك وسكن حراسك واخفض لهم جناحك وأظهر لهم بشرك ولن لهم في المسئلة والنطق واعطف عليهم بمجودك وفضلك واذا اعطيت فاعط بسماحة وطيب نفس والتمس للصنعة والاجر من غير تكدير ولا امتنان فان العطية على ذلك تجارة مربحة ان شاء الله تعالى واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومن مضى من قبلك من أهل السلطان والرياسة في القرون الحالية والامم البائدة ثم اعتصم في أحوالك كلها بالله سبحانه وتعالى والوقوف عند محبته والعمل بشريعته وسنته وباقامة دينه وكتاباه واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ودعا الى سخط الله عز وجل واعرف ما تجمع عمالك من الاموال وما ينفقون منها ولا

تجمع حراما ولا تنفق اسرافا وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم وليكن هواك اتباع السنن وإقامتها وإيثار مكارم الاخلاق ومقاتلتها وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك من اذا رأي عيبا لم تمنعه هيتك من انهاء ذلك اليك في ستر واعلامك بما فيه من النقص فان أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك لك وانظر عمالك الذين بمحضرتك وكتابك فوقت لكل رجل منهم في كل يوم وقتا يدخل فيه بكتبه ومؤامراته وما عنده من حوائج عمالك وأمور الدولة ورعيتك ثم فرغ لما يورد عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك وكرر النظر فيه والتدبر له فما كان موافقا للحق والحزم فأمضه واستخر الله عز وجل فيه وما كان مخالفا لذلك فاصرفه الى المسئلة عنه والتثبت ولا تمن على رعيتك ولا غيرهم بمعروف تؤتيه اليهم ولا تقبل من أحد الا الوفاء والاستقامة والعون في أمور المسلمين ولا تضعن المعروف الا على ذلك وتفهم كتابي اليك وأمعن النظر فيه والعمل به واستعن بالله على جميع أمورك واستخره فان الله عز وجل مع الصلاح وأهله وليكن أعظم سيرتك وأفضل رغبتك ما كان الله عز وجل رضا ولدينه نظاما ولاهله عزرا وتمكيناً وللملة والذمة عدلا وصلاحا وأنا أسأل الله عز وجل أن يحسن عونك وتوفيقك ورشدك وكلاءتك والسلام * وحدث الاخباريون أن هذا الكتاب لما ظهر وشاع أمره أعجب به الناس واتصل بالمؤمن فلما قريء عليه قال ما بقي أبو الطيب يعني طاهرا شيئا من أمور الدنيا والدين والتدبير والرأى والسياسة وصلاح الملك والرعية وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة الا وقد أحكمه وأوصي به ثم أمر المؤمنين فكتب به الى جميع العمال في النواحي ليقصدوا به ويعملوا بما فيه هذا أحسن ماوقفت عليه في هذه السياسة والله أعلم

٥٣ ﴿ فصل في امر الفاطمي وما يذهب اليه الناس في شأنه وكشف الغطاء عن ذلك ﴾

(اعلم) أن المشهور بين الكافة من أهل الاسلام على ممر الاعصار أنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين ويظهر العدل ويتبعه المسلمون ويستولى على الممالك الاسلامية ويسمى بالمهدي ويكون خروج الدجال وما بعده من أشرار الساعة الثابتة في الصحيح على أثره وأن عيسى ينزل من بعده فيقتل الدجال أو ينزل معه فيساعده على قتله ويأتي بالمهدي في صلاته ويحتجون في الباب باحاديث خرجها الأئمة وتكلم فيها المنكرون لذلك وربما عارضوها ببعض الاخبار وللمتصوفة المتأخرين في أمر هذا الفاطمي طريقة أخرى ونوع من الاستدلال وربما يعتمدون في ذلك على الكشف الذي هو أصل طرائقهم * ونحن الآن نذكر هنا الاحاديث الواردة في هذا الشأن وما للمنكرين فيها من المطاعن وما لهم في انكارهم من

المستند ثم تبعه بذكر كلام المتصوفة ورأيهم ليتين لك الصحيح من ذلك ان شاء الله تعالى
فقول* ان جماعة من الأئمة خرجوا أحاديث المهدي منهم الترمذي وأبو داود والبرار وابن
ماجه والحاكم والطبراني وأبو يعلى الموصلي وأسندوها الى جماعة من الصحابة مثل علي وابن
عباس وابن عمر وطلحة وابن مسعود وأبي هريرة وأنس وأبي سعيد الخدري وأم حبيبة
وأم سلمة وثوبان وقرة بن اياس وعلى الهلالى وعبد الله بن الحرث بن جزء باسائيد ربما
يعرض لها المنكرون كما نذكره الا أن المعروف عند أهل الحديث أن الجرح مقدم على التعديل
فاذا وجدنا طعنا في بعض رجال الاسائيد بغفلة أو بسوء حفظ أو سوء رأي
تطرق ذلك الى صحة الحديث وأوهن منها ولا تقولن مثل ذلك ربما يتطرق الى رجال
الصحيحين فان الاجماع قد اتصل في الامة على تلقيهما بالقبول والعمل بما فيهما وفي الاجماع
أعظم حماية وأحسن دفع وليس غير الصحيحين بمثابتهما في ذلك فقد نجد مجالا للكلام في
أسائيدها بما نقل عن أئمة الحديث في ذلك* ولقد توغل أبو بكر بن أبي خيثمة على ما نقل السهيلي
عنه في جمعه للاحاديث الواردة في المهدي فقال ومن أغربها اسنادا ما ذكره أبو بكر الاسكاف
في فوائد الاخبار مسندا الى مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر عن جابر قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم من كذب بالمهدي فقد كفر ومن كذب بالدجال فقد كفر وقال في طلوع الشمس من
مغربها مثل ذلك فيما أحسب وحسبك هذا غلوا والله أعلم بصحة طريقه الى مالك بن أنس
على أن أبابكر الاسكاف عندهم منهم وضاع* وأما الترمذي فخرج هو وأبو داود بسنديهما الى
ابن عباس من طريق عاصم بن أبي النجود أحد القراء السبعة الى زر بن حبيش عن عبد الله
ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم لولم يبق من الدنيا الا يوم لطول الله ذلك اليوم حتي
يبعث الله فيه رجلا مني أو من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي هذا لفظ أبي
داود وسكت عليه وقال في رسالته المشهورة ان ما سكت عليه في كتابه فهو صالح ولفظ الترمذي
لا تذهب الدنيا حتي يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي وفي لفظ آخر حتي
يلي رجل من أهل بيتي وكلاهما حديث حسن صحيح ورواه أيضاً من طريق موقفا على أبي
هريرة وقال الحاكم رواه الثوري وشعبة وزائدة وغيرهم من أئمة المسلمين عن عاصم قال وطرق
عاصم عن زر عن عبد الله كلها صحيحة على ما أصلته من الاحتجاج باخبار عاصم اذ هو امام من أئمة
المسلمين انتهى الآن عاصم قال فيه أحمد بن حنبل كان رجلا صالحا قارئا للقرآن خيرا ثقة والاعمش
أحفظ منه وكان شعبة يختار الاعمش عليه في تثبيت الحديث وقال العجلي كان يختلف عليه في
زر وأبي وائل يشير بذلك الى ضعف روايته عنهما وقال محمد بن سعد كان ثقة الا أنه كثير
الخطا في حديثه وقال يعقوب بن سفيان في حديثه اضطراب وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم قلت

لابي ان أبا زرعة يقول عاصم ثقة فقال ليس محله هذا وقد تكلم فيه ابن عليه فقال كل من اسمه عاصم سيئ الحفظ وقال أبو حاتم محله عندي محل الصدوق صالح الحديث ولم يكن بذلك الحافظ. واختلف فيه قول النسائي وقال ابن خراش في حديثه نكرة وقال أبو جعفر العقيلي لم يكن فيه الاسوء الحفظ وقال الدارقطني في حفظه شيء وقال يحيى القطان ما وجدت رجلا اسمه عاصم الا وجدته ردئ الحفظ وقال أيضاً سمعت شعبة يقول حدثنا عاصم بن أبي النجود وفي الناس ما فيها وقال الذهبي ثبت في القراءة وهو في الحديث دون الثبت صدوق فهم وهو حسن الحديث وان احتج أحد بان الشيخين أخرجا له فقول أخرجا له مقرونا بغيره لأصلاً والله أعلم * وخرج أبوداود في الباب عن علي رضي الله عنه من رواية قطن بن خليفة عن القاسم بن أبي مرة عن أبي الطفيل عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لولم يبق من الدهر الا يوم لبعث الله رجلاً من أهل بيتي يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً وقطن بن خليفة وان وثقه أحمد ويحيى بن القطان وابن معين والنسائي وغيرهم الا أن العجلي قال حسن الحديث وفيه تشيع قايل وقال ابن معين مرة ثقة شيعي وقال أحمد بن عبد الله بن يونس كنا نمر على قطن وهو مطروح لانكتب عنه وقال مرة كنت أمر به وأدعه مثل الكلب وقال الدارقطني لا يحتج به وقال أبو بكر بن عياش ما تركت الرواية عنه الا لسوء مذهبه وقال الجرجاني زائع غير ثقة انتهى وخرج أبوداود أيضاً بسند إلى علي رضي الله عنه عن مروان بن المغيرة عن عمر بن أبي قيس عن شعيب بن أبي خالد عن أبي اسحق النسفي قال قال علي ونظر إلى ابنه الحسن ان ابني هذا سيد كما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيخرج من صلبه رجل يسمى باسم نبيكم يشبه في الخلق ولا يشبه في الخلق يملأ الأرض عدلاً وقال هرون حدثنا عمر بن أبي قيس عن مطرف بن طريف عن أبي الحسن عن هلال بن عمر سمعت علياً يقول قال النبي صلى الله عليه وسلم يخرج رجل من وراء النهر يقال له الحرث على مقدمته رجل يقال له منصور يوطي أو يمكن لآل محمد كما مكنت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم وجب على كل مؤمن نصره أو قال اجابته سكت أبوداود عليه وقال في موضع آخر في هرون هو من ولد الشيعة وقال السليمان في فيه نظر وقال أبوداود في عمر بن أبي قيس لا بأس به في حديثه خطأ وقال الذهبي صدوق له أوهام وأما أبو اسحق الشيباني وان خرج عنه في الصحيحين فقد ثبت انه اختلط آخر عمره وروايته عن علي منقطعة وكذلك رواية أبي داود عن هرون بن المغيرة * وأما السند الثاني فأبو الحسن فيه وهلال بن عمر مجهولان ولم يعرف أبو الحسن الا من رواية مطرف بن طريف عنه انتهى وخرج أبوداود أيضاً عن أم سلمة وكذا ابن ماجه والحاكم في المستدرک من طريق علي بن نفيل عن سعيد بن المسيب عن أم سلمة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول المهدي من ولد فاطمة ولفظ

الحاكم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر المهدي فقال نعم هو حق وهو من بني فاطمة ولم يتكلم عليه بصحيح ولا غيره وقد ضعفه أبو جعفر العقيلي وقال لا يتابع علي ابن نقيل عليه ولا يعرف الابن * وخرج أبو داود أيضاً عن أم سلمة من رواية صالح أبي الخليل عن صاحب له عن أم سلمة قال يكون اختلاف عند موت خليفة فيخرج رجل من أهل المدينة هارباً الى مكة فيأتيه ناس من أهل مكة فيخرجونه وهو كاره فيأيعونه بين الركن والمقام فيبعث اليه بعث من الشام فيخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة فإذا رأي الناس ذلك أتاه أبدال أهل الشام وعصائب أهل العراق فيأيعونه ثم يثأر رجل من قريش أخواله كلب فيبعث اليهم بعثاً فيظهرون عليهم وذلك بعث كلب والحنية لمن لم يشهد غنيمة كلب فيقسم المال ويعمل في الناس بسنة بينهم صلى الله عليه وسلم ويلقي الاسلام بحرانه على الأرض فيلبث سبع سنين وقال بعضهم تسع سنين ثم رواه أبو داود من رواية أبي الخليل عن عبد الله بن الحرث عن أم سلمة فتبين بذلك المبهم في الاسناد الاول ورجاله رجال الصحيحين لامطعن فيهم ولا معزز وقد يقال انه من رواية قتادة عن أبي الخليل وفتادة مدلس وقد عمنه والمدلس لا يقبل من حديثه الا ما صرح فيه بالسماع مع أن الحديث ليس فيه تصريح بذكر المهدي نعم ذكره أبو داود في أبوابه وخرج أبو داود أيضاً وتابعه الحاكم عن أبي سعيد الخدري من طريق عمران القطان عن قتادة عن أبي بصرة عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المهدي مني أجلى الجهة ألقى الأتق يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً يملك سبع سنين هذا لفظ أبي داود وسكت عليه ولفظ الحاكم المهدي منا أهل البيت أشم الأتق ألقى أجلى يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً يعيش هكذا وبسط يساره وأصبعين من يمينه السبابة والابهام وعقد ثلاثة قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه اه وعمران القطان مختلف في الاحتجاج به انما أخرجه البخاري استشهاداً لأصلاً وكان يحيى القطان لا يحدث عنه وقال يحيى بن معين ليس بالقوي وقال مرة ليس بشيء وقال أحمد بن حنبل أرجو أن يكون صالح الحديث وقال يزيد بن زريع كان حرورياً وكان يرى السيف على أهل القبلة وقال النسائي ضعيف وقال أبو عبيد الآجري سألت أبا داود عنه فقال من أصحاب الحسن وما سمعت الا خيراً وسمعت مرة أخرى ذكره فقال ضعيف ألقى في أيام ابراهيم بن عبد الله بن حسن بقوى شديدة فيها سفك الدماء وخرج الترمذي وابن ماجه والحاكم عن أبي سعيد الخدري من طريق زيد العمي عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري قال خشيتنا أن يكون بمض شيء حدث فسالنا نبي الله صلى الله عليه وسلم فقال ان في أمي المهدي يخرج يعيش خمسا أو سبعا أو تسعا زيد الشاذل قال قلنا وما ذاك

قال سنين قال فيجيء اليه الرجل فيقول يا مهدي أعطني قال فيحيي له في ثوبه ما استطاع أن يحمله هذا لفظ الترمذي وقال حديث حسن وقد روي من غير وجه عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم ولفظ ابن ماجه والحاكم يكون في أمي المهدي ان قصر فسمع والا فتسع فتعم أمي فيه نعمة لم ينعموا بمثلها قط تؤتي الارض أكلها ولا يدخر منه شيء والمال يومئذ كدوس فيقوم الرجل فيقول يا مهدي أعطني فيقول خذ انتهى وزيد العمي وان قال فيه الدارقطني وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين انه صالح وزاد أحمد انه فوق يزيد الرقاشي وفضل ابن عيسى الا أنه قال فيه أبو حاتم ضعيف يكتب حديثه ولا يحتج به وقال يحيى بن معين في رواية أخرى لاشيء وقال مرة يكتب حديثه وهو ضعيف وقال الجرجاني متأسك وقال أبو زرعة ليس بقوي واهي الحديث ضعيف وقال أبو حاتم ليس بذلك وقد حدث عنه شعبة وقال النسائي ضعيف وقال ابن عدي عامة ما يرويه ومن يروي عنهم ضعفاء على أن شعبة قد روي عنه ولعل شعبة لم يرو عن أضعف منه وقد يقال ان حديث الترمذي وقع تفسيراً لما رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون في آخر أمي خليفة يحيي المال حثياً لا يعده عدا ومن حديث أبي سعيد قال من خلفائكم خليفة يحيي المال حثياً ومن طريق أخرى عنهما قال يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده انتهى وأحاديث مسلم لم يقع فيها ذكر المهدي ولا دليل يقوم على أنه المراد منها ورواه الحاكم أيضاً من طريق عوف الاعرابي عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تملأ الأرض جوراً وظلماً وعدواناً ثم يخرج من أهل بيتي رجل يملؤها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وعدواناً وقال فيه الحاكم هذا صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ورواه الحاكم أيضاً من طريق سليمان بن عيسى عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يخرج في آخر أمي المهدي يسقيه الله الغيث وتخرج الأرض نباتها ويعطي المال صحاحاً وتكثر الماشية وتعظم الأمة يعيش سبعمائة أو ثمانمائة يعني حججاً وقال فيه حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه مع أن سليمان بن عيسى لم يخرج له أحد من الستة لكن ذكره ابن حبان في الثقات ولم يردن احداً تكلم فيه ثم رواه الحاكم أيضاً من طريق أسد بن موسى عن حماد بن سلمة عن مطر الوراق وأبي هريرة العبد عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تملأ الأرض جوراً وظلماً فيخرج رجل من عترتي فيملك سبعمائة وتسعاً فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً وقال الحاكم فيه هذا حديث صحيح على شرط مسلم وإنما جمعه على شرط مسلم لأنه أخرجه عن حماد بن سلمة وعن شيخه مطر الوراق وأما شيخه الآخر وهو

أبو هريرة العبدى فلم يخرج له وهو ضعيف جدا متهم بالكذب ولا حاجة الى بسط أقوال الأئمة في تضعيفه * وأما الراوي له عن حماد بن سلمة وهو أسد بن موسى ويلقب أسد السنة وإن قال البخاري مشهور الحديث واستشهد به في صحيحه واحتج به أبو داود والنسائي إلا أنه قال مرة أخرى ثقة لو لم يصنف كان خيراً له وقال فيه محمد بن حزم منكر الحديث ورواه الطبراني في معجمه الاوسط من رواية أبي الواصل عبد الحميد بن واصل عن أبي الصديق الناجي عن الحسن بن يزيد السعدي أحد بني بهدلة عن أبي سعيد الخدري قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يخرج رجل من أمي يقول بسنتي ينزل الله عز وجل له القطر من السماء وتخرج الأرض بركتها وتتلأ الأرض منه قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً يعمل على هذه الأمة سبع سنين وينزل بيت المقدس وقال الطبراني فيه رواه جماعة عن أبي الصديق ولم يدخل أحد منهم بينه وبين أبي سعيد أحداً إلا أبو الواصل فإنه رواه عن الحسن بن يزيد عن أبي سعيد انتهى وهذا الحسن بن يزيد ذكره ابن أبي حاتم ولم يعرفه بأكثر مما في هذا الاسناد من روايته عن أبي سعيد ورواية أبي الصديق عنه وقال الذهبي في الميزان انه مجهول لكن ذكره ابن حبان في الثقات وأما أبو الواصل الذي رواه عن أبي الصديق فلم يخرج له أحد من الستة وذكره ابن حبان في الثقات في الطبقة الثانية وقال فيه يروي عن أنس وروى عنه شعبة وعتاب بن بشر وخرج ابن ماجه في كتاب السنن عن عبد الله بن مسعود من طريق يزيد بن أبي زياد عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله قال بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبل فتية من بني هاشم فلما رأهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذرفت عيناه وتغير لونه قال فقلت ما نزال نرى في وجهك شيئاً نكرهه فقال أنا أهل البيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا وإن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاء وتشريداً وتطريداً حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود فيسألون الخير فلا يعطونه فيقاتلون وينصرون فيعطون ماسألوا فلا يقبلونه حتى يدفعونها الى رجل من أهل بيتي فيملأوها قسطاً كما ملأها جوراً فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبوا على الثلج انتهى * وهذا الحديث يعرف عند الحديثين بحديث الرايات ويزيد بن أبي زياد رواه فيه شعبة كان رفعا يعني يرفع الاحاديث التي لا تعرف مرفوعة وقال محمد بن الفضل كان من كبار أئمة الشيعة وقال أحمد بن حنبل لم يكن بالحافظ وقال مرة حديثه ليس بذلك وقال يحيى بن معين ضعيف وقال العجلي جازئ الحديث وكان بأخرة يلقن وقال أبو زرعة لين يكتب حديثه ولا يحتج به وقال أبو حاتم ليس بالقوى وقال الجرجاني سمعهم يضعون حديثه وقال أبو داود لا أعلم أحداً ترك حديثه وغيره أحب الى منه وقال ابن عدى هو من شيعة أهل الكوفة ومعضعه يكتب حديثه وروى له مسلم لكن

مقرونا بغيره وبالجملة فالأكثر من على ضعفه وقد صرح الأئمة بتضعيف هذا الحديث الذي رواه عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله وهو حديث الرايات وقال وكيع بن الجراح فيه ليس بشيء وكذلك قال أحمد بن حنبل وقال أبو قدامة سمعت أبا أسامة يقول في حديث يزيد عن إبراهيم في الرايات لو حلف عندي خمسين يمينا قسامة ماصدقته أهذا مذهب إبراهيم أهذا مذهب علقمة أهذا مذهب عبد الله وأورد العقيلي هذا الحديث في الضعفاء وقال الذهبي ليس بصحيح* وخرج ابن ماجه عن علي رضي الله عنه من رواية ياسين العجلي عن إبراهيم ابن محمد بن الحنفية عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المهدي منا أهل البيت يصلح الله به في ليلة ويأسين العجلي وان قال فيه ابن معين ليس به بأس فقد قال البخاري فيه نظر وهذه اللفظة من اصطلاحه قوية في التضعيف جداً وأورد له ابن عدي في الكامل والذهبي في الميزان هذا الحديث على وجه الاستنكار له وقال هو معروف به* وخرج الطبراني في معجمه الاوسط عن علي رضي الله عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم أنا المهدي أم من غيرنا يا رسول الله فقال بل منا بنا يتحتم الله كما بنا فتح وبنا يستقذون من الشرك وبنا يؤلف الله بين قلوبهم بعد عداوة بينة كما بنا ألف بين قلوبهم بعد عداوة الشرك قال على المؤمنون أم كافرون قال مقتون وكافر انتهى وفيه عيب الله بن لهيعة وهو ضعيف معروف الحال وفيه عمر بن جابر الحضرمي وهو أضعف منه قال أحمد بن حنبل روي عن جابر مناكير وبلغني انه كان يكذب وقال النسائي ليس بثقة وقال كان ابن لهيعة شيخاً أحق ضعيف العقل وكان يقول على في السحاب وكان يجلس معنا فيبصر سحابة فيقول هذا على قد مر في السحاب* وخرج الطبراني عن علي رضي الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يكون في آخر الزمان فتنة يحصل الناس فيها كما يحصل الذهب في المعدن فلا تسبوا أهل الشام ولكن سبوا أشرارهم فان فيهم الابدال يوشك ان يرسل على أهل الشام صيب من السماء فيفرق جماعتهم حتى لو قاتلتهم الثعالب غلبتهم فعند ذلك يخرج خارج من أهل بيتي في ثلاث رايات المكثرون يقول هم خمسة عشر ألفاً والمقللون يقول هم اثنا عشر ألفاً وأما رتبهم أمت يلقون سبع رايات تحت كل راية منها رجل يطلب الملك فيقتلهم الله جميعاً ويرد الله إلى المسلمين الفهم ونعمتهم وقاصيتهم ودانيتهم اه وفيه عيب الله بن لهيعة وهو ضعيف معروف الحال ورواه الحاكم في المستدرک وقال صحيح الاسناد ولم يخرج في روايته ثم يظهر الهاشمي فيرد الله الناس إلى الفهم الخ وليس في طريقه ابن لهيعة وهو اسناد صحيح كما ذكر* وخرج الحاكم في المستدرک عن علي رضي الله عنه من رواية أبي الطفيل عن محمد بن الحنفية قال كنا عند علي رضي الله عنه فسأله رجل عن المهدي فقال علي هيات ثم عقبيه سبعة فقال ذلك يخرج

في آخر الزمان اذا قال الرجل الله الله قتل ويجمع الله له قوم اقزعا كقزع السحاب يؤلف الله بين قلوبهم فلا يستوحشون الى أحد ولا يفرحون بأحد دخل فيهم عدتهم على عدة أهل بدر لم يسبقهم الاولون ولا يدركهم الآخرون وعلى عدد أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر قال أبو الطفيل قال ابن الحنفية أريدته قلت نعم قال فانه يخرج من بين هذين الاخشبين قلت لا جرم والله لا أدعها حتي أموت ومات بها يعني مكة قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط الشيخين انتهى وانما هو على شرط مسلم فقط فان فيه عمارا الذهبي ويونس بن أبي اسحق ولم يخرج لهما البخاري وفيه عمرو بن محمد العبقري ولم يخرج له البخاري احتجاجا بل استشهادا مع ما ينضم الى ذلك من تشيع عمار الذهبي وهو وان وثقه أحمد وابن معين وأبو حاتم النسائي وغيرهم فقد قال علي بن المديني عن سفيان أن بشر بن مروان قطع عرقوبه قلت في أي شيء قال في التشيع وخرج ابن ماجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه في رواية سعد بن عبد الحميد بن جعفر عن علي بن زياد اليمامي عن عكرمة بن عمار عن اسحق بن عبد الله عن أنس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول نحن ولد عبد المطلب سادات أهل الجنة أنا وحزرة وعلي وجعفر والحسن والحسين والمهدي انتهى وعكرمة ابن عمار وان أخرج له مسلم فانما أخرج له متابعة وقد ضعفه بعض وثقه آخرون وقال أبو حاتم الرازي هو مدلس فلا يقبل الا أن يصرح بالسماع وعلى بن زياد قال الذهبي في الميزان لا ندري من هو ثم قال الصواب فيه عبد الله بن زياد وسعد بن عبد الحميد وان وثقه يعقوب ابن أبي شيبة وقال فيه يحيى بن معين ليس به بأس فقد تكلم فيه الثوري قالوا لانه رآه يفتي في مسائل ويخطئ فيها وقال ابن حبان كان ممن فحش عطاؤه فلا يحتج به وقال أحمد بن حنبل سعد بن عبد الحميد يدعى أنه سمع عرض كتب مالك والناس ينكرون عليه ذلك وهو هنا ببغداد لم يحج فكيف سمعها وجعله الذهبي ممن لم يقدح فيه كلام من تكلم فيه* وخرج الحاكم في مستدركه من رواية مجاهد عن ابن عباس موقوفا عليه قال مجاهد قال لي ابن عباس لو لم أسمع أنك من أهل البيت ما حدثتكم بهذا الحديث قال فقال مجاهد فانه في ستر لا أذكر لمن يكره قال فقال ابن عباس منا أهل البيت أربعة منا السفاح ومنا المنذر ومنا المنصور ومنا المهدي قال فقال مجاهد بين لي هؤلاء الاربعة فقال ابن عباس أما السفاح فربما قتل أنصاره وعفا عن عدوه وأما المنذر أراه قال فانه يعطي المال الكثير ولا يتعاطم في نفسه ويمسك القليل من حقه وأما المنصور فانه يعطي النصر على عدوه الشطر مما كان يعطي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرهب منه عدوه على مسيرة شهرين والمنصور يرهب منه عدوه على مسيرة شهر وأما المهدي فانه الذي يملأ الارض عدلا كما ملئت جورا وتأمن البهائم السباع وتلي الارض

أفلاذ كبدها قال قلت وما أفلاذ كبدها قال أمثل الاسطوانة من الذهب والنضة اه
وقال الحاكم هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه وهو من رواية اسمعيل بن ابراهيم
ابن مهاجر عن أبيه واسمعيل ضعيف وابراهيم أبوه وان خرج له مسلم فلا كثرون على
تضعيفه اه * وخرج ابن ماجه عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتل
عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خائفة ثم لا يصير الى واحد منهم ثم تطاع الرايات السود من قبل
المشرق فيقتلوه قتيلاً لم يقتله قوم ثم ذكر شيئاً لا أحفظه قال فاذا رأيتوه فبايموه ولو حبوا
على التلج فانه خليفة الله المهدي اه ورجاله رجال الصحيحين الا أن فيه أبا قلابة الجرمي
وذكر الذهبي وغيره أنه مدلس وفيه سفيان الثوري وهو مشهور بالتدليس وكل واحد منهما
عنعن ولم يصرح بالسماع فلا يقبل وفيه عبد الرزاق بن همام وكان مشهوراً بالتشيع وعمي في
آخر وقته نحاظ قال ابن عدي حدث بأحاديث في الفضائل لم يوافقها عليها أحد ونسبوه
الى التشيع انتهى * وخرج ابن ماجه عن عبد الله بن الحرث بن جزء الزبيدي من طريق
ابن لهيعة عن أبي زرعة عن عمر بن جابر الحضرمي عن عبد الله بن الحرث بن جزء قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج ناس من المشرق فيوطئون للمهدي يعني سلطانه قال
الطبراني تفرد به ابن لهيعة وقد تقدم لنا في حديث علي الذي خرج به الطبراني في معجمه
الاوسط أن ابن لهيعة ضعيف وأن شيخه عمر بن جابر أضعف منه * وخرج البزار في
مسنده والطبراني في معجمه الاوسط واللفظ للطبراني عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه
وسلم قال يكون في أمتي المهدي ان قصر فسبع والا فثمان والا فتسع تنعم فيها أمتي نعمة لم
ينعموا بمثلها ترسل السماء عليهم مدراراً ولا تدخر الأرض شيئاً من الثبات والمال كدوس يقوم
الرجل يقول يا مهدي اعطني فيقول خذ قال الطبراني والبزار تفرد به محمد بن مروان العجلي
زاد البزار ولا نعلم أنه تابعه عليه أحد وهو وان وثقه أبو داود وابن حبان أيضاً بما ذكره
في الثقات وقال فيه يحيى بن معين صالح وقال مرة ليس به بأس فقد اختلفوا فيه وقال ابو
زرعة ليس عندي بذلك وقال عبد الله بن احمد بن حنبل رأيت محمد بن مروان العجلي حدث بأحاديث
وأنا شاهد لم أكتبها تركتها على عمد وكتب بعض أصحابنا عنه كأنه ضعفه وخرجه ابو يعلى الموصلي في
مسنده عن أبي هريرة وقال حدثني خليلي ابو القاسم صلى الله عليه وسلم قال لا تقوم الساعة حتى يخرج
عليهم رجل من اهل بيتي فيضربهم حتى يرجعوا الى الحق قال قلت وكم يملك قال خمساً واثنين قال
قلت وما خمس واثنين قال لادري اه وهذا السند وان كان فيه بشير بن نهيك وقال فيه ابو
حاتم لا يحتج به فقد احتج به الشيخان ووثقه الناس ولم يلتفتوا الى قول أبي حاتم لا يحتج به
الا ان فيه رجاء بن أبي رجاء الشكري وهو مختلف فيه قال ابو زرعة ثقة وقال يحيى بن معين

ضعيف وقال ابو داود ضعيف وقال مرة صالح وعلق له البخارى في صحيحه حديثاً واحداً
 وخرج ابو بكر البزار في مسنده والطبراني في معجمه الكبير والوسط عن قرّة بن اياس قال قال
 رسول الله صلى الله عليه وسلم لتتلان الارض جوراً وظلماً فاذا ملئت جوراً وظلماً بعث
 الله رجلاً من أمتي اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبى يملؤها عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً
 فلا تمنع السماء من قطرها شيئاً ولا الارض شيئاً من نباتها يلبث فيكم سبعا أو ثمانيا أو تسعا يعني
 سنين اه وفيه داود بن المحبر بن قحزم عن أبيه وهما ضعيفان جدا * وخرج الطبراني في معجمه
 الاوسط عن ابن عمر قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من المهاجرين والانصار
 وعلي بن أبي طالب عن يساره والعباس عن يمينه اذ تلاحي العباس ورجل من الانصار فأغلق
 الانصاري للعباس فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بيد العباس وبيد علي وقال سيخرج من
 صلب هذا فتى يملأ الارض جوراً وظلماً وسيخرج من صلب هذا فتى يملأ الارض قسطاً
 وعدلاً فاذا رأيتم ذلك فعليكم بالتمييز فانه يقبل من قبل المشرق وهو صاحب راية
 المهدي انتهى وفيه عبد الله بن عمر العمري وعبد الله بن لهيعة وهما ضعيفان اه * وخرج
 الطبراني في معجمه الاوسط عن طلحة بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ستكون
 فتنة لا يسكن منها جانب الا تشاجر جانب حتي ينادي مناد من السماء ان أميركم فلان اه وفيه
 المثني بن الصباح وهو ضعيف جداً وليس في الحديث تصريح بذكر المهدي وانما ذكره في
 أبوابه وترجمته استئناساً (فهذه) جملة الاحاديث التي خرجها الأئمة في شأن المهدي وخروجه
 آخر الزمان وهي كرايت لم يخلص منها من النقد الا القليل أو الاقل منه وربما تمسك المنكرون
 لشأنه بما رواه محمد بن خالد الجندي عن أبان بن صالح بن أبي عياش عن الحسن البصري عن أنس
 ابن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا مهدي الا عيسى بن مريم وقال يحيى بن معين
 في محمد بن خالد الجندي أنه ثقة وقال البيهقي تفرد به محمد بن خالد وقال الحاكم فيه انه رجل
 مجهول واختلف عليه في اسناده فمرة يروي كما تقدم وينسب ذلك لمحمد بن ادريس الشافعي
 ومرة يروي عن محمد بن خالد عن أبان عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل قال
 البيهقي فرجع الى رواية محمد بن خالد وهو مجهول عن أبان بن أبي عياش وهو متروك عن الحسن
 عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو منقطع وبالجملة فالحديث ضعيف مضطرب وقد قيل في أن
 لا مهدي الا عيسى أي لا يتكلم في المهدي الا عيسى يحاولون بهذا التأويل رد الاحتجاج به أو الجمع
 بينه وبين الاحاديث وهو مدفوع بحديث جريح ومثله من الخوارق * وأما المتصوفة فلم يكن
 المتقدمون منهم يخوضون في شيء من هذا وانما كان كلامهم في المجاهدة بالاعمال وما يحصل
 عنها من نتائج المواجه والاحوال وكان كلام الامامية والرافضة من الشيعة في تفضيل علي رضي

الله تعالى عنه والقول بامامته وادعاء الوصية له بذلك من النبي صلى الله عليه وسلم والتبري من
الشيخين كاذكرناه في مذهبهم ثم حدث فيهم بعد ذلك القول بالامام المعصوم وكثرت
التأليف في مذهبهم وجاء الاسماعيلية منهم يدعون الوهية الامام بنوع من الحلول وآخرون
يدعون رجعة من مات من الأئمة بنوع التناسخ وآخرون منتظرون مجيء من يقطع بموته
منهم وآخرون منتظرون عود الامر في أهل البيت مستدلين على ذلك بما قدمناه من الاحاديث
في المهدي وغيرها ثم حدث أيضاً عند المتأخرين من الصوفية الكلام في الكشف وفيما وراء
الحس وظهر من كثير منهم القول على الاطلاق بالحلول والوحدة فشاركوا فيها الامامية
والرافضة لقولهم بالوهية الأئمة وحلول الاله فيهم وظهر منهم أيضاً القول بالقطب والابدال وكأنه
يحاكى مذهب الرافضة في الامام والنقباء وأشربوا أقوال الشيعة وتوغلوا في الديانة بمذاهبهم
حتى لقد جعلوا مستند طريقهم في لبس الخرق أن علياً رضي الله عنه ألبسها الحسن البصري
وأخذ عليه العهد بالزام الطريقة واتصل ذلك عنهم بالجديد من شيوخيهم ولا يعلم هذا عن على
من وجه صحيح ولم تكن هذه الطريقة خاصة بعلي كرم الله وجهه بل الصحابة كلهم أسوة في
طرق الهدى وفي تخصيص هذا بعلي دونهم راحة من التشيع قوية يفهم منها ومن غيرها مما
تقدم دخولهم في التشيع وانخراطهم في سلكه وظهر منهم أيضاً القول بالقطب وامتلات كتب
الاسماعيلية من الرافضة وكتب المتأخرين من المتصوفة بمثل ذلك في الفاطمي المنتظر وكان بعضهم
يمليه على بعض ويتلقنه بعضهم عن بعض وكأنه مبني على أصول واهية من الفريقين وربما
يستدل بعضهم بكلام المنجمين في القرائنات وهو من نوع الكلام في الملاحم ويأتي الكلام عليها
في الباب الذي يلي هذا وأكثر من تكلم من هؤلاء المتصوفة المتأخرين في شأن الفاطمي
ابن العربي الحاتمي في كتاب عنقاء مغرب وابن قسي في كتاب خلع النعلين وعبد الحق بن
سبعين وابن أبي واطيل تلميذه في شرحه لكتاب خلع النعلين وأكثر كلماتهم في شأنه الغاز
وأمثال وربما يصرحون في الاقل أو يصرح مفسرو كلامهم وحاصل مذهبهم فيه على ما ذكر
ابن أبي واطيل أن النبوة بها ظهر الحق والهدى بعد الضلال والعمي وانها تعقبها الخلافة ثم
يعقب الخلافة الملك ثم يعود تجبراً وتكبراً وباطلاً قالوا ولما كان في المعهود من سنة الله رجوع
الامور الى ما كانت وجب أن يحيا أمر النبوة والحق بالولاية ثم بخلافها ثم يعقبها الدجل مكان
الملك والتسلط ثم يعود الكفر بحاله يشيرون بهذا لما وقع من شأن النبوة والخلافة بعدهما والملك
بعد الخلافة هذه ثلاث مراتب وكذلك الولاية التي هي لهذا الفاطمي والدجل بعدها كناية
عن خروج الدجال على أثره والكفر من بعد ذلك فهي ثلاث مراتب على نسبة الثلاث مراتب
الاولى قالوا ولما كان أمر الخلافة لقريش حكماً شرعياً بالاجماع الذي لا يوهنه انكار من لم يزال

علمه وجب أن تكون الامامة فيمن هو أخص من قرش بن النضر صلى الله عليه وسلم أما ظاهره
 كفى عبد المطلب وأما باطنا ممن كان من حقيقة آل من إذا حضر لم يغيب من هو آل
 وابن العربي الحاتمي ساء في كتابه عناء مغرب من تأليفه خاتم الأولياء وكفى عنه بلغة الفضة
 إشارة الى حديث البخاري في باب خاتم النبيين قال صلى الله عليه وسلم مثلي فيمن قبلي من
 الأنبياء كمثل رجل ابني بيتا وأكملته حتى إذا لم يبق منه إلا موضع لبنة فأتى تلك اللبنة فيفسرون
 خاتم النبيين باللينة حتى أكملت البنيان ومعناه النبي الذي حصلت له النبوة الكاملة ويمثلون
 الولاية في تفاوت مراتبها بالنبوة ويحتملون صاحب الكمال فيها خاتم الأولياء أي حاز الرتبة التي
 هي خاتمة الولاية كما كان خاتم الأنبياء حازا للمرتبة التي هي خاتم النبوة فكفي الشارع عن تلك
 المرتبة الخاتمة بلينة البيت في الحديث المذكور وهما على نسبة واحدة فيها فهي لبنة واحدة في
 التمثيل ففي النبوة لبنة ذهب وفي الولاية لبنة فضة للتفاوت بين الرتبين كما بين الذهب والفضة
 فيجعلون لبنة الذهب كناية عن النبي صلى الله عليه وسلم ولينة الفضة كناية عن هذا الولي
 الفاطمي المنتظر وذلك خاتم الأنبياء وهذا خاتم الأولياء وقال ابن العربي فيما نقل ابن أبي
 واطيل عنه وهذا الامام المنتظر هو من أهل البيت من ولد فاطمة وظهوره يكون من بعد
 مضي خ ف ج من الهجرة ورسم حروفا ثلاثة يريد عددها بحساب الجمل وهو الحاء
 المعجمة بواحدة من فوق سبعة والفاء أخت القاف ثمانين والجم المعجمة بواحدة من أسفل
 ثلاثة وذلك سبعة وثلاث وثمانون سنة وهي آخر القرن السابع ولما انصرم هذا العصر ولم
 يظهر حمل ذلك بمض المقلدين لهم على أن المراد بتلك المدة مولده وعبر بظهوره عن مولده
 وأن خروجه يكون بعد العشر والسبع مائة فانه الامام الناجم من ناحية المغرب قال وإذا كان
 مولده كما زعم ابن العربي سنة ثلاث وثمانين وسبعة فيكون عمره عند خروجه ستا وعشرين
 سنة قال وزعموا أن خروج الدجال يكون سنة ثلاث وأربعين وسبع مائة من اليوم المحمدي
 وابتداء اليوم المحمدي عندهم من يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم الى تمام ألف سنة قال
 ابن أبي واطيل في شرحه كتاب خلع النملين الولي المنتظر القائم بأمر الله المشار اليه بمحمد
 المهدي وخاتم الأولياء وليس هو بني وإنما هو ولي ابتعثه روحه وحيه قال صلى الله عليه
 وسلم العالم في قومه كالنبي في أمته وقال علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل ولم تزل البشري تتابع
 به من أول اليوم المحمدي الى قبيل الخمسمائة نصف اليوم وتأكدت وتضاعفت بتباشير المشايخ
 بتقريب وقته وازدلال زمانه منذ انقضت الى هلم جرا قال وذكر الكندي أن هذا الولي
 هو الذي يصلي بالناس صلاة الظهر ويحدد الاسلام ويظهر العدل ويفتح جزيرة الأندلس
 ويصل الى رومية فيفتحها ويسير الى المشرق فيفتحه ويفتح القسطنطينية ويصير له ملك

الأرض فيتقوي المسلمون ويعلو الاسلام ويظهر دين الخيفية فان من صلاة الظهر الى صلاة العصر وقت صلاة قال عليه الصلاة والسلام ما بين هذين وقت وقال الكندي أيضاً الحروف العربية غير المعجمة يعني المفتوح بها سور القرآن جملة عددها سبعمائة وثلاثة وأربعون وسبعة دجالية ثم ينزل عيسى في وقت صلاة العصر فيصلح الدنيا وتمشي الشاة مع الذئب ثم يبقى ملك العجم بعد اسلامهم مع عيسى مائة وستين عاما عدد حروف المعجم وهي ق ي ن دولة العدل منها أربعون عاما قال ابن أبي واطيل وما ورد من قوله لامهدي إلا عيسى فمعهام لامهدي تساوي هدايته ولايته وقيل لا يتكلم في المهدي الا عيسى وهذا مدفوع بحديث جريج وغيره وقد جاء في الصحيح انه قال لا يزال هذا الامر قائماً حتي تقوم الساعة أو يكون عليهم اثنا عشر خليفة يعني قرشيا وقد أعطي الوجود أن منهم من كان في أول الاسلام ومنهم من سيكون في آخره وقال الخلافة بعدي ثلاثون أو احدى وثلاثون أوستة وثلاثون وانقضاءها في خلافة الحسن وأول أمر معاوية فيكون أول أمر معاوية خلافة أخذاً بأوائل الاسماء فهو سادس الخلفاء وأما سابع الخلفاء فعمر بن عبد العزيز والباقيون خمسة من اهل البيت من ذرية علي يؤيده قوله انك لذو قرنها يريد الامة أى انك لخليفة في اولها وذريتك في آخرها وربما استدل بهذا الحديث القائلون بالرجعة فالاول هو المشار اليه عندهم بطلوع الشمس من مغربها وقد قال صلى الله عليه وسلم اذا هلك كسري فلا كسري بعده واذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذي نفسي بيده لتنفق كنوزها في سبيل الله وقد أنفق عمر بن الخطاب كنوز كسرى في سبيل الله والذي يهلك قيصر وينفق كنوزه في سبيل الله هو هذا المنتظر حين يفتح القسطنطينية فعم الامير اميرها ونعم الجيش ذلك الجيش كذا قال صلى الله عليه وسلم ومدة حكمه بضع والبضع من ثلاث الى تسع وقيل الى عشر وجاء ذكر أربعين وفي بعض الروايات سبعين وأما الاربعون فانها مدته ومدة الخلفاء الاربعة الباقيين من أهله القائمين بامرهم من بعده على جميعهم السلام قال وذكر أصحاب التجوم والقرانات ان مدة بقاء أمره وأهل بيته من بعده مائة وتسعة وخمسون عاما فيكون الامر على هذا جارياً على الخلافة والعدل أربعين أو سبعين ثم تختلف الاحوال فتكون ملكاً انتهى كلام ابن أبي واطيل وقال في موضع آخر نزول عيسى يكون في وقت صلاة العصر من اليوم المسمى حين تمضي ثلاثة أرباعه* قال وذكر الكندي يعقوب بن اسحق في كتاب الجفر الذي ذكر فيه القرانات انه اذا وصل القران الى الثور على رأس حضخ بحر فين (١) الضاد المعجمة والحاء المهملة يريد ثمانية وتسعين

وسمأة من الهجرة ينزل المسيح فيحكم في الأرض ماشاء الله تعالى قال وقد ورد في الحديث ان عيسى ينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ينزل بين مهرودتين يعني حلتين مزعفتين صفراوين مصرتين واضعاً كفيه على أجنحة الملكين له لمة كأنما خرج من ديماس اذا طأطأ رأسه قطر واذا رفعه تحدر منه حمان كالؤلؤ كثير خيلان الوجه وفي حديث آخر مربع الخلق والى البياض والحمره وفي آخر انه يتزوج في القرب والغرب دلو البادية يريد أنه يتزوج منها وتلد زوجته وذكر وفاته بعد أربعين عاما وجاء أن عيسى يموت بالمدينة ويدفن الى جانب عمر بن الخطاب وجاء أن أبا بكر وعمر يحشران بين نبيين قال ابن أبي واطيل والشيعه تقول إنه هو المسيح مسيح المسايح من آل محمد قلت وعليه حل بعض المتصوفة حديث لامهدي الا عيسى أى لا يكون مهدي الالمهدي الذي نسبته الى الشريعة الحمديه نسبة عيسى الى الشريعة الموسوية في الاتباع وعدم النسخ الى كلام من أمثال هذا يعنون فيه الوقت والرجل والمكان بأدلة واهية وتحكمات مختلفة فينقضى الزمان ولا أثر لشيء من ذلك فيرجعون الى تجديد رأي آخر منتحل كما تراه من مفهومات لغوية وأشياء تخيلية وأحكام نجومية في هذا انقضت أعمار الاول منهم والاخر* وأما المتصوفة الذين عاصروا هم فأكثهم يشيرون الى ظهور رجل مجدد لاحكام الملة ومراسم الحق ويخبرون ظهوره لما قرب من عصرنا فبعضهم يقول من ولد فاطمة وبعضهم يطلق القول فيه سمعناه من جماعة أكبرهم أبو يعقوب البادسي كبير الاولياء بالمغرب كان في أول هذه المائة الثامنة وأخبرني عنه حافده صاحبنا أبو يحيى زكريا عن أبيه أبي محمد عبد الله عن أبيه الولي أبي يعقوب المذكور هذا آخر ما طالعنا عليه أو بلغنا من كلام هؤلاء المتصوفة وما أورده أهل الحديث من أخبار المهدي قد استوفينا جميعه بمبلغ طاقتنا والحق الذي ينبغي أن يتقرر لديك انه لا تتم دعوة من الدين والملك الا بوجود شوكة عصية تظهره وتدافع عنه من يدفعه حتى يتم أمر الله فيه وقد قررنا ذلك من قبل بالبراهين القطعية التي أريناك هناك وعصية الفاطميين بل وقرش أجمع قد تلاشت من جميع الآفاق ووجد أم آخرون قد استعلت عصيتهم على عصية قرش الا مابق بالحجاز في مكة وينبع بالمدينة من الطالبيين من بني حسن وبني حسين وبني جعفر منتشرون في تلك البلاد وغالبون عليها وهم عصائب بدوية متفرقون في مواطنهم وامارتهم وآرائهم يبلغون آلافا من الكثرة فان صح ظهور هذا المهدي فلا وجه لظهور دعوته الا بان يكون منهم ويؤلف الله بين قلوبهم في اتباعه حتى تتم له شوكة وعصية وافية باظهار كلمته وحل الناس عليها وأما على غير هذا الوجه مثل أن يدعو فاطمي منهم الى مثل هذا الامر في أفق من الآفاق من غير عصية ولا شوكة الا مجرد نسبة في أهل البيت فلا يتم ذلك ولا يمكن لما

أسلفناه من البراهين الصحيحة وأما مآدعيه العامة والاعمار من الدهاء ممن لا يرجع في ذلك الى عقل يهديه ولا علم يفيد فيجيئون ذلك على غير نسبة وفي غير مكان تقليدا لما اشتهر من ظهور فاطمي ولا يعلمون حقيقة الامر كما يبناه وأكثر ما يجيئون في ذلك القاصية من الممالك وأطراف العمران مثل الزاب بفريقية والسوس من المغرب ونجد الكثير من ضعفاء البصائر يقصدون رباطا بماسة لما كان ذلك الرباط بالمغرب من المؤمنين من كدالة واعتقادهم انه منهم أوقائمون بدعوته زعمالامستند لهم الا غرابة تلك الامم وبعدهم على يقين المعرفة بأحوالها من كثرة أوقلة أضعف أوقوة ولبعد القاصية عن مثال الدولة وخروجها عن نطاقها فتقوي عندهم الاوهام في ظهوره هناك بخروجه عن ربة الدولة ومثال الاحكام والقهر ولا محصول لديهم في ذلك الا هذا وقد يقصد ذلك الموضع كثير من ضعفاء العقول للتبليس بدعوة يمه تمامها وسواسا وحقا وقتل كثير منهم* أخبرني شيخنا محمد بن ابراهيم الابلي قال خرج برباط ماسة لاول المائة الثامنة وعصر السلطان يوسف بن يعقوب رجل من منتحلي التصوف يعرف بالتوزير نسبة الى توزر مصغرا وادعى أنه الفاطمي المنتظر واتبعه الكثير من أهل السوس من خالة وكزولة وعظم أمره وخافه رؤساء المصامدة على أمرهم فسد عليه السكسوي من قتله بيانا وانحل أمره وكذلك ظهر في غمارة في آخر المائة السابعة وعشر التسعين منها رجل يعرف بالعباس وادعى أنه الفاطمي واتبعه الدهاء من غمارة ودخل مدينة فاس عنوة وحرقت أسواقها وارتحل الى بلد المزمة فقتل بها غيلة ولم يتم أمره وكثير من هذا النمط* وأخبرني شيخنا المذكور بغريبة في مثل هذا وهو أنه صحب في حجه في رباط العباد وهو مدفن الشيخ أبي مدين في جبل تلمسان المطل عليها رجلا من أهل البيت من سكان كربلاء كان متبوعا معظما كثير التلميذ والخدام قال وكان الرجال من موطنه يتلقونه بالنفقات في أكثر البلدان قال وتأكدت الصحبة بيننا في ذلك الطريق فانكشف لي أمرهم وانهم انما جاؤا من موطنهم بكر بلاء لطلب هذا الامر واتحال دعوة الفاطمي بالمغرب فلما عين دولة بني مرين ويوسف بن يعقوب يومئذ منازل تلمسان قال لاصحابه ارجعوا فقد أزرني بنا الغلط وليس هذا الوقت وقتنا وبدل هذا القول من هذا الرجل على أنه مستبصر في ان الامر لا يتم الا بالعصية المكافئة لاهل الوقت فلما علم انه غريب في ذلك الوطن ولا شوكة له وان عصية بني مرين لذلك العهد لا يقاومها احد من أهل المغرب استكان ورجع الى الحق وأقصر عن مطامعه وبقي عليه ان يستيقن ان عصية الفواطم وقريش اجمع قد ذهبت لاسما في المغرب الا أن المتعصب لشأنه لم يتركه لهذا القول والله يعلم وأتم لاتعلمون وقد كانت بالمغرب لهذه العصور القريية نزعة من الدعاء الى الحق والقيام بالسنة لا ينتحلون فيها

دعوة فاطمي ولا غيره وانما ينزع منهم في بعض الاحيان الواحد فالواحد الى اقامة السنة وتغيير المنكر ويعتنى بذلك ويكثر تابعه وأكثر ما يعنون باصلاح السابلة لما ان اكثر فساد الاعراب فيها لما قدمناه من طبيعة معاشهم فيأخذون في تغيير المنكر بما استطاعوا الا ان الصبغة الدينية فيهم لم تستحكم لما أن توبة العرب ورجوعهم الى الدين انما يقصدون بها الاقصار عن الغارة والنهب لا يعقلون في توبتهم واقبالهم الى مناجي الديانة غير ذلك لانها المعصية التي كانوا عليها قبل المقربة ومنها توبتهم فتجد ذلك المنتحل للدعوة والقائم بزعمه بالسنة غير متعمقين في فروع الاقتداء والاتباع انما دينهم الاعراض عن النهب والبغى وافساد السابلة ثم الاقبال على طلب الدنيا والمعاش بأقصى جهدهم وشتان بين هذا الآخذ في اصلاح الخلق ومن طلب الدنيا فاتفقوا بها تمتع لاستحكم له صبغة في الدين ولا يكمل له نزوع عن الباطل على الجملة ولا يكثر من ويختلف حال صاحب الدعوة معهم في استحكام دينه وولايته في نفسه دون تابعه فاذا هلك انحل أمرهم وتلاشت عصبيتهم وقد وقع ذلك بافريقية لرجل من كعب من سليم يسمى قاسم بن مرة بن أحمد في المائة السابعة ثم من بعده لرجل آخر من بادية رياح من بطن منهم يعرفون بمسلم وكان يسمى سعادة وكان أشد ديناً من الاول وأقوم طريقة في نفسه ومع ذلك فلم يستتب أمر تابعه كما ذكرناه حسبما يأتي ذكر ذلك في موضعه عند ذكر قبائل سليم ورياح وبعد ذلك ظهر ناس بهذه الدعوة يتشبهون بمثل ذلك ويلبسون فيها ويتحلون اسم السنة وليسوا عليها الا الاقل فلا يتم لهم ولا لمن بعدهم شيء من أمرهم انتهى

٥٤ فصل في ابتداء الدول والامم وفيه الكلام على الملاحم والكشف عن مسمى الجفر

اعلم أن من خواص النفوس البشرية التشوف الى عواقب أمورهم وعلم ما يحدث لهم من حياة وموت وخير وشر سيما الحوادث العامة كمعرفة ما بقى من الدنيا ومعرفة مدد الدول أو تفاوتها والتطلع الى هذا طبيعة البشر محبوبون عليها ولذلك نجد الكثير من الناس يتشوفون الى الوقوف على ذلك في المنام والاعبار من الكهان لمن قصدهم بمثل ذلك من الملوك والسوقة معروفة ولقد نجد في المدن صنفا من الناس يتحلون المعاش من ذلك لعلمهم بحرص الناس عليه فينتصبون لهم في الطرقات والدكاكين يتعرضون لمن يسألهم عنه فتعدو عليهم وتروح نسوان المدينة وصبيانها وكثير من ضعفاء العقول يستكشفون عواقب أمرهم في الكسب والجاه والمعاش والمعاشرة والعداوة وامثال ذلك ما بين خط في الرمل ويسمونه المنتجم وطرق الحصى والحبوب ويسمونه الحاسب ونظر في المرايا والمياه ويسمونه ضارب المتدل وهو من المنكرات الفاشية في الامصار لما تقرر في الشريعة من ذم ذلك وأن البشر محجوبون عن الغيب الا من أطاعه الله

عليه من عنده في نوم أو ولاية وأكثر ما يعتني بذلك ويتطلع اليه الامراء والملوك في آماذ دولتهم ولذلك انصرفت العناية من أهل العلم اليه وكل أمة من الامم يوجد لهم كلام من كاهن أو منجم أو ولي في مثل ذلك من ملك يرتقبونه أو دولة يحدثون أنفسهم بها وما يحدث لهم من الحرب والملاحم ومدة بقاء الدولة وعدد الملوك فيها والتعرض لاسمائهم ويسمى مثل ذلك الحدثن وكان في العرب الكهان والعرافون يرجعون اليهم في ذلك وتد أخبروا بما سيكون للعرب من الملك والدولة كواقع لشق وسطيح في تأويل رؤيا ربيعة بن نصر من ملوك اليمن أخبرهم بملك الحبشة بلادهم ثم رجوعها اليهم ثم ظهور الملك والدولة للعرب من بعد ذلك وكذا تأويل سطيح لرؤيا الموبذان حين بعث اليه كسرى بها مع عبد المسيح وأخبرهم بظهور دولة العرب وكذا كان في حيل البربر كهان من أشهرهم موسى بن صالح من بني يفرن ويقال من غمرة وله كلمات حدثانية على طريقة الشعر برطانهم وفيها حدثن كثير ومعظمه فيما يكون لزنانة من الملك والدولة بالمغرب وهي متداولة بين أهل الحيل وهم يزعمون تارة أنه ولي وتارة أنه كاهن وقد يزعم بعض مزاعمهم أنه كان نبياً لأن تاريخه عندهم قبل الهجرة بكثير والله أعلم وقد يستند الحيل الى خبر الانبياء ان كان لعهدهم كما وقع لبني اسرائيل فان أنبياءهم المتعاقبين فيهم كانوا يخبرونهم بمثله عند ما يعنونهم في السؤال عنه * واما في الدولة الاسلامية فوقع منه كثير فيما يرجع الى بقاء الدنيا ومدتها على العموم وفيما يرجع الى الدولة واعمارها على الخصوص وكان المعتمد في ذلك في صدر الاسلام آثارا منقولة عن الصحابة وخصوصاً سلمة بنى اسرائيل مثل كعب الاحبار ووهب بن منبه وامثالهما وربما اقتبسوا بعض ذلك من ظواهر مأثورة وتأويلات محتمة ووقع لجعفر وامثاله من اهل البيت كثير من ذلك مستندهم فيه والله أعلم الكشف بما كانوا عليه من الولاية واذا كان مثله لا ينكر من غيرهم من الاولياء في ذوبهم واعقابهم وقد قال صلى الله عليه وسلم ان فيكم محدثين فهم اولى الناس بهذه الرتب الشريفة والكرامات الموهوبة واما بعد صدر الملة وحين علق الناس على العلوم والاصطلاحات وترجمت كتب الحكماء الى اللسان العربي فأكثر معتمدهم في ذلك كلام المنجمين في الملك والدول وسائر الامور العامة من القرانات وفي المواليد والمسائل وسائر الامور الخاصة من الطوابع لها وهي شكل الفلك عند حدوثها فلنذكر الآن ما وقع لاهل الاثر في ذلك ثم نرجع لكلام المنجمين * اما اهل الاثر فلهم في مدة الممل وبقاء الدنيا على ما وقع في كتاب السهيلي فانه نقل عن الطبري ما يقضي ان مدة بقاء الدنيا منذ الملة خمسمائة سنة ونقض ذلك بظهور كذبه ومستند الطبري في ذلك انه نقل عن ابن عباس أن الدنيا جمعة من جمع الآخرة ولم يذكر لذلك دليلاً وسره والله أعلم تقدر الدنيا بأيام خلق السموات والارض وهي سبعة ثم اليوم بألف سنة لقوله وان يوماً عند ربك كألف

سنة مما تعدون* قال وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أجلكم في أجل من كان قبلكم من صلاة العصر الى غروب الشمس* وقال بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطي وقدر ما بين صلاة العصر وغروب الشمس حين صيرورة ظل كل شيء مثليه يكون على التقريب نصف سبع وكذلك وصل الوسطي على السبابة فتكون هذه المدة نصف سبع الجمعة كلها وهو خمسمائة سنة ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم لن يعجز الله أن يؤخر هذه الامة نصف يوم فدل ذلك على أن مدة الدنيا قبل الملة خمسة آلاف وخمسمائة سنة *وعن وهب بن منبه أنها خمسة آلاف وستمائة سنة أعني الماضي* وعن كعب أن مدة الدنيا كلها ستة آلاف سنة قال السهيلي وليس في الحديثين ما يشهد لشيء مما ذكره مع وقوع الوجود بخلافه فأما قوله لن يعجز الله أن يؤخر هذه الامة نصف يوم فلا يقتضي في الزيادة على النصف وأما قوله بعثت أنا والساعة كهاتين فالنافيه الاشارة الى القرب وأنه ليس بينه وبين الساعة نبي غيره ولا شرع غير شرعه ثم رجع السهيلي الى تعيين أمد الملة من مدرك آخر لو ساعده التحقيق وهو أنه جمع الحروف المقطعة في أوائل السور بعد حذف المكرر قال وهي أربعة عشر حرفا يجمعها قولك (ألم يستطع نص حق كره) فأخذ عددها بحساب الجمل فكان سبعمائة وثلاثة (١) أضافه الى المنقضي من الالف الآخرة قبل بعثته فهذه هي مدة الملة قال ولا يبعد ذلك أن يكون من مقتضيات هذه الحروف وفوائدها قلت وكونه لا يبعد لا يقتضي ظهوره ولا التعويل عليه والذي حمل السهيلي على ذلك إنما هو ما وقع في كتاب السير لابن اسحق في حديث ابني أخطب من أخبار اليهود وهما أبو ياسر وأخوه حيي حين سمعا من الأحرف المقطعة ألم وتأولاهما على بيان المدة بهذا الحساب فبلغت احدي وسبعين فاستقلا المدة وجاء حيي الى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله هل مع هذا غيره فقال المص ثم استزاد الرثم استزاد المر فكانت احدي وسبعين ومائتين فاستطال المدة وقال قد لبس علينا أمرك يا محمد حتي لا ندري أ قليلا أعطيت أم كثيراً ثم ذهبوا عنه وقال لهم أبو ياسر ما يدريكم لعله أعطي عددها كلها تسعمائة وأربع سنين قال ابن اسحق فنزل قوله تعالى منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات اه ولا يقوم من القصة دليل على تقدير الملة بهذا العدد لان دلالة هذه الحروف على تلك الاعداد ليست طبيعية ولا عقلية وانما هي بالتواضع والاصطلاح الذي يسمونه حساب الجمل نعم أنه قديم مشهور وقدم الاصطلاح لا يصير حجة وليس أبو ياسر وأخوه حيي ممن يؤخذ رأيهم في

(١) هذا العدد غير مطابق كما أن المترجم التركي لم يطابق في قوله ٩٣٠ وانما المطابق للحروف

المذكورة ٦٩٣ وهو الموافق لما سئذ كره عن يعقوب الكندي قاله نصر اه

ذلك دليلاً ولا من علماء اليهود لانهم كانوا بادية بالحجاز غفلاً عن الصنائع والعلوم حتي عن علم
 شريعتهم وفقه كتابهم وملتهم وانما يتلقفون مثل هذا الحساب كاتلقفه العوام في كل ملة فلا
 ينهض للسبيل دليل على ما دعاه من ذلك ووقع في الملة في حدثنان دولتها على الخصوص مسند
 من الاثر اجمالى في حديث خرجه ابو داود عن حذيفة بن اليمان من طريق شيخه محمد بن
 يحيى الذهبي عن سعيد بن أبي مریم عن عبد الله بن فروخ عن أسامة بن زيد اللبثي عن أبي
 قيس بن ذؤيب عن أبيه قال قال حذيفة بن اليمان والله ما دري أنسي اصحابي ام تناسوه والله
 ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من قائد فتة الى ان تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعدا
 الا قد ساء لنا باسمه واسم أبيه وقبيلته وسكت عليه أبو داود وقد تقدم أنه قال في رسالته ما سكت عليه
 في كتابه فهو صالح وهذا الحديث اذا كان صحيحاً فهو محمل ويفتقر في بيان اجماله وتعيين مهماته الى
 آثار اخري بحجود اسانيدها وقد وقع اسناد هذا الحديث في غير كتاب السنن على غير هذا الوجه فوقع
 في الصحيحين من حديث حذيفة ايضاً قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا خطيباً فما
 ترك شيئاً يكون في مقامه ذاك الى قيام الساعة الا حدث عنه حفظه من حفظه ونسيه من نسيه
 قد علمه أصحابه هؤلاء اه ولفظ البخاري ما ترك شيئاً الى قيام الساعة الا ذكره وفي كتاب
 الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً صلاة
 العصر بنهار ثم قام خطيباً فلم يدع شيئاً يكون الى قيام الساعة الا أخبرنا به حفظه من حفظه
 ونسيه من نسيه اه وهذه الاحاديث كلها محمولة على ما ثبت في الصحيحين من احاديث الفتن
 والاشراط لا غير لانه المعبود من الشارع صلوات الله وسلامه عليه في أمثال هذه العمومات
 وهذه الزيادة التي تفرد بها أبو داود في هذا الطريق شاذة منكورة مع أن الأئمة اختلفوا في
 رجاله فقال ابن أبي مریم في ابن فروخ أحاديثه منكورة وقال البخاري يعرف منه وينكر
 وقال ابن عدي أحاديثه غير محفوظة وأسامة بن زيد وان خرج له في الصحيحين ووثقه ابن معين
 فانما خرج له البخاري استشهاده وضعفه يحيى بن سعيد وأحمد بن حنبل وقال ابو حاتم يكتب
 حديثه ولا يحتج به وابو قيس بن ذؤيب مجهول فتضعف هذه الزيادة التي وقعت لابن داود
 في هذا الحديث من هذه الجهات مع شذوذها كما مر وقد يستندون في حدثنان الدول على
 الخصوص الى كتاب الجفر ويزعمون ان فيه علم ذلك كله من طريق الآثار والنجوم لا يزيدون
 على ذلك ولا يعرفون أصل ذلك ولا مستنده واعلم أن كتاب الجفر كان أصله أن هرون بن
 سعيد العجلي وهو رأس الزيدية كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق وفيه علم ماسبق
 لاهل البيت على العموم ولبعض الاشخاص منهم على الخصوص وقع ذلك لجعفر ونظارته من
 رجالهم على طريق الكرامة والكشف الذي يقع لمثلهم من الاولياء وكان مكتوباً عند جعفر

في جلد ثور صغير فرواه عنه هرون العجلي وكتبه وسماه الجفر باسم الجلد الذي كتب منه لأن الجفر في اللغة هو الصغير وصار هذا الاسم علما على هذا الكتاب عندهم وكان فيه تفسير القرآن وما في باطنه من غرائب المعاني مروية عن جعفر الصادق وهذا الكتاب لم يتصل روايته ولا عرف عنه وإنما يظهر منه شواذ من الكلمات لا يصحها دليل ولوصح السند إلى جعفر الصادق لكان فيه نعم المستند من نفسه أو من رجال قومه فهم أهل الكرامات وقد صح عنه أنه كان يحذر بعض قرابته بوقائع تكون لهم فتصح كما يقول وقد حذر يحيى ابن عمه زيد من مصرعه وعصاه فخرج وقتل بالجوزجان كما هو معروف وإذا كانت الكرامة تقع لغيرهم فما ظنك بهم علما ودينا وآثارا من النبوة وعناية من الله بالأصل الكريم تشهد لفروعه الطيبة وقد ينقل بين أهل البيت كثير من هذا الكلام غير منسوب إلى أحد وفي أخبار دولة العبيديين كثير منه وانظر ما حكاه ابن الرقيق في لقاء أبي عبد الله الشيعي لعبيد الله المهدي مع ابنه محمد الحبيب وما حدثاه به وكيف بعاه إلى ابن خوشب داعيتهم باليمن فأمره بالخروج إلى المغرب وبث الدعوة فيه على علم لقنه أن دعوته تتم هناك وأن عبيد الله لما بنى المهديّة بعد استئصال دولتهم بأفريقية قال بنيتها ليعتصم بها القواطم ساعة من نهار وأراهم موقف صاحب الحمار أبي يزيد بالمهديّة وكان يسأل عن منتهى موقفه حتى جاءه الخبر ببلوغه إلى المكان الذي عينه جده عبيد الله فأيقن بالظفر وبرز من البلد فهزمه واتبعه إلى ناحية الزاب فظفر به وقتله ومثل هذه الأخبار عندهم كثيرة (وأما المنجمون) فيستندون في حدّثان الدول إلى الأحكام النجومية أمافي الأمور العامة مثل الملك والدول فمن القرائن وخصوصاً بين العلويين وذلك أن العلويين زحل والمشتري يقتربان في كل عشرين سنة مرة ثم يعود القران إلى برج آخر في تلك المثلثة من الثلاث الأيمن ثم بعده إلى آخر كذلك إلى أن يتكرر في المثلثة الواحدة ثلث عشرة مرة تستوى بروجه الثلاثة في ستين سنة ثم يعود فيستوي بهما في ستين سنة ثم يعود ثالثة ثم رابعة فيستوي في المثلثة بثنتي عشرة مرة وأربع عودات في مائتين وأربعين سنة ويكون انتقاله في كل برج على الثلاث الأيمن وينتقل من المثلثة إلى المثلثة التي تليها أعنى البرج الذي يلي البرج الآخر من القران الذي قبله من المثلثة وهذا القران الذي هو قران العلويين ينقسم إلى كبير وصغير ووسط فالكبير هو اجتماع العلويين في درجة واحدة من الفلك إلى أن يعود إليها بعد تسعمائة وستين سنة مرة واحدة والوسط هو اقتران العلويين في كل مثلثة اثنتي عشرة مرة وبعد مائتين وأربعين سنة ينتقل إلى مثلثة أخرى والصغير هو اقتران العلويين في درجة برج وبعد عشرين سنة يقتربان في برج آخر على تثليثه الأيمن في مثل درجه أودقائقه مثال ذلك وقع القران أول دقيقة من الحمل وبعد عشرين يكون في أول دقيقة من القوس وبعد

عشرين يكون في أول دقيقة من الأسد وهذه كلها نارية وهذا كله قران صغير ثم يعود الى أول الحمل بعد ستين سنة ويسمى دور القران وعود القران وبعد مائتين وأربعين ينتقل من النارية الى الترابية لانها بعدها وهذا قران وسط ثم ينتقل الى الهوائية ثم المائة ثم يرجع الى أول الحمل في تسعمائة وستين سنة وهو الكبير والقران الكبير يدل على عظام الأمور مثل تغيير الملك والدولة وانتقال الملك من قوم الى قوم والوسط على ظهور المتغلبين والطالين للملك والصغير على ظهور الخوارج والدعاة وخراب المدن أو عمرانها ويقع أثناء هذه القرانات قران التحسين في برج السرطان في كل ثلاثين سنة مرة ويسمى الرابع وبرج السرطان هو طالع العالم وفيه وبال زحل وهبوط المريخ فتعظم دلالة هذا القران في الفتن والحروب وسفلك الدماء وظهور الخوارج وحركة العساكر وعصيان الحند والوباء والقحط ويدوم ذلك أو ينتهي على قدر السعادة والنحوسة في وقت قرانهما على قدر تيسير الدليل فيه * قال ابن جراس أحد الحاسب في الكتاب الذي ألفه لنظام الملك ورجوع المريخ الى العقرب له أثر عظيم في الملة الاسلامية لانه كان دليها فالمولد النبوي كان عند قران العلويين ببرج العقرب فلما رجع هنالك حدث التشويش على الخلفاء وكثر المرض في أهل العلم والدين ونقصت أحوالهم وربما انهدم بعض بيوت العبادة وقد يقال انه كان عند قتل علي رضي الله عنه ومروان من بني أمية والمتوكل من بني العباس فاذا روعيت هذه الاحكام مع أحكام القرانات كانت في غاية الاحكام * وذكر شاذان الباجي أن الملة تنتهي الى ثلثمائة وعشرين وقد ظهر كذب هذا القول وقال أبو معشر يظهر بعد المائة والخمسين منها اختلاف كثير ولم يصح ذلك وقال جراس رأيت في كتب القدماء أن المنجمين أخبروا كسري عن ملك العرب وظهور النبوة فيهم وأن دليلهم الزهرة وكانت في شرفها فيبقى الملك فيهم أربعين سنة وقال أبو معشر في كتاب القرانات القسمة اذا انتهت الى السابعة والعشرين من الحوت فيها شرف الزهرة ووقع القران مع ذلك ببرج العقرب وهو دليل العرب ظهرت حينئذ دولة العرب وكان منهم نبي ويكون قوة ملكه ومدته على ما بقي من درجات شرف الزهرة وهي احدى عشرة درجة بتقريب من برج الحوت ومدة ذلك ستمائة وعشر سنين وكان ظهور أبي مسلم عند انتقال الزهرة ووقع القسمة أول الحمل وصاحب الجسد المشتري وقال يعقوب بن اسحق الكندي أن مدة الملة تنتهي الى ستمائة وثلاث وتسعين سنة قال لان الزهرة كانت عند قران الملة في ثمان وعشرين درجة وثلاثين دقيقة من الحوت فالباقي احدى عشرة درجة وثمان عشرة دقيقة ودقائقها ستون فيكون ستمائة وثلاثا وتسعين سنة قال وهذه مدة الملة باتفاق الحكماء وبعضه الحروف الواقعة في أول السور بمحذف المكرر واعتباره بحساب الحمل قلت وهذا هو الذي ذكره

السهيلي والغالب أن الاول هو مستند السهيلي فيما نقلناه عنه قال جراس سأل هرمرز
افريد الحكيم عن مدة أردشير وولده ملوك الساسانية فقال دليل ملكه المشتري وكان في شرفه
فيعطي أطول السنين وأجودها أربعمائة وسبعاً وعشرين سنة ثم تزيد الزهرة وتكون في شرفها
وهي دليل العرب فيملكون لأن طالع القران الميزان وصاحبه الزهرة وكانت عند القران في
شرفها فدل أنهم يملكون ألف سنة وستين سنة * وسأل كسرى أنوشروان وزيره بزرجمهر
الحكيم عن خروج الملك من فارس الى العرب فاخبره أن القائم منهم يولد لخمس وأربعين
من دولته ويملك المشرق والمغرب والمشتري يغوص الى الزهرة وينتقل القران من الهوائية
الى العقرب وهو مائي وهو دليل العرب فهذه الادلة تقضي للملة بمدة دور الزهرة وهي ألف
وستون سنة * وسأل كسرى أبرويز اليوس الحكيم عن ذلك فقال مثل قول بزرجمهر * وقال
نوفيل الرومي المنجم في أيام بني أمية أن ملة الاسلام تبقى مدة القران الكبير تسعمائة وستين
سنة فاذا عاد القران الى برج العقرب كما كان في ابتداء الملة وتغير وضع الكواكب عن هيئتها
في قران الملة فحينئذ اما أن يفتقر العمل به أو يجدد من الاحكام ما يوجب خلاف الظن * قال
جراس واتفقوا على أن خراب العالم يكون باستيلاء الماء والنار حتى تهلك سائر المكونات وذلك
عند ما يقطع قاب الاسد أربعاً وعشرين درجة التي هي حد المربخ وذلك بعد مضي تسعمائة
وستين سنة * ذكر جراس أن ملك زابلستان بعث الى المأمون بحكيمه ذوبان أخفجه به في هدية
وأنه تصرف للمأمون في الاختبارات مجروب أخيه وبعقد الاواء لطاهر وأن المأمون أعظم
حكمته فسأله عن مدة ملكهم فاخبره بانتطاع الملك من عقبه واتصاله في ولد أخيه وان العجم
يتغلبون على الخلافة من الديلم في دولة سنة خمسين ويكون ما يريد الله ثم يسوء حالهم ثم تظهر
الترك من شمال المشرق فيملكونه الى الشام والفرات وسيحون وسيملكون بلاد الروم ويكون
ما يريد الله فقال له المأمون من أين لك هذا فقال من كتب الحكماء ومن أحكام صصه بن
داهر الهندي الذي وضع الشطرنج (قلت) والترك الذين أشار الى ظهورهم بعد الديلم هم السلجوقية
وقد انقضت دولتهم أول القرن السابع قال جراس وانتقال القران الى المثلثة المائية من برج
الحوت يكون سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ليزدجرد وبعدها الى برج العقرب حيث كان قران
الملة سنة ثلاث وخمسين قال والذي في الحوت هو أول الانتقال والذي في العقرب يستخرج
منه دلائل الملة قال وتحويل السنة الاولى من القران الاول في المثلثات المائية في ثاني رجب
سنة ثمان وستين وثمانمائة ولم يستوف الكلام على ذلك * وأما مستند المنجمين في دولة على
الخصوص فمن القران الاوسط وهيئة الفلك عند وقوعه لان له دلالة عندهم على حدوث
الدولة وجهاتها من العمران والقائمين بها من الامم وعدد ملوكهم وأسمائهم وأعمارهم ونحاهم

وأديانهم وعوائدهم وحروبهم كما ذكر ابو معشر في كتابه في القراءات وقد توجد هذه الدلالة من القرآن الاصغر اذا كان الاوسط دالا عليه فمن هذا يوجد الكلام في الدول * وقد كان يعقوب بن اسحق الكندي منجم الرشيد والمأمون وضع في القراءات الكائنة في الملة كتابا سماه الشيعة بالجفر باسم كتابهم المنسوب الى جعفر الصادق وذكر فيه فيما يقال حدثان دولة بني العباس وانها نهايته وأشار الى انقراضها والحادثة على بغداد انها تقع في انتصاف المائة السابعة وأن بانقراضها يكون انقراض الملة ولم تقف على شيء من خبر هذا الكتاب ولا رأينا من وقف عليه ولعله غرق في كتبهم التي طرحها هلاكاً ملك التتر في دجلة عند استيلائهم على بغداد وقتل المستعصم آخر الخلفاء وقد وقع بالمغرب جزء منسوب الى هذا الكتاب يسمونه الجفر الصغير والظاهر أنه وضع لبني عبد المؤمن لذكر الاولين من ملوك الموحدين فيه على التفصيل ومطابقة من تقدم عن ذلك من حدثانه وكذب ما بعده وكان في دولة بني العباس من بعد الكندي منجمون وكتب في الحدثان وانظر ما نقله الطبري في أخبار المهدي عن أبي بديل من أصحاب صنائع الدولة قال بعث الى الربيع والحسن في غزائهما مع الرشيد أيام أبيه فجنّهما جوف الليل فاذا عندهما كتاب من كتب الدولة يعني الحدثان واذا مدة المهدي فيه عشر سنين فقلت هذا الكتاب لا يخفى على المهدي وقد مضى من دولته ماضى فاذا وقف عليه كنتم قد نعيم اليه نفسه قالاً فما الحيلة فاستدعيت غنسة الوراق مولى آل بديل وقلت له انسخ هذه الورقة واكتب مكان عشر أربعين ففعل فوالله لو لاني رأيت العشرة في تلك الورقة والاربعين في هذه ما كنت أشك أنها هي ثم كتب الناس من بعد ذلك في حدثان الدول منظوماً ومنشوراً ورجزاً ما شاء الله أن يكتبوه وبايدي الناس متفرقة كثير منها وتسمى الملاحم وبعضها في حدثان الملة على العموم وبعضها في دولة على الخصوص وكلها منسوبة الى مشاهير من أهل الخليفة وليس منها أصل يعتمد على روايته عن واضعه المنسوب اليه فمن هذه الملاحم بالمغرب قصيدة ابن مرانة من بحر الطويل على روي الرأى وهي متداولة بين الناس ومحسب العامة انها من الحدثان العام فيطلقون الكثير منها على الحاضر والمستقبل والذي سمعناه من شيوخنا انها مخصوصة بدولة لمتونة لان الرجل كان قبيل دولتهم وذكر فيها استيلائهم على سبتة من يد موالى بني حود ومالكهم لعدوة الاندلس ومن الملاحم بيد أهل المغرب أيضاً قصيدة تسمى التبعية أوها طربت وما ذاك منى طرب * وقد يطرب الطائر المغتضب

وما ذاك منى للهو أراه * ولكن لتذكّر بعض السبب

قريباً من خمسمائة بيت أو ألف فيما يقال ذكر فيها كثيراً من دولة الموحدين وأشار فيها الى الفاطمي وغيره والظاهر أنها مصنوعة ومن الملاحم بالمغرب أيضاً ملحبة من الشعر الزجلي منسوبة

لبعض اليهود ذكر فيها أحكام القرانات لعصره الملوين والتحسين وغيرها وذكر ميتته قتيلا بفاس وكان كذلك فيما زعموه وأوله

في صبغ ذا الازرق لشرفه خيارا * فافهموا يا قوم هذي الاشارا
نجم زحل أخبر بذى العلاما * وبدل الشكلا وهي سلاما
شاشية زرقا بدل العماما * وشلس أزرق بدل الغرارا

يقول في آخره

قد تم ذا التجنيس لانسان يهودي * يصلب ببلدة فاس في يوم عيد
حتى يحيه الناس من البوادي * وقتله يا قوم على الفراد
وأبياته نحو الحسماءة وهي في القرانات التي دلت على دولة الموحدين * ومن ملاحم المغرب أيضا
قصيدة من عروض المتقارب على روي الباء في حدثان دولة بني أبي حفص بتونس من الموحدين
منسوبة لابن الابار وقال لى قاضي قسنطينة الخطيب الكبير أبو على بن باديس وكان بصيرا
بما يقوله وله قدم في التمجيم فقال لى ان هذا ابن الابار ليس هو الحافظ الاندلسى الكاتب مقتول
المستنصر وانما هو رجل خياط من أهل تونس تواطأت شهرته مع شهرة الحافظ وكان
والذي رحمه الله تعالى ينشد هذه الابيات من هذه الملحمة وبقي بعضها في حفظي مطلعها

عذيري من زمن قلب * يغرب ببارقه الاشنب

ويبعث من جيشه قائدا * ويبقى هناك على مر قب

فتأتي الى الشيخ أخباره * فيقبل كالجمل الاجرب

ويظهر من عدله سيرة * وتلك سياسة مستجب

ومنها في ذكر أحوال تونس على العموم

(١) فاما رأيت الرسوم انمحت * ولم يرع حق لذي منصب

نخذ في الترحل عن تونس * وودع معالمها واذهب

فسوف تكون بها فتنة * تضيف البري الى المذنب

ووقفت بالمغرب على ملحمة أخرى في دولة بني أبي حفص هؤلاء بتونس فيها بعد السلطان
أبي يحيى الشهر عاشر ملوكهم ذكر محمد أخيه من بعده يقول فيها

وبعد أبي عبد الاله شقيقه * ويعرف بالوثاب في نسخة الاصل

(١) قوله فاما رأيت أصله فان رأيت زيدت ما وأدغمت في أن الشرطية المحذوفة نونها خطأ وفي

نسخة فلما رأيت والاولى هي الموجودة في النسخة التونسية قاله نصر اه

الا أن هذا الرجل لم يدسكها بعد أخيه وكان يعني بذلك نفسه الى أن هلك * ومن الملاحم في المغرب أيضاً الملعبة المنسوبة الى الهوشني على لغة العامة في عروض البلد التي أولها
دعني بدمعي الهتان * فترت الامطار ولم تقتر
واستقت كلها الويدان * واني تملى وتنغدر
البلاد كلها تروى * فاولي ما ميل ما تدري
ما بين الصيف والشتوي * والعام والربيع تجري
قال حين صحت الدعوي * دعني نبكي ومن عذر
أنادي من ذي الازمان * ذا القرن اشد وتمري

وهي طويلة ومحفوظة بين عامة المغرب الاقصي والغالب عليها الوضع لانه لم يصح منها قول الا على تأويل تحرفه العامة أو الحارث فيه من يتحملها من الخاصة * ووقفت بالمشرق على ملحمة منسوبة لابن العربي الحاتمي في كلام طويل شبه ألغاز لا يعلم تأويله الا الله لتخلله أوقاف عديدة ورموز ملغوزة واشكال حيوانات تامة ورؤس مقطعة وتمثيل من حيوانات غريبة وفي آخرها قصيدة على روي اللام والغالب أنها كلها غير صحيحة لانها لم تنشأ عن أصل عامي من نجامة ولا غيرها وسمعت أيضاً أن هناك ملاحم أخرى منسوبة لابن سينا وابن عقب وليس في شيء منها دليل على الصحة لان ذلك انما يؤخذ من القرانات * ووقفت بالمشرق أيضاً على ملحمة من حدثان دولة الترك منسوبة الى رجل من الصوفية يسمى الباجريقي وكلها ألغاز بالحروف أولها

ان شئت تكشف سر الجفر ياسائلي * من علم جفر وصي والد الحسن
فافهم وكن واعيا حرفا وجملة * والوصف فافهم كفعل الحاذق الفطن
أما الذي قبل عصرى لست أذكره * لكنني أذكر الآتي من الزمن
بشهر بيبرس يتي بعد خمستها * وحاء ميم بطيش نام في الككن
شين له أثر من تحت سرته * له القضاء قضى أى ذلك المتن
فصر والشام مع أرض العراق له * وأذربيجان في ملك الى اليمن
ومنها وآل بوران لما نال طاهرهم * الفاتك الباتك المعني بالسمن
خلع سين ضعيف السن سين آتي * لالوفاق ونون ذى قرن
قرم شجاع له عقل ومشورة * يتي بحاء وأين بعد دوسمن
ومنها من بعد باء من الاعوام قتله * يلى المشورة ميم الملك ذواللسن
ومنها هذا هو الاعرج الكلبي فاعن به * في عصره فتن ناهيك من فتن

يأتي من الشرق في جيش يقدمهم * عار عن القاف قاف جد بالفتن
 بقتل دال ومثل الشام أجمعها * أبدت بشجو على الاهلين والوطن
 اذا أتى زلزلت يابوح مصر من الزلزال مازال حاء غير مقتطن
 طاء وظاء وعين كلهم حبسوا * هلكا وينفق أموالا بلا ثمن
 يسير القاف قافا عند جمعهم * هون به أن ذاك الحصن في سكن
 وينصبون أخاه وهو صالحهم * لاسلم الالف سين لذلك بني
 تمت ولايتهم بالحاء لا أحد * من السنين يداني الملك في الزمن
 ويقال أنه أشار الى الملك الظاهر وقدم أبيه عليه بمصر

يأتي اليه أبوه بعد هجرته * وطول غيبته والشظف والزرن
 وأبياتها كثيرة والغالب أنها موضوعة ومثل صنعها كان في القديم كثيراً ومعروف الانتحال
 ﴿حكي﴾ المؤرخون لأخبار بغداد أنه كان بها أيام المقتدر وراق ذكر يعرف بالدانيالي بيل
 الاوراق ويكتب فيها بخط عتيق يرمز فيه بحروف من أسماء أهل الدولة ويشير بها الى ما يعرف
 ميلهم اليه من أحوال الرفعة والجاه كأنها ملاحم ويحصل على ما يريد منهم من الدنيا وأنه
 وضع في بعض دفاتره ميا مكررة ثلاث مرات وجاء به الى مفلح مولي المقتدر فقال له هذا
 كناية عنك وهو مفلح مولى المقتدر وذكر عنه ما يرضاه ويناله من الدولة ونصب لذلك
 علامات يموه بها عليه فبذل له ما أغناه به ثم وضعه للوزير ابن القاسم بن وهب على مفلح هذا
 وكان معزولاً فجاءه باوراق مثلها وذكر اسم الوزير بمثل هذه الحروف وبعلامات ذكرها
 وأنه يلى الوزارة للثاني عشر من الخلفاء وتستقيم الامور على يديه ويقهر الاعداء وتعمر الدنيا
 في أيامه وأوقف مفلحاً هذا على الاوراق وذكر فيها كوائن أخرى وملاحم من هذا النوع
 مما وقع ومما لم يقع ونسب جميعه الى دانيال فاعجب به مفلح ووقف عليه المقتدر واهتدي من
 تلك الامور والعلامات الى ابن وهب وكان ذلك سبباً لوزارته بمثل هذه الحيلة العريضة في
 الكذب والجهل بمثل هذه الاغاز والظاهر أن هذه الملحمة التي ينسبونها الى الباجريقي
 من هذا النوع * ولقد سألت أكل الدين ابن شيخ الحنفية من العجم بالديار المصرية عن هذه
 الملحمة وعن هذا الرجل الذي تسبب اليه من الصوفية وهو الباجريقي وكان عارفاً
 بطرائقهم فقال كان من القلندرية المبتدعة في خلق اللحية وكان يتحدث عما يكون بطريق
 الكشف ويومي الى رجال معينين عنده ويلغز عليهم بحروف يعينها في ضمنها لمن يراه منهم
 وربما يظهر انظم ذلك في أبيات قليلة كان يتعاهدها فتتوكلت عنه وولع الناس بها وجعلوها
 ملحمة مرموزة وزاد فيها الخراصون من ذلك الجنس في كل عصر وشغل العامة بفك رموزها

وهو أمر ممتنع اذا الرمز انما يهدي الى كشفه قانون يعرف قبله ويوضع له وأما مثل هذه الحروف فدلالته على المراد منها مخصوصة بهذا النظم لا يتجاوزها فرأيت من كلام هذا الرجل الفاضل شفاء لما كان في النفس من أمر هذه الملاحمة وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

❦ الفصل الرابع من الكتاب الاول ❦

❦ في البلدان والامصار وسائر العمران وما يعرض في ذلك من الاحوال وفيه سوابق ولواحق ❦

❦ فصل في أن الدول أقدم من المدن والامصار وانما توجد ثانية عن الملك ❦

وبيانه أن البناء واختطاط المنازل انما هو من منازع الحضارة التي يدعو اليها الترف والدعة كما قدمناه وذلك متأخر عن البداوة ومنازعها وأيضاً فالمدن والامصار ذات هياكل وأجرام عظيمة وبناء كبير وهي موضوعة للعموم لا للخصوص فتحتاج الى اجتماع الايدي وكثرة التعاون وليست من الامور الضرورية للناس التي تعم بها البلوى حتى يكون نزوعهم اليها اضطراراً بل لابد من اكرامهم على ذلك وسوقهم اليه مضطهدين بعضا الملك أو مرغين في الثواب والاجر الذي لا يفي بكثرة الاملك والدولة فلا بد في تصير الامصار واختطاط المدن من الدولة والملك ثم اذا بنيت المدينة وكل تشييدها بحسب نظر من شيدها وبما اقتضته الاحوال السماوية والارضية فيها فعمر الدولة حينئذ عمر لها فإن كان عمر الدولة قصيراً وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة وتراجع عمراتها وخربت وان كان أمد الدولة طويلاً ومدتها منفسحة فلا تزال المصانع فيها تشاد والمنازل الرجية تكثر وتعدد ونطاق الاسواق يتباعد وينفسح الى أن تتسع الخطة وتبعد المسافة وينفسح ذرع المساحة كما وقع ببغداد وأمثالها * ذكر الخطيب في تاريخه أن الحمامات بلغ عددها ببغداد العهد المأمون خمسة وستين ألف حمام وكانت مشتملة على مدن وأمصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الاربعين ولم تكن مدينة وحدها يجمعها سور واحد لا فراط العمران وكذا حال القيروان وقرطبة والمهدي في الملة الاسلامية وحال مصر القاهرة بعدها فيما يبلغنا لهذا العهد وأما بعد انقراض الدولة المشيدة للمدينة فاما أن يكون لضواحي تلك المدينة وما قاربها من الجبال والبساتط بادية يمددها العمران دائماً فيكون ذلك حافظاً لوجودها ويستمر عمرها بعد الدولة كما تراه بفاس وبجاية من المغرب وبعراق العجم من المشرق الموجود لها العمران من الجبال لان أهل البداوة اذا انتهت أخوالهم الى غاياتها من الرفه والكسب تدعو الى الدعة والسكون الذي في طبيعة البشر فينزلون المدن والامصار ويتأهلون وأما اذا لم يكن لتلك

المدينة المؤسسة مادة تفيدها العمران بترادف الساكن من بدوها فيكون انقراض الدولة خرقا لسياجها فيزول حفظها ويتناقص عمرانها شيئاً فشيئاً الى أن يبذعر ساكنها وتخرّب كما وقع بمصر وبغداد والكوفة بالمشرق والقيروان والمهدية وقلعة بني حماد بالمغرب وأمثالها فتفهمه وربما ينزل المدينة بعد انقراض مخططيها الاولين ملك آخر ودولة ثانية يتخذها قراراً وكرسياً يستغنى بها عن اختطاط مدينة ينزلها فتحفظ تلك الدولة سياجها وتزايد مبانيها ومصانعها بتزايد أحوال الدولة الثانية وترفعها وتستجد بعمرانها عمراً آخر كما وقع بفاس والقاهرة لهذا العهد والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٢ فصل في أن الملك يدعو الى نزول الامصار

وذلك أن القبائل والعصائب اذا حصل لهم الملك اضطروا للاستيلاء على الامصار لأمرين * أحدهما يدعو اليه الملك من الدعة والراحة وخط الاثقال واستكمال ما كان ناقصاً من أمور العمران في البدو * والثاني دفع ما يتوقع على الملك من أمر المنازعين والمشغبين لان المصر الذي يكون في نواحيهم ربما يكون ملجأ لمن يروم منازعتهم والخروج عليهم وانتزاع ذلك الملك الذي سموا اليه من أيديهم فيعتصم بذلك المصر ويغالهم ومغالبة المصر على نهاية من الصعوبة والمشقة والمصر يقوم مقام العساكر المتعددة لما فيه من الامتناع ونكاية الحرب من وراء الجدران من غير حاجة الى كثير عدد ولا عظيم شوكة لان الشوكة والعصاية اما احتياج اليها في الحرب للثبات لما يقع من بعدكرة القوم بعضهم على بعض عند الجولة وثبات هؤلاء بالجدران فلا يضطرون الى كبير عصاية ولا عدد فيكون حال هذا الحصن ومن يعتصم به من المنازعين مما يفت في عضد الامة التي تروم الاستيلاء ويخضع شوكة استيلائها فاذا كانت بين أجنابهم أمصار انتظموها في استيلائهم للامن من مثل هذا الانحرام وان لم يكن هناك مصر استحدثوه ضرورة لتكميل عمرانهم أولاً وخط ألقاهم وليكون شجافي خلق من يروم العزة والامتناع عليهم من طوائفهم وعصائبهم فحين أن الملك يدعو الى نزول الامصار والاستيلاء عليها والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لارب سواء

٣ (فصل في أن المدن العظيمة والهاياكل المرتفعة انما يشيدها الملك الكثير)

قد قدمنا ذلك في آثار الدولة من المباني وغيرها وأنها تكون على نسبتها وذلك أن تشييد المدن انما يحصل باجتماع الفعلة وكثرتهم وتعاونهم فاذا كانت الدولة عظيمة متسعة الممالك حشر الفعلة من أطوارها وجمعت أيديهم على عملها وربما استعين في ذلك في أكثر الامر بالهندام (٣٥ - ابن خلدون)

الذي يضاعف القوى والقدر في حمل أثقال البناء لعجز القوة البشرية وضعفها عن ذلك كالمنحاح وغيره وربما يتوهم كثير من الناس اذا نظر الى آثار الاقدمين ومصانعهم العظيمة مثل ايوان كسرى واهرام مصر وحنايا المعلقة وشرشال بالمغرب انما كانت بقدرهم متفرقين أو مجتمعين فيتخيل لهم أجساما تناسب ذلك أعظم من هذه بكثير في طولها وقدرها لتناسب بينها وبين القدر التي صدرت تلك المباني عنها ويغفل عن شأن الهندام والمنحاح وما اقتضته في ذلك الصناعة الهندسية وكثير من المتغلبين في البلاد يعاين في شأن البناء واستعمال الحيل في نقل الاجرام عند أهل الدولة المعتمدين بذلك من العجم ما يشهد له بما قلناه عياناً وأكثر آثار الاقدمين لهذا العهد تسميها العامة عادية نسبة الى قوم عادلتوهمهم أن مباني عاد ومصانعهم انما عظمت لعظم أجسامهم وتضاعف أقدارهم وليس كذلك فقد نجد آثاراً كثيرة من آثار الذين نعرف مقادير أجسامهم من الامم وهي في مثل ذلك العظم أو أعظم كايوان كسرى ومباني العبيديين من الشيعة بافريقية والصنهاجيين وأثرهم باد الى اليوم في صومعة قلعة بني حماد وكذلك بناء الاغلبة في جامع القيروان وبناء الموحدون في رباط الفتح ورباط السلطان أبي سعيد لعهد أربعين سنة في المنصورة بازاء تلمسان وكذلك الحنايا التي جلب اليها أهل قرطاجنة الماء في القناة الراكبة عليها ماثلة أيضاً لهذا العهد وغير ذلك من المباني والهيكل التي نقلت اليها أخبار أهلها قريباً وبعيداً وتيقنا أنهم لم يكونوا بافراط في مقادير أجسامهم وانما هذا رأى ولع به القصاص عن قوم عاد وثمود والعمالقة ونجد بيوت ثمود في الحجر منحوتة الى هذا العهد وقد ثبت في الحديث الصحيح أنها بيوتهم يمر بها الركب الحجازي أكثر السنين ويشاهدونها لا تزيد في جوها ومساحتها وسمكها على المتعاهد وانهم ليلالغون فيما يعتقدون من ذلك حتى أنهم ليزعمون أن عوج بن عناق من حيل العمالقة كان يتناول السمك من البحر طريا فيشويه في الشمس يزعمون بذلك أن الشمس حارة فيما قرب منها ولا يعلمون أن الحر فيما لدينا هو الضوء لانعكاس الشعاع بمقابلة سطح الارض والهواء وأما الشمس في نفسها فقير حارة ولا باردة وانما هي كوكب مضيء لا مزاج له وقد تقدم شيء من هذا في الفصل الثاني حيث ذكرنا أن آثار الدولة على نسبة قوتها في أصلها والله يخلق ما يشاء ويحكم ما يريد

٤ (فصل في أن الهياكل العظيمة جداً لا تستقل ببنائها الدولة الواحدة)

والسبب في ذلك ما ذكرناه من حاجة البناء الى التعاون ومضاعفة القدر البشرية وقد تكون المباني في عظمها أكثر من القدر مفردة أو مضاعفة بالهندام كما قلناه فيحتاج الى معاودة قدر أخرى مثلاً في أزمنة متعاقبة الى أن تتم فيبتدي الأول منهم بالبناء ويعقبه الثاني والثالث

وكل واحد منهم قد استكمل شأنه في حشر الفعلة وجمع الأيدي حتى يتم القصد من ذلك ويكمل ويكون ماثلاً للعيان يظنه من يراه من الآخرين أنه بناء دولة واحدة وانظر في ذلك ما نقله المؤرخون في بناء سد مأرب وأن الذي بناه سبأ بن يشجب وساق إليه سبعين وادياً وعاقه الموت عن إتمامه فأتمه ملوك حمير من بعده ومثل هذا ما نقل في بناء قرطاجنة وقتاتها الرابكة على الحنايا العادية وأكثر المباني العظيمة في الغالب هذا شأنها ويشهد لذلك أن المباني العظيمة لعهدنا نحمد الملك الواحد يشرع في احتطاطها وتأسيسها فإذا لم يتبع أثره من بعده من الملوك في إتمامها بقيت بحالها ولم يكمل القصد فيها ويشهد لذلك أيضاً أننا نجد آثاراً كثيرة من المباني العظيمة تعجز الدول عن هدمها وتخريبها مع أن الهدم أيسر من البناء بكثير لأن الهدم رجوع إلى الأصل الذي هو المدم والبناء على خلاف الأصل فإذا وجدنا بناء تضعف قوتنا البشرية عن هدمه مع سهولة الهدم علمنا أن القدرة التي أسسته مفرطة القوة وأنها ليست أثر دولة واحدة وهذا مثل ما وقع للعرب في إيوان كسرى لما اعترم الرشيد على هدمه وبعث إلى يحيى بن خالد وهو في محبسه يستشيريه في ذلك فقال يأمر المؤمنين لاتفعل وأتركه ماثلاً يستدل به على عظم ملك آبائك الذين سلبوا الملك لاهل ذلك الهيكل فاتهمه في النصيحة وقال أخذته النعرة للعجم والله لأصرعنه وشرع في هدمه وجمع الأيدي عليه وأخذ له الفؤوس وحماه بالنار وصب عليه الحل حتى إذا أدركه العجز بعد ذلك كله وخاف الفضيحة بعث إلى يحيى يستشيريه ثانياً في التجافي عن الهدم فقال يأمر المؤمنين لاتفعل واستمر على ذلك ثلاثاً يقال عجز أمير المؤمنين وملك العرب عن هدم مصنع من مصانع العجم فعرفها الرشيد وأقصر عن هدمه* وكذلك اتفق للمأمون في هدم الأهرام التي بمصر وجمع الفعلة لهدمها فلم يحل بطائل وشرعوا في نقبه فأنهوا إلى جوبين الحائط الظاهر وما بعده من الحيطان وهناك كان منتهي هدمهم وهو إلى اليوم فيما يقال منفذ ظاهر ويزعم الزاعمون أنه وجد ركازاً بين تلك الحيطان والله أعلم وكذلك حنايا المعلقة إلى هذا العهد تحتاج أهل مدينة تونس إلى انتخاب الحجارة لبنائهم وتستجيد الصناع حجارة تلك الحنايا فيحاولون على هدمها الأيام العديدة ولا يسقط الصغير من جدرانها إلا بعد عصب الريق وتجتمع له المحافل المشهورة شهدت منها في أيام صباي كثيراً والله خلقكم وما تعملون

٥ فصل فيما يجب مراعاته في أوضاع المدن وما يحدث إذا غفل عن تلك المراعاة

(اعلم) أن المدن قرار يتخذها الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه فتؤثر الدعة والسكون وتتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار ولما كان ذلك للقرار والمأوى وجب

ان يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها فأما الحماية من المضار فيراعى لها أن يدار على منازلها جميعاً سياج الاسوار وان يكون وضع ذلك في متمنع من الامكنة اما على هضبة متوعدة من الجبل واما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل اليها الا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها ومما يراعى في ذلك للحماية من الآفات السماوية طيب الهواء للسلامة من الامراض فان الهواء اذا كان راكداً خبيثاً أو مجاوراً للمياه الفاسدة أو منافع متعفنة أو مروج خبيثة أسرع اليها العفن من مجاورتها فأسرع المرض للحيوان الكائن فيه لا محالة وهذا مشاهد والمدن التي لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الامراض في الغالب وقد اشتهر بذلك في قطر المغرب بلد قابس من بلاد الجريد بأفريقية فلا يكاد ساكنها أو طارقها يخلص من حمى العفن بوجه ولقد يقال ان ذلك حادث فيها ولم تكن كذلك من قبل ونقل البكري في سبب حدوثه أنه وقع فيها حفر ظهر فيه اثناء من نحاس محتوم بالرصاص فلما فض ختامه صعد منه دخان الى الجو وانقطع وكان ذلك مبدءاً أمراض الحميات فيه وأراد بذلك ان الاناء كان مشتملاً على بعض أعمال الطلسمات لوبائه وأنه ذهب سره بذهابه فرجع اليها العفن والوباء وهذه الحكاية من مذاهب العامة ومباحثهم الركيكة والبكرى لم يكن من نباهة العلم واستنارة البصيرة بحيث يدفع مثل هذا أويتين خرفه فقله كما سمعه والذي يكشف لك الحق في ذلك أن هذه الأهوية العفنة أكثر ما يهبطها لتعفن الاجسام وأمراض الحميات ركودها فاذا تخللتها الريح وتفتشت وذهبت بها يمينا وشمالا خف شأن العفن والمرض البادي منها للحيوانات والبلد اذا كان كثير الساكن وكثرت حركات أهله فيتموج الهواء ضرورة وتحدث الريح المتخللة للهواء الراكد ويكون ذلك معيناً له على الحركة والتوج واذا خف الساكن لم يجد الهواء معيناً على حركته وتوجهه وبقي ساكناً راكداً وعظم غفنه وكثر ضرره وبلد قابس هذه كانت عند ما كانت أفريقية مستجدة العمران كثيرة الساكن تموج بأهلها موجاً فكان ذلك معيناً على تموج الهواء واضطرابه وتخفيف الاذى منه فلم يكن فيها كثير عفن ولا مرض وعند ما خف ساكنها ركدها وأهوا المتعفن بفساد مياها فكثر العفن والمرض فهذا وجه لا غير وقد رأينا عكس ذلك في بلاد وضعت ولم يراع فيها طيب الهواء وكانت أولاً قليلة الساكن فكانت أمراضها كثيرة فلما كثر ساكنها انتقل حالها عن ذلك وهذا مثل دار الملك بفاس لهذا العهد المسمى بالبلد الجديد وكثير من ذلك في العالم فتفهمه تجد ما قلته لك* وأما جلب المنافع والمرافق للبلد فيراعى فيه أمور منها الماء بأن يكون البلد على نهر أو بازائها عيون عذبة ثرة فان وجود الماء قريباً من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء وهي ضرورية فيكون لهم في وجوده مرفقة عظيمة عامة* ومما يراعى من المرافق

في المدن طيب المراعي لسائمهم اذ صاحب كل قرار لا بد له من دواجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب ولا بد لهم من المرعي فاذا كان قريباً طيباً كان ذلك أرفق بمجالهم لما يعانون من المشقة في بعده * ومما يراعي أيضاً المزارع فان الزروع هي الاقوات فاذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك أسهل في اتخاذه وأقرب في تحصيله ومن ذلك الشجر للحطب والبناء فان الحطب مما تعم البلوي في اتخاذه لوقود النيران للاصطلاء والطبخ والحطب ايضاً ضروري لسقفهم وكثير مما يستعمل فيه الحطب من ضرورياتهم وقد يراعي ايضاً قربها من البحر لتسهيل الحاجات القاصية من البلاد النائية الآن ذلك ليس بمثابة الاول وهذه كلها متفاوتة بتفاوت الحاجات وما تدعو اليه ضرورة الساكن وقد يكون الواضع غافلاً عن حسن الاختيار الطبيعي او انما يراعي ما هو أهم على نفسه وقومه ولا يذكر حاجة غيرهم كما فعله العرب لاول الاسلام في المدن التي اختطوها بالعراق وافريقية فانهم لم يراعوا فيها الا الأهم عندهم من مراعى الابل وما يصلح لها من الشجر والماء الملح ولم يراعوا الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا مراعى السائمة من ذوات الظلف ولا غير ذلك كالقيروان والكوفة والبصرة وامثالها ولهذا كانت اقرب الى الحراب لما لم تراعى فيها الأمور الطبيعية (فصل) ومما يراعي في البلاد الساحلية التي على البحر أن تكون في جبل أو تكون بين أمة من الأمم موفرة العدد تكون صريحاً للمدينة متى طرقتها طارق من العدو والسبب في ذلك أن المدينة اذا كانت حاضرة البحر ولم يكن بساحتها عمران للقبائل أهل العصبية ولا موضعها متوعر من الجبل كانت في غرة للبيات وسهل طروقها في الاساطيل البحرية على عدوها وتحيفه لها لما يأمّن من وجود الصريح لها وان الحضرمي المتعودين للدعة قد صاروا عيالا وخرجوا عن حكم المقاتلة وهذه كالاكسندرية من المشرق وطرابلس من المغرب وبونة وسلا ومتى كانت القبائل والعصائب متوطنين بقربها بحيث يبلغهم الصريح والنفير وكانت متوعدة المسالك على من يرومها باختطاطها في هضاب الجبال وعلى أنسنتها كان لها بذلك منعة من العدو ويأسوا من طروقها لما يكابدونه من وعرها وما يتوقعونه من اجابة صريحها كما في سبتة وبجاية وبلد القل على صغرها فافهم ذلك واعتبره في اختصاص الاسكندرية باسم الثغر من لدن الدولة العباسية مع أن الدعوة من ورائها ببرقة وافريقية وانما اعتبر في ذلك الخفاة المتوقعة فيها من البحر لسهولة وضعها ولذلك والله أعلم كان طروق العدو للاكسندرية وطرابلس في الملة مرات متعددة والله تعالى أعلم

يضاعف فيها الثواب وتمنوها الاجور وأخبرنا بذلك على السن رسله وأنبيائه لطفاً بعباده
وتسهيلاً لطرق السعادة لهم * وكانت المساجد الثلاثة هي أفضل بقاع الارض حسباً في الصحيحين
وهي مكة والمدينة وبيت المقدس * أما البيت الحرام الذي بمكة فهو بيت ابراهيم صلوات الله وسلامه
عليه أمره الله ببنائه وأن يؤذن في الناس بالحج اليه فبناه هو وابنه اسمعيل كما نضه القرآن وقام
بما أمره الله فيه وسكن اسمعيل به مع هاجر ومن نزل معهم من جرهم الى أن قبضهما الله
ودفنا بالبحر منه * وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما السلام أمرهما الله ببناء مسجده
ونصب هياكله ودفن كثير من الانبياء من ولد اسحق عليه السلام حواله * والمدينة مهاجر
نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه أمره الله تعالى بالهجرة اليها واقامة دين الاسلام بها فبنى
مسجده الحرام بها وكان ملجده الشريف في تربتها فهذه المساجد الثلاثة قرة عين المسلمين ومهوي
أفئدتهم وعظمة دينهم وفي الآثار من فضاهم ومضاعفة الثواب في مجاورتها والصلاة فيها كثير معروف
فلنشر الى شئ من الخبر عن أولية هذه المساجد الثلاثة وكيف تدرجت أحوالها الى أن كل
ظهورها في العالم * (فأما مكة) * فأوليتها فيما يقال ان آدم صلوات الله عليه بناها قبالة البيت
المعمور ثم هدمها الطوفان بعد ذلك وليس فيه خبر صحيح يعول عليه وإنما اقتبسوه من محل
الآية في قوله واذيرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ثم بعث الله ابراهيم وكان من
شأنه وشأن زوجته سارة وغيرتها من هاجر ماهو معروف وأوحى الله اليه أن يترك ابنه
اسمعيل وأمه هاجر بالفلاة فوضعهما في مكان البيت وسار عنهما وكيف جعل الله لهما من
اللطيف في نبع ماء زمزم ومرور الرفقة من جرهم بهما حتى احتملوهما وسكنوا اليهما ونزلوا
معهما حوالى زمزم كما عرف في موضعه فالتخذ اسمعيل بموضع الكعبة بيتاً يأوي اليه وأدار
عليه سياجا من الردم وجعله زربالغنمه وجاء ابراهيم صلوات الله عليه مراراً لزيارته من الشام
أمر في آخرها ببناء الكعبة مكان ذلك الزرب فبناه واستعان فيه بابنه اسمعيل ودعا الناس الى
حججه وبقي اسمعيل ساكناً به ولما قبضت أمه هاجر وقام بنوه من بعده بأمر البيت مع
أخوانهم من جرهم ثم العماليق من بعدهم واستمر الحال على ذلك والناس يهرعون اليها من
كل أفق من جميع أهل الخليفة لآمن بني اسمعيل ولا من غيرهم ممن دنا أو نأى فقد نقل
أن التبابعة كانت تحج البيت وتعظمه وأن تبعاً كساها الملاء والوصائل وأمر بتطهيرها وجعل
لها مفتاحاً * ونقل أيضاً أن الفرس كانت تحججه وتقرب اليه وان غزى الى الذهب اللذين وجدها
عبد المطلب حين احتقر زمزم كانا من قراينهم ولم يزل لجرهم الولاية عليه من بعد ولد اسمعيل
من قبل خوئلتهم حتي اذا خرجت خزاعة وأقاموا بها بعدهم ماشاء الله ثم كثر ولد اسمعيل
وانشروا وتشعبوا الى كنانة ثم كنانة الى قريش وغيرهم وساءت ولاية خزاعة فغلبتهم قريش

على أمره وأخرجوهم من البيت وملكوا عليهم يومئذ قصي بن كلاب فبنى البيت وسقفه
بخشب الدوم وجريد النخل وقال الاعشى

حلفت بثوبي راهب الدير والقي * بناها قصي والمضاض بن جرهم

ثم أصاب البيت سيل ويقال حريق وتهدم وأعادوا بناءه وجمعوا النفقة لذلك من أموالهم
وانكسرت سفينة بساحل جدة فاشتروا خشبها للسقف وكانت جدرانها فوق القامة فجعلوها
ثمانية عشر ذراعاً وكان الباب لاصقاً بالأرض فجعلوه فوق القامة لثلاث تدخلة السيول وقصرت
بهم النفقة عن إتمامه فقصروا عن قواعده وتركوا منه ستة أذرع وشبرا أداروها بمجدار قصير
يطاف من ورائه وهو الحجر وبقي البيت على هذا البناء إلى أن تحصن ابن الزبير بمكة حين
دعا لنفسه وزحفت إليه جيوش يزيد بن معاوية مع الحصين بن نمير السكوني ورمى البيت سنة
أربع وستين فاصابه حريق يقال من النفط الذي رموا به على ابن الزبير فاعاد بناءه أحسن
ما كان بعد أن اختلفت عليه الصحابة في بناءه واحتج عليهم بقول رسول الله صلى الله عليه
وسلم لعائشة رضي الله عنها لولا قومك حديثو عهد بكفر لرددت البيت على قواعده إبراهيم
ولجعلت له بابين شرقياً وغربياً فهدمه وكشف عن أساس إبراهيم عليه السلام وجمع الوجوه
والأكابر حتى عاينوه وأشار عليه ابن عباس بالتجري في حفظ القبلة على الناس فآدار على
الأساس الحشب ونصب من فوقها الاستار حفظاً للقبلة وبعث إلى صنعاء في الفضة والكلس
فحملهما وسأل عن مقطع الحجارة الأولى فجمع منها ما احتاج إليه ثم شرع في البناء على
أساس إبراهيم عليه السلام ورفع جدرانها سبعة وعشرين ذراعاً وجعل لها بابين لاصقين
بالأرض كما روى في حديثه وجعل فرشها وأزرها بالرخام وصاغ لها المفاتيح وصفائح الأبواب
من الذهب * ثم جاء الحجاج لحصاره أيام عبد الملك ورمى على المسجد بالمنجنقات إلى أن
تصدعت حيطانها ثم لما ظفر بابن الزبير شاور عبد الملك فيما بناء وزاده في البيت فأمره بهدمه
ورد البيت على قواعده قريش كما هي اليوم ويقال أنه ندم على ذلك حين علم صحة رواية ابن الزبير لحديث
عائشة وقال وددت أني كنت حملت أبا خبيب في أمر البيت وبناءه ما تحمل فهدم الحجاج منها
ستة أذرع وشبرا مكان الحجر وبنها على أساس قريش وسد الباب الغربي وما تحت عتبة بابها
اليوم من الباب الشرقي وترك سائر ما لم يغير منه شيئاً فكل البناء الذي فيه اليوم بناء ابن الزبير
وبناء الحجاج في الحائط صلة ظاهرة للعيان لجهة ظاهرة بين البناءين والبناء متميز عن البناء
بمقدار أصبع شبه الصدع وقد لحم * ويعرض هنا إشكال قوي لمنافاته لما يقوله الفقهاء في أمر
الطواف ويحذر الطائف أن يميل على الشاذروان الدائر على أساس الجدر من أسفلها فيقع
طوافه داخل البيت بناء على أن الجدر إنما قامت على بعض الأساس وترك بعضه وهو مكان

الشاذروان وكذا قالوا في تقبيل الحجر الاسود لا بد من رجوع الطائف من التقبيل حتى يستوي قائماً ثلاثاً يقع بعض طوافه داخل البيت واذا كانت الجدران كلها من بناء ابن الزبير وهو انما بني على أساس ابراهيم فكيف يقع هذا الذي قالوه ولا مخلص من هذا الا بأحد أمرين اما ان يكون الحجاج هدم جميعه وأعادوه وقد نقل ذلك جماعة الا أن العيان في شواهد البناء بالتحام ما بين البناءين وتميز أحد الشقين من أعلاه عن الآخر في الصناعة يرد ذلك واما أن يكون ابن الزبير لم يرد البيت على أساس ابراهيم من جميع جهاته وانما فعل ذلك في الحجر فقط ليدخله في الآن مع كونها من بناء ابن الزبير ليست على قواعد ابراهيم وهذا بعيد ولا يحصى من هذين والله تعالى أعلم * ثم ان مساحة البيت وهو المسجد كان فضاء للطائفين ولم يكن عليه جدر أيام النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر من بعده ثم كثر الناس فاشتري عمر رضي الله عنه دوراً هدمها وزادها في المسجد وأدار عليها جداراً دون اللقمة وفعل مثل ذلك عثمان ثم ابن الزبير ثم الوليد بن عبد الملك وبناه بعبد الرخام ثم زاد فيه المنصور وابنه المهدي من بعده ووقفت الزيادة واستقرت على ذلك لعهدنا * وتشريف الله لهذا البيت وعنايته به أكثر من أن يحاط به وكفى من ذلك أن جعله مهبطاً للوحي والملائكة ومكاناً للعبادة وفرض شعائر الحج ومناسكه وأوجب حرمة من سائر نواحيه من حقوق التعظيم والحق ما لم يوجب له غيره فمنع كل من خالف دين الاسلام من دخول ذلك الحرم وأوجب على داخله أن يجرد من الخيط الا ازارا يستتره وحمى العائذ به والرائع في مسارحه من مواقع الآفات فلا يرام فيه خائف ولا يصاد له وحش ولا يحتطب له شجر * وحد الحرم الذي يختص بهذه الحرمة من طريق المدينة ثلاثة أميال الى التنعيم ومن طريق العراق سبعة أميال الى الثنية من جبل المنقطع ومن طريق الطائف سبعة أميال الى بطن نمرة ومن طريق جده سبعة أميال الى منقطع العشار هذا شأن مكة وخبرها وتسمي أم القرى وتسمي الكعبة لعلوها من اسم الكعب ويقال لها أيضاً بكة قال الاصمعي لان الناس يبك بعضهم بعضاً أي يدفع وقال مجاهد باء بكة أبدلوها مما كما قالوا لازب ولازم لقرب المحرجين وقال النخعي بالباء البيت وبالميم البلد وقال الزهري بالباء للمسجد كله وبالميم للحرم وقد كانت الامم منذ عهد الجاهلية تعظمه والملوك تبعث اليه بالاموال والذخائر كسري وغيره وقصة الاسيف وغزاه الى الذهب اللذين وجدتهما عبد المطلب حين احتفر زمزم معروفة وقد وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين افتتح مكة في الحب الذي كان فيها سبعين ألف أوقية من الذهب مما كان الملوك يهدون للبيت فيها ألف ألف دينار مكررة مرتين بمائتي قطار وزنا وقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه يا رسول الله لو استغنت بهذا المال على حر بك فلم يفعل ثم ذكر لابي بكر فلم يحركه هكذا قال الازرق * وفي البخاري بسنده

الى أبي وائل قال جلست الى شيبه بن عثمان وقال جلس الي عمر بن الخطاب فقال هممت
أن لأدع فيها صفراء ولا بيضاء الا قسمتها بين المسلمين قلت مانت بفعل قال ولم قلت فلم
يفعله صاحبك فقال هما اللذان يقتدى بهما وخرجه أبوداود وابن ماجه وأقام ذلك المال الى
أن كانت قننة الافطس وهو الحسن بن الحسين بن علي بن علي زين العابدين سنة تسع وتسعين
ومائة حين غلب على مكة عمد الى الكعبة فأخذ ما في خزائنها وقال ما تصنع الكعبة بهذا المال
موضوعا فيها لا ينفع به نحن أحق به نستعين به على حربنا وأخرجه وتصرف فيه وبطلت الذخيرة
من الكعبة من يومئذ (وأما بيت المقدس) وهو المسجد الأقصى فكان أول أمره أيام الصائفة
موضع الزهرة وكانوا يقربون اليه الزيت فيما يقربونه يصبونه على الصخرة التي هناك ثم دثر
ذلك الهيكل واتخذها بنو اسرائيل حين ملكوها قبلة لصلاتهم وذلك أن موسى صلوات الله عليه
لما خرج ببني اسرائيل من مصر لتخليصهم بيت المقدس كما وعد الله أباهم اسرائيل وأباه
اسحق من قبله وأقاموا بارض التيه أمره الله بالخذ قبة من خشب السنت عى بالوحي مقدارها
وصفتها وهياكلها وتمائيلها وأن يكون فيها التابوت ومائدة بصحافها ومنارة بقناديلها وأن يصنع
مذبحا للقربان وصف ذلك كله في التوراة أكمل وصف فصنع القبة ووضع فيها تابوت العهد
وهو التابوت الذي فيه الألواح المنصوعة عوضا عن الألواح المنزلة بالكلمات العشر لما تكسرت
ووضع المذبح عندها وعهد الله الى موسى بأن يكون هرون صاحب القربان ونصبوا تلك
القبة بين خيامهم في التيه يصلون اليها ويتقربون في المذبح أمامها ويتعرضون للوحي عندها
ولما ملكوا الشام وبقيت تلك القبة قبلتهم ووضعوها على الصخرة بيت المقدس وأراد داود
عليه السلام بناء مسجده على الصخرة مكانها فلم يتم له ذلك وعهد به الى ابنه سليمان فبناه
لأربع سنين من ملكه ولحمائة سنة من وفاة موسى عليه السلام واتخذ عمده من الصفر
وجعل به صرح الزجاج وغشى أبوابه وحيطانه بالذهب وصاغ هياكله وتمائيله وأوعيته
ومنارته ومقتاحه من الذهب وجعل في ظهره قبرا ليضع فيه تابوت العهد وهو التابوت
الذي فيه الألواح وجاء به من صهيون بلد أبيه داود لحمله الأسباز والسكرونية حتى
وضعه في القبر ووضعت القبة والأوعية والمذبح كل واحد حيث أعدله من المسجد وأقام
كذلك ماشاء الله ثم خربه بختصر بعد ثمانمائة سنة من بنائه وأحرق التوراة والعصا
وصاغ الهياكل وشر الأحتجار ثم لما أعادهم ملوك الفرس بناء عزيز نبي بني اسرائيل لعده
باعانة بهم من ملك الفرس الذي كانت الولادة لبني اسرائيل عليه من سبي بختصر وحدهم
في بنائه حدوداً دون بناء سليمان بن داود عليهما السلام فلم يتجاوزوها ثم تداولتهم ملوك
يونان والفرس والروم واستفحل الملك لبني اسرائيل في هذه المدة ثم لبني خيمان من كهنتهم

ثم لصهرهم هيردوس ولبنيه من بعده وبني هيردوس بيت المقدس على بناء سليمان عليه السلام وتأنق فيه حتى أكمله في ست سنين فلما جاء طيطش من ملوك الروم وغلبهم وملك أمرهم خرب بيت المقدس ومسجدها وأمر أن يزرع مكانه ثم أخذ الروم بدين المسيح عليه السلام ودانوا بتعظيمه ثم اختلف حال ملوك الروم في الأخذ بدين النصارى تارة وتركه أخرى الى أن جاء قسطنطين وتنصرت أمه هيلانة وارتحلت الى القدس في طلب الحشبة التي صلب عليها المسيح بزعمهم فأخبرها القساوسة بأنه رمى بخشبهته على الأرض وألقي عليها القمامات والقاذورات فاستخرجت الحشبة وبنت مكان تلك القمامات كنيسة القمامة كأنها على قبره بزعمهم وخربت ما وجدت من عمارة البيت وأمرت بطرح الزبل والقمامات على الصخرة حتى غطاها وخفي مكانها جزاء بزعمها لما فعلوه بقبر المسيح ثم بنوا بازاء القمامة بيت لحم وهو البيت الذي ولد فيه عيسى عليه السلام وبقي الامر كذلك الى أن جاء الاسلام وحضر عمر لفتح بيت المقدس وسأل عن الصخرة فأرى مكانها وقد علاها الزبل والتراب فكشف عنها وبني عليها مسجداً على طريق البداوة وعظم من شأنه ماأذن الله من تعظيمه وما سبق من أم الكتاب في فضله حسبما ثبت ثم احتفل الوليد بن عبد الملك في تشييد مسجده على سنن مساجد الاسلام بما شاء الله من الاحتفال كما فعل في المسجد الحرام وفي مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة وفي مسجد دمشق وكانت العرب تسميه بلاط الوليد وألزم ملك الروم أن يبعث الفعلة والمال لبناء هذه المساجد وأن ينقوها بالفسيفساء فأطاع لذلك وتم بناؤها على ما اقترحه ثم لما ضف أمر الخلافة أعوام الحشمة من الهجرة في آخرها وكانت في مائة العبيديين خلفاء القاهرة من الشيعة واحتل أمرهم زحف الفرنجة الى بيت المقدس فملكوه وملكوا معه عامة ثغور الشام وبنوا على الصخرة المقدسة منه كنيسة كانوا يعظمونها ويفتخرون ببنائها حتى اذا استقل صلاح الدين بن أيوب الكردي بملك مصر والشام ومحا أثر العبيديين وبدعهم زحف الى الشام وجاهد من كان به من الفرنجة حتى غلبهم على بيت المقدس وعلى ما كانوا ملكوه من ثغور الشام وذلك لنحو ثمانين وخمسة من الهجرة وهدم تلك الكنيسة وأظهر الصخرة وبني المسجد على النحو الذي هو عليه اليوم لهذا العهد ولا يعرض لك الاشكال المعروف في الحديث الصحيح ان النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن أول بيت وضع فقال مكة قيل ثم أي قال بيت المقدس قيل فكهم بينهما قال أربعون سنة فان المدة بين بناء مكة وبين بناء بيت المقدس بمقدار ما بين ابراهيم وسليمان لان سليمان بانيه وهو ينف على الألف بكثير * واعلم أن المراد بالوضع في الحديث ليس البناء وانما المراد أول بيت عين للعبادة ولا يبعد أن يكون بيت المقدس عين للعبادة قبل بناء

سليمان بمثل هذه المدة* وقد نقل أن الصابئة بنوا على الصخرة هيكل الزهرة فاعل ذلك أنها كانت مكانا للعبادة كما كانت الجاهلية تضع الاصنام والتماثيل حوالى الكعبة وفي جوفها والصابئة الذين بنوا هيكل الزهرة كانوا على عهد ابراهيم عليه السلام فلا تبعد مدة الاربعين سنة بين وضع مكة للعبادة ووضع بيت المقدس وان لم يكن هناك بناء كما هو المعروف وان أول من بنى بيت المقدس سليمان عليه السلام فنفهمه فيه حل هذا الاشكال

(وأما المدينة) وهي المسماة بيثرب فهي من بناء يثرب بن مهلايل من العمالقة وملكها بنو اسرائيل من أيديهم فيما ملكوه من أرض الحجاز ثم جاورهم بنو قيلة من غسان وغلبوهم عليها وعلى حصونها ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة اليها لما سبق من غناية الله بها فهاجر اليها ومعه أبو بكر وتبعه أصحابه ونزل بها وبني مسجده وبيوته في الموضع الذي كان الله قد أعده لذلك وشرفه في سابق أزله وآواه أبناء قيلة ونصروه فلذلك سموا الانصار وتمت كلمة الاسلام من المدينة حتى علت على الكلمات وغلب على قومه وفتح مكة وملكها وظن الانصار أنه يتحول عنهم الى بلده فأهمهم ذلك فخاطبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرهم أنه غير متحول حتى اذا قبض صلى الله عليه وسلم كان ملجده الشريف بها وجاء في فضلها من الاحاديث الصحيحة مالا خفاء به ووقع الخلاف بين العلماء في تفضيلها على مكه توبه قال مالك رحمه الله لما ثبت عنده في ذلك من النص الصريح عن رافع بن خديج أن النبي صلى الله عليه وسلم قال المدينة خير من مكة نقل ذلك عبد الوهاب في المعونة الى احاديث اخرى تدل بظاهرها على ذلك وخالف أبو حنيفة والشافعي * وأصبحت على كل حال ثانية المسجد الحرام وجنح اليها الامم بأفئدتهم من كل أوب فانظر كيف تدرجت الفضيلة في هذه المساجد المعظمة لما سبق من غناية الله لها وتفهم سر الله في الكون وتدرج على ترتيب محكم في أمور الدين والدنيا * وأما غير هذه المساجد الثلاثة فلا نعلمه في الارض الا ما يقال من شأن مسجد آدم عليه السلام بسرنديب من جزائر الهند لكنه لم يثبت فيه شيء يعول عليه وقد كانت للامم في القديم مساجد يعظمونها على جهة الديانة بزعمهم منها بيوت النار للفرس وهياكل يونان وبيوت العرب بالحجاز التي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بهدمها في غزواته وقد ذكر المسعودي منها بيوتا لسنا من ذكرها في شيء اذ هي غير مشروعة ولا هي على طريق ديني ولا يلتفت اليها ولا الى الخبر عنها ويكفي في ذلك ما وقع في التواريخ فمن أراد معرفة الاخبار فعليه بها والله يهدي من يشاء سبجانه

عمرانها كله بدويا ولم تستمر فيهم الحضارة حتى تستكمل أحوالها والدول التي ملكتهم من الافرنجة والعرب لم يطل أمد ملكهم فيهم حتى ترسخ الحضارة منها فلم تزل عوائد البدواة وشؤونها فكانوا اليها أقرب فلم تكثر مبانيهم وأيضاً فالصنائع بعيدة عن البربر لانهم أعرق في البدو والصنائع من توابع الحضارة وانما تم المباني بها فلا بد من الحذق في تعلمها فلما لم يكن للبربر اتحالها لم يكن لهم تشوف الى المباني فضلا عن المدن وايضافهم أهل عصيات وأنساب لا يخلو عن ذلك جمع منهم والانساب والعصية أجنح الى البدو وانما يدعو الى المدن الدعة والسكون ويصير ساكنها عيالا على حاميتها فتجد أهل البدو لذلك يستكفون عن سكنى المدينة أو الاقامة بها ولا يدعو الى ذلك الا الترف والغنى وقيل ماهو في الناس فلذلك كان عمران أفريقية والمغرب كله أو اكثره بدويا أهل خيام وظواعن وقباطن وكنن في الجبال وكان عمران بلاد العجم كله أو اكثره قرى وأمصار أو رساتيق من بلاد الاندلس والشام ومصر وعراق العجم وأمثالها لان العجم في الغالب ليسوا بأهل أنساب يحافظون عليها ويتناغون في صراحتها والتحامها الا في الاقل واكثر مايكون سكنى البدو لاهل الانساب لان لحة النسب أقرب وأشد فتكون عصيته كذلك وتزع بصاحبها الى سكنى البدو والتجافي عن المصر الذي يذهب بالبسالة ويصيره عيالا على غيره فافهمه وقس عليه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٨ فصل في أن المباني والمصانع في الملة الاسلامية قليلة بالنسبة

الى قدرتها والى من كان قبلها من الدول

والسبب في ذلك ما ذكرنا مثله في البربر بعينه اذ العرب أيضاً أعرق في البدو وأبعد عن الصنائع وأيضاً فكانوا أجانب من الممالك التي استولوا عليها قبل الاسلام ولما تملكوها لم ينفصح الامد حتى تستوفى رسوم الحضارة مع أنهم استغنوا بما وجدوا من مباني غيرهم وأيضاً فكان الدين أول الامر مانعا من المغالاة في البنيان والاسراف فيه في غير القصد كما عهد لهم عمر حين استأذنه في بناء الكوفة بالحجارة وقد وقع الحريق في القصب الذي كانوا بنوا به من قبل فقال افعلوا ولا يزيدن أحد على ثلاثة أبيات ولا تطاولوا في البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة وعهد الى الوفد وتقدم الى الناس أن لا يرفعوا بنيانا فوق القدر قالوا وما القدر قال ما لا يقربكم من السرف ولا يخرجكم عن القصد فلما بعد العهد بالدين والتخرج في أمثال هذه المقاصد وغلبت طبيعة الملك والترف واستخدم العرب أمة الفرس وأخذوا عنهم الصنائع والمباني ودعهم اليها أحوال الدعة والترف فحينئذ شيدوا المباني والمصانع وكان عهد ذلك قريباً بانقراض الدولة ولم ينفصح الأمد لكثرة البناء واختطاط المدن والامصار الا قليلا وليس كذلك غيرهم

من الأمم فالفرس طالت مدتهم آلافاً من السنين وكذلك القبط والنبط والروم وكذلك العرب الأولى من عاد وثمود والعمالة والتبابعة طالت آمادهم ورسخت الصنائع فيهم فكانت مبانيهم وهياكلهم كثر عدداً وأبقى على الأيام أثراً واستبصر في هذا تجده كما قلت لك والله واثق الأرض ومن عليها

٩ فصل في أن المباني التي كانت تحتطها العرب يسرع إليها الخراب إلا في الأقل

والسبب في ذلك شأن البداوة والبعد عن الصنائع كما قدمناه فلا تكون المباني وثيقة في تشييدها وله والله أعلم وجه آخر وهو أن مس به وذلك قلة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن كما قلناه في المكان وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعي فإنه بالتفاوت في هذه تتفاوت جودة المصر وردائه من حيث العمران الطبيعي والعرب بمنزل عن هذا وإنما يراعون مراعى أبهم خاصة لا يبالون بالماء طاب أو خبت ولا قل أو كثر ولا يسألون عن زكاء المزارع والمنابت والاهوية لانتقالهم في الأرض وتقلهم الجبوب من البلد البعيد وأما الرياح فالقفر مختلف للمهاب كلها والظعن كفيل لهم بطبيعتها لأن الرياح إنما تخبث مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات وانظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا في اختطاطها إلا مراعى أبهم وما يقرب من القفر ومسالك الظعن فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للمدن ولم تكن لها مادة تمد عمرانها من بعدهم كما قدمنا أنه يحتاج إليه في حفظ العمران فقد كانت مواطنها غير طبيعية للقرار ولم تكن في وسط الأمم فيعمرها الناس فلا أول وهلة من انحلال أمرهم وذهاب عصبيتهم التي كانت سبباً لها أتى عليها الخراب والانحلال كأن لم تكن والله يحكم لا معقب لحكمه

١٠ فصل في مبادي الخراب في الأمصار

اعلم أن الأمصار إذا اختطت أولاً تكون قليلة المساكن وقليلة آلات البناء من الحجر والحجر وغيرها مما يعال على الحيطان عند التأنق كالزليج والرخام والريج والزجاج والفسيفساء والصدف فيكون بناؤها يومئذ بدوياً وآلاتها فاسدة فإذا عظم عمران المدينة وكثر ساكنها كثرت الآلات بكثرة الأعمال حينئذ وكثرة الصنائع إلى أن تبلغ غايتها من ذلك كما سبق شأنها فإذا تراجع عمرانها وخف ساكنها قلت الصنائع لاجل ذلك فمقدت الاجادة في البناء والاحكام والمعالجة عليه بالتسميق ثم تقل الأعمال لعدم الساكن فيقل جلب الآلات من الحجر والرخام وغيرها فتفقد ويصير بناؤهم وتشييدهم من الآلات التي في مبانيهم فينقلونها من مصنع إلى مصنع لاجل خلاء أكثر المصانع والقصور والمنازل بقلة العمران وقصوره عما كان أولاً ثم لانزال تنقل من قصر إلى قصر ومن دار إلى دار إلى أن يفقد الكثير منها جملة فيعودون إلى

البدواة في البناء واتخاذ الطوب عوضاً عن الحجارة والقصور عن التتميق بالكلية فيعود بناء المدينة مثل بناء القرى والمدائر ويظهر عليها سيما البدواة ثم تمر في التناقص الى غايتها من الحراب ان قدر لها به سنة الله في خلقه

١١ فصل في أن تفاضل الامصار والمدن في كثرة الرفه لاهلها ونفاق الاسواق انما هو في تفاضل عمراتها في الكثرة والقلّة

والسبب في ذلك انه قد عرف وثبت أن الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجاته في معاشه وأنهم متعاونون جميعا في عمراتهم على ذلك والحاجة التي تحصل بتعاون طائفة منهم تشتد ضرورة الاكثر من عددهم أضعافا فalcوت من الحنطة مثلا لا يستقل الواحد بتحصيل حصته منه واذا انتدب لتحصيله الستة أو العشرة من حديد ونجار والآلات وقائم على البقر واثارة الارض وحصاد السنبيل وسائر مؤن الفلاح وتوزعوا على تلك الاعمال أو اجتمعوا وحصل بعملهم ذلك مقدار من القوت فانه حينئذ قوت لاضعافهم مرات فالاعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضرورتهم فأهل مدينة أو مصر اذا وزعت أعمالهم كلها على مقدار ضرورتهم وحاجاتهم اكتفى فيها بالاكل من تلك الاعمال وبقيت الاعمال كلها زائدة على الضرورات فتصرف في حالات الترف وعوائده وما يحتاج اليه غيرهم من أهل الامصار ويستجلبونه منهم باعواضه وقيمة فيكون لهم بذلك حظ من الغني وقد تبين لك في الفصل الخامس في باب الكسب والرزق أن المكاسب انما هي قيم الاعمال فاذا كثرت الاعمال كثرت قيمها بينهم فكثرت مكاسبهم ضرورة ودعتهم أحوال الرفه والغني الى الترف وحاجاتهم التائق في المساكن والملابس واستجادة الآنية والماعون واتخاذ الخدم والمراكب وهذه كلها أعمال تستدعي بقيمتها ويختار المهرة في صناعتها والقيام عليها فتتفق أسواق الاعمال والصنائع ويكثر دخل المصر وخرجه ويحصل اليسار لمتحلى ذلك من قبل أعمالهم ومتى زاد العمران زادت الاعمال ثانية ثم زاد الترف تابعا للكسب وزادت عوائده وحاجاته واستنبطت الصنائع لتحصيلها فزادت قيمها وتضاعف الكسب في المدينة لذلك ثانية ونفقت سوق الاعمال بها أكثر من الاول وكذا في الزيادة الثانية والثالثة لان الاعمال الزائدة كلها تختص بالترف والغني بخلاف الاعمال الاصلية التي تختص بالمعاش فالمصر اذا فضل بعمران واحد فضله بزيادة كسب ورفه وبعوائد من الترف لا توجد في الآخر فما كان عمرانه من الامصار أكثر وأوفر كان حال أهله في الترف أبلغ من حال المصر الذي دونه على وتيرة واحدة في الاصناف القاضي مع القاضي والتاجر مع التاجر والصانع مع الصانع والسوق مع السوق والامير مع الامير والشرطي

مع الشرطي واعتبر ذلك في المغرب مثلاً بحال فاس مع غيرها من أمصاره الاخرى مثل بجاية وتلمسان وسبتة تجدد بينهما بونا كثيراً على الجملة ثم على الخصوصيات فحال القاضي بفاس أوسع من حال القاضي بتلمسان وهكذا كل صنف مع صنف أهله وكذا أيضاً حال تلمسان مع وهران أو الجزائر وحال وهران والجزائر مع مكنونهما الى أن تنتهي الى المداشر الذين اعتماهم في ضروريات معاشهم فقط ويقصرون عنها وما ذلك الا لتفاوت الاعمال فيها فكأنها كلها أسواق للاعمال والخرج في كل سوق على نسبه فالقاضي بفاس دخله كفاء خرجيه وكذا القاضي بتلمسان وحيث الدخل والخرج أكثر تكون الاحوال أعظم وهما بفاس أكثر لنفاق سوق الاعمال بما يدعو اليه الترف فالاحوال أضخم ثم كذا حال وهران وقسنطينة والجزائر وبسكرة حتى تنتهي كما قلناه الى الامصار التي لا توفي أعمالها بضرورتها ولا تعد في الامصار اذ هي من قبيل القرى والمداشر فلذلك تجد أهل هذه الامصار الصغيرة ضعفاء الاحوال متقاربين في الفقر والخصاصة لما أن أعمالهم لا تنفي بضرورتهم ولا يفضل ما يتأملونه كسبا فلا تنمو مكاسبهم وهم لذلك مساكين محاييج الا في الاقل النادر واعتبر ذلك حتي في أحوال الفقراء والسؤال فان السائل بفاس أحسن حالا من السائل بتلمسان أو وهران ولقد شاهدت بفاس السؤال يسألون أيام الاضاحي أثمان ضحاياهم ورأيهم يسألون كثيراً من أحوال الترف واقترح المآكل مثل سؤال اللحم والسمن وعلاج الطبخ والملابس والماعون كالغربال والآنية ولو سأل سائل مثل هذا بتلمسان أو وهران لاستنكر وغنف وزجر ويبلغنا لهذا العهد عن أحوال القاهرة ومصر من الترف والغني في عوائدهم ما يقضي منه العجب حتي ان كثيراً من الفقراء بالمغرب ينزعون الى الثقلة الى مصر لذلك ولما يبلغهم من أن شأن الرفه بمصر أعظم من غيرها ويعتقد العامة من الناس أن ذلك لزيادة ايثار في أهل تلك الآفاق على غيرهم أو أموال مختزنة لديهم وأنهم أكثر صدقة وإيثاراً من جميع أهل الامصار وليس كذلك وانما هو لما تعرفه من أن عمران مصر والقاهرة أكثر من عمران هذه الامصار التي لديك فعظمت لذلك أحوالهم * وأما حال الدخل والخرج فتسكافي في جميع الامصار ومتى عظم الدخل عظم الخرج وبالعكس ومتى عظم الدخل والخرج اتسعت أحوال الساكن ووسع المصير كل شيء يبلغك من مثل هذا فلا تنكره واعتبره بكثرة العمران وما يكون عنه من كثرة المكاسب التي يسهل بسببها البذل والايثار على مبتغيه ومثله بشأن الحيوانات العجم مع بيوت المدينة الواحدة وكيف يختلف أحوالها في هجرانها أو غشيانها فان بيوت أهل النعم والثروة والموائد الخصبية منها تكثر بساحتها وأفيتها بنثر الحبوب وسواقط الفئات فيزدحم عليها غواشي النمل والحشاش ويخلق فوقها عصائب الطيور حتى تروح بطاناً وتمتلئ شعباً ورياً وبيوت أهل الخصاصة والفقراء الكاسدة أرزاقهم لا يسرى

بساحتها ديب ولا يحلق بجوها طائر ولا تأوي الى زوايا بيوتهم فأرة ولاهرة كما قال الشاعر
تسقط الطير حيث تلتقط الحب وتغشي منازل الكرماء

فتأمل سر الله تعالى في ذلك واعتبر غاشية الاناسي بغاشية العجم من الحيوانات وفئات الموائد
بفضلات الرزق والترف وسهولتها على من يبذلها لاستغنائهم عنها في الاكثر لوجود أمثالها
لديهم واعلم أن اتساع الاحوال وكثرة النعم في العمران تابع لكثرة والله سبحانه وتعالى أعلم
وهو غني عن العالمين

١٢ فصل في أسعار المدن

(اعلم) أن الاسواق كلها تشتمل على حاجات الناس فمنها الضروري وهي الاقوات من الخطة
وما في معناها كالباقلا والبصل والثوم وأشباهه ومنها الحاجي والكمالي مثل الادم والفواكه
والملابس والماعون والمراكب وسائر المصانع والمباني فاذا استبحر المصر وكثر ساكنه رخصت
أسعار الضروري من القوت وما في معناه وغلت أسعار الكمالي من الادم والفواكه وما يتبعها
واذا قل ساكن المصر وضعف عمرانه كان الامر بالعكس والسبب في ذلك أن الحبوب من
ضرورات القوت فتوفر الدواعي على اتخاذها اذ كل أحد لا يهمل قوت نفسه ولا قوت منزله
شهره أو سنته فيعم اتخاذها أهل المصر أجمع أو الأكثر منهم في ذلك المصر أو فيما قرب منه
لا بد من ذلك وكل متخذ لقوته تفضل عنه وعن أهل بيته فضلة كبيرة تسد خلة كثيرين من
أهل ذلك المصر فتفضل الاقوات عن أهل المصر من غير شك فتخص أسعارها في الغالب
الما يصيبها في بعض السنين من الآفات السماوية ولولا احتكار الناس لها لما يتوقع من تلك
الآفات لبذلت دون ثمن ولا عوض لكثرتها بكثرة العمران * وأما سائر المرافق من الادم والفواكه
وما إليها فانها لا تعم بها البلوي ولا يستغرق اتخاذها أعمال أهل المصر أجمعين ولا الكثير منهم ثم
ان المصر اذا كان مستبحراً موفوراً العمران كثير حاجات الترف توفرت حينئذ الدواعي على طلب
تلك المرافق والاستكثار منها كل بحسب حاله فيقصر الموجود منها على الحاجات قصوراً بالغاً
ويكثر المستامون لها وهي قليلة في نفسها فتزدحم أهل الاغراض ويبذل أهل الرفه والترف
أثمانها بأسراف في الغلاء لحاجتهم إليها أكثر من غيرهم فيقع فيها الغلاء كما تراه * وأما الصنائع
والاعمال أيضاً في الامصار الموفورة العمران فسبب الغلاء فيها أمور ثلاثة الاول كثرة الحاجة
لمكان الترف في المصر بكثرة عمرانه والثاني اعتزاز أهل الاعمال لخدمتهم وامتنان أنفسهم
لسهولة المعاش في المدينة بكثرة أقواتها والثالث كثرة المترفين وكثرة حاجتهم الى امتنان غيرهم
والى استعمال الصنائع في منهم فيبذلون في ذلك لاهل الاعمال أكثر من قيمة أعمالهم مزاحمة

ومنافسة في الاستئثار بها فيعتز العمال والصناع وأهل الحرف وتغلو أعمالهم وتكثر نفقات أهل المصر في ذلك * وأما الامصار الصغيرة والقليلة الساكن فأقواتهم قليلة لقلة العمل فيها وما يتوقعونه لصغر مصرهم من عدم القوت فيتمسكون بما يحصل منه في أيديهم ويحتسرونه فيعز وجوده لديهم ويغلو ثمنه على مستامه وأما مرافقهم فلا تدعو اليها أيضاً حاجة بقلة الساكن وضعف الاحوال فلا تنفق لديهم سوق فيختص بالرخص في سعره وقد يدخل أيضاً في قيمة الاقوات قيمة ما يعرض عليها من المكوس والمغارم للسلطان في الاسواق وأبواب الحفر والحياة في منافع وصولها عن البيوعات لما يسهم وبذلك كانت الاسعار في الامصار أغلى من الاسعار في البادية اذ المكوس والمغارم والفرائض قليلة لديهم أو معدومة وكثرتها في الامصار لاسيما في آخر الدولة وقد تدخل أيضاً في قيمة الاقوات قيمة علاجها في الفلاح ويحافظ على ذلك في أسعارها كما وقع بالاندلس لهذا العهد وذلك أنهم لما ألجأهم النصاري الى سيف البحر وبلاده المتوعدة الحبيشة الزراعة الشكدة النبات وملكوا عليهم الارض الزاكية والبلد الطيب فاحتاجوا الى علاج المزارع والفدن لاصلاح نباتها وفلحها وكان ذلك العلاج باعمال ذات قيم ومواد من الزبل وغيره لها مؤنة وصارت في فلحهم نفقات لها خطرها اعتبروها في سعرهم واخص قطر الاندلس بالغلاء منذ اضطرهم النصاري الى هذا المعمور بالاسلام مع سواحلها لاجل ذلك ويحسب الناس اذا سمعوا بغلاء الاسعار في قطرهم أنها لقلة الاقوات والحبوب في أرضهم وليس كذلك فهم أكثر أهل المعمور فاحاً فيما علمناه وأقومهم عليه وقل أن يخلو منهم سلطان أو سوقة عن فدان أو مزرعة أو فلاح الا قليل من أهل الصناعات والمهن أو الطراء على الوطن في الغزاة المجاهدين ولهذا يختصهم السلطان في عطائهم بالعولة وهي أقواتهم وعولقاتهم من الزرع وانما السبب في غلاء سعر الحبوب عندهم ما ذكرناه ولما كانت بلاد البر بالعكس من ذلك في زكاء منابهم وطيب أرضهم ارتفعت عنهم المؤن حلة في الفلاح مع كثرة وعمومه فصار ذلك سبباً لرخص الاقوات ببلدهم والله بقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار لارب سواه

١٣ (فصل في قصور أهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران)

والسبب في ذلك أن المصر الكثير العمران يكثر ترفه كما قدمناه وتكثر حاجات ساكنه من أجل الترف وتعتاد تلك الحاجات لما يدعو اليها فتقلب ضرورات وتصير فيه الاعمال كلها مع ذلك عزيزة والمرافق غالية بازدحام الاغراض عليها من أجل الترف وبالمغارم السلطانية التي توضع على الاسواق والبياعات وتعتبر في قيم المبيعات ويعظم فيها الغلاء في المرافق والاقوات والاعمال فتكثر لذلك نفقات ساكنه كثرة بالغة على نسبة عمرانه ويعظم خرجه فيحتاج حينئذ الى المال (٣٧ - ابن خلدون) .

الكثير للنفقة على نفسه وعياله في ضرورات عيشهم وسائر مؤنهم والبدوي لم يكن دخله كثيرا اذا كان ساكنا بمكان كاسد الاسواق في الاعمال التي هي سبب الكسب فلم يتأمل كسبا ولا مالا فيتعذر عليه من أجل ذلك سكفي المصر الكبير لغلاء مرافقه وعزلة حاجاته وهو في بدوه يسد خلته باقل الاعمال لانه قليل غوائد الترف في معاشه وسائر مؤنه فلا يضطر الى المال وكل من يتشوف الى مصر وسكنائه من أهل البادية فسرعا ما يظهر عجزه ويفتضح في استيظانه الامن يقدم منهم تأمل المال ويحصل له منه فوق الحاجة ويجري الى الغاية الطبيعية لاهل العمران من الدعة والترف فينشد يتنقل الى مصر وينتظم حاله مع أحوال أهله في عوائدهم وترفهم وهكذا شأن بداية عمران الامصار والله بكل شيء محيط

١٤ (فصل في أن الاقطار في اختلاف احوالها بالرفه والفقر مثل الامصار)

(اعلم) أن ما توفّر عمرانهم من الاقطار وتعددت الامم في جهاته وكثر ساكنه اتسعت أحوال أهله وكثرت أموالهم وأمصارهم وعظمت دولهم وممالكهم والسبب في ذلك كله ما ذكرناه من كثرة الاعمال وما سيأتي ذكره من أنها سبب للثروة بما يفضل عنها بعد الوفاء بالضروريات في حاجات الساكن من الفضلة البالغة على مقدار العمران وكثرته فيعود على الناس كسبا يتأملونه حسبما نذكر ذلك في فصل المعاش وبيان الرزق والكسب فيتزدد الرفه لذلك وتوسع الاحوال ويحيى الترف والغنى وتكثر الحياة للدولة بنفاق الاسواق فيكثر ما لها ويشمخ سلطانها ويتفنن في اخاذ المعامل والحصون واختطاط المدن وتشييد الامصار واعتبر ذلك باقطار المشرق مثل مصر والشام وعراق العجم والهند والصين وناحية الشمال كلها وأقطارها وراء البحر الرومي لما كثر عمرانها كيف كثر المال فيهم وعظمت دولتهم وتعددت مدنها وحواضرهم وعظمت متاجرهم وأحوالهم فالذي نشاهده لهذا العهد من أحوال تجار الأمم النصرانية الواردين على المسلمين بالمغرب في رفهم واتساع أحوالهم أكثر من أن يحيط به الوصف وكذا تجار أهل المشرق وما يبلغنا عن أحوالهم وأبلغ منها أحوال أهل المشرق الأقصى من عراق العجم والهند والصين فانه يبلغنا عنهم في باب الغنى والرفه غرائب تسير الركبان بحديثها وربما تتلقي بالانكار في غالب الامر ويحسب من يسمعها من العامة أن ذلك لزيادة في أموالهم أولان المعادن الذهبية والفضية أكثر بارضهم أولان ذهب الاقدمين من الأمم استأثروا به دون غيرهم وليس كذلك فعند الذهب الذي نعرفه في هذه الاقطار انما هو من بلاد السودان وهي الى المغرب أقرب وجميع ما في أرضهم من البضاعة فانما يجلبونه الى غير بلادهم للتجارة فلو كان المال عتيدا موفورا لديهم لما جلبوا بضائعهم الى سواهم ينتفون بها الاموال

ولا يستغنوا عن أموال الناس بالجملة ولقد ذهب المنجمون لما رأوا مثل ذلك واستغربوا ما في المشرق من كثرة الاحوال واتساعها ووفور أموالها فقالوا بان عطايا الكواكب والسهم في مواليد أهل المشرق أكثر منها حصصا في مواليد أهل المغرب وذلك صحيح من جهة المطابقة بين الاحكام النجومية والاحوال الارضية كما قلناه وهم انما أعطوا في ذلك السبب النجمي وبقي عليهم أن يعطوا السبب الارضي وهو ما ذكرناه من كثرة العمران واختصاصه بارض المشرق وأقطاره وكثرة العمران تفيد كثرة الكسب بكثرة الاعمال التي هي سببه فلذلك اختص المشرق بالرفه من بين الآفاق لأن ذلك لجرد الأثر النجمي فقد فهمت مما أشرنا لك أولا انه لا يستقل بذلك وان المطابقة بين حكمه وعمران الارض وطبيعتها أمر لا بد منه واعتبر حال هذا الرفه من العمران في قطر افريقية وبرقة لما خف سكنها وتناقص عمرانها كيف تلاشت أحوال أهلها وانتهوا الى الفقر والخصاصة وضعفت جباياتها فقلت أموال دولها بعد أن كانت دول الشيعة وصناجة بها على ما بلغت من الرفه وكثرة الجبايات واتساع الاحوال في نفقاتهم وأعطيتهم حتي لقد كانت الاموال ترفع من القيروان الى صاحب بصير لحاجاته ومهماته وكانت أموال الدولة بحيث حمل جوهر الكاتب في سفره الى فتح مصر ألف حمل من المال يستعديها لارزاق الجنود وأعطيتهم ونفقات الغزاة وقطر المغرب وان كان في القديم دون افريقية فلم يكن بالقليل في ذلك وكانت أحواله في دول الموحدين متسعة وجباياته موفورة وهو لهذا العهد قد أقصر عن ذلك لقصور العمران فيه وتناقصه فقد ذهب من عمران البربر فيه أكثره ونقص عن معهوده نقصا ظاهرا محسوسا وكاد ان يلحق في أحواله بمثل أحوال افريقية بعد ان كان عمراناه متصلا من البحر الرومي الى بلاد السودان في طول ما بين السوس الاقصى وبرقة وهي اليوم كلها أو أكثرها قفار وخلاء وصحاري إلا ما هو منها بسيف البحر أو ما يقاربه من التلول والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين

١٥ (فصل في تأمل العقار والضياع في الامصار وحال فوائدها ومستغلاتها)

(اعلم) ان تأمل العقار والضياع الكثيرة لاهل الامصار والمدن لا يكون دفعة واحدة ولا في عصر واحد اذ ليس يكون لاحد منهم من الثروة ما يملك به الاملاك التي تخرج قيمها عن الحد ولو بلغت أحوالهم في الرفه ما عسى ان تبلغ وانما يكون ملكهم وتأملهم لها تدريجاً إما بالوراثة من آيائه وذوي رحمه حتي تتأدى أملاك الكثيرين منهم الى الواحد وأكثر لذلك أو ان يكون بحوالة الاسواق فان العقار في آخر الدولة وأول الاخرى عند فناء الحامية وخرق السياج وتداعي المصر الى الخراب تقل الغبطة به لقلّة المنفعة فيها بتلاشي الاحوال فترخص قيمها وتملك

بالاثمان اليسيرة وتخطي بالميراث الى ملك آخر وقد استجد المصر شباب باستفحال الدولة الثانية وانتظمت له أحوال رائعة حسنة تحصل معها الغبطة في العقار والضياع لكثرة منافعها حينئذ فتعظم قيمها ويكون لها خطر لم يكن في الاول وهذا معنى الحوالة فيها ويصبح مالكمها من أغني أهل مصر وليس ذلك بسعيه واكتسابه اذ قدرته تعجز عن مثل ذلك وأما فوائد العقار والضياع فهي غير كافية للمالك في حاجات معاشه اذ هي لا تفي بعوائد الترف وأسبابه وانما هي في الغالب لسد الحاجة وضرورة المعاش والذي سمعناه من مشيخة البلدان أن القصد باقتناء الملك من العقار والضياع انما هو الخشية على من يترك خلفه من الذرية الضعفاء ليكون مرباهم به ورزقهم فيه ونشؤهم بفائدة ماداموا عاجزين عن الاكتساب فاذا اقتدروا على تحصيل المكاسب سعوا فيها بأنفسهم وربما يكون من الولد من يعجز عن التكسب لضعف في بدنه أو آفة في عقله المعاشي فيكون ذلك العقار قواما لحاله هذا قصد المترفين في اقتنائه وأما التمول منه واجراء أحوال المترفين فلا وقد يحصل ذلك منه للقليل أو النادر بحوالة الاسواق وحصول الكثرة البالغة منه والعالي في جنسه وقيمه في مصر الآن ذلك اذا حصل ربما امتدت اليه أعين الامراء والولاة واغتصبوه في الغالب أو أرادوه على بيعه منهم ونالت أصحابه منه مضار ومعاطب والله غالب على أمره وهو رب العرش العظيم

١٦ فصل في حاجات المتمولين من أهل الامصار الى الجاه والمدافعة

وذلك أن الحضري اذا عظم تموله وكثر للعقار والضياع تأله وأصبح أغني أهل المصر ورمقته العيون بذلك وانفسحت أحواله في الترف والعوائد زاحم عليها الامراء والملوك وغصوا به ولما في طباع البشر من العدوان تمتد أعينهم الى تملك ما يبيده وينافسونه فيه ويحيلون على ذلك بكل ممكن حتي يحصلونه في ربة حكم سلطاني وسبب من المؤاخذة ظاهر ينتزع به ماله وأكثر الاخكام السلطانية جائرة في الغالب اذ العدل المحض انما هو في الخلافة الشرعية وهي قليلة البت قال صلى الله عليه وسلم الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تعود ملكا عضوا فلا بد حينئذ لصاحب المال والثروة الشهيرة في العمران من حامية تدود عنه وجاء ينسحب عليه من ذى قرابة للملك أو خالصة له أو عصبية يحامها السلطان فيستظل بظلمها ويرتع في أمنها من طوارق التعدي وان لم يكن له ذلك أصبح نهبا بوجوه التحيلات وأسباب الحكم والله يحكم لامعقب لحكمه

١٧ فصل في أن الحضارة في الامصار من قبل الدول وأنها ترسخ باتصال الدولة وورسوخها

والسبب في ذلك أن الحضارة هي أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران

زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه وتفاوت الامم في القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر وتقع فيها عند كثرة التفنن في انواعها واصنافها فتكون بمنزلة الصنائع ويحتاج كل صنف منها الى القومة عليه والمهرة فيه وبقدر ما يتزايد من اصنافها يتزايد اهل صناعتها ويتلون ذلك الحيل بها ومتى اتصلت الايام وتعاقبت تلك الصناعات حذق أولئك الصناع في صناعتهم ومهروا في معرفتها والاعصار بطولها وانفساح أمدها وتكرير أمثالها تزيدها استحكاماً ورسوخاً وأكثر ما يقع ذلك في الامصار لاستبحار العمران وكثرة الرفه في أهلها وذلك كله انما يجيء من قبل الدولة لان الدولة تجمع اموال الرعية وتنفعها في بطانتها ورجالها وتتسع أحوالهم بلجاه أكثر من اتساعها بالمال فيكون دخل تلك الاموال من الرعايا وخرجها في أهل الدولة ثم فيمن تعلق بهم من أهل المصر وهم الاكثر فتعظم لذلك ثروتهم ويكثر غناهم وتزيد عوائد الترف ومذاهبه وتستحكم لديهم الصنائع في سائر فنونها وهذه هي الحضارة ولهذا تجد الامصار التي في القاصية ولو كانت موفورة العمران تغلب عليها أحوال البداوة وتبعد عن الحضارة في جميع مظاهرها بخلاف المدن المتوسطة في الاقطار التي هي مركز الدولة ومقرها وما ذاك الا لجاورة السلطان لهم وفيض أمواله فيهم كلما يخضر ما قرب منه فما قرب من الارض الي أن ينتهي الى الجوف على البعد وقد قدمنا أن السلطان والدولة سوق للعالم فالبضائع كلها موجودة في السوق وما قرب منه واذا بعدت عن السوق افتقدت البضائع جملة ثم انه اذا اتصلت تلك الدولة وتعاقب ملوكها في ذلك المصر واحداً بعد واحد استحكمت الحضارة فيهم وزادت رسوخاً واعتبر ذلك في اليهود لما طال ملكهم بالشام نحو امان ألف وأربعمائة سنة رسخت حضارتهم وحذقوا في أحوال المعاش وعوائده والتفنن في صناعاته من المطاعم والملابس وسائر أحوال المنزل حتي انها تتؤخذ عنهم في الغالب الى اليوم ورسخت الحضارة أيضاً وعوائدها في الشام منهم ومن دولة الروم بعدهم ستمائة سنة فكانوا في غاية الحضارة وكذلك أيضاً القبط دام ملكهم في الحليقة ثلاثة آلاف من السنين فرسخت عوائد الحضارة في بلادهم مصر وأعقبهم بها ملك اليونان والروم ثم ملك الاسلام الناسخ للسلال فلم تزل عوائد الحضارة بها متصلة وكذلك أيضاً رسخت عوائد الحضارة باليمن لاتصال دولة العرب بها منذ عهد العماليقة والتابعة آلاف من السنين وأعقبهم ملك مصر وكذلك الحضارة بالعراق لاتصال دولة التبط والفرس بها من لدن الكلدانيين والكيانية والكسروية والعرب بعدهم آلاف من السنين فلم يكن على وجه الارض لهذا العهد احضر من أهل الشام والعراق ومصر وكذا أيضاً رسخت عوائد الحضارة واستحكمت بالاندلس لاتصال الدولة العظيمة فيها للقوط ثم ما أعقبها من ملك بني أمية آلاف من السنين وكلتا الدولتين عظيمة فاتصلت فيها عوائد الحضارة واستحكمت واما افريقية والمغرب فلم يكن بها قبل الاسلام ملك ضخم انما قطع الافرنجة

الى أفريقية البحر وملكوا الساحل وكانت طاعة البربر أهل الضاحية لهم طاعة غير مستحكمة فكانوا على قلعة وأوفاز وأهل المغرب لم تجاورهم دولة وإنما كانوا يبعثون بطاعتهم الى القوط من وراء البحر ولما جاء الله بالاسلام وملك العرب أفريقية والمغرب لم يلبث فيهم ملك العرب الا قليلاً أول الاسلام وكانوا لذلك العهد في طور البداوة ومن استقر منهم بأفريقية والمغرب لم يجد بها من الحضارة ما يقلد فيه من سلفه اذ كانوا برابر منغمسين في البداوة ثم انتقض برابرة المغرب الاقصى لا قرب اليهود على يد ميسرة المظفري أيام هشام بن عبد الملك ولم يراجعوا أمر العرب بعد واستقلوا بامر أنفسهم وان بايعوا الادريس فلا تعد دولته فيهم عربية لان البرابر هم الذين تولوها ولم يكن من العرب فيها كثير عدد وبقيت أفريقية للاغلبة ومن اليهم من العرب فكان لهم من الحضارة بعض الشيء بما حصل لهم من ترف الملك ونعيمه وكثرة عمران القيروان وورث ذلك عنهم كتامة ثم ضهاجة من بعدهم وذلك كله قليل لم يبلغ اربعماية سنة وانصرمت دولتهم واستحالت صبغة الحضارة بما كانت غير مستحكمة وتغلب بدو العرب الهلاليين عليها وخربوها وبقي أثر خفي من حضارة العمران فيها والى هذا العهد يؤنس فيمن سلف له بالقلعة او القيروان او المهدية سلف فتجد له من الحضارة في شؤون منزله وعوائده أحواله آثاراً ملتبسة بغيرها يميزها الحضري البصير بها وكذا في اكثر امصار أفريقية وليس ذلك في المغرب وأمصاره لرسوخ الدولة بأفريقية اكثر أمداً منذ عهد الاغلبة والشيعة وضهاجة وأما المغرب فانتقل اليه منذ دولة الموحدين من الاندلس حظ كبير من الحضارة واستحكمت به عوائدها بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الاندلس وانتقل الكثير من أهلها اليهم طوعاً وكرهاً وكانت من اتساع النطاق ما علمت فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكامها ومعظمها من أهل الاندلس ثم انتقل أهل شرق الاندلس عند جالية النصارى الى أفريقية فأبقوا فيها وبامصارها من الحضارة آثاراً ومعظمها بتونس امتزجت بحضارة مصر وما ينقله المسافرون من عوائدها فكان بذلك للمغرب وأفريقية حظ صالح من الحضارة عفى عليه الخلاء ورجع على أعقابهم وعاد البربر بالمغرب الى أديانهم من البداوة والحشونة وعلى كل حال فآثار الحضارة بأفريقية أكثر منها بالمغرب وأمصاره لما تداول فيها من الدول السالفة أكثر من المغرب ولقرب عوائدهم من عوائد أهل مصر بكثرة المترددين بينهم فتفطن لهذا السرفانه خفي عن الناس واعلم انها أمور متناسبة وهي حال الدولة في القوة والضعف وكثرة الأمة أو الخليل وعظم المدينة أو المصغر وكثرة النعمة واليسار وذلك أن الدولة والملك صورة الخليفة والعمران وكلها مادة لها من الرعايا والامصار وسائر الاحوال وأموال الجباية عائدة عليهم ويسارهم في الغالب من أسواقهم ومتاجرهم واذا أفاض السلطان عطاءه وأمواله في أهلها انبثت فيهم ورجعت

اليه ثم اليهم منه فهي ذاهبة عنهم في الحياة والحراج عائدة عليهم في العطاء فعلى نسبة حال الدولة يكون يسار الرعايا وعلى نسبة يسار الرعايا وكثرتهم يكون مال الدولة وأصله كله العمران وكثرتهم فاعتبره وتأمله في الدول مجده والله يحكم لا معقب لحكمه

١٨ فصل في ان الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وانها مؤذنة بفساده

قد بينا لك فيما سلف ان الملك والدولة غاية للعصية وان الحضارة غاية للبداءة وان العمران كله من بداءة وحضارة وملك وسوقة له عمر محسوس كما ان للشخص الواحد من أشخاص المكنونات عمراً محسوساً وتبين في المعقول والمنقول ان الاربعين للانسان غاية في تزايد قواه ونموها وانه اذا باغ سن الاربعين وقفت الطبيعة عن أثر النشو والنمو برهة ثم تأخذ بعد ذلك في الانحطاط فلتعلم أن الحضارة في العمران أيضاً كذلك لانه غاية لا مزيد وراءها وذلك أن الترف والنعمة اذا حصل لاهل العمران دعاهم بطبعه الى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها والحضارة كما علمت هي التفنن في الترف واستجادة احواله والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيثة للمطابخ او الملابس او المباني أو الفرش أو الآنية ولسائر احوال المنزل وللتأنيق في كل واحد من هذه صنائع كثيرة لا يحتاج اليها عند البداءة وعدم التأنيق فيها واذا باغ التأنيق في هذه الاحوال المنزلية الغاية تبعه طاعة الشهوات فقتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة لا يستقيم حالها معها في دينها ولا دنياها أماديتها فلاستحكام صبغة العوائد التي يعسر نزعها وأما دنياها فلكثرة الحاجات والمؤنات التي تطالب بها العوائد ويعجز الكسب عن الوفاء بها * وبيانه ان المصير بالتفنن في الحضارة تعظم نفقات أهله والحضارة تتفاوت بتفاوت العمران فحق كان العمران اكثر كانت الحضارة اكمل وقد كنا قدمنا أن المصير الكثير العمران يختص بالغلاء في أسواقه وأسعار حاجته ثم تزيدها المكوس غلاء لان الحضارة انما تكون عند انتهاء الدولة في استفحالها وهو زمن وضع المكوس في الدول لكثرة خرجها حينئذ كما تقدم والمكوس تعود على البياعات بالغلاء لان السوقه والتجار كلهم يحتسبون على سلعهم وبضائعهم جميع ما ينفقونه حتى في مؤنة أنفسهم فيكون المكس لذلك داخلاً في قيم المبيعات وأثمانها فتعظم نفقات أهل الحضارة وتخرج عن القصد الى الاسراف ولا يجحدون وليجة عن ذلك لما ملكتهم من أثر العوائد وطاعتها وتذهب مكاسبهم كلها في النفقات ويتابعون في الاملاق والخصاصة ويغلب عليهم الفقر ويقل المستامون للمبايع فتكسد الاسواق ويفسد حال المدينة وداعية ذلك كله افراط الحضارة والترف وهذه مفسدات في المدينة على العموم في الاسواق والعمران وأما فساد أهلها في ذاتهم واحداً واحداً على الخصوص فمن الكد والتعب في

حاجات العوائد والتلون بألوان الشر في تحصيلها وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها
بمحصول لون آخر من ألوانها فلذلك يكثر منهم الفسق والشر والسفسفة والتحيل على تحصيل
المعاش من وجهه ومن غير وجهه وتنصرف النفس الى الفكر في ذلك والغوص عليه
واستجماع الحيلة له فتجدهم أجرياء على الكذب والمقامرة والغش والخلافة والسرقة
والفجور في الإيمان والربا في البياعات ثم تجدهم أبصر بطرق الفسق ومذاهبه والمجاهرة
به وبدواعيه واطراح الحشمة في الخوض فيه حتى بين الاقارب وذوى المحارم الذين تقتضي
البدواة الحياء منهم في الافذاع بذلك وتجدهم أيضا أبصر بالمكر والحديعة يدفعون بذلك ماعساه
ينالهم من القهر وما يتوقعونه من العقاب على تلك القبائح حتى يصير ذلك عادة وخلقاً لا كثرهم
إلا من عصمه الله ويموج بحر المدينة بالسفلة من أهل الاخلاق الذميمة ويجاريهم فيها كثير من
ناشئة الدولة وولدانهم ممن أهمل عن التأديب وغلب عليه خلق الجوار وان كانوا أهل أنساب
وبيوتات وذلك أن الناس بشر مماثلون وانما تفاضلوا وتميزوا بالخلق واكتساب الفضائل واجتناب
الرذائل فمن استحسنت فيه صبغة الرذائل بأي وجه كان وفسد خلق الخير فيه لم ينفعه زكاء
نسبه ولا طيب منبته ولهذا تجد كثيراً من أعقاب السيوت وذوى الاحساب والاصالة وأهل الدول
منظر حين في الغمار منتحلين للحرف الدنية في معاشهم بما فسد من أخلاقهم وماتلونوا به من صبغة
الشر والسفسفة واذا كثر ذلك في المدينة أو الامة تاذن الله بخرابها وانقراضها وهو معنى قوله
تعالى واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً
ووجهه حينئذ أن مكاسبهم حينئذ لا تفي بحاجاتهم لكثرة العوائد ومطالبة النفس بها فلا تستقيم
أحوالهم واذا فسدت أحوال الاشخاص واحداً واحداً احتل نظام المدينة وخربت وهذا
معنى ما يقوله بعض أهل الخواص ان المدينة اذا كثر فيها غرس النارج تأذنت بالخراب حتى
ان كثيراً من العامة يتحامى غرس النارج بالدور وليس المراد ذلك ولا أنه خاصة في النارج
وانما معناه أن البساتين واجراء المياه هو من توابع الحضارة ثم ان النارج والليم والسرو وأمثال
ذلك مما لا طعم فيه ولا منفعة هو من غاية الحضارة اذ لا يقصد بها في البساتين الا أشكلها فقط
ولا تغرس الا بعد التفتن في مذاهب الترف وهذا هو الطور الذي يحشي معه هلاك المصر
وخرابه كما قلناه ولقد قيل مثل ذلك في الدفلي وهو من هذا الباب اذ الدفلي لا يقصد بها
الاتون البساتين بنورها ما بين أحر وأبيض وهو من مذاهب الترف * ومن مفاصد الحضارة
الانهماك في الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف فيقع التفتن في شهوات البطن من
المآكل والملاذ ويتبع ذلك التفتن في شهوات الفرج بأنواع المناكح من الزنا واللواط فيفضي
ذلك الى فساد النوع اما بواسطة اختلاط الانساب كما في الزنا فيجهل كل واحد ابنه اذ هو

غير رشدة لان المياه مختلطة في الارحام فتفقد الشفقة الطبيعية على البنين والقيام عليهم فيمكنون ويؤدي ذلك الى انقطاع النوع أو يكون فساد النوع كاللواط اذ هو يؤدي الى أن لا يوجد النوع والزنا يؤدي الى عدم ما يوجد منه ولذلك كان مذهب مالك رحمه الله في اللواط أظهر من مذهب غيره ودل على أنه أبصر بمقاصد الشريعة واعتبارها للمصالح فافهم ذلك واعتبر به أن غاية العمران هي الحضارة والترف وأنه اذا بلغ غايته انقلب الى الفساد وأخذ في الهرم كالاعمار الطبيعية للحيوانات بل نقول أن الاخلاق الحاصلة من الحضارة والترف هي عين الفساد لان الانسان انما هو انسان باقتداره على جلب منفعه ودفع مضاره واستقامة خلقه للسعي في ذلك والحضري لا يقدر على مباشرة حاجاته إما معجزا لما حصل له من الدعة أو ترفعا لما حصل له من المربي في التعم والترف وكلا الامرين ذميم وكذا لا يقدر على دفع المضار واستقامة خلقه للسعي في ذلك والحضري بما قد فقد من خلق الانسان بالترف والتعم في قهر التأديب فهو بذلك عيال على الحماية التي تدافع عنه ثم هو فاسد أيضاً غالباً بما فسدت منه العوائد وطاعتها وما تلونت به النفس من مكنتها كما قررناه الا في الاقل النادر واذا فسد الانسان في قدرته على أخلاقه ودينه فقد فسدت انسانيته وصار مسخاً على الحقيقة وبهذا الاعتبار كان الذين يتربون على الحضارة وخلقتها موجودين في كل دولة فقد تبين أن الحضارة هي سن الوقوف لعمر العالم في العمران والدولة والله سبحانه وتعالى كل يوم هو في شأن لا يشغله شأن عن شأن

١٩ (فصل في أن الامصار التي تكون كراشي للملك تحرب بخراب الدولة وانتقاضها)

قد استقرينا في العمران أن الدولة اذا اختلت وانتقضت فان المصير الذي يكون كرسياً لسلطانها ينتقض عمرانه وربما ينتهي في انتفاضه الى الخراب ولا يكاد ذلك يتخلف والسبب فيه أمور (الاول) أن الدولة لا بد في أولها من البداوة المقتضية للتجافي عن أموال الناس والبعد عن التخاذل ويدعو ذلك الى تخفيف الحياة والمغامر التي منها مادة الدولة فقل النفقات ويقصر الترف فاذا صار المصير الذي كان كرسياً للملك في ملكة هذه الدولة المتجددة ونقصت أحوال الترف فيها نقص الترف فيمن تحت أيديها من أهل المصير لان الرعايا تبع للدولة فيرجعون الى خلق الدولة إما طوعاً لما في طباع البشر من تقليد متبوعهم أو كرها لما يدعو اليه خلق الدولة من الانقباض عن الترف في جميع الاحوال وقلة الفوائد التي هي مادة العوائد فتقصر لذلك حضارة المصير ويذهب منه كثير من عوائد الترف وهو معنى ما نقول في خراب المصير (الامر الثاني) أن الدولة انما يحصل لها الملك والاستيلاء بالغلب وانما يكون بعد العداوة والحروب والعداوة تقتضي منافاة بين أهل الدولتين وتكثر احداها على الاخرى في العوائد والاحوال

وغلب أحد المتنافيين يذهب بالمتنافي الآخر فتكون أحوال الدولة السابقة منكورة عند أهل الدولة الجديدة ومستبشرة وقيحة وخصوصاً أحوال الترف فتفقد في عرفهم بشكر الدولة لها حتى تنشأ لهم بالتدرج عوائد أخرى من الترف فتكون عنها حضارة مستأنفة وفيما بين ذلك قصور الحضارة الأولى ونقصها وهو معنى اختلال العمران في مصر (الامر الثالث) أن كل أمة لا بد لهم من وطن هو منشؤهم ومنه أولية ملكهم وإذا ملكوا ملكاً آخر صار تبعاً للأول وأمصاره تابعة لامصار الأول واتسع نطاق الملك عليهم ولا بد من توسط الكرسي تخوم الممالك التي للدولة لانه شبه المركز للنطاق فيبعد مكانه عن مكان الكرسي الأول وتهوي أفئدة الناس اليه من أجل الدولة والسultan فينتقل اليه العمران وتخف من مصر الكرسي الأول والحضارة انما هي توفر العمران كما قدمناه فتنقص حضارته وتمدنه وهو معنى اختلاله وهذا كما وقع للسلاجوقية في عدولهم بكرسيهم عن بغداد الى اصبهان وللعرب قبلهم في العدول عن المدائن الى الكوفة والبصرة ولبنى العباس في العدول عن دمشق الى بغداد ولبنى مرين بالمغرب في العدول عن مراکش الى فاس وبالجملة فالخاخذ الدولة الكرسي في مصر يحل بعمران الكرسي الاول (الامر الرابع) ان الدولة الثانية لا بد فيها من تبع أهل الدولة السابقة واشياعها بتحويلهم الى قطر آخر يؤمن فيه غائلتهم على الدولة واكثر أهل مصر الكرسي اشياع الدولة أمامن الحامية الذين نزلوا بهاول الدولة او اعيان مصر لان لهم في الغالب مخالطة للدولة على طبقاتهم وتنوع اصنافهم بل اكثرهم ناشئ في الدولة فهم شيعة لها وان لم يكونوا بالشوكة والعصية فهم بالليل والحب والحقيدة وطبيعة الدولة المتجددة محو آثار الدولة السابقة فينقلهم من مصر الكرسي الى وطنها المتمكن في ملكتها فبعضهم على نوع التغريب والحبس وبعضهم على نوع الكرامة والتلطف بحيث لا يؤدي الى النفرة حتى لا يبقى في مصر الكرسي الا الباعة والهمل من أهل الفلاح والعيارة وسواد العامة وينزل مكانهم حاميتها واشياعها من يشتد به مصر وإذا ذهب من مصر اعيانهم على طبقاتهم نقص ساكنه وهو معنى اختلال عمرانهم ثم لا بد من ان يستجد عمران آخر في ظل الدولة الجديدة وتحصل فيه حضارة أخرى على قدر الدولة وانما ذلك بمثابة من له بيت على أوصاف مخصوصة فأظهر من قدرته على تغيير تلك الأوصاف واعادة بنائها على ما يختاره ويقترحه فيخرب ذلك البيت ثم يعيد بناءه ثانياً وقد وقع من ذلك كثير في الامصار التي هي كراسي للملك وشاهدناه وعلمناه والله يقدر الليل والنهار * والسبب الطبيعي الاول في ذلك على الجملة أن الدولة والملك للعمران بمثابة الصورة للمادة وهو الشكل الحافظ بنوعه لوجودها وقد تقرر في علوم الحكمة أنه لا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر فالدولة دون العمران لا تتصور والعمران دون الدولة والملك متعذر لما في طباع البشر من

العدوان الداعي الى الوازع فتتبعين السياسة لذلك اما الشرعية أو الملكية وهو معنى الدولة واذا كانا لا ينفكان فاختلال أحدهما مؤثر في اختلال الآخر كما أن عدمه مؤثر في عدمه والخلل العظيم انما يكون من خلل الدولة السكلية مثل دولة الروم أو الفرس أو العرب على العموم أو بني أمية أو بني العباس كذلك وأما الدولة الشخصية مثل دولة أنوشروان أو هرقل أو عبد الملك بن مروان أو الرشيد فأشخاصها متعاقبة على العمران حافظة لوجوده وبقائه وقربة الشبه بعضها من بعض فلا تؤثر كثيرا اختلال لان الدولة بالحقيقة الفاعلة في مادة العمران انما هي العصبية والشوكة وهي مستمرة على أشخاص الدولة فاذا ذهبت تلك العصبية ودفعها عصبية أخرى مؤثرة في العمران ذهب أهل الشوكة بأجمعهم وعظم الخلل كما قررناه أولا والله سبحانه وتعالى أعلم

٢٠ (فصل في اختصاص بعض الامصار ببعض الصنائع دون بعض)

وذلك أنه من الين أن أعمال أهل المصر يستدعي بعضها بعضاً لما في طبيعة العمران من التعاون وما يستدعي من الاعمال يختص ببعض أهل المصر فيقومون عليه ويستبصرون في صناعته ويختصون بوظيفته ويعملون معاشهم فيه ورزقهم منه لعموم البلوى به في المصر والحاجة اليه وما لا يستدعي في المصر يكون غفلا اذ لا فائدة لمتحلته في الاحتراف به وما يستدعي من ذلك لضرورة المعاش فيوجد في كل مصر كالحياط والحداد والنجار وأمثالها وما يستدعي لعوائد الترف وأحواله فانما يوجد في المدن المستبحرة في العمارة الآخذة في عوائد الترف والحضارة مثل الزجاج والصائغ والدهان والطباخ والصفار والفراس والذباغ وأمثال هذه وهي متفاوتة وبقدر ما تزيد عوائد الحضارة وتستدعي أحوال الترف تحدث صنائع لذلك النوع فتوجد بذلك المصر دون غيره ومن هذا الباب الجمامات لانها انما توجد في الامصار المستحضرة المستبحرة العمران لما يدعو اليه الترف والغنى من التعم ولذلك لا تكون في المدن المتوسطة وان نزع بعض الملوك والرؤساء اليها فيختطها ويجري أحوالها لانها اذا لم تكن لها داعية من كافة الناس فسرعان ما تهجر وتخرب وتقرعها القومة لقلة فائدتهم ومعاشهم منها والله يقبض ويبسط

٢١ (فصل في وجود العصبية في الامصار وتغلب بعضهم على بعض)

من البين أن الالتحام والاتصال موجود في طباع البشر وان لم يكونوا أهل نسب واحد الا انه كما قدمناه أضف مما يكون في النسب وأنه تحصل به العصبية بعضها مما تحصل بالنسب وأهل الامصار كثير منهم ملتحمون بالصهر يجذب بعضهم بعضا الى أن يكونوا لحما لحما وقرابة قرابة وتجد بينهم من العداوة والصدقة ما يكون بين القبائل والعشائر مثله فيفترقون شيئا وعصائب

فاذا نزل الهرم بالدولة وتقاص ظل الدولة عن القاصية احتاج أهل أمصارها الى القيام على أمرهم والنظر في حماية بلدهم ورجعوا الى الشورى وتميز العلية عن السفلة والنفوس بطباعها متطاوله الى الغلب والرياسة فتطمح المشيخة لخلاء الجو من السلطان والدولة القاهرة الى الاستبداد وينازع كل صاحبه ويستوصلون بالاتباع من الموالي والشيعة والاحلاف ويبدلون ما في أيديهم للاوغاد والاشباب فيعصو صب كل لصاحبه ويتعين الغلب لبعضهم فيعطف على أكفائه ليقص من أغنتهم ويتبعهم بالقتل أو التغريب حتى يخضد منهم الشوكات النافذة ويقلم الأظفار الحادشة ويستبد بمصره أجمع ويرى أنه قد استحدث ملكا يورثه عقبه فيحدث في ذلك الملك الاصغر ما يحدث في الملك الاعظم من عوارض الجدة والهرم وربما يسمو بعض هؤلاء الى منازع الملوك الاعاظم أمحاب القبائل والعشائر والعصبيات والزحوف والحروب والاقطار والممالك فينتحلون بها من الجلوس على السرير واتخاذ الآلة واعداد الموالي للسير في أقطار البلد والتختم والحسية والخطاب بالتمويل وما يسخر منه من يشاهد أحوالهم لما اتحلوه من شارات الملك التي ليسوا لها بأهل انما دفعهم الى ذلك تقاص الدولة والنجاح بعض القربات حتى صارت عصبية وقد يتنزه بعضهم عن ذلك ويجري على مذهب السذاجة فراراً من التعريض بنفسه للسخرية والعبث وقد وقع هذا بأفريقية لهذا العهد في آخر الدولة الحفصية لاهل بلاد الجريد من طرابلس وقابس وتوزر ونقطة وقفصة وبسكرة والزاب وما الى ذلك سمووا الى مثاها عند تقاص ظل الدولة عنهم منذ عقود من السنين فاستغلوا على أمصارهم واستبدوا بأمرها على الدولة في الاحكام والحياة وأعطوا طاعة معروفة وصفقة مرمضة وأقطعوها جانباً من الملاينة والملاطفة والانقياد وهم بمنزلة عنه وأورثوا ذلك أعقابهم لهذا العهد وحدث في خلفهم من الغلظة والتجبر ما يحدث لأعقاب الملوك وخلفهم ونظموا أنفسهم في عداد السلاطين على قرب عهدهم بالسوقه حتى محا ذلك مولانا أمير المؤمنين أبو العباس وانتزع ما كان بأيديهم من ذلك كما نذكره في أخبار الدولة وقد كان مثل ذلك وقع في آخر الدولة الصنهاجية واستقل بامصار الجريد أهلها واستبدوا على الدولة حتى انتزع ذلك منهم شيخ الموحدين وملكهم عبد المؤمن بن علي ونقلهم كلهم من أمارتهم بها الى المغرب ومحا من تلك البلاد آثارهم كما نذكر في أخباره وكذا وقع بسبته لآخر دولة بنى عبد المؤمن وهذا التغلب يكون غالباً في أهل السروات والبيوتات المرشحين للمشيخة والرياسة في مصر وقديحدث التغلب لبعض السفلة من الغوغاء والدهاء واذا حصلت له العصبة والاتحام بالاوغاد لاسباب يجبرهاله المقدار فيتغلب على المشيخة والعلية اذا كانوا فاقدين للعصبة والله سبحانه وتعالى غالب على أمره

(اعلم) أن لغات أهل الامصار انما تكون بلسان الامة أو الحيل الغالبين عليها أو المختطين لها ولذلك كانت لغات الامصار الاسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربية وان كان اللسان العربي المضري قد فسدت ملكته وتغير اعرابه والسبب في ذلك ما وقع للدولة الاسلامية من الغلب على الامم والدين والملة صورة للوجود وللملك وكلها موادله والصورة مقدمة على المادة والدين انما يستفاد من الشريعة وهي بلسان العرب لما أن النبي صلى الله عليه وسلم عربي فوجب هجر ماسوى اللسان العربي من اللسن في جميع ممالكها واعتبر ذلك في نهى عمر رضي الله عنه عن بطانة الاعاجم وقال انها خب أي مكر وخديعة فلما هجر الدين اللغات الاعجمية وكان لسان القائمين بالدولة الاسلامية عربياً هجرت كلها في جميع ممالكها لان الناس تبع للسلطان وعلى دينه فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الاسلام وطاعة العرب وهجر الامم لغاتهم وأستهم في جميع الامصار والممالك وصار اللسان العربي لسانهم حتي رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم ومنهم وصارت الالسنة العجمية دخيلة فيها وغربية ثم فسد اللسان العربي بمخالطتها في بعض أحكامه أو تغير أو اخره وان كان بقي في الدلالات على أصله وسمي لسانا حضريافي جميع أمصار الاسلام وأيضاً أكثر أهل الامصار في الملة لهذا العهد من أعقاب العرب المالكين لها الهالكين في ترفها بما كثروا العجم الذين كانوا بها وورثوا أرضهم وديارهم واللغات متوارثة فبقيت لغة الأعقاب على حيال لغة الآباء وان فسدت أحكامها بمخالطة الأعجام شيئاً فشيئاً وسميت لغتهم حضرية منسوبة الى أهل الحواضر والامصار بخلاف لغة البدو من العرب فانها كانت أعرق في العروبة وما تملك العجم من الديلم والسلجوقية بعدهم بالمشرق وزناتة والبربر بالمغرب وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك الاسلامية فسد اللسان العربي لذلك وكاد يذهب لولا ما حفظه من غناية المسلمين بالكتاب والسنة اللذين بهما حفظ الدين وصار ذلك مرجحاً لبقاء اللغة العربية المضرية من الشعر والكلام الا قليلاً بالامصار فلما ملك التتر والمغل بالمشرق ولم يكونوا على دين الاسلام ذهب ذلك المرجح وفسدت اللغة العربية على الاطلاق ولم يبق لها رسم في الممالك الاسلامية بالعراق وخراسان وبلاد فارس وأرض الهند والسند وما وراء النهر وبلاد الشمال وبلاد الروم وذهبت أساليب اللغة العربية من الشعر والكلام الا قليلاً يقع تعليمه صناعياً بالفوائين المتداسة من كلام العرب وحفظ كلامهم لمن يسره الله تعالى لذلك وربما بقيت اللغة العربية المضرية بمصر والشام والاندلس والمغرب لبقاء الدين طلباً لها فانحفظت ببعض الشيء وأما في ممالك العراق وما وراء فلم يبق له أثر ولا عين حتى ان كتب العلوم صارت تكتب باللسان

العجمي وكذا تدريسه في المجالس والله أعلم بالصواب

الفصل الخامس من الكتاب الاول

(في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه مسائل)

(فصل في حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وأن الكسب هو قيمة الاعمال البشرية)

اعلم أن الانسان مقتدر بالطبع الى ما يقوته ويمونه في حالاته وأطواره من لدن نشؤه الى أشده الى كبره والله الغني وأتم الفقراء والله سبحانه خلق جميع ما في العالم للانسان وامتن به عليه في غير ما آية من كتابه فقال وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعاً منه وسخر لكم البحر وسخر لكم الفلك وسخر لكم الانعام وكثير من شواهد ويد الانسان مبسوطه على العالم وما فيه بما جعل الله له من الاستخلاف وأيدي البشر منتشرة فهي مشتركة في ذلك وما حصل عليه يد هذا امتنع عن الآخر الابعوض فالانسان متى اقتدر على نفسه وتجاوز طور الضعف سعى في اقتناء المكاسب لينفق ما آتاه الله منها في تحصيل حاجاته وضروراته بدفع الاعواض عنها قال الله تعالى فابتغوا عند الله الرزق وقديحصل له ذلك بغير سعي كالطير المصلح للزراعة وأمثاله الا أنها إنما تكون معينة ولا بد من سعيه معها كما يأتي فتكون له تلك المكاسب معاشاً ان كانت بمقدار الضرورة والحاجة ورياشاً وتمتولاً ان زادت على ذلك ثم ان ذلك الحاصل أو المقتنى ان عادت منفعة على العبد وحصلت له ثمرته من انفاقه في مصالحه وحاجاته سمي ذلك رزقاً قال صلى الله عليه وسلم انما لك من مالك ما أكلت فأفنت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت وان لم ينفع به في شيء من مصالحه ولا حاجاته فلا يسمى بالنسبة الى المالك رزقاً والمتملك منه حينئذ بسعي العبد وقدرته يسمى كسباً وهذا مثل التراث فانه يسمى بالنسبة الى المالك كسباً ولا يسمى رزقاً اذ لم يحصل به منتفع وبالنسبة الى الوارثين متى انتفعوا به يسمى رزقاً هذا حقيقة مسمى الرزق عند أهل السنة وقد اشترط المعتزلة في تسميته رزقاً ان يكون بحيث يصح تملكه وما لا يملك عندهم لا يسمى رزقاً وأخرجوا الفصوبات والحرام كله عن أن يسمى شيء منها رزقاً والله تعالى يرزق الغاصب والظالم والمؤمن والكافر ويختص برحمته وهدايته من يشاء ولهم في ذلك حجج ليس هذا موضع بسطها * ثم اعلم أن الكسب انما يكون بالسعي في الاقتناء والقصد الى التحصيل فلا بد في الرزق من سعي وعمل ولو في تناوله وابتغائه من وجوهه قال تعالى فابتغوا عند الله الرزق والسعي اليه انما يكون باقدار الله تعالى وإلهامه فالكل من عند الله فلا بد من الاعمال الانسانية في كل مكسوب وتمول لانه ان كان عملاً بنفسه مثل الصنائع فظاهر وان كان مقتنى

من الحيوان والنبات والمعدن فلا بد فيه من العمل الانساني كما تراه والالم يحصل ولم يقع به انتفاع ثم ان الله تعالى خلق الحجرين المعدنيين من الذهب والفضة قيمة لكل متمول وهما الذخيرة والتقنية لاهل العالم في الغالب وان اقتنى سواهما في بعض الاحيان فانما هو لقصد تحصيلهما بما يقع في غيرهما من حوالة الاسواق التي ها عنها بمعزل فهما أصل المكاسب والتقنية والذخيرة * واذا تقرر هذا كله فاعلم أن ما يفيد الانسان ويقتنيه من الممتلكات ان كان من الصنائع فالمفاد المقتني منه قيمة عمله وهو القصد بالتقنية اذ ليس هناك الا العمل وليس بمقصود بنفسه للتقنية وقد يكون مع الصنائع في بعضها غيرها مثل النجارة والحياكة معهما الحطب والغزل الا أن العمل فيهما أكثر فقيمتهم أكثر وان كان من غير الصنائع فلا بد في قيمة ذلك المفاد والتقنية من دخول قيمة العمل الذي حصلت به اذ لولا العمل لم تحصل قنيتها وقد تكون ملاحظة العمل ظاهرة في الكثير منها فتجعل له حصة من القيمة عظمت أو صغرت وقد تخفى ملاحظة العمل كما في أسعار الاقوات بين الناس فان اعتبار الاعمال والتنفقات فيها ملاحظ في أسعار الجبوب كما قدمناه لكنه خفي في الاقطار التي علاج الفلاح فيها ومؤنته يسيرة فلا يشعر به الا القليل من أهل الفلاح فقد تبين أن المفادات والمكتسبات كلها أو أكثرها انما هي قيم الاعمال الانسانية وتبين مسمى الرزق وانه المستفاد به فقد بان معنى الكسب والرزق وشرح مسماها * واعلم أنه اذا فقدت الاعمال أو قلت بالتقصا العمران تأذن الله برفع الكسب ألا ترى الى الامصار القليلة الساكن كيف يقل الرزق والكسب فيها أو يفقد لقلة الاعمال الانسانية وكذلك الامصار التي يكون عمرانها أكثر يكون أهلها أوسع أحوالاً وأشد رفاهية كما قدمناه قبل ومن هذا الباب تقول العامة في البلاد اذا تناقض عمرانها انها قد ذهب رزقها حتى ان الانهار والعيون ينقطع جريها في القفر لما ان فور العيون إنما يكون بالانباط والامتراء الذي هو بالعمل الانساني كالحال في ضروع الانعام فما لم يكن انباط ولا امتراء نصبت وغارت بالجملة كما يحيف الضرع اذا ترك امتراؤه وانظره في البلاد التي تعهد فيها العيون لايام عمرانها ثم يأتي عليها الخراب كيف تغور مياهها جملة كأنها لم تكن والله يقدر الليل والنهار

٢ فصل في وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه

اعلم أن المعاش هو عبارة عن ابتغاء الرزق والسعي في تحصيله وهو مفعول من العيش كأنه لما كان العيش الذي هو الحياة لا يحصل الا بهذه جعلت موضعاً له على طريق المبالغة ثم ان تحصيل الرزق وكسبه إما أن يكون بأخذه من يد الغير وانتزاعه بالاقدار عليه على قانون متعارف ويسمى مغرماً وجباية واما أن يكون من الحيوان الوحشي باقتناصه وأخذه برمييه من

البر أو البحر ويسمى اصطلياداً وأما أن يكون من الحيوان الداجن باستخراج فضوله المنصرفة بين الناس في منافعهم كاللبن من الانعام والحرير من دوده والعسل من نحله أو يكون من النبات في الزرع والشجر بالقيام عليه واعداده لاستخراج ثمرته ويسمى هذا كله فلحاً وأما أن يكون الكسب من الاعمال الانسانية اما في مواد معينة وتسمى الصنائع من كتابة ونجارة وخياطة وحياكة وفروسية وأمثال ذلك أو في مواد غير معينة وهي جميع الامهانات والتصرفات وأما أن يكون الكسب من البضائع واعدادها للاعواض اما بالقلب بها في البلاد واحتكارها وارتياب حوالة الاسواق فيها ويسمى هذا تجارة فهذه وجوه المعاش واصنافه وهي معنى ما ذكره المحققون من أهل الأدب والحكمة كالحريري وغيره فانهم قالوا المعاش امارة وتجارة وفلاحة وصناعة فأما الامارة فيست بذهب طبيعي للمعاش فلا حاجة بنا الى ذكرها وقد تقدم شيء من أحوال الجبايات السلطانية وأهاها في الفصل الثاني وأما الفلاحة والصناعة والتجارة فهي وجوه طبيعية للمعاش أما الفلاحة فهي متقدمة عليها كلها بالذات اذ هي بسيطة وطبيعية فطرية لا تحتاج الى نظر ولا علم ولهذا تنسب في الخليفة الى آدم أبي البشر وانه معلمها والقائم عليها اشارة الى أنها أقدم وجوه المعاش وانسبها الى الطبيعة وأما الصنائع فهي ثانیها ومتأخرة عنها لانها مركبة وعامية تصرف فيها الافكار والانظار ولهذا لا توجد غالباً الا في أهل الحضر الذي هو متأخر عن البدو وثان عنه ومن هذا المعنى نسبت الى ادريس الاب الثاني للخليفة فانه مستنبطها لمن بعده من البشر بالوحي من الله تعالى وأما التجارة وان كانت طبيعية في الكسب فلا أكثر من طرقها ومذاهبها انما هي تحيلات في الحصول على ما بين القيمتين في الشراء والبيع لتحصل فائدة الكسب من تلك الفضالة ولذلك أباح الشرع فيه المكايسة لما انه من باب المقامرة الا انه ليس أخذاً للمال الغير مجاناً فلهذا اختص بالمشروعية

٣ فصل في ان الخدمة ليست من المعاش الطبيعي

اعلم أن السلطان لا بد له من اتخاذ الخدمة في سائر أبواب الامارة والملك الذي هو بسبيله من الجندي والشرطي والكاظم ويستكفي في كل باب بمن يعلم غناه فيه ويتكفل بارزاقهم من بيت ماله وهذا كله مندرج في الامارة ومعاشها اذ كلهم ينسحب عليهم حكم الامارة والملك الاعظم هو ينبوع جداولهم وأما مادون ذلك من الخدمة فسيبها أن أكثر المترفين يرفع عن مباشرة حاجاته أو يكون عاجزاً عنها لما ربي عليه من خلق التمتع والترف فيتخذ من يتولى ذلك له ويقطعه عليه أجراً من ماله وهذه الحالة غير محمودة بحسب الرجولية الطبيعية للانسان اذ الثقة بكل احد عجز ولانها تزيد في الوظائف والخرج وتدل على العجز والحث الذين ينبغي في

مذاهب الرجولية التزه عنهما الا ان العوائد تقلب طباع الانسان الى ما لوفها فهو ابن عوائده لا ابن نسبه ومع ذلك فالخديم الذي يستكفي به ويوثق بغناؤه كالمفقود اذا الخديم القائم بذلك لا يعدو أربع حالات اما مضطلع بأمره وموثوق فيما يحصل بيده واما بالعكس فيهما وهو ان يكون غير مضطلع بأمره ولا موثوق فيما يحصل بيده واما بالعكس في احدهما فقط مثل ان يكون مضطلعا غير موثوق أو موثوقا غير مضطلع فاما الاول وهو المضطلع الموثوق فلا يمكن أحداث استعماله بوجه اذ هو باضطلاعه وثقته غني عن أهل الرتب الدنية ومحتقر لمنال الأجر من الخدمة لا قدراره على أكثر من ذلك فلا يستعمله الا الامراء أهل الجاه العريض لعموم الحاجة الى الجاه وأما الصنف الثاني وهو من ليس بمضطلع ولا موثوق فلا ينبغي لعاقل استعماله لانه يحجب بمخدومه في الامر من معافيضيع عليه لعدم الاصطناع تارة ويذهب ماله بالخيانة أخرى فهو على كل حال كل على مولاه فهذان الصنفان لا يطمع أحد في استعمالهما ولم يبق الاستعمال الصنفين الآخرين موثوق غير مضطلع ومضطلع غير موثوق وللتاس في الترجيح بينهما مذهبان ولكل من الترجيح وجه الا أن المضطلع ولو كان غير موثوق أرجح لانه يؤمن من تضديعه ويحاول على التحرز من خيانتة جهد الاستطاعة وأما المضيع ولو كان مأمونا فضرره بالتضيع أكثر من نفعه فاعلم ذلك واتخذ قانونا في الاستكفاء بالخدمة والله سبحانه وتعالى قادر على ما يشاء

٤ (فصل في أن ابتغاء الاموال من الدفائن والكنوز ليس بمعاش طبيعي)

اعلم أن كثيرا من ضعفاء العقول في الامصار يحرضون على استخراج الاموال من تحت الارض ويتغنون الكسب من ذلك ويعتقدون أن أموال الأمم السالفة مخترنة كلها تحت الارض محتوم عليها كلها بطلاسم سحرية لا يفيض ختامها ذلك الامن عثر على علمه واستحضر ما يحمله من البخور والدعاء والقربان فأهل الامصار بافريقية يرون أن الافرنجة الذين كانوا قبل الاسلام بهادقوا أموالهم كذلك وأودعوها في الصحف بالكتاب الى أن يجدوا السبيل الى استخراجها وأهل الامصار بالمشرق يرون مثل ذلك في أمم القبط والروم والفرس ويتناقلون في ذلك أحاديث تشبه حديث خرافة من انتهاء بعض الطالين لذلك الى حفر موضع المال ممن لا يعرف طلسمه ولا خبره فيجدونه خاليا أو معمورا بالديدان أو يشاهد الاموال والجواهر موضوعة والحرس دونها منتبذين سيوفهم أو تيمد به الارض حتي يظنه خسفا أو مثل ذلك من الهذر ونجد كثيرا من طلبة البر بالغرب العاجزين عن المعاش الطبيعي وأسبابه يتقربون الى أهل الدنيا بالاوراق المتحزمة الحواشي اما بخطوط عجمية أو بما ترجم بزعمهم منها من خطوط أهل الدفائن باعطاء الامارات عليها في أماكنها يتغنون بذلك الرزق منهم بما يبعثونهم على الحفر والطلب ويموهون

عليهم بأنهم إنما حباهم على الاستعانة بهم طلب الجاه في مثل هذا من منال الحكام والعقوبات وربما تكون عند بعضهم نادرة أو غريبة من الأعمال السحرة يموه بها على تصديق ما بقي من دعواه وهو بمنزل عن السحر وطرقه فيولع كثير من ضعفاء العقول بجمع الأيدي على الاحتقار والتستر فيه بظلمات الليل مخافة الرقباء وعيون أهل الدول فإذا لم يعثروا على شيء ردوا ذلك إلى الجهل بالطلسم الذي ختم به على ذلك المال يخادعون به أنفسهم عن اخفاق مطامعهم والذي يحمل على ذلك في الغالب زيادة على ضعف العقل إنما هو العجز عن طلب المعاش بالوجوه الطبيعية للكسب من التجارة والفلاح من الصناعة فيطلبونه بالوجوه المنحرفة وعلى غير المجري الطبيعي من هذا وأمثاله عجزا عن السعي في المكاسب وركونا إلى تناول الرزق من غير تعب ولا نصب في تحصيله واكتسابه ولا يعلمون أنهم يوقعون أنفسهم بابتغاء ذلك من غير وجهه في نصب ومتاعب وجهه شديد أشد من الأول ويعرضون أنفسهم مع ذلك لمثل العقوبات وربما يحمل على ذلك في الأكثر زيادة الترف وعوائده وخروجها عن حد النهاية حتى يقصر عنها وجوه الكسب ومذاهبه ولا تفي بمطالبها فإذا عجز عن الكسب بالمجري الطبيعي لم يجد وليجته في نفسه إلا التمني لوجود المال العظيم دفعة من غير كلفة ليفي له ذلك بالعوائد التي حصل في أسرها فيحرص على ابتغاء ذلك ويسعي فيه جهده ولهذا فأكثر من تراهم يحرصون على ذلك هم المترفون من أهل الدولة ومن سكان الأمصار الكثيرة الترف المتسعة الأحوال مثل مصر وما في معناها فتجد الكثير منهم مغرمين بابتغاء ذلك وتحصيله ومساءلة الركبان عن شواذه كما يحرصون على الكيمياء هكذا بلغني عن أهل مصر في مفاوضة من يلقونه من طلبه المغاربة لعلمهم يعثرون منه على دفين أو كنوز يزيدون على ذلك البحث عن تغوير المياه لما يرون أن غالب هذه الأموال الدفينة كلها في مجاري النيل وأنه أعظم ما يستر دفيننا أو مختزنا في تلك الآفاق ويموه عليهم أصحاب تلك الدفاتر المفتلة في الاعتذار عن الوصول إليها بحجة التلثل تسترا بذلك من الكذب حتى يحصل على معاشه فيحرص سامع ذلك منهم على نضوب الماء بالأعمال السحرية لتحصيل مبتغاه من هذه كلفا بشأن السحر متوارثا في ذلك القطر عن أوليه فعلموهم السحرية وآثارها باقية بارضهم في البراري وغيرها وقصة سحرة فرعون شاهدة باختصاصهم بذلك وقد تناقل أهل المغرب قصيدة ينسبونها إلى حكماء المشرق تعطي فيها كيفية العمل بالتغوير بصناعة سحرية حسبما تراه فيها وهي هذه

يا طالب للسر في التغوير * اسمع كلام الصدق من خير
دع عنك ما قد صنفوا في كتبهم * من قول بهتان ولفظ غرور
واسمع لصدق مقالتي ونصيحتي * أن كنت مما لا يرى بالزور

فاذا أردت تغور البئر التي * حارت لها الاوهام في التدبير
 صور كصورتك التي أوقفها * والرأس رأس الشبل في التقوير
 ويداه ماسكتان للحبل الذي * في الدلو ينشل من قرار البير
 وبصدره هاء كما عايتها * عدد الطلاق احذر من التكرير
 ويطأ على الطآآت غير ملامس * مشي الليب الكيس النحرير
 ويكون حول الكل خط دائر * تربيعه أولى من التكوير
 واذبح عليه الطير والطخه به * واقصده عقب الذبح بالتبخير
 بالسندروس وباللبان وميعة * والقسط والبسه بثوب حرير
 من أحمر أو أصفر لأزرق * لأخضر فيه ولا تكدير
 ويشده خيطان صوف أبيض * أو أحمر من خالص التحمير
 والطالع الاسد الذي قد بينوا * ويكون بدء الشهر غير منير
 والبدر متصل بسعد عطارد * في يوم سبت ساعة التدبير

يعني أن تكون الطآآت بين قدميه كأنه يمشي عليها وعندي أن هذه القصيدة من تمويهات المتخرفين
 فاهم في ذلك أحوال غريبة واصطلاحات عجبية وتنتهي التخرقة والكذب بهم الى أن يسكنوا
 المنازل المشهورة والدور المعروفة لمثل هذه ويحتفرون الحفر ويضعون المطابق فيها والشواهد
 التي يكتبونها في صحائف كذبهم ثم يقصدون ضعفاء العقول بأمثال هذه الصحائف ويبعثون
 على اكثراء ذلك المنزل وسكنائه ويوهمون أن به دفيناً من المال لا يعبر عن كثرته ويطالبون
 بالمال لا لشراء العقاقير والبخورات لحل الطلاسم ويعدون به ظهور الشواهد التي قد أعدوها
 هنالك بأنفسهم ومن فعالهم فينبعث لما يراه من ذلك وهو قد خدع ولبس عليه من حيث
 لا يشعر وبينهم في ذلك اصطلاح في كلامهم يلبسون به عليهم ليخفي عند محاورتهم فيما يتلونه
 من حفر وبخور وذبح حيوان وأمثال ذلك وأما الكلام في ذلك على الحقيقة فلا أصل له في
 علم ولا خبر * واعلم أن الكنوز وإن كانت توجد لكنها في حكم النادر على وجه الاتفاق لأعلى
 وجه القصد اليها وليس ذلك بامر تعم به البلوى حتي يدخر الناس أموالهم تحت الأرض ويحتمون
 عليها بالطلاسم لافي القديم ولا في الحديث والركاز الذي ورد في الحديث وفرضه الفقهاء وهو
 دفين الجاهلية إنما يوجد بالعمور والاتفاق لا بالقصد والطلب وأيضاً فمن اخترن ماله وختم
 عليه بالأعمال السحرية فقد بالغ في اخفائه فكيف ينصب عليه الأدلة والامارات لمن يتبعه
 ويكتب ذلك في الصحائف حتي يطلع على ذخيره أهل الاعصار والآفاق هذا يناقض قصد الاخفاء
 وأيضاً فافعال العقلاء لا بد وأن تكون لغرض مقصود في الانتفاع ومن اخترن المال فانه يختزنه

لولده أو قريبه أو من يؤثره وإما أن يقصد اخفاءه بالكلية عن كل أحد وانما هو للبلاء والهلاك أولن لا يعرفه بالكلية ممن سيأتي من الأمم فهذا ليس من مقاصد العقلاء بوجه * وأما قولهم أين أموال الأمم من قبلنا وما علم فيها من الكثرة والوفور فاعلم أن الاموال من الذهب والفضة والجواهر والامتعة انما هي معادن ومكاسب مثل الحديد والنحاس والرصاص وسائر العقارات والمعادن والعمران يظهرها بالاعمال الانسانية ويزيد فيها أو ينقصها وما يوجد منها بأيدي الناس فهو متناقل متوارث وربما انتقل من قطر الى قطر ومن دولة الى أخرى بحسب أغراضه والعمران الذي يستدعي له فان نقص المال في المغرب وافريقية فلم ينقص ببلاد الصقالبة والافرنج وان نقص في مصر والشأم فلم ينقص في الهند والصين وإنما هي الآلات والمكاسب والعمران يوفرها أو ينقصها مع أن المعادن يدركها البلاء كما يدرك سائر الموجودات ويسرع الى اللؤلؤ والجوهر أعظم مما يسرع الى غيره وكذا الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والقصدير ينالها من البلاء والفتاء ما يذهب باعيانها لا قرب وقت * وأما ما وقع في مصر من أمر المطالب والكنوز فسيبه ان مصر في ملكة القبط منذ آلاف أوزيد من السنين وكان موتاهم يدفنون بموجودهم من الذهب والفضة والجوهر والآلئ على مذهب من تقدم من أهل الدول فلما انقضت دولة القبط وملك الفرس بلادهم نكروا على ذلك في قبورهم وكشفوا عنه فأخذوا من قبورهم مالا يوصف كالأهرام من قبور الملوك وغيرها وكذا فعل اليونانيون من بعدهم وصارت قبورهم مظنة لذلك لهذا العهد ويعثر على الدفين فيها في كثير من الاوقات اماما يدفونه من أموالهم أو مايكرمون به موتاهم في الدفن من أوعية وتوابيت من الذهب والفضة معدة لذلك فصارت قبور القبط منذ آلاف من السنين مظنة لوجود ذلك فيها فلذلك عني أهل مصر بالبحث عن المطالب لوجود ذلك فيها واستخراجها حتي أنهم حين ضربت المكوس على الاصناف آخر الدولة ضربت على أهل المطالب وصدرت ضريبة على من يشتغل بذلك من الحثي والمهوسين فوجد بذلك المتعاطون من أهل الاطماع الذريعة الى الكشف عنه والذرع باستخراجه وما حصلوا الا على الحية في جميع مساعيهم نعوذ بالله من الخسران فيحتاج من وقع له شئ من هذا الوسواس وابتلى به ان يتعوذ بالله من العجز والكسل في طلب معاشه كما تعوذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك وينصرف عن طرق الشيطان ووسواسه ولا يشغل نفسه بالمحالات والمكاذب من الحكايات والله يرزق من يشاء بغير حساب

٥ فصل في أن الجاه مفيد للمال

وذلك أنا نجد صاحب المال والخطوة في جميع أصناف المعاش أكثر يسارا وثروة من فاقد الجاه

والسبب في ذلك أن صاحب الجاد مخدوم بالاعمال يتقرب بها اليه في سبيل التزلف والحاجة الي جاهه فالناس معينون له باعمالهم في جميع حاجاته من ضروري أو حاجي أو كلى فتحصل قيم تلك الاعمال كلها من كسبه وجميع ماشائه أن تبذل فيه الاعواض من العمل يستعمل فيه الناس من غير عوض فتتوفر قيم تلك الاعمال عليه فهو بين قيم للاعمال يكتسبها وقيم أخرى تدعوه الضرورة الى اخراجها فتتوفر عليه والاعمال لصاحب الجاه كثيرة فنفيد الغني لا قرب وقت ويزداد مع الايام يساراً وثروة ولهذا المعنى كانت الامارة أحد أسباب المعاش كما قدمناه وفقد الجاه بالكلية ولو كان صاحب مال فلا يكون يساره الا بمقدار ماله وعلى نسبة سعيه وهؤلاء هم أكثر التجار ولهذا تجد أهل الجاه منهم يكونون أيسر بكثير ومما يشهد لذلك أنا نجد كثيراً من الفقهاء وأهل الدين والعبادة اذا اشترح حسن الظن بهم واعتقد الجمهور معاملته الله في ارفادهم فأخلص الناس في اعانتهم على أحوال دنياهم والاعتمال في مصالحهم أسرعت اليهم الثروة وأصبحوا يأسير من غير مال مقني الا ما يحصل لهم من قيم الاعمال التي وقعت المعونة بها من الناس لهم رأينا من ذلك أعداداً في الامصار والمدن وفي البدو يسعي لهم الناس في الفلاح والتجر وكل قاعد بمنزله لا يبرح من مكانه فينمو ماله ويعظم كسبه ويتأهل الغني من غير سعي ويعجب من لا يظن لهذا السر في حال ثروته وأسباب غناه ويساره والله سبحانه وتعالى يرزق من يشاء بغير حساب

٦ فصل في أن السعادة والكسب إنما يحصل غالباً لاهل الخضوع

والتلق وان هذا الخلق من أسباب السعادة

قد سلف لنا فيما سبق أن الكسب الذي يستفيد به البشر انما هو قيم أعمالهم ولو قدر أحد عطل عن العمل جملة لكان فاقد الكسب بالكلية وعلى قدر عمله وشرفه بين الاعمال وحاجة الناس اليه يكون قدر قيمته وعلى نسبة ذلك نمو كسبه أو نقصانه وقد بينا آنفاً ان الجاه يفيد المال لما يحصل لصاحبه من تقرب الناس اليه باعمالهم وأمواهم في دفع المضار وجلب المنافع وكان ما يتقربون به من عمل أو مال عوضاً عما يحصلون عليه بسبب الجاه من الاغراض في صالح أو طالح وتصير تلك الاعمال في كسبه وقيمها أموال وثروة له فيستفيد الغني واليسار لا قرب وقت ثم ان الجاه متوزع في الناس ومترتب فيهم طبقة بعد طبقة ينتهي في العلو الى الملوك الذين ليس فوقهم يد عالية وفي السفلى الى من لا يملك ضراً ولا نفعاً بين أبناء جنسه وبين ذلك طبقات متعددة حكمة الله في خلقه بما ينتظم معاشهم وتيسر مصالحهم ويتم بقاؤهم لان النوع الانساني لا يتم وجوده الا بالتعاون وأنه وان ندر فقد ذلك في صورة مفروضة لا يصح بقاؤه

ثم ان هذا التعاون لا يحصل الا بالاكرام عليه لجلبهم في الاكثر بمصالح النوع ولما جعل لهم من الاختيار وان أفعالهم انما تصدر بالفكر والروية لا بالطبع وقد يتمتع من المعاونة فيتين حمله عليها فلا بد من حامل يكره أبناء النوع على مصالحهم لثم الحكمة الالهية في بقاء هذا النوع وهذا معنى قوله تعالى ورفقنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون فقد تبين أن الجاه هو القدرة الحاملة للبشر على التصرف فيمن تحت أيديهم من أبناء جنسهم بالاذن والمنع والتسلط بالقهر والغلبة ليحملهم على دفع مضارهم وجلب منافعهم في العدل بأحكام الشرائع والسياسة وعلى أغراضه فيما سوي ذلك ولكن الاول مقصود في العناية الربانية بالذات والثاني داخل فيها بالعرض كسائر الشرور الداخلة في القضاء الالهى لانه قد لا يتم وجود الخير الكثير الا بوجود شر يسير من أجل المواد فلا يفوت الخير بذلك بل يقع على ما ينطوي عليه من الشر اليسير وهذا معنى وقوع الظلم في الخليقة فتفهم ثم ان كل طبقة من طباق أهل العمران من مدينة أو اقليم لها قدرة على من دونها من الطباق وكل واحد من الطبقة السفلى يستمد بذي الجاه من أهل الطبقة التي فوقه ويزداد كاسبه تصرفاً فيمن تحت يده على قدر ما يستفيد منه والجاه على ذلك داخل على الناس في جميع أبواب المعاش ويتسع ويضيق بحسب الطبقة والطور الذي فيه صاحبه فان كان الجاه متسعاً كان الكسب الناشئ عنه كذلك وان كان ضيقاً قليلاً فثقله وفاقد الجاه وان كان له مال فلا يكون يساره الا بمقدار عمله أو ماله ونسبة سعيه ذاهبا وآيباً في تميته كأكثر التجار وأهل الفلاحة في الغالب وأهل الصنائع كذلك اذا فقدوا الجاه واقتصروا على فوائد صنائعهم فانهم يصيرون الى الفقر والخصاصة في الاكثر ولا تسرع اليهم ثروة وانما يرمقون العيش ترميقاً ويدافعون ضرورة الفقر مدافعة واذا تقرر ذلك وأن الجاه متفرع وأن السعادة والخير مقترنان بحصوله علمت أن بذله وافادته من أعظم النعم وأجائها وأن بذله من أجل المنعمين وانما يبذله لمن تحت يديه فيكون بذله بيد عالية وعزرة فيحتاج طالبه ومبتغيه الى خضوع وتماق كما يسأل أهل العز والمملوك والافيتعذر حصوله فلذلك قلنا أن الخضوع والتماق من أسباب حصول هذا الجاه المحصل للسعادة والكسب وأن أكثر أهل الثروة والسعادة بهذا التماق ولهذا نجد الكثير ممن يتخلق بالترفع والشمع لا يحصل لهم غرض الجاه فيقتصرون في التكسب على أعمالهم ويصيرون الى الفقر والخصاصة * واعلم أن هذا الكبر والترفع من الاخلاق المذمومة انما يحصل من توهم الكمال وأن الناس يحتاجون الى بضاعته من علم أو صناعة كالعالم المتبحر في علمه أو الكاتب المجيد في كتابته أو الشاعر البليغ في شعره وكل محسن في صناعته يتوهم أن الناس محتاجون لما بيده فيحدث له ترفع عليهم بذلك وكذا يتوهم أهل الانساب ممن كان في آباءه ملك أو

عالم مشهور أو كامل في طور يعبرون بما رأوه أو سمعوه من حال آبائهم في المدينة ويتوهمون أنهم استحقوا مثل ذلك بقرابتهم إليهم ووراثتهم عنهم فهم مستمسكون في الحاضر بالامر المعدوم وكذلك أهل الحيلة والبصر والتجارب بالامور قد يتوهم بعضهم كمالا في نفسه بذلك واحتياجا اليه وتجد هؤلاء الاصناف كلهم مترفعين لا يخضعون لصاحب الجاه ولا يتلقون لمن هو أعلى منهم ويستصغرون من سواهم لاعتقادهم الفضل على الناس فيستنكف أحدهم عن الخضوع ولو كان للملك ويعده مذلة وهو انا وسفها ويحاسب الناس في معاملتهم اياه بمقدار مايتوهم في نفسه ويحقد على من قصر له في شيء مما يتوهمه من ذلك وربما يدخل على نفسه الهموم والاحزان من تقصيرهم فيه ويستمر في غناء عظيم من ايجاب الحق لنفسه أو اباية الناس له من ذلك ويحصل له المقت من الناس لما في طباع البشر من التأله وقل أن يسلم أحد منهم لأحد في الكمال والترفع عليه الا أن يكون ذلك بنوع من القهر والغلبة والاستطالة وهذا كله في ضمن الجاه فاذا فقد صاحب هذا الخلق الجاه وهو مفقود له كما تبين لك مقته الناس بهذا الترفع ولم يحصل له حظ من احسانهم وفقد الجاه لذلك من أهل الطبقة التي هي أعلى منه لاجل المقت وما يحصل له بذلك من القعود عن تعاهدهم وغشيان منازلهم ففسد معاشه وبقي في خصاصة وفقر أو فوق ذلك بقليل وأما الثروة فلا تحصل له أصلا ومن هذا اشتهر بين الناس أن الكامل في المعرفة محروم من الحظ وأنه قد حوسب بما رزق من المعرفة واقتطع له ذلك من الحظ وهذا معناه ومن خلق لشيء يسر له والله المقدر لارب سواء ولقد يقع في الدول أضراب في المراتب من أهل هذا الخلق ويرتفع فيها كثير من السفلة وينزل كثير من العلية بسبب ذلك وذلك أن الدول اذا بلغت نهايتها من التغلب والاستيلاء انفرد منها منبت الملك بملكهم وسلطانهم ويئس من سواهم من ذلك وانما صاروا في مراتب دون مرتبة الملك وتحت يد السلطان وكأنهم خول له فاذا استمرت الدولة وشمخ الملك تساوى حينئذ في المنزلة عند السلطان كل من اتقى الى خدمته وتقرب اليه بنصيحة واصطنعه السلطان لغنائ في كثير من مهماته فتجد كثيرا من السوقة يسعى في التقرب من السلطان بجدوده ونصحده ويتزلف اليه بوجوه خدمته ويستعين على ذلك بعظيم من الخضوع والتملق له ولحاشيتهم وأهل نسبه حتى يرسخ قدمه معهم وينظمه السلطان في جملة فيحصل له بذلك حظ عظيم من السعادة وينتظم في عدد أهل الدولة وناشئة الدولة حينئذ من أبناء قومها الذين ذلوا أضغانهم ومهدوا أكنافهم مغترون بما كان لآبائهم في ذلك من الآثار لم تسمح به نفوسهم على السلطان ويعتدون بآثاره ويجرون في مضمار الدولة بسببه فيمقتهم السلطان لذلك ويباعدهم ويميل الى هؤلاء المصطنعين الذين لا يعتدون بقديم ولا يذهبون الى دالة ولا ترفع انما دأبهم الخضوع

له والتملق والاعمال في غرضه متى ذهب اليه فيتسع جاههم وتعلو منازلهم وتتصرف اليهم الوجوه والخواطر بما يحصل لهم من قبل السلطان والمكانة عنده ويبقى ناشئة الدولة فيأهم فيه من الترفع والاعتداد بالقديم لايزيدهم ذلك الا بعداً من السلطان ومقماً وايناراً لهؤلاء المصطنعين عليهم الى أن تقرض الدولة وهذا أمر طبيعي في الدولة ومنه جاء شأن المصطنعين في الغالب والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لارب سواه

٧ (فصل في أن القائمين بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والامامة والخطابة والاذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب)

والسبب لذلك أن الكسب كما قدمناه قيمة الاعمال وأنها متفاوتة بحسب الحاجة اليها فاذا كانت الاعمال ضرورية في العمران عامة البلوى به كانت قيمتها اعظم وكانت الحاجة اليها أشد وأهل هذه البضائع الدينية لا تضطر اليهم عامة الخلق وانما يحتاج الى ما عندهم الخواص ممن أقبل على دينه وان احتيج الى الفتيا والقضاء في الخصومات فليس على وجه الاضطرار والعموم فيقع الاستغناء عن هؤلاء في الاكثر وانما يهتم باقامة مراسمهم صاحب الدولة بماله من النظر في المصالح فيقسم له حظاً من الرزق على نسبة الحاجة اليهم على النحو الذي قررناه لا يساويهم بأهل الشوكة ولا بأهل الصنائع من حيث الدين والمراسم الشرعية لكنه يقسم بحسب عموم الحاجة وضرورة أهل العمران فلا يصح في قسمهم الا القليل وهم أيضاً لشرف بضائعهم أغزة على الخلق وعند نفوسهم فلا يخضعون لأهل الجاه حتى ينالوا منه حظاً يستدرون به الرزق بل ولا تفرغ أوقاتهم لذلك لما هم فيه من الشغل بهذه البضائع الشريفة المشتملة على أعمال الفكر والبدن بل ولا يسعهم ابتذال أنفسهم لأهل الدنيا لشرف بضائعهم فهم بمنزل عن ذلك فلذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب ولقد باحث بعض الفضلاء ففكر ذلك علي فوق بيدي أوراق مخرقة من حسابات الدواوين بدار المأمون تشتمل على كثير من الدخل والخرج وكان فيما طالعت فيه أرزاق القضاة والأئمة والمؤذنين فوقته عليه وعلم منه صحة ما قلته ورجع اليه وقضينا العجب من اسرار الله في خلقه وحكمته في عوالمه والله الخالق القادر لارب سواه

٨ (فصل في أن الفلاحه من معاش المستضعفين وأهل العافية من البدو)

وذلك لانه أصيل في الطبيعة وبسيط في منجاءه ولذلك لا تجده يتحله أحد من أهل الحضرة في الغالب ولا من المترفين ويختص متحله بالمذلة قال صلى الله عليه وسلم وقد رأى السكة ببعض دور الانصار مادخلت هذه دار قوم الادخله الذل وحمله البخاري على الاستكثار منه وترجم

عليه باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع أو تجاوز الحد الذي أمر به والسبب فيه والله اعلم ما يتبعها من المغرم المفضي الى التحكم واليد العالية فيكون الغارم ذليلاً بأَسْبَابِما تتناولهُ أيدي القهر والاستطالة قال صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تعود الزكاة مغرمًا إشارة الى الملك العضوض القاهر للناس الذي معه التسلط والجور ونسيان حقوق الله تعالى في الممولات واعتبار الحقوق كلها مغرمًا للملوك والدول والله قادر على ما يشاء والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٩ فصل في معنى التجارة ومذاهبها وأصنافها

اعلم أن التجارة محاولة الكسب بتمتية المال بشراء الساع بالرخص وبيعها بالغلاء أيامًا كانت السلعة من رقيق أو زرع أو حيوان أو قماش وذلك القدر النامي يسمى ربحًا فالمحاولة لذلك الربح إما أن يحتزن السلعة ويخين بها حوالة الاسواق من الرخص الى الغلاء فيعظم ربحه وما بأن ينقله الى بلد آخر تنفق فيه تلك السلعة أكثر من بلده الذي اشتراها فيه فيعظم ربحه ولذلك قال بعض الشيوخ من التجار لطالب الكشف عن حقيقة التجارة أنا أعلمها لك في كلمتين اشتراء الرخيص وبيع الغالي فقد حصلت التجارة إشارة له بذلك الى المعنى الذي قررناه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لأرب سواه

١٠ فصل في أي أصناف الناس يحترف بالتجارة وأيهم ينبغي له اجتناب حرفها

قد قدمنا أن معنى التجارة تمتية المال بشراء البضائع ومحاولة بيعها بأعلى من ثمن الشراء ما ينتظر حوالة الاسواق أو نقلها الى بلد هي فيه أنفق وأعلى أو بيعها بالغلاء على الآجال وهذا الربح بالنسبة الى أصل المال يسير الا ان المال اذا كان كثيرا عظم الربح لان القليل في الكثير كثير ثم لا بد في محاولة هذه التتمية من حصول هذا المال بأيدي الباعة بشراء البضائع وبيعها ومعاملتهم في تقاضي أثمانها وأهل النصفة قليل فلا بد من الغش والتطفيف المجحف بالبضائع ومن الممثل في الاثمان المجحف بالربح كتهطيل المحاولة في تلك المدة وبها نمائوه ومن الجحود والانكار المسحت لرأس المال ان لم يتقيد بالكتاب والشهادة وغناء الحكام في ذلك قليل لان الحكم انما هو على الظاهر فيعاني التاجر من ذلك احوالا صعبة ولا يكاد يحصل على ذلك التافه من الربح الا بعظم الغناء والمشقة ولا يحصل او يتلاشى رأس ماله فان كان جريئًا على الخصومة بصيرًا بالحسان شديد المماحكة مقدامًا على الحكم كان ذلك أقرب له الى النصفة بجزائه. منهم ومما حكته والا فلا بد له من جاه يدرع به يوقع له الهيبة عند الباعة ويحمل الحكام على انصافه من

معاملية فيحصل له بذلك النصفة في ماله طوعاً في الاول وكرهاً في الثاني وأما من كان فاقداً للجرأة والاقدام من نفسه فاقداً للجهاد من الحكم فينبغي له أن يحتب الاحتراف بالتجارة لانه يعرض ماله للضياع والذهاب ويصير مأكلة للباعه ولا يكاد ينتصف منهم لان الغالب في الناس وخصوصاً الرعا والباعة شرهون الى مافي أيدي الناس سواهم متوثبون عليه ولولا وازع الاحكام لأصبحت اموال الناس نهبا ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين

١١ فصل في ان خلق التجار نازلة عن خلق الاشراف والملوك

وذلك أن التجار في غالب احوالهم انما يعانون البيع والشراء ولا بد فيه من المكايسة ضرورة فان اقتصر عليها اقتصرت به على خلقها وهي اعنى خلق المكايسة بعيدة عن المروءة التي تخلق بها الملوك والاشراف وأما ان استرذل خلقه بما يتبع ذلك في اهل الطبقة السفلى منهم من المماحكة والغش والحلاقة وتعاهد الأيمان الكاذبة على الاثمان رداً وقبولا فاجدر بذلك الخلق ان يكون في غاية المذلة لما هو معروف ولذلك تجده اهل الرياسة يتحامون الاحتراف بهذه الحرفة لاجل ما يكسب من هذا الخلق وقد يوجد منهم من يسلم من هذا الخلق ويتحاماها اشرف نفسه وكرم جلاله الا انه في التادير بين الوجود والله يهدي من يشاء بفضله وكرمه وهو زب الاولين والآخريين

١٢ فصل في نقل التاجر للسلع

التاجر البصير بالتجارة لا ينقل من السلع الا ماتم الحاجة اليه من الغني والفقير والسلطان والسوقة اذ في ذلك نفاق سلعته وأما اذا اختص نقله بما يحتاج اليه البعض فقط فقد يتعذر نفاق سلعته حينئذ باعواز الشراء من ذلك البعض لعارض من العوارض فتكسد سوقه وتفسد أرباحه وكذلك اذا نقل السلعة المحتاج اليها فانما ينقل الوسط من صفها فان العالي من كل صنف من السلع انما يختص به أهل الثروة وحاشية الدولة وهم الاقل وانما يكون الناس اسوة في الحاجة الى الوسط من كل صنف فليتحذر ذلك جهده ففيه نفاق سلعته أو كسادها وكذلك نقل السلع من البلد البعيد المسافة أو في شدة الخطر في الطرقات يكون أكثر فائدة للتجار وأعظم أرباحاً وأكفل بحالة الاسواق لان السلعة المنقولة حينئذ تكون قليلة معوزة لبعدها مكانها أو شدة الغرر في طريقها فيقل حاملوها ويعز وجودها واذا قلت وعزرت غلت أثمانها وأما اذا كان البلد قريب المسافة والطريق سابل بالاً من فانه حينئذ يكثر ناقلوها فتكثر وترخص أثمانها ولهذا نجد التجار الذين يولعون بالدخول الى بلاد السودان أرفه الناس وأكثرهم

أموالاً لبعده طريقهم ومشقته واعتراض المفاضة الصعبة المخطرة بالخوف والعطش لا يوجد فيها الماء الا في أماكن معلومة يهتدي اليها أدلاء الركبان فلا يرتكب خطر هذا الطريق وبعده الا الاقل من الناس فتجد سلع بلاد السودان قليلة لدينا فتختص بالغلاء وكذلك سلعنا لديهم فتعظم بضائع التجار من تناقلها ويسرع اليهم الغنى والثروة من اجل ذلك وكذلك المسافرون من بلادنا الى المشرق لبعده الشقة ايضاً وأما المترددون في أفق واحد ما بين أمصاره وبلدانه ففائدتهم قليلة وأرباحهم نافهة لكثرة الساع وكثرة ناقلها والله هو الرزاق ذو القوة المتين

فصل في الاحتكار

١٣

ومما اشتهر عند ذوي البصر والتجربة في الامصار أن احتكار الزرع لتجني أوقات الغلاء مشؤم وانه يعود على فائدته بالتلف والحسran وسببه والله أعلم أن الناس حاجتهم الى الاقوات مضطرون الى ما يبدلون فيها من المال اضطراراً فتبقى النفوس متعلقة به وفي تعلق النفوس بما لها سر كبير في وباله على من يأخذه مجاناً ولعله الذي اعتبره الشارع في أخذ أموال الناس بالباطل وهذا وان لم يكن مجاناً فالنفوس متعلقة به لاعطائه ضرورة من غير سعة في العذر فهو كالمكره وما عدا الاقوات والمأكولات من المبيعات لا اضطرار للناس اليها وانما يبعثهم عليها التفتن في الشهوات فلا يبدلون أموالهم فيها الا باختيار وحرص ولا يبقى لهم تعلق بما أعطوه فلهذا يكون من عرف بالاحتكار تجتمع القوى النفسانية على متابعته لما يأخذه من أموالهم فيفسد رحمه والله تعالى أعلم * وسمعت فيما يناسب هذا حكاية ظريفة عن بعض مشيخة المغرب أخبرني شيخنا ابو عبد الله الابي قال حضرت عند القاضي بفاس لعهد السلطان أبي سعيد وهو الفقيه أبو الحسن المليبي وقد عرض عليه ان يختار بعض الألقاب الخزنية لجرايته قال فأطرق ملياً ثم قال لهم من مكس الحمر فاستضحك الحاضرون من أصحابه وعجبوا وسالوه عن حكمة ذلك فقال اذا كانت الجبايات كلها حراماً فاختار منها ما لا يتابعه نفس معطيه والحمر قل أن يبذل فيها أحد ماله الا وهو طرب مسرور بوجوده غير أسف عليه ولا متعلقة به نفسه وهذه ملاحظة غريبة والله سبحانه وتعالى يعلم ما تكن الصدور

(فصل في أن رخص الاسعار مضر بالمحترفين بالرخص)

١٤

وذلك أن الكسب والمعاش كما قدمناه انما هو بالصنائع أو التجارة والتجارة هي شراء البضائع والسلع وادخالها تجني بها حوالة الاسواق بالزيادة في أثمانها ويسمى ربحاً ويحصل منه الكسب والمعاش للمحترفين بالتجارة دائماً فاذا استديم الرخص في سلعة أو عرض من مأكول أو ملبوس

أو متمول على الجملة ولم يحصل للتاجر حوالة الاسواق فسد الربح والنماء بطول تلك المدة وكسد سوق ذلك الصنف فقمعد التجار عن السعي فيها وفسدت رؤس أموالهم واعتبر ذلك أولاً بالزراع فانه اذا استديم رخصه يفسد به حال المحترفين بسائر أطواره من الفلاح والزراعة لقلة الربح فيه وندارته أو فقده فيفقدون النماء في أموالهم أو يحدونه على قلة ويعودون بالاتفاق على رؤس أموالهم وتفسد أحوالهم ويصيرون الى الفقر والخصاصة ويتبع ذلك فساد حال المحترفين أيضاً بالطحن والخز وسائر ما يتعلق بالزراعة من الحرث الى صيورته ما كولا وكذا يفسد حال الجند اذا كانت أرزاقهم من السلطان على أهل الفلاح زرعاً فانها تقل حياتهم من ذلك ويعجزون عن اقامة الجندية التي هم بسببها ومطالبون بها ومنقطعون لها فتفسد أحوالهم وكذا اذا استديم الرخص في السكر والعسل فسد جميع ما يتعلق به وقعد المحترفون عن التجارة فيه وكذا الملبوسات اذا استديم فيها الرخص فاذا الرخص المفرط يحجف بمعاش المحترفين بذلك الصنف الرخيص وكذا الغلاء المفرط أيضاً وانما معاش الناس وكسبهم في التوسط من ذلك وسرعة حوالة الاسواق وعلم ذلك يرجع الى العوائد المتقررة بين أهل العمران وانما يحمدهم الرخص في الزرع من بين المبيعات لعموم الحاجة اليه واضطرار الناس الى الاقوات من بين الغنى والفقر والعالة من الخلق هم الاكثر في العمران فيعم الفرق بذلك ويرجع جانب القوت على جانب التجارة في هذا الصنف الخاص والله الرزاق ذو القوة المتين والله سبحانه وتعالى رب العرش العظيم

١٥ (فصل في أن خالق التجارة نازلة عن خالق الرؤساء وبعيدة من المروءة)

قد قدمنا في الفصل قبله أن التاجر مدفوع الى معاناة البيع والشراء وجلب الفوائد والارباح ولا بد في ذلك من المكايسة والمحاكة والتحذلق وممارسة الخصومات واللجاج وهي عوارض هذه الحرفة وهذه الاوصاف نقص من الذكاء والمروءة وتجرح فيها لان الافعال لا بد من عود آثارها على النفس فأفعال الخير تعود بأثار الخير والذكاء وافعال الشر والسفسفة تعود بضد ذلك فتتمكن وترسخ ان سبقت وتكررت وتنقص خلال الخير ان تأخرت عنها بما ينطبع من آثارها المذمومة في النفس شأن الملكات الناشئة عن الافعال وتتفاوت هذه الآثار بتفاوت أصناف التجار في أطوارهم فمن كان منهم سافل الطور محالفا لاشرار الباعة أهل الغش والحلافة والفجور في الإيمان اقرارا وانكارا كانت رداءة تلك الخلق عنه أشد وغلبت عليه السفسفة وبعد عن المروءة واكتسابها بالجملة والا فلا بد له من تأثير المكايسة والمحاكة في مروءته وفقدان ذلك منهم في الجملة ووجود الصنف الثاني منهم الذي قدمناه في الفصل قبله انهم

يدرعون بالجاء ويعوض لهم من مباشرة ذلك فهم نادرواقل من النادر وذلك أن يكون المال قد يوجد عنده دفعة بنوع غريب أو ورثه عن أحد من أهل بيته فحصل له ثروة تعينه على الاتصال بأهل الدولة وتكسبه ظهوراً وشهرة بين أهل عصره فيرتفع عن مباشرة ذلك بنفسه ويدفعه الى من يقوم له به من وكلائه وحشمه ويسهل له الأحكام النصفة في حقوقهم بما يؤنس من بره واتحافه فيبعدونه عن تلك الخلق بالبعد عن معاناة الأفعال المقتضية لها كما مر فتكون مزواتهم أرسخ وأبعد عن تلك الحاجة الا ما يسرى من آثار تلك الأفعال من وراء الحجاب فانهم يضطرون الى مشاركة أحوال أولئك الوكلاء ووفقهم أو خلافهم فيما يأتون أو يذرون من ذلك الا انه قليل ولا يكاد يظهر أثره والله خلقكم وماتعملون

١٦ فصل في أن الصنائع لا بد لها من المعلم

(اعلم) ان الصناعة هي ملكة في أمر على فكرى وبكونه عماليا هو جسماني محسوس والاحوال الجسمانية المحسوسة تقاها بالمباشرة أو عبها وأكمل لان المباشرة في الاحوال الجسمانية المحسوسة أتم فائدة والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته وعلى نسبة الاصل تكون الملكة ونقل المعاينة أو عب وأتم من نقل الخبر والعلم فالملكة الحاصلة عنه أكمل وأرسخ من الملكة الحاصلة عن الخبر وعلى قدر جودة التعليم وملكة المتعلم يكون حذق المتعلم في الصناعة وحصول ملكته ثم ان الصنائع منها البسيط ومنها المركب والبسيط هو الذى يختص بالضروريات والمركب هو الذى يكون للسكاليات والمتقدم منها في التعليم هو البسيط لبساطته أولاً ولانه مختص بالضروري الذى تتوفر الدواعي على نقله فيكون سابقاً في التعليم ويكون تعليمه لذلك ناقصاً ولا يزال الفكر يخرج أصنافها ومركباتها من القوة الى الفعل بالاستنباط شيئاً فشيئاً على التدرج حتى تكمل ولا يحصل ذلك دفعة وانما يحصل في أزمان وأحيان اذ خروج الاشياء من القوة الى الفعل لا يكون دفعة لاسيما في الامور الصناعية فلا بد له اذن من زمان ولهذا تجد الصنائع في الامصار الصغيرة ناقصة ولا يوجد منها الا البسيط فاذا تزايدت حضارتها ودعت أمور الترف فيها الى استعمال الصنائع خرجت من القوة الى الفعل وتنقسم الصنائع أيضاً الى ما يختص بأمر المعاش ضرورياً كان أو غير ضرورى والى ما يختص بالافكار التي هي خاصة الانسان من العلوم والصنائع والسياسة ومن الاول الحياكة والجزارة والتجارة والحدادة وأمثالها ومن الثاني الوراقة وهي معاناة الكتب بالانساخ والتجليد والغناء والشعر وتعليم العلم وأمثال ذلك ومن الثالث الجندي وأمثالها والله اعلم

١٧ فصل في أن الصنائع انما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته

والسبب في ذلك ان الناس ما لم يستوف العمران الحضري وتمتد المدينة انما همهم في الضروري من المعاش وهو تحصيل الاقوات من الحنطة وغيرها فاذا تمدت المدينة وتزايدت فيها الاعمال ووفت بالضروري وزادت عليه صرف الزائد حينئذ الى الكمالات من المعاش ثم ان الصنائع والعلوم انما هي للانسان من حيث فكره الذي يتميز به عن الحيوانات والقوت له من حيث الحيوانية والغذائية فهو مقدم ضروريته على العلوم والصنائع وهي متأخرة عن الضروري وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنيق فيها حينئذ واستجادة ما يطلب منها بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة وأما العمران البدوي أو القليل فلا يحتاج من الصنائع الا البسيط خاصة المستعمل في الضروريات من نجار أو حداد أو خياط أو حائك أو جزار واذا وجدت هذه بعد فلا توجد فيه كاملة ولا مستجادة وانما يوجد منها بمقدار الضرورة اذ هي كلها وسائل الى غيرها وليست مقصودة لذاتها واذا زخر بحر العمران وطلبت فيه الكمالات كان من جملة تلك التأنيق في الصنائع واستجاداتها فكملت بجميع متمماتها وتزايدت صنائع أخرى معها مما تدعو اليه عوائد الترف وأحواله من جزار ودباغ وخراز وصائغ وأمثال ذلك وقد تنتهي هذه الاصناف اذا استبحر العمران الى أن يوجد منها كثير من الكمالات والتأنيق فيها في الغاية وتكون من وجوه المعاش في المصر لمتيحها بل تكون فائدتها من أعظم فوائد الاعمال لما يدعو اليه الترف في المدينة مثل الدهان والصفار والحمامي والطباخ والسفاح والهراس ومعلم الغناء والرقص وقرع الطبول على التوقيع ومثل الوراقين الذين يعانون صناعة انتساخ الكتب وتجليدها وتصحيحها فان هذه الصناعة انما يدعو اليها الترف في المدينة من الاشتغال بالامور الفكرية وأمثال ذلك وقد تخرج عن الحد اذا كان العمران خارجا عن الحد كما بلغنا عن أهل مصر أن فيهم من يعلم الطيور العجم والحمر الانسية ويخيل أشياء من العجائب باهمام قلب الاعيان وتعليم الحداء والرقص والمشي على الحيوط في الهواء ورفع الاثقال من الحيوان والحجارة وغير ذلك من الصنائع التي لا توجد عندنا بالمغرب لان عمران أمصاره لم يبلغ عمران مصر والقاهرة أدام الله عمراتها بالمسلمين

١٨ «فصل في أن رسوخ الصنائع في الامصار انما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها»

والسبب في ذلك ظاهر وهو أن هذه كلها عوائد للعمران وألوان والعوائد انما ترسخ بكثرة التكرار وطول الامد فتستحكم صبغة ذلك وترسخ في الاجيال واذا استحكمت الصبغة عسر

نزعها ولهذا نجد في الامصار التي كانت استبحرت في الحضارة لما تراجع عمراتها وتناقص بقيت فيها آثار من هذه الصنائع ليست في غيرها من الامصار المستحدثة العمران ولو بلغت مبالغها في الوفور والكثرة وما ذاك الا لان احوال تلك القديمة العمران مستحكمة راسخة بطول الاحقاب وتداول الاحوال وتكررها وهذا لم يبلغ الغاية بعد وهذا كالحال في الاندلس لهذا العهد فانما نجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو اليه عوائد أمصارها كالمباني والطبخ وأصناف الغناء واللهو من الآلات والاورار والرقص وتنضيد الفرش في القصور وحسن الترتيب والاوزاع في البناء وصوغ الآنية من المعادن والخزف وجمع المواعين واقامة الولائم والاعراس وسائر الصنائع التي يدعو اليها الترف وعوائده فيجدهم أقوم عليها وأبصر بها ونجد صنائعها مستحكمة لديهم فهم على حصنة موفورة من ذلك وحظ متميز بين جميع الامصار وان كان عمراتها قد تناقص والكثير منه لا يساوي عمران غيرها من بلاد العدو وما ذاك الا لما قدمناه من رسوخ الحضارة فيهم برسوخ الدولة الاموية وما قبلها من دولة القوط وما بعدها من دولة الطوائف الى هلم جرا فبلغت الحضارة فيها مبلغا لم تبلغه في قطر الا ما ينقل عن العراق والشام ومصر أيضا لطول آماة الدول فيها فاستحكمت فيها الصنائع وكلت جميع أصنافها على الاستجادة والتتميق وبقيت صبغتها ثابتة في ذلك العمران لا تفارقه الى أن ينتقض بالكلية حال الصبغ اذا رسخ في الثوب وكذا أيضا حال تونس فيما حصل فيها بالحضارة من الدول الصنهاجية والموحدين من بعدهم وما استكمل لها في ذلك من الصنائع في سائر الاحوال وان كان ذلك دون الاندلس الا أنه متضاعف برسوم منها تنقل اليها من مصر لقرب المسافة بينهما وتردد المسافرين من قطرها الى قطر مصر في كل سنة وربما سكن أهلها هناك عصوراً فينقلون من عوائد ترفهم ومحكم صنائعهم ما يقع لديهم موقع الاستحسان فصارت أجوالها في ذلك متشابهة من أحوال مصر لما ذكرناه ومن أحوال الاندلس لما أن كثر ساكنها من شرق الاندلس حين الجلاء لعهد المائة السابعة ورسخ فيها من ذلك أحوال وان كان عمراتها ليس بمناسب لذلك لهذا العهد الا أن الصيغة اذا استحكمت قليلا ما تحول الابزوال محالها وكذا نجد بالقيروان ومراكش وقلعة ابن حماد رأياً باقياً من ذلك وان كانت هذه كلها اليوم خراباً أو في حكم الخراب ولا يتفطن لها الا البصير من الناس فيجد من هذه الصنائع آثاراً تدله على ما كان بها كأثر الخط الممحو في الكتاب والله الخلاق العليم

اذلا فائدة له في جميع عمره في شيء مما سواه فلا يصرفه الا فيما له قيمة في مصره ليعود عليه بالنفع وان كانت الصناعة مطلوبة وتوجه اليها النفاق كانت حينئذ الصناعة بمثابة السلعة التي تنفق سوقها وتجلب للبيع فتجهد الناس في المدينة لتعلم تلك الصناعة ليكون منها معاشهم واذا لم تكن الصناعة مطلوبة لم تنفق سوقها ولا يوجه قصد الى تعلمها فاختصت بالترك وفقدت للاهمال ولهذا يقال عن علي رضي الله عنه قيمة كل امرئ ما يحسن بمعنى أن صناعته هي قيمته أي قيمة عمله الذي هو معاشه وأيضا فهنا سر آخر وهو أن الصنائع واجدتها انما تطلبها الدولة فهي التي تنفق سوقها وتوجه الطلبات اليها وما لم تطلبه الدولة وانما يطيلها غيرها من أهل المصر فليس على نسبتها لان الدولة هي السوق الاعظم وفيها نفاق كل شيء والقليل والكثير فيها على نسبة واحدة فما نفق منها كان أكثرها ضرورة والسوقه وان طلبوا الصناعة فليس طلبهم بعام ولا سوقهم بنافقة والله سبحانه وتعالى قادر على ما يشاء

٢٠ (فصل في أن الامصار اذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع)

وذلك لما بينا أن الصنائع انما تستجد اذا احتسج اليها وكثر طالبا واذا ضعفت أحوال المصر وأخذ في الهرم بانتقاص عمرانه وقلة ساكنه تناقص فيه الترف ورجعوا الى الاقتصار على الضروري من أحوالهم فتقل الصنائع التي كانت من توابع الترف لان صاحبها حينئذ لا يصح له بها معاشه فيفر الى غيرها أو يموت ولا يكون خلف منه فيذهب رسم تلك الصنائع جملة كما يذهب النقاشون والصواغ والكتتاب والنساخ وأمثالهم من الصنائع لحاجات الترف ولا تزال الصنائع في الناقص مازال المصر في التناقص الى أن تضمحل والله الخلاق العليم سبحانه وتعالى

٢١ (فصل في أن العرب أبعد الناس عن الصنائع)

والسبب في ذلك أنهم أعرق في البدو وأبعد عن العمران الحضري وما يدعو اليه من الصنائع وغيرها والعجم من أهل المشرق وأمم النصرانية عدوة البحر الرومي أقوم الناس عليها لانهم أعرق في العمران الحضري وأبعد عن البدو وعمرانه حتى ان الابل التي أعانت العرب على التوحش في القفر والاعراق في البدو ومفقودة لديهم بالجملة ومفقودة مراعيها والرمال المهينة لتناجها ولهذا نجد أوطان العرب وما ملكوه في الاسلام قليل الصنائع بالجملة حتى تجلب اليه من قطر آخر وانظر بلاد العجم من الصين والهند وأرض الترك وأمم النصرانية كيف استكثر فيها الصنائع واستجلبها الامم من عندهم وعجم

المغرب من البربر مثل العرب في ذلك لرسوخهم في البداوة منذ أحقاب من السنين ويشهد ذلك بذلك قلة الامصار بقطرهم كما قدمناه فالصنائع بالمغرب لذلك قليلة وغير مستحكمة الا ما كان من صناعة الصوف من نسجه والجلد في خرزه ودبغه فانهم لما استحضروا بلغوا فيها المبالغ لعموم البلوى بها وكون هذين أغلب السلع في قطرهم لما هم عليه من حال البداوة وأما المشرق فقد رسخت الصنائع فيه منذ ملك الامم الاقدمين من الفرس والنبط والقبط وبنى اسرائيل ويونان والروم أحقابا متطاولة فرسخت فيهم أحوال الحضارة ومن جملة الصنائع كما قدمناه فلم يمح رسمها وأما اليمن والبحرين وعمان والجزيرة وان ملكه العرب الا أنهم تداولوا ملكة آلاف من السنين في أمم كثيرين منهم واختطوا أمصاره ومدنه وبلغوا الغاية من الحضارة والترف مثل عاد وثمود والعمالقة وحميز من بعدهم والتبابعة والاذواء فطال أمد الملك والحضارة واستحكمت صيغتها وتوفرت الصنائع ورسخت فلم تهل ببلاء الدولة كما قدمناه فبقيت مستجدة حتى الآن واختصت بذلك الوطن كصناعة الوشي والعصب وما يستجد من حوك الثياب والحرير فيها والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

٢٢ ﴿ فصل فيمن حصلت له ملكة في صناعة فقل أن يجيد بعدها ملكة في أخرى ﴾

ومثال ذلك الخياط اذا أجاد ملكة الخياطة وأحكمها ورسخت في نفسه فلا يجيد من بعدها ملكة التجارة أو البناء الا أن تكون الاولى لم تستحكم بعد ولم ترسخ صيغتها والسبب في ذلك أن الملكات صفات للنفس وألوان فلا تزدحم دفعة ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن استعداداً لحصولها فاذا تلونت النفس بالملكة الاخرى وخرجت عن الفطرة ضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة فكان قبولها للملكة الاخرى أضعف وهذا بين يشهد له الوجود فقل أن يجيد صاحب صناعة يحكمها ثم يحكم من بعدها أخرى ويكون فيهما معا على رتبة واحدة من الاجادة حتى أهل العلم الذين ملكتهم فكرية فهم بهذه المثابة ومن حصل منهم على ملكة علم من العلوم وأجادها في الغاية فقل أن يجيد ملكة علم آخر على نسبه بل يكون مقصرا فيه ان طلبه الا في الاقل النادر من الاحوال ومبني سببه على ما ذكرناه من الاستعداد وتلونه بلون الملكة الحاصلة في النفس والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لارب سواه

٢٣ ﴿ فصل في الإشارة الى أمهات الصنائع ﴾

اعلم أن الصنائع في النوع الانساني كثيرة لكثرة الاعمال المتداولة في العمران فهي بحيث (٤١ - ابن خلدون)

تشذ عن الحصر ولا يأخذها العد إلا أن منها ما هو ضروري في العمران أو شريف بالموضوع فنخصها بالذكر ونترك ماسواها فأما الضروري فالفلاحة والبناء والحياطة والتجارة والحياكة وأما الشريفة بالموضوع فكالتلويد والكتابة والوراقة والغناء والطب فاما التوليد فانها ضرورية في العمران وعامة البلوى اذ بها يحصل حياة المولود ويتم غالباً وموضوعها مع ذلك المولودون وأمهااتهم وأما الطب فهو حفظ الصحة للانسان ودفع المرض عنه ويتفرع عن علم الطبيعة وموضوعه مع ذلك بدن الانسان وأما الكتابة وما يتبعها من الوراقة فهي حافظة على الانسان حاجته ومقيدة لها عن النسيان ومبلغه ضمائر النفس الى البعيد الغائب ومخلدة نتائج الافكار والعلوم في الصحف ورافعة رتب الوجود للمعاني وأما الغناء فهو نسب الاصوات ومظهر جمالها للاسماع وكل هذه الصنائع الثلاثة داع الى مخالطة الملوك الاعاظم في خلواتهم ومجالس أنسهم فانها بذلك شرف ليس لغيرها وما سوى ذلك من الصنائع فتابعة ومتممة في الغالب وقد يختلف ذلك باختلاف الاغراض والدواعي والله أعلم بالصواب

٢٤ فصل في صناعة الفلاحة

هذه الصناعة ثمرتها اتخاذ الاقوات والحبوب بالقيام على اثاره الارض لها وازدراعاها وعلاج نباتها وتعهده بالسقي والتممية الى بلوغ غايته ثم حصاد سنبله واستخراج حبه من غلافه واحكام الاعمال لذلك وتحصيل أسبابه ودواعيه وهي أقدم الصنائع لما أنها محصلة للقوت المكمل لحياة الانسان غالباً اذ يمكن وجوده من دون جميع الاشياء الا من دون القوت ولهذا اختصت هذه الصناعة بالبدو اذ قدمنا أنه أقدم من الحضرة وسابق عليه فكانت هذه الصناعة لذلك بدوية لا يقوم عليها الحضرة ولا يعرفونها لان أحوالهم كلها تانية عن البداوة فصنائعهم تانية عن صنائعها وتابعة لها والله سبحانه وتعالى مقيم العباد فيما أراد

٢٥ فصل في صناعة البناء

هذه الصناعة أول صنائع العمران الحضري وأقدمها وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل ولكن والمأوى للابدان في المدن وذلك أن الانسان لما جبل عليه من الفكر في عواقب أحواله لا بد أن يفكر فيما يدفع عنه الاذى من الحر والبرد كاتخاذ البيوت المكتشفة بالسقف والحيطان من سائر جهاتها والبشر مختلف في هذه الحيلة الفكرية ففهم المعتدلون فيها يتخذون ذلك باعتدال أهالي الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس وأما أهل البدو فيبعدون عن اتخاذ ذلك لقصور أفكارهم عن ادراك الصنائع البشرية فيبادرون للغيران والكهوف المعدة من غير علاج

ثم المعتدلون المتخذون للمأوى قد يتكاثرون في البسيط الواحد بحيث يتناكرون ولا يتعارفون فيخشون طروق بعضهم بعضا فيحتاجون الى حفظ مجتمعهم بإدارة ماء أو أسوار تحوطهم ويصير جميعا مدينة واحدة ومصر واحدا ويحوطهم الحكم من داخل يدفع بعضهم عن بعض وقد يحتاجون الى الانتصاف ويتخذون المعادل والحصون لهم ولمن تحت أيديهم مثل الملوك ومن في معناهم من الأمراء وكبار القبائل في المدن كل مدينة على ما يتعارفون ويصطلحون عليه ويناسب مزاج هوائهم واختلاف أحوالهم في الغنى والفقر وكذا حال أهل المدينة الواحدة فمنهم من يتخذ القصور والمصانع العظيمة الساحة المشتملة على عدة الدور والبيوت والغرف الكبيرة لكثرة ولده وحشمه وغياله وتابعه ويؤسس جدرانها بالحجارة ويلبسها بالكلس ويعالي عليها بالأصغة والجص ويبالغ في ذلك بالتشديد والتنميق اظهارا للبطشة بالعناية في شأن المأوى ويهيئ مع ذلك الأسراب والمطامير للاختزان لأقواته والأسطبلات لربط مفراته اذا كان من أهل الجنود وكثرة التابع والحاشية كالأمراء ومن في معناهم ومنهم من يبنى الدورية والبيوت لنفسه وسكنه وولده لا يبتغي ما وراء ذلك لقصور حاله عنه واقتصاره على الكن الطيعي للبشر وبين ذلك مراتب غير منحصرة وقد يحتاج هذه الصناعة أيضاً عند تأسيس الملوك وأهل الدول المدن العظيمة والها كل المرتفعة ويبالغون في اتقان الأوضاع وعلو الأبرام مع الأحكام لتباعد الصناعة مبالغها وهذه الصناعة هي التي تحصل الدواعي لذلك وأكثر ما تكون هذه الصناعة في الأقاليم المعتدلة من الرابع وما حواليه اذ الأقاليم المنحرفة لآبناء فيها وانما يتخذون البيوت حظائر من القصب والطين وانما يوجد في الأقاليم المعتدلة له وأهل هذه الصناعة القائمون عليها متفاوتون فمنهم البصير الماهر ومنهم القاصر ثم هي تتنوع أنواعا كثيرة فمنها البناء بالحجارة المنجدة يقام بها الجدران ملصقا بعضها الى بعض بالطين والكلس الذي يعقد معها ويلتحم كأنها جسم واحد ومنها البناء بالتراب خاصة يتخذها لוחان من الخشب مقدران طولا وعرضا باختلاف العادات في التقدير وأوسطه أربعة أذرع في ذراعين فينصبان على أساس وقد يبعد ما بينهما بمائرا صاحب البناء في عرض الأساس ويوصل بينهما بأذرع من الخشب يربط عليها بالحبال والجدر ويسد الجهتان الباقيتان من ذلك الخلاء بينهما بلوحيين آخرين صغيرين ثم يوضع فيه التراب مخلطا بالكلس ويركز بالمرآكز المعدة حتي ينعم ركزه وتختلط أجزاءه ثم يزداد التراب ثانياً وثالثاً الى أن يمتلئ ذلك الخلاء بين اللوحيين وقد تداخلت أجزاء الكلس والتراب وصارت جسما واحدا ثم يمد نصب اللوحيين على الصورة ويركز كذلك الى ان يتم وينظم الألواح كلها سطرا من فوق سطر الى أن يتنظم الحائط كله ملتجما كأنه قطعة واحدة ويسمى الطابية وصانعه الطواب* ومن صنائع البناء أيضاً أن تجال الحيطان بالكلس بعد أن يحل بالماء

ويخمر أسبوعاً أو أسبوعين على قدر ما يعتدل مزاجه عن افراط النارية المفسدة للإلحاح فإذا تم له ما يرضاه من ذلك علاه من فوق الحائط وذلك الى ان يلتحم* ومن صنائع البناء عمل السقف بان يمد الخشب المحككة النجارة أو الساذجة على حائطي البيت ومن فوقها الألواح كذلك موصولة بالداستار ويصب عليها التراب والكلس ويسط بلماً كزحقي تتداخل أجزاؤها وتلتحم ويعالى عليها الكلس كما يعالى على الحائط* ومن صناعة البناء ما يرجع الى التعميق والتزيين كما يصنع من فوق الحيطان الاشكال المجسمة من الجص يخمر بالماء ثم يرجع جسداً وفيه بقية البلب فيشكل على التناسب تخريماً بمثابة الحديد الى ان يبقى له رونق ورواء وربما عوى على الحيطان أيضاً بقطع الرخام والآجر والخزف أو بالصدف أو بالسبج يفصل أجزاء متجانسة أو مختلفة وتوضع في الكلس على نسب وأوضاع مقدرة عندهم بيدويه الحائط للعيان كأنه قطع الرياض المنمنمة الى غير ذلك من بناء الحباب والصحاريج لسفح الماء بعد أن تعد في البيوت قصاع الرخام القوراء المحككة الخراط بالفوهات في وسطها تنبع الماء الجاري الى الصحاريج يجلب اليه من خارج في القنوات المفضية الى البيوت وأمثال ذلك من أنواع البناء وتختلف الصناعات في جميع ذلك باختلاف الحذق والبصرويعظم عمران المدينة ويتسع فيكثر ونرى ما يرجع للحكام الى نظرهؤلاء فيهم أبصره من أحوال البناء وذلك أن الناس في المدن لكثرة الازدحام والعمران يتشاحون حتي في الفضاء والهواء للأعلى والأسفل ومن الانتفاع بظاهر البناء بما يتوقع معه حصول الضرر في الحيطان فيمنع جاره من ذلك الا ما كان له فيه حق ويختلفون أيضاً في استحقاق الطرق والمنافذ للمياه الجارية والفضلات المسربة في القنوات وربما يدعي بعضهم حق بعض في حائطه أو علوه أو فئاته لتضابق الجوار أو يدعي بعضهم على جاره اختلال حائطه خشية سقوطه ويحتاج الى الحكم عليه بهدمه ودفع ضرره عن جاره عند من يراه أو يحتاج الى قسمة دار أو عرصاة بين شريكين بحيث لا يقع معها فساد في الدار ولا اهما لنفعها وأمثال ذلك ويخفي جميع ذلك الأعلى أهل البصر العارفين بالبناء وأحواله المستدلين عليها بالمعاقد والقمط ومراكز الخشب وميل الحيطان واعتدالها وقسم المساكن على نسبة أوضاعها ومنافعها وتسريب المياه في القنوات مجلوبة ومرفوعة بحيث لا تضرب ما مرت عليه من البيوت والحيطان وغير ذلك فلهم بهذا كله البصر والخبرة التي ليست لغيرهم وهم مع ذلك يختلفون بالجودة والقصور في الاجيال باعتبار الدول وقوتها فانا قد مننا أن الصنائع وكلها انما هو بكمال الحضارة وكثرتها بكثرة الطالب لها فذلك عند ما تكون الدولة بدوية في أول أمرها تقتقر في أمر البناء الى غير قطرها كما وقع للوليد بن عبد الملك حين أجمع على بناء مسجد المدينة والقدس ومسجده بالشام فبعث الى ملك الروم بالقسطنطينية في الفعلة المهرة في البناء فبعث اليه منهم من حصل له غرضه

من تلك المساجد وقد يعرف صاحب هذه الصناعة أشياء من الهندسة مثل تسوية الحيطان بالوزن واجراء المياه بأخذ الارتفاع وأمثال ذلك فيحتاج الى البصر بشئ من مسأله وكذلك في جر الاثقال بالهندام فان الاجرام العظيمة اذا شيدت بالحجارة الكبيرة يعجز قدر الفعلة عن رفعها الى مكانها من الحائط فيتحيل لذلك بمضاعفة قوة الحبل بادخاله في المعالق من أنقاب مقدرة على نسب هندسية تصير الثقل عند معاناة الرفع خفيفاً فيتم المراد من ذلك بغير كلفة وهذا انما يتم باصول هندسية معروفة متداولة بين البشر وبمثلها كان بناء الهياكل الماثلة لهذا العهد التي يحسب الناس انها من بناء الجاهلية وان أبدانهم كانت على نسبتها في العظم الجسماني وليس كذلك وانما تم لهم ذلك بالحيل الهندسية كما ذكرناه ففهم ذلك والله يخلق ما يشاء سبحانه

٢٦ فصل في صناعة التجارة

هذه الصناعة من ضروريات العمران ومادتها الحشب وذلك ان الله سبحانه وتعالى جعل للآدمي في كل مكون من المكونات منافع تكمل بها ضروراته أو حاجاته وكان منها الشجر فان له فيه من المنافع ما لا يخصر مما هو معروف لكل أحد ومن منافعها اتخاذها خشباً اذا يبست وأول منافعها أن يكون وقوداً للنيران في معاشهم وعصياً للاتكاء والزود وغيرها من ضرورياتهم ودعائم لما يخشى ميله من أثقالهم ثم بعد ذلك منافع أخرى لاهل البدو والحضر فأما أهل البدو فيتخذون منها العمود والاولاد لحيامهم والحدوج لضعائهم والرماح والقسي والسهام لسلاحهم وأما أهل الحضر فالسقف لبيوتهم والاغلاق لابوابهم والكراسي لجلوسهم وكل واحدة من هذه فالحشبة مادة لها ولا تصير الى الصورة الخاصة بها الا بالصناعة والصناعة المتكلفة بذلك المحصلة لكل واحد من صورها هي التجارة على اختلاف رتبها فيحتاج صاحبها الى تفصيل الحشب أولاً ما بالحشب أصغر منه او الواح ثم يركب تلك الفصائل بحسب الصور المطلوبة وهو في كل ذلك يحاول بصنعه اعداد تلك الفصائل بالانتظام الى أن تصير أعضاء لذلك الشكل المخصوص والقائم على هذه الصناعة هو التجار وهو ضروري في العمران ثم اذا عظمت الحضارة وجاء الترف وتألق الناس فيما يتخذونه من كل صنف من سقف أبواب أو كرسي أو ماعون حدث التألق في صناعة ذلك واستجداته بغرائب من الصناعة كالمية ليست من الضروري في شئ مثل التخطيط في الابواب والكراسي ومثل تهية القطع من الحشب بصناعة الخراط يحكم برهيا وتشكيلها ثم تؤلف على نسب مقدرة وتلحم بالدساتر فتبدو لرأي العين ملتحمة وقد أخذ منها اختلاف الاشكال على تناسب يصنع هذا في كل شئ يتخذ من الحشب فيجئ أنق ما يكون وكذلك في جميع ما يحتاج اليه من الآلات المتخذة من الحشب من أي نوع كان وكذلك فيحتاج الى هذه الصناعة في انشاء

المراكب البحرية ذات الألواح والدرس وهي اجرام هندسية صنعت على قالب الحوت واعتبار سبجه في الماء بقوادمه وكله ليكون ذلك الشكل أعون لها في مصادمة الماء وجعل لها عوض الحركة الحيوانية التي للسماك تحريك الرياح وربما أعينت بحركة المقاذيف كما في الاساطيل وهذه الصناعة من أصلها محتاجة الى أصل كبير من الهندسة في جميع أصنافها لان اخراج الصور من القوة الى الفعل على وجه الاحكام محتاج الى معرفة التناسب في المقادير اما عموماً أو خصوصاً وتناسب المقادير لا بد فيه من الرجوع الى المهندس ولهذا كان أئمة الهندسة اليونانيون كلهم أئمة في هذه الصناعة فكان أوقليدس صاحب كتاب الاصول في الهندسة نجاراً وبها كان يعرف وكذلك ابولونيوس صاحب كتاب المخروطات وميلاوش وغيرهم وفيما يقال ان معلم هذه الصناعة في الخليقة هو نوح عليه السلام وبها أنشأ سفينة النجاة التي كانت بها معجزته عند الطوفان وهذا الخبر وان كان ممكناً أعني كونه نجاراً الا أن كونه أول من علمها أو تعلمها لا يقوم دليل من النقل عليه لبعد الآماد وانما معناه والله أعلم الاشارة الى قدم التجارة لانه لم يصح حكاية عنها قبل خبر نوح عليه السلام فجعل كأنه أول من تعلمها ففهم أسرار الصنائع في الخليقة والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٢٧ فصل في صناعة الحياكة والخياطة

هاتان الصناعتان ضروريتان في العمران لما يحتاج اليه البشر من الرفه فالاولى لنسج الغزل من الصوف والكتان والقطن سدا في الطول والحماما في العرض لذلك النسج بالاتحام الشديد فيتم منها قطع مقدرة فمنها الأكسية من الصوف للاشتمال ومنها الثياب من القطن والكتان للباس والصناعة الثانية لتقدير المنسوجات على اختلاف الاشكال والعوائد تفصل أولاً بالمقراض قطعاً مناسبة للاعضاء البدنية ثم تلحم تلك القطع بالخياطة المحكمة وصلاً أو تبييناً أو تفسيحاً على حسب نوع الصناعة وهذه الثانية مختصة بالعمران الحضري لما أن أهل البدو يستغنون عنها وانما يشتملون الاثواب اشتمالاً وانما تفصيل الثياب وتقديرها والحماما بالخياطة للباس من مذاهب الحضارة وفنونها وتفهم هذا في سر تحريم الخيط في الحج لما أن مشروعية الحج مشتملة على نبذ العلائق الدنيوية كلها والرجوع الى الله تعالى كما خلقنا أول مرة حتي لا يعلق العبد قلبه بشئ من عوائد ترفه لا طيباً ولا نساء ولا مخيطاً ولا خفا ولا يتعرض لصيد ولا لشيء من عوائد التي تلونت بها نفسه وخلقته مع انه يفقدها بالموت ضرورة وانما يحجب كأنه وارد الى المحشر ضارعا بقلبه مخلصاً لربه وكان جزاؤه ان تم له اخلاصه في ذلك أن يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه سبحانه ما أرفقك بعبادك وأرحمك بهم في طلب هدايتهم اليك * وهاتان

الصنعتان قديمتان في الخليقة لما أن الدفء ضروري للبشر في العمران المعتدل وأما المنحرف الى الحر فلا يحتاج أهله الى دفء ولهذا يبلغنا عن أهل الاقليم الاول من السودان أنهم عراة في الغالب ولقد تم هذه الصنائع ينسبها العامة الى ادريس عليه السلام وهو أقدم الانبياء وربما ينسبونها الى هرمس وقد يقال أن هرمس هو إدريس والله سبحانه وتعالى هو الخلاق العليم

٢٨ فصل في صناعة التوليد

وهي صناعة يعرف بها العمل في استخراج المولود الآدمي من بطن أمه من الرفق في اخراجه من رحمها وتهيئة أسباب ذلك ثم ما يصلحه بعد الخروج على ما ذكر وهي مختصة بالنساء في غالب الامر لما أنهن الظاهرات بعضهن على عورات بعض وتسمى القائمة على ذلك منهن القابلة استعير فيها معنى الاعطاء والقبول كأن النفساء تعطيها الجنين وكأنها تقبله وذلك ان الجنين اذا استكمل خلقه في الرحم وأطواره وبلغ الى غايته والمدة التي قدر الله لمكثه وهي تسعة أشهر في الغالب فيطلب الخروج بما جعل الله في المولود من النزوع لذلك ويضيق عليه المنفذ فيعسر وربما مزق بعض جوانب الفرج بالضغط وربما انقطع بعض ما كان في الاغشية من الالتصاق والالتحام بالرحم وهذه كلها الام يشد لها الوجع وهو معنى الطلق فتكون القابلة معينة في ذلك بعض الشيء بغمز الظهر والوركين وما يحاذي الرحم من الاسافل تساوق بذلك فعل الدافعة في اخراج الجنين وتسهيل ما يصعب منه بما يمكنها وعلى ما تهتدي الى معرفة عسره ثم اذا خرج الجنين بقيت بينه وبين الرحم الوصلة حيث كان يتغذى منها متصلة من سرته بمعاء وتلك الوصلة عضو فضلي لتغذية المولود خاصة فقطعها القابلة من حيث لا تتدنى مكان الفضلة ولا تضر بمعاء ولا برحم أمه ثم تدمل مكان الجراحة منه بالسكى أو بما تراه من وجوه الاندمال ثم ان الجنين عند خروجه في ذلك المنفذ الضيق وهو رطب العظام سهل الانعطاف والانشاء فرمما تتغير أشكال أعضائه وأوضاعها لقرب التكوين ورطوبة المواد فتتناوله القابلة بالغمز والاصلاح حتي يرجع كل عضو الى شكله الطبيعي ووضعه المقدر له ويرتد خلقه سويا ثم بعد ذلك تراجع النفساء وتحاذيها بالغمز والملاينة لخروج أغشية الجنين لانها ربما تتأخر عن خروجه قليلا ويخشى عند ذلك أن تراجع الماسكة حالها الطبيعية قبل استكمال خروج الاغشية وهي فضلات قتعفن ويسري غضها الى الرحم فيقع الهلاك فتحاذر القابلة هذا وتحاول في اعانة الدفع الى أن تخرج تلك الاغشية ان كانت قد تأخرت ثم ترجع الى المولود فتمرخ أعضائه بالادهان والذرورات القابضة لتشده وتجفف رطوبات الرحم وتحنكه لرفع لهاته وتسعطه لاستفراغ بطون دماغه وتغرغره باللعوق لدفع السدد من معاء

وتجويها عن الالتصاق ثم تدأوي النفساء بعد ذلك من الوهن الذي أصابها بالطلق وما لحق
رحمها من ألم الانفصال اذ المولود ان لم يكن عضوا طبيعياً فخاللة التكوين في الرحم صيرته بالالتحام
كالعضو المتصل فلذلك كان في انفصاله ألم يقرب من ألم القطع وتدأوي مع ذلك ما يليحق
الفرج من ألم من جراحة التمزيق عند الضغط في الخروج وهذه كلها أدواء نجد هؤلاء القوابل
أبصر بدوائها وكذلك ما يعرض للمولود مدة الرضاع من أدواء في بدنه الى حين الفصل
نجدهن أبصر بها من الطبيب الماهر وما ذاك الا لان بدن الانسان في تلك الحالة انما هو بدن انساني
بالقوة فقط فاذا جاوز الفصل صار بدن انسانياً بالفعل فكانت حاجته حينئذ الى الطبيب أشد
فهذه الصناعة كما تراه ضرورية في العمران للنوع الانساني لا يتم كون أشخاصه في الغالب دونها
وقد يعرض لبعض أشخاص النوع الاستغناء عن هذه الصناعة اما بخلق الله ذلك لهم معجزة
وخرقا للعادة كما في حق الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم أو بالهام وهداية يلهم لها المولود
ويفطر عليها فيتم وجودهم من دون هذه الصناعة فأما شأن المعجزة من ذلك فقد وقع كثيراً
ومنه ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم ولد مسروراً محتوناً واضعاً يديه على الارض شاخصاً
ببصره الى السماء وكذلك شأن عيسى في المهد وغير ذلك وأما شأن الالهام فلا ينكر واذا
كانت الحيوانات العجم تختص بغرائب من الالهامات كالنحل وغيرها فما ظنك بالانسان المفضل
عليها وخصوصاً بمن اختص بكرامة الله * ثم الالهام العام للمولودين في الاقبال على الشدي
أوضح شاهد على وجود الالهام العام لهم فشأن العناية الالهية أعظم من أن يحاط به ومن هنا
يفهم بطلان رأى الفارابي وحكماء الاندلس فيما احتجوا به لعدم انقراض الانواع واستحالة
انقطاع المكونات خصوصاً في النوع الانساني وقالوا لو انقطعت أشخاصه لاستحال وجودها
بعد ذلك لتوقفه على هذه الصناعة التي لا يتم كون الانسان الا بها اذ لو قدر نامولوداً دون هذه
الصناعة وكفالتها الى حين الفصل لم يتم بقاؤه أصلاً ووجود الصنائع دون الفكر ممتنع لانها
ثمرته وتابعة له وتكلف ابن سينا في الرد على هذا الرأي لمخالفته اياه وذهابه الى امكان انقطاع
الانواع وخراب عالم التكوين ثم عوده ثانياً لاقتضات فلكية وأوضاع غريبة تندر في الاحقاب
بزعمه فتقتضي تخمير طينة مناسبة لمزاجه بحرارة مناسبة فيتم كونه انساناً ثم يقيض له حيوان
يخلق فيه الهام لتربيته والخبو عليه الى أن يتم وجوده وفصاله وأطلب في بيان ذلك في الرسالة
التي سماها رسالة حي بن يقظان وهذا الاستدلال غير صحيح وان كنا نوافق على انقطاع الانواع
لكن من غير ما استدل به فان دليله مبني على اسناد الافعال الى العلة الموحية ودليل القول
بالفاعل المختار يرد عليه ولا واسطة على القول بالفاعل المختار بين الافعال والقدرة القديمة
ولا حاجة الى هذا التكلف * ثم لو سلمناه جدلاً فغاية ما يبنى عليه اطراد وجود هذا الشخص

بخلق الالهام لتربيته في الحيوان الاعجم وما الضرورة الداعية لذلك واذا كان الالهام يخلق في الحيوان الاعجم فما المانع من خلقه للمولود نفسه كما قررناه أولا وخلق الالهام في شخص لمصالح نفسه أقرب من خلقه فيه لمصالح غيره فكل المذهبيين شاهدان على أنفسهما بالبطان في منحهما لما قررنه لك والله تعالى أعلم

٢٩ فصل في صناعة الطب وانما يحتاج اليها في الحواضر والامصار دون البداية

هذه الصناعة ضرورية في المدن والامصار لما عرف من فائدتها فان ثمرتها حفظ الصحة للأحياء ودفع المرض عن المرضى بالمداواة حتى يحصل لهم البرء من أمراضهم* وعلم أن أصل الامراض كلها انما هو من الاغذية كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الجامع للطب وهو قوله المعدة بيت الداء والحمية رأس الداء وأصل كل داء البردة فأما قوله المعدة بيت الداء فهو ظاهر وأما قوله الحمية رأس الداء فالحمية الجوع وهو الاحتماء من الطعام والمعنى ان الجوع هو الداء العظيم الذي هو أصل الادوية وأما قوله أصل كل داء البردة فعنى البردة إدخال الطعام على الطعام في المعدة قبل أن يتم هضم الاول وشرح هذا أن الله سبحانه خلق الانسان وحفظ حياته بالغذاء يستعمله بالأكل وينفذ فيه القوي الهاضمة والغاذية الى أن يصير دما ملائماً لأجزاء البدن من اللحم والعظم ثم تأخذه الثامية فيقلب لحمًا وعظامًا ومعنى الهضم طبخ الغذاء بالحرارة الغريزية طورًا بعد طور حتى يصير جزءًا بالفعل من البدن وتقسيه أن الغذاء اذا حصل في الفم ولا كتته الاشدق أثرت فيه حرارة الفم طبخا يسيرا وقلبت مزاجه بعض الشيء كما تراه في اللقمة اذا تناولتها طعامًا ثم أجبتها مضغًا فترى مزاجها غير مزاج الطعام ثم يحصل في المعدة فتطبخه حرارة المعدة الى أن يصير كيموسًا وهو صفو ذلك المطبوخ وترسله الى الكبد وترسل ما رسب منه في المي ثقلًا ينفذ الى المخرجين ثم تطبخ حرارة الكبد ذلك الكيموس الى أن يصير دما عيطًا وتطفو عليه رغوّة من الطبخ هي الصفراء وترسب منه أجزاء يابسّة هي السوداء ويقصر الحار الغريزي بعض الشيء عن طبخ الغليظ منه فهو الباغثم ترسلها الكبد كلها في العروق والجداول ويأخذها طبخ الحار الغريزي هناك فيكون عن الدم الخالص بخار حار رطب يمد الروح الحيواني وتأخذ الثامية مأخذها في الدم فيكون لحمًا ثم غليظه عظامًا ثم يرسل البدن ما يفضل عن حاجاته من ذلك فضلات مختلفة من العرق واللعاب والمخاط والدمع هذه صورة الغذاء وخروجه من القوة الى الفعل لحمًا ثم ان أصل الامراض ومعظمها هي الحميات وسببها أن الحار الغريزي قد يضعف عن تمام النضج في طبخه في كل طور من هذه فيبقى ذلك الغذاء دون نضج وسببه غالبًا كثرة الغذاء في المعدة حتى يكون أغلب على الحار

الغريزي أو ادخال الطعام الى المعدة قبل أن تستوفي طبخ الاول فيستقل به الحار الغريزي ويترك الاول بحاله أو يتوزع عليهما فيقصر عن تمام الطبخ والنضج وترسله المعدة كذلك الى الكبد فلا تقوى حرارة الكبد أيضاً على انضاجه وربما بقي في الكبد من الغذاء الاول فضلة غير ناضجة وترسل الكبد جميع ذلك الى العروق غير ناضج كما هو فاذا أخذ البدن حاجته الملائمة أرسله مع الفضلات الاخرى من العرق والدع واللعاب ان اقتدر على ذلك وربما يعجز عن الكثير منه فيبقى في العروق والكبد والمعدة وتزايد مع الايام وكل ذي رطوبة من الممتزجات اذا لم يأخذ الطبخ والنضج يعفن فيتعفن ذلك الغذاء غير الناضج وهو المسمى بالخلط وكل متعفن فيه حرارة غريبة وتلك هي المصمة في بدن الانسان بالحى واختبر ذلك بالطعام اذا ترك حتى يتعفن وفي الزبل اذا تعفن أيضاً كيف تبعث فيه الحرارة وتأخذ مأخذها فهذا معنى الحميات في الابدان وهي رأس الامراض وأصلها كما وقع في الحديث وهذه الحميات علاجها بقطع الغذاء عن المريض أسباب معلومة ثم يتناول الاغذية الملائمة حتى يتم رؤو ذلك في حال الصحة علاج في التحفظ من هذا المرض وأصله كما وقع في الحديث وقد يكون ذلك العفن في عضو مخصوص فيتولد عنه مرض في ذلك العضو ويحدث جراحات في البدن إما في الاعضاء الرئيسة أو في غيرها وقد يمرض العضو ويحدث عنه مرض القوى الموجودة له هذه كلها اجماع الامراض وأصلها في الغالب من الاغذية وهذا كله مرفوع الى الطبيب ووقوع هذه الامراض في أهل الحضرة والامصار أكثر لحسب عيشهم وكثرة ما كلهم وقلة اقتصارهم على نوع واحد من الاغذية وعدم توقيم لتناولها وكثيرا ما يخلطون بالأغذية من التوابل والبقول والفواكه رطبا ويابساً في سيل العلاج بالطبخ ولا يقتصرون في ذلك على نوع أو أنواع فربما عددنا في اليوم الواحد من ألوان الطبخ أربعين نوعاً من الثبات والحيوان فيصير للغذاء مزاج غريب وربما يكون غرباً عن ملاءمة البدن وأجزائه ثم ان الاهوية في الامصار تفسد بمخالطة البحر العفنة من كثرة الفضلات والاهوية منشطة للأرواح ومقوية بنشاطها الاثر الحار الغريزي في الهضم ثم الرياضة مفقودة لاهل الامصار اذ هم في الغالب وادعون ساكنون لا تأخذ منهم الرياضة شيئاً ولا تؤثر فيهم أثراً فكان وقوع الامراض كثيراً في المدن والامصار على قدر وقوعه كانت حاجتهم الى هذه الصناعة وأما أهل البدو فما كولهم قليل في الغالب والجوع أغلب عليهم لقلة الحبوب حتى صار لهم ذلك عادة وربما يظن أنها جبلة لاستمرارها ثم ادم قليلة لديهم أو مفقودة بالجملة وعلاج الطبخ بالتوابل والفواكه انما يدعو اليه ترف الحضارة الذين هم بمنزل عنه فيتناولون أغذيتهم بسيطة بعيدة عما يخالطها ويقرب مزاجها من ملاءمة البدن وأما أهويتهم فقليلة العفن لقلة الرطوبات والعفونات ان كانوا أهلين أو لاخلاف الاهوية ان كانوا ظواعن ثم ان الرياضة موجودة فيهم

لكثرة الحركة في ركض الخيل أو الصيد أو طلب الحاجات لمهنة أنفسهم في حاجاتهم فيحسن بذلك كله الهضم ويوجد ويقتد ادخال الطعام على الطعام فتكون أمزجتهم أصلح وأبعد من الامراض فتقل حاجتهم الى الطب ولهذا لا يوجد الطيب في البداية بوجه ما ذاك الا للاستغناء عنه اذ لو احتيج اليه لوجد لانه يكون له بذلك في البدو معاش يدعو الى سكناه سنة الله التي قد خلت في عبادته ولن تجد لسنة الله تبديلا

٣٠ فصل في ان الخط والكتابة من عداد الصنائع الانسانية

وهو رسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على ما في النفس فهو ثاني رتبة من الدلالة اللغوية وهو صناعة شريفة اذ الكتابة من خواص الانسان التي يميزها عن الحيوان وايضاً فهي تطلع على ما في الضمائر وتتأدى بها الاغراض الى البلد البعيد فتقضي الحاجات وقد دفعت مؤنة المباشرة لها ويطلع بها على العلوم والمعارف وصحف الاولين وما كتبوه من علومهم وأخبارهم فهي شريفة بهذه الوجوه والمنافع وخروجها في الانسان من القوة الى الفعل انما يكون بالتعليم وعلى قدر الاجتماع والعمران والتناغم في الكمالات والطلب لذلك تكون جودة الخط في المدينة اذ هو من جملة الصنائع وقد قدمنا أن هذا شأنها وأنها تابعة للعمران ولهذا نجد أكثر البدو أميين لا يكتبون ولا يقرؤون ومن قرأ منهم أو كتب فيكون خطه قاصراً وقراءته غير نافذة ومجد تعليم الخط في الامصار الخارج عمرانها عن الحد أبغ وأحسن وأسهل طريقاً لاستحكام الصنعة فيها كما يحكي لنا عن مصر لهذا العهد وأن بها معلمين منتصبين لتعليم الخط يلقون على المتعلم قوانين وأحكاماً في وضع كل حرف ويزيدون الى ذلك المباشرة بتعليم وضعه فتعتمد لديه رتبة العلم والحس في التعليم وتأني ملكته على أتم الوجوه وانما تأتي هذا من كمال الصنائع ووفورها بكثرة العمران وانفساح الاعمال وقد كان الخط العربي بالغاً مبالغته من الاحكام والاتقان والجودة في دولة التبابعة لما بلغت من الحضارة والترف وهو المسمى بالخط الحميري وانتقل منها الى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر نساء التبابعة في العصبية والمجديدين للملك العرب بأرض العراق ولم يكن الخط عندهم من الاجادة كما كان عند التبابعة لقصور ما بين الدولتين وكانت الحضارة وتوابعها من الصنائع وغيرها قاصرة عن ذلك ومن الحيرة لفته أهل الطائف وقريش فيما ذكر يقال ان الذي تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية ويقال حرب بن أمية واخذها من أسلم بن سدره وهو قول ممكن وأقرب ممن ذهب الى أنهم تعلموها من ايا أهل العراق لقول شاعرهم

قوم لهم ساحة العراق اذا * ساروا جميعاً والخط والقلم

وهو قول بعيد لان ايدوا وانزلوا ساحة العراق فلم يزلوا على شأنهم من البداوة والخط من الصنائع الحضرية وانما معنى قول الشاعر أنهم أقرب الى الخط والقلم من غيرهم من العرب لقربهم من ساحة الامصار وضواحيها فالقول بأن أهل الحجاز انما لقنوها من الحيرة ولقنها أهل الحيرة من التبابعة وحمير هو الالقي من الاقوال وكان لحمير كتابة تسمى المسند حروفها منفصلة وكانوا يمنعون من تعلمها الا باذنهم ومن حمير تعلمت مضر الكتابة العربية الا أنهم لم يكونوا مجيدين لها شأن الصنائع اذا وقعت بالبدو فلا تكون محكمة المذاهب ولا ماثلة الى الاتقان والتميق لبون ما بين البدو والصناعة واستغناء البدو عنها في الاكثر وكانت كتابة العرب بدوية مثل أو قريباً من كتابتهم لهذا العهد أو نقول ان كتابتهم لهذا العهد أحسن صناعة لان هؤلاء أقرب الى الحضارة ومخالطة الامصار والدول وأما مضر فكانوا أعرق في البدو وأبعد عن الحضرة من أهل اليمن وأهل العراق وأهل الشام ومصر فكان الخط العربي لاول الاسلام غير بالغ الى الغاية من الاحكام والاتقان والاجادة ولا الى التوسط لما كان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع وانظر ما وقع لاجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم وكانت غير مستحكمة في الاجادة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركا بما رسمه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخير الخلق من بعده المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه كما يقتضي لهذا العهد خط ولي أو عالم تبركا ويتبع رسمه خطأ أو صواباً وأين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبوه فاتبع ذلك وأثبت رسماً ونبه العلماء بالرسم على مواضعه ولا تلفت في ذلك الى ما يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط وأن ما تخيل من مخالفة خطوطهم لاصول الرسم ليس كما تخيل بل لسكرها وجه ويقولون في مثل زيادة الالف في لا أذبحنه أنه تنبيه على ان الذبح لم يقع وفي زيادة الياء في بأيدي انه تنبيه على كمال القدرة الربانية وأمثال ذلك مما لا أصل له الا التحكم المحض وما حملهم على ذلك الا اعتقادهم ان في ذلك تنزيها للصحابة عن توهم النقص في قلة اجادة الخط وحسبوا ان الخط كمال فزهوهم عن نقصه ونسبوا اليهم الكمال باجادة وتطلبوا تعليل ماخالف الاجادة من رسمه وذلك ليس بصحيح * واعلم ان الخط ليس بكمال في حقهم اذ الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية كما رأيت فيما مر والكمال في الصنائع اضافي وليس بكمال مطلق اذ لا يعود نقصه على الذات في الدين ولا في الحلال وانما يعود على أسباب المعاش وبحسب العمران والتعاون عليه لاجل دلالته على مافي النفوس وقد كان صلى الله عليه وسلم أمياً وكان ذلك كمالاً في حقه وبالنسبة الى مقامه اشرفه وتنزهه عن الصنائع العملية التي هي اسباب المعاش والعمران كلها وليست الأمية كمالاً في حقنا

نحن إذ هو منقطع الى ربه ونحن متعاونون على الحياة الدنيا شأن الصنائع كماها حتى العلوم الاصطلاحية فان الكمال في حقه هو تنزهه عنها جملة بخلافنا ثم لما جاء الملك للعرب وفتحوا الامصار وملكوا الممالك ونزلوا البصرة والكوفة واحتاجت الدولة الى الكتابة استعملوا الخط وطلبوا صناعته وتعلمه وتداولوه فترقت الاحادة فيه واستحكم وبلغ في الكوفة والبصرة رتبة من الاتقان الا انها كانت دون الغاية والخط الكوفي معروف الرسم لهذا العهد ثم انتشر العرب في الاقطار والممالك وافتتحوا افريقية والاندلس واحتط بنو العباس بغداد وترقت الخطوط فيها الى الغاية لما استبحرت في العمران وكانت دار الاسلام ومركز الدولة العربية وكان الخط البغدادي معروف الرسم وتبعه الافريقي المعروف رسمه القديم لهذا العهد ويقرب من أوضاع الخط المشرقي وتبحر ملك الاندلس بالامويين فتميزوا بأحوالهم من الحضارة والصنائع والخطوط فتميز صنف خطهم الاندلسي كما هو معروف الرسم لهذا العهد وطما بحر العمران والحضارة في الدول الاسلامية في كل قطر وعظم الملك ونفقت أسواق العلوم واتسخت الكتب وأجيد كتبها وتجليدها وملئت بها القصور والخزائن المملوكة بما لا كفاء له وتنافس أهل الاقطار في ذلك وتناغوا فيه ثم لما انحل نظام الدولة الاسلامية وتناقص تناقص ذلك أجمع ودرست معالم بغداد بدروس الخلافة فانتقل شأنها من الخط والكتابة بل والعلم الى مصر والقاهرة فلم تزل أسواقه بها نافقة لهذا العهد وله بها معلمون يرسمون لتعليم الحروف بقوانين في وضعها وأشكالها متعارفة بينهم فلا يلبث المتعلم أو يحكم أشكال تلك الحروف على تلك الأوضاع وقد لقنها حسنا وحذق فيها دربة وكتابا وأخذها قوانين علمية فتجئ أحسن ما يكون وأما أهل الاندلس فافترقوا في الاقطار عند تلاشي ملك العرب بها ومن خلفهم من البربر تغلبت عليهم أم النصرانية فانتشروا في عدوة المغرب وافريقية من لدن الدولة اللاتونية الى هذا العهد وشاركوا أهل العمران بما لديهم من الصنائع وتعلقوا بأذيال الدولة فغلب خطهم على الخط الافريقي وعفي عليه ونسى خط القيروان والمهدي بنسيان عوائدها وصنائعها وصارت خطوط أهل افريقية كلها على الرسم الاندلسي بتونس وما اليها لتوفر أهل الاندلس بها عند الجالية من شرق الاندلس وبقي منه رسم ببلاد الجريد الذين لم يخاطبوا كتاب الاندلس ولا تمرسوا بجوارهم انما كانوا يغدون على دار الملك بتونس فصار خط أهل افريقية من أحسن خطوط أهل الاندلس حتي اذا تقلص ظل الدولة الموحدية بمض الشيء وتراجع امر الحضارة والترف بتراجع العمران نقص حينئذ حال الخط وفسدت رسومه وجهل فيه وجه التعليم بفساد الحضارة وتناقص العمران وبقيت فيه آثار الخط الاندلسي تشهد بما كان لهم من ذلك لما قدمناه من أن الصنائع اذا رسخت بالحضارة فيعسر محوها وحصل

في دولة بنى مرين من بعد ذلك بالمغرب الاقصى لون من الخط الاندلسي لقرب جوارهم وسقوط من خرج منهم الى فاس قريبا واستعمالهم اياهم سائر الدولة ونسى عهد الخط فيما بعد عن سدة الملك وداره كأنه لم يعرف فصارت الخطوط بأفريقية والمغرب بين مائلة الى الرداءة بعيدة عن الجودة وصارت الكتب اذا انتسخت فلا فائدة محصل لمتصفحها منها الا العناء والمشقة لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف وتغيير الاشكال الخطية عن الجودة حتى لا تكاد تقرأ الا بعد عسر ووقع فيه ما وقع في سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدول والله اعلم

٣١. فصل في صناعة الوراقة

كانت العناية قديماً بالدواوين العلمية والسجلات في نسخها وتجليدها وتصحيحها بالرواية والضبط وكان سبب ذلك ما وقع من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة وقد ذهب ذلك لهذا العهد بذهاب الدولة وتناقص العمران بعد ان كان منه في الملة الاسلامية بجزاخر بالعراق والاندلس اذ هو كله من توابع العمران واتساع نطاق الدولة ونفاق اسواق ذلك لذيها فكثر التأليف العلمية والدواوين وحرص الناس على تناقلها في الآفاق والاعصار فانتسخت وجلدت وجاءت صناعة الوراقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الامور الكتبية والدواوين واختصت بالامصار العظيمة العمران وكانت السجلات أولا لا تنتساخ العلوم وكتب الرسائل السلطانية والاقطاعات والصكوك في الرقوق المهيأة بالصناعة من الجلد لكثرة الرقية وقلة التأليف صدر الملة كما نذكره وقلة الرسائل السلطانية والصكوك مع ذلك فاقصروا على الكتاب في الرق تشريفاً للمكتوبات وميلاً بها الى الصحة والاتقان ثم طما بجزاخر التأليف والتدوين وكثر ترسيل السلطان وصكوكه وضاق الرق عن ذلك فأشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغد وصنع وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه واتخذ الناس من بعده صحفاً لمكتوباتهم السلطانية والعلمية وبلغت الاجادة في صناعته ماشاءت ثم وقفت عناية أهل العلوم وهم أهل الدول على ضبط الدواوين العلمية وتصحيحها بالرواية المسندة الى مؤلفيها ووضعها لانه الشأن الاهم من التصحيح والضبط فبذلك تسند الاقوال الى قائليها والفتيا الى الحاكم بها المجتهد في طريق استنباطها وما لم يكن تصحيح المتن باسنادها الى مدونها فلا يصح اسناد قولهم ولا فتيا وهكذا كان شأن أهل العلم وحملته في العصور والاحيال والآفاق حتى لقد قصرت فائدة الصناعة الحديثة في الرواية على هذه فقط اذ ثمرتها الكبرى من معرفة صحيح الاحاديث وحسنها ومسندها ومرسلها ومقطوعها وموقوفها من موضوعها قد ذهبت وتمحضت زبدة ذلك في الامهات المتلقاة بالقبول عند الامة وصار القصد الى ذلك لغو من العمل ولم تبق ثمرة الرواية والاشتغال بها

الافى تصحيح تلك الامهات الحديثة وسواها من كتب الفقه للفتيا وغير ذلك من الدواوين والتأليف العلمية واتصال سندها بمؤلفها ليصح النقل عنهم والاسناد اليهم وكانت هذه الرسوم بالمشرق والاندلس معبدة الطرق وأصحة المسالك ولهذا نجد الدواوين المنتسخة لذلك العهد في أقطارهم على غاية من الاتقان والاحكام والصحة ومنها لهذا العهد بأيدي الناس في العالم أصول عتيقة تشهد ببلوغ الغاية لهم في ذلك وأهل الآفاق يتناقلونها الى الآن ويشدون عليها يد الضمانة ولقد ذهبت هذه الرسوم لهذا العهد جملة بالمغرب وأهله الانتطاع صناعة الخط والضبط والرواية منه بانتقاص عمرانه وبدأوة أهله وصارت الامهات والدواوين تدرج بالخطوط البدوية تنسخها طلبة البربر صحائف مستعجمة برداء الخط وكثرة الفساد والتصحيف فتستغرق على تصحيحها ولا يحصل منها فائدة الا في الاقل التبادر. وأيضاً فقد دخل الحلل من ذلك في الفتيا فان غالب الاقوال المعزوة غير مروية عن أئمة المذهب وانما تتلقى من تلك الدواوين على ما هي عليه وتبع ذلك أيضاً ما يتصدى اليه بعض أئمتهم من التأليف لقلة بصرهم بصناعته وعدم الصنائع الوافية بمقاصده ولم يبق من هذا الرسم بالاندلس الا آثاره خفية بالاحياء وهى على الاضمحلال فقد كاد العلم ينقطع بالكلية من المغرب والله غالب على أمره * ويبلغنا لهذا العهد أن صناعة الرواية قائمة بالمشرق وتصحيح الدواوين لمن يرومه بذلك سهل على متبعيه لنفاق أسواق العلوم والصنائع كما نذكره بعد الان الخط الذي بقي من الاجادة في الانتساخ هنالك انما هو للعجم في خطوطهم وأما النسخ بمصر ففسد كفاً فسد بالمغرب وأشد والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٣٣٢ فصل في صناعة الغناء

هذه الصناعة هي تلحين الاشعار الموزونة بتقطيع الاصوات على نسب منتظمة معروفة يوقع على كل صوت منها توقيعاً عند قطعه فيكون نغمة ثم تؤلف تلك النغم بعضها الى بعض على نسب متعارفة فيلذ سماعها لاجل ذلك التناسب وما يحدث عنه من الكيفية في تلك الاصوات وذلك انه تبين في علم الموسيقى ان الاصوات تتناسب فيكون صوت نصف صوت ورابع آخر وخمس آخر وجزء من أحد عشر من آخر واختلاف هذه النسب عند تأديتها الى السمع يخرجها من البساطة الى التركيب وليس كل تركيب منها ملذوذاً عند السماع بل ترايب خاصة هي التي حصرها أهل علم الموسيقى وتكلموا عليها كما هو مذکور في موضعه وقد يساوق ذلك التلحين في النغمات الغنائية بتقطيع أصوات أخرى من الجمادات اما بالقرع أو بالنفخ في الآلات تتخذ لذلك فترى لها لذة عند السماع فمنها لهذا العهد أصناف منها ما يسمونه الشبابة وهي قصبة جوفاء بالخاش في جوانبها معدودة ينفخ فيها فتصوت ويخرج الصوت من جوفها على سدادة من تلك

الاجناس ويقطع الصوت بوضع الاصابع من اليدين جميعا على تلك الاجناس وضعا متعارفا
 حتى تحدث النسب بين الاصوات فيه وتتصل كذلك متناسبة فيلتذ السمع بادراكها للتناسب
 الذي ذكرناه ومن جنس هذه الآلة المزمار الذي يسمى الزلامي وهو شكل القصبة منحوتة
 الجانين من الخشب جوفاء من غير تدوير لاجل اثنائها من قطعتين منفردتين كذلك
 بالجناس معدودة ينفخ فيها بقصبة صغيرة توصل فينفذ النفخ بواسطتها اليها وتصور بنغمة
 حادة يجري فيها من تقطيع الاصوات من تلك الاجناس بالاصابع مثل مايجري في الشبابة ومن
 أحسن آلات الزمر لهذا العهد البوق وهو بوق من نحاس أجوف في مقدار الذراع يتسع
 الى أن يكون انفراج مخرجه في مقدار دون الكف في شكل برى القلم وينفخ فيه بقصبة
 صغيرة تؤدي الرمح من الفم اليه فيخرج الصوت نخبنا دويا وفيه أجناس أيضاً معدودة وتقطع
 نغمة منها كذلك بالاصابع على التناسب فيكون ملذوداً ومنها آلات الاوتار وهي جوفاء كلها
 اما على شكل قطعة من الكرة مثل البربط والرباب أو على شكل مربع كالقانون توضع الاوتار
 على بسائطها مشدودة في رأسها الى دساتر جائلة ليتأني شد الاوتار ورخوها عند الحاجة اليه
 بدارتها ثم تقرر الاوتار اما بعود آخر أو بوتر مشدود بين طرفي قوس يمر عليها بعد أن يطل
 بالشمع والكنندر ويقطع الصوت فيه بتخفيف اليد في امراره أو نقله من وتر الى وتر واليد
 اليسرى مع ذلك في جميع آلات الاوتار توقع باصابعها على أطراف الاوتار فيما يقرر أو يحك
 بالوتر فتحدث الاصوات متناسبة ملذودة وقد يكون القرع في الطسوت بالقضبان أو في الاعواد
 بعضها ببعض على توقع متناسب يحدث عنه التذاذ بالمسموع ولينين لك السبب في اللذة الناشئة
 عن الغناء وذلك أن اللذة كما تقرر في موضعه هي إدراك الملائم والمحسوس انما تدرك منه
 كيفية فاذا كانت مناسبة للمدرك وملائمة كانت ملذودة واذا كانت منافية له منافرة كانت
 مؤلة فالملائم من الطعوم ماناسبت كيفيته حاسة الذوق في مزاجها وكذا الملائم من الملموسات
 وفي الروائح ماناسب مزاج الروح القلبي البخاري لاته المدرك واليه تؤدي الحاسة ولهذا كانت
 الرياحين والازهار العطريات أحسن رائحة وأشد ملائمة للروح لغلبة الحرارة فيها التي هي
 مزاج الروح القلبي وأما المرئيات والمسموعات فالملائم فيها تناسب الاوضاع في أشكالها وكيفياتها
 فهو أنسب عند النفس وأشد ملائمة لها فاذا كان المرئي متناسبا في أشكاله ونحاطيطه التي له بحسب
 مادته بحيث لا يخرج عما تقتضيه مادته الخاصة من كمال المناسبة والوضع وذلك هو معني الجمال
 والحسن في كل مدرك كان ذلك حيثئذ مناسباً للنفس المدركة فتلتذ بادراك ملائمتها ولهذا تجد
 العاشقين المستهترين في المحبة يعبرون عن غاية محبتهم وعشقهم بامتزاج أرواحهم بروح المحبوب
 وفي هذا سر تفهمه ان كنت من أهله وهو اتحاد المبدأ وأن كل ماسواك اذا نظرتة وتأملتة

رأيت بينك وبينه اتحاداً في البداية يشهد لك به اتحاد كما في الكون ومعناه من وجه آخر أن الوجود يشترك بين الموجودات كما تقوله الحكماء فتود أن تترج بما شاهدت فيه الكمال لتجد به بل تروم النفس حينئذ الخروج عن الوهم الى الحقيقة التي هي اتحاد المبدأ والكون ولما كان أنسب الاشياء الى الانسان وأقربها الى أن يدرك الكمال في تناسب موضوعها هو شكله الانساني فكان ادراكه للجمال والحسن في تخاطيطه وأصواته من المدارك التي هي أقرب الى فطرته فيلجج كل انسان بالحسن من المرئى أو المسموع بمقتضى الفطرة والحسن في المسموع أن تكون الأصوات متناسبة لامتتافرة وذلك أن الاصوات لها كفيات من الهمس والجر والرخاوة والشدّة والقلقلة والضغط وغير ذلك والتناسب فيها هو الذي يوجب لها الحسن فأولاً أن لا يخرج من الصوت الى مده دفعة بل بتدرج ثم يرجع كذلك وهكذا الى المثل بل لا بد من توسط المغاير بين الصوتين وتأمل هذا من اقتتاح أهل اللسان التراكيب من الحروف المتتافرة أو المتقاربة الخارج فانه من بابه وثانياً تناسبها في الاجزاء كما مر أول الباب فيخرج من الصوت الى نصفه أو ثلثه أو جزء من كذا منه على حسب ما يكون التثقل مناسباً على ما حصره أهل الصناعة فاذا كانت الأصوات على تناسب في الكفيات كما ذكره أهل تلك الصناعة كانت ملائمة ملذوذة ومن هذا التناسب ما يكون بسيطاً ويكون الكثير من الناس مطبوعاً عليه لا يحتاجون فيه الى تعاليم ولا صناعة كما نجد المطبوعين على الموازين الشعرية وتوقيع الرقص وأمثال ذلك وتسمى العامة هذه القابلية بالمضمار وكثير من القراء بهذه المثابة يقرؤون القرآن فيجيدون في تلاحين أصواتهم كأنها المزامير فيطربون بحسن مساقمهم وتناسب نغماتهم ومن هذا التناسب ما يحدث بالتركيب وليس كل الناس يستوي في معرفته ولا كل الطباق توافق صاحبها في العمل به اذا علم وهذا هو التلحين الذي يتكفل به علم الموسيقى كما نشرحه بعد عند ذكر العلوم وقد أنكر مالك رحمه الله تعالى القراءة بالتلحين وأجازها الشافعي رضي الله تعالى عنه وليس المراد تلحين الموسيقى الصناعي فانه لا ينبغي أن يختلف في حظره اذ صناعة الغناء مباحة للقرآن بكل وجه لان القراءة والاداء يحتاج الى مقدار من الصوت لتعيين أداء الحروف لا من حيث اتباع الحركات في موضعها ومقدار المد عند من يطلقه أو يقصره وأمثال ذلك والتلحين أيضاً يتعين له مقدار من الصوت لا يتم الا به من أجل التناسب الذي قلناه في حقيقة التلحين واعتبار أحدها قد يخل بالآخر اذا تعارضا وتقديم الرواية متعين من تغير الرواية المنقولة في القرآن فلا يمكن اجتماع التلحين والاداء المعترف في القرآن بوجه وانما مرادهم التلحين البسيط الذي يهتدى اليه صاحب المضمار بطبعه كما قدمناه فيردد أصواته ترديداً على نسب يدركها العالم بالغناء وغيره ولا ينبغي ذلك بوجه كما قاله مالك هذا

هو محل الخلاف والظاهر تنزيه القرآن عن هذا كله كما ذهب اليه الامام رحمه الله تعالى لان القرآن محل خشوع بذكر الموت وما بعده وليس مقام التذاذب ادراك الحسن من الاصوات وهكذا كانت قراءة الصحابة رضي الله عنهم كما في اخبارهم وأما قوله صلى الله عليه وسلم لقد أوتي مزامرا من مزامير آل داود فليس المراد به التردد والتلحين انما معناه حسن الصوت وأداء القراءة والابانة في مخارج الحروف والنطق بها * واذ قد ذكرنا معنى الغناء فاعلم انه يحدث في العمران اذا توفروا ونجاوز حد الضروري الى الحاجي ثم الى السكالي وتقنوا فيه فتحدث هذه الصناعة لانه لا يستدعيها الا من فرغ من جميع حاجاته الضرورية والمهمة من المعاش والمثل وغيره فلا يطلبها الا الفارغون عن سائر أحوالهم تقننا في مذاهب المذوذات وكان في سلطان العجم قبل الملة منها بحر زاخر في أمصارهم ومدنهم وكان ملوكهم يتخذون ذلك ويولعون به حتى لقد كان الملوك الفرس اهتمام بأهل هذه الصناعة ولهم مكان في دولتهم وكانوا يحضرون مشاهدهم ومجامعهم ويغنون فيها وهذا شأن العجم لهذا العهد في كل أفق من آفاقهم ومملكته من ممالكهم وأما العرب فكان لهم أولافن الشعر يؤلفون فيه الكلام أجزاء متساوية على تناسب بينها في عدة حروفها المتحركة والساكنة ويفصلون الكلام في تلك الاجزاء تفصيلا يكون كل جزء منها مستقلا بالافادة لا ينقطع على الآخر ويسمونه البيت فتلائم الطبع بالتجزئة أولا ثم يتناسب الاجزاء في المقاطع والمبادي ثم بتأدية المعنى المقصود وتطبيق الكلام عليها فلهجوا به فامتاز من بين كلامهم بحظ من الشرف ليس لغيره لاجل اختصاصه بهذا التناسب وجعلوه ديوانا لخبارهم وحكمهم وشرفهم ومحال قرأتهم في اصابة المعاني واجادة الاساليب واستمروا على ذلك وهذا التناسب الذي من أجل الاجزاء والمتحرك والساكين من الحروف قطرة من بحر من تناسب الاصوات كما هو معروف في كتب الموسيقى الا أنهم لم يشعروا بما سواه لانهم حينئذ لم يتحلوا علما ولا عرفوا صناعة وكانت البداءة أغلب نحلهم ثم تغنى الحداء منهم في حداة ابلهم والفتيان في فضاء خلواتهم فرجعوا الاصوات وترنموا وكانوا يسمون الترنم اذا كان بالشعر غناء واذا كان بالتهليل أو نوع القراءة تغييرا بالغين المعجمة والباء الموحدة وعللها أبو اسحق الزجاج بانها تذكر بالغابرو وهو الباقي أي بأحوال الآخرة وربما نسبوا في غنائهم بين التغمات مناسبة بسيطة كما ذكره ابن رشيق آخر كتاب العمدة وغيره وكانوا يسمونه السناد وكان أكثر ما يكون منهم في الخفيف الذي يرقص عليه ويمشي بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحلوم وكانوا يسمون هذا الهزج وهذا البسيط كله من التلاحين هو من أوائلها ولا يبعد أن تنفطن له الطبائع من غير تعليم شأن البسائط كلها من الصنائع ولم يزل هذا شأن العرب في بداوتهم وجاهليتهم فلما جاء الاسلام واستولوا على ممالك الدنيا وحازوا سلطان العجم وغلبوهم عليه وكانوا من البداءة والغضاة

على الحال التي عرفتهم مع غضارة الدين وشدة في ترك أحوال الفراغ وما ليس بنافع في دين ولا معاش فهجروا ذلك شيئاً ولم يكن المذوذ عندهم الا ترجيع القراءة والترنم بالشعر الذي هو دينهم ومذهبهم فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الامم صاروا الى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ واقترب المغنون من الفرس والروم فوقعوا الى الحجاز وصاروا موالي للعرب وغنوا جميعاً بالعيدان والطناير والمعارف والمزامير وسمع العرب تلحينهم للأصوات فلحنوا عليها أشعارهم وظهر بالمدينة نشيط الفارسي وطويس وسائب حائر مولى عبيد الله بن جعفر قسموا شعر العرب ولحنوه وأجادوا فيه وطار لهم ذكرهم أخذ عنهم معبد وطبقته وابن سريج وأنظاره وما زالت صناعة الغناء تتدرج الى ان كملت أيام بنى العباس عند ابراهيم بن المهدي وابراهيم الموصلي وابنه اسحق وابنه حماد وكان من ذلك في دولتهم ببغداد ما تبعه الحديث بعده وبمجالسه لهذا العهد وأمنوا في اللهو واللعب واتخذت آلات الرقص في الملابس والقضبان والأشعار التي ترنم بها عليه وجعل صنفاً وحده واتخذت آلات أخرى للرقص تسمى بالكرج وهي تماثيل خيل مسرحية من الحشب معلقة باطراف أقيية يلبسها النسوان ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكرونها ويفرون ويشاققونها وأمثال ذلك من اللعب المعد للولائم والاعراس وأيام الاعياد ومجالس الفراغ واللهو وكثر ذلك ببغداد وأمصار العراق وانتشر منها الى غيرها وكان للموصلين غلام اسمه زرياب أخذ عنهم الغناء فاجاد فصرفوه الى المغرب غيره منه فلحق بالحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل أمير الاندلس فبالغ في تكريمه وركب للقائه وأسني له الجوائز والاقطاعات والجراريات وأحله من دولته وندمائه بمكان فأورث بالاندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه الى أزمان الطوائف وطما منها باشبيلية بحر زاخر وتناقل منها بعد ذهاب غزارتها الى بلاد العدو بافريقية والمغرب وانقسم على أمصارها وبها الآن منها صباية على تراجع عمراتها وتناقص دولها وهذه الصناعة آخر ما يحصل في العمران من الصنائع لانها كالية في غير وظيفة من الوظائف الا وظيفة الفراغ والفرح وهي أيضاً أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعها والله أعلم

٣٣ فصل في أن الصنائع تكسب صاحبها عقلاً وخصوصاً الكتابة والحساب

قد ذكرنا في الكتاب أن النفس الناطقة للانسان انما توجد فيه بالقوة وان خروجها من القوة الى الفعل انما هو بتجدد العلوم والادراكات عن المحسوسات أولاً ثم ما يكتسب بعدها بالقوة النظرية الى أن يصير ادراكاً بالفعل وعقلاً محضاً فتكون ذاتاً روحانية ويستكمل حينئذ وجودها فوجب لذلك أن يكون كل نوع من العلم والنظر يفيد عقلاً فريداً والصنائع أبداً يحصل

عنها وعن ملكتها قانون علمي مستفاد من تلك الملكة فلم هذا كانت الحسنة في التجربة تفيد عقلا
والملكات الصناعية تفيد عقلا والحضارة الكاملة تفيد عقلا لانها مجتمعة من صنائع في شأن
تدبير المنزل ومعاشرة أبناء الجنس وتحصيل الآداب في مخالطتهم ثم القيام بأمور الدين واعتبار
آدابها وشرائطها وهذه كلها قوانين تنظم علومها فيحصل منها زيادة عقل والكتابة من بين
الصنائع أكثر افادة لذلك لانها تشتمل على العلوم والانظار بخلاف الصنائع ويانه ان في
الكتابة انتقالا من الحروف الخطية الى الكلمات اللفظية في الخيال ومن الكلمات اللفظية
في الخيال الى المعاني التي في النفس ذلك دائما فيحصل لها ملكة الانتقال من الادلة الى
المدلولات وهو معنى النظر العقلي الذي يكسب العلوم المجهولة فيكسب بذلك ملكة من التعقل
تكون زيادة عقل ويحصل به قوة فطنة وكس في الامور لما تعودوه من ذلك الانتقال ولذلك
قال كسرى في كتابه لما رآهم بتلك الفطنة والكيس فقال ديوانه أي شياطين وجنون قالوا
وذلك أصل اشتقاق الديوان لاهل الكتابة ويلحق بذلك الحساب فان في صناعة الحساب
نوع تصرف في العدد بالضم والتفريق يحتاج فيه الى استدلال كثير فيبقى متعودا للاستدلال
والنظر وهو معنى العقل والله أعلم

— الفصل السادس من الكتاب الأول —

في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض في ذلك
كله من الاحوال وفيه مقدمة ولواحق

١ فصل في أن العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري

وذلك أن الانسان قد شاركته جميع الحيوانات في حيوانيته من الحس والحركة والغذاء
والكن وغير ذلك وانما تميز عنها بالفكر الذي يهتدي به لتحصيل معاشه والتعاون عليه ببناء
جنسه والاجتماع المهيئ لذلك التعاون وقبول ما جاءت به الانبياء عن الله تعالى والعمل به
واتباع صلاح أخراه فهو مفكر في ذلك كله دائما لا يفتقر عن الفكر فيه طرفة عين بل احتياج
الفكر أسرع من لمح البصر وعن هذا الفكر تنشأ العلوم وما قدمناه من الصنائع ثم لاجل
هذا الفكر وما جبل عليه الانسان بل الحيوان من تحصيل ما استدعيه الطباع فيكون الفكر
راغباً في تحصيل ما ليس عنده من الادراكات فيرجع الى من سبقه بعلم أو زاد عليه بمعرفة
أو إدراك أو اخذه ممن تقدمه من الانبياء الذين يبلغونه لمن تلقاه فيلقن ذلك عنهم ويحرص
على أخذه وعلمه ثم ان فكره ونظره يتوجه الى واحد واحد من الحقائق وينظر ما يعرض

له لذاته واحدا بعد آخر ويتمرن على ذلك حتى يصير الحاق العوارض بتلك الحقيقة ملكة له فيكون حينئذ علمه بما يعرض لتلك الحقيقة علما مخصوصا وتشوف نفوس اهل الجيل الناشئ الى تحصيل ذلك فيفزعون الى اهل معرفته ويحیی التعليم من هذا فقد تبين بذلك ان العلم والتعليم طبيعي في البشر

٢ فصل في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع

وذلك أن الحذق في العلم والفن فيه والاستيلاء عليه انما هو بمحصول ملكة في الاطاعة بمباديه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله ومالم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق في ذلك الفن المتناول حاصلًا وهذه الملكة هي في غير الفهم والوعي لاننا نجد فهم المسئلة الواحدة من الفن الواحد ووعيتها مشتركا بين من شدا في ذلك الفن وبين من هو مبتدئ فيه وبين العامي الذي لم يحصل علماً وبين العالم التحرير والملكة انما هي للعالم أو الشادى في الفنون دون من سواها فدل على أن هذه الملكة غير الفهم والوعي والملكات كلها جسمانية سواء كانت في البدن أو في الدماغ من الفكر وغيره كاحساب والجسمانيات كلها محسوسة فتفتقر الى التعليم ولهذا كان السند في التعليم في كل علم أو صناعة الى مشاهير المعلمين فيها معتبرا عند كل اهل أفق وحيل ويدل أيضا على أن تعليم العلم صناعة اختلاف الاصطلاحات فيه فلكل إمام من الأئمة المشاهير اصطلاح في التعليم يختص به شأن الصنائع كلها فدل على أن ذلك الاصطلاح ليس من العلم والا لكان واحدا عند جميعهم ألا تري الى علم الكلام كيف تختلف في تعليمه اصطلاح المتقدمين والمتأخرين وكذا أصول الفقه وكذا العربية وكذا كل علم يتوجه الى مطالعته نجد الاصطلاحات في تعليمه متخالفة فدل على أنها صناعات في التعليم والعلم واحد في نفسه واذا تقرر ذلك فاعلم أن سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد أن ينقطع عن اهل المغرب باختلال عمرانه وتنقص الدول فيه وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع وفقدانها كامر وذلك ان القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب والاندلس واستبحر عمرانهما وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافقة ومحور زاخرة ورسخ فيهما التعليم لامتداد عصورهما وما كان فيهما من الحضارة فلما خربتا انقطع التعليم من المغرب الا قليلا كان في دولة الموحدين بمراكش مستفادا منها ولم ترسخ الحضارة بمراكش لبداءة الدولة الموحدية في أولها وقرب عهد انقراضها بمبدئها فلم تتصل أحوال الحضارة فيها الا في الاقل وبعد انقراض الدولة بمراكش ارتحل الى المشرق من أفريقية القاضي أبو القاسم بن زيتون لعهد أواسط المائة السابعة فأدرك تلميذا لامام ابن الخطيب فأخذ عنهم ولقن تعليمهم وخذق في العقليات والنقليات ورجع الى تونس بعلم كثير وتعليم

حسن وجاء على أثره من المشرق أبو عبد الله بن شعيب الدكالي كان ارتحل اليه من المغرب فأخذ عن مشيخة مصر ورجع الى تونس واستقر بها وكان تعليمه مفيدا فأخذ عنهما أهل تونس واتصل سند تعليمهما في تلاميذها جيلا بعد جيل حتى انتهى الى القاضي محمد بن عبد السلام شارح ابن الحاجب وتلميذه وانتقل من تونس الى تلمسان في ابن الامام وتلميذه فانه قرأ مع ابن عبد السلام على مشيخة واحدة وفي مجالس بأعيانها وتلميذ ابن عبد السلام بتونس وابن الامام بتلمسان لهذا العهد الا أنهم من القلة بحيث يخشى انقطاع سندهم ثم ارتحل من زواوة في آخر المائة السابعة أبو علي ناصر الدين المشدالي وأدرك تلميذ أبي عمرو بن الحاجب وأخذ عنهم ولقن تعليمهم وقرأ مع شهاب الدين القرافي في مجالس واحدة وحذق في العقليات والنقليات ورجع الى المغرب بعلم كثير وتعليم مفيد ونزل بجاية واتصل سند تعليمه في طلبتها وربما انتقل الى تلمسان عمران المشدالي من تلميذه وأوطنها وبث طريقته فيها وتلميذه لهذا العهد بجاية وتلمسان قليل أو أقل من القليل وبقيت فاس وسائر أقطار المغرب خلوا من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان ولم يتصل سند التعليم فيهم ففسر عليهم حصول الملكة والحذق في العلوم وأيسر طرق هذه الملكة فثق اللسان بالمحاوره والمناظرة في المسائل العلمية فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها فتجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون وغنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم ثم بعد تحصيل من يري منهم أنه قد حصل تجدد ملكته قاصرة في علمه ان فاض او ناظر او علم وما أتاهم القصور الامن قبل التعليم وانقطاع سنده والاحتفاظ بهم ابغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به وظنهم انه المقصود من الملكة العلمية وليس كذلك وما يشهد بذلك في المغرب ان المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم ست عشرة سنة وهي بتونس خمس سنين وهذه المدة بالمدارس على المتعارف هي أقل ما يتأتى فيها لطالب العلم حصول مبتغاه من الملكة العلمية او اليأس من تحصيلها فطال أمدها في المغرب لهذه المدة لاجل عسرهما من قلة الجودة في التعليم خاصة لا مما سوي ذلك وأما أهل الاندلس فذهب رسم التعليم من بينهم وذهبت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمران المسلمين بها منذ مئتين من السنين ولم يبق من رسم العلم فيهم الا فن العربية والادب اقتصروا عليه واحتفظ سند تعليمه بينهم فاحتفظ بحفظه وأما الفقه بينهم فرسم خلو وأثر بعد عين وأما العقليات فلا أثر ولا عين وما ذاك الا لانقطاع سند التعليم فيها بتناقص العمران وتغلب العدو على عامتها الا قليلا بسيف البحر شغلهم بمعاشهم أكثر من شغلهم بما بعدها والله غالب على أمره* وأما المشرق فلم يتقطع سند التعليم فيه بل أسواقه نافقة وبحوره زاخرة لانصال العمران الموفور واتصال السند فيه وان كانت

الامصار العظيمة التي كانت معادن العلم قد خربت مثل بغداد والبصرة والكوفة الا ان الله تعالى قد
أدال منها بامصار أعظم من تلك وانتقل العلم منها الي عراق العجم بخراسان وما وراء النهر
من المشرق ثم الى القاهرة وما اليها من المغرب فلم تزل موفورة وعمرانها متصلا وسند التعليم
بها قائماً فأهل المشرق على الجملة أرسخ في صناعة تعليم العلم بل وفي سائر الصنائع حتي انه ليظن
كثير من رحالة أهل المغرب الى المشرق في طلب العلم أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول
أهل المغرب وانهم أشد نباهة واعظم كياساً بفطرتهم الأولى وأن نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتها
من نفوس أهل المغرب ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم في حقيقة الانسانية ويتشيعون لذلك ويولعون
به لما يرون من كيسهم في العلوم والصنائع وليس كذلك وليس بين قطر المشرق والمغرب تفاوت
بهذا المقدار الذي هو تفاوت في الحقيقة الواحدة اللهم الا الاقاليم المنحرفة مثل الأول والسابع
فان الامزجة فيها منحرفة والنفوس على نسبتها كما مر وانما الذي فضل به أهل المشرق أهل
المغرب هو ما يحصل في النفس من آثار الحضارة من العقل المزيد كما تقدم في الصنائع وزيدته
الآن تحقيقاً وذلك أن الحضرة لهم آداب في أحوالهم في المعاش والمسكن والبناء وأمور الدين
والدنيا وكذا سائر اعمالهم وعاداتهم ومعاملاتهم وجميع تصرفاتهم فلمهم في ذلك كله آداب يوقف
عندها في جميع ما يتناولونه ويتلبسون به من أخذ وترك حتي كأنها حدود لا تتعدي وهي مع
ذلك صنائع يتأقفاها الآخرون من الأول منهم ولا شك ان كل صناعة مرتبة يرجع منها الى النفس أثر
يكسبها عقلاً جديداً تستعده لقبول صناعة أخرى وتهيأها العقل لسرعة الادراك للمعارف واقد بلغنا
في تعليم الصنائع عن أهل مصر غايات لا تدرك مثل أنهم يعلمون الحمر الانسية والحيوانات العجم من
الماشى والطيائر مفردات من الكلام والافعال يستغرب ندورها ويعجز أهل المغرب عن فهمها وحسن
الملكات في التعليم والصنائع وسائر الاحوال العادية يزيد الانسان ذكاء في عقله واضاءة في فكره بكثرة
الملكات الحاصلة للنفس اذ قدمنا ان النفس انما تنشأ بالادراكات وما يرجع اليها من الملكات فيزدادون
بذلك كياساً لما يرجع الى النفس من الآثار العلمية فيظنه العامي تفاوتاً في الحقيقة الانسانية
وليس كذلك ألا تري الى أهل الحضرة مع أهل البدو كيف تجد الحضري متحلياً بالذكاء مثلثاً
من الكيس حتي ان البدوي ليظنه أنه قد فاته في حقيقة انسانيته وعقله وليس كذلك وماذا لك
الا لاجادته في ملكات الصنائع والآداب في العوائد والاحوال الحضرية مالا يعرفه البدوي فلما
امتلاً الحضري من الصنائع وملكاتها وحسن تعليمها ظن كل من قصر عن تلك الملكات أنها
لكمال في عقله وأن نفوس أهل البدو قاصرة بفطرتها وجبلتها عن فطرتها وليس كذلك فانا نجد
من أهل البدو من هو في أعلى رتبة من الفهم والكمال في عقله وفطرتة انما الذي ظهر
على أهل الحضرة من ذلك هو رونق الصنائع والتعليم فان لها آثاراً ترجع الى النفس كما قدمناه

وكذا أهل المشرق لما كانوا في التعليم والصنائع أرسخ رتبة وأعلى قدماً وكان أهل المغرب أقرب إلى البداوة لما قدمناه في الفصل قبل هذا ظن المغفلون في بادئ الرأي أنه لكمال في حقيقة الانسانية اختصوا به عن أهل المغرب وليس ذلك بصحيح فقههم والله يزيد في الخلق ما يشاء وهو الله السموات والارض

٣ فصل في ان العلوم انما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة

والسبب في ذلك ان تعليم العلم كما قدمناه من جملة الصنائع وقد كنا قدمنا ان الصنائع انما تكثر في الامصار وعلى نسبة عمراتها في الكثرة والقلة والحضارة والترفع تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة لانه امر زائد على المعاش فتي فضلت اعمال أهل العمران عن معاشهم انصرفت الى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الانسان وهي العلوم والصنائع ومن تشوف بفطرته الى العلم ممن نشأ في القرى والامصار غير المتمدنة فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعي لفقدان الصنائع في أهل البدو كما قدمناه ولا بد له من الرحلة في طلبه الى الامصار المستبحرة شأن الصنائع كلها واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمراتها صدر الاسلام واستوت فيها الحضارة كيف زخرت فيها بحار العلم وتفتتوا في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون حتى أربوا على المتقدمين وقاتوا المتأخرين ولما تناقص عمراتها وابتدع سكانها انطوى ذلك البساط بما عليه جملة وفقد العلم بها والتعليم وانتقل الي غيرها من أمصار الاسلام ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم انما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما ان عمراتها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف من السنين فاستحكمت فيها الصنائع وتفتتت ومن جعلتها لتعليم العلم وأكد ذلك فيها وحفظه ما وقع لهذه العصور بها منذ مائتين من السنين في دولة الترك من أيام صلاح الدين ابن أيوب وهلم جرا وذلك أن أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يخلفونه من ذريتهم لما له عليهم من الرق أو الولاء ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط ووقفوا عليها الاوقاف المغلة يجعلون فيها شركاً لولدهم بنظر عليها أو نصيب منها مع ما فيهم غالباً من الجنوح الى الخير والتماس الاجور في المقاصد والافعال فكثرت الاوقاف لذلك وعظمت الغلات والفوائد وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جرايتهم منها وارتحل اليها الناس في طاب العلم من العراق والمغرب وتفتت بها أسواق العلوم وزخرت بحارها والله يخلق ما يشاء

(اعلم) أن العلوم التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الامصار تحصيلًا وتعليلًا هي على صنفين صنف طبيعي للانسان يهتدي اليه بفكره وصنف تقلي يأخذه عن وضعه والاول هي العلوم الحكمية الفلسفية وهي التي يمكن أن يقف عليها الانسان بطبيعة فكره ويهتدي بمداركه البشرية الى موضوعاتها ومسائلها وأبحاثها براهينها ووجود تعليمها حتى يقفه نظره (١) ويبحثه على الصواب من الخطأ فيها من حيث هو انسان ذو فكر والثاني هي العلوم الثقيلة الوضعية وهي كلها مستندة الى الخبر عن الواضع الشرعي ولا مجال فيها للعقل الا في الحاق الفروع من مسائلها بالاصول لان الجزئيات الحادثة المتعاقبة لاتندرج تحت النقل الكلي بمجرد وضعه فتحتاج الى الالحاق بوجه قياسي الا أن هذا القياس يتفرع عن الخبر بثبوت الحكم في الاصل وهو تقلي فرجع هذا القياس الى النقل لتفرعه عنه وأصل هذه العلوم الثقيلة كلها هي الشرعيات من الكتاب والسنة التي هي مشروعة لنا من الله ورسوله وما يتعاقب بذلك من العلوم التي تهيئها للافادة ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربي الذي هو لسان الملة وبه نزل القرآن وأصناف هذه العلوم الثقيلة كثيرة لان المكلف يجب عليه أن يعرف أحكام الله تعالى المفروضة عليه وعلى أبناء جنسه وهي مأخوذة من الكتاب والسنة بالنص أو بالاجماع أو بالالحاق فلا بد من النظر في الكتاب بيان ألفاظه أولاً وهذا هو علم التفسير ثم باسناد نقله وروايته الى النبي صلى الله عليه وسلم الذي جاء به من عند الله واختلاف روايات القراء في قراءته وهذا هو علم القراءات ثم باسناد السنة الى صاحبها والكلام في الرواة الناقلين لها ومعرفة أحوالهم وعدالتهم ليقع الوثوق بخبرائهم بعلم مايجب العمل بمقتضاه من ذلك وهذه هي علوم الحديث ثم لا بد في استنباط هذه الاحكام من أصولها من وجه قانوني يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط وهذا هو أصول الفقه وبعد هذا تحصل الثمرة بمعرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين وهذا هو الفقه ثم ان التكليف منها بدني ومنها قلبي وهو المختص بالايان وما يجب أن يعتقد مما لا يعتقد وهذه هي العقائد الايمانية في الذات والصفات وأمور الحشر والنعيم والعذاب والقدر والحجاج عن هذه بالدلة العقلية هو علم الكلام ثم النظر في القرآن والحديث لا بد أن تتقدمه العلوم اللسانية لانه متوقف عليها وهي اصناف فمنها علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الادب حسبما نتكلم عليها كلها وهذه العلوم الثقيلة كلها مختصة بالملة الاسلامية وأهلها وان كانت كل ملة على الجملة لا بد فيها من

(١) قوله حتى يقفه نظره يستعمل وقف متعدياً فنقول وقفه على كذا أي أطلعته عليه قاله نصر اه

مثل ذلك فهي مشاركة لها في الجنس البعيد من حيث انها علوم الشريعة المنزلة من عند الله تعالى على صاحب الشريعة المبلغ لها وأما على الخصوص فبإينة لجميع الملل لانها ناسخة لها وكل ما قبلها من علوم الملل فهجور والنظر فيها محذور فقد نهى الشرع عن النظر في الكتب المنزلة غير القرآن قال صلى الله عليه وسلم لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي أنزل النينا وأنزل اليكم وإلھنا وإلھكم واحد ورأى النبي صلى الله عليه وسلم في يد عمر رضى الله عنه ورقة من التوراة فغضب حتى تبين الغضب في وجهه ثم قال ألم آتكم بها بيضاء نقية والله لو كان موسى حياً ما وسعه الا اتباعي ثم ان هذه العلوم الشرعية النقلية قد نفقت أسواقها في هذه الملة بما لمزيد عليه وانتهت فيها مدارك الناظرين الى الغاية التي لافوقها وهذبت الاصطلاحات وربت الفنون فجاءت من وراء الغاية في الحسن والتميق وكان لكل فن رجال يرجع اليهم فيه وأوضاع يستفاد منها التعليم واختص المشرق من ذلك والمغرب بما هو مشهور منها حسبما نذكره الآن عند تعديد هذه الفنون وقد كسدت لهذا العهد أسواق العلم بالمغرب لتناقص العمران فيه وانقطاع سند العلم والتعليم كما قدمناه في الفصل قبله وما أدري ما فعل الله بالمشرق والظن به تفاقم فيه واتصال التعليم في العلوم وفي سائر الصنائع الضرورية والسكالية لكثرة عمرانه والحضارة ووجود الاعانة لطالب العلم بالجراية من الاوقاف التي اتسعت بها أرزاقهم والله سبحانه وتعالى هو الفعال لما يريد وببيده التوفيق والاعانة

٥ علوم القرآن من التفسير والقرآت

القرآن هو كلام الله المنزل على نبيه المكتوب بين دفتي المصحف وهو متواتر بين الامة الا أن الصحابة رووه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على طرق مختلفة في بعض ألفاظه وكيفيات الحروف في أدائها وتنوّل ذلك واشتهر الى أن استقرت منها سبع طرق معينة تواتر نقلها أيضا بأدائها واختصت بالانتساب الى من اشتهر بروايتها من الجهم الغفير فصارت هذه القرآت السبع أصولا للقراءة وربما زيد بعد ذلك قرآت أخر لحقت بالسبع الا أنها عند أئمة القراءة لا تقوى قوتها في النقل وهذه القرآت السبع معروفة في كتبها وقد خالف بعض الناس في تواتر طرقها لانها عندهم كيفيات للأداء وهو غير منضبط وليس ذلك عندهم بقادح في تواتر القرآن وأباه الأكثر وقالوا بتواترها وقال آخرون بتواتر غير الأداء منها كالمدة والتسهيل لعدم الوقوف على كفيته بالسمع وهو الصحيح ولم يزل القراء يتداون هذه القرآت وروايتها الى أن كتبت العلوم ودونت فكُتبت فيما كتب من العلوم وصارت صناعة مخصوصة وعلماً مفرداً وتناقله الناس بالمشرق والاندلس في جيل بعد جيل الى أن ملك بشرق الاندلس

مجاهد من موالى العاصريين وكان معنيا بهذا الفن من بين فنون القرآن لما أخذه به مولاه المنصور بن أبي عامر واجتهد في تعليمه وعرضه على من كان من أئمة القراء بحضرته فكان سهمه في ذلك وافراً واختص مجاهد بعد ذلك بامارة دانية والجزائر الشرقية فنفت بها سوق القراءة لما كان هو من أئمتها وبما كان له من العناية بسائر العلوم عموماً وبالقرآآت خصوصاً فظهر لعده أبو عمر والداني وبلغ الغاية فيها ووقفت عليه معرفتها وانتهت الى روايته أسانيداً وتعددت تأليفه فيها وعول الناس عليها وعدلوا عن غيرها واعتمدوا من بينها كتاب التيسير لثم ظهر بعد ذلك فيما يليه من العصور والأجيال أبو القاسم بن فيرة من أهل شاطبة فعمد الى تهذيب مادونه أبو عمرو وتلخيصه فظم ذلك كله في قصيدة لغز فيها أسماء القراء بحروف ا ب ج د ترتيباً أحكمه ليتيسر عليه ماقصده من الاختصار ويكون أسهل للحفظ لأجل نظمها فاستوعب فيها الفن استيعاباً حسناً وعنى الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين وجرى العمل على ذلك في أمصار المغرب والأندلس وربما أضيف الى فن القرآآت فن الرسم أيضاً وهى أوضاع حروف القرآن في المصحف ورسومه الخطية لان فيه حروفا كثيرة وقع رسمها على غير المعروف من قياس الخط كزيادة الياء في بأييد وزيادة الالف في لأذبحنه ولا أوضعوا والواو في جزأ الظالمين وحذف الألفات في مواضع دون أخرى ومارس فيه من التآت ممدوداً والاصل فيه مربوط على شكل الهاء وغير ذلك وقدمر تحليل هذا الرسم المصحفي عند الكلام في الخط فلما جاءت هذه المخالفة لأوضاع الخط وقانونه احتيج الى حصرها فكتب الناس فيها أيضاً عند كتبهم في العلوم وانتهت بالمغرب الى أبي عمرو والداني المذكور فكتب فيها كتباً من أشهرها كتاب المقنع وأخذ به الناس وعولوا عليه ونظمه أبو القاسم الشاطبي في قصيدته المشهورة على روى الرأء وولع الناس بحفظها ثم كثر الخلاف في الرسم في كلمات وحروف أخرى ذكرها أبو داود سليمان بن نجاح من موالى مجاهد في كتبه وهو من تلاميذ أبي عمر والداني والمشتهر بحمل علومه ورواية كتبه ثم نقل بعده خلاف آخر فظم الخراز من المتأخرين بالمغرب أرجوزة أخرى زاد فيها على المقنع خلافاً كثيراً وعزاه لناقله واشتهرت بالمغرب واقتصر الناس على حفظها وهجروا بها كتب أبي داود وأبي عمرو والشاطبي في الرسم (وأما التفسير) فاعلم أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه وكان ينزل جملاً جملاً وآيات آيات لبيان التوحيد والفروض الدينية بحسب الوقائع ومنها ما هو في العقائد الايمانية ومنها ما هو في أحكام الجوارح ومنها ما يتقدم ومنها ما يتأخر ويكون ناسخه وكان النبي صلى الله عليه وسلم يبين المجمع ويميز الناسخ من المنسوخ ويعرفه أصحابه فعرفوه وعرفوا سبب نزول

الآيات ومقتضى الحال منها منقولاً عنه كما علم من قوله تعالى إذا جاء نصر الله والفتح أنها نهي النبي صلى الله عليه وسلم وأمثال ذلك ونقل ذلك عن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وتداول ذلك التابعون من بعدهم ونقل ذلك عنهم ولم يزل ذلك متناقلاً بين الصدر الأول والسلف حتى صارت المعارف علوماً ودونت الكتب فكتب الكثير من ذلك ونقل الآثار الواردة فيه عن الصحابة والتابعين وانتهى ذلك إلى الطبري والواقدي والثعالبي وأمثال ذلك من المفسرين فكتبوا فيه ما شاء الله أن يكتبوه من الآثار ثم صارت علوم اللسان صناعية من الكلام في موضوعات اللغة وأحكام الأعراب والبلاغة في التراكيب فوضعت الدواوين في ذلك بعد أن كانت ملكات للعرب لا يرجع فيها إلى نقل ولا كتاب فتوسى ذلك وصارت تتلقى من كتب أهل اللسان فاحتيج إلى ذلك في تفسير القرآن لأنه بلسان العرب وعلى منهاج بلاغتهم وصار التفسير على صنفين تفسير نقل مسند إلى الآثار المنقولة عن السلف وهي معرفة الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول ومقاصد الآي وكل ذلك لا يعرف إلا بالنقل عن الصحابة والتابعين وقد جمع المتقدمون في ذلك وأوعوا الآن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الفث والسمين والمقبول والمردود والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم وإنما غلبت عليهم البداءة والامية وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات وبدء الخليفة وأسرار الوجود فأنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثاهم ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية فلما أساموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها مثل أخبار بدء الخليفة وما يرجع إلى الحدنان والملاحم وأمثال ذلك وهؤلاء مثل كعب الأخبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وأمثالهم فامتلات التفاسير من المنقولات عندهم وفي أمثال هذه الأغراض أخبار موقوفة عليهم وليست مما يرجع إلى الأحكام فيتحرى في الصحة التي يجب بها العمل ويتساهل المفسرون في مثل ذلك وملأوا كتب التفسير بهذه المنقولات وأصلها كما قلنا عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك إلا أنهم بعد صيتهم وعظمت أقدارهم لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة فنقلت بالقبول من يومئذ فلما رجع الناس إلى التحقيق والتحقيق والتمحيض وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب فلخص تلك التفاسير كلها وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والاندلس حسن المنجي وتبعه القرطبي في تلك الطريقة على منهاج واحد في كتاب آخر مشهور بالمشرق * والصنف الآخر من التفسير

وهو ما يرجع الى اللسان من معرفة اللغة والاعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والاساليب وهذا الصنف من التفسير قل أن ينفرد عن الاول اذ الاول هو المقصود بالذات وانما جاء هذا بعد أن صار اللسان وعلومه صناعة نعم قد يكون في بعض التفاسير غالباً ومن أحسن ما شتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشف للزمخشري من أهل خوارزم العراق الا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة حيث تعرض له في آي القرآن من طرق البلاغة فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه وتحذير للجمهور من مكائده مع اقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة واذا كان الناظر فيه واقفاً مع ذلك على المذاهب السنية محسناً للحجاج عنها فلا جرم أنه مأمون من غوائله فلتعتم مطالعته لغرابة فنونه في اللسان ولقد وصل اليها في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين وهو شرف الدين الطيبي من أهل توريز من عراق العجم شرح فيه كتاب الزمخشري هذا وتتبع ألفاظه وتعرض لمذاهبه في الاعتزال بأدلة تزيفها ويبين أن البلاغة انما تقع في الآية على ما يراه أهل السنة لاعلى ما يراه المعتزلة فأحسن في ذلك ما يشاء مع امتناعه في سائر فنون البلاغة وفوق كل ذي علم عليم

علوم الحديث

٦

وأما علوم الحديث فهي كثيرة ومتنوعة لان منها ما ينظر في ناسخه ومنسوخه وذلك بما ثبت في شريعتنا من جواز النسخ ووقوعه لطفاً من الله بعباده وتحفيفاً عنهم باعتبار مصالحهم التي تكفل لهم بها قال تعالى مانسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها فاذا تعارض الخبران بالنفي والاثبات وتعذر الجمع بينهما ببعض التأويل وعلم تقدم أحدهما تعين أن المتأخر ناسخ ومعرفة الناسخ والمنسوخ من أهم علوم الحديث وأصعبها قال الزهري أعياء الفقهاء وأعجزهم أن يعرفوا ناسخ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من منسوخه وكان للشافعي رضي الله عنه فيه قدم راسخة ومن علوم الاحاديث النظر في الاسانيد ومعرفة ما يجب العمل به من الاحاديث بوقوعه على السند الكامل الشروط لان العمل انما وجب بما يغلب على الظن صدقه من أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجهد في الطريق التي تحصل ذلك الظن وهو بمعرفة رواية الحديث بالعدالة والضبط وانما يثبت ذلك بالنقل عن أعلام الدين بتعديلهم وبراعتهم من الجرح والغفلة ويكون لنا ذلك دليلاً على القبول أو الترك وكذلك مراتب هؤلاء الثقل من الصحابة والتابعين وتفاوتهم في ذلك وتميزهم فيه واحداً واحداً وكذلك الاسانيد تتفاوت باتصالها وانقطاعها بان يكون الراوي لم يلق الراوي الذي نقل عنه وبسلامتها من العلل الموهنة لها وتتمى بالتفاوت

الى طرفين فحكم بقبول الاعلى ورد الاسفل ويختلف في المتوسط بحسب المنقول عن أئمة الشأن ولهم في ذلك ألفاظ اصطلاحوا على وضعها لهذه المراتب المرتبة مثل الصحيح والحسن والضعيف والمرسل والمنقطع والمعضل والشاذ والغريب وغير ذلك من ألقابه المتداولة بينهم وبوبوا على كل واحد منها ونقلوا ما فيه من الخلاف لأئمة اللسان أو الوفاق ثم النظر في كيفية أخذ الرواة بعضهم عن بعض بقراءة أو كتابة أو مناولة أو اجازة وتفاوت رتبها وما للعلماء في ذلك من الخلاف بالقبول والرد ثم أتبعوا ذلك بكلام في ألفاظ تقع في متون الحديث من غريب أو مشكل أو تصحيف أو مفترق منها أو مختلف وما يناسب ذلك هذا معظم ما ينظر فيه أهل الحديث وغالبه وكانت أحوال نقلة الحديث في عصور السلف من الصحابة والتابعين معروفة عند أهل بلده ففهم بالحجاز ومنهم بالبصرة والكوفة من العراق ومنهم بالشام ومصر والجميع معروفون مشهورون في أعصارهم وكانت طريقة أهل الحجاز في أعصارهم في الاسانيد أعلى ممن سواهم وأمتن في الصحة لاستبدادهم في شروط النقل من العدالة والضبط وتحافهم عن قبول المجهول الحال في ذلك وسند الطريقة الحجازية بعد السلف الامام مالك عالم المدينة رضي الله تعالى عنه ثم أصحابه مثل الامام محمد بن ادريس الشافعي والامام أحمد بن حنبل وأمثالهم وكان علم الشريعة في مبدأ هذا الأمر نقلاً صرفاً شمر لها السلف وتحروا الصحيح حتي أكملوها وكتب مالك رحمه الله كتاب الموطأ أودعه أصول الاحكام من الصحيح المتفق عليه ورتبه على أبواب الفقه ثم عني الحفاظ بمعرفة طرق الاحاديث وأسانيدها المختلفة وربما يقع اسناد الحديث من طرق متعددة عن رواة مختلفين وقد يقع الحديث أيضاً في أبواب متعددة باختلاف المعاني التي اشتمل عليها وجاء محمد بن اسمعيل البخاري إمام المحدثين في عصره فخرج أحاديث السنة على أبوابها في مسنده الصحيح بجميع الطرق التي للحجازيين والعراقيين والشاميين واعتمد منها ما أجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه وكرر الاحاديث يسوقها في كل باب بمعنى ذلك الباب الذي تضمنه الحديث فسكررت لذلك أحاديثه حتي يقال انه اشتمل (١) على تسعة آلاف حديث ومائتين منها ثلاثة آلاف متكررة وفرق الطرق والاسانيد عليها مختلفة في كل باب ثم جاء الامام مسلم بن الحجاج القشيري رحمه الله تعالى فألف مسنده الصحيح حذا فيه حذو البخاري في نقل المجمع عليه وحذف المتكرر منها وجمع الطرق والاسانيد وبوبه على أبواب الفقه وتراجعه ومع ذلك فلم يستوعب الصحيح كله وقد استدرك الناس عليهما في ذلك ثم كتب أبو داود السجستاني وأبو عيسى الترمذي وأبو عبد الرحمن النسائي في السنين بأوسع من

الصحيح وقصدوا ما توفرت فيه شروط العمل اما من الرتبة العالية في الاسانيد وهو الصحيح كما هو معروف واما من الذي دونه من الحسن وغيره ليكون ذلك اماما للسنّة والعمل وهذه هي المسانيد المشهورة في الملة وهي أمهات كتب الحديث في السنّة فانها وان تعددت ترجع الى هذه في الاغلب ومعرفة هذه الشروط والاصطلاحات كلها هي علم الحديث وربما يفرد عنها الناسخ والمنسوخ فيجعل فبا رأسه وكذا الغريب وللناس فيه تأليف مشهورة ثم المؤلف والمختلف وقد ألب الناس في علوم الحديث وأكثروا ومن خول علمائه وأنتمهم أبو عبد الله الحاكم وتأليفه فيه مشهورة وهو الذي هذبه وأظهر محاسنه وأشهر كتاب للمتأخرين فيه كتاب أبي عمرو بن الصلاح كان لههد أوائل المائة السابعة وتلاه محي الدين النووي بمثل ذلك والفن شريف في مغزاه لانه معرفة ما يحفظ به السنن المنقولة عن صاحب الشريعة وقد انقطع لهذا العهد تخرج شيء من الاحاديث واستدرا كما على المتقدمين اذ العادة تشهد بأن هؤلاء الأئمة على تعددهم وتلاحق عصورهم وكفائتهم واجتهادهم لم يكونوا يغفلوا شيئا من السنّة أو يتركوه حتى يعثر عليه المتأخر هذا بعيد عنهم واما منصرف العناية لهذا العهد الى تصحيح الامهات المكتوبة وضبطها بالرواية عن مصنفها والنظر في أسانيدها الى مؤلفها وعرض ذلك على ما تقرر في علم الحديث من الشروط والاحكام لتتصل الاسانيد محكمة الى منتهاها ولم يزدوا في ذلك على العناية باكثر من هذه الامهات الخمسة الا في القليل * فاما البخاري وهو أعلاها رتبة فاستعصب الناس شرحه واستغلغوا منه من أجل ما يحتاج اليه من معرفة الطرق المتعددة ورجالها من أهل الحجاز والشام والعراق ومعرفة أحوالهم واختلاف الناس فيهم ولذلك يحتاج الى امعان النظر في التفقه في تراجمه لانه يترجم الترجمة ويورد فيها الحديث بسند أو طريق ثم يترجم أخرى ويورد فيها ذلك الحديث بعينه لما تضمنه من المعنى الذي ترجم به الباب وكذلك في ترجمة وترجمة الى أن يتكرر الحديث في أبواب كثيرة بحسب معانيه واختلافها ومن شرحه ولم يستوف هذا فيه فلم يوف حق الشرح كبن بطلال وابن المهلب وابن التين ونحوهم ولقد سمعت كثيرا من شيوخنا رحمهم الله يقولون شرح كتاب البخاري دين على الامة يعنون أن أحدا من علماء الامة لم يوف ما يجب له من الشرح بهذا الاعتبار * وأما صحيح مسلم فكثرت عناية علماء المغرب به وأكبوا عليه وأجمعوا على تفضيله على كتاب البخاري من غير الصحيح مما لم يكن على شرطه وأكثر ما وقع له في التراجم وأعلى الامام المازري من فقهاء المالكية عليه شرحا وسماه (المعلم بفوائد مسلم) اشتمل على عيون من علم الحديث وفنون من الفقه ثم أكمله القاضي عياض من بعده وسماه اكمال المعلم وتلاها محي الدين النووي بشرح استوفى ما في الكتابين وزاد عليهما فقاء شرحا وافيا * وأما كتب

السنن الاخرى وفيها معظم مأخذ الفقهاء فاكثر شرحها في كتب الفقه الاما يختص بعلم الحديث فكتب الناس عليها واستوفوا من ذلك ما يحتاج اليه من علم الحديث وموضوعاتها والاسانيد التي اشتملت على الاحاديث المعمول بها من السنة * واعلم أن الاحاديث قد تميزت مراتبها لهذا العهد بين صحيح وضعيف ومعلول وغيرها تنزلها أئمة الحديث وجهابذته وعرفوها ولم يبق طريق في تصحيح ما يصح من قبل ولقد كان الأئمة في الحديث يعرفون الاحاديث بطرقها واسانيدها بحيث لو روى حديث بغير سنده وطريقه يفتنون الى أنه قد قاب عن وضعه ولقد وقع مثل ذلك للامام محمد بن اسمعيل البخاري حين ورد على بغداد وقصد المحدثون امتحانه فسألوه عن أحاديث قبلوا أسانيدها فقال لأعرف هذه ولكن حدثني فلان ثم أتى بجميع تلك الاحاديث على الوضع الصحيح ورد كل متن الى سنده وأقروا له بالامامة * واعلم أيضاً أن الأئمة المجتهدين تفوتوا في الاكثار من هذه الصناعة والاقلال فأبو حنيفة رضى الله تعالى عنه يقال بلغت روايته الى سبعة عشر حديثاً أو نحوها ومالك رحمه الله (١) انما صح عنده ما في كتاب الموطأ وغايته ثلثمائة حديث أو نحوها وأحمد ابن حنبل رحمه الله تعالى في مسنده خمسون ألف حديث ولكل ماداه اليه اجتهاده في ذلك وقد تقول بعض المبغضين المتعسفين الى أن منهم من كان قليل البضاعة في الحديث فهذا قلت روايته ولا سبيل الى هذا المعتقد في كبار الأئمة لأن الشريعة انما تؤخذ من الكتاب والسنة ومن كان قليل البضاعة من الحديث فيتعين عليه طلبه وروايته والجدو التشمير في ذلك ليأخذ الدين عن أصول صحيحة ويتقن الاحكام عن صاحبها المبلغ لها وانما قلل منهم من قلل الرواية لاجل المطاعن التي تعترض فيها والعمل التي تعرض في طرقها سيما والجرح مقدم عند الاكثر فيؤديه الاجتهاد الى ترك الاخذ بما يعرض مثل ذلك فيه من الاحاديث وطرق الاسانيد ويكثر ذلك فتقل روايته لضعف في الطرق هذا مع أن أهل الحجاز أكثر رواية للحديث من أهل العراق لأن المدينة دار الهجرة ومأوى الصحابة ومن انتقل منهم الى العراق كان شغلهم بالجهاد أكثر والامام أبو حنيفة انما قلت روايته لما شدد في شروط الرواية والتحمل وضعف رواية الحديث اليقيني اذا عارضها الفعل النفسى وقلت من أجابها روايته فقل حديثه لأنه ترك رواية الحديث متعمدا فحاشاه من ذلك ويدل على انه من كبار المجتهدين في علم الحديث اعتماد مذهبه بينهم والتعويل عليه واعتباره رداً وقبولا

(١) الذي في شرح الزرقاني على الموطأ حكاية أقوال خمسة في عدة أحاديث أولها خمسمائة ثانیها سبعمائة ثالثها ألف ونيف رابعها ألف وسبعمائة وعشرون خامسها ستمائة وستة وستون وليس فيه قول بما في هذه النسخة قاله نصر الهوريني اه

وأما غيره من المحدثين وهم الجمهور فتوسعوا في الشروط وكثر حديثهم والكل عن اجتهاد وقد توسع أصحابه من بعده في الشروط وكثرت روايتهم وروي الطحاوي فاكثروا كتب مسنده وهو جليل القدر الا انه لا يعدل الصحيحين لان الشروط التي اعتمدها البخاري ومسلم في كتابيهما مجمع عليها بين الامة كما قالوه وشروط الطحاوي غير متفق عليها كالرواية عن المستور الحال وغيره فالهذا قدم الصحيحان بل وكتب السنن المعروفة عليه لتأخر شرطه عن شروطهم ومن أجل هذا قيل في الصحيحين بالاجماع على قبولهما من جهة الاجماع على صحة ما فيهما من الشروط المتفق عليها فلا تأخذك ريبه في ذلك فالقوم أحق الناس بالظن الجليل بهم والتمس الخارج الصحيحة لهم والله سبحانه وتعالى أعلم بما في حقائق الامور

٧ علم الفقه وما يتبعه من الفرائض

الفقه معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والنذب والكراهة والاباحة وهي متلقاة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفة من الأدلة فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه وكان السلف يستخرجونها من تلك الأدلة على اختلاف فيها بينهم ولا بد من وقوعه ضرورة أن الأدلة غالبها من النصوص وهي بلغة العرب وفي اقتضات الفاظها لكثير من معانيها اختلاف بينهم معروف وأيضاً فالسنة مختلفة الطرق في الثبوت وتعارض في الأكثر أحكامها فتحتاج إلى الترجيح وهو مختلف أيضاً فالأدلة من غير النصوص تختلف فيها وأيضاً فالوقائع المتجددة لا توفي بها النصوص وما كان منها غير ظاهر في المنصوص فيحمل على منصوص لمشابهة بينهم وهذه كلها إشارات للخلاف ضرورية الوقوع ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والأئمة من بعدهم ثم إن الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فنيا ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم وإنما كان ذلك مختصاً بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه ومتشابهه ومحكمه وسائر دلالاته بما تلافوه من النبي صلى الله عليه وسلم أو ممن سمعه منهم من عليتهم وكانوا يسمون لذلك القراء أي الذين يقرؤون الكتاب لان العرب كانوا أمة أمية فاخص من كان منهم قارئاً للكتاب بهذا الاسم لغرابته يومئذ وبقي الأمر كذلك صدر الملة ثم عظمت أمصار الاسلام وذهبت الأمية من العرب بممارسة الكتان وتمكن الاستنباط وكل الفقه وأصبح صناعة وعلماء فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء وانقسم الفقه فيهم إلى طريقتين طريقة أهل الرأي والقياس وهم أهل العراق وطريقة أهل الحديث وهم أهل الحجاز وكان الحديث قليلاً في أهل العراق لما قدمناه فاستكثرنا من القياس ومهروا فيه فلذلك قيل أهل الرأي ومقدم جماعتهم الذي استقر المذهب فيه وفي أصحابه أبو حنيفة وإمام

أهل الحجاز مالك بن أنس والشافعي من بعده ثم أنكر القياس طائفة من العلماء وأباطلوا العمل به وهم الظاهرية وجعلوا المدارك كلها منحصرة في النصوص والاجماع وردوا القياس الجلي والعلّة المنصوصة الى النص لان النص على العلة نص على الحكم في جميع محالها وكان إمام هذا المذهب داود بن علي وابنه وأصحابهما وكانت هذه المذاهب الثلاثة هي مذاهب الجمهور المشتهرة بين الأمة (١) وشذ أهل البيت بمذاهب ابتدعوها وفقه أقردوا به وبنوه على مذهبهم في تناول بعض الصحابة بالقدح وعلى قولهم بعصمة الأئمة ورفع الخلاف عن أقوالهم وهي كلها أصول واهية وشذ بمثل ذلك الخوارج ولم يحتفل الجمهور بمذاهبهم بل أوسعوها جانب الانكار والقدح فلا تعرف شيئاً من مذاهبهم ولا يزوي كتبهم ولا أثر لشيء منها الا في مواطنهم فكتب الشيعة في بلادهم وحيث كانت دولتهم قائمة في المغرب والمشرق واليمن والخوارج كذلك ولكل منهم كتب وتآليف وآراء في الفقه غريبة ثم درس مذهب أهل الظاهر اليوم بدروس أئمتهم وانكار الجمهور على منتحلهم ولم يبق الا في الكتب المجلدة وربما يعكف كثير من الطالبين ممن تكلف بانحال مذهبهم على تلك الكتب يروم أخذ فقههم منها ومذهبهم فلا يخلو بظائل ويصير الى مخالفة الجمهور وانكارهم عليه وربما عد بهذه النحلة من أهل البدع بنقله العلم من الكتب من غير مفتاح المعلمين وقد فعل ذلك ابن حزم بالاندلس على علو رتبته في حفظ الحديث وصار الى مذهب أهل الظاهر ومهر فيه باجتهاد زعمه في أقوالهم وخالف إمامهم داود وتعرض للكثير من أئمة المسلمين فقمم الناس ذلك عليه أوسعوا مذهبه استهجاناً وانكاراً وتلقوا كتبه بالاغفال والترك حتى انها ليحظر بيعها بالاسواق وربما تمزق في بعض الاحيان ولم يبق الامذهب أهل الرأي من العراق وأهل الحديث من الحجاز فاما أهل العراق فامامهم الذي استقرت عنده مذاهبهم أبو حنيفة النعمان بن ثابت ومقامه في الفقه لا يباحق شهده بذلك أهل جللته وخصوصاً مالك والشافعي * وأما أهل الحجاز فكان امامهم مالك بن أنس الاصبحي امام دار الهجرة رحمه الله تعالى واختص بزيادة مدارك آخره للاحكام غير المدارك المعتبرة عند غيره وهو عمل أهل المدينة لانه رأي أنهم فيما ينفسون عليه من فعل أو ترك متابعون لمن قبلهم ضرورة لدينهم واقتدائهم وهكذا الى الحليل المباشرين لفعل النبي صلى الله عليه وسلم الآخذين ذلك عنه وصار ذلك عنده من أصول الادلة الشرعية وظن كثير أن ذلك من مسائل الاجماع فأنكره لان دليل الاجماع لا يخص أهل المدينة من سواهم

(١) قوله وشذ أهل البيت صوابه وشذ شيعة أهل البيت بدليل مقابلتهم بالخوارج

بل هو شامل للامة واعلم أن الاجماع انما هو الاتفاق على الامر الديني عن اجتهاد ومالك رحمه الله تعالى لم يعتبر عمل أهل المدينة من هذا المعنى وانما اعتبره من حيث اتباع الحيل بالمشاهدة للجيل الى أن ينتهى الى الشارع صلوات الله وسلامه عليه وضرورة اقتدائهم بعين ذلك يعم الملة وذكر في باب الاجماع الابواب بها من حيث ما فيها من الاتفاق الجامع بينها وبين الاجماع الا أن اتفاق أهل الاجماع عن نظر واجتهاد في الأدلة واتفاق هؤلاء في فعل أو ترك مستندين الى مشاهدة من قبلهم ولو ذكرت المسئلة في باب فعل النبي صلى الله عليه وسلم وتقريره أو مع الأدلة المختلف فيها مثل مذهب الصحابي وشرع من قبلنا والاستصحاب لكان أليق ثم كان من بعد مالك بن أنس محمد بن ادريس المطلب الشافعي رحمهما الله تعالى رحل الى العراق من بعد مالك ولقى أصحاب الامام أبي حنيفة وأخذ عنهم ومزج طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق واختص بمذهب وخالف مالكا رحمه الله تعالى في كثير من مذهبه وجاء من بعدهما أحمد بن حنبل رحمه الله وكان من علية المحدثين وقرأ أصحابه على أصحاب الامام أبي حنيفة مع وفور بضاعتهم من الحديث فاختصوا بمذهب آخر ووقف التقليد في الامصار عند هؤلاء الاربعة ودرس المقلدون لمن سواهم وسد الناس باب الخلاف وطرقه لما كثر تشعب الاصطلاحات في العلوم ولما عاق عن الوصول الى رتبة الاجتهاد ولما خشى من اسناد ذلك الى غير أهله ومن لا يوثق برأيه ولا يدينه فصرخوا بالعجز والاعواز وردوا الناس الى تقليد هؤلاء كل بمن اختص به من المقلدين وحظروا أن يتداول تقليدهم لما فيه من التلاعب ولم يبق الا نقل مذاهبهم وعمل كل مقلد بمذهب من قلده منهم بعد تصحيح الاصول واتصال سندها بالرواية لمحصل اليوم للفقه غير هذا ومدعي الاجتهاد لهذا العهد مردود على عقبه مهجور تقليده وقد صار أهل الاسلام اليوم على تقليد هؤلاء الأئمة الاربعة* فأما أحمد بن حنبل فقلده قليل بعد مذهبه عن الاجتهاد واصلته في معاضدة الرواية والاخبار بعضها ببعض وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها وهم أكثر الناس حفظا للسنة ورواية الحديث* وأما أبو حنيفة فقلده اليوم أهل العراق ومسلمة الهند والصين وماوراء النهر وبلاد العجم كلها لما كان مذهبه أخص بالعراق ودار السلام وكان تلميذه صحابة الخلفاء من بني العباس فكثرت تآليفهم ومناظراتهم مع الشافعية وحسنت مباحثهم في الخلافات وجاءوا منها بعلم مستطرف وأنظار غريبة وهي بين أيدي الناس وبالمغرب منها شيء قليل نقله اليه القاضي ابن العربي وأبو الوليد الباجي في رحلتهم* وأما الشافعي فقلده وبمصر أكثر مما سواها وقد كان انتشر مذهبه بالعراق وخراسان وماوراء النهر وقاسموا الحنفية في الفتوي والتدريس في جميع الامصار وعظمت مجالس المناظرات بينهم وشجنت كتب الخلافات بانواع استدلالهم ثم درس ذلك كله بدروس المشرق وأقطاره

وكان الامام محمد بن ادريس الشافعي لما نزل على بني عبد الحكم بمصر أخذ عنه جماعة من بني عبد الحكم واشهب وابن القاسم وابن المواز وغيرهم ثم الحرث بن مسكين وبنوه ثم انقرض فقه أهل السنة من مصر بظهور دولة الرافضة وتداول بها فقه أهل البيت وتلاشي من سواهم الى أن ذهبت دولة العبيديين من الرافضة على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب ورجع اليهم فقه الشافعي وأصحابه من أهل العراق والشام فعاد الى أحسن ما كان وتفق سوقه واشتهر منهم محيي الدين النووي من الحلبة التي ربيت في ظل الدولة الايوبية بالشام وعز الدين ابن عبد السلام أيضاً ثم ابن الرفعة بمصر واتي الدين بن دقيق العيد ثم تقي الدين السبكي بعدها الى أن انتهى ذلك الى شيخ الاسلام بمصر لهذا العهد وهو سراج الدين البلقيني فهو اليوم أكبر الشافعية بمصر كبير العلماء بل أكبر العلماء من أهل العصر * وأما مالك رحمه الله تعالى فاختص بمذهبه أهل المغرب والاندلس وان كان يوجد في غيرهم الا أنهم لم يقلدوا غيره الا في القليل لما أن رحلتهم كانت غالباً الى الحجاز وهو منتهي سفرهم والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج الى العراق ولم يكن العراق في طريقهم فاقصروا على الاخذ عن علماء المدينة وشيخهم يومئذ وامامهم مالك وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده فرجع اليه أهل المغرب والاندلس وقلدوه دون غيره ممن لم تصل اليهم طريقته وأيضاً فالبدعوة كانت غالبية على أهل المغرب والاندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لاهل العراق فكانوا الى أهل الحجاز أميل لمناسبة البدعوة ولهذا لم يزل المذهب المالكي غصاً عندهم ولم يأخذ بتفسيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب ولما صار مذهب كل امام علماً مخصوصاً عند أهل مذهبه ولم يكن لهم سبيل الى الاجتهاد والقياس فاحتاجوا الى تنظير المسائل في الالحاق وتفريقها عند الاشتباه بعد الاستناد الى الاصول المقررة عن مذهب امامهم وصار ذلك كله يحتاج الى ملكة راسخة يقتدر بها على ذلك النوع من التنظير أو التفرقة واتباع مذهب امامهم فيهما ما استطاعوا وهذه الملكة هي علم الفقه لهذا العهد وأهل المغرب جميعاً مقلدون للمالك رحمه الله وقد كان تلميذه افرقوا بمصر والعراق فكان بالعراق منهم القاضي اسمعيل وطبقته مثل ابن خوزيمنداد وابن اللبان والقاضي أبو بكر الاهرى والقاضي أبو الحسين بن القصار والقاضي عبد الوهاب ومن بعدهم وكان بمصر ابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم والحرث بن مسكين وطبقتهم ورحل من الاندلس عبد الملك بن حبيب فأخذ عن ابن القاسم وطبقته وبث مذهب مالك في الاندلس ودون فيه كتاب الواضحة ثم دون العتيبي من تلامذته كتاب العتيبة ورحل من أفريقية أسد بن الفرات فكتب عن أصحاب أبي حنيفة أولاً ثم انتقل الى مذهب مالك وكتب علي ابن القاسم في سائر أبواب الفقه وجاء الى القيروان بكتابه وسمى الاسدية نسبة الى أسد

ابن الفرات فقرأ بها سحنون على أسد ثم ارتحل الى المشرق ولقي ابن القاسم وأخذ عنه وعارضه بمسائل الاسدية فرجع عن كثير منها وكتب سحنون مسائلها ودونها وأثبت ما رجع عنه وكتب لاسد أن يأخذ بكتاب سحنون فأنف من ذلك فترك الناس كتابه واتبعوا مدونة سحنون على ما كان فيها من اختلاط المسائل في الابواب فكانت تسمى المدونة والمختلطة وعكف أهل القيروان على هذه المدونة وأهل الاندلس على الواضحة والعتبية ثم اختصر ابن أبي زيد المدونة والمختلطة في كتابه المسمى بالمتنصر ولخصه أيضاً أبو سعيد البرادعي من فقهاء القيروان في كتابه المسمى بالتهذيب واعتمده المشيخة من أهل أفريقية وأخذوا به وتركوا ما سواه وكذلك اعتمد أهل الاندلس كتاب العتبية وهجروا الواضحة وما سواها ولم تزل علماء المذهب يتعاهدون هذه الامهات بالشرح والايضاح والجمع فكتب أهل أفريقية على المدونة ماشاء الله أن يكتبوا مثل ابن يونس واللخمي وابن محرز التونسي وابن بشير وأمثالهم وكتب أهل الاندلس على العتبية ماشاء الله أن يكتبوا مثل ابن رشد وأمثاله وجمع ابن أبي زيد جميع ما في الامهات من المسائل والخلاف والاقوال في كتاب التوارد فاشتمل على جميع أقوال المذهب ووفرع الامهات كلها في هذا الكتاب ونقل ابن يونس معظمه في كتابه على المدونة وزخرت بحار المذهب المالكي في الافقين الى انقراض دولة قرطبة والقيروان ثم تمسك بهما أهل المغرب بعد ذلك الى أن جاء كتاب أبي عمرو بن الحاحب لخص فيه طرق أهل المذهب في كل باب وتعدد أقوالهم في كل مسألة فجاء كالبرنامج للمذهب وكانت الطريقة المالكية بقيت في مصر من لدن الحرث بن مسكين وابن المبشر وابن اللميت وابن رشيق وابن شاس وكانت بالاسكندرية في بني عوف وبني سند وابن عطاء الله ولم أدر عن أخذها أبو عمرو بن الحاحب لكنه جاء بعد انقراض دولة العبيديين وذهب فقه أهل البيت وظهور فقهاء السنة من الشافعية والمالكية ولما جاء كتابه الى المغرب آخر المائة السابعة عكف عليه الكثير من علماء المغرب وخصوصاً أهل بجاية لما كان كبير مشيختهم أبو علي ناصر الدين الزواوي هو الذي جلبه الى المغرب فانه كان قرأ على أصحابه بمصر ونسخ مختصره ذلك فجاء به وانتشر بقطر بجاية في تلميذه ومنهم من انتقل الى سائر الامصار المغربية وطلبة الفقه بالمغرب لهذا العهد يتداولون قراءته ويتدارسونه لما يؤثر عن الشيخ ناصر الدين من الترغيب فيه وقد شرحه جماعة من شيوخهم كابن عبد السلام وابن رشد وابن هرون وكلهم من مشيخة أهل تونس وسابق حلفتهم في الاجادة في ذلك ابن عبد السلام وهم مع ذلك يتعاهدون كتاب التهذيب في دروسهم والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

وهو معرفة فروض الوراثة وتصحيح سهام الفريضة مما تصح باعتبار فروضها الاصول أو مناسختها وذلك اذا هلك أحد الورثة وانكسرت سهامه على فروض ورثته فانه حينئذ يحتاج الى حساب يصحح الفريضة الاولى حتى يصل اهل الفروض جميعاً في الفريضتين الى فروضهم من غير تجزئة وقد تكون هذه المناسخات أكثر من واحد وأمين وتعدد لذلك بعدد أكثر وبقدر ما تعدد تحتاج الى الحساب وكذلك اذا كانت فريضة ذات وجهين مثل أن يقر بعض الورثة بوارث وينكره الآخر فتصحح على الوجهين حينئذ وينظر مبلغ السهام ثم تقسم التركة على نسب سهام الورثة من أصل الفريضة وكل ذلك يحتاج الى الحساب وكان غالباً فيه وجعلوه فماً مفرداً وللتناس فيه تأليف كثيرة أشهرها عند المالكية من متأخري الاندلس كتاب ابن ثابت ومختصر القاضي أبي القاسم الحوفي ثم الجعدي ومن متأخري أفريقية ابن النمر الطرابلسي وأمثالهم وأما الشافعية والحنفية والحنابلة فاهم فيه تأليف كثيرة وأعمال عظيمة صعبة شاهدة لهم باتساع الباع في الفقه والحساب وخصوصاً أبا المعالي رضى الله تعالى عنه وأمثاله من أهل المذاهب وهو فن شريف لجمعه بين المعقول والمنقول والوصول به الى الحقوق في الوراثة بوجوه صحيحة يقينية عند ما تجهل الحظوظ وتشكل على القاسمين وللعلماء من أهل الامصار بها عناية ومن المصنفين من يحتاج فيها الى الغلو في الحساب وفرض المسائل التي يحتاج الى استخراج المجهولات من فنون الحساب كالجبر والمقابلة والتصرف في الجذور وأمثال ذلك فلوأ بها تأليفهم وهو وان لم يكن متداولاً بين الناس ولا يفيد فيما يتداولونه من وراثتهم لغرابته وقلة وقوعه فهو يفيد المراتب وتحصل الملكة في المتداول على أكمل الوجود وقد يحتاج الاكثر من أهل هذا الفن على فضله بالحديث المنقول عن أبي هريرة رضى الله عنه ان الفرائض ثلث العلم وانها أول ما ينسى وفي رواية نصف العلم خرجه أبو نعيم الحافظ واحتج به أهل الفرائض بناء على أن المراد بالفرائض فروض الوراثة والذي يظهر أن هذا الحمل بعيد وأن المراد بالفرائض انما هي الفرائض التكليفية في العبادات والعادات والموارث وغيرها وبهذا المعنى يصح فيها التصفية والثلية وأما فروض الوراثة فهي أقل من ذلك كله بالنسبة الى علم الشريعة كلها ويعين هذا المراد أن حمل لفظ الفرائض على هذا الفن الخصوص أو تخصيصه بفروض الوراثة انما هو اصطلاح ناشئ للفقهاء عند حدوث الفنون والاصطلاحات ولم يكن صدر الاسلام يطلق على هذا الا على عمومته مشتقاً من الفرض الذي هو لغة التقدير أو القطع وما كان المراد به في اطلاقه الا جميع الفروض كما قلناه وهي حقيقة الشرعية فلا

ينبغي أن يحمل الا على ما كان يحمل في عصرهم فهو أليق بمرادهم منه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٩ أصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافات

(اعلم) أن أصول الفقه من أعظم العلوم الشرعية وأجلها قدراً وأكثرها فائدة وهو النظر في الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام والتكاليف وأصول الأدلة الشرعية هي الكتاب الذي هو القرآن ثم السنة الميمنة له فعلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم كانت الأحكام تتلقى منه بما يوحى إليه من القرآن وبينه بقوله وفعله بخطاب شفاهي لا يحتاج إلى نقل ولا إلى نظر وقياس ومن بعده صلوات الله وسلامه عليه تعذر الخطاب الشفاهي وانحفظ القرآن بالتواتر وأما السنة فأجمع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم على وجوب العمل بما يصل إلينا منها قولاً أو فعلاً بالنقل الصحيح الذي يغلب على الظن صدقه وتعين دلالة الشرع في الكتاب والسنة بهذا الاعتبار ثم ينزل الإجماع منزلتهما لإجماع الصحابة على التكبير على مخالفتهم ولا يكون ذلك إلا عن مستند لأن مثلهم لا يتفقون من غير دليل ثابت مع شهادة الأدلة بعصمة الجماعة فصار الإجماع دليلاً ثابتاً في الشرعيات ثم نظرنا في طرق استدلال الصحابة والسلف بالكتاب والسنة فإذا هم يقيسون الأشياء بالأشياء منهما وينظرون الأمثال بالأمثال بإجماع منهم وتسليم بعضهم لبعض في ذلك فإن كثيراً من الوقائع بعده صلوات الله وسلامه عليه لم تندرج في النصوص الثابتة فقاسوها بما ثبت وألحقوها بما نص عليه بشروط في ذلك الإلحاق تصحح تلك المساواة بين الشبهين أو المثلين حتى يغلب على الظن أن حكم الله تعالى فيهما واحد وصار ذلك دليلاً شرعياً بإجماعهم عليه وهو القياس وهو رابع الأدلة واتفق جمهور العلماء على أن هذه هي أصول الأدلة وإن خالف بعضهم في الإجماع والقياس إلا أنه شذوذ وألحق بعضهم بهذه الأربعة أدلة أخرى لأحاجة بنا إلى ذكرها لضعف مداركها وشذوذ القول فيها فكان أول مباحث هذا الفن النظر في كون هذه أدلة فأما الكتاب فدليله المعجزة القاطعة في منتهى التواتر في نقله فلم يبق فيه مجال للاحتمال وأما السنة وما نقل إلينا منها فالإجماع على وجوب العمل بما يصح منها كإقنانه معتضداً بما كان عليه العمل في حياته صلوات الله وسلامه عليه من انفاذ الكتب والرسائل إلى النواحي بالأحكام والشرائع أمرأوانها وأما الإجماع فلا تفاقهم رضوان الله تعالى عليهم على انكار مخالفتهم مع العصمة الثابتة للإمامة وأما القياس فإجماع الصحابة رضي الله عنهم عليه كما قدمناه هذه أصول الأدلة ثم إن المنقول من السنة محتاج إلى تصحيح الخبر بالنظر في طرق النقل وعدالة الناقلين لتتميز الحالة المحصلة

للظن بصدقه الذي هو مناط وجوب العمل وهذه أيضاً من قواعد الفن ويلحق بذلك عند التعارض بين الخبرين وطلب المتقدم منهما معرفة الناسخ والمنسوخ وهي من فصوله أيضاً وأبوابه ثم بعد ذلك يتعين النظر في دلالة الالفاظ وذلك أن استفادة المعاني على الاطلاق من تراكيب الكلام على الاطلاق يتوقف على معرفة الدلالات الوضعية مفردة ومركبة والقوانين اللسانية في ذلك هي علوم النحو والتصريف والبيان وحين كان الكلام ملكة لاهله لم تكن هذه علومها ولا قوانين ولم يكن الفقه حينئذ يحتاج اليها لأنها جيلة وملكة فلما فسدت الملكة في لسان العرب قيدها الجهابذة المتجردون لذلك بنقل صحيح ومقاييس مستنبطة صحيحة وصارت علومها يحتاج اليها الفقيه في معرفة أحكام الله تعالى ثم ان هناك استفادات أخرى خاصة من تراكيب الكلام وهي استفادة الاحكام الشرعية بين المعاني من أدلتها الخاصة من تراكيب الكلام وهو الفقه ولا يكفي فيه معرفة الدلالات الوضعية على الاطلاق بل لابد من معرفة أمور أخرى تتوقف عليها تلك الدلالات الخاصة وبها تستفاد الاحكام بحسب مآصل أهل الشرع وجهابذة العلم من ذلك وجعلوه قوانين لهذه الاستفادة مثل ان اللغة لا تثبت قياساً والمشارك لا يراد به معناه معا والواو لا تقتضي الترتيب والعام اذا أخرجت أفراد الخاص منه هل يبقى حجة فيما عداها والامر للوجوب أو النذب وللفور أو التراخي والنهي يقتضي الفساد أو الصحة والمطابق هل يحمل على المقيد والنص على العلة كاف في التعدد أم لا وأمثال هذه فكانت كلها من قواعد هذا الفن ولكونها من مباحث الدلالة كانت لغوية ثم ان النظر في القياس من أعظم قواعد هذا الفن لان فيه تحقيق الاصل والفرع فيما يقاس ويمثال من الاحكام وينفتح الوصف الذي يغلب على الظن أن الحكم علق به في الاصل من تبين أوصاف ذلك المحل أو وجود ذلك الوصف والفرع من غير معارض يمنع من ترتيب الحكم عليه في مسائل أخرى من توابع ذلك كلها قواعد لهذا الفن (واعلم) أن هذا الفن من الفنون المستحدثة في الملة وكان السلف في غنية عنه بما أن استفادة المعاني من الالفاظ لا يحتاج فيها الى أزيد مما عندهم من الملكة اللسانية وأما القوانين التي يحتاج اليها في استفادة الاحكام خصوصاً فمنهم أخذ معظمها وأما الاسانيد فلم يكونوا يحتاجون الى النظر فيها لقرب العصر وممارسة النقلة وخبرتهم بهم فلما انقرض السلف وذهب الصدر الاول وانقلب العلوم كلها صناعة كما قررناه من قبل احتاج الفقهاء والمجتهدون الى تحصيل هذه القوانين والقواعد لاستفادة الاحكام من الادلة فكتبوها فنا قائماً برأسه سموه أصول الفقه وكان أول من كتب فيه الشافعي رضي الله تعالى عنه أملى فيه رسالته المشهورة تكلم فيها في الاوامر والنواهي والبيان والخبر والنسخ وحكم العلة المنصوصة من القياس ثم كتب فقهاء الحنفية فيه وحققوا

تلك القواعد وأوسعوا القول فيها وكتب المتكلمون أيضاً كذلك إلا أن كتابة الفقهاء فيها
أمس بالفقه وألحق بالفروع لكثرة الامثلة منها والشواهد وبناء المسائل فيها على النكت الفقهية
والمتكلمون مجردون صور تلك المسائل عن الفقه ويميلون الى الاستدلال العقلي ما أمكن لانه
غالب فنونهم ومقتضي طريقهم فكان لفقهاء الحنفية فيها اليد الطولى من الغوص على النكت
الفقهية والتقاط هذه القوانين من مسائل الفقه ما أمكن وجاء أبو زيد الدبوسي من أئمتهم فكتب
في القياس بأوسع من جميعهم وتمم الابحاث والشروط التي يحتاج اليها فيه وملت صناعة أصول
الفقه بكمالها وتهذبت مسائله وتمهدت قواعده وعني الناس بطريقة المتكلمين فيه وكان من
أحسن ما كتب فيه المتكلمون كتاب البرهان لامام الحرمين والمستصفي للغزالي وهما من
الاشعرية وكتاب العهد لعبد الجبار وشرحه المعتمد لابني الحسين البصري وهما من المعتزلة
وكانت الاربعة قواعد هذا الفن وأركانها ثم لحص هذه الكتب الاربعة فخلان من المتكلمين
المتأخرين وهما الامام نضر الدين بن الخطيب في كتاب المحصول وسيف الدين الآمدي في
كتاب الاحكام واختلفت طرائقهما في الفن بين التحقيق والحجاج فابن الخطيب أميل الى
الاستكثار من الادلة والاحتجاج والآمدي مولع بتحقيق المذاهب وتقريع المسائل وأما
كتاب المحصول فاختصره تلميذ الامام سراج الدين الارموي في كتاب انتحصل وتاج الدين
الارموي في كتاب الحاصل واقتطف شهاب الدين القرافي منهما مقدمات وقواعد في كتاب
صغير سماه التنقيحات وكذلك فعل البيضاوي في كتاب المنهاج وعني المبتدئون بهذين الكتابين
وشرحهما كثير من الناس * وأما كتاب الاحكام للآمدي وهو أكثر تحقيقاً في المسائل
فلخصه أبو عمرو بن الحاحب في كتابه المعروف بالختصر الكبير ثم اختصره في كتاب آخر تداوله
طلبة العلم وعني أهل المشرق والمغرب به وبمطالعة وشرحه وحصلت زبدة طريقة المتكلمين
في هذا الفن في هذه المختصرات * وأما طريقة الحنفية فكتبوا فيها كثيراً وكان من أحسن
كتابة فيها للمتقدمين تأليف أبي زيد الدبوسي وأحسن كتابة المتأخرين فيها تأليف سيف
الاسلام البرزدي من أئمتهم وهو مستوعب وجاء ابن الساعاتي من فقهاء الحنفية فجمع بين
كتاب الاحكام وكتاب البرزدي في الطريقتين وسمى كتابه بالبدائع فجاء من أحسن الاوضاع
وأبدعها وأئمة العلماء لهذا العهد يتداولونه قراءة وبحوثاً ولعل كثير من علماء العجم بشرحه
والحال على ذلك لهذا العهد هذه حقيقة هذا الفن وتعيين موضوعاته وتعدد التأليف المشهورة
لهذا العهد فيه والله يتفعا بالعلم ويحجلنا من أهله بمنه وكرمه انه على كل شيء قدير (وأما
الخلافيات) فاعلم أن هذا الفقه المستنبط من الادلة الشرعية كثر فيه الخلاف بين المجتهدين
باجتلاف مداركهم وأنظارهم خلافاً لا بد من وقوعه لما قدمناه واتسع ذلك في الملة اتساعاً

عظيما وكان للمقلدين أن يقلدوا من شاؤوا منهم ثم لما انتهى ذلك الى الأئمة الاربعة من علماء
 الاوصار وكانوا بمكان من حسن الظن بهم اقتصر الناس على تقليدهم ومنعوا من تقليد سواهم
 لذهاب الاجتهاد لصعوبته وتشعب العلوم التي هي مواده باتصال الزمان وافتراد من يقوم على
 سوى هذه المذاهب الاربعة فأقيمت هذه المذاهب الاربعة أصول الملة وأجرى الخلاف بين
 المتمسكين بها والآخذين بأحكامها مجرى الخلاف في النصوص الشرعية والاصول الفقهية
 وجرت بينهم المناظرات في تصحيح كل منهم مذهب إمامه تجري على أصول صحيحة وطرائق
 قوية يحتاج بها كل على مذهبه الذي قلده وتمسك به وأجريت في مسائل الشريعة كلها وفي
 كل باب من أبواب الفقه فتارة يكون الخلاف بين الشافعي ومالك وأبو حنيفة يوافق أحدهما
 وتارة بين مالك وأبي حنيفة والشافعي يوافق أحدهما وتارة بين الشافعي وأبي حنيفة ومالك
 يوافق أحدهما وكان في هذه المناظرات بيان مأخذ هؤلاء الأئمة ومثارات اختلافهم ومواقع
 اجتهادهم كان هذا الصنف من العلم يسمى بالخلافات ولا بد لصاحبه من معرفة القواعد التي
 يتوصل بها الى استنباط الاحكام كما يحتاج اليها المجتهد الا أن المجتهد يحتاج اليها للاستنباط
 وصاحب الخلافات يحتاج اليها لحفظ تلك المسائل المستنبطة من أن يهدمها المخالف بادلته وهو
 لعمري علم جليل الفائدة في معرفة مأخذ الأئمة وأدلته ومران المطالعين له على الاستدلال فيما
 يرومون الاستدلال عليه وتأليف الحنفية والشافعية فيه أكثر من تأليف المالكية لان القياس
 عند الحنفية أصل للكثير من فروع مذهبهم كما عرفت فهم لذلك أهل النظر والبحث وأما
 المالكية فلا تراء أكثر معتمدتهم وليسوا باهل نظر وأيضاً فأكثرهم أهل المغرب وهم بادية
 غفل من الصنائع الا في الاقل وللفغزالي رحمه الله تعالى فيه كتاب المأخذ ولأبي زيد الدبوسي
 كتاب التعاقبة ولأبن القصار من شيوخ المالكية عيون الادلة وقد جمع ابن الساعاتي في
 مختصره في أصول الفقه جميع ما يبنى عليها من الفقه الخلافية في مسدجها في كل مسألة ما يبنى
 عليها من الخلافات (وأما الجدل) وهو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب
 الفقهية وغيرهم فانه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسماً وكل واحد من المتناظرين
 في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج ومنه ما يكون صواباً ومنه ما يكون خطأ فاحتاج
 الأئمة الى أن يضعوا آداباً وأحكاماً يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول وكيف يكون
 حال المستدل والمحجوب حيث يسوغ له أن يكون مستدلاً وكيف يكون مخصوصاً منقطعاً ومحل
 اعتراضه أو معارضته وأين يجب عليه السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال ولذلك قيل فيه
 انه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها الى حفظ رأي
 وهدمه كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره وهي طريقتان طريقة البردوي وهي خاصة بالادلة

الشرعية من النص والاجماع والاستدلال وطريقة العميدي وهي عامة في كل دليل يستدل به من أي علم كان وأكثره استدلال وهو من المناحي الحسنة والمغالطات فيه في نفس الامر كثيرة واذا اعتبرنا النظر المنطقي كان في الغالب أشبه بالقياس المغالطي والسوفسطائي الا ان صور الادلة والاقيسة فيه محفوظة مراعاة تحري فيها طرق الاستدلال كما ينبغي وهذا العميدي هو أول من كتب فيها ونسبت الطريقة اليه وضع الكتاب المسمى بالارشاد مختصرا وتبعه من بعده من المتأخرين كالنسفي وغيره جاؤا على أثره وسلكوا مسلكه وكثرت في الطريقة التأليف وهي لهذا العهد مهجورة لنقص العلم والتعليم في الامصار الاسلامية وهي مع ذلك كالية وليست ضرورية والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

علم الكلام

١٠

هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الایمائية بالادلة العقلية وائرء على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة وسر هذه العقائد الایمائية هو التوحيد فلنقدم هنا لطيفة في برهان عقلي يكشف لنا عن التوحيد على أقرب الطرق والمآخذ ثم نرجع الى تحقيق علمه وفيما ينظر ويشير الى حدوثه في الملة وما دعا الى وضعه فنقول أن الحوادث في عالم الكائنات سواء كانت من الذوات أو من الافعال البشرية أو الحيوانية فلا بد لها من أسباب متقدمة عليها بها تقع في مستقر العادة وعنها يتم كونه وكل واحد من هذه الاسباب حادث أيضاً فلا بد له من أسباب آخر ولا تزال تلك الاسباب مرتقية حتى تنتهي الى مسبب الاسباب وموجدها وخالقها سبحانه لا اله الا هو وتلك الاسباب في ارتقائها تتفصح وتتضاعف طولا وعرضا ويحار العقل في ادراكها وتعيددها فاذاً لا يحصرها الا العلم المحيط سيما الافعال البشرية والحيوانية فان من جملة أسبابها في الشاهد القصود والارادات اذ لا يتم كون الفعل الا بارادته والقصد اليه والقصود والارادات أمور نفسانية ناشئة في الغالب عن تصورات سابقة يتلو بعضها بعضاً وتلك التصورات هي أسباب قصد الفعل وقد تكون أسباب تلك التصورات تصورات أخرى وكل ما يقع في النفس من التصورات مجهول سببه اذ لا يطلع أحد على مبادي الامور النفسانية ولا على ترتيبها انما هي أشياء يلقها الله في الفكر يتبع بعضها بعضا والانسان عاجز عن معرفة مباديها وغاياتها وانما يحيط علما في الغالب بالاسباب التي هي طبيعية ظاهرة ويقع في مداركها على نظام وترتيب لان الطبيعة محصورة للنفس وتحت طورها وأما التصورات فقطاها أوسع من النفس لانها للعقل الذي هو فوق طور النفس فلا تدرك الكثير منها فضلا عن الاحاطة وتأمل من ذلك حكمة الشارع في نبيه عن النظر الى الاسباب والوقوف معها

فانه واد بهيم فيه الفكر ولا يحلو منه بطائل ولا يظفر بحقيقة قل الله ثم ذرهم في خوضهم
يلعبون وربما انقطع في وقوفه عن الارتقاء الى ما فوقه فزلت قدمه وأصبح من الضالين
الهالكين نعوذ بالله من الحرمان والحسرة الممين ولا تحسبن أن هذا الوقوف أو الرجوع عنه
في قدرتك واختيارك بل هو لون يحصل للنفس وصيغة تستحكم من الخوض في الاسباب على
نسبة لانعلمها اذ لو علمناها لتحرزنا منها فلنتحرز من ذلك بقطع النظر عنها جملة وأيضا فوجه
تأثير هذه الاسباب في الكثير من مسبباتها مجهول لانها انما يوقف عليها بالعادة لا قتران الشاهد
بالاستناد الى الظاهر وحقيقة التأثير وكيفيته مجهولة وما أوتيتم من العلم الا قليلا فلذلك أمرنا
بقطع النظر عنها والغائها جملة واتوجه الى مسبب الاسباب كلها وفاعلموا موجدتها لترسخ صفة
التوحيد في النفس على ما علمنا الشارع الذي هو أعرف بمصالح ديننا وطرق سعادتنا لاطلاعه
على ما وراء الحس قال صلى الله عليه وسلم من مات يشهد أن لا إله الا الله دخل الجنة فان
وقف عند تلك الاسباب فقد انقطع وحقت عليه كلمة الكفر وان سبى في بحر النظر والبحث
عنها وعن أسبابها وتأثيراتها واحداً بعد واحد فأن الضامن له أن لا يعود الا بالحيلة فلذلك
نهانا الشارع عن النظر في الاسباب وأمرنا بالتوحيد المطلق قل هو الله أحد الله الصمد لم
يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ولا تتقن بما يزعم لك الفكر من أنه مقتدر على الاحاطة
بالكائنات وأسبابها والوقوف على تفصيل الوجود كله وسفه رأيه في ذلك واعلم أن الوجود
عند كل مدرك في باديء رأيه منحصر في مداركه لا يعدها والامر في نفسه بخلاف ذلك
والحق من ورائه ألا ترى الاصم كيف يحصر الوجود عنده في المحسوسات الاربع والمعقولات
ويسقط من الوجود عنده صنف المسموعات وكذلك الاعمى أيضاً يسقط عنده صنف المرئيات
ولولا ما يردهم الى ذلك تقليد الآباء والمشيخة من أهل عصرهم والكافة لما أقروا به لكنهم
يتبعون الكافة في اثبات هذه الاصناف لا بمقتضى فطرتهم وطبيعة ادراكهم ولو سئل
الحيوان الاعجم ونطق لوجدناه منكراً للمعقولات وساقطة لديه بالكلية فاذا علمت هذا فلعل
هناك ضرباً من الادراك غير مدركتنا لان ادراكنا مخلوقة محدثة وخلق الله اكبر من
خلق الناس والحصر مجهول والوجود أوسع نطاقاً من ذلك والله من ورائهم محيط فاتهم
ادراكك ومدركتك في الحصر واتبع ما أمرك الشارع به من اعتقادك وعملك فهو أحرص
على سعادتك واعلم بما ينفعك لانه من طور فوق ادراكك ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك
وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه بل العقل ميزان صحيح فأحكامه يقينية لا كذب فيها غير
أنك لا تطمع ان تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الالهية
وكل ما وراء طوره فان ذلك طمع في محال ومثال ذلك مثال رجل رأي الميزان الذي يوزن به

الذهب فطمع أن يزن به الحيال وهذا لا يدرك على أن الميزان في أحكامه غير صادق لكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدى طوره حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته فانه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه وتظن في هذا الغلط من يقدم العقل على السمع في أمثال هذه القضايا وقصور فهمه واضمحلال رأيه فقد تبين لك الحق من ذلك وإذا تبين ذلك فاعمل الأسباب إذا تجاوزت في الارتقاء نطاق ادراكنا ووجودنا خرجت عن أن تكون مدركة فيفضل العقل في بيء الأوهام ومحار وينقطع فاذا التوحيد هو العجز عن ادراك الأسباب وكيفيات تأثيرها وتفويض ذلك إلى خالقها المحيط بها إذا فاعل غيره وكلها ترتقي إليه وترجع إلى قدرته وعلمنا به انما هو من حيث صدورنا عنه وهذا هو معنى ما نقل عن بعض الصديقين العجز عن الادراك ادراك ثم ان المعتبر في هذا التوحيد ليس هو الايمان فقط الذي هو تصديق حكمي فان ذلك من حديث النفس وانما الكمال فيه حصول صفة منه تتكيف بها النفس كما أن المطلوب من الأعمال والعبادات أيضاً حصول ملكة الطاعة والانقياد وتفرغ القلب عن شواغل ماسوى المعبود حتى يتقلب المرید السالك ربانيا والفرق بين الحال والعلم في العقائد فرق ما بين القول والاتصاف وشرحه أن كثيراً من الناس يعلم أن رحمة اليتيم والمسكين قربة إلى الله تعالى مندوب اليه ويقول بذلك ويعترف به ويذكر مأخذه من الشريعة وهو لورأى يتيماً أو مسكيناً من أبناء المستضعفين لفرغته واستسكف أن يبشره فضلاً عن التمسح عليه للرحمة وما بعد ذلك من مقامات العطف والحنو والصدقة فهذا انما حصل له من رحمة اليتيم مقام العلم ولم يحصل له مقام الحال والاتصاف ومن الناس من يحصل له مع مقام العلم والاعتراف بأن رحمة المسكين قربة إلى الله تعالى مقام آخر أعلى من الاول وهو الاتصاف بالرحمة وحصول ملكتها فتي رأى يتيماً أو مسكيناً بادر إليه ومسح عليه و التمس الثواب في الشفقة عليه لا يكاد يصبر عن ذلك ولو دفع عنه ثم يتصدق عليه بما حضره من ذات يده وكذا علمك بالتوحيد مع اتصافك به والعلم الحاصل عن الاتصاف ضرورة وهو أوثق مبنى من العلم الحاصل قبل الاتصاف وليس الاتصاف بحاصل عن مجرد العلم حتى يقع العمل ويتكرر مراراً غير منحصرة فترسخ الملكة ويحصل الاتصاف والتحقيق ويجيء العلم الثاني النافع في الآخرة فان العلم الاول المجرد عن الاتصاف قليل الجدوي والنفع وهذا علم أكثر النظار والمطلوب انما هو العلم الحالي الناشئ عن العادة * واعلم أن الكمال عند الشارع في كل ما كلف به انما هو في هذا فما طلب اعتقاده فالكمال فيه في العلم الثاني الحاصل عن الاتصاف وما طلب عمله من العبادات فالكمال فيها في حصول الاتصاف والتحقيق بها ثم ان الاقبال على العبادات والمواظبة عليها هو المحصل لهذه الثمرة الشريفة قال صلى الله عليه وسلم في رأس العبادات جعلت قرة عيني في الصلاة فان الصلاة صارت له صفة وحالا يجد فيها منتهى لذته وقره عنه

وأين هذا من صلاة الناس ومن لهم بها فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون اللهم وفقنا واهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين * فقد تبين لك من جميع ما قررناه أن المطلوب في التكليف كلها حصول ملكة راسخة في النفس يحصل عنها علم اضطراري للنفس هو التوحيد وهو العقيدة الايمانية وهو الذي تحصل به السعادة وان ذلك سواء في التكليف القلبية والبدينية ويتفهم منه أن الايمان الذي هو أصل التكليف وينبوعها هو بهذه المثابة ذو مراتب أولها التصديق القلبي الموافق للسان وأعلىها حصول كيفية من ذلك الاعتقاد القلبي وما يتبعه من العمل مستولية على القلب فيستتبع الجوارح وتدرج في طاعتها جميع التصرفات حتى تخرط الافعال كلها في طاعة ذلك التصديق الايماني وهذا أرفع مراتب الايمان وهو الايمان الكامل الذي لا يقارف المؤمن معه صغيرة ولا كبيرة اذ حصول الملكة ورسوخها مانع من الانحراف عن مناهجه طرفة عين قال صلى الله عليه وسلم لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن وفي حديث هرقل لما سأل أباسفيان بن حرب عن النبي صلى الله عليه وسلم وأحواله فقال في أصحابه هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه قال لا قال وكذلك الايمان حين يخالط بشاشته القلوب ومعناه أن ملكة الايمان اذا استقرت عسر على النفس مخالفتها شأن الملكات اذا استقرت فلها تحصل بمتابة الحيلة والفترة وهذه هي المرتبة العالية من الايمان وهي في المرتبة الثانية من العصمة لان العصمة واجبة للانباء وجوباً سابقاً وهذه حاصلة للمؤمنين حصولاً تاماً لا أعمالهم وتصديقهم وهذه الملكة ورسوخها يقع التفاوت في الايمان كالذي يتلى عليك من أقاويل السلف وفي تراجم البخاري رضي الله عنه في باب الايمان كثير منه مثل أن الايمان قول وعمل ويزيد وينقص وان الصلاة والصيام من الايمان وأن تطوع رمضان من الايمان والحياة من الايمان والمراد بهذا كله الايمان الكامل الذي أشرنا اليه والى ملكته وهو فعلى وأما التصديق الذي هو أول مراتبه فلا تفاوت فيه فمن اعتبر أوائل الاسماء وحمله على التصديق منع من التفاوت كما قال أئمة المتكلمين ومن اعتبر أواخر الاسماء وحمله على هذه الملكة التي هي الايمان الكامل ظهر له التفاوت وليس ذلك بقادح في اتحاد حقيقته الاولى التي هي التصديق اذ التصديق موجود في جميع رتبته لانه أقل ما يطلق عليه اسم الايمان وهو الخاص من عهدة الكفر والفصل بين الكافر والمسلم فلا يجزي أقل منه وهو في نفسه حقيقة واحدة لا تتفاوت وانما التفاوت في الحال الحاصلة عن الاعمال كما قلناه فافهم * واعلم أن الشارع وصف لنا هذا الايمان الذي في المرتبة الاولى الذي هو تصديق وعين أموراً مخصوصة كلفنا التصديق بها بقلوبنا واعتقادها في أنفسنا مع الاقرار بالأسنتنا وهي العقائد التي تقررت في الدين قال صلى الله عليه وسلم حين سئل عن الايمان

فقال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره وهذه هي العقائد الإيمانية المقررة في علم الكلام ولنشر إليها جملة لتبين لك حقيقة هذا الفن وكيفية حدوده فنقول * اعلم أن الشارع لما أمرنا بالإيمان بهذا الخالق الذي رد الأفعال كلها إليه وأفرد به كما قد سناه وعرفنا أن في هذا الإيمان نجاتنا عند الموت إذا حضرنا لم يعرفنا بكنهه حقيقة هذا الخالق المعبود إذ ذاك متعذر على ادراكنا ومن فوق طورنا فكلفنا أولاً اعتقاد تنزيهه في ذاته عن مشابهة المخلوقين والا لما صح أنه خالق لهم لعدم الفارق على هذا التقدير ثم تنزيهه عن صفات النقص والالشابه المخلوقين ثم توحيده بالإيجاد والالم يتم الخلق للتمانع ثم اعتقاد أنه عالم قادر فبذلك تتم الأفعال شاهد قضيته لكمال الإيجاد والخلق ومريد والا لم يخص شيء من المخلوقات ومقدر لكل كائن والا فالارادة حادثة وأنه يعيدنا بعد الموت تكديلاً لعنائه بالإيجاد ولو كان لامر فإن كان عبثاً فهو للبقاء السرمدي بعد الموت ثم اعتقاد بعثة الرسل للنجاة من شقاء هذا المعاد لا اختلاف أحواله بالشقاء والسعادة وعدم معرفتنا بذلك وتمام لطفه بنا في الإتياء بذلك وبين الطريقين وأن الجنة للنعيم واللعذاب لهذه أمهات العقائد الإيمانية معللة بادلها العقابية وأدلتها من الكتاب والسنة كثيرة وعن تلك الأدلة أخذها السلف وأرشد إليها العلماء وحققتها الأئمة الا أنه عرض بعد ذلك خلاف في تفاصيل هذه العقائد أكثر مشارها من الآي المتشابهة فدعا ذلك الى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل زيادة الى النقل فحدث بذلك علم الكلام ولتبيين لك تفصيل هذا الجمل وذلك ان القرآن ورد فيه وصف المعبود بالتنزيه المطلق الظاهر الدلالة من غير تأويل في أي كثيرة وهي سلوب كلها وصريحة في بابها فوجب الإيمان بها ووقع في كلام الشارع صلوات الله عليه وكلام الصحابة والتابعين تفسيرها على ظاهرها ثم وردت في القرآن أي أخرى قليلة توهم التشبيه مرة في الذات وأخرى في الصفات فأما السلف فغلبوا أدلة التنزيه لكثرتها ووضوح دلالتها وعلموا استحالة التشبيه وقضوا بان الآيات من كلام الله فآمنوا بها ولم يتعرضوا لمناها ببحث ولا تأويل وهذا معنى قول الكثير منهم اقرؤوها كما جاءت أي آمنوا بانها من عند الله ولا تتعرضوا لتأويلها ولا تفسيرها لجواز أن تكون ابتلاء فيجب الوقف والاذعان له وشذ لعصرهم مبتدعة اتبعوا ما تشابه من الآيات وتوغلوا في التشبيه ففريق أشبهوا في الذات باعتقاد اليد والقدم والوجه عملاً بظواهر وردت بذلك فوقعوا في التجسيم الصريح ومخالفة أي التنزيه المطلق التي هي أكثر موارد وأوضح دلالة لان معقولية الجسم تقضي النقص والافتقار وتغليب آيات السلوب في التنزيه المطلق التي هي أكثر موارد وأوضح دلالة أولى من التعاقب بظواهر هذه التي لناعها غنية وجمع بين الدليلين بتأويلهم ثم يفرون من شناعة ذلك بقولهم جسم لا كالأجسام

وليس ذلك بدافع عنهم لانه قول متناقض وجمع بين نفي وثابت ان كان بالمعقولة واحدة من الجسم وان خالفوا بينهما ونفوا المعقولة المتعارفة فقد وافقونا في التنزيه ولم يبق الا جعلهم لفظ الجسم اسما من اسمائه ويتوقف مثله على الاذن وفريق منهم ذهبوا الى التشبيه في الصفات كاثبات الجهة والاستواء والنزول والصوت والحرف وأمثال ذلك وآل قولهم الى التجسيم فترعوا مثل الاولين الى قولهم صوت لا كالأصوات جهة لا كالجهات نزول لا كالنزول يعنون من الاجسام واندفع ذلك بما اندفع به الاول ولم يبق في هذه الظواهر الا اعتقادات السلف ومذاهبهم والايمان بها كما هي لئلا يكر النفي على معانيها بنفيها مع أنها صحيحة ثابتة من القرآن ولهذا تنظر ما تراه في عقيدة الرسالة لابن أبي زيد وكتاب المختصر له وفي كتاب الحافظ ابن عبد البر وغيرهم فانهم يحومون على هذا المعنى ولا تعمض عينك عن القرائن الدالة على ذلك في غضون كلامهم ثم لما كثرت العلوم والصنائع وولع الناس بالتدوين والبحث في سائر الانحاء وألف المتكلمون في التنزيه حدثت بدعة المعتزلة في تعميم هذا التنزيه في أي السلوب فقضوا بنفي صفات المعاني من العلم والقدرة والارادة والحياة زائدة على أحكامها لما يلزم على ذلك من تعدد القديم بزعمهم وهو مردود بان الصفات ليست عين الذات ولا غيرها وقضوا بنفي السمع والبصر لكونهما من عوارض الاجسام وهو مردود لعدم اشتراط البنية في مدلول هذا اللفظ وانما هو ادراك المسموع أو المبصر وقضوا بنفي الكلام لشبهه مافي السمع والبصر ولم يعقلوا صفة الكلام التي تقوم بالنفس فقضوا بأن القرآن مخلوق بدعة صرح السلف بخلافها وعظم ضرر هذه البدعة ولقتها بعض الخلفاء عن أئمتهم فحمل الناس عليها وخالف أئمة السلف فاستحلح لخلافهم أيسار كثير منهم ودماهم وكان ذلك سبباً لانتهاض أهل السنة بالادلة العقلية على هذه العقائد دفعا في صدور هذه البدع وقام بذلك الشيخ أبو الحسن الاشعري إمام المتكلمين فتوسط بين الطرق ونفي التشبيه وأثبت الصفات المعنوية وقصر التنزيه على ما قصره عليه السلف وشهدت له الادلة المخصصة لعمومه فأثبت الصفات الاربع المعنوية والسمع والبصر والكلام القائم بالنفس بطريق النقل والعقل ورد على المبتدعة في ذلك كله وتكلم معهم فيما مهدوه لهذه البدع من القول بالصلاح والاصلاح والتحسين والتقييح وكل العقائد في البعثة وأحوال الجنة والنار والثواب والعقاب وألحق بذلك الكلام في الامامة لما ظهر حينئذ من بدعة الامامية من قولهم انها من عقائد الايمان وأنه يجب على النبي تعيينها والخروج عن العهدة في ذلك لمن هي له وكذلك على الامة وقصارى أمر الامامة أنها قضية مصلحة اجماعية ولا تلحق بالعقائد فذلك ألحقوها بمسائل هذا الفن وسموا مجموع علم الكلام اما لما فيه من المناظرة على البدع وهي كلام صرف وليست براجعة الى عمل واما لان

سبب وضعه والخوض فيه هو تنازعهم في اثبات الكلام النفسي وكثرة اتباع الشيخ أبي الحسن الأشعري واقفي طريقته من بعده تلميذه كائن مجاهد وغيره وأخذ عنهم القاضي أبو بكر الباقلاني فنصدر للإمامة في طريقتهم وهذبا ووضع المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة والانظار وذلك مثل اثبات الجوهر الفرد والخلاء وأن العرض لا يقوم بالعرض وأنه لا يبقى زمانين وأمثال ذلك مما تتوقف عليه أدلتهم وجعل هذه القواعد تبعا للعقائد الإيمانية في وجوب اعتقادها لتوقف تلك الأدلة عليها وإن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول وجمت هذه الطريقة وجاءت من أحسن الفنون النظرية والعلوم الدينية إلا أن صور الأدلة تعتبر بها الأقيسة ولم تكن حينئذ ظاهرة في الملة ولو ظهر منها بعض الشيء فلم يأخذ به المتكلمون لملاستها للعلوم الفلسفية المبينة للعقائد الشرعية بالجملة فكانت مهجورة عندهم لذلك ثم جاء بعد القاضي أبي بكر الباقلاني إمام الحرمين أبو المعالي فأملى في الطريقة كتاب الشامل وأوسع القول فيه ثم لحصه في كتاب الإرشاد واتخذ الناس إماما لعقائدهم ثم انتشرت من بعد ذلك علوم المنطق في الملة وقرأه الناس وفرقوا بينه وبين العلوم الفلسفية بأنه قانون ومعيار للأدلة فقط يسير به الأدلة منها كما يسير من سواها ثم نظروا في تلك القواعد والمقدمات في فن الكلام للأقدمين خالفوا الكثير منها بالبراهين التي أدلت إلى ذلك وربما أن كثيرا منها ممتبس من كلام الفلاسفة في الطبيعيات والألهيات فلما سبروها بمعيار المنطق ردهم إلى ذلك فيها ولم يعتقدوا بطلان المدلول من بطلان دليله كما صار إليه القاضي فصارت هذه الطريقة من مصطلحهم مبينة للطريقة الأولى وتسمى طريقة المتأخرين وربما أدخلوا فيها الرد على الفلاسفة فيما خالفوا فيه من العقائد الإيمانية وجعلوهم من خصوم العقائد لتناسب الكثير من مذاهب المبتدعة ومذاهبهم وأول من كتب في طريقة الكلام على هذا المنهج الغزالي رحمه الله وتبعه الإمام ابن الخطيب وجماعة قفوا أثرهم واعتمدوا تقليدهم ثم توغل المتأخرون من بعدهم في مخالطة كتب الفلسفة والتبس عليهم شأن الموضوع في العلمين فحسبوه فيها واحدا من اشتباه المسائل فيهما * واعلم أن المتكلمين لما كانوا يستدلون في أكثر أحوالهم بالكائنات وأحوالها على وجود الباري وصفاته وهو نوع استدلالهم غالبا والجسم الطبيعي ينظر فيه الفيلسوف في الطبيعيات وهو بعض من هذه الكائنات إلا أن نظره فيها مخالف لنظر المتكلم وهو ينظر في الجسم من حيث يتحرك ويسكن والمتكلم ينظر فيه من حيث يدل على الفاعل وكذا نظر الفيلسوف في الالهيات إنما هو نظر في الوجود المطابق وما يقتضيه لذاته ونظر المتكلم في الوجود من حيث أنه يدل على الموجد وبالجملة فموضوع علم الكلام عند أهلنا هو العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع من حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية فترفع البدع وتزول الشكوك والشبه عن تلك

العقائد وإذا تأملت حال الفن في حدوثه وكيف تدرج كلام الناس فيه صدر ابعده صدر وكلامهم يفرض العقائد صحيحة ويستتمض الحجاج والأدلة علمت حينئذ ماقررناه لك في موضوع الفن وأنه لا يعدوه ولقد اختلطت الطريقتان عند هؤلاء المتأخرين والتبست مسائل الكلام بمسائل الفلاسفة بحيث لا يميز أحد الفنين من الآخر ولا يحصل عليه طالبه من كتبهم كما فعله البيضاوي في الطوالع ومن جاء بعده من علماء العجم في جميع تأليفهم الآن هذه الطريقة قد يعني بها بعض طلبة العلم للاطلاع على المذاهب والاغراق في معرفة الحجاج لو فور ذلك فيها وأما محاذاة طريقة الساف بعقائد علم الكلام فانما هو للطريقة القديمة للمتكلمين وأصلها كتاب الارشاد وماحذا حذوه ومن أراد ادخال الرد على الفلاسفة في عقائده فعليه بكتب الغزالي والامام ابن الخطيب فانها وان وقع فيها مخالفة للاصطلاح القديم فليس فيها من الاختلاط في المسائل والالتباس في الموضوع ما في طريقة هؤلاء المتأخرين من بعدهم وعلى الجملة فينبغي أن يعلم أن هذا العلم الذي هو علم الكلام غير ضروري لهذا العهد على طالب العلم اذ المصلحة والمبتدعة قد انقرضوا والأئمة من أهل السنة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودونوا والأدلة العقلية انما احتاجوا اليها حين دافعوا ونصروا وأما الآن فلم يبق منها الا كلام تنزه الباري عن كثير ايهاماته واطلاقه ولقد سئل الجنيد رحمه الله عن قوم مرهبهم من المتكلمين فيفضون فيه فقال ما هؤلاء فقيل قوم ينزهون الله بالادلة عن صفات الحدوث وسمات النقص فقال نفى العيب حيث يستحيل العيب عيب لكن فائدته في آحاد الناس وطلبة العلم فائدة معتبرة إذ لا يحسن بحامل السنة الجهل بالحجج النظرية على عقائدها والله ولي المؤمنين

١١ علم التصوف

هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الامة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانتقطاع الى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف فلما فشا الاقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس الى مخالطة الدنيا اختص المقبولون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة وقال القشيري رحمه الله ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس والظاهر أنه لقب ومن قال اشتقاقه من الصفاء أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوي قال وكذلك من الصوف لانهم لم يختصوا بلبسه * قلت والظاهر ان قيل بالاشتقاق أنه من الصوف وهم في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه

من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب الى لبس الصوف فلما اختص هؤلاء بمذهب الزهد والانفراد عن الحلق والاقبال على العبادة اختصوا بما خذ مدركة لهم وذلك أن الانسان بما هو انسان انما يتميز عن سائر الحيوان بالادراك وادراكه نوعان ادراك للعلوم والمعارف من اليقين والظن والشك والوهم وادراك للاحوال القائمة من الفرح والحزن والقبض والبسط والرضا والغضب والصبر والشكر وأمثال ذلك فالروح العاقل والمتصرف في البدن تنشأ من ادراكات وأرادات وأحوال وهي التي يميز بها الانسان وبعضها ينشأ من بعض كما ينشأ العلم من الادلة والفرح والحزن عن ادراك المؤلم أو المتلذذ به والنشاط عن الجلم أو الكسل عن الاعياء وكذلك المرید في مجاهدته وعبادته لا بد وان ينشأ له عن كل مجاهدة حال نتيجة تلك المجاهدة وتلك الحال اما أن تكون نوع عبادة فترسخ وتصير مقاماً للمرید واما أن لا تكون عبادة وانما تكون صفة حاصلة للنفس من حزن أو سرور أو نشاط أو كسل أو غير ذلك من المقامات ولا يزال المرید يترقى من مقام الى مقام الى أن ينتهي الى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة قال صلى الله عليه وسلم من مات يشهد أن لا إله الا الله دخل الجنة فالمرید لا بدله من الترقى في هذه الاطوار وأصلها كلها الطاعة والاخلاص ويتقدمها الايمان ويصاحبها وتشأ عنها الاحوال والصفات نتائج وثمرات ثم تنشأ عنها أخرى وأخرى الى مقام التوحيد والعرفان واذا وقع تقصير في النتيجة أو خلل فاعلم أنه إنما أتى من قبل التقصير في الذي قبله وكذلك في الخواطر الفسائية والواردات القلبية فهذا يحتاج المرید الى محاسبة نفسه في سائر أعماله وينظر في حقائقها لان حصول النتائج عن الاعمال ضروري وقصورها من الخلل فيها كذلك والمرید يجد ذلك بذوقه ومحاسب نفسه على أسبابه ولا يشاركهم في ذلك إلا القليل من الناس لان الغفلة عن هذا كأنها شاملة وغاية أهل العبادات اذ لم يتموا الى هذا النوع أهم يأتون بالطاعات مخلصه من نظر الفقه في الاجزاء والامثال وهؤلاء يبحثون عن نتائجها بالاذواق والمواجد ليطمعوا على أنها خالصة من التقصير أولاً فظهر أن أصل طريقهم كلها محاسبة النفس على الافعال والتروك والكلام في هذه الاذواق والمواجد التي تحصل عن المجاهدات ثم تستقر للمرید مقاماً ويترقى منها الى غيرها ثم لهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم اذ الاوضاع اللغوية انما هي للمعاني المتعارفة فاذا عرض من المعاني ما هو غير متعارف اصطلاحاً عن التعبير عنه بلفظ يتيسر فهمه منه فلهذا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذي ليس لواحد غيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه وصار علم الشريعة على صنفين صنف مخصوص بالفتاء واهل الفتيا وهي الاحكام العامة في العبادات والمعادات والمعاملات وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليها والكلام في الاذواق والمواجد العارضة في طريقها

وكيفية الترقى منها من ذوق الى ذوق وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك فلما كتبت العلوم ودونت وألف الفقهاء في الفقه وأصوله والكلام والتفسير وغير ذلك كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقهم ففهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الاخذ والترك كما فعله القشيري في كتاب الرسالة والسهروردي في كتاب عوارف المعارف وأمثالهم وجمع الغزالي رحمه الله بين الامرين في كتاب الاحياء فدون فيه أحكام الورع والاقتداء ثم بين آداب القوم وسننهم وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم وصار علم التصوف في الملة علماً مدوناً بعد ان كانت الطريقة عبادة فقط وكانت أحكامها انما تأتي من صدور الرجال كواقع في سائر العلوم التي دونت بالكتاب من التفسير والحديث والفقه والاصول وغير ذلك * ثم ان هذه المجاهدة والحلوة والذكر يتبعها غالباً يكشف حجاب الحس والاطلاع على عوالم من أمر الله ليس لصاحب الحس ادراك شئ منها والروح من تلك العوالم وسبب هذا الكشف ان الروح اذ ارجع عن الحس الظاهر الى الباطن ضعفت أحوال الحس وقويت أحوال الروح وغلب سلطانه وتجدد نشوه وأعان على ذلك الذكر فانه كالغذاء لتنمية الروح ولا يزال في نمو وتزيد الى أن يصير شهوداً بعد أن كان علماً ويكشف حجاب الحس ويتم وجود النفس الذي لها من ذاتها وهو عين الادراك فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية والعلوم الدنية والفتح الالهي وتقرب ذاته في تحقيق حقيقتها من الافق الاعلى أفق الملائكة وهذا الكشف كثيراً ما يعرض لاهل المجاهدة فيدركون من حقائق الوجود مالا يدرك سواهم وكذلك يدركون كثيراً من الواقعات قبل وقوعها ويتصرفون بهمهم وقوى نفوسهم في الموجودات السفلية وتصير طوع ارادتهم فالعظماء منهم لا يعتبرون هذا الكشف ولا يتصرفون ولا يجربون عن حقيقة شئ لم يؤمروا بالتكلم فيه بل يعدون ما يقع لهم من ذلك محنة ويتعوذون منه اذا هاجهم وقد كان الصحابة رضى الله عنهم على مثل هذه المجاهدة وكان حظهم من هذه الكرامات أوفر الحظوظ لكنهم لم يقع لهم بها عناية وفي فضائل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضى الله عنهم كثير منها وتبعهم في ذلك أهل الطريقة ممن اشتملت رسالة القشيري على ذكرهم ومن تبع طريقهم من بعدهم * ثم ان قوماً من المتأخرين انصرفت عنايتهم الى كشف الحجاب والمدارك التي وراءه واختلفت طرق الرياضة عنهم في ذلك باختلاف تعليمهم في إمامة القوى الحسية وتغذية الروح العاقل بالذكر حتى يحصل للنفس إدراكها الذي لها من ذاتها بتمام نشوتها وتغذيتها فاذا حصل ذلك زعموا أن الوجود قد انحصر في مداركها حينئذ وانهم كشفوا ذوات الوجود وتصوروا حقائقها كلها من العرش الى الفرش هكذا قال الغزالي رحمه الله في كتاب الاحياء بعد أن ذكر صورة الرياضة * ثم ان هذا الكشف لا يكون صحيحاً كاملاً عنده الا اذا كان ناشئاً عن الاستقامة لان

الكشف قد يحصل لصاحب الجوع والحلوة وان لم يكن هناك استقامة كالسحرة والنصارى وغيرهم من المرتاضين وليس مرادنا الا الكشف الناشئ عن الاستقامة ومثاله ان المرأة الصقيلة اذا كانت محدبة أو مقعرة وحوزيها جهة المرئي فانه يتشكل فيها معوجاً على غير صورته وان كانت مسطحة تشكل فيها المرئي صحيحاً فالاستقامة للنفس كالانبساط للمرأة فيما ينطبع فيها من الأحوال ولما عني المتأخرون بهذا النوع من الكشف تكلموا في حقائق الموجودات العلوية والسفلية وحقائق الملك والروح والعرش والكروسي وأمثال ذلك وقصرت مدارك من لم يشاركهم في طريقهم عن فهم أدواقهم ومواجهتهم في ذلك وأهل الفتيان منكر عليهم ومسلم لهم وليس البرهان والدليل ينافع في هذه الطريق رد أو قبول اذ هي من قبيل الوجدانيات وربما قصد بعض المصنفين بيان مذهبهم في كشف الوجود وترتيب حقائقه فأتي بالاعرض فالاعرض بالنسبة إلى أهل النظر والاصطلاحات والعلوم كما فعل الفرغاني شارح قصيدة ابن الفارض في الديباجة التي كتبها في صدر ذلك الشرح فانه ذكر في صدور الوجود عن الفاعل وترتيبه ان الوجود كله صادر عن صفة الوجدانية التي هي مظهر الاحدية وهما معاً صادران عن الذات الكريمة التي هي عين الوحدة لا غير ويسمون هذا الصدور بالتجلي وأول مراتب التجليات عندهم تجلي الذات على نفسه وهو يتضمن الكمال بافاضة اليجاد والظهور لقوله في الحديث الذي يتناقلونه كنت كنزاً مخفياً فأحييت أن أعرف خلقت الخلق ليعرفوني وهذا الكمال في اليجاد المنزل في الوجود وتفصيل الحقائق وهو عندهم عالم المعاني والحضرة الكمالية والحقيقة المحمدية وفيها حقائق الصفات واللوح والقلم وحقائق الانبياء والرسل أجمعين والكمال من أهل الملة المحمدية وهذا كله تفصيل الحقيقة المحمدية ويصدر عن هذه الحقائق حقائق أخرى في الحضرة الهباتية وهي مرتبة المثال ثم عنها العرش ثم الكروسي ثم الأفلاك ثم عالم العناصر ثم عالم التركيب هذا في عالم الرتق فاذا تجلت فهي في عالم الفتق ويسمي هذا المذهب مذهب أهل التجلي والمظاهر والحضرات وهو كلام لا يقتدر أهل النظر على محصيل مقتضاه لغموضه وانغلاقه وبعد ما بين كلام صاحب المشاهدة والوجدان وصاحب الدليل وربما أنكر بظاهر الشرع هذا الترتيب وكذلك ذهب آخرون منهم إلى القول بالوحدة المطلقة وهو رأي أغرب من الاول في تعقله وتقاريعه يزعمون فيه أن الوجود له قوي في تفاصيله بها كانت حقائق الموجودات وصورها وموادها والعناصر انما كانت بما فيها من القوي وكذلك مادتها لها في نفسها قوة بها كان وجودها ثم ان المركبات فيها تلك القوي متضمنة في القوة التي كان بها التركيب كالقوة المعدنية فيها قوى العناصر بهيولها وزيادة القوة المعدنية ثم القوى الحيوانية تتضمن القوة المعدنية وزيادة قوتها في نفسها وكذلك القوة الانسانية مع الحيوانية ثم الفلك يتضمن القوة الانسانية

وزيادة وكذا الذوات الروحانية والقوة الجامعة للكل من غير تفصيل هي القوة الالهية التي انبثت في جميع الموجودات كلية وجزئية وجمعتها وأحاطت بها من كل وجهه لامن جهة الظهور ولا من جهة الخفاء ولا من جهة الصورة ولا من جهة المادة فالكل واحد وهو نفس الذات الالهية وهي في الحقيقة واحدة بسيطة والاعتبار هو المفصل لها كالانسانية مع الحيوانية ألا ترى أنها مندرجة فيها وكائنة بكونها فتارة يمثلونها بالجنس مع النوع في كل موجود كما ذكرناه وتارة بالكل مع الجزء على طريقة المثال وهم في هذا كله يفرقون من التركيب والكثرة بوجه من الوجوه وانما أوجها عندهم الوهم والخيال والذي يظهر من كلام ابن دهقان في تقرير هذا المذهب أن حقيقة مايقولونه في الوحدة شبيه بما تقوله الحكماء في الألوان من أن وجودها مشروط بالضوء فاذا عدم الضوء لم تكن الألوان موجودة بوجه وكذا عندهم الموجودات المحسوسة كلها مشروطة بوجود المدرك الحسي بل والموجودات المعقولة والمتوهمه أيضاً مشروطة بوجود المدرك العقلي فاذا الوجود المفصل كله مشروط بوجود المدرك البشري فلو فرضنا عدم المدرك البشري جملة لم يكن هناك تفصيل الوجود بل هو بسيط واحد فالحر والبرد والصلابة واللين بل والارض والماء والنار والسماء والكواكب انما وجدت لوجود الحواس المدركة لها لما جعل في المدرك من التفصيل الذي ليس في الوجود وانما هو في المدارك فقط فاذا فقدت المدارك المفصلة فلا تفصيل انما هو ادراك واحد وهو أنا لاغيره ويعتبرون ذلك بحال النائم فانه اذا نام وفقد الحس الظاهر فقد فقد كل محسوس وهو في تلك الحالة الا مايفصله له الخيال قاوا فكذا اليقظان انما يعتبر تلك المدركات كلها على التفصيل بنوع مدركه البشري ولو قدر فقد مدركه فقد التفصيل وهذا هو معني قولهم الموهم لا الوهم الذي هو من جملة المدارك البشرية هذا ماخص رأيهم على مايفهم من كلام ابن دهقان وهو في غاية السقوط لانا نقطع بوجود البلد الذي نحن مسافرون عنه واليه يقينا مع غيبته عن أعيننا وبوجود السماء المظلة والكواكب وسائر الاشياء الغائبة عنا والانسان قاطع بذلك ولا يكابر أحد نفسه في اليقين مع أن المحققين من المتصوفة المتأخرين يقولون ان المزيد عند الكشف ربما يعرض له توهم هذه الوحدة ويسمي ذلك عندهم مقام الجمع ثم يترقى عنه الى التمييز بين الموجودات ويعبرون عن ذلك بمقام الفرق وهو مقام العارف المحقق ولا بد للمريد عندهم من عقبة الجمع وهي عقبة صعبة لانه يخشى على المريد من وقوفه عندها فتخسر صفقته فقد تبينت مراتب اهل هذه الطريقة ثم ان هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس توغلوا في ذلك فذهب الكثير منهم الى الحلول والوحدة كما أشرنا اليه وملؤا الصحف منه مثل الهروي في كتاب المقامات له وغيره وتبعهم ابن العربي وابن سبعين

وتلميذها ابن العفيف وابن الفارض والنجم الاسرائيلي في قصائد هم وكان سلفهم مخالطين
 للاسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضا بالحلول والهيئة الأئمة مذهباً لم يعرف لأولهم
 فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم وظهر في
 كلام المتصوفة القول بالنطب ومعناه رأس العارفين يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في
 مقامه في المعرفة حتي يقبضه الله ثم يورث بمقامه لاخر من أهل العرفان وقد أشار الى ذلك
 ابن سينا في كتاب الاشارات في فصول التصوف منها فقال جل جنب الحق أن يكون شرعة
 لكل وارد أو يطلع عليه الا الواحد بعد الواحد وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل
 شرعي وانما هو من أنواع الخطابة وهو بعينه ما تقوله الرافضة ودانوا به ثم قالوا بترتيب وجود
 الأبدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في التقباء حتي انهم لما أسندوا لباس خرقه التصوف
 ليجعلوه أصلاً لطريقتهم وتخليهم رفعوه الى علي رضي الله عنه وهو من هذا المعنى أيضاً والا
 فعلي رضي الله عنه لم يختص من بين الصحابة بخالية ولاطريقة في لباس ولا حال بل كان أبو بكر
 وعمر رضي الله عنهما أزهد الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكثرهم عبادة ولم
 يختص أحد منهم في الدين بشيء يؤثر عنه في الخصوص بل كان الصحابة كلهم أسوة في الدين
 والزهد والمجاهدة يشهد لذلك من كلام هؤلاء المتصوفة في أمر الفاطمي وما شحخوا كتبهم في
 ذلك مما ليس لسلف المتصوفة فيه كلام بنى أو اثبات وانما هو مأخوذ من كلام الشيعة
 والرافضة ومذاهبهم في كتبهم والله يهدي الى الحق * ثم ان كثيرا من الفقهاء وأهل الفيا انتدبوا
 للرد على هؤلاء المتأخرين في هذه المقالات وأمثالها وشملوا بالنكير سائر ما وقع لهم في الطريقة
 والحق أن كلامهم معهم فيه تفصيل فان كلامهم في أربعة مواضع أحدها الكلام على المجاهدات
 وما يحصل من الاذواق والمواجد ومحاسبة النفس على الاعمال لتحصل تلك الاذواق التي تصير
 مقاماً ويرتقى منه الى غيره كما قلناه وثانيها الكلام في الكشف والحقيقة المدركة من عالم الغيب
 مثل الصفات الربانية والعرش والكرسي والملائكة والوحي والنبوة والروح وحقائق كل موجود
 غائب أو شاهد وتركيب الاكوان في صدور هاجن موجودها وتكونها كما مر وثالثها التصرفات في
 العوالم والاكوان بانواع الكرامات ورابعها ألفاظ موهمة الظاهر صدرت من الكثيرين من أئمة القوم
 يعبرون عنها في اصطلاحهم بالسطحات تستشكل ظواهرها فنسكروا وحسن ومتأول فأما
 الكلام في المجاهدات والمقامات وما يحصل من الاذواق والمواجد في نتائجها ومحاسبة النفس
 على التقصير في أسبابها فامر لا مدفع فيه لاحد واذواقهم فيه صحيحة والتحقق بها هو عين السعادة
 وأما الكلام في كرامات القوم واخبارهم بالمغيبات وتصرفهم في الكائنات فامر صحيح غير منسكروا
 مال بعض العلماء الى انكارها فليس ذلك من الحق وما احتج به الاستاذ أبو اسحق الاسفرايني من

أئمة الاشعرية على انكارها الالتباسها بالمعجزة فقد فرق المحققون من أهل السنة بينهما بالتحدي وهو دعوي وقوع المعجزة على وفق ما جاء به قالوا ثم ان وقوعها على وفق دعوي الكاذب غير مقدور لان دلالة المعجزة على الصدق عقلية فان صفة نفسها التصديق فلو وقعت مع الكاذب لتبدلت صفة نفسها وهو محال هذا مع أن الوجود شاهد بوقوع الكثير من هذه الكرامات وانكارها نوع مكابرة وقد وقع للصحابة وأكابر السلف كثير من ذلك وهو معلوم مشهور وأما الكلام في الكشف واعطاء حقائق الملويات وترتيب صدور الكائنات فأكثر كلامهم فيه نوع من التشابه لما أنه وجداني عندهم وفقد الوجودان عندهم بمعزل عن أذواقهم فيه واللغات لا تعطى دلالة على مرادهم منه لانها لم توضع الا للتعارف وأكثره من المحسوسات فينبغي أن لا تعرض لكلامهم في ذلك وتتركه فيما تركناه من التشابه ومن رزقه الله فهم شيء من هذه الكلمات على الوجه الموافق لظاهر الشريعة فأكرم بهاسعاده * وأما الالفاظ الموهمة التي يعبرون عنها بالشطحات ويؤاخذهم بها أهل الشرع فاعلم أن الانصاف في شأن القوم انهم أهل غيبة عن الحس والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه وصاحب الغيبة غير مخاطب والمجبور معذور فمن علم منهم فضله واقداؤه حمل على القصد الجميل من هذا وان العبارة عن المواجد صعبة لفقدان الوضع لها كما وقع لابي يزيد وأمثاله ومن لم يعلم فضله ولا اشتهر فؤاخذ بما صدر عنه من ذلك اذا لم يتبين لنا ما يحملنا على تأويل كلامه وأما من تكلم بتمثلها وهو حاضر في حسه ولم يملكه الحال فؤاخذ أيضاً ولهذا أفقى الفقهاء وأكابر المتصوفة بقتل الحلاج لانه تكلم في حضور وهو مالك لحاله والله أعلم وسلف المتصوفة من أهل الرسالة أعلام الملة الذين أشرنا اليهم من قبل لم يكن لهم حرص على كشف الحجاب ولا هذا النوع من الادراك انما همهم الاتباع والاقتداء ما استطاعوا ومن عرض له شيء من ذلك أعرض عنه ولم يحفل به بل يفرون منه ويرون أنه من العوائق والحن وانه ادراك من ادراكات النفس مخلوق حادث وأن الموجودات لا تنحصر في مدارك الانسان وعلم الله أوسع وخلقته أكبر وشريعته بالهداية أملك فلا ينطقون بشيء مما يدركون بل حظروا الخوض في ذلك ومنعوا من يكشف له الحجاب من أصحابهم من الخوض فيه والوقوف عنده بل يلتزمون طريقهم كما كانوا في عام الحس قبل الكشف من الاتباع والاقتداء ويأمرون أصحابهم بالترامها وهكذا ينبغي أن يكون حال المرید والله الموفق للصواب

فيها وأما الرؤيا والتعبير لها فقد كان موجوداً في السالف كما هو موجود في الحلف وربما كان في الملوك والامم من قبل الا أنه لم يصل إلينا الا اكتشافه في كلام المعبرين من أهل الاسلام والافالرؤيا موجودة في صنف البشر على الاطلاق ولا بد من تعبيرها فالقد كان يوسف الصديق صلوات الله عليه يعبر الرؤيا كما وقع في القرآن وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أبي بكر رضي الله عنه والرؤيا مدرك من مدارك الغيب وقال صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة وقال لم يبق من المبشرات الا الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له وأول ما يدى به النبي صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح وكان النبي صلى الله عليه وسلم اذا انقفل من صلاة الغداة يقول لأصحابه هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا يسألهم عن ذلك ليستبشروا بما وقع من ذلك مما فيه ظهور الدين واعزازه* وأما السبب في كون الرؤيا مدركاً للغيب فهو أن الروح القلبي وهو البخار اللطيف المنبعث من تجويف القلب اللحمي ينتشر في الشريانات ومع الدم في سائر البدن وبه تكمل أفعال القوى الحيوانية وإحساسها فاذا أدركه الملال بكثرة التصرف في الاحساس بالحواس الخمس وتصريف القوى الظاهرة وغشى سطح البدن ما يغشاه من برد الليل الخمس الروح من سائر أقطار البدن الى مركزه القلبي فيستجم بذلك لمعاودة فعله فتعطلت الحواس الظاهرة كلها وذلك هو معنى النوم كما تقدم في أول الكتاب ثم ان هذا الروح القلبي هو مطية للروح العاقل من الانسان والروح العاقل مدرك لجميع ما في عالم الامر بذاته اذ حقيقته وذاته عين الادراك وانما يمنع من تعقله للمدارك الغيبية ما هو فيه من حجاب الاشتغال بالبدن وقواه وحواسه فلو قد خلا من هذا الحجاب وتجرد عنه لرجع الى حقيقته وهو عين الادراك فيعقل كل مدرك فاذا تجرد عن بعضها خفت شواغله فلا بدله من ادراك لمحبة من علمه بقدر ما تجرد له وهو في هذه الحالة قد خفت شواغل الحس الظاهر كلها وهي الشاغل الاعظم فاستعد لقبول ما هنالك من المدارك اللائقة من عالمه وإذا أدرك ما يدرك من عوالمه رجع الى بدنه اذ هو مادام في بدنه جسماني لا يمكنه التصرف الا بالمدارك الجسمانية والمدارك الجسمانية للعلم انما هي الدماغية والمتصرف منها هو الخيال فانه يتزعج من الصور المحسوسة صوراً خيالية ثم يدفعها الى الحافظة لمخفظها له الى وقت الحاجة اليها عند النظر والاستدلال وكذلك تجرد النفس منها صوراً أخرى نفسانية عقلية فيترقى التجريد من المحسوس الى المعقول والخيال واسطة بينهما ولذلك اذا أدركت النفس من علمها ما تدركه ألقته الى الخيال فيصوره بالصورة المناسبة له ويدفعه الى الحس المشترك فيراه النائم كأنه محسوس فيتزل المدرك من الروح العقلي الى الحسي والخيال أيضاً واسطة هذه حقيقة الرؤيا ومن هذا التقرير يظهر لك الفرق

بين الرؤيا الصالحة وأضغاث الاحلام الكاذبة فانها كلها صور في الحيال حالة النوم لكن ان كانت تلك الصور منزلة من الروح العقلي المدرك فهو رؤيا وان كانت مأخوذة من الصور التي في الحافظة التي كان الحيال أودعها إياها منذ اليقظة فهي أضغاث أحلام* وأما معنى التعبير فاعلم أن الروح العقلي اذا أدرك مدركه وألقاه الى الحيال فيصوره فانما يصوره في الصور المناسبة لذلك المعنى بعض الشيء كما يدرك معنى السلطان الاعظم فيصوره الحيال بصورة البحر أو يدرك العدو فيصورها الحيال في صورة الحية فاذا استيقظ وهو لم يعلم من أمره الا أنه رأى البحر أو الحية فينظر المعبر بقوة التشبيه بعد أن يتيقن أن البحر صورة محسوسة وأن المدرك وراءها وهو يهدي بقرائن أخرى تعين له المدرك فيقول مثلاً هو السلطان لان البحر خلق عظيم يناسب أن يشبه به السلطان وكذلك الحية يناسب أن تشبه بالعدو لعظم ضررها وكذا الاواني تشبه بالنساء لانهن أوعية وأمثال ذلك ومن المرئى ما يكون صريحاً لا يفتقر الى تعبير لجلالها ووضوحها أو لقرب الشبه فيها بين المدرك وشبهه ولهذا وقع في الصحيح الرؤيا ثلاث رؤيا من الله ورؤيا من الملك ورؤيا من الشيطان فالرؤيا التي من الله هي الصريحة التي لا تقتقر الى تأويل والتي من الملك هي الرؤيا الصادقة تقتقر الى التعبير والرؤيا التي من الشيطان هي الاضغاث* واعلم أيضاً أن الحيال اذا ألقى اليه الروح مدركه فانما يصوره في القوالب المعتادة للحس مالم يكن الحس أدركه قط فلا يصور فيه فلا يمكن من ولد أعمى أن يصور له السلطان بالبحر ولا العدو بالحية ولا النساء بالاواني لانه لم يدرك شيئاً من هذه وانما يصوره الحيال أمثال هذه في شبهها ومناسبتها من جنس مداركه التي هي المسموعات والمشموحات وليحفظ المعبر من مثل هذا فربما اختلط به التسيير وفسد قانونه* ثم ان علم التعبير علم بقوانين كلية يبنى عليها المعبر عبارة ما يقص عليه وتأويله كما يقولون البحر يدل على السلطان وفي موضع آخر يقولون البحر يدل على الغيظ وفي موضع آخر يقولون البحر يدل على الهم والامر الفادح ومثل ما يقولون الحية تدل على العدو وفي موضع آخر يقولون هي كاتم سر وفي موضع آخر يقولون تدل على الحياة وأمثال ذلك فيحفظ المعبر هذه القوانين الكلية ويعبر في كل موضع بما تقتضيه القرائن التي تعين من هذه القوانين ما هو أليق بالرؤيا وتلك القرائن منها في اليقظة ومنها في النوم ومنها ما ينقدح في نفس المعبر بالخاصية التي خلقت فيه وكل ميسر لما خلق له ولم يزل هذا العلم متناقلاً بين السلف وكان محمد بن سيرين فيه من أشهر العلماء وكتب عنه في ذلك القوانين وتناقلها الناس لهذا العهد وألف الكرماني فيه من بعده ثم ألف المتكلمون المتأخرون وأكثروا والمتداول بين أهل المغرب لهذا العهد كتب ابن أبي طالب القيرواني من علماء القيروان مثل المتع وغيره وكتاب الاشارة للسالمي وهو علم مضيء بنور انبوة للمناسبة بينهما كما وقع في الصحيح

وأما العلوم العقلية التي هي طبيعية للإنسان من حيث أنه ذو فكر فهي غير مختصة بملة بل يوجد النظر فيها لأهل الملل كلهم ويستوون في مداركها ومباحثها وهي موجودة في النوع الإنساني منذ كان عمران الخليفة وتسمى هذه العلوم علوم الفلسفة والحكمة وهي مشتملة على أربعة علوم * الأول علم المنطق وهو علم يعصم الذهن عن الخطأ في اقتناص المطالب المجهولة من الأمور الحاصلة المعلومة وفائدتها تمييز الخطأ من الصواب فيما يلتصقه الناظر في الموجودات وعوارضها ليقف على تحقيق الحق في الكائنات بمنتهى فكره ثم النظر بعد ذلك عندهم أما في المحسوسات من الأجسام العنصرية والمكونة عنها من المعدن والنبات والحيوان والأجسام الفلكية والحركات الطبيعية والنفس التي تنبعث عنها الحركات وغير ذلك ويسمى هذا الفن بالعلم الطبيعي وهو الثاني منها وإما أن يكون النظر في الأمور التي وراء الطبيعة من الروحانيات ويسمونه العلم الإلهي وهو الثالث منها والعلم الرابع وهو الناظر في المقادير ويشتمل على أربعة علوم وتسمى التعاليم أولها علم الهندسة وهو النظر في المقادير على الإطلاق أما المنفصلة من حيث كونها معدود ذات المتصلة وهي إما ذو بعد واحد وهو الخط أو ذو بعدين وهو السطح أو ذو أبعاد ثلاثة وهو الجسم التعليمي ينظر في هذه المقادير وما يعرض لها إما من حيث ذاتها أو من حيث نسبة بعضها إلى بعض وثانيها علم الارتماطقي وهو معرفة ما يعرض للكم المنفصل الذي هو العدد ويؤخذ له من الخواص والعوارض اللاحقة وثالثها علم الموسيقى وهو معرفة نسب الأصوات والنغم بعضها من بعض وتقديرها بالعدد وثمرته معرفة تلاحين الغناء ورابعها علم الهيئة وهو تعيين الأشكال للأفلاك وحصر أوضاعها وتعددتها لكل كوكب من السيارة والقيام على معرفة ذلك من قبل الحركات السماوية المشاهدة الموجودة لكل واحد منها ومن رجوعها واستقامتها وإقبالها وإدبارها فهذه أصول العلوم الفلسفية وهي سبعة المنطق وهو المقدم منها وبعده التعاليم فالارتماطقي أولاً ثم الهندسة ثم الهيئة ثم الموسيقى ثم الطبيعيات ثم الإلهيات ولكل واحد منها فروع تتفرع عنه فمن فروع الطبيعيات الطب ومن فروع علم العدد علم الحساب والفرائض والمعاملات ومن فروع الهيئة الأزياج وهي قوانين لحساب حركات الكواكب وتعديلها للوقوف على مواضعها متى قصد ذلك ومن فروع النظر في النجوم علم الأحكام النجومية ونحن نتكلم عليها واحداً بعد واحد إلى آخرها واعلم أن أكثر من عني بهافي الأجيال الذين عرفنا أخبارهم الأمتان العظيمتان في الدولة قبل الإسلام وهما فارس

والروم فكانت أسواق العلوم نافقة لديهم على ما بلغنا لما كان العمران موفوراً فيهم والدولة والسلطان قبل الاسلام وعصره لهم فكان لهذه العلوم بحور زاخرة في آفاقهم وأمصارهم وكان للكلدانيين ومن قبلهم من السريانيين ومن عاصرهم من القبط غناية بالسحر والنجامة وما يتبعها من الطلاسم وأخذ ذلك عنهم الأمم من فارس ويونان فاحتص بها القبط وطمي بحرها فيهم كما وقع في المثل من خبر هاروت وماروت وشأن السحرة وما نقله أهل العلم من شأن البرابي بصعيد مصر ثم تتابعت الممال بخطر ذلك وتحريمه فدرست علومه وبطالت كأن لم تكن الا بقايا يتتاقها متحللو هذه الصنائع والله أعلم بصحتها مع أن سيوف الشرع قائمة على ظهورها مانعة من اختبارها وأما الفرس فكان شأن هذه العلوم العقلية عندهم عظيماً ونطاقها متسعاً لما كانت عليه دولهم من الضخامة واتصال الملك ولقد يقال ان هذه العلوم انما وصلت الى يونان منهم حين قتل الاسكندر دارا وغلب على مملكة الكينية فاستولى على كتبهم وعلومهم مالا يأخذه الحصر ولما فتحت أرض فارس ووجدوا فيها كتباً كثيرة كتب سعد بن أبي وقاص الى عمر بن الخطاب ليستأذنه في شأنها وتلقيها للمسلمين فكتب اليه عمر أن اطرحوها في الماء فان يكن ما فيها هدي فقد هدانا الله بأهدي منه وان يكن ضللاً فقد كفانا الله فطرحوها في الماء أوفي النار وذهبت علوم الفرس فيها عن أن تصل إلينا وأما الروم فكانت الدولة منهم ليونان أولاً وكان لهذه العلوم بينهم مجال رحب وحملها مشاهير من رجالهم مثل أساطين الحكمة وغيرهم واختص فيها المشاؤون منهم أصحاب الرواق بطريقة حسنة في التعايم كانوا يقرؤون في رواق يظلمهم من الشمس والبرد على ما زعموا واتصل فيها سبيل تعليمهم على ما يزعمون من لدن لقمان الحكيم في تلميذه بقراط الدين ثم الى تلميذه أفلاطون ثم الى تلميذه ارسطو ثم الى تلميذه الاسكندر الافروديسي وتامسطيون وغيرهم وكان ارسطو معلماً للاسكندر ملكهم الذي غلب الفرس على ملكهم وانتزع الملك من أيديهم وكان أرسخهم في هذه العلوم قدماً وأبعدهم فيها صيناً وكان يسمى المعلم الاول فطار له في العالم ذكر * ولما انقرض أمر اليونان وصار الامر للقيصرية وأخذوا بدين النصرانية هجروا تلك العلوم كما تقتضيه الملل والشرائع فيها وبقيت في صحفها ودواوينها مخلدة باقية في خزائنهم ثم ملكوا الشام وكتب هذه العلوم باقية فيهم ثم جاء الله بالاسلام وكان لأهله الظهور الذي لا كفاء له وابتزوا الروم ملكهم فيما ابتزوه للامم وابتدأ أمرهم بالسذاجة والغفلة عن الصنائع حتى اذا تبجح السلطان والدولة وأخذوا من الحضارة بالخط الذي لم يكن لغيرهم مع الامم وتفتنوا في الصنائع والعلوم تشوقوا الى الاطلاع على هذه العلوم الحكمية بما سمعوا من الاساقفة والاقسة المعاهدين بعض ذكر منها وبما تسمو اليه أفكار الانسان فيها فبعث أبو جعفر المنصور الى ملك الروم أن يبعث

اليه بكتب التعاليم مترجمة فبعث اليه بكتاب أوقليدس وبعض كتب الطبيعيات فقرأها المسلمون واطلعوا على ما فيها وازدادوا حرصاً على الظفر بما بقي منها وجاء المأمون بعد ذلك وكانت له في العلم رغبة بما كان ينتج له فانبعث لهذه العلوم حرصاً وأوفد الرسل على ملوك الروم في استخراج علوم اليونانيين وانتساخها بالخط العربي وبعث المترجمين لذلك فأوعي منه واستوعب وعكف عليها النظار من أهل الاسلام وحذقوا في فنونها وانتهت الى الغاية أنظارهم فيها وخالفوا كثيراً من آراء المعلم الأول واختصوه بالرد والقبول لوقوف الشهرة عنده ودونوا في ذلك الدواوين وأربوا على من تقدمهم في هذه العلوم وكان من أكابرهم في الملة أبو نصر الفارابي وأبو علي ابن سينا بلالمشرق والقاضي أبو الوليد بن رشد والوزير أبو بكر بن الصائغ بالاندلس الى آخرين بلغوا الغاية في هذه العلوم واختص هؤلاء بالشهرة والذكر واقصر كثير على اتحال التعاليم وما ينضاف اليها من علوم النجامة والسحر والطلسمات ووقفت الشهرة في هذا المنتحل على مسلمة ابن أحمد المحرطي من أهل الاندلس وتلميذه ودخل على الملة من هذه العلوم وأهلها داخلة واستهوت الكثير من الناس بما جنبوا اليها وقلدوا آراءها والذنب في ذلك لمن ارتكبه ولو شاء الله ما فعلوه ثم ان المغرب والاندلس لما ركبت ربح العمران بهما وتناقضت العلوم بتناقضه اضمحل ذلك منهما الا قليلا من رسومه تجدها في تفاريق من الناس وتحت رقبة من علماء السنة ويباغنا عن اهل المشرق أن بضائع هذه العلوم لم تزل عندهم موفورة وخصوصا في عراق العجم وما بعده فيما وراء النهر وانهم على شج من العلوم العقلية لتوفر عمرانهم واستحكام الحضارة فيهم ولقد وقفت بمصر على تأليف متعددة لرجل من عظماء هراة من بلاد خراسان يشهر بسعد الدين التفتازاني منها في علم الكلام وأصول الفقه والبيان تشهد بان له ملكة راسخة في هذه العلوم وفي أثنائها ما يدل على ان له اطلاعا على العلوم الحكيمة وقدماً عالية في سائر الفنون العقلية والله يؤيد بنصره من يشاء كذلك بلغنا هذا العهد أن هذه العلوم الفاسفية ببلاد الافرنجة من أرض رومة وما اليها من العدو الشمالية نافقة الاسواق وأن رسوماها هناك متجددة ومجالس تعليمها متعددة ودواوينها جامعة متوفرة وطلبتها مستكثرة والله اعلم بما هنالك وهو يخلق ما يشاء ويختار

وأولها الارتماطيقي وهو معرفة خواص الاعداد من حيث التأليف اما على التوالي أو بالتضيق مثل أن الاعداد اذا توالى متفاضلة بعدد واحد فان جمع الطرفين منها مساو لجمع كل عددين بعدهما من الطرفين بعد واحد ومثل ضعف الواسطة ان كانت عدة تلك الاعداد فردا مثل

الافراد على تواليا والازواج على تواليا ومثل أن الاعداد اذا توالى على نسبة واحدة يكون أولها نصف ثانيها وثانيها نصف ثالثها الخ أو يكون أولها ثلث ثانيها وثانيها ثلث ثالثها الخ فان ضرب الطرفين أحدهما في الآخر كضرب كل عددين بعدهما من الطرفين بعد واحد أحدهما في الآخر ومثل مربع الواسطة ان كانت العدة فرداً وذلك مثل أعداد زوج الزوج المتوالية من اثنين فأربعة فثمانية فستة عشر ومثل ما يحدث من الخواص العددية في وضع المثلثات العددية والمربعات والمخمسات والمسدسات اذا وضعت متتالية في سطورها بان يجمع من الواحد الى العدد الاخير فتكون مثلثة وتتوالى المثلثات هكذا في سطر تحت الاضلاع ثم تزيد على كل مثلث ثلث الضلع الذي قبله فتكون مربعة وتزيد على كل مربع مثلث الضلع الذي قبله فتكون مخمسة وهلم جرا وتتوالى الاشكال على توالي الاضلاع ويحدث جدول ذو طول وعرض في عرضه الاعداد على تواليا ثم المثلثات على تواليا ثم المربعات ثم المخمسات الخ وفي طوله كل عدد وأشكاله بالغا ما بلغ وتحدث في جمعها وقسمة بعضها على بعض طولا وعرضا خواص غريبة استقرت منها وتقررت في دواوينهم مسائلها وكذلك ما يحدث للزوج والفرد وزوج الزوج والفرد وزوج الزوج والفرد فان لكل منها خواص مختصة به تضمنها هذا الفن وليست في غيره وهذا الفن أول أجزاء التعاليم وأثبتها ويدخل في براهين الحساب وللحكما المتقدمين والمتأخرين فيه تأليف واكثرهم يدرجونه في التعاليم ولا يفرّدونه بالتأليف فلذلك ابن سينا في كتاب الشفاء والنجاة وغيره من المتقدمين وأما المتأخرون فهو عندهم مهجور اذ هو غير متداول ومنفعة في البراهين لا في الحساب فهجروه لذلك بعد أن استخلصوا زبدته في البراهين الحسابية كما فعله ابن البناء في كتاب رفع الحجاب والله سبحانه وتعالى اعلم ومن فروع علم العدد صناعة الحساب وهو صناعة عملية في حساب الاعداد بالضم والتفريق فالضم يكون في الاعداد بالافراد وهو الجمع وبالتضعيف تضاعف عدداً بآحاد عدد آخر وهذا هو الضرب والتفريق أيضاً يكون في الاعداد اما بالافراد مثل ازالة عدد من عدد ومعرفة الباقي وهو الطرح أو تفصيل عدد باجزاء متساوية تكون عدتها محصلة وهو القسمة وسواء كان هذا الضم والتفريق في الصحيح من العدد أو الكسر ومعنى الكسر نسبة عدد الى عدد وتلك النسبة تسمى كسراً وكذلك يكون بالضم والتفريق في الجذور ومعناها العدد الذي يضرب في مثله فيكون منه العدد المربع فان تلك الجذور أيضاً يدخلها الضم والتفريق وهذه الصناعة حادثة احتيج اليها للحساب في المعاملات وألف الناس فيها كثيراً وتدولوها في الامصار بالتعليم للولدان ومن احسن التعليم عندهم الابتداء بها لانها معارف متضحة وبراهين منتظمة فينشأ عنها في الغالب عقل مضي

درب على الصواب وقد يقال من أخذ نفسه بتعليم الحساب أول أمره انه يغلب عليه الصدق لما في الحساب من صحة المباني ومناقشة النفس فيصير ذلك خلقاً ويتعود الصدق ويلزمه مذهباً ومن أحسن التأليف المبسوطة فيها لهذا العهد بالمغرب كتاب الحصار الصغير ولابن البناء المراكشي فيه تلخيص ضابط لقوانين أعماله مفيد ثم شرحه بكتاب سماه رفع الحجاب وهو مستفاد على المبتدي بما فيه من البراهين الوثيقة المباني وهو كتاب جليل القدر أدر كنا المشيخة تعظمه وهو كتاب جدير بذلك وانما جاء الاستغلاق من طريق البرهان ببيان علوم التعليم لان مسائلها وأعمالها واضحة كلها واذا قصد شرحها فانما هو اعطاء العلل في تلك الاعمال وفي ذلك من العسر على الفهم ما لا يوجد في أعمال المسائل فتأمله والله يهدي بنوره من يشاء وهو القوي المتين (ومن فروعه الجبر والمقابلة) وهي صناعة يستخرج بها العدد المجهول من قبل المعلوم المفروض اذا كان بينهما نسبة تقتضي ذلك فاصطلحوا فيها على أن يحملوا للمجهولات مراتب من طريق التضعيف بالضرب أو لها العدد لان به يتعين المطلوب المجهول باستخراجه من نسبة المجهول اليه وثانها الشيء لان كل مجهول فهو من جهة ابهامه شيء وهو أيضاً جذر لما يلزم من تضعيفه في المرتبة الثانية وثالثها المال وهو أمر مبهم وما بعد ذلك فعلى نسبة الاس في المضروبين ثم يقع العمل المفروض في المسئلة فتخرج الى معادلة بين مختلفين أو أكثر من هذه الاجناس فيقابلون بعضها ببعض ويجبرون ما فيها من الكسر حتى يصير صحيحاً ويحطون المراتب الى اقل الاسوس ان أمكن حتى يصير الى الثلاثة التي عليها مدار الجبر عندهم وهي العدد والشيء والمال فان كانت المعادلة بين واحد وواحد تعين فالمال والجذر يزول ابهامه بمعادلة العدد ويتعين والمال وان عادل الجذور يتعين بعدتها وان كانت المعادلة بين واحد واثنين أخرجه العمل الهندسي من طريق تفصيل الضرب في الاثنين وهي مهمة فيعيها ذلك الضرب المفصل ولا يمكن المعادلة بين اثنين واثنين وأكثر ما انتهت المعادلة بينهم الى ست مسائل لان المعادلة بين عدد وجذر ومال مفردة أو مركبة تحجب ستة وأول من كتب في هذا الفن أبو عبد الله الخوارزمي وبعده أبو كامل شجاع بن أسلم وجاء الناس على أثره فيه وكتابه في مسائله الست من أحسن الكتب الموضوعة فيه وشرحه كثير من أهل الاندلس فأجادوا ومن أحسن شروحاته كتاب القرشي وقد بلغنا أن بعض أئمة التعاليم من أهل المشرق أنهي لمعاملات الى أكثر من هذه الستة أجناس وبلغنا الى فوق العشرين واستخرج لها كلها أعمالاً واتبعه براهين هندسية والله يزيد في الخلق ما يشاء سبحانه وتعالى (ومن فروعه أيضاً المعاملات) وهو تصريف الحساب في معاملات المدن في البياعات والمساحات والزكوات وسائر ما يعرض فيه العدد من المعاملات يصرف في ذلك صناعتا الحساب في المجهول والمعلوم والكسر والصحيح والجذور وغيرها

والغرض من تكثير المسائل المفروضة فيها حصول المراتب والدربة بتكرار العمل حتى ترسخ الملكة في صناعة الحساب ولاهل الصناعة الحسابية من أهل الأندلس تأليف فيها متعددة من أشهرها معاملات الزهراوي وابن السمع وأبي مسلم بن خلدون من تلميذ مسلمة الجريطي وأمثالهم (ومن فروعه أيضاً الفرائض) وهي صناعة حسابية في تصحيح السهام لذوي الفروض في الوراثات اذا تعددت وهلك بعض الوارثين وانكسرت سهامه على ورثته أو زادت الفروض عند اجتماعها وتزاحمها على المال كله أو كان في الفريضة اقرار وانكار من بعض الورثة فيحتاج في ذلك كله الى عمل يعين به سهام الفريضة من كم تصح وسهام الورثة من كل بطن مصححاً حتى تكون حظوظ الوارثين من المال على نسبة سهامهم من جملة سهام الفريضة فيدخلها من صناعة الحساب جزء كبير من صحيحه وكسره وجذره ومعلومه ومجهوله وترتب على ترتيب أبواب الفرائض الفقهية ومسائلها فتشتمل حيثئذ هذه الصناعة على جزء من الفقه وهو احكام الوراثة من الفروض والعول والاقرار والانكار والوصايا والتدبير وغير ذلك من مسائلها وعلى جزء من الحساب وهو تصحيح السهمان باعتبار الحكم الفقهي وهي من أجل العلوم وقد يورد أهلها أحاديث نبوية تشهد بفضائها مثل الفرائض ثلث العلم وانها أول ما يرفع من العلوم وغير ذلك وغندي أن ظواهر تلك الاحاديث كلها انما هي في الفرائض العينية كما تقدم لافرائض الوراثة فانها أقل من أن تكون في كميتها ثلث العلم وأما الفرائض العينية فكثيرة وقد ألف الناس في هذا الفن قديماً وحديثاً وأوعبوا ومن أحسن التأليف فيه على مذهب مالك رحمه الله كتاب ابن ثابت ومختصر القاضي أبي القاسم الحوفي وكتاب ابن المنذر والجلعي والصردى وغيرهم لكن الفضل للحوفي في كتابه مقدم على جميعها وقد شرحه من شيوختنا أبو عبد الله سليمان الشطي كبير مشيخة فاس فواضح وأوعب ولامام الحرمين فيها تأليف على مذهب الشافعي تشهد باتساع بابه في العلوم ورسومه قدمه وكذا للحنفية والحنابلة ومقامات الناس في العلوم مختلفة والله يهدي من يشاء بمنه وكرمه لارب سواه

هذا العلم هو النظر في المقادير اما المتصلة كالخط والسطح والجسم واما المنفصلة كالاعداد وفيما يعرض لهما من العوارض الذاتية مثل أن كل مثلث فزاياه مثل قائمتين ومثل أن كل خطين متوازيين لا يلتقيان في وجهه ولو خرجا الى غير نهاية ومثل أن كل خطين متقاطعين فالزاويتان المتقابلتان منهما متساويتان ومثل ان الأربعة مقادير المتناسبة ضرب الاول منها في الثالث كضرب الثاني في الرابع وأمثال ذلك والكتاب المترجم لليونانيين في هذه الصناعة كتاب أوقليدس

ويسمى كتاب الاصول وكتاب الاركان وهو أبسط ماوضع فيها للمتعلمين وأول ما ترجم من كتاب اليونانيين في الملة أيام أبي جعفر المنصور ونسخه مختلفة باختلاف المترجمين فمنها لحين ابن اسحق وثابت بن قرة وليوسف بن الحجاج ويشتمل على خمس عشرة مقالة أربعة في السطوح وواحدة في الاقدار المتناسبة وأخرى في نسب السطوح بعضها الى بعض وثلاث في العدد والعاشرة في المنطقات والقوي على المنطقات ومعناه الجذور وخمس في المجسمات وقد اختصره الناس اختصارات كثيرة كما فعله ابن سينا في تعاليم الشفاء أفرد له جزءاً منها اختصه به وكذلك ابن الصلت في كتاب الاقتصار وغيرهم وشرحه آخرون شروحاً كثيرة وهو مبدأ العلوم الهندسية باطلاق* وأعلم أن الهندسة تفيد صاحبها اضاءة في عقله واستقامة في فكره لان براهينها كلها بيينة الانتظام جليلة الترتيب لا يكاد الغلط يدخل أقيستها لترتيبها وانتظامها فيبعد الفكر بممارستها عن الخطأ وينشأ لصاحبها عقل على ذلك المهيئ وقد زعموا أنه كان مكتوباً على باب أفلاطون من لم يكن مهندساً فلا يدخلن منزلنا وكان شيوخننا رحمهم الله يقولون ممارسة علم الهندسة للفكر بمثابة الصابون لاثوب الذي يغسل منه الاقدار وينقيه من الاوضار والادران وانما ذلك لما أشرنا اليه من ترتيبه وانتظامه* (ومن فروع هذا الفن الهندسة المخصوصة بالاشكال الكرية والمخروطات)* أما الاشكال الكرية ففيها كتابان من كتب اليونانيين لثاودوسيوس وميلاوش في سطوحها وقطوعها وكتاب ثاودوسيوس مقدم في التعليم على كتاب ميلاوش لتوقف كثير من براهينه عليه ولا بد منهما لمن يريد الخوض في علم الهيئة لان براهينها متوقفة عليهما فالكلام في الهيئة كله كلام في الكرات السماوية وما يعرض فيها من القطوع والدوائر باسباب الحركات كما نذكره فقد يتوقف على معرفة أحكام الاشكال الكرية سطوحها وقطوعها وأما المخروطات فهو من فروع الهندسة أيضاً وهو علم ينظر فيما يقع في الاجسام المخروطة من الاشكال والقطوع ويبرهن على ما يعرض لذلك من العوارض ببراهين هندسية متوقفة على التعليم الاول وفائدتها تظهر في الصنائع العملية التي موادها الاجسام مثل التجارة والبناء وكيف تصنع التماثيل الغريبة والهياكل النادرة وكيف يحيل على جبر الانتقال ونقل الهياكل بالهندام والميخال وأمثال ذلك وقد أفرد بعض المؤلفين في هذا الفن كتاباً في الحيل العملية يتضمن من الصناعات الغريبة والحيل المستظرفة كل عجيبة وربما استغلق على الفهوم لصعوبة براهينه الهندسية وهو موجود بأيدي الناس ينسبون الى بني شاكر والله تعالى أعلم* (ومن فروع الهندسة المساحة)* وهو فن يحتاج اليه في مسح الارض ومعناه استخراج مقدار الارض المعلومة بنسبة شبر أو ذراع أو غيرها أو نسبة أرض من أرض إذا قويست بمثل ذلك ويحتاج الى ذلك في توظيف الخراج على المزارع والقدن وبساتين الغراسة وفي قسمة الحوائط والاراضي

بين الشركاء أو الورثة وأمثال ذلك وللناس فيهما موضوعات حسنة وكثيرة والله الموفق للصواب
بمنه وكرمه * (المناظر من فروع الهندسة) وهو علم تتبين به أسباب الغلط في الادراك البصري
بمعرفة كيفية وقوعها بناء على ان ادراك البصر يكون بمخروط شعاعي رأسه يقطعها بالبصر وقاعدته
المرئي ثم يقع الغلط كثيراً في رؤية القريب كثيراً والبعيد صغيراً وكذا رؤية الاشباح الصغيرة
تحت الماء ووراء الاجسام الشفافة كبيرة ورؤية النقطة النازلة من المطر خطاً مستقيماً والساعة دائرة
وأمثال ذلك فيتبين في هذا العلم أسباب ذلك وكيفية بالبراهين الهندسية ويتبين به أيضاً اختلاف
المنظر في القمر باختلاف العروض الذي ينبئ عليه معرفة رؤية الالهة وحصول الكسوفات
وكثير من أمثال هذا وقد ألف في هذا الفن كثير من اليونانيين وأشهر من ألف فيه من
الاسلاميين ابن الهيثم وغيره فيه أيضاً تأليف وهو من هذه الرياضة وتفاريحها

علم الهيئة

١٦

وهو علم ينظر في حركات الكواكب الثابتة والمتحركة والمتحركة ويستدل بكيفيات تلك الحركات
على أشكال وأوضاع للأفلاك لزمّت عنها هذه الحركات المحسوسة بطرق هندسية كما يبرهن على
أن مركز الأرض مباين لمركز فلك الشمس بوجود حركة الاقبال والادبار وكما يستدل
بالرجوع والاستقامة للكواكب على وجود أفلاك صغيرة حاملة لها متحركة داخل فلكها الاعظم
وكما يبرهن على وجود الفلك الثامن بحركة الكواكب الثابتة وكما يبرهن على تعدد الافلاك
للكوكب الواحد بتعداد الميول له وأمثال ذلك وادراك الموجود من الحركات وكيفيةها
وأجناسها انما هو بالرصد فانما علمنا حركة الاقبال والادبار به وكذا تركيب الافلاك في
طبقاتها وكذا الرجوع والاستقامة وأمثال ذلك وكان اليونانيون يعتقدون بالرصد كثيراً
ويخذون له الآلات التي توضع لرصد بها حركة الكوكب المعين وكانت تسمى عندهم ذات الحلق
وصناعة عملها والبراهين عليه في مطابقة حركتها بحركة الفلك منقول بأيدي الناس وأما في
الاسلام فلم تقع به عناية الا في القليل وكان في أيام المأمون شيء منه وضع الآلة المعروفة بالرصد
المسماة ذات الحلق وشرع في ذلك فلم يتم ولما مات ذهب رسمه وأغفل واعتمد من بعده
على الارصاد القديمة وليست بمغنية لاختلاف الحركات باتصال الاحقاب وان مطابقة حركة
الآلة في الرصد بحركة الافلاك والكواكب إنما هو بالتقريب ولا يعطي التحقيق فاذا طال
الزمان ظهر تفاوت ذلك بالتقريب وهذه الهيئة صناعة شريفة وليست على ما يفهم في المشهور
أنها تعطي صورة السموات وترتيب الافلاك والكواكب بالحقيقة بل إنما تعطى أن هذه
الصور والهيآت للأفلاك لزمّت عن هذه الحركات وأنت تعلم أنه لا يبعد ان يكون الشيء

الواحد لازماً مختلفين وان قلنا ان الحركات لازمة فهو استدلال باللازم على وجود الملزوم ولا يعطي الحقيقة بوجه على أنه علم جليل وهو أحد أركان التعاليم ومن أحسن التأليف فيه كتاب المجسطي منسوب لبطليموس وليس من ملوك اليونان الذين أسماؤهم بطليموس على ما حققه شراح الكتاب وقد اختصره الأئمة من حكماء الاسلام كما فعله ابن سينا وأدرجه في تعاليم الشفاء ولخصه ابن رشد أيضاً من حكماء الاندلس وابن السمعان وابن الصلت في كتاب الاختصار ولا ابن الفرغاني هيئة ما خصه قربها وحذف براهين الهندسية والله علم الانسان ما لم يعلم سبحانه لا إله الا هو رب العالمين (ومن فروعه علم الازياج) وهي صناعة حسابية على قوانين عددية فيما يخص كل كوكب من طريق حركته وما أدى اليه برهان الهيئة في وضعه من سرعة وبطء واستقامة ورجوع وغير ذلك يعرف به مواضع الكواكب في أفلاكها لاي وقت فرض من قبل حسابان حركاتها على تلك القوانين المستخرجة من كتب الهيئة ولهذه الصناعة قوانين كالمقدمات والاصول لها في معرفة الشهور والايام والتواريخ الماضية وأصول متقررة من معرفة الاوج والحضيض والميول وأصناف الحركات واستخراج بعضها من بعض يضعونها في جداول مرتبة تسهلاً على المتعلمين وتسمى الازياج ويسمى استخراج مواضع الكواكب للوقت المفروض لهذه الصناعة تعديلاً وتقويماً ولاناس فيه تأليف كثيرة للمتقدمين والمتأخرين مثل البتاني (١) وابن الكباد وقد عول المتأخرون لهذا العهد بالمغرب على زيج منسوب لابن اسحق من منجمي تونس في أول المائة السابعة ويزعمون أن ابن اسحق عول فيه على الرصد وأن يهوديا كان بصقلية ماهراً في الهيئة والتعاليم وكان قد عني بالرصد وكان يبعث اليه بما يقع في ذلك من أحوال الكواكب وحركاتها فكان أهل المغرب لذلك عنواناً لوثيقة مبناه على ما يزعمون ولخصه ابن البناء في آخر سماه المنهاج فولع به الناس لما سهل من الاعمال فيه وإنما يحتاج الى مواضع الكواكب من الفلك لتنبئ عليها الاحكام النجومية وهو معرفة الآثار التي تحدث عنها بلواضعها في عالم الانسان من الملك والدول والموايد البشرية كما نبينه بعد ونوضح فيه أدلتهم ان شاء الله تعالى والله الموفق لما يحبه ويرضاه لامعبود سواه

علم المنطق

١٧

وهو قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود المعرفة للماهيات والحجج المفيدة للتصديقات وذلك أن الاصل في الادراك انما هو المحسوسات بالحواس الخمس وجميع الحيوانات (١) قوله البتاني بفتح الموحدة وتشديد المشاة كما ضبطه ابن خلكان في ترجمته قيل آخر المحمدين اه

مشتركة في هذا الادراك من الناطق وغيره وانما يتميز الانسان عنها بادراك الكليات وهي مجردة من المحسوسات وذلك بان يحصل في الخيال من الاشخاص المتفقة صورة منطبقة على جميع تلك الاشخاص المحسوسة وهي الكلى ثم ينظر الذهن بين تلك الاشخاص المتفقة وأشخاص أخرى توافقها في بعض فيحصل له صورة تنطبق أيضاً عليهما باعتبار ما تتفقا فيه ولا يزال يرتقي في التجريد الى الكل الذي لا يجد كلياً آخر معه يوافقه فيكون لاجل ذلك بسيطاً وهذا مثل ما مجرد من أشخاص الانسان صورة النوع المنطبقة عليها ثم ينظر بينه وبين الحيوان ويجرد صورة الجنس المنطبقة عليهما ثم بينهما وبين النبات الى أن ينتهي الى الجنس العالى وهو الجوهر فلا يجد كلياً يوافقه في شئ فيقف العقل هنالك عن التجريد ثم ان الانسان لما خلق الله له الفكر الذي به يدرك العلوم والصنائع وكان العلم اما تصور للماهيات ويعني به ادراك ساذج من غير حكم معه واما تصديقاً أي حكماً بثبوت امر لا مر فصار سعي الفكر في محصيل المطلوبات اما بان تجمع تلك الكليات بعضها الى بعض على جهة التأليف فتحصل صورة في الذهن كلية منطبقة على أفراد في الخارج فتكون تلك الصورة الذهنية مفيدة لمعرفة ماهية تلك الاشخاص واما بان يحكم بأمر على أمر فيثبت له ويكون ذلك تصديقاً وغايته في الحقيقة راجعة الى التصور لان فائدة ذلك اذا حصل انما هي معرفة حقائق الاشياء التي هي مقتضى العلم وهذا السعي من الفكر قد يكون بطريق صحيح وقد يكون بطريق فاسد فاقتضى ذلك تمييز الطريق الذي يسعى به الفكر في تحصيل المطالب العامة لتمييز فيها الصحيح من الفاسد فكان ذلك قانون المنطق وتكلم فيه المتقدمون أول ما تكلموا به جملاً جملاً ومفترقا ولم تهذب طرقة ولم تجمع مسائله حتي ظهر في يونان ارسطو فهذب مباحثه ورتب مسائله وفصوله وجعله أول العلوم الحكمية وفتحها ولذلك يسمي بالعلم الاول وكتابه المخصوص بالمنطق يسمي النص وهو يشتمل على ثمانية كتب أربعة منها في صورة القياس وأربعة في مادته وذلك أن المطالب التصديقية على أنحاء فمنها ما يكون المطلوب فيه اليقين بطبعه ومنها ما يكون المطلوب فيه الظن وهو على مراتب فينظر في القياس من حيث المطلوب الذي يفيد وما ينبغي أن تكون مقدماته بذلك الاعتبار ومن أي جنس يكون من العلم أو من الظن وقد ينظر في القياس لابعبار مطلوب مخصوص بل من جهة إنتاجه خاصة ويقال للنظر الاول انه من حيث المادة ونعني به المادة المنتجة للمطلوب المخصوص من يقين أو ظن ويقال للنظر الثاني انه من حيث الصورة وإنتاج القياس على الاطلاق فكانت لذلك كتب المنطق ثمانية الاول في الاجناس العالية التي ينتهي اليها تجريد المحسوسات وهي التي ليس فوقها جنس ويسمي كتاب المقولات والثاني في القضايا التصديقية وأصنافها ويسمي كتاب العبارة والثالث في القياس وصورة إنتاجه على الاطلاق ويسمي كتاب القياس وهذا آخر النظر من حيث الصورة ثم الرابع كتاب البرهان

وهو النظر في القياس المنتج لليقين وكيف يجب أن تكون مقدماته يقينية ويختص بشروط أخرى لإفادة اليقين مذكورة فيه مثل كونها ذاتية وأولية وغير ذلك وفي هذا الكتاب الكلام في المعارف والحدود إذا المطلوب فيها إنما هو اليقين لوجوب المطابقة بين الحد والحدود لا تحتمل غيرها فلذلك اختصت عند المتقدمين بهذا الكتاب والخامس كتاب الجدل وهو القياس المفيد قطع المشاغب وإحاطة الخصم وما يجب أن يستعمل فيه من المشهورات ويختص أيضاً من جهة إفادته لهذا الغرض بشروط أخرى من حيث إفادته لهذا الغرض وهي مذكورة هناك وفي هذا الكتاب يذكر المواضيع التي يستنبط منها صاحب القياس قياسه وفيه عكوس القضايا والسادس كتاب السفسطة وهو القياس الذي يفيد خلاف الحق ويقالط به المناظر صاحبه وهو فاسد وهذا إنما كتب ليعرف به القياس المغالطي فيحذر منه والسابع كتاب الخطابة وهو القياس المفيد ترغيب الجمهور وحملهم على المراد منهم وما يجب أن يستعمل في ذلك من المقالات والثامن كتاب الشعر وهو القياس الذي يفيد التمثيل والتشبيه خاصة للإقبال على الشيء أو النفرة عنه وما يجب أن يستعمل فيه من القضايا التخيلية هذه هي كتب المنطق الثمانية عند المتقدمين ثم إن حكماء اليونانيين بعد أن تهذب الصناعة ورتبت رأوا أنه لا بد من الكلام في الكليات الخمس المفيدة للتصور فاستدركوا فيها مقالة تختص بها مقدمة بين يدى الفن فصارت تسعاً وترجمت كلها في اللغة الإسلامية وكتبها وتداولها فلاسفة الإسلام بالشرح والتلخيص كما فعله الفارابي وابن سينا ثم ابن رشد من فلاسفة الأندلس ولابن سينا كتاب الشفاء استوعب فيه علوم الفلاسفة السبعة كلها ثم جاء المتأخرون فغيروا اصطلاح المنطق وألحقوا بالنظر في الكليات الخمس ثمرته وهي الكلام في الحدود والرسوم نقولوها من كتاب البرهان وحذفوا كتاب المقولات لأن نظر المنطقي فيه بالعرض لا بالذات وألحقوا في كتاب العبارة الكلام في العكس لأنه من توابع الكلام في القضايا ببعض الوجوه ثم تكلموا في القياس من حيث إنتاجه للمطالب على العموم لا بحسب مادة وحذفوا النظر فيه بحسب المادة وهي الكتب الخمسة البرهان والجدل والخطابة والشعر والسفسطة وربما يلم بعضهم باليسير منها إلاماً وأغفلوها كأن لم تكن وهي المهم المعتمد في الفن ثم تكلموا فيما وضعوه من ذلك كلاماً مستبحراً ونظروا فيه من حيث أنه فن برأسه لا من حيث أنه آلة للعلوم فطال الكلام فيه واتسع وأول من فعل ذلك الإمام نجر الدين ابن الخطيب ومن بعده أفضل الدين الخونجي وعلى كتبه معتمد المشاركة لهذا العهد وله في هذه الصناعة كتاب كشف الاسرار وهو طويل واختصر فيها مختصر الموجز وهو حسن في التعليم ثم مختصر الجمل في قدر أربعة أوراق أخذ بمجامع الفن وأصوله فتداوله المتعلمون لهذا العهد فينتفعون به وهجرت كتب المتقدمين وطرقهم كأن لم تكن وهي ممتلئة من ثمرات المنطق

١٨ الطبيعيات

وهو علم يبحث عن الجسم من جهة ما ياحقه من الحركة والسكون فينظر في الاجسام السماوية والغضرية وما يتولد عنها من حيوان وانسان ونبات ومعادن وما يتكون في الارض من العيون والزلازل وفي الجو من السحاب والبخار والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك وفي مبدأ الحركة للاجسام وهو النفس على تنوعها في الانسان والحيوان والنبات وكتب ارسطو فيه موجودة بين أيدي الناس ترجمت مع ما ترجم من علوم الفلسفة أيام المأمون وألف الناس على حذوها وأوعب من ألف في ذلك ابن سينا في كتاب الشفاء جمع فيه العلوم السبعة للفلاسفة كما قدمنا ثم لخصه في كتاب النجاء وفي كتاب الاشارات وكأنه يخالف ارسطو في الكثير من مسائلها ويقول برأيه فيها وأما ابن رشد فليخص كتب ارسطو وشرحها متبعاً له غير مخالف وألف الناس في ذلك كثيراً لكن هذه هي المشهورة لهذا العهد والمعتبرة في الصناعة ولاهل المشرق عناية بكتاب الاشارات لابن سينا وللإمام ابن الخطيب عليه شرح حسن وكذا الآمدي وشرحه أيضاً نصير الدين الطوسي المعروف بخواجه من أهل المشرق وبحث مع الامام في كثير من مسائله فأوفي على أنظاره وبحوثه وفوق كل ذي علم عليم والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

١٩ علم الطب

ومن فروع الطبيعيات صناعة الطب وهي صناعة تنظر في بدن الانسان من حيث يمرض ويصح فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبراء المرض بالأدوية والأغذية بعد أن يتبين المرض الذي ينحصر كل عضو من أعضاء البدن وأسباب تلك الأمراض التي تنشأ عنها وما لكل مرض من الأدوية مستدلين على ذلك بامرجة الأدوية وقواها وعلى المرض بالعلامات المؤذنة بنضجه وقبوله الدواء أولاً في السجية والفضلات والنفض محاذين لذلك قوة الطبيعة فانها المدبرة في حالي الصحة والمرض وأما الطبيب يحاذيها ويعينها بعض الشيء بحسب ما تقتضيه طبيعة المادة والفصل والسن ويسمي العلم الجامع لهذا كله علم الطب وربما أفردوا بعض الأعضاء بالكلام وجعلوه علماً خاصاً كالعين وعلمها وأكحاله وكذلك ألحقوا بالذن من منافع الأعضاء ومعناها المنفعة التي لأجلها خلق كل عضو من أعضاء البدن الحيواني وان لم يكن ذلك من موضوع علم الطب الا أنهم جعلوه من لواحقه وتوابه وإمام هذه الصناعة التي ترجمت كتبه فيها من الاقدمين جالينوس يقال انه كان معاصراً لعيسى عليه السلام ويقال انه مات بصقلية في سبيل

تغلب ومطوعة اغتراب وتأليفه فيها هي الامهات التي اقتدي بها جميع الاطباء بعده وكان في الاسلام في هذه الصناعة أئمة جاؤا من وراء الغاية مثل الرازي والجوسي وابن سينا ومن أهل الاندلس أيضا كثير وأشهرهم ابن زهر وهي لهذا العهد في المدن الاسلامية كأنها نقصت لوقوف العمران وتناقصه وهي من الصنائع التي لا تستدعيها الا الحضارة والترفع كما نينه بعد (فصل) وللبادية من أهل العمران طب ينون في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الاشخاص متوارثا عن مشايخ الحي ومعجزه وربما يصح منه البعض الا انه ليس على قانون طبيعي ولا على موافقة المزاج وكان عند العرب من هذا الطب كثير وكان فيهم أطباء معروفون كالحرث بن كلدة وغيره والطب المنقول في الشرعيات من هذا القبيل وليس من الوحي في شيء وانما هو أمر كان عاديا للعرب ووقع في ذكر أحوال النبي صلى الله عليه وسلم من نوع ذكر أحواله التي هي عادة وجيلة لا من جهة أن ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل فانه صلى الله عليه وسلم انما بعث ليعلمنا الشرائع ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العادات وقد وقع له في شأن تلقح النخل ما وقع فقال أتم أعلم بأمور دنياكم فلا ينبغي أن يحمل شيء من الطب الذي وقع في الأحاديث الصحيحة المنقولة على انه مشروع فليس هناك ما يدل عليه اللهم الا اذا استعمل على جهة التبرك وصدق العقد الايماني فيكون له أثر عظيم في النفع وليس ذلك في الطب المزاجي وانما هو من آثار الكلمة الايمانية كما وقع في مداواة المبطلون بالعسل والله الهادي الى الصواب لارب سواه

الفلاحة

٢٠

هذه الصناعة من فروع الطبيعيات وهي النظر في النبات من حيث تنميته ونشؤه بالسقي والعلاج وتعهده بمثل ذلك وكان للمتقدمين بها عناية كثيرة وكان النظر فيها عندهم عاما في النبات من جهة غرسه وتنميته ومن جهة خواصه وروحانيته ومشاكلتها الروحانيات الكواكب والهباء كل المستعمل ذلك كله في باب السحر فعظمت عنايتهم به لاجل ذلك وترجم من كتب اليونانيين كتاب الفلاحة النبطية منسوبة لعلماء النبط مشتملة من ذلك على علم كبير ولما نظر أهل الملة فيما اشتمل عليه هذا الكتاب وكان باب السحر مسدودا والنظر فيه محظورا فاقصروا منه على الكلام في النبات من جهة غرسه وعلاجه وما يعرض له في ذلك وحذفوا الكلام في الفن الآخر منه جملة واحتصر ابن العوام كتاب الفلاحة النبطية على هذا المنهاج وبقي الفن الآخر منه مغفلا تقل منه مسلمة في كتبه السحرية أمهات من مسائله كما ذكره عند الكلام على السحر ان شاء الله تعالى وكتب المتأخرين في الفلاحة كثيرة ولا يعدون فيها الكلام في

الغراس والعلاج وحفظ النبات من جوائحه وعوائقه وما يعرض في ذلك كله وهي موجودة

علم الالهيات

٢١

وهو علم ينظر في الوجود المطلق فأولاً في الأمور العامة للجسمانيات والروحانيات من الماهيات والوحدة والكثرة والوجوب والامكان وغير ذلك ثم ينظر في مبادي الموجودات وأنها روحانيات ثم في كيفية صدور الموجودات عنها ومراتبها ثم في أحوال النفس بعد مفارقة الاجسام وعودها الى المبدأ وهو عندهم علم شريف يزعمون أنه يوقظهم على معرفة الوجود على ما هو عليه وان ذلك عين السعادة في زعمهم وسيأتي الرد عليهم وهو تال للطبيعات في ترتيبهم ولذلك يسمونه علم ما وراء الطبيعة وكتب المعلم الاول فيه موجودة بين أيدي الناس ولخصه ابن سينا في كتاب الشفاء والتجاء وكذلك لخصها ابن رشد من حكماء الاندلس ولما وضع المتأخرون في علوم القوم ودونوا فيها ورد عليهم الغزالي ما رد منها ثم خاط المتأخرون من المتكلمين مسائل علم الكلام بمسائل الفلسفة لعروضها في مباحثهم وتشابه موضوع علم الكلام بموضوع الالهيات ومسائلها بمسائلها فصارت كأنها فن واحد ثم غيروا ترتيب الحكماء في مسائل الطبيعات والالهيات وخلطوها فنا واحداً قدموا الكلام في الامور العامة ثم أتبعوه بالجسمانيات وتوابعها ثم بالروحانيات وتوابعها الى آخر العلم كما فعله الامام ابن الخطيب في المباحث المشرقية وجميع من بعده من علماء الكلام وصار علم الكلام مختلطاً بمسائل الحكمة وكتبه محشوة بها كأن الغرض من موضوعيهما ومسائلهما واحد والتبس ذلك على الناس وهو غير صواب لان مسائل علم الكلام انما هي عقائد متلقاة من الشريعة كما تلقاها السلف من غير رجوع فيها الى العقل ولا تعويل عليه بمعنى أنها لا تثبت الا به فان العقل معزول عن الشرع وأنظاره وما يحدث فيه المتكلمون من اقامة الحجج فليس بحثاً عن الحق فيها فالتعليل بالدليل بعد ان لم يكن معلوماً هو شأن الفلسفة بل انما هو التماس حجة عقلية تعضد عقائد الايمان ومذاهب الساف فيها وتدفع شبه أهل البدع عنها الذين زعموا ان مداركهم فيها عقلية وذلك بعد أن تفرض صحيحة بالادلة الثقيلة كما تلقاها الساف واعتقدوها وكثير ما بين المقامين وذلك أن مدارك صاحب الشريعة أوسع لاتساع نطاقها عن مدارك الانظار العقلية فهي فوقها ومحيطه بها لاستمدادها من الانوار الالهية فلا تدخل تحت قانون النظر الضعيف والمدارك المحاط بها فاذا هداها الشارع الى مدرك فينبغي أن تقدمه على مداركنا ونشقه دونها ولا ننظر في تصحيحه بمدارك العقل ولو عارضه بل نعتمد ما أمرنا به اعتقاداً وعلماً ونسكت عما لم نفهم من ذلك ونفوضه الى الشارع ونعزل العقل عنه والمتكلمون

نما دعاهم الى ذلك كلام اهل الاحاد في معارضا العقائد السلفية بالبدع النظرية فاحتاجوا الى الرد عليهم من جنس معارضتهم واستدعي ذلك الحجج النظرية ومحاذاة العقائد السلفية بها وأما النظر في مسائل الطبيعيات والالهيات بالتصحيح والبطالان فليس من موضوع علم الكلام ولا من جنس أنظار المتكلمين فاعلم ذلك لتمييز به بين الفنين فانهما محتيطان عند المتأخرين في الوضع والتأليف والحق مغايرة كل منهما لصاحبه بالموضوع والمسائل وانما جاء الالتباس من اتحاد المطالب عند الاستدلال وصار احتياج اهل الكلام كأنه انشاء لطلب الاعتداد بالدليل وليس كذلك بل انما هورد على الملحدين والمطلوب مفروض الصدق معلومه وكذا جاء المتأخرون من غلاة المتصوفة المتكلمين بالمواجد أيضاً فخلطوا مسائل الفنين بفهم وجعلوا الكلام واحدا فيها كلها مثل كلامهم في النبوات والاتحاد والحلول والوحدة وغير ذلك والمدارك في هذه الفنون الثلاثة متغايرة مختلفة وأبعدها من جنس الفنون والعلوم مدارك المتصوفة لانهم يدعون فيها الوجدان ويفرون عن الدليل والوجدان بعيد عن المدارك العلمية وأبحاثها وتوابعها كما بيناه ونينه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم والله أعلم بالصواب

٢٢ علوم السحر والطلسمات

هي علوم بكيفية استعدادات تقدر النفوس البشرية بها على التأثيرات في عالم العناصر اما بغير معين أو بمعين من الامور السماوية والاول هو السحر والثاني هو الطلسمات ولما كانت هذه العلوم مهجورة عند الشرائع لما فيها من الضرر ولما يشترط فيها من الوجهة الى غير الله من كوكب أو غيره كانت كتبها كالمفقود بين الناس الا ما وجد في كتب الامم الاقدمين فيما قبل نبوة موسي عليه السلام مثل التبط والكلدانيين فان جميع من تقدمه من الانبياء لم يشرعوا الشرائع ولا جاؤا بالاحكام انما كانت كتبهم مواظ وتوحيد الله وتذكيرا بالجنة والنار وكانت هذه العلوم في اهل بابل من السريانيين والكلدانيين وفي اهل مصر من القبط وغيرهم وكان لهم فيها التأليف والآثار ولم يترجم لنا من كتبهم فيها الا القليل مثل الفلاحة التبطية من اوضاع اهل بابل فاخذ الناس منها هذا العلم وتقنوا فيه ووضعت بعد ذلك الاوضاع مثل مصاحف الكواكب السبعة وكتاب طمطم الهندي في صور الدرج والكواكب وغيرهم ثم ظهر بالمشرق جابر بن حيان كبير السحرة في هذه الملة فتصفح كتب القوم واستخرج الصناعة وغاص على زبدتها واستخرجها ووضع فيها غيرها من التأليف وأكثر الكلام فيها وفي صناعة السيمياء لانها من توابعها لان احالة الاجسام التوعية من صورة الى أخرى انما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العملية فهو من قبيل السحر كما نذكره في موضعه * ثم جاء مسلمة بن أحمد

المجريطي امام أهل الاندلس في التعاليم والسحريات فلخص جميع تلك الكتب وهذبها وجمع طرقها في كتابه الذي سماه غاية الحكيم ولم يكتب أحد في هذا العلم بعده * وانقدم هنا مقدمة يتبين بها حقيقة السحر وذلك ان النفوس البشرية وان كانت واحدة بالنوع فهي مختلفة بالخواص وهي أصناف كل صنف مختص بخاصية واحدة بالنوع لا توجد في الصنف الآخر وصارت تلك الخواص فطرة وجبلة لصفها فنفس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لها خاصية تستغنيها للمعرفة الربانية ومخاطبة الملائكة عليهم السلام عن الله سبحانه وتعالى كما مر وما يتبع ذلك من التأثير في الأكوان واستجلاب روحانية الكواكب لتصرف فيها والتأثير بقوة نفسانية أو شيطانية فاما تأثير الأنبياء فمدد إلهي وخاصية ربانية ونفوس الكهنة لها خاصية الاطلاع على المغيبات بقوى شيطانية وهكذا كل صنف مختص بخاصية لا توجد في الآخر والنفوس الساحرة على مراتب ثلاث يأتي شرحها فأولها المؤثرة بالهمة فقط من غير آلة ولا معين وهذا هو الذي تسميه الفلاسفة السحر والثاني بمعنى من مزاج الافلاك أو العناصر أو خواص الاعداد ويسمونه الطلسمات وهو أضعف رتبة من الاول والثالث تأثير في القوى المتخيلة يعتمد صاحب هذا التأثير الى القوى المتخيلة فيتصرف فيها بنوع من التصرف ويليقي فيها أنواعا من الخيالات والمحاكاة وصورا مما يقصده من ذلك ثم ينزلها الى الحس من الرأين بقوة نفسه المؤثرة فيه فينظر الراؤن كأنها في الخارج وليس هناك شيء من ذلك كما يحكى عن بعضهم انه يرى البساتين والانهار والقصور وليس هناك شيء من ذلك ويسمى هذا عند الفلاسفة الشعوذة أو الشعبة هذا تفصيل مراتبه ثم هذه الخاصية تكون في الساحر بالقوة شأن القوى البشرية كلها وانما تخرج الى الفعل بالرياضة ورياضة السحر كلها انما تكون بالتوجه الى الافلاك والكواكب والعوالم العلوية والشرطيات بأنواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذلل فهي لذلك وجهة الى غير الله وسجود له والوجهة الى غير الله كفر فلهذا كان السحر كفراً والكفر من مواده وأسبابه كما رأيت ولهذا اختلف الفقهاء في قتل الساحر هل هو لكفره السابق على فعله أو لتصرفه بالافساد وما ينشأ عنه من الفساد في الاكوان والكل حاصل منه ولما كانت المرتبتان الاوليان من السحر لها حقيقة في الخارج والمرتبة الاخيرة الثالثة لاحقيقة لها اختلف العلماء في السحر هل هو حقيقة أو انما هو تخيل فالقائلون بان له حقيقة نظروا الى المرتبتين الاوليين والقائلون بان لاحقيقة له نظروا الى المرتبة الثالثة الاخيرة فليس بينهم اختلاف في نفس الامر بل انما جاء من قبل اشتباه هذه المراتب والله أعلم * واعلم أن وجود السحر لامرية فيه بين العقلاء من أجل التأثير الذي ذكرناه وقد نطق به القرآن قال الله تعالى ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولوا

انما نحن فتنة فلا تكفر فيعلمون منها ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بأذن الله وسحر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان يخيل اليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله وجعل سحره في مشط ومشاقة وجف طلعة ودفن في بئر ذروان فأُنزل الله عز وجل عليه في المعوذتين ومن شر الذنابات في العقد قالت عائشة رضي الله عنها فكان لا يقرأ على عقدة من تلك العقد التي سحر فيها إلا انحلت وأما وجود السحر في أهل بابل وهم الكلدانيون من التبط والسريانيين فكثير ونطق به القرآن وجاءت به الاخبار وكان للسحر في بابل ومصر أزمان بعثة موسى عليه السلام أسراق نافقة ولهذا كانت معجزة موسى من جنس ما يدعون ويتناغون فيه وبقي من آثار ذلك في البرابي بصعيد مصر شواهد دالة على ذلك ورأينا بالعيان من يصور صورة الشخص المسحور بخواص أشياء مقابلة لما نواه وحاوله موجودة بالمسحور وأمثال تلك الموافي من أسماء وصفات في التأليف والتفريق ثم يتكلم على تلك الصورة التي أقامها مقام الشخص المسحور عيناً أو معنى ثم ينفث من ريقه بعد اجتماعه في فيه بتكرير مخارج تلك الحروف من الكلام السوء ويعقد على ذلك المعنى في سبب أعداءه لذلك تفاؤلاً بالعقد والزام وأخذ العهد على من أشرك به من الجن في نفسه في فعله ذلك استشعاراً للعزيمة بالعزم ولتلك البنية والأسماء السيئة روح خبيثة تخرج منه مع النفخ متعلقة بريقه الخارج من فيه بالنفث فتزل عنها أرواح خبيثة ويقع عن ذلك بالمسحور ما يحاوله الساحر وشاهدنا أيضاً من المتحليين للسحر وعمله من يشير إلى كساء أو جلد ويتكلم عليه في سره فإذا هو مقطوع متحرق ويشير إلى بطون الغنم كذلك في مراعيها بالعج فإذا أمعاؤها ساقطة من بطونها إلى الأرض وسمعا أن بارض الهند لهذا العهد من يشير إلى إنسان فيتحنت قلبه ويقع ميتاً وينقب عن قلبه فلا يوجد في حشاه ويشير إلى الرمانة وتفتح فلا يوجد من حبونها شيء وكذلك سمعنا أن بأرض السودان وأرض الترك من يسحر السحاب فيمطر الأرض المخصوصة وكذلك رأينا من عمل الطلسمات عجائب في الأعداد المتحابة وهي رك ر ف د أحد العديدين مائتان وعشرون والآخرا مائتان وأربعة وثمانون ومعنى المتحابة أن أجزاء كل واحد التي فيه من نصف وثلاث وربع وسدس وخمس وأمثالها إذا جمع كان مساوياً للعدد الآخر صاحبه فتسمي لأجل ذلك المتحابة وتقل أصحاب الطلسمات أن لتلك الأعداد أثراً في الألفة بين المتحابين واجتماعهما إذا وضع لهما مثالان أحدهما بطالع الزهرة وهي في بيتها أو شرفها ناظرة إلى القمر نظر مودة وقبول ويجعل طالع الثاني سابع الأول ويضع على أحد التمثالين أحد العددين والآخر على الآخر ويقصد بالأكثر الذي يراد اثنتاه أعنى المحبوب ما أدرى الأكثر كمية أو الأكثر أجزاء فيكون لذلك من التأليف العظيم بين المتحابين ما لا يكاد ينفك أحدهما عن الآخر قاله صاحب الغاية وغيره

من أئمة هذا الشأن وشهدت له التجربة وكذا طابع الاسد ويسمى أيضاً طابع الحصي وهو ان يرسم في قالب هند أصبع صورة أسد شائلا ذنبه عاضاً على حصاة قد قسمها بنصفين وبين يديه صورة حية مناسبة من رجليه الى قبالة وجهه فاغرة فاها الى فيه وعلى ظهره صورة عقرب تدب ويتحين برسمه حلول الشمس بالوجه الاول أو الثالث من الاسد بشرط صلاح النيرين وسلامتهما من التحوس فاذا وجد ذلك وعثر عليه طبع في ذلك الوقت في مقدار المئقال فما دونه من الذهب وغمس بعد في الزعفران محلولاً بماء الورد ورفع في خرقة حرير صفراء فانهم يزعمون أن لممسكه من العز على السلاطين في مباشرتهم وخدمتهم وتسخيرهم له مالا يعبر عنه وكذلك للسلاطين فيه من القوة والعز على من تحت أيديهم ذكر ذلك أيضاً أهل هذا الشأن في الغاية وغيرها وشهدت له التجربة وكذلك وفق المسدس المختص بالشمس ذكر وانه يوضع عند حلول الشمس في شرفها وسلامتها من التحوس وسلامة القمر بطالع ملوكي يعتبر فيه نظر صاحب العاشر لصاحب الطالع نظر مودة وقبول ويصلح فيه ما يكون في مواليد الملوك من الادلة الشريفة ويرفع في خرقة حرير صفراء بعد أن يغمس في الطيب فزعموا أن له أثراً في صحابة الملوك وخدمتهم ومعاشرتهم وأمثال ذلك كثير وكتاب الغاية لسلامة بن أحمد المجريطي هو مدونة هذه الصناعة وفيه استيفاءها وكال مسائلها وذكر لنا ان الامام الفخر بن الخطيب وضع كتابا في ذلك وسماه بالسر المكتوم وانه بالمشرق يتداوله أهله ونحن لم نقف عليه والامام لم يكن من أئمة هذا الشأن فيما نظن ولعل الامر بخلاف ذلك وبالمغرب صنف من هؤلاء المنتحلين لهذه الاعمال السحرية يعرفون بالبعاجين وهم الذين ذكرت أولا أنهم يشيرون الى الكساء أو الجلد فيتخرق ويشيرون الى بطون الغنم بالبعج فتبعج ويسمى أحدهم لهذا العهد باسم البعاج لان أكثر ما يتحل من السحر بعج الانعام يرهب بذلك أهلها ليعطوه من فضلها وهم متسترون بذلك في الغاية خوفاً على أنفسهم من الحكام لقيت منهم جماعة وشاهدت من أفعالهم هذه بذلك وأخبروني أن لهم وجهة ورياضة خاصة بدعوات كفرية واشراك الروحانيات الجن والكواكب سطرت فيها صحيفة عندهم تسمى الخزيرية يتدارسونها وأن بهذه الرياضة والوجهة يصلون الى حصول هذه الافعال لهم وان التأثير الذي لهم انما هو فيما سوى الانسان الحر من المتاع والحيوان والرقيق ويعبرون عن ذلك بقولهم انما تفعل فيما تمشي فيه الدراهم أي ما يملك ويبيع ويشترى من سائر الممتلكات هذا ما زعموه وسألت بعضهم فاخبرني به وأما أفعالهم فظاهرة موجودة وفقنا على الكثير منها وعائيتها من غير ريبة في ذلك هذا شأن السحر والطلسمات وآثارهما في العالم فاما الفلاسفة ففرقوا بين السحر والطلسمات بعد ان أثبتوا أنهما جميعاً أثر للنفس الانسانية واستدلوا على وجود الاثر للنفس الانسانية بان لهما آثارا في

بدنها على غير المجري الطبيعي واسبابه الجسمانية بل آثار عارضة من كيفيات الارواح تارة كالسخونة الحادثة عن الفرح والسرور ومن جهة التصورات النفسانية اخرى كالذي يقع من قبل التوهم فان الماشي على حرف حائط او على جبل منتصب إذا قوى عنده توهم السقوط سقط بلا شك ولهذا نجد كثيرا من الناس يعودون انفسهم ذلك حتى يذهب عنهم هذا الوهم فتجدهم يمشون على حرف الحائط والحبل المنتصب ولا يخافون السقوط فثبت ان ذلك من آثار النفس الانسانية وتصورها للسقوط من اجل الوهم وإذا كان ذلك أثرا للنفس في بدنها من غير الاسباب الجسمانية الطبيعية فجائز ان يكون لها مثل هذا الاثر في غير بدنها إذ نسبتها الى الابدان في ذلك النوع من التأثير واحدة لانها غير حالة في البدن ولا منطبعة فيه فثبت انها مؤثرة في سائر الاجسام وأما التفرقة عندهم بين السحر والطلسمات فهو أن السحر لا يحتاج الساحر فيه الى معين وصاحب الطلسمات يستعين بروحانيات الكواكب واسرار الاعداد وخواص الموجودات واوزاع الفلك المؤثرة في عالم العناصر كما يقوله المنجمون ويقولون السحر اتحاد روح بروح والطلسم اتحاد روح بجسم ومعناه عندهم ربط الطبائع العلوية السماوية بالطبائع السفلية والطلبائع العلوية هي روحانيات الكواكب ولذلك يستعين صاحبه في غالب الامر بالنجامة والساحر عندهم غير مكتسب لسحره بل هو مفطور عندهم على تلك الحيلة المختصة بذلك النوع من التأثير والفرق عندهم بين المعجزة والسحر أن المعجزة قوة إلهية تبعث في النفس ذلك التأثير فهو مؤيد بروح الله على فعله ذلك والساحر إنما يفعل ذلك من عند نفسه وبقوته النفسانية وبامداد الشياطين في بعض الاحوال فينهما الفرق في المعقولية والحقيقة والذات في نفس الامر وانما نستدل نحن على التفرقة بالعلامات الظاهرة وهي وجود المعجزة لصاحب الخير وفي مقاصد الخير وللنفوس المتمحضة للخير والتحدي بها على دعوى النبوة والسحر انما يوجد لصاحب الشر وفي أفعال الشر في الغالب من التفريق بين الزوجين وضرر الاعداء وأمثال ذلك وللنفوس المتمحضة للشر هذا هو الفرق بينهما عند الحكماء الالهيين وقد يوجد لبعض المتصوفة وأصحاب الكرامات تأثير أيضاً في أحوال العالم وليس معدوداً من جنس السحر وانما هو بالامداد الالهي لان طريقتهم ونحلتهن من آثار النبوة وتوابعها ولهن في المدد الالهي حظ على قدر حالهن وإيمانهم وتمسكهم بكلمة الله واذا اقتدر أحد منهم على أفعال الشر فلايتها لانه متقيد فيما يأتيه ويذره للامر الالهي فما لا يقع لهم فيه الاذن لا يأتونه بوجه ومن أتاه منهم فقد عدل عن طريق الحق وربما سلب حاله ولما كانت المعجزة بامداد روح الله والقوى الالهية فلذلك لا يعارضها شيء من السحر وانظر شأن سحره فرعون مع موسى في معجزة العصا كيف تلقفت ما كانوا يأفكون وذهب سحرهم واضمحل كأن لم يكن وكذلك لما أنزل على

النبي صلى الله عليه وسلم في المعوذتين ومن شر النفاثات في العقد قالت عائشة رضى الله عنها فكان لا يقرؤها على عقدة من العقد التي سحر فيها الا انحلت فالسحر لا يثبت مع اسم الله وذكره وقد نقل المؤرخون أن زركش كالويان وهي راية كسرى كان فيها الوفق الميثني العددي منسوجاً بالذهب في أوضاع فلكية رصدت لذلك الوفق ووجدت الراية يوم قتل رستم بالقادسية واقعة على الأرض بعد انهزام أهل فارس وشتاتهم وهو فيما تزعم أهل الطلسمات والافواق مخصوص بالغلب في الحروب وان الراية التي يكون فيها أو معها لا تنهزم أصلاً الا أن هذه عارضها المدد الالهي من إيمان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتمسكهم بكلمة الله فأنحل معها كل عقد سحري ولم يثبت وبطل ما كانوا يعملون* وأما الشريعة فلم تفرق بين السحر والطلسمات وجعلته كله باباً واحداً محظوراً لان الافعال انما أباح لنا الشارع منها ما يهمننا في ديننا الذي فيه صلاح آخرتنا أو في معاشنا الذي فيه صلاح دنيانا وما لا يهمننا في شيء منها فان كان فيه ضرر أو نوع ضرر كالسحر الحاصل ضرره بالوقوع ويلحق بالطلسمات لان أثرها واحد وكالنجامة التي فيها نوع ضرر باعتقاد التأثير فتفسد العقيدة الايمانية برد الامور الى غير الله فيكون حينئذ ذلك الفعل محظوراً على نسبته في الضرر وان لم يكن مهماً علينا ولا فيه ضرر فلا أقل من أن تركه قربة الى الله فان من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه فحملت الشريعة باب السحر والطلسمات والشعوذة باباً واحداً لما فيها من الضرر وخصته بالخطر والتحريم وأما الفرق عندهم بين المعجزة والسحر فالذي ذكره المتكلمون أنه راجع الى التحدي وهو دعوى وقوعها على وفق مادعاه قالوا والساحر مصروف عن مثل هذا التحدي فلا يقع منه ووقوع المعجزة على وفق دعوى الكاذب غير مقدور لان دلالة المعجزة على الصدق عقلية لان صفة نفسها التصديق فلو وقعت مع الكذب لاستحال الصادق كاذباً وهو محال فاذا لا تقع المعجزة مع الكاذب باطلاق وأما الحكماء فالفرق بينهما عندهم كما ذكرناه فرق ما بين الخير والشر في نهاية الطرفين فالساحر لا يصدر منه الخير ولا يستعمل في أسباب الخير وصاحب المعجزة لا يصدر منه الشر ولا يستعمل في أسباب الشر وكأنهما على طرفي التقيض في أصل فطرتهما والله يهدي من يشاء وهو القوي العزيز لارب سواه

(فصل) ومن قبيل هذه التأثيرات النفسانية الاصابة بالعين وهو تأثير من نفس المعين عند ما يستحسن بعينه مدر كمن الذوات أو الاحوال ويفرط في استحسانه وينشأ عن ذلك الاستحسان حينئذ أنه يروم معه سلب ذلك الشيء عمن اتصف به فيؤثر فساداً وهو جيلة فطرية أعنى هذه الاصابة بالعين والفرق بينها وبين التأثيرات وان كان منها مالا يكتسب أن صدورهما راجع الى اختيار فاعلهما والفطري منها قوة صدورهما لانفس صدورهما ولهذا قالوا القاتل

بالسحر أو بالكرامة يقتل والقاتل بالعين لا يقتل وما ذاك الا لانه ليس مما يريد ويقصده أو يتركه وانما هو مجبور في صدوره عنه والله أعلم بما في الغيوب ومطلع على مافي السرائر

علم أسرار الحروف

٢٣

وهو المسمى لهذا العهد بالسيما نقل وضعه من الطلسمات اليه في اصطلاح أهل التصرف من المتصوفة فاستعمل استعمال العام في الخاص وحدث هذا العلم في الملة بعد صدر منها وعند ظهور الغلاة من المتصوفة وجنوحهم الى كشف حجاب الحس وظهور الخوارق على أيديهم والتصرفات في عالم العناصر وتدوين الكتب والاصطلاحات ومزاعمهم في تنزل الوجود عن الواحد وترتيبه وزعموا أن الكمال الاسمائي مظهره أرواح الافلاك والكواكب (١) وأن طبائع الحروف وأسرارها سارية في الاسماء فهي سارية في الاكوان على هذا النظام والاكوان من لدن الابداع الاول تتنقل في أطواره وتعرب عن أسرارها فحدث لذلك علم أسرار الحروف وهو من تقاريع علم السيمياء لا يوقف على موضوعه ولا تحاط بالعدد مسائله تعددت فيه تأليف البوني وابن العربي وغيرها ممن اتبع آثارها وحاصله عندهم وثمرته تصرف النفوس الربانية في عالم الطبيعة بالاسماء الحسنى والكلمات الالهية الناشئة عن الحروف الخيطة بالاسرار السارية في الاكوان ثم اختلفوا في سر التصرف الذي في الحروف بما هو فقههم من جملة للزجاج الذي فيه وقسم الحروف بقسمة الطبائع الى أربعة أصناف كما للعناصر واختصت كل طبيعة بصنف من الحروف يقع التصرف في طبيعتها فعلا وانفعالا بذلك الصنف فتنوعت الحروف بقانون صناعي يسمونه التفسير الى نارية وهوائة ومائية وترابية على حسب تنوع العناصر فالالف للنار والباء للهواء والجيم للماء والدال للتراب ثم ترجع كذلك على التوالي من الحروف والعناصر الى أن تنفذ فتعين لعنصر النار حروف سبعة الالف والهاء والطاء والميم والفاء والسين والذال وتعين لعنصر الهواء سبعة أيضاً الباء والواو والياء واثنون والصاد والتاء والطاء وتعين لعنصر الماء أيضاً سبعة الجيم والزاي والكاف والصاد والقاف والتاء والغين وتعين لعنصر التراب أيضاً سبعة الدال والحاء واللام والعين والراء والحاء والشين والحروف النارية لدفع الامراض الباردة ولمضاعفة قوة الحرارة حيث تطلب مضاعفتها إما حساً أو

(١) ترتيب طبائع الحروف عند المغاربة غير ترتيب المشاركة ومنهم الغزالي كما ان الجمل عندهم مخالف في ستة أحرف فان الصاد عندهم بستين والصاد بتسعين والسين المهمة بثمانئة والطاء بثمانئة والغين بتسعمائة والشين بألف اه قاله نصر الهوري

حكماً كما في تضعيف قوي المريح في الحروب والقتل والفتك والمائية أيضاً لدفع الامراض الحارة من حيات وغيرها ولتضعيف القوي الباردة حيث تطلب مضاعفتها حساً أو حكماً كتضعيف قوي القمر وأمثال ذلك ومنهم من جعل سر التصرف الذي في الحروف للنسبة العددية فان حروف أبجد دالة على أعدادها المتعارفة وضعاً وطبعاً فينها من أجل تناسب الاعداد تناسب في نفسها أيضاً كما بين الباء والكاف والراء لدالاتها كلها على الاثنين كل في مرتبه فالباء على اثنين في مرتبة الآحاد والكاف على اثنين في مرتبة العشرات والراء على اثنين في مرتبة المئين وكالذى بينها وبين الدال والميم والتاء لدالاتها على الاربعة وبين الاربعة والاثنين نسبة الضعف وخرج للاسماء أوافق كما للاعداد يختص كل صنف من الحروف بصنف من الاوافق الذي يناسبه من حيث عدد الشكل أو عدد الحروف وامتزج التصرف من السر الحرفي والسر العددي لاجل التناسب الذى بينهما فأما سر التناسب الذي بين هذه الحروف وأمزجة الطبائع أو بين الحروف والاعداد فأمر عسر على الفهم اذ ليس من قبيل العلوم والقياسات وانما مستندهم فيه الذوق والكشف قال البوني ولا نظن أن سر الحروف مما يتوصل اليه بالقياس العقلى وانما هو بطريق المشاهدة والتوفيق الالهي وأما التصرف في عالم الطبيعة بهذه الحروف والاسماء المركبة فيها وتأثر الاكوان عن ذلك فأمر لا ينكر لثبوته عن كثير منهم تواتراً وقد يظن أن تصرف هؤلاء وتصرف أصحاب الطلسمات واحد وليس كذلك فان حقيقة الطلسم وتأثيره على ماحقهه أهله أنه قوي روحانية من جوهر القهر تفعل فيما له ركب فعل غلبة وقهر بأسرار فلسكية ونسب عددية ونجورات جالبات لروحانية ذلك الطلسم مشدودة فيه بالهمة فائدتها ربط الطبائع العلوية بالطبائع السفلية وهو عندهم كالحميرة المركبة من هواية وأرضية ومائية ونارية حاصلة في جملتها تحيل وتصرف ماحصلت فيه الى ذاتها وتقلبه الى صورتها وكذلك الاكسير للاجسام المعدنية كالحميرة تقلب المعدن الذي تسرى فيه الى نفسها بالاحالة ولذلك يقولون موضوع الكيمياء جسد في جسد لان الاكسير أجزاءه كلها جسدانية ويقولون موضوع الطلسم روح في جسد لانه ربط الطبائع العلوية بالطبائع السفلية والطبائع السفلية جسد والطبائع العلوية روحانية وتحقيق الفرق بين تصرف أهل الطلسمات وأهل الاسماء بعد ان تعلم أن التصرف في عالم الطبيعة كله انما هو للنفس الانسانية والهمم البشرية لان النفس الانسانية محيطة بالطبيعة وحكمة عليها بالذات الا أن تصرف أهل الطلسمات انما هو في استئزال روحانية الافلاك وربطها بالصور أو بالنسب العددية حتى يحصل من ذلك نوع مزاج يفعل الاحالة والقلب بطبيعته فعل الحميرة فيما حصلت فيه وتصرف أصحاب الاسماء انما هو بما حصل لهم بالمجاهدة والكشف من النور الالهي والامداد الرباني

فيسخر الطبيعة لذلك طائفة غير مستعصية ولا يحتاج الى مدد من القوى الفلكية ولا غير هالان مدده
أعلى منها ويحتاج أهل الطلسمات الى قليل من الرياضة تفيد النفس قوة على استنزال روحانية
الأفلاك وأهون بها وجهة ورياضة بخلاف أهل الاسماء فان رياضتهم هي الرياضة الكبرى وليست
لقصد التصرف في الاكوان إذ هو حجاب وإنما التصرف حاصل لهم بالعرض كرامة من كرامات
الله لهم فان خلا صاحب الاسماء عن معرفة أسرار الله وحقائق الملكوت الذي هو نتيجة المشاهدة
والكشف واقتصر على مناسبات الاسماء وطبائع الحروف والكلمات وتصرف بهما من هذه الحثية
وهؤلاء هم أهل السيمياء في المشهور كان إذا لا فرق بينه وبين صاحب الطلسمات بل صاحب
الطلسمات أوثق منه لانه يرجع إلى أصول طبيعية علمية وقوانين مرتبة وأما صاحب أسرار الاسماء
إذا فاته الكشف الذي يطالع به على حقائق الكلمات وآثار المناسبات بفوات الخلوص في الوجهة
وليس له في العلوم الاصطلاحية قانون برهاني يعول عليه فيكون حاله أضعف رتبة وقديم
صاحب الاسماء قوي الكلمات والاسماء بقوي الكواكب فيعين لذكر الاسماء الحسنى أو ما يرسم من
أوقافها بل واسائر الاسماء أوقاتاً تكون من حظوظ الكواكب الذي يناسب ذلك الاسم كما فعله
البوني في كتابه الذي سماه الانماط وهذه المناسبة عندهم هي من لدن الحضرة العمائية وهي برزخية
الكمال الاسمائي وإنما تنزل تفصيلها في الحقائق على ما هي عليه من المناسبة واثبات هذه المناسبة عندهم
انما هو بحكم المشاهدة فاذا خلا صاحب الاسماء عن تلك المشاهدة وتاقى تلك المناسبة تقليداً كان
عمله بمثابة عمل صاحب الطلسم بل هو أوثق منه كما قلنا ذلك قديم ج أيضاً صاحب الطلسمات
عمله وقوي كواكبه بقوي الدعوات المؤلفة من الكلمات المخصوصة لمناسبة بين الكلمات
والكواكب الا أن مناسبة الكلمات عندهم ليست كما هي عند أصحاب الاسماء من الاطلاع في حال
المشاهدة وإنما يرجع الى ما اقتضته أصول طريقهم السحرية من اقتسام الكواكب لجميع ما في
عالم المكونات من جواهر وأعراض وذوات ومعان والحروف والاسماء من جملة ما فيه فليس
واحد من الكواكب قسم منها يخصه ويبنون على ذلك مبان غريبة منكورة من تقسيم سور القرآن
وآيه على هذا النحو كما فعله مسلمة المجريطي في الغاية والظاهر من حال البوني في انماطه انه اعتبر
طريقهم فان تلك الانماط اذا تصفحتها وتصفحت الدعوات التي تضمنتها وتقسيمها على ساعات
الكواكب السبعة ثم وقفت على الغاية وتصفحت قيامات الكواكب التي فيها وهي الدعوات التي
تختص بكل كوكب يسمونها قيامات الكواكب أي الدعوة التي يقام له بها شهد له ذلك اما بأنه
من مادتها أو بان التناسب الذي كان في أصل الابداع وبرزخ العلم قضى بذلك كله (وما أوتيتم من
العلم إلا قليلاً) وليس كل ما حرمة الشارع من العلوم بمنكر الثبوت فقد ثبت ان السحر حق
مع حظره لكن حسبنا من العلم ما علمنا * (ومن فروع علم السيمياء عندهم استخراج الاجوبة

(من الاسئلة) * بارتباطات بين الكلمات حرفية يوهمون أنها اصل في معرفة ما يحاولون علمه من الكائنات الاستقبالية وانما هي شبه المعايير والمسائل السائلة ولهم في ذلك كلام كثير من ادعية وأعجبه زائرة العالم السبقي وقد تقدم ذكرها ونين هنا ما ذكروه في كيفية العمل بتلك الزائرة بدائرتها وجدولها المكتوب حولها ثم نكشف عن الحق فيها وانها ليست من الغيب وانما هي مطابقة بين مسألة وجوابها في الافادة فقط وقد أشرنا إلى ذلك من قبل وليس عندنا رواية يعول عليها في صحة هذه القصيدة إلا اننا نحرينا أصح النسخ منها في ظاهر الامر والله الموفق بمنه وهي هذه

يقول سيدي ويحمد ربه * مصل على هاد الى الناس ارسلا
محمد المبعوث خاتم الانبيا * ويرضى عن الصبح ومن لهم تلا
ألا هذه زائرة العالم الذي * تراه بحكم وبالعقل قد حلا
فمن أحكم الوضع فيحكم جسمه * ويدرك أحكاماً تدبرها العلا
ومن أحكم الربط فيدرك قوة * ويدرك للتقوي وللكل حصلا
ومن أحكم التصريف يحكم سره * ويعقل نفسه وصح له الولا
وفي عالم الامر تراه محققاً * وهذا مقام من بالاذكار كمالا
فهذه سرائر عليكم بكتمة * أقما دوائر وللحاء عدلا
فطاء لها عرش وفيه نقوشنا * بنظم ونثر قد تراه مجدولا
ونسب دوائر كنسبة فلكتها * وارسم كواكباً لادراجها العلا
وأخرج لاوتار وارسم حروفها * وكور بمثله على حد من خلا
أقم شكل زيرهم وسو بيوتهم * وحقق بهامهم ونورهم جلا
وحصل علوماً للطباع مهندسا * وعلمنا لموسيقى والارباع مثلا
وسو لموسيقى وعلم حروفهم * وعلم باللات خفوق وحصلا
وسو دوائر ونسب حروفها * وعلمها أطلق والاقليم جدولا
أمير لنا فهو نهاية دولة * زنايسة آت وحكم لها خلا
وقطر لا ندلس فابن اهودهم * وجاء بنو نصر وظفرهم تلا
ملوك وفرسان وأهل الحكمة * فان شئت نصهم وقطرهم جلا
وهدي توحيد بتونس حكمهم * ملوك وبالشرق بالافاق نزلا
واقسم على القطر وكن متفقداً * فان شئت للروم فبالحر شكلا
ففنش وبرشون الرءاء حرفهم * وافر نسهم دال وبالطاء كمالا

ملوك كناوة ودلو لقافهم * واعراب قومنا بترقيق اعمالا
 فهند حباشي وسند فهرس * وفرس ططاري وما بعدهم طلا
 فقصرهم حاء ويزدجردهم * لكاف وقبطهم بلامه طولا
 وعباس كلهم شريف معظم * ولا كن تركي هذا الفعل عطلا
 فان شئت تدقيق الملوك وكلهم * نختم بيوتاً ثم نسب وجدولا
 على حكم قانون الحروف وعلمها * وعلم طبائعها وكله مشلا
 فمن علم العلوم يعلم علمنا * ويعلم أسرار الوجودوا كملا
 فيرسخ علمه ويعرف ربه * وعلم ملاجيم بحاجيم فصلا
 وحيث أتى اسم والعروض يشقه * فحكم الحكيم فيه قطعاً ليقطلا
 وتأنيك أحرف فسو لضرها * وأحرف سيديوه تأنيك فيصلا
 فمنك بتسكير وقابل وعوض * بترنيك العالي للاجزاء خلخلا
 وفي العقد والمجزور يعرف غالباً * وزد ملح وصفيه في العقل فعلا
 واختر لمطالع وسويه رتبة * واعكس بحذريه وبالذور عدلا
 ويدركها المرء فيبلغ قصده * وتعطي حروفها وفي نظمها انجلا
 اذا كان سعدوا الكواكب أسعدت * فحسبك في الملك ونيل اسمه العلا
 وايقاع دالهم بمرموز ثمة * فنسب دنادينا نجد فيه منها
 وأوتار زيرهم فللحاء بهم * ومثناهم المثلث بحيمه قد جلا
 وادخل بافلاك وعدل بمجدول * وارسم أبا جاد وباقيه جملا
 وجوز شذوذ النجوم يحوز ومثله * أتى في عروض الشعر عن جملة ملا
 فاصل لدينا وأصل لفقها * وعلم لنحونا فاحفظ وحصلا
 فادخل لفسطاط على الوفق جذره * وسيسبح باسمه وكبر وهلا
 فتخرج أياتاً وفي كل مطلب * بنظم طبيعي وسر من العلا
 وتفتي بحصرها كذا حكم عددهم * فعمل الفوايح تري فيه منها
 فتخرج أياتاً وعشرون ضعفت * من الالف طبعياً فياصح جدولا
 تريك صنائع من الضرب أملت * فصح لك المنى وصح لك العلا
 وسجع زيرهم وأثنى بنقرة * أقما دوائر الزير وحصلا
 أقما بلوفاق وأصل لعدا * من اسرار اخر فهم فعذبه سلسلا

(الكلام على استخراج نسبة الاوزان وكيفياتها ومقادير المقابل منها وقوة الدرجة المتميزة بالنسبة الى موضع المعالق من امتزاج طبائع وعلم طب أو صناعة الكيمياء)

أيا طالباً للطب مع علم جابر * وعالم مقدار المقادير بالولا
إذا شئت علم الطب لابد نسبة * لاحكام ميزان تصادف منها
فيشفى عليكم والا كسير محكم * وامزاج وضعكم بتصحيح انجلا

الطب الروحاني

وشئت ايلالوش ٦٥ ٢٥ * ودهنه نجلا
لهرام برجيس * وسبعة اكمل
لتحليل أوجاع البوارد صحجوا * كذلك والتركيب حيث تنقلا
كدمع مهم ٣٥٥ وهج ٦ صهلأى ولمح آآ وهجوى سكره لال ح مهمت ٢٢٢٢ ع ع مي
مرح ٢٢٤٢ ل ك عاغر

مطابخ الشعاعات في مواليد الملوك وبينهم

وعلم مطابخ الشعاعات مشكل * وضلع قسيها بمنطقة جلا
ولكن في حج مقام امامنا * ويبدو اذا عرض الكواكب عدلا
بدال مراكز بين طول وعرضها * فن أدرك المعني علا ثم فوضلا
مواقع تربيع وسه مسقط * لتسديسهم تلميث بيت الذي تلا
يزاد لتربيع وهذا قياسه * يقيناً وحذره وبالعين أعمالا
ومن نسبة الربعين ركب شعاعك * بصاد وضعفه وتربيعة انجلا
اختص صح ٨ سع وي هذا العمل هنا للملوك والقانون مطرد عمله ولم ير أعجب منه
مقامات الملوك المقام الاول ٥ المقام الثانى ٢ مهممه صع عر المقام الثالث غ ع والمقام
الرابع للح المقام الخامس لاي المقام السادس ع بير المقام السابع عره
خط الاتصال والانفصال ع ٥١ ح ط ن ح لح
خط الاتصال ٨١ > ١ > لح
خط الانفصال لح ٢ ١ ح ع و
الوبر للجميع وتابع الجزر التام ٢٢٢٢ ١٢ ح ١١ ٠ ٤٤ ٤٤ مح

الانفصال والانفصال	ع	جم
الواجب التام في الاتصالات	ع ي ٥ ح	هم
اقامة الانوار	م ع م ع	
الجزر المجيب في العمل	ص ١ م م ع ح	
اقامة السؤال عن الملوك	ع ح ١ ٥ لا خ ملح ١١ ي	
مقام الا ولانور	ع عو مقام بها ه حج لا	

الانفعال الروحاني والانقياد الرباني

أيا طالب السر انهيل ربه * لدي أسنائه الحسني تصادف منها
 تطيعك أختيار الانام بقلوبهم * كذلك ريسهم وفي الشمس اعمالا
 تري عامة الناس اليك تقيّدوا * وما قلته حقا وفي الغير اهملا
 طريقك هذا السيل والسبل الذي * اقلوه غيركم ونصركموا اجتلي
 اذا شئت تحيا في الوجود مع التقي * ودينا متيناً او تكن متوصلا
 كذي النون والجنيّد مع سر صنعة * وفي سر بسطام اراك مسرّلا
 وفي العالم العلوي تكون محدثا * كذا قالت الهند وصوفية الملا
 طريق رسول الله بالحق سامع * وما حكم صنع مثل جبريل أنزلا
 فبطشك تهليل وقوسك مطلع * ويوم الخميس البدء والاحداثجلى
 وفي جمعة أيضاً بالاسماء مثله * وفي اثنين للحسني تكون مكمل
 وفي طائه سر وفي هائه اذا * أراك بها مع نسبة الكل أعطلا
 وساعة سعد شرطهم في نقوشها * وعود ومصطكى بنحور تحصلا
 وتلو عليها آخر الحشر دعوة * والاخلاص والسبع المثاني مرتلا
 اتصال أنوار الكواكب * بلعاني لاهي لا ظغش لدسع قصح ه فوي
 وفي يده اليمنى حديد وخاتم * وكل برأسك وفي دعوة فلا
 وآية حشر فاجعل القلب وجهها * واتلو اذا نام الانام ورتلا
 هي السر في الاكوان لاشي غيرها * هي الآية العظمى فحقق وحصلا
 تكون بها قطبا اذا جدت خدمة * وتذكر أسراراً من العالم العلا
 سري بها ناجي ومعروف قبله * وباح بها الحلاج جهرا فأعقلا

وكان بها الشبلى يدأب دائماً * الى أن رقى فوق المريدن واعتلى
فصف من الادناس قلبك جاهداً * ولازم لاذكار وسم وتنفلا
فما نال سر القوم الا محقق * عليم بأسرار العلوم محصلا

ع صح صح وسلم ع 2 2 ك ملح و ١ ١ ١ ملح ١ ١ ١ سحاع
8 8 ح ١ ١ ح ١ ١ ف ك صرح اي رم

مقامات المحبة وميل النفوس والمجاهدة والطاعة والعبادة وحب
وتعشق وفناء الفناء وتوجه ومراقبة وخلة دائمة

الانفمال الطيبي

لبرجيس في المحبة الوفق صرفوا * بقزدير اونحاس الخطأ كمالا
وقيل بفضة صحيحاً رأيتنه * نجمك طالعا خطوطه ماعلا
توخ به زيادة النور للقمر * وجعلك للقبول شمس أصلا
ويومه والبخور عود لهندهم * ووقت لساعة ودعوته الا
ودعوته بغاية فهي أعلمت * وعن طسيان دعوة ولهاجلا
وقيل بدعوة حروف لوضعها * بحر هواء أو مطالب أهلا
فتنقش أحرفا بدال ولامها * وذلك وفق للمربع حصلا
اذا لم يكن يهوي هواك دلاها * فдал ليبدو واوزنب معطلا
فحسن لبائه وبائهم اذا * هواك وباقيهم قليلة جملا
وتنقش مشا كل بشرط لوضعهم * وما زدت انسه لفعلك عدلا
ومفتاح مريم ففعلهما سوا * فوري وبسطامي بسورتها تلا
وجعلك بالقصد وكن متفقدا * أدلة وحشي لقبضة ميلا
فاعكس بيوتها بألف ونيف * فباطنها سروي سرها انجلا

فصل في المقامات للنهاية

لك الغيب صورة من العالم العلا * وتوجدتها دارا وملبسها الخلا
ويوسف في الحسن وهذا شبيهه * بنثر وترتيل حقيقة أنزلا
وفي يده طول وفي الغيب نالطوق * فيحكى الى عود يجاوب بلبلا

وقد جن بهلول بعشق جمالها * وعند تجليها لبسطام اخذلا
ومات أجليه وأشرب حبها * جنيد وبصري وللجسم أهملها
فتطلب في التهايل غايته ومن * باسمه الحسيني بلا نسبة خلا
ومن صاحب الحسيني له الفوز بالمني * ويسهم بالزلفي لدي جيرة العلا
وتجبر بالغيب اذا جدت خدمة * تريك عجائباً بمن كان موئلا
فهذا هو الفوز وحسن تناله * ومنها زيادات لتفسيرها تلا
﴿ الوصية والتختم والايمان والاسلام والتحريم والاهلية ﴾

فهذا قصيدنا وتسعون عده * وما زاد خطبة وختماً وجدولا
عجبت لأبيات وتسعون عدها * تولد أبياناً وما حصرها انجلا
فن فهم السر فيهم نفسه * ويفهم تفسيراً مشابه أشكلا
حرام وشريعي لاظهار سرنا * لناس وان خصوا وكان التأهلا
فان شئت أهليه فاعلظ بينهم * وتفهم برحلة ودين تطولا
لعلك أن تجو وسامع سرهم * من القطع والافشا فترأس بالعلا
فتجعل لعباس لسره كاتم * قال سعادات وتابعه علا
وقام رسول الله في الناس خاطبا * فمن يرأسن عرشاً فذلك أكمل
وقد ركب الارواح أجساد مظهر * قالت لقتلهم بدق تطولا
الى العالم العلوى يفني فناؤنا * ويلبس أثواب الوجود على الولا
فقد تم نظمنا وصل إلها * على خاتم الرسل صلاة بها العلا
وصل إله العرش ذو المجد والعلا * على سيد ساد الانام وكمل
محمد الهادي الشفيع إمامنا * وأصحابه أهل المكارم والعلا

٨ من الله ح و ط ع

مرتبة ناسه عن الجله سرح اسع ص مع ————— تصحيح النيرين
وتعديل الكواكب عند كل تاريخ مطلوب ب س ر ك ل و و ه ا ه لو طرح الاوتار
الكلية ٢١ م ع ع ع ا ل ٥ ح

الاول تم ٨ ع ٣ م ه ع ح عو ه عو ٨ عو ح ح ا د عو عو عو عو صح كلت الزايرة

﴿ كيفية العمل في استخراج اجوبة المسائل من زايرة العام

بجول الله منقولاً عن لقيناه من القائمين عليها ﴾

السؤال له ثمانية وستون جواباً عدة الدرج وتختلف الاجوبة عن سؤال واحد في طالع

مخصوص باختلاف الاسئلة المضافة الى حروف الاوتار وتناسب العمل من استخراج الاحرف من بيت القصيد * (تنبيه) * تركيب حروف الأوتار والجدول على ثلاثة أصول حروف عربية تنقل على هيأتها وحروف برسم الغبار وهذه تبدل فيها ما ينقل على هيئته متى لم ترد الادوار عن أربعة فان زادت عن أربعة نقلت الى المرتبة الثانية من مرتبة العشرات وكذلك لمرتبة المئين على حسب العمل كما سنبينه ومنها حروف برسم الزمام كذلك غير ان رسم الزمام يعطي نسبة ثمانية فهي بمنزلة واحد ألف وبمنزلة عشرة ولها نسبة من خمسة بالعربي فاستحق البيت من الجدول أن توضع فيه ثلاثة حروف في هذا الرسم وحرفان في الرسم فاقتصروا من الجدول بيوتاً خالية فتى كانت أصول الادوار زائدة على أربعة حسبت في العدد في طول الجدول وان لم ترد على أربعة لم يحسب الا العامر منها * (والعمل في السؤال يقتصر الى سبعة أصول) * عدة حروف الاوتار وحفظ ادوارها بعد طرحها اثني عشر اثني عشروهي ثمانية أدوار في الكامل وستة في الناقص أبداً ومعرفة درج الطالع وسلطان البرج والدور الاكبر الاصل وهو واحد أبداً وما يخرج من اضافة الطالع للدور الاصل وما يخرج من ضرب الطالع والدور في سلطان البرج واطافة سلطان البرج للطالع والعمل جميعه ينتج عن ثلاثة أدوار مضروبة في اربعة تكون اثني عشر دوراً ونسبة هذه الثلاثة الادوار التي هي كل دور من أربعة نشأة ثلاثية كل نشأة لها ابتداء ثم انها تضرب أدواراً رباعية أيضاً ثلاثية ثم انها من ضرب ستة في اثنين فكان لها نشأة يظهر ذلك في العمل ويتبع هذه الادوار الاثني عشر نتائج وهي في الادوار اما أن تكون نتيجة أو أكثر الى ستة فأول ذلك نفرض سؤالاً عن الزايرة هل هي علم قديم أو محدث بطالع أول درجة من القوس أثناء حروف الاوتار ثم حروف السؤال فوضعنا حروف وتر رأس القوس ونظيره من رأس الجوزاء وثالثه وتر رأس الدلو الى حد المركز وأضفنا اليه حروف السؤال ونظرنا عدتها وأقل ما تكون ثمانية وثمانين واكثر ما تكون ستة وتسعون وهي جملة الدور الصحيح فكانت في سؤالنا ثلاثة وتسعين ويختصر السؤال ان زاد عن ستة وتسعين بان يسقط جميع ادواره الاثني عشرية ويحفظ ماخرج منها وما بقي فكانت في سؤالنا سبعة ادوار الباقي تسعة أثبتنا في الحروف ما لم يبلغ الطالع اثني عشرة درجة فان بلغها لم تثبت لها عدة ولا دور ثم تثبت اعدادها أيضاً ان زاد الطالع عن أربعة وعشرين في الوجه الثالث ثم تثبت الطالع وهو واحد وسلطان الطالع وهو أربعة والدور الاكبر وهو واحد واجمع ما بين الطالع والدور وهو اثنان في هذا السؤال واضرب ما خرج منهما في سلطان البرج يبلغ ثمانية واضف السلطان للطالع فيكون خمسة فهذه سبعة أصول فما خرج من ضرب الطالع والدور الاكبر في سلطان القوس مما لم يبلغ اثني عشر فيه تدخل في ضلع ثمانية

من أسفل الجدول صاعداً وان زاد على اثني عشر طرح أدواراً وتدخل الباقي في ضلع ثمانية وتعلم على منتهي العدد والخمسة المستخرجة من السلطان والطارع يكون الطالع في ضلع السطح المبسوط الاعلى من الجدول وتعد متواليات خمس أدواراً وتحفظها الى أن يقف العدد على حرف من أربعة وهي ألف أو باء أو جيم أو زاي فوق العدد في عملنا على حرف الألف وخلف ثلاثة أدوار فضرربنا ثلاثة في ثلاثة كانت تسعة وهو عدد الدور الأول فأثبتته واجمع ما بين الضلعين القائم والمبسوط يكن في بيت ثمانية في مقابلة البيوت العائرة بالعدد من الجدول وان وقف في مقابلة الخالي من بيوت الجدول على أحدها فلا يعتبر وتستمر على أدوارك وادخل بعدد ما في الدور الاول وذلك تسعة في صدر الجدول مما يلي البيت الذي اجتماع فيه وهي ثمانية ماراً الى جهة اليسار فوق على حرف لام ألف ولا يخرج منها أبداً حرف مركب وانما هو اذن حرف تاء أربعاً برسم الزمام فعلم عليها بعد نقلها من بيت القصيد واجمع عدد الدور للسلطان بباغ ثلاثة عشر ادخل بها في حروف الاوتار وأثبت ما وقع عليه العدد وعلم عليه من بيت القصيد ومن هذا القانون تدري كم تدور الحروف في النظم الطبيعي وذلك أن تجمع حروف الدور الاول وهو تسعة لسلطان البرج وهو أربعة تباع ثلاثة عشر أضعفها بمثلها تكون ستة وعشرين أسقط منها درج الطالع وهو واحد في هذا السؤال الباقي خمسة وعشرون فعلى ذلك يكون نظم الحروف الاول ثم ثلاثة وعشرون مرتين ثم اثنان وعشرون مرتين على حسب هذا الطرح الى أن ينتهي للواحد من آخر البيت المنظوم ولا تقف على أربعة وعشرين لطرح ذلك الواحد أولاً ثم ضع الدور الثاني وأضف حروف الدور الاول الى ثمانية الخارجة من ضرب الطالع والدور في السلطان تكن سبعة عشر الباقي خمسة فاصعد في ضلع ثمانية بخمسة من حيث انتهت في الدور الاول وعلم عليه وادخل في صدر الجدول بسبعة عشر ثم بخمسة ولا تعد الخالي والدور عشرين فوجدنا حرف تاء خمسة وانما هونون لان دورنا في مرتبة العشرات فكانت الخمسة بمخمسين لان دورها سبعة عشر فلو لم تكن سبعة عشر لكانت مئتين فأثبتنونا ثم ادخل بخمسة ايضاً من أوله وانظر ما حاذي ذلك من السطح تجدد واحدا فقهر العدد واحدا يقع على خمسة أضف لها واحدا اسطح تكن ستة أثبت واوا وعلم عليها من بيت القصيد أربعة وأضفها للثمانية الخارجة من ضرب الطالع مع الدور في السلطان تباع اثني عشر أضف لها الباقي من الدور الثاني وهو خمسة تباع سبعة عشر وهو ما للدور الثاني فدخلنا بسبعة عشر في حروف الاوتار فوق العدد على واحد أثبت الألف وعلم عليها من بيت القصيد وأسقط من حروف الاوتار ثلاثة حروف عدة الخارج من الدور الثاني وضع الدور الثالث وأضف خمسة الى ثمانية تكن ثلاثة عشر الباقي واحد اقل الدور في ضلع ثمانية بواحد وادخل

في بيت القصيد بثلاثة عشر وخذ ما وقع عليه العدد وهو ق وعلم عليه وادخل بثلاثة عشر في حروف الاوتار وأثبت ما خرج وهو سين وعلم عليه من بيت القصيد ثم ادخل مما يلي السين الحارجة بالباقي من دور ثلاثة عشر وهو واحد نخذ ما يلي حرف سين من الاوتار فكان ب أثبتنا وعلم عليها من بيت القصيد وهذا يقال له الدور المعطوف وميزانه صحيح وهو أن تضعف ثلاثة عشر بمثلها وتضيف اليها الواحد الباقي من الدور تبلغ سبعة وعشرين وهو حرف باء المستخرج من الاوتار من بيت القصيد وادخل في صدر الجدول بثلاثة عشر وانظر ما قبله من السطح وأضعفه بمثله وزد عليه الواحد الباقي من ثلاثة عشر فكان حرف جيم وكانت لاجمعة سبعة فذلك حرف زاي فأثبتناه وعلمنا عليه من بيت القصيد وميزانه أن تضعف السبعة بمثلها وزد عليها الواحد الباقي من ثلاثة عشر يكن خمسة عشر وهو الخامس عشر من بيت القصيد وهذا آخر ادوار الثلاثيات وضع الدور الرابع وله من العدد تسعة باضافة الباقي من الدور السابق فاضرب الطالع مع الدور في السلطان وهذا الدور آخر العمل في البيت الاول من الرباعيات فاضرب على حرفين من الاوتار واصعد بتسعة في ضلع ثمانية وادخل بتسعة من دور الحرف الذي اخذته آخراً من بيت القصيد فالتاسع حرف راء فأثبتناه وعلم عليه وادخل في صدر الجدول بتسعة وانظر ما قبلها من السطح يكون ج قهقر العدد واحداً يكون ألف وهو الثاني من حرف الراء من بيت القصيد فأثبتناه وعلم عليه وعد مما يلي الثاني تسعة يكون ألف ايضاً أثبتناه وعلم عليها واضرب على حرف من الاوتار وأضعف تسعة بمثلها تبلغ ثمانية عشر ادخل بها في حروف الاوتار تقف على حرف راء أثبتناه وعلم عليها من بيت القصيد ثمانية وأربعين وادخل بثمانية عشر في حروف الاوتار تقف على س أثبتناه وعلم عليها اثنين وأضف اثنين الى تسعة تكون أحد عشر ادخل في صدر الجدول بأحد عشر تقابلها من السطح ألف أثبتناه وعلم عليها ستة وضع الدور الخامس وعدته سبعة عشر الباقي خمسة اصعد بخمسة في ضلع ثمانية واضرب على حرفين من الاوتار واضعف خمسة بمثلها وأضفها الى سبعة عشر عدد دورها اجملة سبعة وعشرون ادخل بها في حروف الاوتار تقع على ب أثبتناه وعلم عليها اثنين وثلاثين واطرح من سبعة عشر اثنين التي هي في أس اثنين وثلاثين الباقي خمسة عشر ادخل بها في حروف الاوتار تقف على ق اثبتناه وعلم عليها ستة وعشرين وادخل في صدر الجدول بست وعشرين تقف على اثنين بالغبار وذلك حرف ب أثبتناه وعلم عليها أربعة وخمسين اضرب على حرفين من الاوتار وضع الدور السادس وعدته ثلاثة عشر الباقي منه واحد قين اذ ذلك أن دور النظم من خمسة وعشرين فان الادوار خمسة وعشرون وسبعة عشر وخمسة وثلاثة عشر وواحد فاضرب خمسة في خمسة تكن خمسة وعشرين وهو الدور في نظم البيت فانقل الدور في ضلع ثمانية بواحد ولكن لم يدخل في بيت القصيد بثلاثة عشر كما قدمناه لانه دور ثان

من نشأة تركيبة ثانية بل أضفنا الأربعة التي من أربعة وخمسين الحارجة على حروف ب من بيت القصيد الى الواحد تكون خمسة تضيف خمسة الى ثلاثة عشر التي للدور تبلغ ثمانية عشر ادخل بها في صدر الجدول وخذ ما قبلها من السطح وهو ألف أثبتة وعلم عليه من بيت القصيد اثني عشر واضرب على حرفين من الاوتار ومن هذا الجدول تنظر أحرف السؤال فما خرج منها زده مع بيت القصيد من آخره وعلم عليه من حروف السؤال ليكون داخلا في العدد في بيت القصيد وكذلك تفعل بكل حرف حرف بعد ذلك مناسبا لحروف السؤال فما خرج منها زده الى بيت القصيد من آخره وعلم عليه ثم أضف الى ثمانية عشر ما علمته على حرف الالف من الآحاد فكان اثنين تبلغ الجملة عشرين ادخل بها في حروف الاوتار تقف على حرف راء أثبتة وعلم عليه من بيت القصيد ستة وتسعين وهو نهاية الدور في الحرف الوتري فاضرب على حرفين من الاوتار وضع الدور السابع وهو ابتداء المخترع ثان ينشأ من الاختراعين ولهذا الدور من العدد تسعة تضيف لها واحدا تكون عشرة للنشأة الثانية وهذا الواحد تزيد بعد الى اثني عشر دورا اذا كان من هذه النسبة أو تنقصه من الاصل تبلغ الجملة خمسة عشر فاصعد في ضلع ثمانية وتسعين وادخل في صدر الجدول بعشرة تقف على خمسمائة وانما هي خمسون نون مضاعفة بمثلها وتلك ق أثبتها وعلم عليها من بيت القصيد اثنين وخمسين وأسقط من اثنين وخمسين اثنين وأسقط تسعة التي للدور الباقي واحد وأربعون فادخل بها في حروف الاوتار تقف على واحد أثبتة وكذلك ادخل بها في بيت القصيد تجد واحدا فهذا ميزان هذه النشأة الثانية فعمل عليه من بيت القصيد علامتين علامة على الالف الأخير الميزاني وأخري على الالف الاولى فقط والثانية أربعة وعشرون واضرب على حرفين من الاوتار وضع الدور الثامن وعدته سبعة عشر الباقي خمسة ادخل في ضلع ثمانية وخمسين وادخل في بيت القصيد بخمسة تقف على عين بسبعين أثبتها وعلم عليها وادخل في الجدول بخمسة وخذ ما قبلها من السطح وذلك واحد أثبتة وعلم عليه من البيت ثمانية وأربعين وأسقط واحدا من ثمانية وأربعين للاس الثاني وأضف اليها خمسة الدور الجملة اثنان وخمسون ادخل بها في صدر الجدول تقف على حرف ب عبارية وهي مرتبة مئينية لتزايد العدد فتكون مائتين وهي حرف راء أثبتها وعلم عليها من القصيد أربعة وعشرين فانتقل الامر من ستة وتسعين الى الابتداء وهو أربعة وعشرون فاضف الى أربعة وعشرين خمسة الدور وأسقط واحدا تكون الجملة ثمانية وعشرين ادخل بالنصف منها في بيت القصيد تقف على ثمانية أثبت اثنين وعلم عليها وضع الدور التاسع وعدده ثلاثة عشر الباقي واحد صعد في ضلع ثمانية بواحد وليست نسبة العمل هنا كنسبتها في الدور السادس لتضاعف العدد ولانه من النشأة الثانية ولانه أول الثلث الثالث من مربعات البروج وآخر الستة الرابعة من

المثلثات فاضرب ثلاثة عشر التي للدور في أربعة التي هي مثلثات البروج السابقة الجملة اثنان وخمسون ادخل بها في صدر الجدول تقف على حرف اثنين غبارية وانما هي مئيتية لتجاوزها في العدد عن مرتبة الآحاد والعشرات فأثبت مائتين راء وعلم عليها من بيت القصيد ثمانية وأربعين وأضف الى ثلاثة عشر الدور واحد الاس وادخل باربعة عشر في بيت القصيد تبلغ ثمانية فعلم عليها ثمانية وعشرين واطرح من أربعة عشر سبعة يبقى سبعة اضرب على حرفين من الاوتار وادخل بسبعة تقف على حرف لام أثبتة وعلم عليه من البيت وضع الدور العاشر وعدده تسعة وهذا ابتداء المثلثة الرابعة واصعد في ضلع ثمانية بتسعة تكون خلاء فاصعد بتسعة ثانية تصير في السابع من الابتداء اضرب تسعة في أربعة لصعودنا بتسعين وانما كانت تضرب في اثنين وادخل في الجدول ستة وثلاثين تقف على أربعة زمامية وهي عشرية فأخذناها أحادية لقلة الادوار فأثبت حرف دال وان أضفت الى ستة وثلاثين واحد الاس كان حدها من بيت القصيد فعلم عليها ولو دخلت بالتسعة لاغير من غير ضرب في صدر الجدول لوقف على ثمانية فاطرح من ثمانية أربعة الباقي أربعة وهو المقصود ولو دخلت في صدر الجدول بثمانية عشر التي هي تسعة في اثنين لوقف على واحد زماعي وهو عشرة فاطرح منه اثنين تكرر التسعة الباقي ثمانية نصفها المطلوب ولو دخلت في صدر الجدول بسبعة وعشرين بضرها في ثلاثة لوقعت على عشرة زمامية والعمل واحد ثم ادخل بتسعة في بيت القصيد وأثبت ماخرج وهو ألف ثم اضرب تسعة في ثلاثة التي هي مركب تسعة الماضية وأسقط واحداً وادخل في صدر الجدول بستة وعشرين وأثبت ماخرج وهو مائتان بحرف راء وعلم عليه من بيت القصيد ستة وتسعين واضرب على حرفين من الاوتار وضع الدور الحادي عشر وله سبعة عشر الباقي خمسة اصعد في ضلع ثمانية بخمسة ونحسب ما تكرر عليه المشي في الدور الاول وادخل في صدر الجدول بخمسة تقف على خال نخذ ما قبله من السطح وهو واحد فادخل بواحد في بيت القصيد تكن سين أثبتة وعلم عليها أربعة ولو يكون الوقف في الجدول على بيت عامر لأثبتنا الواحد ثلاثة وأضعف سبعة عشر بمثلها وأسقط واحداً وأضعفها بمثلها وزدها أربعة تبلغ سبعة وثلاثين ادخل بها في الاوتار تقف على ستة أثبتها وعلم عليها وأضعف خمسة بمثلها وادخل في البيت تقف على لام أثبتها وعلم عليها عشرين واضرب على حرفين من الاوتار وضع الدور الثاني عشر وله ثلاثة عشر الباقي واحد اصعد في ضلع ثمانية بواحد وهذا الدور آخر الادوار وآخر الاختراعين وآخر المربعات الثلاثية وآخر المثلثات الرباعية والواحد في صدر الجدول يقع على ثمانين زمامية وانما هي آحاد ثمانية وليس معنا من الادوار الا واحد فلو زاد عن أربعة من مربعات اثني عشر أو ثلاثة من مثلثات اثني عشر لكانت ح وانما هي

د ثابتهما وعلم عليها من بيت القصيد أربعة وسبعين ثم انظر ماناسبها من السطح تكن خمسة
أضعفها بمثلها للاس تبلغ عشرة أثبت ي وعلم عليها وانظر في أى المراتب وقعت وجدناها في
الرابعة دخلنا بسبعة في حروف الاوتار وهذا المدخل يسمى التوليد الحرفي فكانت ف أثبتنا
وأضف الى سبعة واحد الدور الجملة ثمانية ادخل بها في الاوتار تبلغ س اثبتنا وعلم عليها ثمانية
واضرب ثمانية في ثلاثة الزائدة على عشرة الدور فلها آخر مربعات الادوار بالمثلثات تبلغ
أربعة وعشرين ادخل بها في بيت القصيد وعلم على ما يخرج منها وهو مائتان وعلامتها ستة وتسعون
وهو نهاية الدور الثاني في الادوار الحرفية واضرب على حرفين من الاوتار وضع النتيجة الاولى
وعلمنا تسعة وهذا العدد يناسب ابداً الباقي من حروف الاوتار بعد طرحها أدواراً وذلك تسعة
فاضرب تسعة في ثلاثة التي هي زائدة على تسعين من حروف الاوتار وأضف لها واحداً الباقي من
الدور الثاني عشر تبلغ ثمانية وعشرين فادخل بها في حروف الاوتار تبلغ ألف أثبتنا وعلم عليه
ستة وتسعين وان ضربت سبعة التي هي أدوار الحروف التسعينية في أربعة وهي الثلاثة الزائدة على
تسعين والواحد الباقي من الدور الثاني عشر كان كذلك واصعد في ضلع ثمانية بتسعة وادخل في
الجدول بتسعة تبلغ اثنين زمامية واضرب تسعة فيما تناسب من السطح وذلك ثلاثة وأضف لذلك سبعة
عدد الاوتار الحرفية واطرح واحداً الباقي من دور اثني عشر تبلغ ثلاثة وثلاثين ادخل بها
في البيت تبلغ خمسة فأثبتنا وأضعف تسعة بمثلها وادخل في صدر الجدول بثمانية عشر وخذ
مافي السطح وهو واحد ادخل به في حروف الاوتار تبلغ م اثبتنا وعلم عليه واضرب على حرفين
من الاوتار وضع النتيجة الثانية ولها سبعة عشر الباقي خمسة فاصعد في ضلع ثمانية بخمسة واضرب
خمسة في ثلاثة الزائدة على تسعين تبلغ خمسة عشر أضف لها واحداً الباقي من الدور الثاني عشر
تكن تسعة وادخل بستة عشر في بيت القصيد تبلغ ت اثبتنا وعلم عليه أربعة وستين وأضف
الى خمسة الثلاثة الزائدة على تسعين وزد واحداً الباقي من الدور الثاني عشر يكن تسعة ادخل
بها في صدر الجدول تبلغ ثلاثين زمامية وانظر مافي السطح تجد واحداً أثبتنا وعلم عليه من
بيت القصيد وهو التاسع أيضاً من البيت وادخل بتسعة في صدر الجدول تقف على ثلاثة وهي
عشرات فأثبت لام وعلم عليه وضع النتيجة الثالثة وعددها ثلاثة عشر الباقي واحد فانقل في
ضلع ثمانية بواحد وأضف الى ثلاثة عشر الثلاثة الزائدة على التسعين وواحد الباقي من الدور
الثاني عشر تبلغ سبعة عشر وواحد النتيجة تكن ثمانية عشر ادخل بها في حروف الاوتار تكن
لاما أثبتنا فهذا آخر العمل والمثال في هذا السؤال السابق أردنا أن نعلم أن هذه الزايرة علم
بمحدث أو قديم بطالع أول درجة من القوس أثبتنا حروف الاوتار ثم حروف السؤال ثم الاصول
وهي عدة الحروف ثلاثة وتسعون أدوارها سبعة الباقي منها تسعة الطالع واحد سلطان القوس

أربعة الدور الأكبر واحد درج الطالع مع الدور اثنان ضرب الطالع مع الدور في السلطان
ثمانية اضافة السلطان للطالع خمسة بيت القصيد

سؤال عظيم الخلق حزت فصن اذن * غرائب شك ضبطه الجدد مثلاً

حروف الاوتار ص ط ه ر ث ك ه م ص ص و ن ب ه س ا ن ل م ن ص ع ف ص و
ر س ك ل م ن س ع ف ض ق ر س ت ث خ ذ ظ غ ش ط ي ع ح ص ر و ح ر و ح
ل ص ك ل م ن ص ا ب ج د ه و ز ح ط ي

حروف السؤال * ال ز ا ي ر ج ت ع ل م م ح د ث ا م ق د ي م
الدور الاول ٩ الدور الثاني ١٧ الباقي ٥ الدور الثالث ١٣ الباقي ١ الدور الرابع ٩ الدور الخامس
١٧ الباقي ٥ الدور السادس ١٣ الباقي ١ الدور السابع ٩ الدور الثامن ١٧ الباقي ٥ الدور التاسع
١٣ الباقي ١ الدور العاشر ١٣ الدور الحادي عشر ١٧ الباقي ٥ الدور الثاني عشر ١٣ الباقي ١
النتيجة الاولى ٩ النتيجة الثانية ١٧ الباقي ٥ النتيجة الثالثة ١٣ الباقي ١

ه ع ح و ع ع ٢ ا ي ع

ف

١٦	ت	١	س
١٧	ف	٢	و
١٨	ص	٣	ا
١٩	ن	٤	ل
٢٠	ا	٥	ع
٢١	ذ	٦	ظ
٢٢	ن	٧	ي
٢٣	غ	٨	م
٢٤	ر	٩	ا
٢٥	ا	١٠	ل
٢٦	ي	١١	خ
٢٧	ب	١٢	ل
٢٨	ش	١٣	ق
٢٩	ك	١٤	ح
٣٠	ض	١٥	ز

٣٦	ج	٣١	ب
٣٧	د	٣٢	ط
٣٨	م	٣٣	هـ
٣٩	ث	٣٤	ا
٤٠	ل	٣٥	ل

٤١

ف وزاوس ر ر اس ا ب ا ر ق ا ع ا ر ص ح ر ح ل د ا ر س ا ل د ي و س ر
ا د م ن ا ل ل

دورها على خمسة وعشرين ثم على ثلاثة وعشرين مرتين ثم على واحد وعشرين مرتين الى
أن تنهى الى الواحد من آخر اليت وتنقل الحروف جميعا والله أعلم
ن ف ر و ح ر و ح ا ل و د س ا د ر ر س ر ه ا ل د ر ي س و ا ن س د ر و ا ب ل ا م
ر ب و ا ل ع ل ل هذا آخر الكلام في استخراج الاجوبة من زاي رجة العالم منظومة وللقوم
طرائق أخرى من غير الزاي رجة يستخرجون بها أجوبة المسائل غير منظومة وعندهم ان السر
في استخراج الجواب منظوما من الزاي رجة انما هو مزجهم بيت مالك بن وهيب وهو * سؤال
عظيم الخلق اليت ولذلك يخرج الجواب على رويه وأما الطرق الأخرى فيخرج الجواب
غير منظوم فمن طرائقهم في استخراج الاجوبة مانقله عن بعض المحققين منهم

فصل في الاطلاع على الاسرار الخفية من جهة الارتباطات الحرفية

اعلم أرشدنا الله وإياك ان هذه الحروف أصل الاسئلة في كل قضية وانما تستنتج الاجوبة
على تجزئته بالكلية وهي ثلاثة وأربعون حرفاً كما تري والله علام الغيوب ا و ل ا ع ظ س
ا ل م خ ي د ل ز ق ت ا ر ذ ص ف ن غ ش ا ك ي ب م ض ب ح ط ل ج ه د ن
ل ث ا و قد نظمنا بعض الفضلاء في بيت جعل فيه كل حرف مشدد من حرفين وسماه القطب فقال
سؤال عظيم الخلق حزت فصن اذن * غرائب شك ضبطه الجدم مثلاً

فاذا أردت استنتاج المسئلة فاحذر ماتكرر من حروفها وأثبت ما فضل منه ثم احذف من
الاصل وهو القطب لكل حرف فضل من المسئلة حرفاً يماثله وأثبت ما فضل منه ثم امزج
الفضلين في سطر واحد تبدأ بالاول من فضله والثاني من فضل المسئلة وهكذا الى ان يتم
الفضلان أو ينفذ أحدهما قبل الآخر فتضع البقية على ترتيبها فاذا كان عدد الحروف الخارجة
بعد المزج موافقاً لعدد حروف الاصل قبل الحذف فالعمل صحيح فيئذ تضيف اليها خمس

نونات لتعدل بها الموازين الموسيقية وتكمل الحروف ثمانية وأربعين حرفاً فتعمر بها جدولاً مربعاً يكون آخر ما في السطر الأول أول ما في السطر الثاني وتقل البقية على حالها وهكذا إلى أن تتم عمارة الجدول ويعود السطر الأول بعينه وتتوالي الحروف في القطر على نسبة الحركة ثم تخرج وتر كل حرف بقسمة مربعة على أعظم جزء يوجد له وتضع الوتر مقابلاً لحرفه ثم تستخرج النسب العنصرية للحروف الجدولية وتعرف قوتها الطبيعية وموازينها الروحانية وغرائرها النفسانية وأسسها الأصلية من الجدول الموضوع لذلك وهذه صورته

ثم تأخذ وتر كل حرف بعد ضربه في أسوس أوتاد الفلك الأربعة واحذر ما يلي الأوتاد وكذلك السواقط لأن نسبتها مضطربة وهذا الخارج هو أول رتب السريان ثم تأخذ مجموع العناصر وتحط منها أسوس المولدات يبقى أس عالم الخلق بعد عروضة للمدد الكونية فتحمل عليه بعض المجردات عن المواد وهي عناصر الامداد يخرج أفق النفس الاوسط وتطرح أول رتب السريان من مجموع العناصر يبقى عالم التوسط وهذا مخصوص بعوالم الاكوان البسيطة لا المركبة ثم تضرب عالم التوسط في أفق النفس الاوسط يخرج الأفق الاعلى فتحمل عليه أول رتب السريان ثم تطرح من الرابع أول عناصر الامداد الاصلى يبقى ثالث رتبة السريان فتضرب مجموع أجزاء العناصر الأربعة أبداً في رابع مرتبة السريان يخرج أول عالم التفصيل والثاني في الثاني يخرج ثاني عالم التفصيل والثالث في الثالث يخرج ثالث عالم التفصيل والرابع في الرابع يخرج رابع عالم التفصيل فتجمع عوالم التفصيل وتحط من عالم الكل تبقى العوالم المجردة فتقسم على الأفق الأعلى يخرج الجزء الأول ويقسم المنكسر على الأفق الاوسط يخرج الجزء الثاني وما انكسر فهو الثالث ويتعين الرابع هذا في الرباعي وإن شئت أكثر من الرباعي فتستكثر من عوالم التفصيل ومن رتب السريان ومن الاوراق بمد الحروف والله يرشدنا وإياك وكذلك اذا قسم عالم التجريد على أول رتب السريان خرج الجزء الأول من عالم التركيب وكذلك إلى نهاية الرتبة الأخيرة من عالم الكون فافهم وتدبر والله المرشد المعين * ومن طريقهم أيضاً في استخراج الجواب قال بعض المحققين منهم اعلم أيدينا الله وإياك بروح منه أن علم الحروف جليل يتوصل العالم به لما لا يتوصل بغيره من العلوم المتداولة بين العالم والعمل به شرائط تلتزم وقد يستخرج العالم أسرار الخليقة وسرائر الطبيعة فيطلع بذلك على نتيجتي الفلسفة أعنى السيمياء وأختها ويرفع له حجاب الجهولات ويطلع بذلك على مكنون خبايا القلوب وقد شهدت جماعة بارض

المغرب ممن اتصل بذلك فأظهر الغرائب وخرق العوائد وتصرف في الوجود بتأييد الله * واعلم
أن ملاك كل فضيلة الاجتهاد وحسن الملكة مع الصبر مفتاح كل خير كأن الحرق والعجلة رأس
الحرمان فاقول اذا أردت أن تعلم قوة كل حرف من حروف الفايبوس أعني أبجد الى آخر
العدد وهذا أول مدخل من علم الحروف فانظر مالذلك الحرف من الاعداد فلك الدرجة التي
هي مناسبة للحروف هي قوته في الجسمانيات ثم اضرب العدد في مثله فخرج لك قوته في الروحانيات
وهي وتره وهذا في الحروف المنقوطة لا يتم بل يتم لغير المنقوطة لان المنقوطة منها مراتب لمعان
يأتي عليها البيان فيما بعد واعلم أن لكل شكل من أشكال الحروف شكلا في العالم العلوي أعني الكرسي
ومنها المتحرك والساكن والعلوي والسفلي كما هو مرقوم في أما كنه من الجداول الموضوعة في
الزيارج واعلم أن قوى الحروف ثلاثة أقسام * الاول وهو أقامه قوة تظهر بعد كتابتها فتكون كتابته
لعالم روحاني مخصوص بذلك الحرف المرسوم فتخرج ذلك الحرف بقوة نفسانية وجمع همة
كانت قوى الحروف مؤثرة في عالم الاجسام * الثاني قوتها في الهيئة الفكرية وذلك ما يصدر عن
تصريف الروحانيات لها فهي قوة في الروحانيات العلويات وقوة شكلية في عالم الجسمانيات * الثالث
وهو ما يجمع الباطن أعني القوة النفسانية علي تكوينه فتكون قبل النطق به صورة في النفس
وبعد النطق به صورة في الحروف وقوة في النطق وأما طبائعها فهي الطبيعيات المنسوبة
للمتولدات في الحروف وهي الحرارة واليبوسة والحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة والبرودة
والرطوبة فهذا سر العدد الثاني والحرارة جامعة للهواء والنار وهما ه ط م ف ش
ذ ج ز ك س ق ث ظ والبرودة جامعة للهواء والماء ب و ي ن ص ت ض د ح ل ع ر
خ غ واليبوسة جامعة للنار والارض ه ط م ف ش ذ ب و ي ن ص ت ض فهذه نسبة
حروف الطبائع وتداخل أجزاء بعضها في بعض وتداخل أجزاء العالم فيها علويات وسفليات
باسباب الامهات الاول أعني الطبائع الاربع المنفردة فتخرج استخراجه مجهول من مسئلة ما
حقق طالع السائل أو طالع مسئلته واستنطق حروف أوتادها الاربعة الاول والرابع
والسابع والعاشر مستوية مرتبة واستخرج أعداد القوي والاولاد كما سنين واحمل وانسب
واستنتج الجواب يخرج لك المطلوب اما بصريح اللفظ أو بلمعني وكذلك في كل مسئلة تقع لك
بيانه اذا أردت أن تستخرج قوى حروف الطالع مع اسم السائل والحاجة فاجمع أعدادها
بالجمل الكبير فكان الطالع الحمل رابعة السرطان سابعة الميزان عشرة الجدي وهو أقوى هذه
الاولاد فاسقط من كل برج حرفي التعريف وانظر ما يخص كل برج من الاعداد المنطقية الموضوعة
في دائرتها واحذف أجزاء الكسر في النسب الاستطاقية كلها وأثبت تحت كل حرف ما يخصه
من ذلك ثم أعداد حروف العناصر الاربعة وما يخصها كالاول وارسم ذلك كله أحرفا ورتب

الأوتاد والقوي والقرائن سطرًا متمزجا واكسر واضرب ما يضرب لاستخراج الموازين واجمع واستنتج الجواب يخرج لك الضمير وجوابه مثاله افرض أن الطالع الحمل كما تقدم ترسم ح م ل فللحاء من العدد ثمانية لها النصف والرابع والثلث د ب ا الميم لها من العدد أربعون لها النصف والرابع والثلث والعشر ونصف العشر اذا أردت التدقيق م ك ي ه د ب اللام لها من العدد ثلاثون لها النصف والثلثان والثلث والخمس والسادس والعشر ك ي و ه ج وهكذا تفعل بسائر حروف المسئلة والاسم من كل لفظ يقع لك * وأما استخراج الأوتاد فهو أن تقسم مربع كل حرف على أعظم جزء يوجد له مثاله حرف د له من الأعداد أربعة مربعها ستة عشر اقسمها على أعظم جزء يوجد لها وهو اثنان يخرج وتر الدال ثمانية ثم تضع كل وتر مقابلا لحرفه ثم تستخرج النسب العنصرية كما تقدم في شرح الاستنطاق ولها قاعدة تطرد في استخراجها من طبع الحروف وطبع البيت الذي يحل فيه من الجدول كما ذكر الشيخ لمن عرف الاصطلاح والله أعلم

فصل في الاستدلال على ما في الضمائر الخفية بالقوانين الحرفية

وذلك لو سأل سائل عن عليل لم يعرف مرضه ما علمته وما الموافق لبرئته منه فمر السائل أن يسمى ماشاء من الأشياء على اسم العلة المجهولة لنجعل ذلك الاسم قاعدة لك ثم استنطق الاسم مع اسم الطالع والعناصر والسائل واليوم والساعة ان أردت التدقيق في المسئلة والا اقتصرت على الاسم الذي سماه السائل وفعلت به كما نبين فأقول مثلاً سمي السائل فرساً فأثبت الحروف الثلاثة مع أعدادها المنطقة (بيانه) ان للفاء من العدد ثمانين ولها م ك ي ح ب ثم انراء لها من العدد مائتان ق ن ك ي ثم السين لها من العدد ستون ولها م ل ك فالواو عدد تام له د ج ب والسين مثله ولها م ل ك فاذا بسطت حروف الاسماء وجدت عنصرين متساويين فاحكم لاكثرهما حروفاً بالغلبة على الآخر ثم احمل عدد حروف عناصر اسم المطلوب وحروفه دون بسط وكذلك اسم الطالب واحكم للاكثر والاقوى بالغلبة
وصفة قوي استخراج العناصر

فتكون الغلبة هنا للتراب وطبعه البرودة واليبوسة طبع السوداء فتحكم على المريض بالسوداء فاذا ألفت من حروف الاستنطاق كلاماً على نسبة تقريبية خرج موضع الوجع في الحلق ويوافق من الادوية حقنة ومن الاشربة شراب الليمون هذا ماخرج من قوى أعداد حروف اسم فرس وهو مثال تقريبي مختصر* وأما استخراج قوى العناصر من الاسماء العلمية فهو أن تسمي مثلاً محمداً فترسم أحرفه مقطعة ثم تضع أسماء العناصر الأربعة على ترتيب الفلك يخرج لك ما في كل عنصر من الحروف والعدد ومثاله

ناري	ترابي	هوائي	مائي
ا ا ا	ب ب ب	ج ج ج ج ج ج ج	د د د د د د د
ه ه ه	و و و	ز ز ز ز ز ز ز	ح ح ح ح ح ح ح
ط ط ط	ي ي ي	ك ك ك ك ك ك ك	ل ل ل ل ل ل ل
م م م	ن ن ن	ص ص ص ص ص ص ص	ع ع ع ع ع ع ع
ف ف ف	ض ض ض	ق ق ق ق ق ق ق	ر ر ر ر ر ر ر
س س س	ت ت ت	ث ث ث ث ث ث ث	خ خ خ خ خ خ خ
ذ ذ ذ	ظ ظ ظ	غ غ غ غ غ غ غ	ش ش ش ش ش ش ش

فنجد أقوى هذه العناصر من هذا الاسم المذكور عنصر الماء لان عدد حروفه عشرون حرفاً فجعلت له الغلبة على بقية عناصر الاسم المذكور وهكذا يفعل بجميع الاسماء حينئذ تضاف الى أوتارها أو للوتر المنسوب للطلع في الزايرة أو للوتر البيت المنسوب للملك بن وهيب الذي جعله قاعدة المزج الاسئلة وهو هذا

سؤال عظيم الخاق حزت فصن اذن * غرائب شك ضبطه الجدد مثلاً وهو وتر مشهور لاستخراج المجهولات وعليه كان يعتمد ابن الرقام وأصحابه وهو عمل تام قائم بنفسه في المثالات الوضعية وصفة العمل بهذا الوتر المذكور أن ترسمه مقطعاً ممتزجاً بألفاظ السؤال على قانون صنعة التكسير وعدة حروف هذا الوتر أعنى البيت ثلاثة وأربعون حرفاً لان كل حرف مشدد من حرفين ثم تحذف ما تكرر عند المزج من الحروف ومن الاصل لكل حرف فضل من المسئلة حرفاً يماثله وتثبت الفضلين سطراً ممتزجاً ببعضه ببعض الحروف الاول من فضلة القطب والثاني من فضلة السؤال حتى يتم الفضلتان جميعاً فتكون ثلاثة وأربعين فتضيف اليها خمس نونات ليكون ثمانية وأربعين لتعدل بها الموازين الموسيقية ثم تضع الفضلة على ترتيبها فان كان عدداً للحروف الخارجة بعد المزج يوافق العدد الأصلي قبل الحذف فالعمل صحيح ثم عمر بما مزجت جدولاً مربعات يكون آخر ما في السطر الاول أول ما في السطر

الثاني وعلى هذا النسق حتى يعود السطر الاول بعينه وتتوالى الحروف في القطر على نسبة الحركة ثم تخرج وتر كل حرف كما تقدم وتضعه مقابلا لحرفه ثم تستخرج النسب العنصرية للحروف الجدولية تعرف قوتها الطبيعية وموازينها الروحانية وغلزها النفسانية وأسوسها الاصلية من الجدول الموضوع لذلك وصفة استخراج النسب العنصرية هو أن تنظر الحرف الاول من الجدول ماطيعته وطبيعة البيت الذي حل فيه فان اتفقت فحسن والا فاستخرج بين الحرفين نسبة ويتسع هذا القانون في جميع الحروف الجدولية وتحقيق ذلك سهل على من عرف قوانينه كما هو مقرر في دوائرها الموسيقية ثم تأخذ وتر كل حرف بعد ضربه في أسوس أوتاد الفلك الاربعة كما تقدم واحذر مايلي الأوتاد وكذلك السواقط لان نسبتها مضطربة وهذا الذي يخرج لك هو أول مراتب السريان ثم تأخذ مجموع العناصر وتحط منها أسوس المولدات يبقى أس عالم الخلق بعد عروضه لامتداد الكونية فتحمل عليه بعض المجردات عن المواد وهي عناصر الامداد يخرج أفق النفس الاوسط وتطرح أول رتب السريان من مجموع العناصر يبقى عالم التوسط وهذا مخصوص بعوالم الاكوان البسيطة لا المركبة ثم تضرب عالم التوسط في أفق النفس الاوسط يخرج الافق الاعلى فتحمل عليه أول رتب السريان ثم تطرح من الرابع أول عناصر الامداد الاصلى يبقى ثالث رتبة السريان ثم تضرب مجموع أجزاء العناصر الاربعة أبدا في رابع رتب السريان يخرج أول عالم التفصيل والثاني في الثاني يخرج ثاني عالم التفصيل وكذلك الثالث والرابع فتجمع عوالم التفصيل وتحط من عالم الكل تبقى العوالم المجردة فتقسم على الافق الاعلى يخرج الجزء الاول ومن هنا يطرد العمل في التامة وله مقامات في كتب ابن وحشية والبوني وغيرها وهذا التدير يجري على القانون الطبيعي الحكيم في هذا الفن وغيره من فنون الحكمة الالهية وعليه مدار وضع الزيارج الحرفية والصنعة الالهية والنيرجات الفلسفية والله الملمهم وبه المستعان وعليه التكلان وحسبنا الله ونعم الوكيل

(علم الكيمياء) ٢٤

وهو علم ينظر في المادة التي يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة ويشرح العمل الذي يوصل الى ذلك فيتصفحون المكونات كلها بعد معرفة أمزجتها وقواها لعلمهم يعثرون على المادة المستعدة لذلك حتي من الفضلات الحيوانية كالعظام والريش والبيض والعذرات فضلا عن المعادن ثم يشرح الاعمال التي تخرج بها تلك المادة من القوة الى الفعل مثل حل الاجسام الى أجزائها الطبيعية بالتصعيد والتقطير وجمد الذائب منها بالتكليس وامهء الصلب بالفهر والصلابة وأمثال لك وفي زعمهم انه يخرج بهذه الصناعات كلها جسم طبيعي يسمونه الاكسير وانه يلقي منه

على الجسم المعدني المستعد لقبول صورة الذهب أو الفضة بالاستعداد القريب من الفعل مثل الرصاص والقصدير والنحاس بعد أن يحمى بالنار فيعود ذهباً ابريزاً ويكتنون عن ذلك الاكسير اذا الغزوا اصطلاحاتهم بالروح وعن الجسم الذي يلقي عليه بالجسد فشرح هذه الاصطلاحات وصورة هذا العمل الصناعي الذي يقاب هذه الاجساد المستعدة الى صورة الذهب والفضة هو علم الكيمياء وما زال الناس يؤلفون فيها قديماً وحديثاً وربما يعزى الكلام فيها الى من ليس من أهلها وإمام المدونين فيها جابر بن حيان حتى أنهم يخصونها به فيسمونها علم جابر وله فيها سبعون رسالة كلها شبيهة بالالغاز وزعموا انه لا يفتح مقفلها الا من أحاط علماً بجميع ما فيها والطغرائي من حكماء المشرق المتأخرين له فيها دواوين ومناظرات مع أهلها وغيرهم من الحكماء وكتب فيها مسلمة الجريطي من حكماء الاندلس كتابه الذي سماه رتبة الحكيم وجعله قريناً لكتابه الآخر في السحر والطلاسمات الذي سماه غاية الحكيم وزعم أن هاتين الصناعتين هما نتيجتان للحكمة ونمرتان للعلوم ومن لم يقف عليهما فهو فاقد ثمرة العلم والحكمة أجمع وكلامه في ذلك الكتاب وكلامهم أجمع في تأليفهم هي الغايات يعمدز فهمها على من لم يعان اصطلاحاتهم في ذلك * ونحن نذكر سبب عدولهم الى هذه الرموز والالغاز ولابن المغيرة من أئمة هذا الشأن كلمات شعرية على حروف المعجم من أبدع ما يحى في الشعر مغفورة كلها لغز الاحاجي والمعاينة فلا تكاد تفهم وقد ينسبون للغز الى رحمه الله بعض التآليف فيها وليس بصحيح لان الرجل لم تكن مداركه العالية لتقف عن خطاها يذهبون اليه حتى يتحلله وربما نسبوا بعض المذاهب والاقوال فيها لخالد بن يزيد بن معاوية ربيب مروان بن الحكم ومن المعلوم اليين ان خالداً من الحيل العربي والبدواة اليه أقرب فهو بعيد عن العلوم والصنائع بالجملة فكيف له بصناعة غريبة المنجي مبنية على معرفة طبائع المركبات وأزجتها وكتب الناظرين في ذلك من الطبيعيات والطب لم تظهر بعد ولم تترجم اللهم الا أن يكون خالد بن يزيد آخر من أهل المدارك الصناعية تشبه باسمه فمكن * وأنا أنقل لك هنا رسالة أبي بكر بن بشرون لابي السمع في هذه الصناعة وكلاهما من تلميذ مسلمة فيستدل من كلامه فيها على مذهب اليه في شأنها اذا أعطيته حقه من التأمل * قال ابن بشرون بعد صدر من الرسالة خارج عن الغرض والمقدمات التي لهذه الصناعة الكريمة قد ذكرها الاولون واقتص جميعها أهل الفلاسفة من معرفة تكوين المعادن وتخليق الاحجار والجواهر وطباع البقاع والاماكن فنحننا اشتهاها من ذكرها ولكن أبين لك من هذه الصنعة ما يحتاج اليه فبدأ بمعرفته فقد قالوا ينبغي لطلاب هذا العلم أن يعلموا أولاً ثلاث خصال أولها هل تكون والثانية من أي تكون والثالثة من أي كيف تكون فاذا عرف هذه الثلاثة وأحكمها فقد ظفر بمطلوبه وبلغ نهايته من هذا العلم فأما البحث

عن وجودها والاستدلال عن تكونها فقد كفيينا كما بما بعثنا به اليك من الاكسيرا واما من أي شيء تكون فانما يريدون بذلك البحث عن الحجر الذي يمكنه العمل وان كان العمل موجوداً من كل شيء بالقوة لانها من الطبائع الاربع منها تركبت ابتداء واليها ترجع انتهاء ولكن من الاشياء ما يكون فيه بالقوة ولا يكون بالفعل وذلك ان منها ما يمكن تفصيلها ومنها ما لا يمكن تفصيلها فالتى يمكن تفصيلها تعالج وتدبر وهى التى تخرج من القوة الى الفعل والتى لا يمكن تفصيلها لا تعالج ولا تدبر لانها فيها بالقوة فقط وانما لم يمكن تفصيلها لاستغراق بعض طبائعها في بعض وفضل قوة الكبير منها على الصغير فينبغي لك وفلك الله أن تعرف أوفق الاحجار المنفصلة التى لا يمكن فيها العمل وجنسها وقوته وعمله وما يدبر من الحل والعقد والتنقية والتكليس والتنشيف والتقليب فان من لم يعرف هذه الاصول التى هي عماد هذه الصنعة لم يحجج ولم يظفر بحجر أبداً* وينبغي لك أن تعلم هل يمكن أن يستعان عليه بغيره أو يكتفى به وحده وهل هو واحد في الابتداء أو شاركه غيره فصار في التدبير واحداً فسمى حجراً وينبغي لك أن تعلم كيفية عمله وكمية اوزانه وأزمانه وكيف تركيب الروح فيه وادخال النفس عليه وهل تقدر النار على تفصيلها منه بعد تركيبها فان لم تقدر فلاي علة وما السبب الموجب لذلك فان هذا هو المطلوب فافهم* واعلم أن الفلاسفة كلها مدحت النفس وزعمت انها المدبرة للجسد والحاملة له والدافعة عنه والفاعلة فيه وذلك ان الجسد اذا خرجت النفس منه مات وبرد فلم يقدر على الحركة والامتاع من غيره لانه لاحياة فيه ولا نور وانما ذكرت الجسد والنفس لان هذه الصفات شبيهة بجسد الانسان الذي تركيبه على الغذاء والعشاء وقوامه وتماؤه بالنفس الحية النورانية التى بها يفعل العظام والاشياء المتقابلة التى لا يقدر عليها غيرها بالقوة الحية التى فيها وانما افعل الانسان لاختلاف تركيب طبائعه ولو اتفقت طبائعه لسلمت من الاعراض والتضاد ولم تقدر النفس على الخروج من بدنه ولكن خالداً باقياً فسبحان مدبر الاشياء تعالى* واعلم أن الطبائع التى يحدث عنها هذا العمل كيفية دافعة في الابتداء فيضية محتاجة الى الانتهاء وليس لها اذا صارت في هذا الحد أن تستحيل الى مائه تركبت كما قلناه آنفاً في الانسان لان طبائع هذا الجوهر قد لزم بعضها بعضاً وصارت شيئاً واحداً شبيهاً بالنفس في قوتها وفعلها وبالجسد في تركيبه ومجسسته بعد أن كانت طبائع مفردة باعينها فيا عجباً من أفاعيل الطبائع ان القوة للضعيف الذي يقوى على تفصيل الاشياء وتركيبها وتماؤها فلذلك قلت قوى وضعيف وانما وقع التغيير والفناء في التركيب الاول للاختلاف وعدم ذلك في الثاني للاتفاق وقد قال بعض الاولين التفصيل والتقطيع في هذا العمل حياة وبقاء والتركيب موت وفناء وهذا الكلام دقيق المعنى لان الحكميم أراد بقوله حياة وبقاء خروجه من العدم الى الوجود لانه مادام على

تركيبه الاول فهو فان لاحالة فاذا ركب التركيب الثاني عدم الفناء والتركيب الثاني لا يكون الا بعد التفصيل والتقطيع فاذا التفصيل والتقطيع في هذا العمل خاصة فاذا بقي الجسد المحلول انبسط فيه لعدم الصورة لانه قد صار في الجسد بمنزلة النفس التي لاصورة لها وذلك أنه لا وزن له فيه وسرى ذلك ان شاء الله تعالى * وقد ينبغي لك أن تعلم أن اختلاط اللطيف باللطيف أهون من اختلاط الغليظ بالغليظ وانما أريد بذلك التشاكل في الارواح والاجساد لان الاشياء متصل باشكالها وذكرت لك ذلك لتعلم أن العمل أوفق وأيسر من الطبائع اللطائف الروحانية منها من الغليظة الجسمانية وقد يتصور في العقل أن الاحجار أقوى وأصبر على النار من الارواح كما ترى الذهب والحديد والنحاس أصبر على النار من الكبريت والزئبق وغيرها من الارواح فاقول ان الاجساد قد كانت ارواحا في بدنها فلما أصابها حر الكيان قلبها اجسادا لزجة غليظة فلم تقدر النار على أكلها لافراط غلظها وتزججها فاذا أفرطت النار عليها صيرتها ارواحا كما كانت أول خلقها وان تلك الارواح اللطيفة اذا أصابتها النار أبقت ولم تقدر على البقاء عليها فينبغي لك أن تعلم ماصير الاجساد في هذه الحالة وصير الارواح في هذا الحال فهو أجل ما تعرفه * أقول انما أبقت تلك الارواح لاشتغالها ولطافتها وانما اشتعلت لكثرة رطوبتها ولان انثار اذا أحسنت بالرطوبة تعلقت بها لانها هوائية تشاكل النار ولا تزال تغذي بها الى أن تفني وكذلك الاجساد اذا أحست بوصول النار اليها لقلّة تزججها وغلظها وانما صارت تلك الاجساد لا تشتعل لانها مركبة من أرض وماء صابر على النار فلطيفه متحد بكشفه لطول الطبخ اللين الممازج للاشياء وذلك أن كل متلاش انما يتلاشى بالنار لمفارقة لطيفة من كثيفة ودخول بعضه في بعض على غير التحليل والموافقة فصارت ذلك الانضمام والتداخل مجاورة لا تمازجة فسهل بذلك افتراقهما كالماء والدهن وما أشبههما وانما وصفت ذلك لتستدل به على تركيب الطبائع وتقابلها فاذا علمت ذلك علما شافياً فقد أخذت حظك منها وينبغي لك أن تعلم ان الاختلاط التي هي طبائع هذه الصناعة موافقة بعضها لبعض مفصلة من جوهر واحد يجمعها نظام واحد بتدبير واحد لا يدخل عليه غريب في الجزء منه ولا في الكل كما قال الفيلسوف انك اذا أحكمت تدبير الطبائع وتأليفها ولم تدخل عليها غريباً فقد أحكمت ما أردت احكامه وقوامه اذ الطبيعة واحدة لا غريب فيها فمن أدخل عليها غريباً فقد زاع عنها ووقع في الخطأ * واعلم أن هذه الطبيعة اذا حل لها جسد من قرائنها على ما ينبغي في الحل حتي يشاكلها في الرقة واللاطافة انبسطت فيه وجرت معه حينما جرى لان الاجساد مادامت غليظة جافية لا تنبسط ولا تتزواج وحل الاجساد لا يكون بغير الارواح فافهم هداك الله هذا القول * واعلم هداك الله ان هذا الحل في جسد الحيوان هو الحق الذي لا يضمحل ولا ينتقض وهو الذي يقبل

الطبائع ويمسكها ويظهر لها ألواناً وأزهاراً عجيبية وليس كل جسد يحل خلاف هذا الحل التام لانه مخالف للحياة وانما حله بما يوافقها ويدفع عنه حرق النار حتي يزول عن الغلظ وتقلب الطبائع عن حالاتها الى مالها أن تتقلب من الطاقة والغلظ فاذا بلغت الاجساد نهايتها من التحليل والتلطيف ظهرت لها هنالك قوة تمسك وتغوص وتقلب وتنفذ وكل عمل لا يرى له مصداق في أوله فلا خير فيه* واعلم أن البارد من الطبائع هو يبيس الاشياء ويعقد رطوبتها والحر منها يظهر رطوبتها ويعقد يبسها وانما أفردت الحر والبرد لانهما فاعلان والرطوبة واليبس منفعلان وعلى افعال كل واحد منهما لصاحبه تحدث الأجسام وتكون وان كان الحر أكثر فعلا في ذلك من البرد لان البرد ليس له نقل الاشياء ولا تحركها والحر هو علة الحركة ومتي ضعفت علة الكون وهو الحرارة لم يتم منها شيء أبدا كما انه اذا أفرطت الحرارة على شيء ولم يكن ثم برد أحرقتة وأهلكته فمن أجل هذه العلة احتيج الى البارد في هذه الاعمال ليقوي به كل ضد على ضده ويدفع عنه حر النار ولم يحذر الفلاسفة أكثر شيء الا من النيران المحرقة وأمرت بتطهير الطبائع والانفاس واخراج دنسها ورطوبتها ونفي آفاتها وأوساخها عنها على ذلك استقام رأيهم وتدبيرهم فانما عملهم انما هو مع النار أولا واليه يصير آخراً فلذلك قالوا إياكم والنيران المحرقات وانما أرادوا بذلك نفي الآفات التي معها فتجتمع على الجسد آفتين فتكون أسرع هلاكة وكذلك كل شيء انما يتلاشي ويفسد من ذاته لتضاد طبائعه واختلافه فيتوسط بين شيئين فلم يجد ما يقويه وبعينه الاقهرته الآفة وأهلكته* واعلم ان الحكماء كلهم ذكرت تردد الارواح على الاجساد مراراً ليكون أزم اليها وأقوى على قتال النار اذا هي باشرتها عند الالفة أعني بذلك النار العنصرية فاعلمه* ولنقل الآن على الحجر الذي يمكن منه العمل على ما ذكرته الفلاسفة فقد اختلفوا فيه فمنهم من زعم انه في الحيوان ومنهم من زعم انه في النبات ومنهم من زعم انه في المعادن ومنهم من زعم انه في الجميع وهذه الدعاوي ليست بنا حاجة الى استقصائها ومناظرة أهلها عليها لان الكلام يطول جداً وقد قلت فيما تقدم ان العمل يكون في كل شيء بالقوة لان الطبائع موجودة في كل شيء فهو كذلك فزيد ان نعلم من أي شيء يكون العمل بالقوة والفعل فنقصد الى ما قاله الحراني ان الصبغ كله أحد صبغين اما صبغ جسد كالزعفران في الثوب الابيض حتي يحول فيه وهو مضمحل منتقض التركيب والصبغ الثاني تقلب الجوهر من جوهر نفسه الى جوهر غيره ولونه كتقلب الشجر بل التراب الى نفسه وقلب الحيوان والنبات الى نفسه حتي يصير التراب نباتاً والنبات حيواناً ولا يكون الا بالروح الحي والكيان الفاعل الذي له توليد الاجرام وقلب الاعيان فاذا كان هذا هكذا فنقول ان العمل لا بد أن يكون اما في الحيوان واما في النبات وبرهان ذلك انهما مطبوعان على الغذاء

وبه قوامهما وتتامهما فاما النبات فليس فيه ما في الحيوان من اللطافة والقوة ولذلك قل خوض الحكماء فيه وأما الحيوان فهو آخر الاستحالات الثلاث ونهايتها وذلك ان المعدن يستحيل نباتا والنبات يستحيل حيوانا والحيوان لا يستحيل الى شيء هو ألطف منه الا ان ينعكس راجعا الى الغلط وانه أيضا لا يوجد في العالم شيء تتعاق به الروح الحية غيره والروح ألطف ما في العالم ولم تتعاق الروح بالحيوان الا بمشاكلته اياهافأما الروح التي في النبات فانها يسيرة فيها غلط وكثافة وهي مع ذلك مستغرقة كامنة فيه لغلظها وغلظ جسد النبات فلم يقدر على الحركة لغلظها وغلظ روحه والروح المتحركة ألطف من الروح الكامنة كثيرا وذلك ان المتحركة لها قبول الغذاء والتقل والتنفس وليس للكامنة غير قبول الغذاء وحده ولا تجري اذا قيست بالروح الحية الا كالارض عند الماء كذلك النبات عند الحيوان فالعمل في الحيوان أعلى وأرفع وأهون وأيسر فينبغي للعاقل اذا عرف ذلك أن يجرب ما كان سهلا ويترك ما يخشى فيه عسرا * واعلم أن الحيوان عند الحكماء ينقسم أقساماً من الأمهات التي هي الطبائع والحديثة التي هي المواليد وهذا معروف متيسر الفهم فلذلك قسمت الحكماء العناصر والمواليد أقساماً حية وأقساماً ميتة فحلموا كل متحرك فاعلا حيا وكل ساكن مفعولا ميتا وقسموا ذلك في جميع الاشياء وفي الاجساد الذائبة وفي العقاقير المعدنية فسموا كل شيء يذوب في النار ويطير ويشتمل حيا وما كان على خلاف ذلك سموه ميتا فأما الحيوان والنبات فسموا كل ما انفصل منها طبائع أرباعها وما لم ينفصل سموه ميتا ثم انهم طلبوا جميع الاقسام الحية فلم يجدوا لوفق هذه الصناعة مما ينفصل فصولا أربعة ظاهرة للعيان ولم يجدوه غير الحجر الذي في الحيوان فبحثوا عن جنسه حتى عرفوه وأخذوه ودبروه فتكيف لهم منه الذي أرادوا وقديتكيف مثل هذا في المعادن والنبات بعد جمع العقاقير وخلطها ثم تفصل بعد ذلك فاما النبات فنه ما ينفصل ببعض هذه الفصول مثل الاشنان وأما المعادن ففيها أجساد وأرواح وأنفاس اذا مزجت ودبرت كان منها ماله تأثير وقد دبرنا كل ذلك فكان الحيوان منها أعلى وأرفع وتديره أسهل وأيسر فينبغي لك أن تعلم ماهو الحجر الموجود في الحيوان وطريق وجوده انا بينا ان الحيوان أرفع المواليد وكذا ما تركب منه فهو ألطف منه كالنبات من الارض وانما كان النبات ألطف من الارض لانه انما يكون من جوهره الصافي وجسده اللطيف فوجب له بذلك اللطافة والرقة وكذا هذا الحجر الحيواني بمنزلة النبات في التراب وبالجملة فانه ليس في الحيوان شيء ينفصل طبائع أربعا غيره فافهم هذا القول فانه لا يكاد يخفى الا على جاهل بين الجهالة ومن لا عقل له فقد أخبرتك ماهية هذا الحجر وأعامتك جنسه وأنا أبين لك وجوه تدابيريه حتى يكمل الذي شرطناه على أنفسنا من الانصاف ان شاء الله سبحانه (التدبير على بركة الله) خذ الحجر

الكريم فأودعه القرعة والأنيق وفصل طبائعه الاربع التي هي النار والهواء والأرض والماء وهي الجسد والروح والنفس والصبغ فاذا عزلت الماء عن التراب والهواء عن النار فارتفع كل واحد في انائه على حدة وخذ الهابط أسفل الاناء وهو الثفل فاغسله بالنار الحارة حتى تذهب النار عنه سواده ويزول غلظه وجفأؤه وبيضه تبييضاً محكماً ودير عنه فضول الرطوبات المستجنة فيه فانه يصير عند ذلك ماء أبيض لازلمة فيه ولا وسخ ولا تضاد ثم اعمد الى تلك الطبائع الاول الصاعدة منه فطهرها أيضاً من السواد والتضاد وكرر عليها الغسل والتصعيد حتى تلتطف وترق وتصفو فاذا فعلت ذلك فقد فتح الله عليك فابدأ بالتركيب الذي عليه مدار العمل وذلك أن التركيب لا يكون الا بالتزويج والتعفين فأما التزويج فهو اختلاط اللطيف بالغليظ وأما التعفين فهو التمشية والسحق حتى يختلط بعضه ببعض ويصير شيئاً واحداً لا اختلاف فيه ولا نقصان بمنزلة الامتزاج بالماء فعند ذلك يقوى الغليظ على امساك اللطيف وتقوي الروح على مقابلة النار وتصبر عليها وتقوي النفس على الغوص في الاجساد والديب فيها وانما وجد ذلك بعد التركيب لان الجسد المحلول لما ازدوج بالروح مازجه بجميع أجزائه ودخل بعضها في بعض لتشا كلها فصار شيئاً واحداً ووجب من ذلك أن يعرض للروح من الصلاح والفساد والبقاء والثبوت ما يعرض للجسد لموضع الامتزاج وكذلك النفس اذا امتزجت بهما ودخلت فيهما بخدمة التدبير اختلطت أجزاؤها بجميع أجزاء الآخرين أعني الروح والجسد وصارت هي وهما شيئاً واحداً لا اختلاف فيه بمنزلة الجزء الكلي الذي سامت طبائعه واتفقت أجزاؤه فاذا لقي هذا المركب الجسد المحلول وألح عليه النار وأظهر ما فيه من الرطوبة على وجهه ذاب في الجسد المحلول ومن شأن الرطوبة الاشتعال وتعلق النار بها فاذا أرادت النار التعاقبها منعها من الاتحاد بالنفس ممازجة الماء لها فان النار لا تتحد بالدهن حتى يكون خالصاً وكذلك الماء من شأنه النفور من النار فاذا ألحت عليه النار وأرادت تطهيره حبسه الجسد اليابس الممازج له في جوفه فمنعه من الطيران فكان الجسد علة لامساك الماء والماء علة لبقاء الدهن والدهن علة لثبات الصبغ والصبغ علة لظهور الدهن واظهار الدهنية في الاشياء المظلمة التي لانور لها ولا حياة فيها فهذا هو الجسد المستقيم وهكذا يكون العمل وهذه التصفية التي سألت عنها وهي التي سميتها الحكماء بيضة وإياها يعنون لابيضة الدجاج * واعلم أن الحكماء لم تسمها بهذا الاسم لغير معنى بل أشبهتها ولقد سألت مسلمة عن ذلك يوماً وليس عنده غيري فقلت له أيها الحكيم الفاضل أخبرني لاي شيء سميت الحكماء مركب الحيوان بيضة اختياراً منهم لذلك أم لمعني دعاهم اليه فقال بل لمعني غامض فقلت أيها الحكيم وما ظهر لهم من ذلك من المنفعة والاستدلال على الصناعة حتى شبهوها وسموها بيضة فقال لشبهها وقرابتها من المركب ففكر فيه فانه سيظهر لك معناه

فبقيت بين يديه مفكراً لا أقدر على الوصول الى معناه فلما رأى ما بي من الفكر وأن نفسي قد مضت فيها أخذ بعضدى وهزني هزة خفيفة وقال لي يا أبا بكر ذلك للنسبة التي بينهما في كمية الالوان عند امتزاج الطبائع وتأليفها فلما قال ذلك انجبت عني الظلمة وأضاء لي نور قلبي وقوي عقلي على فهمه فهضت شاكرًا لله عليه الى منزلى وأقمت على ذلك شكلاً هندسياً يبرهن به على صحة ما قاله مسلمة وأنا واضعه لك في هذا الكتاب (مثال ذلك) ان المركب اذا تم وكل كان نسبة ما فيه من طبيعة الهواء الى ما في البيضة من طبيعة الهواء كنسبة ما في المركب من طبيعة النار الى ما في البيضة من طبيعة النار وكذلك الطيعتان الاخران الارض والماء فأقول ان كل شيئين متناسين على هذه الصفة فهما متشابهان (ومثال ذلك) أن تجعل سطح البيضة هزوح فاذا أردنا ذلك فإننا أخذ أقل طبائع المركب وهي طبيعة اليوسة ونضيف اليها مثلها من طبيعة الرطوبة ونديرها حتي تنشف طبيعة اليوسة طبيعة الرطوبة وتقبل قوتها وكان في هذا الكلام رمزاً ولكنه لا يخفى عليك ثم تحمل عليهما جميعاً مثاليهما من الروح وهو الماء فيكون الجميع ستة أمثال ثم تحمل على الجميع بعد التدبير مثلاً من طبيعة الهواء التي هي النفس وذلك ثلاثة أجزاء فيكون الجميع تسعة أمثال اليوسة بالقوة وتجعل تحت كل ضلعين من المركب الذي طبيعته محيطية بسطح المركب طبيعتين فتجعل أولاً الضلعين المحيطين بسطحه طبيعة الماء وطبيعة الهواء وهما ضلعا اح د وسطح أبجد وكذلك الضلعان المحيطان بسطح البيضة اللذان هما الماء والهواء ضلعا هزوح فأقول ان سطح أبجد يشبه سطح هزوح طبيعة الهواء التي تسمى نفساً وكذلك بح من سطح المركب والحكمة لم تسم شيئاً باسم شيء الا لشبهه به والكلمات التي سألت عن شرحها الارض المقدسة وهي المنعقدة من الطبائع العلوية والسفلية والنحاس هو الذي أخرج سواده وقطع حتى صار هباء ثم حر بالزاج حتى صار نحاسياً والمغنيسيا حجرهم الذي تجمد فيه الارواح وتخرج الطبيعة العلوية التي تستجن فيها الارواح لتقابل عليها النار والفرفرة لون أحمر قان يحدثه الكيان والرصاص حجر له ثلاث قوى مختلفة الشخوص ولكنها متشاكسة ومتجانسة فالواحدة روحانية نيرة صافية وهي الفاعلة والثانية نفسانية وهي متحركة حساسة غير أنها أغلظ من الاولى ومركزها دون مركز الاولى والثالثة قوة أرضية حاسة قابضة منعكسة الى مركز الارض لثقائها وهي الماسكة الروحانية والنفسانية جميعاً والمحيطية بهما وأما سائر الباقيات فتبتدع وتختزع الباساً على الجاهل ومن عرف المقدمات استغني عن غيرها فهذا جميع ما سألتني عنه وقد بعثت به اليك مفسراً وترجو بتوفيق الله أن تبلغ أملك والسلام انتهى كلام ابن بشرون وهو من كبار تلاميذ مسلمة المجريطي شيخ الاندلس في علوم الكيمياء والسيما والسحر في القرن الثالث وما بعده وانت تري كيف صرف الفاظهم كلها في الصناعة الى الرمز والالغاز التي لا تكاد

تبين ولا تعرف وذلك دليل على أنها ليست بصناعة طبيعية * والذي يجب أن يعتقد في أمر الكيمياء وهو الحق الذي يعضده الواقع أنها من جنس آثار النفوس الروحانية وتصرفها في عالم الطبيعة اما من نوع الكرامة ان كانت النفوس خيرة او من نوع السحر ان كانت النفوس شريرة فاجرة فأما الكرامة فظاهرة وأما السحر فلان الساحر كما ثبت في مكان تحقيقه يقلب الاعيان المادية بقوة السحرية ولا بد له مع ذلك عندهم من مادة يقع فعله السحري فيها كتخليق بعض الحيوانات من مادة التراب او الشجر والنبات وبالجملة من غير مادتها المخصوصة بها كما وقع لسحرة فرعون في الجبال والعصى وكما ينقل عن سحرة السودان والهنود في قاصية الجنوب والترك في قاصية الشمال انهم يسجرون الجو للأطمار وغير ذلك * ولما كانت هذه تخليقاً للذهب في غير مادته الخاصة به كان من قبيل السحر والمتكلمون فيه من أعلام الحكماء مثل جابر ومسلمة ومن كان قبلهم من حكماء الأمم انما نحوا هذا المنحى ولهذا كان كلامهم فيه ألباساً حذراً عليها من انكار الشرائع على السحر وانواعه لا ان ذلك يرجع الى الضئالة بها كما هو رأي من لم يذهب الى التحقيق في ذلك وانظر كيف سمي مسلمة كتابه فيها رتبة الحكيم وسمى كتابه في السحر والطسمات غاية الحكيم اشارة الى عموم موضوع الغاية وخصوص موضوع هذه لان الغاية أعلى من الرتبة فكان مسائل الرتبة بعض من مسائل الغاية وتشاركها في الموضوعات ومن كلامه في الفنين يتبين ما قلناه ونحن نبين فيما بعد غلط من يزعم أن مدارك هذا الامر بالصناعة الطبيعية والله العالم الخبير

٢٥ فصل في ابطال الفلسفة وفساد منتحلها

هذا الفصل وما بعده مهم لان هذه العلوم عارضة في العمران كثيرة في المدن وضررها في الدين كثير فوجب أن يصدع بشأنها ويكشف عن المعتقد الحق فيها وذلك ان قوما من عقلاء النوع الانساني زعموا ان الوجود كله الحسي منه وما وراء الحسي تدرك ذواته واحواله بأسبابها وعلاها بالانظار الفكرية والاقيسة العقلية وان تصحيح العقائد الايمانية من قبل النظر لا من جهة السمع فانها بعض من مدارك العقل وهؤلاء يسمون فلاسفة جمع فيلسوف وهو باللسان اليوناني محب الحكمة فبحثوا عن ذلك وشمروا له وحوموا على إصابة الغرض منه ووضعوا قانوناً يهتدي به العقل في نظره الى التمييز بين الحق والباطل وسموه بالمنطق ومحصل ذلك ان النظر الذي يفيد تمييز الحق من الباطل انما هو للذهن في المعاني المنتزعة من الموجودات الشخصية فيجرد منها اولاً صوراً منطبقة على جميع الاشخاص كما ينطبق الطابع على جميع النقوش التي ترسمها في طين او شمع وهذه المجردة من المحسوسات تسمى المعقولات الاوائل

ثم يجرد من تلك المعاني الكلية اذا كانت مشتركة مع معاني أخرى وقد تميزت عنها في الذهن فتجرد منها معاني أخرى وهي التي اشتركت بها ثم تجرد ثانيا ان شاركها غيرها ونالنا الى أن ينتهي التجريد الى المعاني البسيطة الكلية المنطبقة على جميع المعاني والاشخاص ولا يكون منها تجريد بعد هذا وهي الاجناس العالية وهذه المجردات كلها من غير الحسوسات هي من حيث تأليف بعضها مع بعض لتحصيل العلوم منها تسمى المعقولات الثواني فاذا نظر الفكر في هذه المعقولات المجردة وطاب تصور الوجود كما هو فلا بد للذهن من اضافة بعضها الى بعض ونفى بعضها عن بعض بالبرهان العقلي اليقيني ليحصل تصور الوجود تصورا صحيحا مطابقا اذا كان ذلك بقانون صحيح كما مر وصنف التصديق الذي هو تلك الاضافة والحكم متقدم عندهم على صنف التصور في النهاية والتصور متقدم عليه في البداية والتعليم لان التصور التام عندهم هو غاية لطلب الادراك وانما التصديق وسيلة له وما تسمعه في كتب المنطقيين من تقدم التصور وتوقف التصديق عليه فبمعنى الشعور لا بمعنى العلم التام وهذا هو مذهب كبيرهم ارسطو ثم يزعمون أن السعادة في ادراك الموجودات كلها ما في الحس وما وراء الحس بهذا النظر وتلك البراهين * وحاصل مداركهم في الوجود على الجملة وما الت اليه وهو الذي فرعوا عليه قضايا أنظارهم أنهم عثروا أولا على الجسم السفلى بحكم الشهود والحس ثم ترقى ادراكهم قليلا فشعروا بوجود النفس من قبل الحركة والحس في الحيوانات ثم أحسوا من قوي النفس بسلطان العقل ووقف ادراكهم فقضوا على الجسم العالى السماوى بنحو من القضاء على أمر الذات الانسانية ووجب عندهم أن يكون للفلك نفس وغفل كما للانسان ثم أنهموا ذلك نهاية عدد الآحاد وهي العشر تسع مفصلة ذواتها جمل وواحد أول مفرد وهو العاشر ويزعمون أن السعادة في ادراك الوجود على هذا النحو من القضاء مع تهذيب النفس وتحلقها بالفضائل وأن ذلك ممكن للانسان ولولم يرد شرع لتمييزه بين الفضيلة والرذيلة من الافعال بمقتضى عقله ونظره وميله الى محمود منها واجتنابه للمذموم بفطرته وأن ذلك اذا حصل للنفس حصلت لها البهجة واللذة وأن الجهل بذلك هو الشقاء السرمدي وهذا عندهم هو معنى النعيم والعذاب في الآخرة الى خبط لهم في تفاصيل ذلك معروف من كلماتهم وامام هذه المذاهب الذي حصل مسائلها ودون علمها وسطر حجاجها فيما بلغنا في هذه الاحقاب هو ارسطو المقدوني من أهل مقدونية من بلاد الروم من تلاميذ أفلاطون وهو معلم الاسكندر ويسمونه المعلم الاول على الاطلاق يعنون معلم صناعة المنطق اذ لم تكن قبله مهذبة وهو أول من رتب قانونها واستوفى مسائلها وأحسن بسطها ولقد أحسن في ذلك القانون ماشاء لو تكفل له بقصدهم في الالهيات ثم كان من بعده في الاسلام من أخذ بتلك المذاهب واتبع فيها رأيه حذو النعل بالنعل الا في القليل وذلك أن كتب

أولئك المتقدمين لما ترجمها الخلفاء من بنى العباس من اللسان اليوناني الى اللسان العربي تصفحها كثير من أهل الملة وأخذ من مذاهبهم من أضله الله من منتهى العلوم وجادلوا عنها واختلّفوا في مسائل من تفاريعها وكان من أشهرهم أبو نصر الفارابي في المائة الرابعة لعهد سيف الدولة وأبو علي بن سينا في المائة الخامسة لعهد نظام الملك من بنى بويه باصبيان وغيرها * وعلم أن هذا الرأي الذي ذهبوا اليه باطل بجميع وجوهه فأما اسنادهم الموجودات كلها الى العقل الاول واكتفاؤهم به في الترقى الى الواجب فهم قصور عما وراء ذلك من رتب خلق الله فالوجود أوسع نطاقاً من ذلك ويحتاج ما لا تعلمون وكانهم في اقتصارهم على اثبات العقل فقط والغفلة عما وراءه بمثابة الطبيعيين المقتصرين على اثبات الاجسام خاصة المعرضين عن النقل والعقل المعتقدين انه ليس وراء الجسم في حكمة الله شيء وأما البراهين التي يزعمونها على مدعياتهم في الموجودات ويعرضونها على معيار المنطق وقانونه فهي قاصرة وغير وافية بالغرض أما ما كان منها في الموجودات الجسمية ويسمونه العلم الطبيعي فوجه قصوره أن المطابقة بين تلك النتائج الذهنية التي تستخرج بالحدود والاقيسة كما في زعمهم وبين ما في الخارج غير يقيني لان تلك أحكام ذهنية كلية عامة والموجودات الخارجية متشخصة بموادها ولعل في المواد ما يمنع من مطابقة الذهني الكلي للخارجي الشخصي اللهم الا ما يشهد له الحس من ذلك فتدليه شهوده لا تلك البراهين فأين اليقين الذي يجذونه فيها وربما يكون تصرف الذهن أيضاً في المعقولات الاول المطابقة للشخصيات بالصور الخيالية لا في المعقولات الثواني التي تجريدها في الرتبة الثانية فيكون الحكم حينئذ يقينياً بمثابة المحسوسات اذ المعقولات الاول أقرب الى مطابقة الخارج لكمال الانطباق فيها فنسلم لهم حينئذ دعاويهم في ذلك الا أنه ينبغي لنا الاعراض عن النظر فيها اذ هو من ترك المسلم لما لا يهنيه فان مسائل الطبيعيات لا تهتمنا في ديننا ولا معاشنا فوجب علينا تركها * وأما ما كان منها في الموجودات التي وراء الحس وهي الروحانيات ويسمونه العلم الالهي وعلم ما بعد الطبيعة فان ذواتها مجهولة رأساً ولا يمكن التوصل اليها ولا البرهان عليها لان تجريد المعقولات من الموجودات الخارجية الشخصية انما هو ممكن فيما هو مدرك لنا ونحن لا ندرك الذوات الروحانية حتي نتجرد منها ماهيات أخرى بمحجبات الحس بيننا وبينها فلا يتأتى لنا برهان عليها ولا مدرك لنا في اثبات وجودها على الجملة الا ما نجد بين جنينا من أمر النفس الانسانية وأحوال مداركها وخصوصاً في الرؤيا التي هي وجدانية لكل أحد وما وراء ذلك من حقيقتها وصفاتها فأمر غامض لاسيلى الى الوقوف عليه وقد صرح بذلك محققوهم حيث ذهبوا الى أن ما لا مادة له لا يمكن البرهان عليه لان مقدمات البرهان من شرطها أن تكون ذاتية وقال كبيرهم أفلاطون ان الالهيات لا يوصل فيها الى يقين وانما يقال فيها بالأخلق والاولى يعني الظن واذا كنا انما نحصل بعد التعب والنصب على الظن فقط فيكفينا

الظن الذي كان أولاً فأي فائدة لهذه العلوم والاشتغال بها ونحن إنما عنايتنا بتحصيل اليقين فيما وراء الحس من الموجودات وهذه هي غاية الافكار الانسانية عندهم وأما قولهم ان السعادة في ادراك الموجودات على ما هي عليه بتلك البراهين فقول مزيف مردود وتفسيره ان الانسان مركب من جزئين أحدهما جسماني والآخر روحاني يمتزج به ولكل واحد من الجزئين مدارك مختصة به والمدرك فيهما واحد وهو الجزء الروحاني يدرك تارة مدارك روحانية وتارة مدارك جسمانية إلا ان المدارك الروحانية يدركها بذاته بغير واسطة والمدارك الجسمانية بواسطة آلات الجسم من الدماغ والحواس وكل مدرك فله ابتهاج بما يدركه واعتبره بحال الصبي في أول مداركه الجسمانية التي هي بواسطة كيف يتبهج بما يبصره من الضوء وبما يسمعه من الاصوات فلا شك أن الابتهاج بالادراك الذي للنفس من ذاتها بغير واسطة يكون أشد وألذ فالنفس الروحانية إذا شعرت بادراكها الذي لها من ذاتها بغير واسطة حصل لها ابتهاج ولذة لا يعبر عنها وهذا الادراك لا يحصل بنظر ولا علم وإنما يحصل بكشف حجاب الحس ونسيان المدارك الجسمانية بالجملة والمتصوفة كثيراً ما يعنون بحصول هذا الادراك للنفس حصول هذه البهجة فيحاولون بالرياضة إماتة القوى الجسمانية ومداركها حتى الفكر من الدماغ ليحصل للنفس إدراكها الذي لها من ذاتها عند زوال الشواغب والموانع الجسمانية فيحصل لهم بهجة ولذة لا يعبر عنها وهذا الذي زعموه بتقدير صحته مسلم لهم وهو مع ذلك غير واف بمقصودهم فأما قولهم ان البراهين والادلة العقلية محصلة لهذا النوع من الادراك والابتهاج عنه فباطل كما رأيته اذ البراهين والادلة من جملة المدارك الجسمانية لانها بالقوى الدماغية من الحيال والفكر والذكر ونحن أول شيء نعني به في تحصيل هذا الادراك إماتة هذه القوى الدماغية كلها لانها منازعة له قاذحة فيه وتجد الماهر منهم عاكفاً على كتاب الشفاء والاشارات والنجاء وتلاخيص ابن رشد للفص من تأليف ارسطو وغيره يبعثر أوراقها ويتوثق من براهينها ويلتمس هذا القسط من السعادة فيها ولا يعلم أنه يستكثر بذلك من الموانع عنها ومستندهم في ذلك ما ينقلونه عن ارسطو والفارابي وابن سينا ان من حصل له ادراك العقل الفعال واتصل به في حياته فقد حصل حظه من هذه السعادة والعقل الفعال عندهم عبارة عن أول رتبة ينكشف عنها الحس من رتب الروحانيات ويحملون الاتصال بالعقل الفعال على الادراك العلمي وقد رأيت فسادها وإنما يعني ارسطو وأصحابه بذلك الاتصال والادراك ادراك النفس الذي لها من ذاتها وبغير واسطة وهو لا يحصل الا بكشف حجاب الحس وأما قولهم أن البهجة الناشئة عن هذا الادراك هي عين السعادة الموعود بها فباطل أيضاً لانا إنما نسينا بما قررناه أن وراء الحس مدركاً آخر للنفس من غير واسطة وأنها تتبهج بادراكها ذلك ابتهاجاً شديداً وذلك

لا يعين لنا أنه عين السعادة الاخرية ولا بد بل هي من جملة الملاذ التي لتلك السعادة وأما قولهم أن السعادة في ادراك هذه الموجودات على ما هي عليه فقول باطل مبني على ما كنا قدمناه في أصل التوحيد من الاوهام والاغلاط في أن الوجود عند كل مدرك منحصر في مداركه وبيننا فساد ذلك وأن الوجود أوسع من أن يحاط به أو يستوفى ادراكه بجملته روحانياً أو جسمانياً والذي يحصل من جميع ما قررناه من مذاهبهم أن الجزء الروحاني اذا فارق القوى الجسمانية أدرك إدراكاً ذاتياً له مختصاً بصنف من المدارك وهي الموجودات التي أحاط بها علمنا وليس بعام الادراك في الموجودات كلها اذ لم تنحصر وأنه يتبع بذلك النجوم الادراك ابتهاجاً شديداً كما يتبع الصبي بمداركة الحسية في أول نشوه ومن لنا بعد ذلك بادراك جميع الموجودات أو بمحصول السعادة التي وعدنا بها الشارع إن لم نعمل لها هيئات لماتوعدون * وأما قولهم ان الانسان مستقل بتهديب نفسه واصلاحها بملاسة المحمود من الخلق ومجانبة المذموم فأمر مبني على أن ابتهاج انفس بادراكها الذي لها من ذاتها هو عين السعادة الموعود بها لان الرذائل عاقبة للنفس عن تمام ادراكها ذلك بما يحصل لها من الملكات الجسمانية وألوانها وقد بينا أن أثر السعادة والشقاوة من وراء الادراكات الجسمانية والروحانية فهذا التهديب الذي توصلوا الى معرفته إنما نفعه في الهجة الناشئة عن الادراك الروحاني فقط الذي هو على مقاييس وقوانين وأما ما وراء ذلك من السعادة التي وعدنا بها الشارع على امتثال ما أمر به من الاعمال والاخلاق فأمر لا يحيط به مدارك المدركين وقد تنبه لذلك زعيمهم أبو علي بن سينا فقال في كتاب المبدأ والمعاد ما معناه أن المعاد الروحاني وأحواله هو مما يتوصل اليه بالبراهين العقلية والمقاييس لانه على نسبة طبيعية محفوظة ووتيرة واحدة فلنا في البراهين عليه سعة وأما المواد الجسماني وأحواله فلا يمكن إدراكه بالبرهان لانه ليس على نسبة واحدة وقد بسطته لنا الشريعة الحقة المحمدية فلينظر فيها ولنرجع في أحواله اليها فهذا العلم كما رأيته غير واف بمقاصدهم التي حوموا عليها مع ما فيه من مخالفة الشرائع وظواهرها وليس له فيما علمنا الاثرة واحدة وهي شحذ الذهن في ترتيب الادلة والحجج لتحصيل ملكة الجودة والصواب في البراهين وذلك أن نظم المقاييس وتركيبها على وجه الاحكام والاتقان هو كما شرطوه في صناعتهم المنطقية وقولهم بذلك في علومهم الطبيعية وهم كثيرا ما يستعملونها في علومهم الحكيمة من الطبيعيات والتعاليم وما بعدها فيستولى الناظر فيها بكثرة استعمال البراهين بشرطها على ملكة الاتقان والصواب في الحجج والاستدلالات لانها وان كانت غير وافية بمقصودهم فهي أصح ما علمناه من قوانين الانظار هذه هي ثمرة هذه الصناعة مع الاطلاع على مذاهب أهل العلم وآرائهم ومضارها ما علمت فليكن الناظر فيها متحرراً جهده من معاطبها

وليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه ولا يكن أحد عليها وهو خلو من علوم الملة فقل أن يسلم لذلك من معاطبها والله الموفق للصواب والحق والهادي اليه وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

٢٦ فصل في ابطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها

هذه الصناعة يزعم أصحابها أنهم يعرفون بها الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها من قبل معرفة قوي الكواكب وتأثيرها في المولدات العنصرية مفردة ومجموعة فتكون لذلك أوضاع الافلاك والكواكب دالة على ما يحدث من نوع نوع من أنواع الكائنات البكية والشخصية فالتقدمون منهم يرون أن معرفة قوي الكواكب وتأثيراتها بالتجربة وهو أمر تقصر الاعمار كلها لو اجتمعت عن تحصيله اذ التجربة انما تحصل في المرات المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم أو الظن وأدوار الكواكب منها ما هو طويل الزمن فيحتاج تكرره الى آحاد وأحقاب متطاولة يتقاصر عنها ما هو طويل من أعمار العالم وربما ذهب ضعفاء منهم الى أن معرفة قوي الكواكب وتأثيراتها كانت بالوحي وهو رأى فائل وقد كفونا مؤنة ابطاله ومن أوضح الادلة فيه أن تعلم أن الانبياء عليهم الصلاة والسلام أبعاد الناس عن الصنائع وأنهم لا يتعرضون للاخبار عن الغيب الا أن يكون عن الله فكيف يدعون استنباطه بالصناعة ويشيرون بذلك لتابعهم من الخلق وأما بطلانهم ومن تبعه من المتأخرين فيرون أن دلالة الكواكب على ذلك دلالة طبيعية من قبل مزاج يحصل للكواكب في الكائنات العنصرية قال لان فعل النيران وأثرها في العنصرية ظاهرة لا يسع أحداً جرده مثل فعل الشمس في تبدل الفصول وأمزجتها ونضج الثمار والزرع وغير ذلك وفعل القمر في الرطوبات والماء وانضاج المواد المتعفنة وفواكه القثاء وسائر أفعاله ثم قال ولنا فيما بعدهما من الكواكب طريقان* الاولى التقليد لمن نقل ذلك عنه من أئمة الصناعة الا أنه غير مقنع للنفس* الثانية الحدس والتجربة بقياس كل واحد منهما الى النيران الاعظم الذي عرفنا طبيعته وأثره معرفة ظاهرة فننظر هل يزيد ذلك الكواكب عند القرار في قوته ومزاجه فنعرف موافقته له في الطبيعة أو ينقص عنها فنعرف مضادته ثم اذا عرفنا قواها مفردة عرفناها مركبة وذلك عند تناظرها بأشكال التثليث والتربيع وغيرها ومعرفة ذلك من قبل طبائع البروج بالقياس أيضاً الى النيران الاعظم واذا عرفنا قوي الكواكب كلها فهي مؤثرة في الهواء وذلك ظاهر والمزاج الذي يحصل منها للهواء يحصل لما تحته من المولدات وتخلق به النطف والبرز قصير حالا للبدن المتكون عنها وللنفس المتعلقة به الفائضة عليه المكتسبة لما لها منه ولما يتبع النفس والبدن من الاحوال لان كيفيات البرزرة والنطفة

كيفية لما يتولد عنهما وينشأ منهما قال وهو مع ذلك ظني وليس من اليقين في شيء وليس هو أيضاً من القضاء الإلهي يعني القدرانما هو من جملة الاسباب الطبيعية للكائن والقضاء الإلهي سابق على كل شيء هذا يحصل كلام بطليموس وأصحابه وهو منصوص في كتابه الأربع وغيره ومنه يتبين ضعف مدرك هذه الصناعة وذلك أن العلم الكائن أو الظن به انما يحصل عن العلم بجملة أسبابه من الفاعل والقابل والصورة والغاية على ما تبين في موضعه والقوى النجومية على ما قررناه انما هي فاعلة فقط والجزء العنصري هو القابل ثم ان القوى النجومية ليست هي الفاعل بجملة بل هناك قوي آخر فاعلة معها في الجزء المادي مثل قوة التوليد للاب والنوع التي في النطفة وقوى الخاصة التي تميز بها صنف صنف من النوع وغير ذلك فالقوى النجومية اذا حصل كمالها وحصل العلم فيها انما هي فاعل واحد من جملة الاسباب الفاعلة للكائن ثم انه يشترط مع العلم بقوى النجوم وتأثيراتها مزيد حدس وتخمين وحينئذ يحصل عنده الظن بوقوع الكائن والحدس والتخمين قوة للناظر في فكره وليس من علل الكائن ولا من أصول الصناعة فاذا فقد هذا الحدس والتخمين رجعت أدراجها عن الظن الى الشك هذا اذا حصل العلم بالقوى النجومية على سداده ولم تعترضه آفة وهذا معوز لما فيه من معرفة حسابات الكواكب في سيرها لتعرف به أوضاعها ولما أن اختصاص كل كوكب بقوة لا دليل عليه ومدرك بطليموس في اثبات القوى للكواكب الخمسة بقياسها الى الشمس مدرك ضعيف لان قوة الشمس غالبية لجميع القوى من الكواكب ومستوية عليها فقل أن يشمر بالزيادة فيها أو النقصان منها عند المقارنة كما قال وهذه كلها قاذحة في تعريف الكائنات الواقعة في عالم العناصر بهذه الصناعة ثم ان تأثير الكواكب فيما تحتها باطل اذ قد تبين في باب التوحيد أن لافاعل الا الله بطريق استدلال كما رأيت واحتج له أهل علم الكلام بما هو غنى عن البيان من أن اسناد الاسباب الى المسببات مجهول الكيفية والعقل متهم على ما يقضي به فيما يظهر بادي الرأي من التأثير فلعل استنادها على غير صورة التأثير المتعارف والقدرة الإلهية رابطة بينهما كما ربطت جميع الكائنات علواً وسفلاً سيما والشرع يرد الحوادث كلها الى قدرة الله تعالى ويبرأ مما سوى ذلك والتبوات أيضاً منكورة لشأن النجوم وتأثيراتها واستقراء الشرعيات شاهد بذلك في مثل قوله ان الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته وفي قوله أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب الحديث الصحيح فقد بان لك بطلان هذه الصناعة من طريق الشرع وضعف مداركها مع ذلك من طريق العقل مع مالها من المضار في العمران الانساني بما تبعت في عقائد العوام من الفساد اذا اتفق الصدق من أحكامها في

بعض الاحياء اتفاقا لا يرجع الى تحليل ولا تحقيق فياهج بذلك من لا معرفة له ويظن اطراد الصدق في سائر أحكامها وليس كذلك فيقع في رد الاشياء الى غير خالقها ثم ما ينشأ عنها كثيرا في الدول من توقع القواطع وما يبعث عليه ذلك التوقع من تطاول الاعداء والمتربصين بالدولة الى الفتك والثورة وقد شاهدنا من ذلك كثيرا فينبغي أن محظر هذه الصناعة على جميع أهل العمران لما ينشأ عنهم المضار في الدين والدول ولا يقدح في ذلك كون وجودها طبعيا للبشر بمقتضى مداركهم وعلومهم فالخير والشر طبيعتان موجودتان في العالم لا يمكن نزعهما وانما يتعلق التكليف بأسباب حصولهما فيتعين السعي في اكتساب الخير بأسبابه ودفع أسباب الشر والمضار هذا هو الواجب على من عرف مفاسد هذا العلم ومضاره وليعلم من ذلك أنها وان كانت صحيحة في نفسها فلا يمكن أحدا من أهل الملة تحصيل علمها ولا ملكتها بل ان نظر فيها ناظر وظن الاحاطة بها فهو في غاية القصور في نفس الامر فان الشريعة لما حظرت النظر فيها فقد الاجتماع من أهل العمران لقراءتها والتحليق لتعليمها وصار المواع بها من الناس وهم الاقل وأقل من الاقل انما يطالع كتبها ومقالاتها في كسر يته متسترا عن الناس وتحت ربة الجمهور مع تشعب الصناعة وكثرة فروعها واعتياصها على الفهم فكيف يحصل منها على طائل ونحن نجد الفقه الذي عم نفعه ديناً ودنيا وسهلت ما خذه من الكتاب والسنة وعكف الجمهور على قراءته وتعليمه ثم بعد التحليق والتجميع وطول المدارس وكثرة المجالس وتعددتها انما يحذق فيه الواحد بعد الواحد في الاعصار والاعمال فكيف بعلم مهجور للشريعة مضروب دونه سد الحظر والتحريم مكتوم عن الجمهور صعب المأخذ محتاج بعد الممارسة والتحصيل لأصوله وفروعه الى مزيد حدس وتخمين يكتفان به من الناظر فأين التحصيل والحذق فيه مع هذه كلها ومدعي ذلك من الناس مردود على عقبه ولا شاهد له يقوم بذلك لغرابة الفن بين أهل الملة وقلة حملته فاعتبر ذلك يتبين لك صحة ما ذهبنا اليه والله أعلم بالغيب فلا يظهر على غيبه أحداً * ومما وقع في هذا المعنى لبعض أصحابنا من أهل العصر عند ما غلب العرب عساكر السلطان أبي الحسن وحاصروه بالقيروان وكثر ارجاف الفريقين الاولياء والاعداء وقال في ذلك أبو القاسم الرحوي من شعراء أهل تونس

أستغفر الله كل حين * قد ذهب العيش والهناء
أصبح في تونس وأمسي * والصبح لله والمساء
الخوف والجوع والمنايا * يحدثها الهرج والوباء
والناس في مرية وحرب * وما عسى ينفع المرء
فاحمدي يرى عليا * حل به الهلك والتواء

وآخر قال سوف يأتي * به اليكم صبا رضاء
 والله من فوق ذا وهذا * يقضي لعبديه مايشاء
 ياراصد الخنس الجواري * ما فعلت هذه السماء
 مطتمونا وقد زعمتم * أنكم اليوم أملياء
 مر خميس على خميس * وجاء سبت وأربعاء
 ونصف شهر وعشر نان * وثالث ضمه القضاء
 ولا نري غير زور قول * أذاك جهل أم ازدراء
 انا الى الله قد علمنا * أن ليس يستدفع القضاء
 رضيت بالله لي إلهها * حسبكم البدر أو ذكاء
 ماهذه الانجم السواري * إلا عباديد أو إماء
 يقضي عليها وليس تقضى * وما لها في الوري اقتضاء
 ضلت عقول تري قديما * ماشانه الجرم والقضاء
 وحكمت في الوجود طبعها * يحده الماء والهواء
 لم ترحلوا ازاء أمر * تغذوهما تربة وماء
 الله ربي ولست أدري * ما الجوهر الفرد والحلاء
 ولا الهول التي تنادي * مالي عن صورة عراء
 ولا وجود ولا انعدام * ولا ثبوت ولا انتفاء
 لست دري ما الكسب إلا * ما جلب البيع والشراء
 وانما مذهبي وديني * ما كان والناس أولياء
 إذ لا فصول ولا أصول * ولا جدال ولا ارتياء
 ماتبع الصدر واقتفينا * يا حبذا كان الاقتفاء
 كانوا كما يعلمون منهم * ولم يكن ذلك الهذاء
 يا شعري الزمان إني * أشعري الصيف والشتاء
 أنا أجزي الشر شراً * والخير عن مثله جزاء
 وانني ان أكن مطيعاً * قرب أعصى ولي رجاء
 وانني تحت حكم بار * أطاعه العرش والثراء
 ليس بأسطاركم ولكن * أتاحه الحكم والقضاء
 لو حدث الأشعري عن * له إلى رايه إيتاء

لقال أخبرهم بأني * مما يقولونه براء

٢٧ (فصل في انكار ثمره الكيمياء واستحالة وجودها وما ينشأ من المفساد عن اتحاليها)

اعلم أن كثيراً من العاجزين عن معاشهم تحملهم المطامع على اتحال هذه الصنائع ويرون أنها أحد مذاهب المعاش ووجوهه وأن اقتناء المال منها أيسر وأسهل على متغيه فيرتكبون فيها من المتاعب والمشاق ومعاناة الصعاب وعسف الحكام وخسارة الاموال في النفقات زيادة على النيل من غرضه والعطب آخراً اذا ظهر على خيبة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا وانما أطمعهم في ذلك رؤية أن المعادن تستحيل وينقلب بعضها الى بعض للمادة المشتركة فيحاولون بالعلاج صيرورة الفضة ذهباً والنحاس والقصدير فضة ويحسبون أنها من ممكنات عالم الطبيعة ولهم في علاج ذلك طرق مختلفة لاختلاف مذاهبهم في التدبير وصورته وفي المادة الموضوعة عندهم للعلاج المسماة عندهم بالحجر المكرم هل هي العذرة أو الدم أو الشعر أو البيض أو كذا أو كذا مما سوى ذلك وجملة التدبير عندهم بعد تعيين المادة أن تمهي بالفهر على حجر صلد أملس وتسقي أثناء امهاتها بلماء بعد أن يضاف اليها من العقاقير والادوية ما يناسب القصد منها ويؤثر في انقلابها الى المعدن المطلوب ثم تجفف بالشمس من بعد السقي أو تطبخ بالنار أو تصعد أو تنكس لاستخراج مائها أو ترابها فاذا رضى بذلك كله من علاجها وتم تدبيره على ما اقتضته أصول صنعتها حصل من ذلك كله تراب أو مائع يسمونه الاكسير ويزعمون أنه اذا اتى على الفضة الحماة بالنار عادت ذهباً أو النحاس الحمى بالنار عاد فضة على حسب ما قصد به في عمله ويزعم المحققون منهم أن ذلك الاكسير مادة مركبة من العناصر الاربعة حصل فيها بذلك العلاج الخاص والتدبير مزاج ذو قوي طبيعية تصرف ما حصلت فيه اليها وتقلبه الى صورتها ومزاجها وتثبت فيه ما حصل فيها من الكيفيات والقوى كالتخيرة للخبز تقلب العجين الى ذاتها وتعمل فيه ما حصل لها من الانقشاش والهشاشة ليحسن هضمه في المعدة ويستحيل سريعاً الى الغذاء وكذا اكسير الذهب والفضة فما يحصل فيه من المعادن يصرفه اليهما ويقبله الى صورتها هذا محصل زعمهم على الجملة فتجدهم عاكفين على هذا العلاج يتفنون الرزق والمعاش فيه ويتناقلون أحكامه وقواعده من كتب لائمة الصناعة من قباهم يتداولونها بينهم ويتناظرون في فهم لغوزها وكشف أسرارها اذ هي في الاكثر تشبه المعنى كتأليف جابر بن حيان في رسائله السبعين ومسلمة المجريطي في كتابه رتبة الحكيم والطغرائي والمغيري في قصائده العريقة في اجادة النظم وأمثالها ولا يحلون من بعد هذا كله بطائل منها * فلو ضمت يوماً شيخنا أبا البركات التلغيفي كبير مشيخة الاندلس في مثل ذلك ووقفته على بعض

التأليف فيها فقصده طويلا ثم رده الي وقال لي وأنا الضامن له أن لا يعود الى بيته الا بالحيلة
ثم منهم من يقتصر في ذلك على الدلسة فقط أما الظاهرة كتمويه الفضة بالذهب أو النحاس
بالفضة أو خلطهما على نسبة جزء أو جزأين أو ثلاثة أو الحفية كالقلاء الشبه بين المعادن
بالصناعة مثل تبييض النحاس وتلينه بالزوق المصعد فيجيء حيناً معدنياً شديداً بالفضة ويخفي
الاعلى انتقاد المهرة فيقدر أصحاب هذه الدلاس مع دلتهم هذه سكة يسربونها في الناس ويطبعونها
بطابع السلطان تمويهاً على الجمهور بالخلاص وهؤلاء اخس الناس حرفة وأسوأهم عاقبة لتلبسهم
بسرقه أموال الناس فان صاحب هذه الدلسة انما هو يدفع نحاساً في الفضة وفضة في الذهب
ليستخلصها لنفسه فهو سارق أو أشر من السارق ومعظم هذا الصنف لدينا بالمغرب من
طلبة البربر المنتبذين بطراف البقاع ومساكن الاغمار يأوون الى مساجد البادية ويموهون
على الاغنياء منهم بان بأيديهم صناعة الذهب والفضة والنفوس مولة بحبهما والاستهلاك في
طلبهما فيحصلون من ذلك على معاش ثم يبقى ذلك عندهم تحت الخوف والرقبة الى أن يظهر
العجز وتقع الفضيحة فيفرون الى موضع آخر ويستجدون حالاً أخرى في استهواء بعض أهل
الدنيا باطماعهم فيما لديهم ولا يزالون كذلك في ابتغاء معاشهم وهذا الصنف لا كلام معهم لانهم
بلغوا الغاية في الجهل والرداءة والاحتراف بالسرقه ولا حاسم لعائتهم الا اشتداد الحكم عليهم
وتناولهم من حيث كانوا وقطع أيديهم متى ظهوروا على شأنهم لان فيه افساداً للسكة التي تعم بها
البلوي وهي متمول الناس كافة والسلطان مكلف باصلاحها والاحتياط عليها والاشتداد على
مفسديها وأما من اتحل هذه الصناعة ولم يرض بحال الدلسة بل استنكف عنها وزه نفسه
عن إفساد سكة المسلمين ونقودهم وإنما يطلب إحالة الفضة للذهب والرصاص والنحاس
والقزدير الى الفضة بذلك النحو من العلاج وبالأكسير الحاصل عنده فلنا مع هؤلاء متكلم
وبحث في مداركهم لذلك مع أنا لانعلم أن أحداً من أهل العلم تم له هذا الغرض أو حصل
منه على بغية انما تذهب أعمارهم في التدبير والفهر والصلاية والتصعيد والتكليس واعتيام
الاخطار بجمع العقاقير والبحث عنها ويتناقلون في ذلك حكايات وقعت لغيرهم ممن تم له الغرض
منها أو وقف على الوصول يقسمون باستماعها والمفاوضة فيها ولا يستريحون في تصديقها شأن
الكلفين المغرمين بوساوس الاخبار فيما يكلفون به فاذا سئلوا عن تحقيق ذلك بالمعينة أنكروه
وقالوا إنما سمعنا ولم نر هكذا شأنهم في كل عصر وجيل * واعلم أن اتحال هذه الصنعة قديم في العالم
وقد تكلم الناس فيها من المتقدمين والمتأخرين فلننقل مذاهبهم في ذلك ثم نتلو بما يظهر فيها
من التحقيق الذي عليه الامر في نفسه فنقول ان مبني الكلام في هذه الصناعة عند الحكماء
على حال المعادن السبعة المنطرقة وهي الذهب والفضة والرصاص والقزدير والنحاس والحديد

والحارصيني هل هي مختلفات بالفصول وكلها انواع قائمة بانفسها او انها مختلفة بخواص من
الكيفيات وهي كلها اصناف لنوع واحد فالذي ذهب اليه ابو نصر الفارابي وتابعه عليه حكماء
الاندلس انها نوع واحد وان اختلافها انما هو بالكيفيات من الرطوبة واليبوسة واللين
والصلابة والالوان من الصفرة والياض والسواد وهي كلها اصناف لذلك النوع الواحد والذى
ذهب اليه ابن سينا وتابعه عليه حكماء المشرق انها مختلفة بالفصول وانها انواع متباينة كل واحد
منها قائم بنفسه متحقق بحقيقته له فصل وجنس شأن سائر الانواع وبني ابو نصر الفارابي
على مذهبه في اتفاقها بالنوع إمكان انقلاب بعضها الى بعض لامكان تبدل الاعراض حينئذ
وعلاجها بالصنعة فمن هذا الوجه كانت صناعة الكيمياء عنده ممكنة سهلة المأخذ وبني ابو علي
ابن سينا على مذهبه في اختلافها بالنوع انكار هذه الصنعة واستحالة وجودها بناء على أن
الفصل لاسبيل بالصناعة اليه وإنما يخلقها خالق الاشياء ومقدرها وهو الله عز وجل والفصول
مجهولة الحقائق رأساً بالتصور فكيف يحاول انقلابها بالصنعة وغلطه الطغرائي من أكابر أهل
هذه الصناعة في هذا القول ورد عليه بأن التدبير والعلاج ليس في تخليق الفصل وابداعه
وانما هو في اعداد المادة لقبوله خاصة والفصل يأتي من بعد الاعداد من لدن خالقه وبارئه
كما يفيض النور على الأجسام بالصلقل والامهات ولا حاجة بنا في ذلك الى تصوره ومعرفته
قال وإذا كنا قد عثرنا على تخليق بعض الحيوانات مع الجهل بفصولها مثل العقرب من التراب
والثقل ومثل الحيات المتكونة من الشعر ومثل ما ذكره أصحاب الفلاحة من تكوين النحل اذا
فقدت من عجائيل البقر وتكوين القصب من قرون ذوات الطائف وتصويره سكر الجحش والقرون
بالعسل بين يدي ذلك الفلاح للقرون فما المانع إذا من العثور على مثل ذلك في الذهب والفضة
فتتخذ مادة تضيفها للتدبير بعد ان يكون فيها استعداد أول لقبول صورة الذهب والفضة ثم نحاولها
بالعلاج الى أن يتم فيها الاستعداد لقبول فصلها انتهى كلام الطغرائي بمعنى هذا الذي ذكره
في الرد على ابن سينا صحيح لكن لنا في الرد على أهل هذه الصناعة مأخذ آخر يتبين منه استحالة
وجودها وبطلان مزعمهم أجمعين لا الطغرائي ولا ابن سينا وذلك أن حاصل علاجهم أنهم بعد
الوقوف على المادة المستعدة بالاستعداد الاول يجعلونها موضوعا ويحاذون في تدبيرها وعلاجها تدبير
الطبيعة في الجسم المعدني حتى احواله ذهباً أو فضة ويضاعفون القوى الفاعلة والمنفعة ليم في زمان أقصر
لأنه تبين في موضعه أن مضاعفة قوة الفاعل تنقص من زمن فعله وتبين أن الذهب انما يتم
كونه في معدنه بعد ألف وثمانين من السنين دورة الشمس الكبرى فاذا تضاعفت القوى والكيفيات
في العلاج كان زمن كونه أقصر من ذلك ضرورة على ما قلناه أوتجرون بعلاجهم ذلك حصول
صورة مزاحية لتلك المادة تصيرها كالخميرة ففعل في الجسم المعالج الافاعيل المطلوبة في احواله

وذلك هو الاكسير على ما تقدم واعلم أن كل متكون من المولدات العنصرية فلا بد فيه من اجتماع العناصر الاربعة على نسبة متفاوتة اذ لو كانت متكافئة في النسبة لما تم امتزاجها فلا بد من الجزء الغالب على الكل ولا بد في كل ممتزج من المولدات من حرارة غريزية هي الفاعلة لكونه الحافظة لصورته ثم كل متكون في زمان فلا بد من اختلاف أطواره وانتقاله في زمن التكوين من طور الى طور حتي ينتهي الى غايته وانظر شأن الانسان في طور النطفة ثم العلقه ثم المضغة ثم التصوير ثم الجنين ثم المولود ثم الرضيع ثم ثم الى نهايته ونسب الاجزاء في كل طور يختلف في مقاديرها وكيفياتها والالكان الطور بعينه الاول هو الآخر وكذا الحرارة الغريزية في كل طور مخالفة لها في الطور الآخر فانظر الى الذهب ما يكون له في معدنه من الاطوار منذ ألف سنة وثمانين وما ينتقل فيه من الاحوال فيحتاج صاحب الكيمياء الى أن يساوق فعل الطبيعة في المعدن ويحاذيه بتدبيره وعلاجه الى أن يتم ومن شرط الصناعة أبداً تصور ما يقصد اليه بالصناعة فمن الامثال السائرة للحكماء أول العمل آخر الفكرة وآخر الفكرة أول العمل فلا بد من تصور هذه الحالات للذهب في أحواله المتعددة ونسبها متفاوتة في كل طور واختلاف الحار الغريزي عند اختلافها ومقدار الزمان في كل طور وما ينوب عنه من مقدار القوي المضاعفة ويقوم مقامه حتي يحاذي بذلك كله فعل الطبيعة في المعدن أو تعد لبعض المواد صورة مزاجية تكون كصورة الحميرة للخبز وتفعل في هذه المادة بالمناسبة لقواها ومقاديرها وهذه كلها انما يحصرها العلم المحيط والعلوم البشرية قاصرة عن ذلك وانما حال من يدعي حصوله على الذهب بهذه الصناعة بمثابة من يدعي بالصناعة تخليق انسان من المني ونحن اذا سلمنا له الاحاطة بأجزائه ونسبته وأطواره وكيفية تخليقه في رحمه وعلم ذلك علماً محصلاً بتفاصيله حتي لا يشذ منه شيء عن عامه سلمنا له تخليق هذا الانسان وأني له ذلك * ولتقرب هذا البرهان بالاختصار ليسهل فهمه فنقول حاصل صناعة الكيمياء وما يدعونه بهذا التدبير انه مساوقة الطبيعة المعدنية بالفعل الصناعي ومحاذاتها به الى أن يتم كون الجسم المعدني أو تخليق مادة بقوي وأفعال وصورة مزاجية تفعل في الجسم فعلاً طبعياً فتصيره وتقلبه الى صورتها والفعل الصناعي مسبوق بتصورات أحوال الطبيعة المعدنية التي يقصد مساوقتها أو محاذاتها أو فعل المادة ذات القوي فيها تصوراً مفصلاً واحدة بعد أخرى وتلك الاحوال لانهاية لها والعلم البشري عاجز عن الاحاطة بما دونها وهو بمثابة من يقصد تخليق انسان أو حيوان أو نبات هذا محصل هذا البرهان وهو أوثق ما علمته وليست الاستحالة فيه من جهة الفصول كما رأيته ولا من الطبيعة انما هو من تعذر الاحاطة وقصور البشر عنها وما ذكره ابن سينا بمنزل عن ذلك وله وجه آخر في الاستحالة من جهة غايته وذلك أن حكمة الله في

الحجرين وندورها أنهم اقيم لمكاسب الناس وتمعولاتهم فلو حصل عليهما بالصنعة لبطلت
 حكمة الله في ذلك وكثر وجودها حتى لا يحصل أحد من اقتنائها على شيء وله وجه آخر
 من الاستحالة أيضاً وهو أن الطبيعة لا تترك أقرب الطرق في أفعالها وترتكب الاعوص
 والابعد فلو كان هذا الطريق الصناعي الذي يزعمون انه صحيح وأنه أقرب من طريق الطبيعة
 في معدنها وأقل زماناً لما تركته الطبيعة الى طريقها الذي سلكته في كون الفضة والذهب
 وتخليقهما* وأما تشبيه الطغرائي هذا التدبير بما عثر عليه من مفردات لامثاله في الطبيعة كالعقرب
 والنحل والحية وتخليقها فأمر صحيح في هذه أدبي اليه العثوركما زعم وأما الكيمياء فلم ينقل عن
 أحد من أهل العلم انه عثر عليها ولا على طريقها وما زال متحللوها يخبطون فيها خبط عشواء
 الى هلم جرا ولا يظفرون الا بالحكايات الكاذبة ولو صح ذلك لاحد منهم لحفظه عنه أولاده
 أو تلميذه وأصحابه وتنوّل في الاصدقاء وضمن تصديقه صحة العمل بعده الى أن ينتشر ويبلغ
 الينا أو الى غيرنا* وأما قولهم ان الاكسير بمثابة الخميرة وانه مركب يحيل ما يحصل فيه ويقبله
 الى ذلك فاعلم أن الخميرة انما تقلب العجين وتمده للضم وهو فساد والفساد في المواد سهل يقع
 بايسر شيء من الافعال والطبائع والمطلوب بالاكسير قلب المعدن الى ما هو أشرف منه وأعلى
 فهو تكوين وصالح والتكوين أصعب من الفساد فلا يقاس الاكسير بالخميرة* وتحقيق الامر في
 ذلك أن الكيمياء ان صح وجودها كما تزعم الحكماء المتكلمون فيها مثل جابر بن حيان ومسلمة بن
 أحمد الجريطي وأمثالهم فليست من باب الصنائع الطبيعية ولا تتم بأمر صناعي وليس كلامهم فيها من
 منحي الطبيعيات إنما هو من منحي كلامهم في الأمور السحرية وسائر الخوارق وما كان من ذلك
 للحلاج وغيره وقد ذكر مسلمة في كتاب الغاية ما يشبه ذلك وكلامه فيها في كتاب رتبة الحكيم
 من هذا المنحى وهذا كلام جابر في رسائله ونحو كلامهم فيه معروف ولا حاجة بنا الى شرحه
 وبالجملة فأمرها عندهم من كليات المواد الخارجة عن حكم الصنائع فكما لا يتدبر مامنه الخشب
 والحيوان في يوم أو شهر خشباً أو حيواناً فيما عدا مجري تخليقه كذلك لا يتدبر ذهب من مادة
 الذهب في يوم ولا شهر ولا يتغير طريق عادته الا بآرافد مما وراء عالم الطبائع وعمل الصنائع
 فكذلك من طلب الكيمياء طلباً صناعياً ضيع ماله وعمله ويقال لهذا التدبير الصناعي التدبير
 العقيم لان نيلها ان كان صحيحاً فهو واقع مما وراء الطبائع والصنائع فهو كالمنشي على الماء وامتناء
 الهواء والنفوذ في كثائف الاجساد ونحو ذلك من كرامات الاولياء الحارقة للعادة أو مثل
 تخليق الطير ونحوها من معجزات الانبياء قال تعالى وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني
 فتنفخ فيها فتكون طيراً باذني وعلى ذلك فسيل تسييرها مختلف بحسب حال من يؤتاها فربما
 أوتيتها الصالح ويؤتيها غيره فتكون عنده معارة وربما أوتيتها الصالح ولا يملك ابتاءها فلا تتم

في يد غيره ومن هذا الباب يكون عملها سحريا فقد تبين أنها انما تقع بتأثيرات النفوس وخوارق العادة اما معجزة أو كرامة أو سحرا ولهذا كان كلام الحكماء كلهم فيها ألغازا لا يظفر بحقيقته الا من خاض لجة من علم السحر واطلع على تصرفات النفس في علم الطبيعة وأمور خرق العادة غير منحصرة ولا يقصد أحد الى تحصيلها والله بما يعملون محيط وأكثر ما يحمل على التماس هذه الصناعة واتحاليها هو كما قلناه العجز عن الطرق الطبيعية للمعاش وابتغائه من غير وجوه الطبيعة كالزراعة والتجارة والصناعة فيستعصب العاجز ابتغاءه من هذه ويزوم الحصول على الكثير من المال دفعة بوجوه غير طبيعية من الكيمياء وغيرها وأكثر من يعني بذلك الفقراء من أهل العمران حتى في الحكماء المتكلمين في انكارها واستحالتها فان ابن سينا القائل باستحالتها كان عليه الوزراء فكان من أهل الغنى والثروة والفارابي القائل بإمكانها كان من أهل الفقر الذين يعوزهم أدنى بلغة من المعاش وأسبابه وهذه تهمة ظاهرة في أنظار النفوس المولعة بطرقها واتحاليها والله الرزاق ذو القوة المتين لا رب سواه

٢٨ (فصل في أن كثرة التأليف في العلوم عائقة عن التحصيل)

(اعلم) أنه مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غايته كثرة التأليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم وتعدد طرقها ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك وحينئذ يسلم له منصب التحصيل فيحتاج المتعلم الى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة اذا تجرد لها فيقع القصور ولا بد دون رتبة التحصيل ويمثل ذلك من شأن الفقه في المذهب المالكي بكتاب المدونة مثلا وما كتب عليها من الشروحات الفقهية مثل كتاب ابن يونس والبخمي وابن بشر والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل على العتبية وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كتب عليه ثم انه يحتاج الى تمييز الطريقة القيروانية من القرطبية والبغدادية والمصرية وطرق المتأخرين عنهم والاحاطة بذلك كله وحينئذ يسلم له منصب الفتيا وهي كلها متكررة والمعنى واحد والمتعلم مطالب باستحضار جميعها وتمييز ما بينها والعمر ينقضي في واحد منها ولو اقتصر المعلمون بالتعلمين على المسائل المذهبية فقط لكان الامر بدون ذلك بكثير كان التعليم سهلا وما أخذه قريبا ولكنه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه فصارت كالطبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحويلها ويمثل أيضا علم العربية من كتاب سيدييه وجميع ما كتب عليه وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والانديلسيين من بعدهم وطرق المتقدمين والمتأخرين مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب في ذلك وكيف يطالب به المتعلم وينقضي عمره دونه ولا يطمع أحد في الغاية منه الا في القليل النادر مثل

ما وصل إلينا بالمغرب لهذا العهد من تأليف رجل من أهل صناعة العربية من أهل مصر يعرف بابن هشام ظهر من كلامه فيها أنه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة لم يحصل إلا لسيبويه وابن جني وأهل طبقتهم لعظم ملكتهما أحاط به من أصول ذلك الفن وتفاريعه وحسن تصرفه فيه ودل ذلك على أن الفضل ليس منحصرًا في المتقدمين سيما مع ما قدمناه من كثرة الشواغب بتعدد المذاهب والطرق والتأليف ولكن فضل الله يؤتية من يشاء وهذا نادر من نوادر الوجود والا فالظاهر أن المتعلم ولو قطع عمره في هذا كله فلا يفي له بتحصيل علم العربية مثلاً الذي هو آلة من الآلات ووسيلة فكيف يكون في المقصود الذي هو الثمرة ولكن الله يهدي من يشاء

٢٩ (فصل في أن كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم)

ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأنحاء في العلوم يولعون بها ويدونون منها برنامجاً مختصراً في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن وصار ذلك مخلاً بالبلاغة وعسراً على الفهم وربما عمدوا إلى الكتب الامهات المطولة في الفنون للتفسير والبيان فاختصروها تقريباً للحفظ كما فعله ابن الحاجب في الفقه وأصول الفقه وابن مالك في العربية والخوانساري في المنطق وأمثالهم وهو فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل وذلك لأن فيه تخليطاً على المبتدئ بلقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد وهو من سوء التعليم كما سيأتي ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم يتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم يتراحم المعاني عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها لأن ألفاظ المختصرات مجدها لاجل ذلك صعبة عويصة فينقطع في فهمها حظ صالح من الوقت ثم بعد ذلك فالمملكة الحاصلة من التعليم في تلك المختصرات إذا تم على سداده ولم تعقبه آفة فهي ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة بكثرة ما يقع في تلك من التكرار والاحالة المفيد لحصول الملكة التامة وإذا اقتصر على التكرار قصرت الملكة لقلته كشأن هذه الموضوعات المختصرة فقصدوا إلى تسهيل الحفظ على المتعلمين فاركبهم صعباً يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها ومن يهدي الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له والله سبحانه وتعالى أعلم

٣٠ (فصل في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق افادته)

اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان على التدريج شيئاً فشيئاً وقليلًا قليلًا

يلقى عليه أولا مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب ويقرب له في شرحها على سبيل الاجمال ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي الى آخر الفن وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم الا أنها جزئية وضعيفة وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله ثم يرجع به الى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة الى أعلى منها ويستوفي الشرح والبيان ويخرج عن الاجمال ويذكر له ماهنالك من الخلاف ووجهه الى أن ينتهي الى آخر الفن فتجود ملكته ثم يرجع به وقد شذا فلا يترك عويصاً ولا مهما ولا مغلقاً إلا ونحبه وفتح له مقفله فيخلص من الفن وقد استولى على ما كنهه هذا وجه التعليم المفيد وهو كما رأيت انما يحصل في ثلاث تكرارات وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذي أدر كنا يجهلون طرق التعليم وافادته ويحضرون المتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم ويطلبونه بإحضار ذهنه في حلها ويحسبون ذلك مراناً على التعليم وصواباً فيه ويكلفونه رعي ذلك وتحصيله ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها وقبل أن يستعد لفهمها فان قبول العلم والاستعدادات لفهمه تشأندرجاً ويكون المتعلم أول الامر عاجزاً عن الفهم بالجملة الا في الأقل وعلى سبيل التقريب والاجمال وبالامثال الحسية ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلاً قليلاً بمخالفة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب الى الاستيعاب الذي فوقه حتى تتم الملكة في الاستعداد ثم في التحصيل ويحيط هو بمسائل الفن واذا أقيت عليه الغايات في البدايات وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعي وبعيد عن الاستعداد له كل ذهنه عنها وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتماذي في هجرانه وانما أتى ذلك من سوء التعليم ولا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذي أكب على التعلم منه بحسب طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئاً كان أو منتهياً ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله الى آخره ويحصل أغراضه ويستولى منه على ملكة بها ينفذ في غيره لان المتعلم اذا حصل ملكة ما في علم من العلوم استعد بها لقبول ما بقي وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض الى ما فوق حتى يستولى على غايات العلم واذا خلط عليه الامر عجز عن الفهم وأدركه الكلال وانطمس فكره ويئس من التحصيل وهجر العلم والتعليم والله يهدي من يشاء وكذلك ينبغي لك أن لا تطول على المتعلم في الفن الواحد بتفريق المجالس وتقطيع ما بينها لانه ذريعة الى النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض فيعسر حصول الملكة بتفريقها واذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند الفكرة مجانبية للنسيان كانت الملكة أيسر حصولاً وأحكم ارتباطاً وأقرب صبغة لان الملكات انما تحصل بتتابع الفعل وتكراره واذا تنوسى الفعل تنوسيت الملكة الناشئة

عنه والله علمكم ما لم تكونوا تعلمون * ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم أن لا يخطط على المتعلم علما من معافاته حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم الآخر فيستعلقان معا ويستصعبان ويعود منهما بالحيلة وإذا تفرغ الفكر لتعليم ما هو بسبيله مقتصر عليه فربما كان ذلك أجدر بتحصيله والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب (فصل) واعلم أيها المتعلم أنني أتحفك بفائدة في تعلمك فإن تلقيتها بالقبول وأمسكتها بيد الصناعة ظفرت بكثرة عظيم وذخيرة شريفة وأقدم لك مقدمة تعينك في فهمها وذلك أن الفكر الانساني طبيعة مخصوصة فطرها الله كما فطر سائر مبدعاته وهو وجدان حركة للنفس في البطن الأوسط من الدماغ تارة يكون مبدأ الأفعال الانسانية على نظام وترتيب وتارة يكون مبدأ لعلم ما لم يكن حاصلان يتوجه إلى المطلوب وقد تصور طرفيه ويروم نفيه أو اثباته فيلوح له الوسط الذي يجمع بينهما أسرع من لمح البصر ان كان واحداً وينتقل إلى تحصيل آخر ان كان متعددًا ويصير إلى الظفر بمطلوبه هذا شأن هذه الطبيعة الفكرية التي تميز بها البشر من بين سائر الحيوانات ثم الصناعة المنطقية هي كيفية فعل هذه الطبيعة الفكرية النظرية تصفه لتعلم سداده من خطئه لأنها وان كان الصواب لها ذاتيا إلا أنه قد يعرض لها الخطأ في الأقل من تصور الطرفين على غير صورتها من اشتباه الهيات في نظم القضايا وترتيبها للنتاج فتعين المنطق للتخلص من ورطة هذا الفساد اذا عرض فالمنطق اذا أمر صناعي مساوق للطبيعة الفكرية ومنطبق على صورة فعلها ولكونه أمراً صناعيا استغني عنه في الأكثر ولذلك تجد كثيرا من فحول النظر في الحليقة يحصلون على المطالب في العلوم دون صناعة المنطق ولا سيما مع صدق التية والتعرض لرحمة الله فان ذلك أعظم معنى ويسلكون بالطبيعة الفكرية على سدادها فيفضي بالطبع إلى حصول الوسط والعلم بالمطلوب كما فطرها الله عليه ثم من دون هذا الامر الصناعي الذي هو المنطق مقدمة أخرى من التعلم وهي معرفة الالفاظ ودلالها على المعاني الذهنية تردها من مشافهة الرسوم بالكتاب ومشافهة اللسان بالخطاب فلا بد أيها المتعلم من مجاوزتك هذه الحجب كلها إلى الفكر في مطلوبك فأولا دلالة الكتابة المرسومة على الالفاظ المقولة وهي أخفها ثم دلالة الالفاظ المقولة على المعاني المطلوبة ثم القوانين في ترتيب المعاني للاستدلال في قوالها المعروفة في صناعة المنطق ثم تلك المعاني مجردة في الفكر أشراك يقتص بها المطلوب بالطبيعة الفكرية بالتعرض لرحمة الله ومواهبه وليس كل أحد يتجاوز هذه المراتب بسرعة ولا يقطع هذه الحجب في التعليم بسهولة بل ربما وقف الذهن في حجب الالفاظ بالمناقشات أو عثر في اشراك الأدلة بشغب الجدل والشبهات وقعد عن تحصيل المطلوب ولم يكد يتخلص من تلك الغمرة الا قليل ممن هداه الله فاذا ابتليت بمثل ذلك وعرض لك ارتباك في فهمك

أو تشغب بالشبهات في ذهنك فاطرح ذلك واتخذ حجب الالفاظ وعوائق الشبهات واترك الامر الصناعى جملة واخلص الى فضاء الفكر الطبيعى الذي فطرت عليه وسرح نظرك فيه وفرغ ذهنك فيه للغوص على مرامك منه واضعاً لها حيث وضعها كابر النظر قلبك مستعزاً للفتح من الله كما فتح عليهم من ذهنهم من رحمته وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون فاذا فعلت ذلك أشرقت عليك أنوار الفتح من الله بالظفر بمطوبك وحصل الامام الوسط الذي جعله الله من مقتضيات هذا الفكر وفطره عليه كما قلناه وحينئذ فارجع به الى قوالب الادلة وصورها فأفرغه فيها ووفه حقه من القانون الصناعى ثم اكسه صور الالفاظ وأبرزه الى عالم الخطاب والمشاهدة وثيق العرى صحيح البيان * وأما ان وقفت عند المناقشة والشبهة في الادلة الصناعية وتمحيض صوابها من خطئها وهذه أمور صناعية وضعية تستوي جهاتها المتعددة وتتشابه لاجل الوضع والاصطلاح فلا تميز جهة الحق منها اذ جهة الحق انما تستبين اذا كانت بالطبع فيستمر ما حصل من الشك والارتباب وتسدل الحجب على المطلوب وتبعد بالنظر عن تحصيله وهذا شأن الاكثرين من النظار والمتأخرين سيما من سبقت له عجمة في لسانه فربطت على ذهنه ومن حصل له شغب بالقانون المنطقي تعصب له فاعتقد أنه الذريعة الى ادراك الحق بالطبع فيقع في الحيرة بين شبه الادلة وشكوكها ولا يكاد يخلص منها والذريعة الى درك الحق بالطبع انما هو الفكر الطبيعى كما قلناه اذا جرد عن جميع الاوهام وتعرض الناظر فيه الى رحمة الله تعالى وأما المنطق فانما هو واصف لفعل هذا الفكر فيساوقه لذلك في الاكثر فاعتبر بذلك واستمطر رحمة الله تعالى متى أعوزك فهم المسائل تشرق عليك أنواره بالالهام الى الصواب والله الهادي الى رحمته وما العلم الا من عند الله

٣١ فصل في أن العلوم الالهية لا توسع فيها الانظار ولا تفرع المسائل

(اعلم) أن العلوم المتعارفة بين أهل العمران على صنفين علوم مقصودة بالذات كالشرعيات من التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام وكالطبيعيات والالهيات من الفلسفة وعلوم هي آية وسيلة لهذه العلوم كالعربية والحساب وغيرها للشرعيات وكلنطق للفلسفة وربما كان آلة علم الكلام ولاصول الفقه على طريقة المتأخرين فأما العلوم التي هي مقاصد فلا حرج في توسعة الكلام فيها وتفريع المسائل واستكشاف الادلة والانظار فان ذلك يزيد طالبها تمكناً في ملكته وايضاحاً لمعانيها المقصودة وأما العلوم التي هي آلة لغيرها مثل العربية والمنطق وأمثالها فلا ينبغي أن ينظر فيها الامن حيث هي آلة لذلك الغير فقط ولا يوسع فيها الكلام ولا تفرع المسائل لان ذلك مخرج لها عن المقصود إذ المقصود منها ما هي

آلة له لاغير فكلما خرجت عن ذلك خرجت عن المقصود وصار الاشتغال بها لغواً مع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها بطولها وكثرة فروعها وربما يكون ذلك عائفاً عن تحصيل العلوم المقصودة بالذات لطول وسائلها مع أن شأنها أهم والعمر يقصر عن تحصيل الجميع على هذه الصورة فيكون الاشتغال بهذه العلوم الآلية تضيقاً للعمر وشغلاً بما لا يعني وهذا كما فعل المتأخرون في صناعة النحو وصناعة المنطق وأصول الفقه لأنهم أوسعوا دائرة الكلام فيها وأكثروا من التفاريع والاستدلالات بما أخرجها عن كونها آلة وصيرها من المقاصد وربما يقع فيها أنظار لاحاجة بها في العلوم المقصودة فهي من نوع اللغو وهي أيضاً مضرّة بالمتعلمين على الإطلاق لان المتعلمين اهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بوسائلها فإذا قطعوا العمر في تحصيل الوسائل فتى يظفرون بالمقاصد فلهذا يجب على المعلمين لهذه العلوم الآلية أن لا يستبحروا في شأنها وينبهوا المتعلم على الغرض منها ويقفوا به عنده فمن نزعت به همته بعد ذلك الى شئ من التوغل فليرق له ماشاء من المراقى صعباً أو سهلاً وكل ميسر لما خلق له

٣٢ (فصل في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الامصار الاسلامية في طريقه)

(اعلم) أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعار الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق فيه الى القلوب من رسوخ الايمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبنى عليه ما يحصل بعض من الملكات وسبب ذلك أن تعليم الصغر أشد رسوخاً وهو أصل لما بعده لان السابق الاول للقلوب كالأساس للملكات وعلى حسب الأساس وأسايبه يكون حال ما ينبنى عليه واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان باختلافهم باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاختصار على تعليم القرآن فقط وأخذهم أثناء المدارس بالرسم ومسائل واختلاف حملة القرآن فيه لا يخالطون ذلك بسواه في شئ من مجالس تعليمهم لامن حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب الى أن يحذف فيه أو ينقطع عنه فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعاً عن العلم بالجملة وهذا مذهب أهل الامصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر أم المغرب في ولدانهم الى ان يجاوزوا حشد البلوغ الى الشيبه وكذا في الكبير اذا راجع مدارس القرآن بعد طائفة من عمره فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم وأما أهل الاندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو وهذا هو الذي يراعونه في التعليم الا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلاً

في التعليم فلا يقتصرون لذلك عليه فقط بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة وقد شذا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما وبرز في الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة لو كان فيها سند لتعليم العلوم لكنهم ينقطعون عند ذلك لانقطاع سند التعليم في آفاقهم ولا يحصل بأيديهم إلا ما حصل من ذلك التعليم الأول وفيه كفاية لمن أرشده الله تعالى واستعداد اذا وجد المعلم وأما أهل أفريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب ومدارسه قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها إلا أن عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان إياه ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءته أكثر مما سواه وعنايتهم بالخط تتبع لذلك وبالجملة فطريقتهم في تعليم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الاندلس لأن سند طريقتهم في ذلك متصل بمشيخة الاندلس الذين أجازوا عند تغلب النصارى على شرق الاندلس واستقروا بتونس وعندهم أخذ ولدانهم بعد ذلك وأما أهل المشرق فيخلطون في التعليم كذلك على ما بلغنا ولا أدري بم عنايتهم منها والذي ينقل لنا أن عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه في زمن الشبيبة ولا يخلطون بتعليم الخط بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراد كما تعلم سائر الصنائع ولا يتداولونها في مكاتب الصبيان واذا كتبوا لهم الألواح فيخط قاصر عن الاجادة ومن أراد تعلم الخط فعلى تدبر ما يسنح له بعد ذلك من الهمة في طلبه ويتبعه من أهل صنعته فأما أهل أفريقية والمغرب فأفادهم الاقتصار على القرآن القصور عن ملكة الانسان جملة وذلك أن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة لما أن البشر مصروفون عن الاتيان بمثله فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه والاحتذاء بها وليس لهم ملكة في غير أساليبه فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي وحظه الجود في العبارات وقلة التصرف في الكلام وربما كان أهل أفريقية في ذلك أخف من أهل المغرب لما يخلطون في تعليمهم القرآن بعبارات العلوم في قوانينها كما قلناه فيقتدرون على شيء من التصرف ومحاذاة المثل بالمثل إلا أن ملكتهم في ذلك قاصرة عن البلاغة لما أن أكثر محفوظهم عبارات العلوم النازلة عن البلاغة كما سيأتي في فصله وأما أهل الاندلس فأفادهم التفنن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسه العربية من أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي وقصروا في سائر العلوم لبعدهم عن مدارس القرآن والحديث الذي هو أصل العلوم وأساسها فكانوا لذلك أهل خط وأدب بارع أو مقصر على حسب ما يكون التعليم الثاني من بعد تعليم الصبا ولقد ذهب القاضي أبو

بكر بن العربي في كتاب رحلته الى طريقة غربية في وجه التعليم وأعاد في ذلك وأبدي وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب اهل الاندلس قال لان الشعر ديوان العرب ويدعو الى تقديمه وتعليم العربية في التعليم ضرورة فساد اللغة ثم ينتقل منه الى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين ثم ينتقل الى درس القرآن فانه يتيسر عليه بهذه المقدمة ثم قال وبإغفلة أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبي بكتاب الله في أول أمره يقرأ ما لا يفهم وينصب في أمر غيره أهم عليه ثم قال ينظر في أصول الدين ثم أصول الفقه ثم الجدل ثم الحديث وعلومه ونهي مع ذلك أن يخلط في التعليم علما الا أن يكون المتعلم قابلا لذلك بمجودة الفهم والنشاط هذا ما أشار اليه القاضي أبو بكر رحمه الله وهو لعمرى مذهب حسن الا أن العوائد لا تساعد عليه وهي أملك بالاحوال ووجه ما اختصت به العوائد من تقدم دراسة القرآن إشاراً للتبرك والثواب وخشية ما يعرض للولد في جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم فيفوته القرآن لانه مادام في الحجر منقاد للحكم فاذا تجاوز البلوغ وانحل من ربة القهر فرما عصفت به رياح الشبهة فألقته بساحل البطالة فيعتمدون في زمان الحجر وربة الحكم تحصيل القرآن لئلا يذهب خلوا منه ولو حصل اليقين باستمراره في طلب العلم وقبوله التعليم لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي أولى ما أخذه أهل المغرب والمشرق ولكن الله يحكم ما يشاء لامعقب لحكمه سبحانه

٣٣ فصل في أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم

وذلك أن ارهاق الحد في التعليم مضر بالمتعلم سيما في أصاغر الولد لانه من سوء المديكة ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها وذهب بنشاطها ودعا الى الكسل وحمل على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفا من انبساط الايدي بالقهر عليه وعمله المكر والخديعة لذلك وصارت له هذه عادة وخلقا وفسدت معاني الانسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرن وهي الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله وصار عيالا على غيره في ذلك بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل فانقبضت عن غايتها ومدي انسانيتها فارتكس وعاد في أسفل السافلين وهكذا وقع لكل أمة حصلت في قبضة القهر ونال منها العسف واعتبره في كل من يملك أمره عليه ولا تكون المديكة الكافلة له رفيقة به تجد ذلك فيهم استقرار والنظر في اليهود وما حصل بذلك فيهم من خلق السوء حتي أنهم يوصفون في كل أفق وعصر بالخرج ومعناه في الاصطلاح المشهور التخايب والكيد وسببه ما قلناه فينبغي للمعلم في متعلمه والوالد في ولده أن لا يستبدوا عليهم في التأديب وقد قال أبو محمد بن أبي زيد في كتابه الذي ألفه في حكم المعلمين والمتعلمين

لابنحي لمؤدب الصبيان أن يزيد في ضربهم إذا احتاجوا اليه على ثلاثة أسواط شيئاً ومن كلام عمر رضي الله عنه من لم يؤدبه الشرع لأدبه الله حرصاً على صون النفوس عن مذلة التأديب وعلماً بأن المقدار الذي عينه الشرع لذلك أملك له فاته أعلم بمصلحته ومن أحسن مذاهب التعليم ما تقدم به الرشيد لمعلم ولده محمد الأمين فقال يا أحران أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه وثمرة قلبه فصير يدك عليه بمسوفة وطاعته لك واجبة فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين أقرئه القرآن وعرفه الأخبار ورواه الأشعار وعلمه السنين وبصره بمواقع الكلام وبدئه وامنعه من الضحك إلا في أوقاته وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيدك إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ولا تمن في مساحته فيستحلى الفراغ ويألفه وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فان أباهما فعليك بالشدة والغلظة اه

٣٤ (فصل في أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم)

والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علماً وتعليماً والقاء وتارة محاكاة وتلقيناً بالمباشرة إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها والاصطلاحات أيضاً في تعليم العلوم مخططة على المتعلم حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيد تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها فيجرد العلم عنها ويعلم أنها أنحاء تعليم وطرق توصيل وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في الملكات ويصحح معارفه ويميزها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم وهذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهداية فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بقاء المشايخ ومباشرة الرجال والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم

٣٥ (فصل في أن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها)

والسبب في ذلك أنهم معتادون النظر الفكري والغوص على المعاني وانزاعها من المحسوسات وتجربتها في الذهن أموراً كلية عامة ليحكم عليها بأمر العموم لا بخصوص مادة ولا شخص ولا جيل ولا أمة ولا صنف من الناس ويطبقون من بعد ذلك الكلي على الحارجات وأيضاً

يقيسون الامور على أشباهها وأمثالها بما اعتادوه من القياس الفقهي فلا تزال أحكامهم وأنظارهم كلها في الذهن ولا تصير الى المطابقة الا بعد الفراغ من البحث والنظر ولا تصير بالجملة الى مطابقة وانما يتفرع مافي الخارج عما في الذهن من ذلك كلاحكام الشرعية فانها فروع عما في المحفوظ من أدلة الكتاب والسنة فتطلب مطابقة مافي الخارج لها عكس الانظار في العلوم العقلية التي تطلب في صحتها مطابقتها لما في الخارج فهم متعودون في سائر أنظارهم الامور الذهنية والانظار الفكرية لا يعرفون سواها والسياسة يحتاج صاحبها الى مراعاة مافي الخارج وما يلحقها من الاحوال ويتبعها فانها خفية ولعل أن يكون فيها ما يمنع من إلحاقها بشيئ أو مثال وينافي الكلي الذي يحاول تطبيقه عليها ولا يقاس شي من أحوال العمران على الآخراذ كما اشتبه في أمر واحد فاعلمهما اختلفا في أمور فتكون العلماء لاجل ما تعودوه من تعميم الاحكام وقياس الامور بعضها على بعض اذا نظروا في السياسة أفرغوا ذلك في قالب أنظارهم ونوع استدلالهم فيقعون في الغلط كثيرا ولا يؤمن عليهم ويلحق بهم أهل الذكاء والكيس من أهل العمران لانهم يزعمون بثقوب أذهانهم الى مثل شأن الفقهاء من الغوص على المعاني والقياس والمحاكاة فيقعون في الغلط والعامي السليم الطبع المتوسط الكيس لقصور فكره عن ذلك وعدم اعتياده اياه يقتصر لكل مادة على حكمها وفي كل صنف من الاحوال والاشخاص على ما احتضنه ولا يتعدى الحكم بقياس ولا تعميم ولا يفارق في أكثر نظره المواد المحسوسة ولا يجاوزها في ذهنه كالساجد لا يفارق البر عند الموج قال الشاعر

فلا توغلن اذا ما سبحت * فان السلامة في الساحل

فيكون مأمونا من النظر في سياسته مستقيم النظر في معاملة أبناء جنسه فيحسن معاشه وتندفع آفاته ومضاره باستقامة نظره وفوق كل ذي علم عليم ومن هنا يتبين أن صناعة المنطق غير مأمونة الغلط لكثرة ما فيها من الانتزاع وبعدها عن الحسوس فانها تنظر في المعقولات الثواني ولعل المواد فيها ما يمانع تلك الاحكام وينافيها عند مراعاة التطبيق اليقيني وأما النظر في المعقولات الاول وهي التي تجردها قريب فليس كذلك لانها خيالية وصور المحسوسات حافظة مؤذنة بتصديق انطباقه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٣٦ فصل في أن حملة العلم في الاسلام أكثرهم العجم

من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الاسلامية أكثرهم العجم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية الا في القليل النادر وان كان منهم العربي في نسبته فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته مع أن الملة عربية وصاحب شريعتهما عربي والسبب في ذلك أن الملة في أولها لم

يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداءة وانما أحكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها في صدورهم وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ولا دفعوا اليه ولا دعاهم اليه حاجة وجري الامر على ذلك زمن الصحابة والتابعين وكانوا يسمون المختصين بحمل ذلك ونقله القراء أى الذين يقرؤن الكتاب وليسوا أميين لان الأمية يومئذ صفة عامة في الصحابة بما كانوا عربا فقليل لجملة القرآن يومئذ قراء اشارة الى هذا فهم قراء لكتاب الله والسنة المأثورة عن الله لانهم لم يعرفوا الأحكام الشرعية الا منه ومن الحديث الذي هو في غالب موارد تفسير له وشرح قال صلى الله عليه وسلم تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتي فلما بعد النقل من لدن دولة الرشيد فما بعد احتياج الى وضع التفسير القرآني وتقييد الحديث مخافة ضياعه ثم احتياج الى معرفة الأسانيد وتعديل الناقلين للتمييز بين الصحيح من الأسانيد وما دونه ثم كثر استخراج أحكام الواقعات من الكتاب والسنة وفسد مع ذلك اللسان فاحتيج الى وضع القوانين النحوية وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات في الاستنباطات والاستخراج والتظير والقياس واحتاجت الى علوم أخرى وهي وسائلها من معرفة قوانين العربية وقوانين ذلك الاستنباط والقياس والذب عن العقائد الايمانية بالأدلة لكثرة البدع والاحاد فصارت هذه العلوم كلها علوماً ذات ملكات محتاجة الى التعليم فاندرجت في جملة الصنائع وقد كنا قدمنا أن الصنائع من منتحل الحضرة وأن العرب أبعد الناس عنها فصارت العلوم لذلك حضرية وبعد عنها العرب وعن سوقها والحضر لذلك العهد هم العجم أو من في معناهم من الموالي وأهمل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف لانهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس فكان صاحب صناعة النحو سيويه والفارسي من بعده والزجاج من بعدهما وكلهم عجم في أنسابهم وانما ربوا في اللسان العربي فاكتسبوه بالمرئي ومخالطة العرب وصيروه قوانين وفتا لمن بعدهم وكذا جملة الحديث الذين حفظوه عن أهل الاسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربي وكان علماء أصول الفقه كلهم عجماً كما يعرف وكذا جملة علم الكلام وكذا أكثر المفسرين ولم يبق بحفظ العلم وتدوينه الا الأعاجم وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم لو تعلق العلم بأكناف السماء لناله قوم من أهل فارس* وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا اليها عن البداءة فمغشغلهم الرياسة في الدولة العباسية وما دفعوا اليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم والنظر فيه فانهم كانوا أهل الدولة وحاميتها وأولى سياستها مع ما يلحقهم من الانفة عن انتحال العلم

حينئذ بما صار من جملة الصنائع والرؤساء أبداً يستكفون عن الصنائع والمهن وما يحجر اليها ودفعوا ذلك الى من قام به من العجم والمولدين وما زالوا يرون لهم حق القيام به فانه دينهم وعلومهم ولا يحتقرون حملتها كل الاحتقار حتي اذا خرج الامر من العرب جملة وصار للعجم صارت العلوم الشرعية غريبة النسبة عند أهل الملك بما هم عليه من البعد عن نسبتها وامتحن حملتها بما يرون أنهم بعداء عنهم مشتغايين بما لا يعني ولا يجدي عنهم في الملك والسياسة كاذكرناه في نقل المراتب الدينية فهذا الذي قررناه هو السبب في أن حملة الشريعة أو عامتهم من العجم وأما العلوم العقلية أيضاً فلم تظهر في الملة الا بعد أن تميز حملة العلم ومؤلفوه واستقر العلم كله صناعة فاختصت بالعجم وتركبتها العرب وانصرفوا عن انتحالها فلم يحملها الا العربون من العجم شأن الصنائع كما قلناه أولاً فلم يزل ذلك في الامصار مادامت الحضارة في العجم وبلادهم من العراق وخراسان وما وراء النهر فلما خربت تلك الامصار وذهبت منها الحضارة التي هي سر الله في حصول العلم والصنائع ذهب العلم من العجم جملة لما شملهم من البداوة واحتصر العلم بالامصار الموفورة الحضارة ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر فهي أم العالم وإبوان الاسلام وينبوع العلم والصنائع وبقي بعض الحضارة فيما وراء النهر لما هناك من الحضارة بالدولة التي فيها فلهم بذلك حصة من العلوم والصنائع لا تنكر وقد دلنا على ذلك كلام بعض علمائهم في تأليف وصلت الينا الى هذه البلاد وهو سعد الدين التفتازاني وأما غيره من العجم فلم نر لهم من بعد الامام ابن الخطيب ونصير الدين الطوسي كلاماً يعول على نهايته في الاصابة فاعتبر ذلك وتأمله تر عجباً في أحوال الخليفة والله يخلق ما يشاء لإله إلا هو وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وحسبنا الله ونعم الوكيل

فصل في علوم اللسان العربي

٣٧

أركانها أربعة وهي اللغة والنحو والبيان والادب ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة اذ مأخذ الاحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب وشرح مشكلاتها من لغاتهم فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة وتتفاوت في التأكيذ بتفاوت مراتبها في التوفية بمقصود الكلام حسبما يتبين في الكلام عليها فناقنا والذي يتحصل أن الالهم المقدم منها هو النحو اذ به يتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدا من الخبر ولولاه لجهل أصل الافادة وكان من حق علم اللغة التقدم لولا أن أكثر الاوضاع باقية في موضوعاتها لم تتغير بخلاف الاعراب الدال على الاسناد والمسند والمسند اليه فانه تغير بالجملة ولم يبق له أثر فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة

اذ في جهله الاخلال بالتفاهم جملة وليست كذلك اللغة والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

علم النحو

اعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده وتلك العبارة فعل لساني فلا بد أن
تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم وكانت
الملكية الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها ابانة عن المقاصد دلالة غير الكلمات
فيها على كثير من المعاني مثل الحركات التي تعين الفاعل من المفعول والمجرور أعني المضاف
ومثل الحروف التي تفضي بالأفعال الى الذوات من غير تكلف ألفاظ أخرى وليس يوجد
ذلك الا في لغة العرب وأما غيرها من اللغات فكل معنى أو حال لا بد له من ألفاظ تخصه بالدلالة
ولذلك نجد كلام العجم في مخاطباتهم أطول مما تقدره بكلام العرب وهذا هو معني قوله صلى
الله عليه وسلم أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً فصار للجحروف في لغاتهم
والحركات والهيئات أى الاوضاع اعتبار في الدلالة على المقصود غير متكلفين فيه لصناعة
يستفيدون ذلك منها انما هي ملكة في ألسنتهم يأخذها الآخرون الاول كما تأخذ صبياننا لهذا
العهد لغاتنا فلما جاء الاسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الامم والدول
وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكية بما ألقى اليها السمع من الخالقات التي للمتربين والسمع
أبو الملكات اللسانية ففسدت بما ألقى اليها مما يغيرها لجنوحها اليه باعتياد السمع وخشي أهل
العلوم منهم أن تفسد تلك الملكية رأساً ويطول العهد بها فينفاق القرآن والحديث على الفهوم
فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكية مطردة شبه الكليات والقواعد يقيسون عليها
سائر أنواع الكلام ويحققون الاشياء بالاشباه مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب
والمبتدأ مرفوع ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات فاصطلحوا على تسميتهما اعراباً
وتسمية الموجب لذلك التغير عاملاً وأمثال ذلك وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم فقيدها
بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو وأول من كتب
فيها أبو الاسود الدؤلى من بني كنانة ويقال بإشارة على رضي الله عنه لانه رأى تغير الملكية
فاشار عليه بحفظها ففرغ الى ضبطها بالقوانين الحاضرة المستقرأة ثم كتب فيها الناس من بعده
الى أن انتهت الى الحليل بن أحمد الفراهيدى أيام الرشيد أحوج ما كان الناس اليها لذهاب
تلك الملكية من العرب فهذب الصناعة وكل أبوابها وأخذها عنه سيديويه فكمل تقاريعها واستكثر
من أدلتها وشواهدا ووضع فيها كتابه المشهور الذي صار إماما لكل ما كتب فيها من بعده
ثم وضع أبو على الفارسي وأبو القاسم الزجاج كتباً مختصرة للمتعلمين يحذون فيها حذو الامام

في كتابه ثم طال الكلام في هذه الصناعة وحدث الخلاف بين أهلها في السك في بصرة
المصريين القديمين للعرب وكثرت الأدلة والحجج بينهم وبينهم الطرق في التعلم وكثر
الاختلاف في اعراب كثير من آي القرآن باختلافهم في تلك القواعد وطال ذلك على المتعلمين
وجاء المتأخرون بمذاهبهم في الاختصار فاختصروا كثيراً من ذلك الطول مع استيعابهم لجميع
ما نقل كما فعله ابن مالك في كتاب التسهيل وأمثاله أو اقتصارهم على المبادئ للمتعلمين كما فعله
الزمخشري في المفصل وابن الحاجب في المقدمة له وروما نظمو ذلك نظماً مثل ابن مالك في
الارجوزتين الكبرى والصغرى وابن معطي في الارجوزة الالفية وباجملة فالتأليف في هذا الفن
أكثر من أن تحصى أو يحاط بها وطرق التعليم فيها مختلفة فطريقة المتقدمين مغايرة لطريقة
المؤخرين والكوفيون والبصريون والبغداديون والاندلسيون مختلفة طرقهم كذلك وقد كادت
هذه الصناعة أن تؤذن بالذهاب لما رأينا من النقص في سائر العلوم والصناعات بتناقص
العمران ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين
ابن هشام من علمائها استوفى فيها أحكام الأعراب بمجمل ومفصلة وتكلم على الحروف والمفردات
والجمل وحذف ما في الصناعة من المتكرر في أكثر أبوابها وسماه بالمعنى في الأعراب وأشار
إلى نكت أعراب القرآن كلها وضبطها بأبواب وفصول وقواعد انتظمت سائرهما فوقنا منه
على علم جم يشهد بعلو قدره في هذه الصناعة ووفور بضاعته منها وكأنه يخوف في طريقته منحة
أهل الموصل الذين اتفقوا أن ابن جني واتباعوا مصطلح تعليمه فأتي من ذلك بشيء عجيب دال
على قوة ملكته وإطلاعه وأنه يزيد في الخلق ما يشاء

علم اللغة

هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية وذلك أنه لما فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات
المسماة عند أهل النحو بالأعراب واستتبعت القوانين لحفظها كما قلناه ثم استمر ذلك الفساد
بملاسة المعجم ومخالطتهم حتى تأدى الفساد إلى موضوعات الالفاظ فاستعمل كثير من كلام
العرب في غير موضوعه عندهم ميلاً مع محبة المتعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية
فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل
بالقرآن والحديث فشمركثير من أئمة اللسان لذلك وأملوا فيه الدواوين وكان سابق الحلبة في
ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي ألف فيها كتاب العين فحصر فيه مركبات حروف المعجم كلها
من الثنائي والثلاثي والرابعي والخامسي وهو غاية ما ينتهي إليه التركيب في اللسان العربي وتأتي له
حصر ذلك بوجوه عددية حاصرة وذلك أن جملة الكلمات الثنائية تخرج من جميع الأعداد

على التوالى من واحد الى سبعة وعشرين وهو دون نهاية حروف المعجم بواحد لان الحرف الواحد منها يؤخذ مع كل واحد من السبعة والعشرين فتكون سبعة وعشرين كلمة ثنائية ثم يؤخذ الثاني مع الستة والعشرين كذلك ثم الثالث والرابع ثم يؤخذ السابع والعشرون مع الثامن والعشرين فيكون واحدا فتكون كلها أعدادا على توالى العدد من واحد الى سبعة وعشرين فتجتمع كما هي بالعمل المعروف عند أهل الحساب ثم تضاعف لاجل قلب الثاني لان التقديم والتأخير بين الحروف معتبر في التركيب فيكون الخارج جملة الثنائيات وتخرج الثلاثيات من ضرب عدد الثنائيات فيما يجمع من واحد الى ستة وعشرين لان كل ثنائية يزيد عليها حرفاً فتكون ثلاثية فتكون الثنائية بمنزلة الحرف الواحد مع كل واحد من الحروف الباقية وهي ستة وعشرون حرفاً بعد الثنائية فتجتمع من واحد الى ستة وعشرين على توالى العدد ويضرب فيه جملة الثنائيات ثم يضرب الخارج في ستة جملة مقولات الكلمة الثلاثية فيخرج مجموع تراكيبها من حروف المعجم وكذلك في الرباعي والخماسي فانحصرت له التراكيب بهذا الوجه ورتب أبوابه على حروف المعجم بالترتيب المتعارف واعتمد فيه ترتيب الخارج فبدأ بحروف الحلق ثم مابعده من حروف الحنك ثم الاضراس ثم الشفة وجعل حروف العلة آخرها وهى الحروف الهوائية وبدأ من حروف الحلق بالعين لانه الاقصى منها فلذلك سمي كتابه بالعين لان المتقدمين كانوا يذهبون في تسمية دواوينهم الى مثل هذا وهو تسميته باول مايقع فيه من الكلمات والالفاظ ثم بين المهمل منها من المستعمل وكان المهمل في الرباعي والخماسي أكثر لقلة استعمال العرب له لثقله ولحق به الثاني لقلة دورانه وكان الاستعمال في الثلاثي أغلب فكانت أوضاعه أكثر لدورانه وضمن الحليل ذلك كله في كتاب العين واستوعبه احسن استيعاب وأوعاه وجاء أبو بكر الزبيدي وكتب لهشام المؤيد بالاندلس في المائة الرابعة فاختصره مع المحافظة على الاستيعاب وحذف منه المهمل كله وكثيراً من شواهد المستعمل ولخصه للحفظ أحسن تلخيص وألف الجوهري من المشاركة كتاب الصحاح على الترتيب المتعارف لحروف المعجم فجعل البداية منها بالهزة وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الاخير من الكلمة لاضطرار الناس في الأكثر الى أواخر الكلام وحصر اللغة اقتداءً بمحصر الحليل ثم ألف فيها من الاندلسيين ابن سيده من أهل دانية في دولة على بن مجاهد كتاب الحكم على ذلك المنحى من الاستيعاب وعلى نحو ترتيب كتاب العين وزاد فيه التعرض لاشتقاقات الكلام وتصريفها فجاء من أحسن الدواوين ولخصه محمد بن أبي الحسين صاحب المستنصر من ملوك الدولة الحفصية بتونس وقلب ترتيب الى ترتيبه كتاب الصحاح في اعتبار أواخر الكلام وبناء التراجم عليها فكانا توأماي رحم وسليلى أبوة هذه أصول كتب اللغة فيما علمناه

وهناك مختصرات أخرى مختصة بصنف من الكلم ومستوعبة لبعض الابواب اولكلها الا أن وجه الحصر فيها خفي ووجه الحصر في تلك حلى من قبل التراكيب كما رأيت * ومن الكتب الموضوعه أيضاً في اللغة كتاب الزمخشري في الجواز بين فيه كل ما تجوز به العرب من الالفاظ وما تجوزت به من المدلولات وهو كتاب شريف الافادة ثم لما كانت العرب تضع الشيء على العموم ثم تستعمل في الامور الخاصة ألفاظاً أخرى خاصة بها فرق ذلك عندنا بين الوضع والاستعمال واحتجاج الى فقه في اللغة عزيز المأخذ كوضع الابيض بالوضع العام لكل ما فيه بياض ثم اختص ما فيه بياض من الحبل بالاشهب ومن الانسان بالازهر ومن الغنم بالاماح حتى صار استعمال الأبيض في هذه كلها خطأ وخروجاً عن لسان العرب واختص بالتأليف في هذا المنهج الثعالبي وأفرده في كتاب له سماه فقه اللغة وهو من أكد ما يأخذ به اللغوي نفسه أن يحرف استعمال العرب عن مواضعه فليس معرفة الوضع الاول بكاف في التركيب حتى يشهد له استعمال العرب لذلك وأكثر ما يحتاج الى ذلك الاديب في في نظمه وشره حذراً من أن يكثر لحنه في الموضوعات اللغوية في مفرداتها وتراكيبها وهو أشد من اللحن في الاعراب وأخف وكذلك ألف بعض المتأخرين في الالفاظ المشتركة وتكفل بحصرها وان لم تبلغ الى النهاية في ذلك فهو مستوعب للاكثر وأما المختصرات الموجودة في هذا الفن المخصوصة بالمتداول من اللغة الكثير الاستعمال تسهيلات لحفظها على الطالب فكثيرة مثل الالفاظ لابن السكيت والفصيح لثعلب وغيرهما وبعضها أقل لغة من بعض لاختلاف نظرهم في الأهم على الطالب للحفظ والله الخلاق العليم لارب سواه

علم البيان

هذا العلم حادث في الملة بعد علم العربية واللغة وهو من العلوم الاسانية لانه متعلق بالالفاظ وما تفيد و يقصد بها الدلالة عليه من المعاني وذلك ان الامور التي يقصد المتكلم بها افادة السامع من كلامه هي إما تصور مفردات تسند ويسند اليها ويفضي بعضها الى بعض والدالة على هذه هي المفردات من الاسماء والافعال والحروف وأما تمييز المسندات من المسند اليها والازمنة ويدل عليها بتغير الحركات وهو الاعراب وأبنية الكلمات وهذه كلها هي صناعة النحو ويبقى من الامور المكتشفة بالواقعات المحتاجة للدلالة أحوال المتخاطبين أو القاعلين وما يقتضيه حال الفعل وهو محتاج الى الدلالة عليه لانه من تمام الافادة واذا حصلت للمتكلم فقد باغ غاية الافادة في كلامه واذا لم يشتمل على شيء منها فليس من جنس كلام العرب فان كلامهم واسع ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الاعراب والابانة ألا ترى أن قولهم زيد جاءني مغاير لقولهم

جاءني زيد من قبل أن المتقدم منهما هو الأهم عند المتكلم فمن قال جاءني زيد أفاد أن اهتمامه بالحجي قبل الشخص المسند اليه ومن قال زيد جاءني أفاد أن اهتمامه بالشخص قبل الحجي المسند وكذا التعبير على أجزاء الجملة بما يناسب المقام من موصول أو مبهم أو معرفة وكذا تأكيد الاسناد على الجملة كقولهم زيد قائم وان زيداً قائم وان زيداً قائم متغايرة كلها في الدلالة وان استوت من طريق الاعراب فان الاول العاري عن اتاكيد انما يفيد الخالي الذهن والثاني المؤكد بان يفيد التردد والثالث يفيد المنكر فهي مختلفة وكذلك تقول جاءني الرجل ثم تقول مكانه بعينه جاءني رجل اذا قصدت بذلك التأكيد تعظيمه وانه رجل لا يبادل له أحد من الرجال ثم الجملة الاسنادية تكون خبرية وهي التي لها خارج تطابقه أولاً وانثائية وهي التي لا خارج لها كالطلب وانواعه ثم قد يتعين ترك العاطف بين الجملتين اذا كان للثانية محل من الاعراب فينزل بذلك منزلة لتابع المفرد نعتاً وتوكيداً وبدلاً بلا عطف أو يتعين العطف اذا لم يكن للثانية محل من الاعراب ثم يقتضى المحل الاطناب والايجاز فيورد الكلام عليهما ثم قد يدل باللفظ ولا يريد منطوقه ويريد لازمة ان كان مفرداً كما تقول زيد أسد فلا تريد حقيقة الاسد المنطوقة وانما تريد شجاعته اللازمة وتسندھا الى زيد وتسمى هذه استعارة وقد ترديد باللفظ المركب الدلالة على ملزومه كما تقول زيد كثير الرماد وتريد به ما لزم ذلك عنه من الجود وقرى الضيف لان كثرة الرماد ناشئة عنهما فهي دالة عليهما وهذه كلها دلالة زائدة على دلالة الالفاظ المفرد والمركب وانما هي هيات وأحوال لواقعات جمعات للدلالة عليها أحوال وهيات في الالفاظ كل بحسب ما يقتضيه مقامه فاشتمل هذا العلم المسمي بالبيان على البحث عن هذه الدلالات التي للهيات والاحوال والمقامات وجعل على ثلاثة أصناف الصنف الاول يبحث فيه عن هذه الهيات والاحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال ويسمي علم البلاغة والصنف الثاني يبحث فيه عن الدلالة على اللازم اللفظي وملزومه وهي الاستعارة والكناية كما قلناه ويسمي علم البيان وألحقوا به اصنفاً آخر وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التعميق إما بسجع يفصله أو تجنيس يشابه بين ألفاظه أو ترصيع يقطع أوزانه أو تورية عن المعنى المقصود بيهام معنى أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما وأمثال ذلك ويسمي عندهم علم البديع وأطلق على الاصناف الثلاثة عند المحدثين اسم البيان وهو اسم الصنف الثاني لان الاقدمين أول ما تكلموا فيه ثم تلاحت مسائل الفن واحدة بعد أخرى وكتب فيها جعفر بن يحيى والجاحظ وقدامة وأمثالهم املاآت غير وافية فيها ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئاً فشيئاً الى أن محض السكاكي زبدته وهذب مسائله ورتب أبوابه على نحو ما ذكرناه آنفاً من الترتيب وألف كتابه المسمى بالمفتاح في النحو والتصريف والبيان فجعل هذا الفن من بعض أجزائه وأخذ المتأخرون من كتابه ولخصوا منه أمهات هي المتداولة

لهذا العهد كما فعله السكاكي في كتاب التبيان وابن مالك في كتاب المصباح وجمال الدين القزويني في كتاب الايضاح والتلخيص وهو أصغر حجماً من الايضاح والعناية به لهذا العهد عند أهل المشرق في الشرح والتعليم منه أكثر من غيره وبالجملة فالمشاركة على هذا الفن أقوم من المغاربة وسببه والله أعلم انه كمال في العلوم اللسانية والصنائع الكمالية توجد في العمران والمشرق أوفر عمراناً من المغرب كما ذكرناه أو نقول لعناية العجم وهو معظم أهل المشرق كتفسير الزمخشري وهو كله مبني على هذا الفن وهو أصله وإنما اختص أهل المغرب من أصفاه علم البديع خاصة وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية وفرعوا له ألقاباً وعددوا أبواباً ونوعوا أنواعاً وزعموا أنهم أحصوها من لسان العرب وإنما حملهم على ذلك الولوع بتزيين الالفاظ وأن علم البديع سهل المأخذ وصعبت عليهم مأخذ البلاغة والبيان لدقة نظارها وغموض معانيها فتجافوا عنها* ومن ألف في البديع من أهل أفريقية ابن رشيق وكتاب العمدة له مشهور وجري كثير من أهل أفريقية والاندلس على منحاه وأعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هي في فهم الاعجاز من القرآن لان اعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الاحوال منطوقة ومفهومة وهي أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالالفاظ في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها وهذا هو الاعجاز الذي تقصر الافهام عن دركه وإنما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي وحصول ملكته فيدرك من اعجازه على قدر ذوقه فلماذا كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبلغه أعلى مقاماً في ذلك لانهم فرسان الكلام وجهابذته والذوق عندهم موجود باوفر ما يكون وأصح وأحوج ما يكون الى هذا الفن المفسرون وأكثر تفاسير المتقدمين غفل عنه حتى ظهر جراح الله الزمخشري ووضع كتابه في التفسير وتبع آي القرآن باحكام هذا الفن بما يبدي البعض من اعجازه فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة ولاجل هذا يتحماه كثير من أهل السنة مع وفور بضاعته من البلاغة فن أحكم عقائد السنة وشارك في هذا الفن بعض المشاركة حتي يقتدر على الرد عليه من جنس كلامه أو يعلم أنه بدعة فيعرض عنها ولا تضر في معتقده فانه يتعين عليه النظر في هذا الكتاب للظفر بشيء من الاعجاز مع السلامة من البدع والاهواء والله الهادي من يشاء الى سواء السبيل

علم الادب

هذا العلم لاموضوع له ينظر في اثبات عوارضه أو نفيها وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهي الاجادة في فني المنظوم والمثثور على أساليب العرب ومناحيهم فيجمعون لذلك من

كلام العرب ماعساه تحصل به الملكة من شعر عالي الطبقة وسجع متساو في الاجادة ومسائل من اللغة والنحو مبنوثة أثناء ذلك متفرقة يستقرى منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية مع ذكر بعض من أيام العرب يفهم به مايقع في أشعارهم منها وكذلك ذكر المهم من الانساب الشهيرة والاخبار العامة والمقصود بذلك كله أن لا يخفى على الناظر فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم اذا تصفحه لانه لا تحصل الملكة من حفظه الا بعد فهمه فيحتاج الى تقديم جميع مايتوقف عليه فهمه ثم أنهم اذا أرادوا حدهذا الفن قالوا الادب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والاخذ من كل علم بطرف يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط وهي القرآن والحديث اذا لمدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب الا مذهب اليه المتأخرون عند كلهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ الى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائماً على فهمها وسمعا من شيوخنا في مجالس التعليم ان أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي أدب الكاتب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها وكتب المحدثين في ذلك كثيرة وكان الغناء في الصدر الاول من أجزاء هذا الفن لما هو تابع للشعر اذ الغناء انما هو تاجيته وكان الكتاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصاً على تحصيل أساليب الشعر وفنونه فلم يكن انتحاله قادحاً في العدالة والمروءة وقد ألف القاضي أبو الفرج الأصبهاني وهو ما هو كتابه في الأغاني جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم وجمل مبناه على الغناء في المائة صوت التي اختارها المغنون لارشيد فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه ولعمري انه ديوان العرب وجامع أشات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الاحوال ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما علمه وهو الغاية التي يسمو اليها الاديب ويوقف عندها وأني له بها ونحن الآن نرجع بالتحقيق على الاجال فيما تكلمنا عليه من علوم اللسان والله الهادي للصواب

(اعلم) ان اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة اذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها وليس ذلك بالنظر الى المفردات وانما هو بالنظر الى التراكيب فاذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال بلغ المتكلم حينئذ الغاية

من افادة مقصوده للسامع وهذا هو معنى البلاغة والمملكات لا تحصل الا بتكرار الافعال لان الفعل يقع أولا وتعود منه للذات صفة ثم تتكرر فتكون حالا ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة فالتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل حيله وأساليبهم في مخاطبتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أولا ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك ثم لا يزال سماعهم لذلك يجدد في كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرر الى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم هكذا تصيرت الألسن واللغات من جيل الى جيل وتعلمها العجم والأطفال وهذا هو معنى ما نقوله العامة من أن اللغة للعرب بالطبع أي بالملكة الاولى التي أخذت عنهم ولم يأخذوها عن غيرهم ثم انه لما فسدت هذه الملكة لمضرب بمخالطتهم الأعاجم وسبب فسادها أن الناشئ من الجيل صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب فيعبر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم ويسمع كيفيات العرب أيضا فاختلط عليه الامر وأخذ من هذه وهذه فاستحدث ملكة وكانت ناقصة عن الاولى وهذا معنى فساد اللسان العربي ولهذا كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ثم من اكتشفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبنو كنانة وغطفان وبنو أسد وبنو تميم وأما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وإياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين للأمم الفرس والروم والحبشة فلم تكن لغتهم تامة المايكة بمخالطة الأعاجم وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٣٩ (فصل في أن لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة لغة مضر وحمر)

وذلك أنا نجدها في بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المضري ولم يفقد منها الا دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول فاعتاضوا منها بالتقديم والتأخير وبقراءن تدل على خصوصيات المقاصد الا أن البيان والبلاغة في اللسان المضري أكثر وأعرف لان الالفاظ بأعيانها دالة على المعاني بأعيانها ويبقى ماقتضيه الاحوال ويسمى بساط الحال محتاجا الى مايدل عليه وكل معنى لا بد وأن تكتشفه أحوال تخصه فيجب أن تعتبر تلك الاحوال في تأدية المقصود لانها صفاته وتلك الاحوال في جميع الألسن أكثر مايدل عليها بالفاظ تخصها بالوضع وأما في اللسان العربي فلما يدل عليها بأحوال وكيفيات في تراكيب الالفاظ وتأليفها من تقديم أو تأخير أو حذف أو حركة إعراب وقديدل عليها بالحروف غير المستقلة

ولذلك تفاوتت طبقات الكلام في اللسان العربي بحسب تفاوت الدلالة على تلك الكيفيات كما قدمناه فكان الكلام العربي لذلك أوجز وأقل ألفاظاً وعبارة من جميع اللسان وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم أوتيت جوامع الكلم واجتصر لي الكلام اختصاراً واعتبر ذلك بما يحكى عن عيسى ابن عمر وقد قال له بعض النحاة اني أجد في كلام العرب تكراراً في قولهم زيد قائم وان زيدا القائم والمعنى واحد فقال له ان معانيها مختلفة فالاول لافادة الحالى الذهن من قيام زيد والثاني لمن سمعه فانكره والثالث لمن عرف بالاصرار على انكاره فاختلفت الدلالة باختلاف الاحوال وما زالت هذه البلاغة والبيان يدين العرب ومذهبهم لهذا العهد ولا تلتفتن في ذلك الى خرفشة النحاة أهل صناعة الاعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت وأن اللسان العربي فسد اعتباراً بما وقع أواخر الكلم من فساد الاعراب الذي يتدأرون قوانينه وهي مقالة دسها التشيع في طباعهم وألقاها القصور في أفئدتهم والافتحن نجد اليوم الكثير من ألفاظ العرب لم تزل في موضوعاتها الاولى والتعبير عن المقاصد والتعاون فيه بتفاوت الابانة موجود في كلامهم لهذا العهد وأساليب اللسان وقنونه من النظم والنثر موجودة في مخاطباتهم وفهم الخطيب المصقع في محافلهم ومجامعهم والشاعر المفالق على أساليب لغتهم والذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك ولم يفقد من أحوال اللسان المدون الاحركات الاعراب في أواخر الكلم فقط الذي لزم في لسان مضر طريقة واحدة ومهيماً معروفاً وهو الاعراب وهو بعض من أحكام اللسان وانما وقعت العناية بلسان مضر لما فسد بمخالطتهم الأعاجم حين استولوا على ممالك العراق والشام ومصر والمغرب وصارت ملكته على غير الصورة التي كانت أولاً فانقلب لغة أخرى وكان القرآن متزلاً به والحديث النبوى منقولاً بلغته وهما أصلاً الدين والملة فخشى تناسيها وانغلاق الافهام عنهما بفقدان اللسان الذي تنزلاً به فاحتيج الى تدوين أحكامه ووضع مقاييسه واستنباط قوانينه وصار علماً ذا فصول وأبواب ومقدمات ومسائل سماه أهل علم النحو وصناعة العربية فاصبح فناً محفوظاً وعلماً مكتوباً وسلموا الى فهم كتاب الله وسنة رسوله وأفيا ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الاعرابية في دلالتها بامور أخرى موجودة فيه فتكون لها قوانين تخصها ولعلها تكون في أواخره على غير المنهاج الاول في لغة مضر فليست اللغات وملكاتها مجاناً ولقد كان اللسان المضرى مع اللسان الحميرى بهذه المثابة وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميرى وتصاريف كلماته تشهد بذلك الانتقال الموجودة لدينا خلافاً لمن يحمله القصور على انهما لغة واحدة ويلتمس اجراء اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضرية وقوانينها كما يزعم بعضهم في اشتقاق القيل في اللسان الحميرى أنه

من القول وكثير من أشباه هذا وليس ذلك بصحيح ولغة حمير لغة أخرى مغايرة لغة مضر في الكثير من أوضاعها وتصاريفها وحركات أعرابها كما هي لغة العرب لعهدها مع لغة مضر إلا أن العناية بلسان مضر من أجل السرعة كما قلناه حمل ذلك على الاستنباط والاستقراء وليس عندنا لهذا العهد ما يحملنا على مثل ذلك ويدعوننا إليه ومما وقع في لغة هذا الحيل العربي لهذا العهد حيث كانوا من الاقطار شأنهم في النطق بالقاف فانهم لا ينطقون بها من مخرج القاف عند أهل الامصار كما هو مذكور في كتب العربية أنه من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى وما ينطقون بها أيضا من مخرج الكاف وان كان أسفل من موضع القاف وما يليه من الحنك الأعلى كما هي بل يحيئون بها متوسطة بين الكاف والقاف وهو موجود للجيل أجمع حيث كانوا من غرب أوشرق حتى صار ذلك علامة عليهم من بين الأمم والاحياء ومختصا بهم لا يشاركون فيها غيرهم حتى ان من يريد التعرب والانتساب الى الحيل والدخول فيه يماكيهم في النطق بها وعندهم انه انما يتميز العربي الصريح من الدخيل في العروبة والحضري بالنطق بهذه القاف ويظهر بذلك انها لغة مضر بعينها فان هذا الحيل الباقيين معظمهم ورؤسائهم شرقا وغربا في ولد منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان من سليم بن منصور ومن بني عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور وهم لهذا العهد أكثر الأمم في المعمور وأغلبهم وهم من أعقاب مضر وسائر الحيل منهم في النطق بهذه القاف أسوة وهذه اللغة لم يتبدعها هذا الحيل بل هي متوارثة فيهم متعاقبة ويظهر من ذلك انها لغة مضر الاولين ولعالمها لغة النبي صلى الله عليه وسلم بعينها وقد ادعى ذلك فقهاء أهل البيت وزعموا أن من قرأ في أم القرآن إهدنا الصراط المستقيم بغير القاف التي لهذا الحيل فقد لحن وأفسد صلاته ولم أدر من أين جاء هذا فان لغة أهل الامصار أيضا لم يستحدثوها وانما تناقلوها من لدن سلفهم وكان أكثرهم من مضر لما نزلوا الامصار من لدن الفتح وأهل الحيل أيضا لم يستحدثوها الا أنهم أبعد من مخالطة الاعاجم من أهل الامصار فهذا يرجح فيما يوجد من اللغة لديهم انه من لغة سلفهم هذا مع اتفاق أهل الحيل كلهم شرقا وغربا في النطق بها وانما الخاصة التي يتميز بها العربي من الهجين والحضري ففهم ذلك والله الهادي المبين

٤٠ فصل في أن لغة أهل الحضرة والامصار لغة قائمة بنفسها مخالفة لثغة مضر

اعلم أن عرف التخاطب في الامصار وبين الحضرة ليس بلغة مضر القديمة ولا بلغة أهل الحيل بل هي لغة أخرى قائمة بنفسها بعيدة عن لغة مضر وعن لغة هذا الحيل العربي الذي لعهدها وهي عن لغة مضر أبعد فاما انها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر يشهد له ما فيها من التباين الذي

يعد عند صناعة أهل النحو لحنا وهي مع ذلك تختلف باختلاف الأمصار في اصطلاحاتهم
فلغة أهل المشرق مباينة بعض الشيء لغة أهل المغرب وكذا أهل الأندلس معهما وكل منهم
متوصل بلغته إلى تأدية مقصوده والإبانة عما في نفسه وهذا معنى اللسان واللغة وفقدان الأعراب
ليس بضائر لهم كما قلناه في لغة العرب لهذا العهد وأما أنها أبعد عن اللسان الأول من لغة هذا
الجيل فلأن البعد عن اللسان إنما هو بمخالطة العجمة فمن خالط العجم أكثر كانت لغته عن
ذلك اللسان الأصلي أبعد لأن الملكة إنما تحصل بالتعليم كما قلناه وهذه ملكة ممتزجة من الملكة
الأولى التي كانت للعرب ومن الملكة الثانية التي للعجم فعلي مقدار ما يسمعون منه من العجمة ويربون
عليه يبعدون عن الملكة الأولى واعتبر ذلك في أمصار أفريقية والمغرب والأندلس والمشرق
أما أفريقية والمغرب فخالط العرب فيها البرابرة من العجم بوفور عمرانها بهم ولم يكذبوا
عنهم مصر ولا جيل فغلبت العجمة فيها على اللسان العربي الذي كان لهم وصارت لغة أخرى
ممتزجة والعجمة فيها أغلب لما ذكرناه فهي عن اللسان الأول أبعد وكذا المشرق لما غاب العرب
على أمه من فارس والترك فخالطوهم وتداولت بينهم لغاتهم في الأكرّة والفلاحين والسبي الذين
اتخذوهم خولا ودايات وأطّاراً ومراضع ففسدت لغتهم بفساد الملكة حتى انقلبت لغة أخرى
وكذا أهل الأندلس مع عجم الجلالة والأفريقية وصار أهل الأمصار كلهم من هذه الأقاليم
أهل لغة أخرى مخصوصة بهم تخالف لغة مضر ويخالف أيضاً بعضها بعضاً كما نذكره وكأنها لغة
أخرى لاستحكام ملكتها في أجيالهم والله يخاف ما يشاء ويقدر

٤١ فصل في تعليم اللسان المضري

اعلم أن ملكة اللسان المضري لهذا العهد قد ذهبت وفسدت ولغة أهل الجيل كلهم مغايرة للغة
مضر التي نزل بها القرآن وإنما هي لغة أخرى من امتزاج العجمة بها كما قدمناه إلا أن اللغات
لما كانت ملكات كما مر كان تعلمها ممكناً شأن سائر الملكات ووجه التعليم لمن يتبغي هذه
الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن
والحديث وكلام السلف ومحاطبات خول العرب في أسجاعهم وأشعارهم وكلمات المولدين
أيضاً في سائر فنونهم حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ
بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب
عباراتهم وتأليف كلماتهم وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم فتحصل له هذه
الملكة بهذا الحفظ والاستعمال ويزداد بكثرتهما رسوخاً وقوة ويحتاج مع ذلك إلى سلامة
الطبع والفهم الحسن لمنازع العرب وأساليبهم في التراكيب ومراعاة التطبيق بينهما وبين مقتضيات

الاحوال والنوق يشهد بذلك وهو ينشأ ما بين هذه الملكة والطبع السليم فيها كما نذكر وعلى قدر المحفوظ وكثرة الاستعمال تكون جودة المقول المصنوع نظاماً ونوراً ومن حصل على هذه الملكات فقد حصل على لغة مضر وهو الناقد البصير بالبلاغة فيها وهكذا ينبغي أن يكون تعلمها والله يهدي من يشاء بفضلها وكرمه

٤٢ فصل في أن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم

والسبب في ذلك أن الصناعة العربية انما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة فهو علم بكيفية لانفس كيفية فليست نفس الملكة وانما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علماً ولا يحكمها عملاً مثل أن يقول بصير بالخطا غير محكم لملكته في التعبير عن بعض أنواعها الخطا هي أن يدخل الخط في خرت الابرة ثم يغرزها في لفتي الثوب مجتمعين ويخرجها من الجانب الآخر بمقدار كذا ثم يردّها الى حيث ابتدأت ويخرجها قدام منفذها الاول بمطرح ما بين الثقبين الاولين ثم يتبادى على ذلك الى آخر العمل ويعطي صورة الجك والتذيت والتفتيح وسائر أنواع الخطا وأعمالها وهو اذا طوب أن يعمل ذلك بيده لا يحكم منه شيئاً وكذا لو سئل عالم بالنجارة عن تفصيل الخشب فيقول هو أن تضع المنشار على رأس الخشبة وتمسك بطرفه وآخر قبالتك ممسك بطرفه الآخر وتعاقبانه ينسكماً وأطرافه المضرسة المحددة تقطع مامرت عليه ذاهبة وجائية الى أن ينتهي الى آخر الخشبة وهو لو طوب بهذا العمل أو شئ منه لم يحكمه وهكذا العلم بقوانين الاعراب مع هذه الملكة في نفسها فان العلم بقوانين الاعراب انما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل ولذلك نجد كثيراً من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علماً بتلك القوانين اذا سئل في كتابة سطرين الى أخيه أو ذي مودته أو شكوى ظلامة أو قصد من قصوده أخطأ فيها عن الصواب وأكثر من اللحن ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربي وكذا نجد كثيراً ممن يحسن هذه الملكة ويحيد الفنين من المنظوم والمنثور وهو لا يحسن اعراب الفاعل من المفعول ولا المرفوع من المجرور ولا شيئاً من قوانين صناعة العربية فمن هذا تعلم أن تلك الملكة هي غير صناعة العربية وانها مستغنية عنها بالجملة وقد نجد بعض المهرة في صناعة الاعراب بصيراً بحال هذه الملكة وهو قليل واتفاق وأكثر ما يقع للمخالفين لكتاب سيبويه فانه لم يقتصر على قوانين الاعراب فقط بل ملاً كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم فكان فيه جزء صالح من تعليم هذه الملكة فتجدالاً كف عليه والمحصل له قد حصل على حظ من كلام العرب واندرج في محفوظه في أما كنه ومفاصل

حاجاته وتنبه به لشأن الملكة فاستوفي تعليمها فكان أبانغ في الافادة ومن هؤلاء المخاطبين لكتاب سيويوه من يغفل عن التفطن لهذا فيحصل على علم اللسان صناعة ولا يحصل عليه ملكة وأما المخاطلون لكتب المتأخرين العارية عن ذلك الا من القوانين النحوية مجردة عن أشعار العرب وكلامهم فقلما يشعرون لذلك بأمر هذه الملكة أو يتنبهون لشأنها فجدد لهم يحسبون انهم قد حصلوا على رتبة في لسان العرب وهم أبعد الناس عنه وأهل صناعة العربية بالاندلس ومعلومها أقرب الى تحصيل هذه الملكة وتعليمها من سواهم لقيامهم فيها على شواهد العرب وأمثالهم والتفقه في الكثير من التراكيب في مجالس تليمهم فيسبق الى المبتدي كثير من الملكة أثناء التليم فتقطع النفس لها وتستعد الى تحصيلها وقبولها وأما من سواهم من أهل المغرب وأفريقية وغيرهم فأجروا صناعة العربية مجري العلوم بحثاً وقطعوا النظر عن التفقه في تراكيب كلام العرب الا أن أعربوا شاهداً أو رجحوا مذهباً من جهة الاقتضاء الذهني لا من جهة محامل اللسان وتراكيبه فأصبحت صناعة العربية كأنها من جملة قوانين المنطق العنلية أو الجدل وبعدت عن مناحي اللسان وملكته وما ذلك الا لعدولهم عن البحث في شواهد اللسان وتراكيبه وتميز أساليبه وغفلتهم عن المران في ذلك للمتعلم فهو احسن ما تفيد به الملكة في اللسان وتلك القوانين انما هي وسائل للتعليم لسكنهم اجروها على غير ما قصد بها وأصاروها علماً بحثاً وبعدوا عن ثمرتها وتعلم مما قررناه في هذا الباب ان حصول ملكة اللسان العربي انما هو بكثير الحفظ من كلام العرب حتي يرتسم في خياله المنوال الذي نستجوا عليه تراكيبهم فينسج هو عليه ويتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم وخالط عباراتهم في كلامهم حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم والله مقدر الامور كلها والله اعلم بالغيب

٤٣ فصل في تفسير الذوق في مصطلح أهل البيان وتحقيق معناه وبيان

أنه لا يحصل غالباً للمستعربين من العجم

(اعلم) أن لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان وقد مر تفسير البلاغة وأنها مطابقة الكلام للمعني من جميع وجوهه بخواص تقع للتراكيب في إفادة ذلك فالتكلم بلسان العرب والبلغ فيه يتحري الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطبتهم وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده فاذا اتصلت مقاماته بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة في نظم الكلام على ذلك الوجه وسهل عليه أمر التركيب حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحي البلاغة التي للعرب وان سمع

تركيا غير جار على ذلك المنجي مجه ونبا عنه سمعه بأدني فكر بل وبغير فكر الا بما استفاده من حصول هذه الملكة فان الملكات اذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كأنها طبيعة وجيلة لذلك الحل ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم اعرابا وبلاغة أمر طبيعي ويقول كانت العرب تنطق بالطبيع وليس كذلك وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في بادئ الرأي أنها جيلة وطبيع هذه الملكة كما تقدم وإنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة اللسان فان هذه القوانين إنما تقيد علماً بذلك اللسان ولا تقيد حصول الملكة بالفعل في محلها. وقد مر ذلك واذا تقرر ذلك فملكة البلاغة في اللسان تهدي البليغ الى وجود النظم وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم ولو رام صاحب هذه الملكة حيداً عن هذه السبيل المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه ولا وافقه عليه لسانه لانه لا يعتاده ولا تهديه اليه ملكته الراسخة عنده وإذا عرض عليه الكلام حائداً عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه ومجه وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم وربما يعجز عن الاحتجاج لذلك كما تصنع أهل القوانين النحوية والبيانية فان ذلك استدلال بما حصل من القوانين المفادة بالاستقراء وهذا أمر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم ومثاله لو فرضنا صبياً من صبيانهم نشأ وربى في جيلهم فانه يتعلم لغتهم ويحكم شأن الاعراب والبلاغة فيها حتى يستولى على غايتها وليس من العلم القانوني في شيء وإنما هو بمحصول هذه الملكة في لسانه ونطقه وكذلك تحصل هذه الملكة لمن بعد ذلك الحيل بحفظ كلامهم وأشعارهم وخطبهم والمداومة على ذلك بحيث يحصل الملكة ويصير كواحد ممن نشأ في جيلهم وربى بين أجيالهم والقوانين بمعزل عن هذا واستعير لهذه الملكة عند ما ترسخ وتستقر اسم الذوق الذي اصطلاح عليه أهل صناعة البيان وإنما هو موضوع لادراك الطعوم لكن لما كان محل هذه الملكة في اللسان من حيث النطق بالكلام كما هو محل لادراك الطعوم استعير لها اسمه وأيضاً فهو وجداني للسان كما أن الطعوم محسوسة له فليل له ذوق واذا تبين لك ذلك علمت منه أن الاعاجم الداخلين في اللسان العربي الطارئین عليه المضطربین الى النطق به لخاططة أهله كالفرس والروم والترك بالشرق وكالبربر بالمغرب فانه لا يحصل لهم هذا الذوق لقصور حظهم في هذه الملكة التي قررنا أمرها لان قصاراهم بعد طائفة من العمر وسبق ملكة أخرى الى اللسان وهي لغاتهم أن يعتنوا بما يتداوله أهل مصر بينهم في المحاورة من مفرد ومركب لما يضطرون اليه من ذلك وهذه الملكة قد ذهبت لاهل الأمصار وبعثوا عنها كما

تقدم وإنما لهم في ذلك ملكة أخرى وليست هي ملكة اللسان المطلوبة ومن عرف تلك الملكة من القوانين المسطرة في الكتب فليس من تحصيل الملكة في شيء إنما حصل أحكامها كما عرفت وإنما تحصل هذه الملكة بالممارسة والاعتقاد والتكرار للكلام العرب فان عرض لك ماتسمعه من أن سيويه والفارسي والزمخشري وأمثالهم من فرسان الكلام كانوا أعجماً مع حصول هذه الملكة لهم فاعلم أن أولئك القوم الذين تسمع عنهم إنما كانوا عجماً في نسبهم فقط وأما المربي والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب ومن تعلمها منهم فاستولوا بذلك من الكلام على غاية لا ورأها وكانهم في أول نشأتهم من العرب الذين نشؤوا في أجيالهم حتى أدركوا كنه اللغة وصاروا من أهلها فهم وإن كانوا عجماً في النسب فليدسوا بأعجام في اللغة والكلام لانهم أدركوا الملة في غفوانها واللغة في شبابها ولم تذهب آثار الملكة ولا من أهل الأمصار ثم عكفوا على الممارسة والممارسة للكلام العرب حتى استولوا على غايته واليوم الواحد من العجم إذا خاطب أهل اللسان العربي بالامصار فأول ما يجد تلك الملكة المقصودة من اللسان العربي متمتجة الآثار ويجد ملكتهم الخاصة بهم ملكة أخرى مخالفة لملكة اللسان العربي ثم إذا فرضنا أنه أقبل على الممارسة للكلام العرب وأشعارهم بالممارسة والحفظ يستفيد تحصيلها فقل أن يحصل له ما قدمناه من أن الملكة إذا سبقها ملكة أخرى في المحل فلا تحصل إلا ناقصة مخدوشة وإن فرضنا عجمياً في النسب سلم من مخالطة اللسان العجمي بالكلية وذهب إلى تعلم هذه الملكة بالممارسة فربما يحصل له ذلك لكنه من الدور بحيث لا يخفى عليك بما تقرر وربما يدعي كثير ممن ينظر في هذه القوانين البيانية حصول هذا الذوق له بها وهو غلط أو مغالطة وإنما حصلت له الملكة إن حصلت في تلك القوانين البيانية وليست من ملكة العبارة في شيء والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم

٤٤ فصل في أن أهل الأمصار على الإطلاق قاصرون في تحصيل هذه

الملكة اللسانية التي تستفاد بالتعليم ومن كان منهم أبعد عن اللسان العربي كان حصولها له أصعب وأعسر

والسبب في ذلك ما سبق إلى المتعلم من حصول ملكة منافية للملكة المطلوبة بما سبق إليه من اللسان الحضري الذي أفادته العجمة حتى نزل بها اللسان عن ملكته الأولى إلى ملكة أخرى هي لغة الحضرة لهذا العهد ولهذا نجد المعلمين يذهبون إلى المسابقة بتعليم اللسان للولدان وتعتقد النجاة أن هذه المسابقة بصناعتهم وليس كذلك وإنما هي بتعليم هذه الملكة بمخالطة اللسان وكلام العرب نعم صناعة النحو أقرب إلى مخالطة ذلك وما كان من لغات أهل

الامصار أعرق في العجمة وأبعد عن لسان مضر قصر بصاحبه عن تعلم اللغة المضرية وحصول ملكتها تمكن المناقاة حينئذ واعتبر ذلك في أهل الامصار فأهل أفريقية والمغرب لما كانوا أعرق في العجمة وأبعد عن اللسان الاول كان لهم قصور تام في تحصيل ملكته بالتعليم ولقد نقل ابن الرقيق أن بعض كتاب القيروان كتب الى صاحب له يا أخي ومن لاعدمت فقد أعلمني أبو سعيد كلاما انك كنت ذكرت أنك تكون مع الذين تأتي وعائنا اليوم فلم يهيا لنا الخروج وأما أهل المنزل الكلاب من أمر الشين فقد كذبوا هذا باطلا ليس من هذا حرفا واحدا وكتابي اليك وأنا مشتاق اليك ان شاء الله وهكذا كانت ملكتهم في اللسان المضري شبيه ما ذكرنا وكذلك أشعارهم كانت بعيدة عن الملكة نازلة عن الطبقة ولم تزل كذلك لهذا العهد ولهذا ما كان بأفريقية من مشاهير الشعراء الا ابن رشيقي وابن شرف وأكثر ما يكون فيها الشعراء طارئين عليها ولم تزل طبقتهم في البلاغة حتي الآن مائلة الى القصور وأهل الاندلس أقرب منهم الى تحصيل هذه الملكة بكثرة معاناتهم وامتلائهم من المحنوظات للغوية نظما ونثرا وكان فيهم ابن حيان المؤرخ إمام أهل الصناعة في هذه الملكة ورافع الراية لهم فيها وابن عبد ربه والقسطلي وأمثالهم من شعراء ملوك الطوائف لما زخرت فيها بحار اللسان والادب وتداول ذلك فيهم مئين من السنين حتي كان الانقضاء والجلء أيام تغلب النصرانية وشغلوا عن تعلم ذلك وتناقص العمران فتناقص ذلك شأن الصنائع كلها فقصرت الملكة فيهم عن شأنها حتي بلغت الحضيض وكان من آخرهم صالح بن شريف ومالك بن المرحل من تلميذ الطبقة الاشبيليين بسببة وكتاب دولة ابن الاحمر في أولها وألقت الاندلس أفلاذ كبدها من أهل تلك الملكة بالجلء الى العدو لعدو الاشبيلية الى سببة ومن شرق الاندلس الى أفريقية ولم يلبثوا الى أن انقضوا وانقطع سند تعليمهم في هذه الصناعة لعسر قبول العدو لهم أو صعبتها عليهم بعوج أسنتهم ورسوخهم في العجمة البربرية وهي منافية لما قلناه ثم عادت الملكة من بعد ذلك الى الاندلس كما كانت ونجم بها ابن بشرين وابن جابر وابن الحباب وطبقتهم ثم ابراهيم الساحلي الطريحي وطبقته وقفاهم ابن الخطيب من بعدهم الهالك لهذا العهد شهيدا بسعاية أعدائه وكان له في اللسان ملكة لاتدرك واتبع أثره تلميذه بعده وبالجملة فشأن هذه الملكة بالاندلس أكثر وتعليمها أيسر وأسهل بما هم عليه لهذا العهد كما قدمناه من معانة علوم اللسان ومحافظتهم عليها وعلى علوم الادب وسند تعليمها ولان أهل اللسان العجمي الذين تفسد ملكتهم انما هم طارئون عليهم وليست عجمتهم أصلا للغة أهل الاندلس والبربر في هذه العدو هم أهلها ولسانهم لسانها الا في الامصار فقط وهم فيها منغمسون في بحر عجمتهم وورطاتهم البربرية فيصعب عليهم تحصيل الملكة اللسانية بالتعليم بخلاف أهل الاندلس واعتبر ذلك بحال أهل

المشرق لعهد الدولة الاموية والعباسية فكان شأنهم شأن أهل الاندلس في تمام هذه المملكة واجادتها لبعدهم لذلك العهد عن الاعاجم ومخالطتهم الا في القليل فكان أمر هذه المملكة في ذلك العهد أقوم وكان خول الشعراء والكتاب أو فرلتوفر العرب وأبنائهم بالمشرق وانظر ما شتمل عليه كتاب الاغانى من نظمهم ونثرهم فان ذلك الكتاب هو كتاب العرب وديوانهم وفيه لغتهم وأخبارهم وأيامهم وملتهم العربية وسيرتهم وآثار خلفائهم وملوكهم وأشعارهم وغناؤهم وسائر مغانيهم فلا كتاب أوعب منه لاحوال العرب وبقي أمر هذه المملكة مستحكما في المشرق في الدولتين وربما كانت فيهم أبلغ ممن سواهم ممن كان في الجاهلية كما نذكره بعد حتى تلاشي أمر العرب ودرست لغتهم وفسد كلامهم وانقضى أمرهم ودولتهم وصار الامر للأعاجم والملك في أيديهم والتغلب لهم وذلك في دولة الديلم والسلجوقية وخاطبوا أهل الامصار والخواضر حتى بعدوا عن اللسان العربي وملكته وصار متعلمها منهم مقصرا عن تحصيلها وعلى ذلك نجد لسانهم لهذا العهد في فني المنظوم والمنثور وان كانوا مكثرين منه والله يخلق ما يشاء ويختار والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لأرب سواه

٤٥ فصل في انقسام الكلام الى فني النظم والنثر

اعلم أن لسان العرب وكلامهم على فنين في الشعر المنظوم وهو الكلام الموزون المقفى ومعناه الذي تكون أوزانه كلها على روي واحد وهو القافية وفي النثر وهو الكلام غير الموزون وكل واحد من الفنين يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام فأما الشعر فمعه المدح والهجاء والثناء وأما النثر فمعه السجع الذي يؤتى به قطعا ويلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة يسمى سجعاً ومنه المرسل وهو الذى يطلق في الكلام اطلاقا ولا يقطع اجزاء بل يرسل ارسالاً من غير تقييد بقافية ولا غيرها ويستعمل في الخطب والدعاء وترغيب الجمهور وترهيبهم وأما القرآن وان كان من المنثور الا أنه خارج عن الوصفين وليس يسمى مرسل مطلقاً ولا مسجعاً بل تفصيل آيات ينتهي الى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها ويثني من غير التزام حرف يكون سجعاً ولا قافية وهو معنى قوله تعالى الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشع منه جلود الذين يخشون ربهم وقال قد فضلنا الآيات ويسمى آخر الآيات منها فواصل اذ ليست أسجاعاً ولا التزام فيها ما يلتزم في السجع ولا هي أيضاً قواف وأطلق اسم المثاني على آيات القرآن كلها على العموم لما ذكرناه واختصت بأم القرآن للغلبة فيها كالنجم للثريا ولهذا سميت السبع المثاني وانظر هذا مع مقاله المفسرون في تحليل تسميتها بالمثاني يشهد لك الحق برجحان ما قلناه* واعلم ان لكل واحد من هذه الفنون أساليب

تختص به عند اهله ولا تصلح للفن الآخر ولا تستعمل فيه مثل النسيب المختص بالشعر والحمد والدعاء المختص بالخطب والدعاء المختص بالمخاطبات وأمثال ذلك وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنشور من كثرة الاسجاع والتزام التقفية وتقديم النسيب بين يدي الاغراض وصار هذا المنشور اذا تأملته من باب الشعر وفتنه ولم يفت رقاً الا في الوزن واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية وقصروا الاستعمال في المنشور كله على هذا الفن الذي ارتضوه وخطوا الاساليب فيه وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصاً أهل المشرق وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغفل جارية على هذا الاسلوب الذي أشرنا اليه وهو غير صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال من أحوال المخاطب والمخاطب وهذا الفن المنشور المقفي أدخل المتأخرون فيه أساليب الشعر فوجب أن تنزه المخاطبات السلطانية عنه اذا أساليب الشعر تنافها للودعية وخط الجذب بالهزل والاطناب في الاوصاف وضرب الامثال وكثرة التشبيهات والاستعارات حيث لا تدعو ضرورة الى ذلك في الخطاب والتزام التقفية أيضاً من اللودعة والتزيين وجمال الملك والاساطان وخطاب الجمهور عن الملوك بالترغيب والترهيب يتنافى ذلك وبيانه والمحمود في المخاطبات السلطانية الترسل وهو اطلاق الكلام وارساله من غير تسجيع الا في الاقل النادر وحيث ترسله الملكة لارسالا من غير تكلف له ثم اعطاء الكلام حقه في مطابقة مقتضى الحال فان المقامات مختلفة ولكل مقام اسلوب يخصه من اطناب أو إيجاز أو حذف أو إثبات أو تصريح أو إشارة وكناية واستعارة وأما اجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذي هو على أساليب الشعر فذموم وما حمل عليه أهل العصر الاستيلاء العجمة على ألسنتهم وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه في مطابقة مقتضى الحال فمجزوا عن الكلام المرسل لبعده أمد في البلاغة وانفساح خطوبه وولعوا بهذا المسجع يلقون به مانقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال فيه ويجرونه بذلك القدر من التزيين بالاسجاع والالفاظ البديعة ويفعلون عما سوى ذلك وأكثر من أخذ بهذا الفن وبالغ فيه في سائر أنحاء كلامهم كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد حتى أنهم ليخلون بالاعراب في الكلمات والتصريف اذا دخلت لهم في تجنيس أو مطابقة لايجمعان معها فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس ويدعون الاعراب ويفسدون بنية الكلمة عساها تصادف التجنيس فتأمل ذلك بما قدمناه لك تقف على صحة ما ذكرناه والله الموفق للصواب بمنه وكرمه والله تعالى أعلم

٤٦ (فصل في أنه لاتتفق الاجادة في فنى المنظوم والمنثور معاً الا للاقل)

والسبب في ذلك أنه كما يبناء ملكة في اللسان فاذا تسبقت الى محله ملكة أخرى قصرت بالحل عن تمام الملكة اللاحقة لان تمام الملكات وحصولها للطباع التي على الفطرة الاولى أسهل وأيسر واذا تقدمتها ملكة أخرى كانت منازعة لها في المادة القابلة وعاقبة عن سرعة القبول فوقت المنافسة وتمذر التمام في الملكة وهذا موجود في الملكات الصناعية كلها على الاطلاق وقد برهننا عليه في موضعه بنحو من هذا البرهان فاعتبر مثله في اللغات فانها ملكات اللسان وهي بمنزلة الصناعة وانظر من تقدم له شيء من العجمة كيف يكون قاصراً في اللسان العربي أبداً فلا يجعي الذي سبقت له اللغة الفارسية لا يستولي على ملكة اللسان العربي ولا يزال قاصراً فيه ولو تعلمه وعلمه وكذا البربري والرومي والافرنجي قل أن تجد أحداً منهم محكماً لملكة اللسان العربي وما ذلك الا لما سبق الى ألسنتهم من ملكة اللسان الآخر حتى ان طالب العلم من أهل هذه اللسان اذا طلبه بين أهل اللسان العربي جاء مقصراً في معارفه عن الغاية والتحصيل وما أتى الا من قبل اللسان وقد تقدم لك من قبل أن اللسان واللغات شبيهة بالصنائع وقد تقدم لك أن الصنائع وملكاتها لاتزدحم وان من سبقت له إجادة في صناعة فقل أن يجيد أخرى أو يستولى فيها على الغاية والله خالقكم وما تعملون

فصل في صناعة الشعر ووجه تعلمه

٤٧

هذا الفن من فنون كلام العرب وهو المسمى بالشعر عندهم ويوجد في سائر اللغات إلا أن الآن إنما نتكلم في الشعر الذي للعرب فان أمكن أن تجد فيه أهل اللسان الاخرى مقصودهم من كلامهم وإلا فكل لسان أحكام في البلاغة تخصه وهو في لسان العرب غريب النزعة عزيز المنجي اذ هو كلام مفصل قطعاً قطعاً متساوية في الوزن متحدة في الحرف الاخير من كل قطعة وتسمى كل قطعة من هذه القطعات عندهم بيتاً ويسمى الحرف الاخير الذي تتفق فيه روياء وقافية ويسمى جملة الكلام الى آخره قصيدة وكلمة وينفرد كل بيت منه بإفادته في تراكيبه حتي كأنه كلام وحده مستقل عما قبله وما بعده واذا أفرد كان تاماً في بابه في مدح او تشييب أو رثاء فيحرص الشاعر على إعطاء ذلك البيت ما يستقل في إفادته ثم يستأنف في البيت الآخر كلاماً آخر كذلك ويستطرد للخروج من فن الى فن ومن مقصود الى مقصود بان يوطي المقصود الاول ومعانيه الى ان يناسب المقصود الثاني ويبعد الكلام عن التافه كما يستطرد من التشييب الى المدح ومن وصف البيداء والطول الى وصف الركاب أو الحيل أو الطيف

فمن وصف الممدوح إلى وصف قومه وعساكره ومن التفجع والعزاء في الرثاء إلى
 التأثير وأمثال ذلك ويراعى فيه اتفاق القصيدة كلها في الوزن الواحد حذراً من أن يتساهل
 الطبع في الخروج من وزن إلى وزن يقاربه فقد يخفى ذلك من أجل المقاربة على كثير من
 الناس ولهذا الموازين شروط وأحكام تضمنها علم العروض وليس كل وزن يتفق في الطبع
 استعملته العرب في هذا الفن وإنما هي أوزان مخصوصة تسميها أهل تلك الصناعة البحور
 وقد حصروها في خمسة عشر بحراً بمعنى أنهم لم يجدوا للعرب في غيرها من الموازين الطبيعية
 نظماً* وأعلم أن فن الشعر من بين الكلام كان شريفاً عند العرب ولذلك جعلوه ديوان علومهم
 وأخبارهم وشاهد صوابهم وخطئهم وأصلاً يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم وكانت
 ملكته مستحكمة فيهم شأن الملكات كلها والملكات اللسانية كلها إنما تسبب بالصناعة والارتياض
 في كلامهم حتى يحصل شبه في تلك الملكة والشعر من بين فنون الكلام صعب المأخذ على
 من يريد اكتساب ملكته بالصناعة من المتأخرين لاستقلال كل بيت منه بأنه كلام تام في
 مقصوده ويصلح أن ينفرد دون ماسواه فيحتاج من أجل ذلك إلى نوع تلطف في تلك
 الملكة حتى يفرغ الكلام الشعري في قوالبه التي عرفت له في ذلك المنجي من شعر العرب
 ويبرزه مستقلاً بنفسه ثم يأتي بيت آخر كذلك ثم بيت ويستكمل الفنون الوافية بمقصوده
 ثم يناسب بين البيوت في موالات بعضها مع بعض بحسب اختلاف الفنون التي في القصيدة
 ولصعوبة منحاه وغرابة فنه كان محكاً للقرائح في استجداء أساليبه وشحن الأفكار في تنزيل
 الكلام في قوالبه ولا يكفي فيه ملكة الكلام العربي على الإطلاق بل يحتاج بخصوصه إلى
 تلطف ومحاولة في رعاية الأساليب التي اختصتها العرب بها واستعمالها* ولندكر هنا سلوك
 الأسلوب عند أهل هذه الصناعة وما يريدون بها في إطلاقهم فاعلم أنها عبارة عندهم عن
 المنوال الذي ينسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه ولا يرجع إلى الكلام باعتبار
 إفادته أصل المعنى الذي هو وظيفة الاعراب ولا باعتبار إفادته كمال المعنى من خواص التراكيب
 الذي هو وظيفة البلاغة والبيان ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة
 العروض فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية وإنما يرجع إلى صورة ذهنية
 للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص وتلك الصورة يتزعمها الذهن من
 أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال ثم ينفذ التراكيب الصحيحة
 عند العرب باعتبار الاعراب والبيان فيرصها فيه رصاً كما يفعل البناء في القالب أو النساج في
 المنوال حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ويقع على الصورة الصحيحة
 باعتبار ملكة اللسان العربي فيه فإن لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على

أنحاء مختلفة فمسؤال الطلول في الشعر يكون بخطاب الطلول كقوله * يادار مية بالعلياء فالسند *
ويكون باستدعاء الصحب للوقوف والسؤال كقوله * قفا نسأل الدار التي خف أهلها *
أو باستبكاء الصحب على الطلل كقوله * قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * أو بالاستفهام
عن الجواب لمخاطب غير معين كقوله * ألم تسأل فتخبرك الرسوم * ومثل تحية الطلول بالامر
لمخاطب غير معين بتحياتها كقوله * حي الديار بجانب الغزل * أو بالدعاء لها بالسقيا كقوله
أسقي طولهم أحش هديم * وغدت عليهم نضرة ونعيم
أو سؤاله السقيا لها من البرق كقوله

يارق طالع منزلا بالأبرق * واحد السحاب لها حداء الأينق
أو مثل التفجع في الجرع باستدعاء البكاء كتموله

كذا فليجل الخطب وليقذع الأمر * وليس لعين لم يفص ماؤها عذر
أو باستعظام الحادث كقوله * أرايت من حملوا على الأعواد * أو بالتسجيل على الاكوان
بالمصيبة لفقده كقوله

منابت العشب لاحام ولا راعي * مضى الردى بطويل الرمح والباع
أو بالانكار على من لم يتفجع له من الجمادات كقول الخارجية
أيا شجر الحابور مالك مورقاً * كأنك لم تجزع على ابن طريف
أو بهنئة فريقه بالراحة من ثقل وطأته كقوله

ألقى الرماح ربيعة بن نزار * أودي الردى بفريقك المغوار

وأمثال ذلك كثير في سائر فنون الكلام ومذهبه وتنظم التراكيب فيه بالجميل وغير الجمل
انشائية وخبرية اسمية وفعلية متفقة وغير متفقة مفصلة وموصولة على ماهو شأن التراكيب
في الكلام العربي في مكان كل كلمة من الاخرى يعرفك فيه ماتستفيد به بالارتياض في أشعار
العرب من القالب الكلبي المجرد في الذهن من التراكيب المعينة التي ينطبق ذلك القالب على
جميعها فان مؤلف الكلام هو كالبناء أو النساج والصورة الذهنية المنطبقة كالقالب الذي بني
فيه أو المنوال الذي ينسج عليه فان خرج عن القالب في بناءه أو عن المنوال في نسجه كان
فاسدا ولا تقولن ان معرفة قوانين البلاغة كافية في ذلك لانا نقول قوانين البلاغة انما هي
قواعد علمية قياسية تفيد جواز استعمال التراكيب على هيئتها الخاصة بالقياس وهو قياس
علمي صحيح مطرد كما هو قياس القوانين الاعرابية وهذه الاساليب التي نحن نقررها ليست
من القياس في شيء انما هي هيئة ترسخ في النفس من تتبع التراكيب في شعر العرب لجريانها
على اللسان حتى تستحكم صورتها فيستفيد بها العمل على مثالها والاحتذاء بها في كل تركيب

من الشعر كما قدمنا ذلك في الكلام باطلاق وان القوانين العلمية من العربية والبيان لا تفيد تعليمه بوجه وليس كل ما يصح في قياس كلام العرب وقوانينه العلمية استعمالوه وانما المستعمل عندهم من ذلك أنحاء معروفة يطالع عليها الحافظون لكلامهم تندرج صورتها تحت تلك القوانين القياسية فاذا نظر في شعر العرب على هذا النحو وبهذه الاساليب الذهنية التي تصير كالقوالب كان نظراً في المستعمل من تراكيهم لافيا يقتضيه القياس ولهذا قلنا ان المحصل لهذه القوالب في الذهن انما هو حفظ أشعار العرب وكلامهم وهذه القوالب كما تكون في المنظوم تكون في المنشور فان العرب استعملوا كلامهم في كلا الفنين وجاءوا به مفصلاً في النوعين ففي الشعر بالقطع الموزونة والقوافي المقيدة واستقلال الكلام في كل قطعة وفي المنشور يعتبرون الموازنة والتشابه بين القطع غالباً وقد يقيّدونه بالاسجاع وقديرسلونه وكل واحدة من هذه معروفة في لسان العرب والمستعمل منها عندهم هو الذي يبنى مؤلف الكلام عليه تأليفه ولا يعرفه الا من حفظ كلامهم حتي يتجرد في ذهنه من القوالب المعينة الشخصية قالب كلي مطلق يحذو حذوه في التأليف كما يحذو البناء على القالب والنساج على المنوال فلهذا كان من تأليف الكلام منفردا عن نظر التحوي واليباني والعروضي نعم ان مراعاة قوانين هذه العلوم شرط فيه لا يتم بدونها فاذا تحصلت هذه الصفات كلها في الكلام اختص بنوع من النظر لطيف في هذه القوالب التي يسمونها أساليب ولا يفيد الا حفظ كلام العرب نظاماً ونثراً واذا تقرر معنى الاسلوب ماهو فلنذكر بعده حداً أو رسماً لا شعر به تفهم حقيقته على صعوبة هذا الغرض فانا لم نقف عليه لاحد من المتقدمين فيما رأيناه وقول العروضيين في حده ان الكلام الموزون المقفي ليس بمجدهذا الشعر الذي نحن بصدده ولا رسم له وصناعتهم انما ننظر في الشعر باعتبار ما فيه من الاعراب والبلاغة والوزن والقوالب الخاصة فلا جرم ان حدهم ذلك لا يصلح له عندنا فلا بد من تعريف يعطينا حقيقته من هذه الحثية فنقول الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والافصاف المفصل باجزاء متفقة في الوزن والروي مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده الجاري على أساليب العرب المخصوصة به فنقولنا الكلام البليغ جنس وقولنا المبني على الاستعارة والافصاف فصل عما يحلو من هذه فانه في الغالب ليس بشعر وقولنا المفصل باجزاء متفقة الوزن والروي فصل له عن الكلام المنشور الذي ليس بشعر عند الكل وقولنا مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده بيان للحقيقة لان الشعر لا تكون أبياته الا كذلك ولم يفصل به شيء وقولنا الجاري على الاساليب المخصوصة به فصل له عما لم يجر منه على أساليب العرب المعروفة فانه حينئذ لا يكون شعراً انما هو كلام منظوم لان الشعر له أساليب تخصه لا تكون للمنثور وكذا أساليب المنشور

لاتكون للشعر فما كان من الكلام منظوما وليس على تلك الاساليب فلا يكون شعراً وبهذا الاعتبار كان الكثير ممن لفيناه من شيوختنا في هذه الصناعة الادبية يرون أن نظم المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء لانهما لم يجريا على أساليب العرب عندهم من يري أن الشعر لا يوجد لغيرهم وأما من يري انه يوجد للعرب وغيرهم من الامم فلا يحتاج إلى ذلك ويقول مكانه الجارى على الاساليب المخصوصة واذ قد فرغنا من الكلام على حقيقة الشعر فلنرجع الى الكلام في كيفية عمله فقول * اعلم أن لعمل الشعر واحكام صناعته شروطاً أولها الحفظ من جنسه أي من جنس شعر العرب حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها ويخير المحفوظ من الحر النقي الكثير الاساليب وهذا المحفوظ المختار أقل ما يكفي فيه شعر شاعر من الفحول الاسلاميين مثل ابن أبي ربيعة وكثير وذو الرمة وجبرير وأبي نواس وحبيب والبحتري والرضي وأبي فراس وأكثره شعر كتاب الاغاني لانه جمع شعر أهل الطبقة الاسلامية كله والمختار من شعر الجاهلية ومن كان خالياً من المحفوظ فنظمه قاصر رديء ولا يبطيه الرونق والحلاوة الا كثرة المحفوظ فمن قل حفظه أو عدم لم يكن له شعر وانما هو نظم ساقط واجتناب الشعر أولى بمن لم يكن له محفوظ ثم بعد الامتلاء من الحفظ وشحن القريحة بالنسج على المنوال يقبل على النظم وبلا كثار منه تستحكم ملكته وترسخ وربما يقال ان من شرطه نسيان ذلك المحفوظ لتمحي رسومه الحرفية الظاهرة اذ هي صادة عن استعمالها بعينها فاذا نسيها وقد تكيفت النفس بها انتقش الاسلوب فيها كأنه منوال يأخذ بالنسج عليه بامثالها من كلمات أخرى ضرورة ثم لا بد له من الخلوة واستجدادة المكان المنظور فيه من المياه والازهار وكذا المسموع لاستنارة القريحة باستجماعها وتشريطها بملاذ السرور ثم مع هذا كله فشرطه أن يكون على حجام ونشاط فذلك أجمع له وأنشط للقريحة أن تأتي بمثل ذلك المنوال الذي في حفظه قالوا وخير الاوقات لذلك اوقات البكر عند الهبوب من النوم وفراغ المعدة ونشاط الفكر وفي هؤلاء الجماء وربما قالوا ان من بواعثه العشق والانتشاء ذكر ذلك ابن رشيق في كتاب العمدة وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة واعطاء حقها ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله قالوا فان استصعب عليه بعد هذا كله فليتركه الى وقت آخر ولا يكره نفسه عليه وليكن بناء البيت على القافية من أول صوغه ونسجه ويبني الكلام عليها الى آخره لانه ان غفل عن بناء البيت على القافية صعب عليه وضعها في محله وربما تحيى نافرة قلقه واذا سمح الحاطر باليت ولم يناسب الذي عنده فليتركه الى موضعه الاليق به فان كل بيت مستقل بنفسه ولم يتبق الا المناسبة فليتخير فيها كما يشاء وليراجع شعره بعد الخلاص منه بالتفحيق والنقد ولا يرضن به على الترك اذ لم يبلغ الاجادة فان الانسان مقتون بشعره اذ هو بنات فكره واختراع قريحته ولا يستعمل فيه من الكلام الا الافصح من التراكيب

والخاص من الضرورات اللسانية فليجرحها فانها تنزل بالكلام عن طبقة البلاغة وقد حذر أئمة
اللسان عن المولد ارتكاب الضرورة اذ هو في سعة منها بالعدل عنها الى الطريقة المثلى من
الملكة ويجتنب أيضاً المعقد من التراكيب جهده وانما يقصد منها ما كانت معانيه تسابق
ألفاظه الى الفهم وكذلك كثرة المعاني في البيت الواحد فان فيه نوع تعقيد على الفهم وانما
الختار منه ما كانت ألفاظه طباقاً على معانيه أو أوفى فان كانت المعاني كثيرة كان حشواً واستعمل
الذهن بالغوص عليها ففتح الذوق عن استيفاء مدركة من البلاغة ولا يكون الشعر سهلاً الا اذا
كانت معانيه تسابق ألفاظه الى الذهن ولهذا كان شيوخنا رحمهم الله يعيرون شعراي بكر بن
خفاجة شاعر شرق الاندلس لكثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد كما كانوا يعيرون شعر
المتنبي والمعرى بعدم النسيج على الاساليب العربية كما مر فكان شعرهما كلاماً منظوماً نازلاً عن
طبقة الشعر والحكم بذلك هو الذوق وليجتنب الشاعر أيضاً الحوشي من الالفاظ والمقتصر
وكذلك السوقى المبذل بالتداول بالاستعمال فانه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة أيضاً فيصير
مبتذلاً ويقرب من عدم الافادة كقولهم النار حارة والسما فوقنا وبمقدار ما يقرب من طبقة
عدم الافادة يبعد عن رتبة البلاغة اذ هما طرفان ولهذا كان الشعر في الربانيات والنبويات قليل
الاجادة في الغالب ولا يحذف فيه الالفحول وفي القليل على العشر لان معانيها متداولة بين
الجمهور فقصر مبتذلة لذلك واذا تعذر الشعر بعد هذا كله فليراوضه ويعاوده في القريحة فان
القريحة مثل الضرع يدر بالامراء ويحذف بالترك والاهمال وبالجملة فهذه الصناعة وتعلمها مستوفى
في كتاب العمدة لابن رشيق وقد ذكرنا منها ما حضرنا بحسب الجهد ومن أراد استيفاء ذلك
فعليه بذلك الكتاب ففيه البغية من ذلك وهذه نبذة كافية والله المعين وقد نظم الناس في أمر
هذه الصناعة الشعرية ما يجي فيها ومن أحسن ما قيل في ذلك وأظنه لابن رشيق

لعمري الله صنعة الشعر ماذا * من صنوف الجهال منه لقينا
يؤثرون الغريب منه على ما * كان سهلاً للسامعين مينا
ويرون المحال معني صحيحاً * وخسيس الكلام شيئاً ثميناً
يجهلون الصواب منه ولا يد * رون للجهل أنهم يجهلونا
فهم عند من سوانا يلامو * ن وفي الحق عندنا يعذرونا
انما الشعر ما يناسب في النظر * وان كان في الصفات فنونا
فأني بعضه يشاكل بعضاً * وأقامت له الصدور المتونا
كل معني أنك منه على ما * تمني ولم يكن أو يكونا
فتأهي من البيان الى أن * كاد حسنا يبين لنا نظرينا

فكان الالفاظ منه وجوه * والمعاني ركن فيها عيون
 انما في المرام حسب الاماني * يحلى بحسنه المنشدون
 فاذا ما مدحت بالشعر حرا * رمت فيه مذاهب المشتهين
 فجعلت النسيب سهلاً قريباً * وجعلت المدح صدقاً مينا
 وتعليت ما بهجن في السمـ * وان كان لفظه موزوناً
 واذا ما عرضته بهجاء * عبت فيه مذاهب المرقين
 فجعلت التصريح منه دواء * وجعلت التعريض داء دفيناً
 واذا ما بكيت فيه على العا * دين يوماً للبين والظاعنين
 حلت دون الاسي وذللت ما كا * ن من الدمع في العيون مصوناً
 ثم ان كنت عاتباً جئت بالوء * د وعيداً وبالصعوبة لينا
 فترك الذي عتبت عليه * حذراً آمناً عزيزاً مهيناً
 وأصح القريض ما قارب النظـ * م وان كان وانحاً مستيناً
 فاذا قيل أطمع الناس طراً * واذا ريم أعجز المعجزينا
 ومن ذلك أيضاً قول بعضهم

الشعر ما قومت ربع صدوره * وشددت بالتهذيب أس متونه
 ورأيت بالاطناب شعب صدوعه * وفجحت بالايجاز عور عيونه
 وجمعت بين قريبه وبعيده * وجمعت بين حجه ومعيه
 واذا ما مدحت به جواداً ماجدا * وقضيته بالشكر حق ديونه
 أصفيته بتفتش ورضيته * وخصصته بخطيره وثمينه
 فيكون جزلاً في مساق صنوفه * ويكون سهلاً في اتفاق فنونه
 واذا بكيت به الديار وأهلها * أجريت للمحزون ماء شؤنه
 واذا أردت كناية عن ريبة * باينت بين ظهوره وبطونه
 فجعلت سامعه يشوب شكوكه * بثبوت ووطنونه بيقينه

٤٨ (فصل في أن صناعة النظم والنثر إنما هي في الالفاظ لافي المعاني)

(اعلم) أن صناعة الكلام نظاماً ونثراً إنما هي في الالفاظ لافي المعاني وانما المعاني تبع لها وهي أصل فالصانع الذي يحاول ملكة الكلام في النظم والنثر انما يحاولها في الالفاظ بحفظ أمثالها من كلام العرب ليكثر استعماله وحججه على لسانه حتى تستقر له الملكة في لسان مضر ويخلص

من العجمة التي ربي عليها في حيله ويفرض نفسه مثل وليد ينشأ في جيل العرب ويلقن لغتهم كما يلقيها الصبي حتى يصير كأنه واحد منهم في لسانهم وذلك أننا قدمنا أن للسان ملكة من الملكات في النطق يحاول تحصيلها بتكرارها على اللسان حتى تحصل والذي في اللسان والنطق إنما هو الالفاظ وأما المعاني فهي في الضمائر وأيضاً فالمعاني موجودة عند كل واحد وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى فلا يحتاج الى صناعة وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه وهو بمثابة القوالب للمعاني فكما أن الأواني التي يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف والماء واحد في نفسه وتختلف الجودة في الاواني المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء كذلك جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه باعتبار تطبيقه على المقاصد والمعاني واحدة في نفسها وإنما الجاهل بتأليف الكلام وأساليبه على مقتضى ملكة اللسان اذا حاول العبارة عن مقصوده ولم يحسن بمثابة المقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة عليه والله يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون

٤٩ (فصل في أن حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ)

قد قدمنا أنه لا بد من كثرة الحفظ لمن يروم تعلم اللسان العربي وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته في جنسه وكثرته من قلته تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ فمن كان محفوضه شعر حبيب أو العتابي أو ابن المعتز أو ابن هاني أو الشريف الرضي أو رسائل ابن المقفع أو سهل بن هرون أو ابن الزيات أو البديع أو الصابي تكون ملكته أجود وأعلى مقاماً ورتبة في البلاغة ممن يحفظ شعر ابن سهل من المتأخرين أو ابن النيبه أو ترسل اليسياني أو العماد الاصبهاني لنزول طبقة هؤلاء عن أولئك يظهر ذلك للبصير الناقد صاحب الذوق وعلى مقدار جودة المحفوظ أو السموع تكون جودة الاستعمال من بعده ثم إجابة الملكة من بعدها فارتقاء المحفوظ في طبقته من الكلام ترتقي الملكة الحاصلة لان الطبع إنما ينسج على منوالها وتتم قوى الملكة بتغذيتها وذلك أن النفس وإن كانت في جبلتها واحدة بالتنوع فهي تختلف في البشر بالقوة والضعف في الادراكات واختلافها إنما هو باختلاف ما يرد عليها من الادراكات والملكات والالوان التي تكيفها من خارج فهذه يتم وجودها وتخرج من القوة الى الفعل صورتها والملكات التي تحصل لها إنما تحصل على التدريج كما قدمناه فالملكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر وملكة الكتابة بحفظ الاسجاع والترسيل والعلمية بمخالطة العلوم والادراكات والاجتات والاناظر والفقهية بمخالطة الفقه وتنظير المسائل وتقريرها وتخريج الفروع على

الاصول والتصوفية الربانية بالعادات والاذكار وتعطيل الحواس الظاهرة بالحلوة والانفراد عن الخلق ما استطاع حتي تحصل له ملكة الرجوع الى حسه الباطن وروحه وينقلب ربانياً وكذا سائرهما وللنفس في كل واحد منها لون تتكيف به وعلى حسب منشآت الملكة عليه من جودة أو رداءة تكون تلك الملكة في نفسها فذلكم البلاغة العالية الطبقة في جنسها انما تحصل بحفظ العالي في طبقته من الكلام ولهذا كان الفقهاء وأهل العلوم كلهم قاصرين في البلاغة وما ذلك الا لما يسبق الى محفوظهم ويمتلي به من القوانين العلمية والعبارات الفقهية الخارجة عن أسلوب البلاغة والنازلة عن الطبقة لان العبارة عن القوانين والعلوم لاحظ لها في البلاغة فاذا سبق ذلك المحفوظ الى الفكر وكثر وتلونت به النفس جاءت الملكة الناشئة عنه في غاية القصور وانحرفت عباراته عن أساليب العرب في كلامهم وهكذا نجد شعر الفقهاء والنحاة والمتكلمين والنظار وغيرهم ممن لم يمتلي من حفظ النقي الحر من كلام العرب * أخبرني صاحبنا الفاضل أبو القاسم بن رضوان كاتب العلامة بالدولة المرينية قال ذاكرت يوماً صاحبنا أبا الباس بن شبيب كاتب السلطان أبي الحسن وكان المقدم في البصر باللسان لعهده فانشدته مطلع قصيدة ابن النحوي ولم أنسها له وهو هذا

لم أدر حين وقفت بالاطلال * ما الفرق بين جديدها والبالى

فقال لي على البديهة هذا شعر فقيه فقلت له ومن أين ذلك قال من قوله ما الفرق اذ هي من عبارات الفقهاء وليست من أساليب كلام العرب فقلت له لله أبوك إنه ابن النحوي وأما الكتاب والشعراء فليسوا كذلك لتخيرهم في محفوظهم ومخاطبتهم كلام العرب وأساليبهم في الترسل وإبتنائهم له الجيد من الكلام * ذاكرت يوماً صاحبنا أبا عبد الله بن الخطيب وزير الملوك بالاندلس من بني الاحمر وكان الصدر المقدم في الشعر والكتابة فقلت له أجد استصعاباً على في نظم الشعر متى رمته مع بصري به وحفظي للجيد من الكلام من القرآن والحديث وفنون من كلام العرب وإن كان محفوظي قليلاً وانما أتيت والله أعلم من قبل ما حصل في حفظي من الاشعار العلمية والقوانين التأليفية فاني حفظت قصيدتي الشاطبي الكبرى والصغرى في القرائات وتدارست كتابي ابن الحاجب في الفقه والاصول وجمال الخونجي في المنطق وبعض كتاب التمهيد وكثيراً من قوانين التعاميم في المجالس فامتلاً محفوظي من ذلك وخدش وجه الملكة التي استعددت لها بالمحفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب فعاق القريحة عن بلوغها فنظر اليّ ساعة معجباً ثم قال لله أنت وهل يقول هذا الامثلك ويظهر لك من هذا الفصل وما تقرر فيه سر آخر وهو اعطاء السبب في أن كلام الاسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية في منشورهم ومنظومهم فانا نجد شعر حسان

ابن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة وجريرو والفردق ونصيب وغيلان ذي الرمة والاحوص
وبشار ثم كلام السلف من العرب في الدولة الاموية وصدرنا من الدولة العباسية في خطبهم
وترسيلهم ومحاوراتهم للملوك أرفع طبقة في البلاغة من شعر النابغة وعترة وابن كلثوم وزهير
وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد ومن كلام الجاهلية في منشورهم ومحاوراتهم والطبع
السايم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين
أدركوا الاسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن
الانسان بمثلها لكونها ولجت في قلوبهم ونشأت على أساليبها نفوسهم فنهضت طباعهم وارتقت
ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا
نشأ عليها فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصفي روتقاً من أولئك وأرصف
مبني وأعدل تنقيفاً بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة وتأمل ذلك يشهد لك به ذوقك
ان كنت من أهل الذوق والتبصر بالبلاغة ولقد سألت يوماً شيخنا الشريف ابا القاسم قاضي
غرناطة لعهدنا وكان شيخ هذه الصناعة اخذ بسبته عن جماعة من مشيختها من تلاميذ
الشوليين واستبحر في علم اللسان وجاء من وراء الغاية فيه فسألته يوماً ما بال العرب الاسلاميين
أعلى طبقة في البلاغة من الجاهليين ولم يكن ليستسكر ذلك بذوقه فسكت طويلاً ثم قال لي والله
مأدري فقلت أعرض عليك شيئاً ظهر لي في ذلك ولعله السبب فيه وذكرت له هذا الذي كتبت
فسكت معجباً ثم قال لي يافقيه هذا كلام من حقه أن يكتب بالذهب وكان من بعده يؤثر محلي ويصح
في مجالس التعاليم الى قولي ويشهد لي بالنباهة في العلوم والله خالق الانسان وعلمه اليان

٥٠ فصل في ترفع أهل المراتب عن انتحال الشعر

(اعلم) أن الشعر كان ديواناً للعرب فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم وكان رؤساء العرب منافسين
فيه وكانوا يقفون بسوق عكاظ لانشاده وعرض كل واحد منهم ديباجته على نحو الشأن وأهل
البصر لتمييز حوله حتى انتهوا الى المناغاة في تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم
وبيت ابراهيم كافعيل امرؤ القيس بن حجر والنابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى وعترة بن شداد
وطرفة بن العبد وعلقمة بن عبدة والاعشى من أصحاب المعلقات السبع وغيرهم فانه انما كان يتوصل
الى تعليق الشعر بها من كان له قدرة على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه في مضر على ما قيل في سبب
تسميتها بالمعلقات ثم انصرف العرب عن ذلك أول الاسلام بما شاغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي
ومأدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر
زماناً ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره وسمعه النبي

صلى الله عليه وسلم وأثاب عليه فرجعوا حينئذ الى ديدنهم منه وكان لعمر بن أبي ربيعة كبير قريش لذلك العهد مقامات فيه عالية وطبقة مرتفعة وكان كثيراً ما يعرض شعره على ابن عباس فيقف لاستماعه معجبا به ثم جاء من بعد ذلك الملك والدولة العزيزة وتقرب اليهم العرب بأشعارهم يمتدحونهم بها ويحيزهم الخلفاء بأعظم الجوائز على نسبة الجودة في أشعارهم ومكانهم من قومهم ويحرصون على استهداء أشعارهم يطلعون منها على الآثار والاخبار واللغة وشرف اللسان والعرب يطالبون وليدهم بحفظها ولم يزل هذا الشأن أيام بني أمية وصدرأ من دولة بني العباس وانظر ما نقله صاحب العقد في مسامرة الرشيد الاصمعي في باب الشعر والشعراء تجد ما كان عليه الرشيد من المعرفة بذلك والرسوخ فيه والعناية بانهج حاله والتبصر بحيد الكلام ورديث وكثرة محفوظه منه ثم جاء خاق من بعدهم لم يكن اللسان لسانهم من أجل العجمة وتقصيرها باللسان وانما تعلموه صناعة ثم مدحوا بأشعارهم أمراء العجم الذين ليس اللسان لهم طالبين معروفهم فقط لاسوى ذلك من الاغراض كما فعله حبيب والبحري والمتنبي وابن هاني ومن بعدهم الى هلم جرا فصار غرض الشعر في الغالب انما هو الكذب والاستجداء لذهاب المنافع التي كانت فيه للاولين كما ذكرناه آنفاً وأتف منه لذلك أهل الهمم والمراتب من المتأخرين وتغير الحال وأصبح تعاطيه هجنة في الرياسة ومذمة لاهل المناصب التكميرة والله مقلب الليل والنهار

٥١ فصل في أشعار العرب وأهل الامصار لهذا العهد

(اعلم) ان الشعر لا يختص باللسان العربي فقط بل هو موجود في كل لغة سواء كانت عربية أو عجمية وقد كان في الفرس شعراء وفي يونان كذلك وذكر منهم ارسطو في كتاب المنطق أو ميروس الشاعر وأثنى عليه وكان في حمير أيضاً شعراء متقدمون ولما فسد لسان مضر وانهم التي دونت مقاييسها وقوانين اعرابها وفسدت اللغات من بعد بحسب ما خالطها وما زجها من العجمة فكانت تحيل العرب بأنفسهم لغة خالفت لغة سلفهم من مضر في الاعراب جملة وفي كثير من الموضوعات اللغوية وبناء الكلمات وكذلك الحضرة أهل الامصار نشأت فيهم لغة أخرى خالفت لسان مضر في الاعراب وأكثر الاوضاع والتصاريف وخالفت أيضاً لغة الحيل من العرب لهذا العهد واختلفت هي في نفسها بحسب اصطلاحات أهل الآفاق فلاهل الشرق وأمصاره لغة غير لغة أهل المغرب وأمصاره وتخالفت أيضاً لغة أهل الاندلس وأمصاره ثم لما كان الشعر موجوداً بالطبع في أهل كل لسان لان الموازين على نسبة واحدة في اعداد المتحركات والسواكن وتقابلها موجودة في طباع البشر فلم يهجر الشعر بفقدان لغة واحدة وهي لغة مضر الذين كانوا احواله وفرسان ميدانه حسبما اشتهر بين أهل الخليفة بل كل جيل وأهل كل

لغة من العرب المستعجمين والحضر اهل الامصار يتعاطون منه ما يطاوعهم في استحاله ورصف
بنائه على مبيع كلامهم فأما العرب اهل هذا الحيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر
فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الاعاريض على ما كان عليه سلفهم المستعربون ويأتون
منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر واغراضه من النسيب والمدح والثناء والهجاء
ويستطردون في الخروج من فن الى فن في الكلام وربما هجموا على المقصود لاول كلامهم
واكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر ثم بعد ذلك ينسبون فأهل امصار المغرب من العرب
يسمون هذه القصائد بالاصمعيات نسبة الى الاصمعي راوية العرب في أشعارهم وأهل المشرق
من العرب يسمون هذا النوع من الشعر بالبدوى وربما يادخون فيه أحياناً بسيطة لا على طريقة
الصناعة الموسيقية ثم يغنون به ويسمون الغناء به باسم الحوراني نسبة الى حوران من أطراف
العراق والشام وهي من منازل العرب البادية ومساكنهم الى هذا العهد ولهم فن آخر كثير
التداول في نظمهم يجيئون به معصباً على أربعة أجزاء يخالف آخرها الثلاثة في رويه ويلتزمون
القافية الرابعة في كل بيت الى آخر القصيدة شيئاً بالربيع والخمس الذي أحدثه المتأخرون من
المولدين وهؤلاء العرب في هذا الشعر بلاغة فائقة وفهم الفحول والمتأخرون والكثير من
المنتحلين للموم لهذا العهد وخصوصاً علم اللسان يستنكر هذه الفنون التي لهم اذا سمعها ويمج
نظمهم اذا أنشد ويعتقد أن ذوقه انما نبأ عنها لاستهجانها وفقدان الاعراب منها وهذا انما
أتي من فقدان الملكة في لنتهم فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها
ان كان سليماً من الآفات في فطرته ونظره والا فالاعراب لا مدخل له في البلاغة انما البلاغة
مطابقة الكلام للمقصود ول مقتضي الحال من الوجود فيه سواء كان الرفع دالا على الفاعل
والنصب دالا على المفعول أو بالعكس وانما يدل على ذلك قرائن الكلام كما هو لغتهم هذه
فالدلالة بحسب ما يصطاح عليه أهل الملكة فاذا عرف اصطلاح في ملكة واشتهر صحت الدلالة
واذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضي الحال صحت البلاغة ولا عبرة بقوانين النحاة في
ذلك وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه ماعدا حركات الاعراب في أواخر
الكلم فان غالب كلماتهم موقوفة الآخر ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر
بقرائن الكلام لا بحركات الاعراب فمن أشعارهم على لسان الشريف ابن هاشم يبكي الجازية
بنت سرحان ويذكر ظمها مع قومها الى المغرب

قال الشريف ابن هاشم على * ترى كبدي حراشكت من زفيرها
يعزل لاعلام أين مارأت خاطري * يرد اعلام البدو يلقي عصيرها
وماذا شكاة الروح مما طرأها * عذاب ودائع تلف الله خيرها

بحسن قطاع عامري ضميرها * طوى وهند جافي ذكريرها
وعادت كما خوارة في يد غاسل * على مثل شوك الطلح عقدوا يسيرها
تجابدوها اثنين والتزع بينهم * على شول لعه والمعافي جريرها
وباتت دموع العين ذارقات لسانها * شبيه دوار السواني يديرها
تدارك منها الجمل حذرا ورادها * مروان يجي متراكبا من صيرها
لصب من القيعان من جانب الصفا * عيون ولحان البرق في غدِيرها
هاأيقني من سنابلت غدوة * بغداد ناحت مني حتي فقيرها
ونادى المنادى بالرحيل وشدوا * وعرج غاربها على مستعيرها
وشد لها الأدهم دياب بن غانم * على يد ماضي وليد مقرب ميرها
وقال لهم حسن بن سرحان غربوا * وسوقوا التجوع ان كان تاهونميرها
ويداص وسده سها بالتساح * وباليمين لايجحدوا في صغيرها
غدرني زمان السفح من عابس الوغي * وما كان يرمي من حير وميرها
غدرني وهو زعماصديقي وصاحبي * وناليه مامن درمي مايديرها
ورجع يقول لهم بلاد ابن هاشم * لخير البلاد المعطشه ماخيرها
حرام على باب بغداد وأرضها * داخل ولا عائد له من بعيرها
فصدق درمي من بلاد ابن هاشم * على الشمس أحوال الغمام من محيرها
وباتت نيران العذاري قوادح * نجروا ببحر حان فيروا أسيرها
(ومن قولهم في رثاء أمير زناتة أبي سعدى البكري مقارعهم بأفريقية وأرض الزاب ورثاؤهم
له على جهة التهنئة)

تقول فتاة الحلي سعدي وهاضها * لها في طعون الباكين عويل
أياسائي عن قبر الزناتي خليفه * خذ النعت مني لاتسكون هويل
تراه العالى الواردات وفوقه * من الربط عيساوي بناه طويل
وله يميل الغور من سائر النقا * به الواد شرقا واليراع دليل
أيالهم كبدى على الزناتي خليفه * قد كان لاعتقاب الحيات دليل
قتيل فتى الهيجا دياب بن غانم * جراحه كأفواه المزداد تسيل
ياجارنا مات الزناتي خليفه * لاترحل الا أن يريد رحيل
وبالامس رحلتك ثلاثين مرة * وعشرا وستا في النهار قليل
(ومن قولهم على لسان الشريف ابن هاشم يذكر عتاباً وقع بينه وبين ماضى بن مقرب)

تبدي لي ماضي الحيا و قال لي * أياشكر ما احناشى عليك رضاش
أياشكر عدى مابقي و ديتنا * و انا عرب غربا لا بسين نماش
نحن عدينا فصادفوا ما قضي لنا * كما صادفت طعم الزناد طشاش
باعدنا يا شكر عدي لبر سلامه * لنجد ومن عمر بلاده عاش
ان كانت بنت سيدهم بارضهم * هي العرب ماردنا لهن طياش
(ومن قولهم في ذكر رحلتهم الى الغرب و غلبهم زناته عليه)

وأي جميل ضاع لي في ابن هاشم * وأي جميل ضاع قبلي جميلها
أنا كنت انا وياه في زهو يتنا * عناني لحجه ما عناني دليلها
وعدت كأني شارب من مدامة * من الحمر قهره ما قدر من عيلها
أو مثل شطامات مضيون كدها * غربياً وهي مدوخه عن قبيها
أناها زمان السوء حتي ادوخت * وهي بين عرب غافلا عن نزيها
وكذلك انما لحاني من الوحي * شاكي بكبد بادياً من عيلها
أمرت قومي بالرحيل و بكروا * وقووا وشداد الحوايا جميلها
قعدنا سبعة أيام محبوس نجعنا * والبدو ما ترفع عمود يقيلها
تظل على احداث اثنا يا سوري * يضل الحرفوق التصاوي نصيلها

(ومن شعر سلطان بن مظفر بن يحيى من الزواودة أحد بطون رباح وأهل الرئاسة فيهم
يقولها وهو معتقل بالمهدية في سجن الأمير أبي زكريا بن أبي حفص أول ملوك أفريقية
من الموحدين

يقول وفي نوح الدجا بعد ذهبة * حرام على أجفان عيني منامها
أيا من لقي حالف الوجد والاسي * وروحاً هيامي طال ما في سقامها
حجازية بدوية عربية * عداوية ولها بعيدا مرامها
مواصلة بالبدو لا تألف القرى * سواها بل الوعسا بوالي خيامها
عمان ومشتبها بها كل سرية * محبونة بها ولهي صحيح غرامها
ومرباعها عشب الاراضي من الحيا * لو اني من الحور الخالايا حسامها
تسوق بسوق العين مما تداركت * عليها من السحب السواري غمامها
وماذا بكت بلما وما ذا تبلحطت * عيون عذارى المزن عذابا حمامها
كان عروس البكر لاحت ثيابها * عليها ومن نور الاقاحي حزامها
فلاة ودهنا واتساع ومنه * ومرعى سوى ما في مراعي نعامها

ومشروبها من مخض ألبان شولها * عليهم ومن لحم الحواري طعامها
تعاثب على الابواب والموقف الذي * يشيب الفتى مما يقاسي زحامها
سقى الله ذلواذي المشجر بالحيا * وبلا ويحي مايلي من زمامها
فكافأتهما بالود مني وليتني * ظفرت بأيام مضت في ركامها
ليالى أقواس الصبا في سواعدي * اذا قت لا تحطي من أيدي سهامها
وفرسي عديداً تحت سرجي مسافة * زمان الصبا سرجا ويدي لجامها
وكم من رداح أسهرتني ولم أرى * من الخلق أبهى من نظام ابتسامها
وكم غيرها من كاعب مرجحة * مطرزة الاجفان باهي وشامها
وصفقت من وجددي عليها طريحة * بكفي ولم يندى جدها ذمامها
ونار بنجب الوجد توهج في الحشا * وتوجع لا يطفأ من الما ضرامها
أيا من وعدتي الوعد هذا الى متى * ففي العمر في دار عماني ظلامها
ولكن رأيت الشمس تكسف ساعة * ويغمى عليها ثم يبري غمامها
بنود ورايات من السعد أقبلت * الينا بعون الله يهفو علامها
أرى في الفلا بالعين أطمعان عزوتي * ورححي على كتي وسيري أمامها
بجرا عاتق النوق من عوذ شامس * أحب بلاد الله عندي حشامها
الى منزل بالجعفرية للذي * مقيم بها مالد عندي مقامها
وتلقى سراة من هلال بن عامر * يزيل الصدا والغل عن سلامها
هم أقصر الامثال شرقا ومغربا * اذا قاتلوا قوماً سريع انهزامها
عليهم ومن هو في حياهم تحية * من لدهر ماغنى بقبه حمامها
فدع ذا ولا تأسف على سالف مضى * تري الدنيا مادامت لاحد دوامها

(ومن أشعار المتأخرين منهم قول خالد بن حمزة بن عمر شيخ الكعوب من أولاد أبي الليل
يعاتب أقاتلهم أولاد مهلهل ويحجب شاعرهم شبيل بن مسكيانة بن مهلهل عن أبيات نثر
عليهم فيها بقومه)

يقول وذا قول المصاب الذي نشأ * قوارع قيعان يعاني صاعبا
يرج بها حادي المصاب اذا انتقى * فنونا من انشاد القوافي عرابها
محبرة مختارة من نشادنا * تحدي بها تام الوشا ملتها بها
مغربة عن ناقد في غضوننا * محكمة القيعان داني ودابها
وهيض تذكاري لها ياذوي الندى * قوارع من شبل وهذى جوابها

أشبل جنبنا من حباك طرائفا * فراح بريح الموجعين الغنا بها
نخرت ولم تقصر ولا أنت عادم * سوى قلت في جمهورها ماعاها
لقولك في أم المتين بن حمزه * وحامي حماها عادياً في حراها
أما تعلم أنه قامها بعد مالتني * رصاص بني يحيى وعلاق دابها
شهابا من أهل الامر ياشل خارق * وهل رأيت من جالوغي واصطلي بها
شواهد طفاهها أضرمت بعد طففيه * وأثنا طفار حاسر الا أهابها
وأضرم بعد الطفيتين التي صحت * نعاها الى بيت المننا يفندي بها
كما كان هو يطلب على دنجنت * رجال بني كعب الذي يتقى بها

ومنها في العتاب

وليدا تعاتبوا أنا أغنى لاني * غنيت بعلاق الثنا واغتصابها
على ونا ندفع بها كل مبصع * بالاسياف نتناش العدامن رقابها
فان كانت الاملاك بغت عرايس * علينا باطراف القنا اختصابها
ولا نقرها الأرهاف ودبل * وزرق السبايا والمطايا ركابها
بني عمنا ما نرتضي الذل علة * تسير كالسنة الحناش انسلاها
وهي علما بان المنايا ثقيلها * بلا شك والدنيا سر يع انقلابها

ومنها في وصف الظعائن

بظعن قطوع اليد لا تحتشى العدا * فتوق بحربات مخوف جنبها
ترى العين فيها قل لشبل عرائف * وكل مهاة محتظها ربابها
ترى أهلها غب الصباح بفلها * بكل حلوب الجوف ماسد بابها
لها كل يوم في الارامي قتائل * ورا الفاجر المزوج غنوا صبابها

ومن قولهم في الامثال الحكيمية

وطلبك في المنوع منك سفاهة * وصدك عن صد عنك صواب
إذا رأيت ناساً يغلقوا عنك بابهم * ظهور المطايا يفتح الله باب

ومن قول شبل يذكر انتساب الكعوب الى برجم

فشايب وشباب من أولاد برجم * جميع البرايا تشتكي من ضاهاها

ومن قوله يعاتب اخوانه في موالة شيخ الموحدين أبي محمد بن تافرا كين المستبد بمجابة
السلطان بتونس على سلطانها مكفولة أبي اسحق بن السلطان أبي يحيى وذلك فيما قرب من عصرنا
يقول بلا جهل فتى الجود خالد * مقالة قوال وقال صواب

مقالة حيران بذهن ولم يكن * هرباً ولا فيما يقول ذهاب
تهجست معنا بها لا الحاجة * ولا هرج ينقاد منه معاب
ولبت بها كبدي وهي نعم صاحبه * حزينه فكر والحزين يصاب
تفوهت بادي شرحها عن مارب * جرت من رجال في القيل قراب
بني كعب أدني الاقربين لدمنا * بني عم منهم شايب وشباب
جري عند فتح الوطن من البعض * مصافاة ودوا اتساع جناب
وبعضهم ملنا له عن خصمه * كما يعلموا قولي يقينه صواب
وبعضهم مرهوب من بعض ملكننا * جزاعاً وفي جو الضمير كتاب
وبعضهم جانا جزياً سمحت * خواطر منا للتزليل وهاب
وبعضهموا نظار فينا بسوة * نقهنا حتى مانعنا به ساب
رجع انتهى مما سفهنا قيسه * مراراً وفي بعض المزارع هاب
وبعضهمو شاكي من أوغاد قادر * غاق عنه في أحكام السقائف باب
فصمناه عنه واقتضي منه مورد * على كره مولى البالي ودياب
ونحن على دافي المدا نطاب العلا * لهم ما حططنا للفجور نقاب
وحزنا حتى وطن بترسيس بعدما * نفقنا عليها سبقاً ورقاب
ومهد من الاملاك ما كان خارجاً * على أحكام والي أمرها له ناب
بردع قروم من قروم قبيلتنا * بني كعب لاواها القريم وطاب
جربنا بهم عن كل تأليف في العدا * وقنا لهم عن كل قيد مناب
الى أن عاد من لا كان فيهم بهمة * ربيها وخيراته عليه نصاب
وركبوا السبايا لثمناة من أهلها * ولبثوا من أنواع الحرير ثياب
وساقوا المطايا بالشر الا نسواله * جاهير ما يغفلوا بها بجلاب
وكسبوا من أصناف السعايا دخائر * ضحخم لحزات الزمان تصاب
وعادوا نظير البر مكين قبل دا * والاهلالا في زمان دياب
وكانوا لنا درعا لكل مهمة * الا ان بان من نار العدو وشهاب
خلوا الدار في جنح الظلام ولا اتقوا * ملامه ولا داري الكرام عتاب
كسوا الحي جلباب البهيم لستره * وهم لودروا لبسوا قيسه جياب
كذلك منهم حابس مادري النبا * ذهل حامي له أن كان عقله غاب
يظن ظنونا ليس نحن باهالها * تمني يكن له في السماح شعاب

خطاهو ومن واتاه في سو ظنه * بالاثبات من ظن القبائح عاب
فوا عزوتي ان الفتى بو محمد * وهوب لآلاف بغير حساب
وبرحت الاوغاد منه ويحسبوا * بروحه ما يحيا بروح سحاب
جروا يطلبوا تحت السحاب شرائع * لقوا كل ما يستأملوه سراب
وهو لو عطي ما كان للرأي عارف * ولكن في قلة عطاء صواب
وان نحن ما نستأملوا عنه راحة * وانه باسهم التلاف مصاب
وان ما واطر سيس يضيق وسعها * عليه ويمشي بالفزوع كراب
وانه منها عن قريب مفاصل * ختوج عنا زهوا لها وقباب
وعن فائتات الطرف بيض غوانج * ربوا خلف أستار وخلف حجاب
يتيه اذا تاهو ويصبوا اذا صبوا * بحسن قوانين وصوت رباب
يصلوه من عدم اليقين وربما * يطارح حتى ما كأنه شاب
هم حازله ذمه وظوع أوامر * ولذة مأكول وطيب شراب
حرام على ابن تافرا كين ماضي * من الود الا ما بديل بحراب
وان كان له عقل رحيح وفطنة * يلجج في اليم التريق غراب
وأما البدا لا بد لها من فياعل * كبار الى أن تبقى الرجال كباب
ويحمي بها سوق علينا سلاعه * ويحمار موصوف القنا وجعاب
ويسمي غلام طالب ربح ملكنا * ندوما ولا يسمى صحيح بناب
أياوا كلين الحيز تبغوا إدامه * غلظتوا أدمتوا في السموم لباب
ومن شعر علي بن عمر بن ابراهيم من رؤساء بني عامر لهذا العهد أحد بطون زغبة يعاتب
بني عمه المتطاولين الى رياسته

محبرة كالدر في يد صانع * اذا كان في سلك الحرير نظام
أباحها منها فيه أسباب ماضي * وشاء تبارك والضعون تسام
غدامته لام الحى حيين وانشطت * عصاها ولا صبنا عليه حكام
ولكن ضميرى يوم بان به النيا * تبرم على شوك القتاد برام
والا كابر اص التهامي قوادح * وبين عواج الكنافات ضرام
والا لكان القلب في يد قابض * أتا هم بمنشار القطيع غشام
لما قلت سما من شقا الين زارنى * اذا كان ينادي بالفراق وخام
ألا ياربوع كان بالأمس عامر * يحى وحله والقطين لمسام

وغيد تداني للخطا في ملاعب * دسجى الليل خيلهم مناهم ونظام
 ونعم يشوق الناظرين التحامها * لنا ما بدا من مهرق وكظام
 وعزود باسمها ليدعو لشرها * وإطلاق من سرب المها ونظام
 واليوم ما فيه اسوي اليوم حولها * ينوح على اطلال لها ونظام
 وقفنا بها طوراً طويلاً نساها * بعين سخيلاً والدموع بجمام
 ولا صحتي منها اسوي وحش خاطري * وسقمتي من اسباب عزفت اوهاهم
 ومن بعد ذا قدى لتصوير بو على * سلام ومن بعد السلام لسلام
 وقولوا له يا ابو الوفا كاخ رأيتكم * دخلتم بحجوراً غامقات دهاهم
 وزاخر ما تقاس بالعود النما * لها عيالات على الفضا وإكام
 ولا قسمتموا فيها قياساً يديكم * وليس البحور الطاميات لغام
 وحانوا على هلكاتكم في ورودها * من الناس غداً من العقول لثام
 أيا عرو وقر كبروا الضلالة ولا لهم * قرار ولا ذنباً لهم ودوام
 الا غناهم لو ترى كيف رأيتهم * ميشل سمراب لملهن قدام
 خلوا القنل مبغول في لمرقب العلا * مواضع ما هيل لهم بمقام
 وحق النبي واليه وأركانه العلي * ومن زارها في كل دهر أو عام
 لبر اليتامى فيه ان طالت الحيا * يدوقون من حط الكساع مدام
 ولا برها سبق البوادي عوا كنف * بكل رديني مطرب وحسام
 وكل مسافه كالهـ ما ياه عابر * عليها من اولاد الكرام غلام
 وكل كيت يكتعض عض نابه * يظل يصارع في العنان لحام
 وتحمل بنا الارض العقيمة مدة * وتولدا من كل ضيق كظام
 بالابطال والقود الهجان وبالقنا * لها وقت وجبات البدور زحام
 تجحدني وأنا الحقيد تقودها * وفي سن رحي للخراب علام
 ونحن كأضر اس الموافى بجمعكم * حتى يقاضوا من ديون غرام
 متى كان يوم القحط يامير ابو على * يلقى سداً صاير من قدام
 كذلك يوجهوا الى البصر بعينه * وخل الحيات العاليات تسام
 وخل رجال لا يراى الضيم جارهم * ولا يجمعوا بدعي العندو زمام
 الا يقيموها وعقد رؤسهم * وهم عذر غشيه دائماً ودولام
 وكل تار ظنهم على البدو سابق * ما بين صحاصيح وبين حسام

ففي نار قطار الصوي يومنا على * لنا أرض ترك الظاعنين زمام
 وكم قد يجيئوا الرها من غنيمه * حليف الثنا قشاع اكل غيام
 وان جاء خافو الملوكة ووسعول * غدا طبعه يحمدي عليه قيام
 تخليكم سلام الله من السن فاهم * ماغنت الورقا وناح حمام
 ومن شعر عرب نمر بنواحي حوران لامرأة قتل زوجها فبعثت الى أخلافه من قيس
 تغريهم بطالب نارم تقول
 تقول فلفه الحلي أم سلامه * بعين أواع الله من لارثي لها
 تبت بطول الليل ما تألف الكري * موجة كأن الشقا في محالها
 على ما جرى في دارها وبو عيالها * بالخطه عين العين غير حالها
 فقدنا شهاب الدين يا قيس كنكم * ونتمو عن أخذ التار ما ذاقها
 المناقت اذا ورد الكتاب يسرني * اويبرد من نيران قاي ذبالها
 أياحين تسريح الذوائب واللمحي * ويض العذاري ما جيتوا جمالها

الموشحات والأزجال للاندلس

وأما أهل الاندلس فلما كثر الشعر في قطارهم وتمذبت مناحيه وفنوه وبلغ التعميق فيه الغاية
 استحدث المتأخرون منهم فنا منه سموه بالموشح ينظمونه أسطفاً أسطفاً وأغصاناً أغصاناً
 يكثرون منها ومن أغاريفها المختلفة ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً ويلتزمون عند قوافي
 تلك الأغصان وأوزانها متالفاً فيما بعد الى آخر القطعة وأكثر ما انتهى عندهم الى سبعة أبيات
 ويعمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب وينسبون فيها وعددها كما
 يفعل في القصائد وتجاروا في ذلك الى الغاية واستظرفه الناس جملة الخاصة والكافة لسهولة
 تناوله وقرب طريقه وكان المخرج لها بجزيرة الاندلس مقدم بن معافر الفريري من شعراء
 الأمير عبد الله بن محمد المرواني وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب
 العقد ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما فكان أول من برع في هذا
 الشأن عبادة القرظي شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية وقد ذكر الاعلم البطولي أنه
 سمع أبا بكر بن زهير يقول كل الموشاحين عيال على عبادة القرظي فيما اتفق له من قوله
 ما بكر بن زهير بن زهير * شمس فحل * غصن نقا * مسك شم
 ما بكر بن زهير بن زهير * شمس فحل * غصن نقا * مسك شم
 ما بكر بن زهير بن زهير * شمس فحل * غصن نقا * مسك شم
 لا جرم * من لحا * قد عشقا * قد حرم

وزعموا أنه لم يسبق عبادة وشاح من معاصريه الذين كانوا في زمن الطوائف * وجاء مصلياً خلفه منهم ابن أرفع رأسه شاعر المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة قالوا وقد أحسن في ابتدائه في موشحته التي طارت له حيث يقول

العود قد ترنم * بابدع تلحين وسقت المذانب * رياض البساتين
وفي انتهائه حيث يقول

تخطر ولا تسلم * عساك المأمون مروع الكتائب * يحيى بن ذى النون
ثم جاءت الحلبة التي كانت في دولة الملتئمين فظهرت لهم البدائع وسابق فرسان حلبهم الاعمى الطليطي ثم يحيى بن بقی وللطليطي من الموشحات المتهذبة قوله

كيف السبيل الى * صبرى وفي المعالم أشجان

والركب في وسط الفلا * بالخبرد انواعهم قد بان

وذكر غير واحد من المشايخ أن أهل هذا الشأن بالاندلس يذكرون أن جماعة من الوحاشين اجتمعوا في مجلس باشبيلية وكان كل واحد منهم اصطنع موشحة وتأنق فيها فتقدم الاعمى الطليطي للانشاد فلما افتتح موشحته المشهورة بقوله

ضاحك عن حنان * سافر عن در ضاق عنه الزمان * وحواه صدى

صرف ابن بقی موشحته وتبعه الباقر * وذكر الاعلم البطليوسي أنه سمع ابن زهير يقول ما حسدت قط وشاحاً على قول الا ابن بقی حين وقع له

أما ترى أحمد * في مجده العالي لا يباحق أطلعه الغرب * فأرنا مثله يامشرق

وكان في عصرها من الموشحين المطبوعين أبو بكر الابيض وكان في عصرها أيضاً الحكيم أبو بكر بن باجة صاحب التلاحين المعروفة * ومن الحكايات المشهورة أنه حضر مجلس مخدومه ابن تيفلويت صاحب سرقسطة فألقى على بعض قيناته موشحته

جرر الذيل أيما جر * وصل الشكر منك بالشكر

فطرب الممدوح لذلك فلما ختمها بقوله

عقد الله راية النصر * لأمير العلا أبي بكر

فلما طرق ذلك التاجين سمع ابن تيفلويت صاح واطرباه وشق ثيابه وقال ما أحسن ما بدأت وما ختمت وحلف بالآيمان المغالطة لايمشي ابن باجة الى داره الا على الذهب نخاف الحكيم سوء العاقبة فاحتال بان جعل ذهباً في نعله ووشى عليه * وذكر أبو الخطاب بن زهير أنه جرى في مجلس أبي بكر بن زهير ذكر أبي بكر الابيض الوشاح المتقدم الذكر ففرض منه بعض الحاضرين فقال كيف تغض ممن يقول

مالذي شرب راح * على رياض الاقاح * لولا هضم الوشاح
 اذا أتى في الصباح * أو في الأصيل * أضى يقول
 مالشـمول * لطمت خدى * ولشـمال
 * هبت فمالي * غصن اعتدال * ضمه بردي
 مما أباد القلوبا * يمشى لنا مستريا * يالحظه رد نوبا
 ويا ماء الشنبا * برد غليل * صب عليل
 لا يستحيل * فيه عن عهدي * ولا يزال *
 في كل حال * يرجو الوصال * وهو في الصد

واشتهر بعد هؤلاء في صدر دولة الموحدين محمد بن أبي الفضل بن شرف قال الحسن بن
 دويذة رأيت حاتم بن سعيد على هذا الافتتاح

شمس قاربت بدرا * راح ونديم
 وابن بهردوس الذي له ياليلة الوصل والسعود * بالله عودي
 وابن موهل الذي له مال العيد في حلة وطاق * وشم طيب
 وإنما العيد في التلاقى * مع الحبيب

وأبو اسحق الرويني قال ابن سعيد سمعت أبا الحسن بن سهل بن مالك يقول انه دخل على
 ابن زهير وقد أسن وعليه زي البادية اذ كان يسكن بخصن أسيه فلم يعرفه فجلس حيث انتهى
 به المجلس وجرت المحاضرة فأنشد لنفسه موشحة وقع فيها

كل الدجي يجرى * من مقلة الفجر * على الصباح
 ومعصم النهر * في حلل خضر * من البطاح

فتحرك ابن زهير وقال أنت تقول هذا قال اختر قال ومن تكون فعرفه فقال ارتفع فوالله
 ما عرفتك قال ابن سعيد وسابق الحلبة التي أدركت هؤلاء أبو بكر بن زهير وقد شرقت موشحاته
 وغربت قال وسمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول قيل لابن زهير لو قيل لك ما أبدع وأرفع
 ما وقع لك في التوشيح قال كنت أقول

مالله موله * من سكره لا يفيق * ياله سكران
 من غير خمر * مال الكئيب المشوق * يندب الأوطان
 هل تستعاد * أيامنا بالخليج * وليالينا
 أو نستفاد * من النسيم الاريح * مسك دارينا
 واد يكاد * حسن المكان البهيج * أن يحيدنا

والنمل ظله * * * دوح عليه أنيق * * * موزق فيسنان له

بالماء يجري * * * وعالم وغرق * * * من جنى الریحان له

واشتهر بعده ابن الحيون الذي له من الزجل المشهور قوله ما ...

تفوق بينهم كلال خيل * * * بما سبب من يدوعين

وينشد في القصيدة علقتم لميلع غلمت وامي * * * فليس يخل سلاع من قتال

لا يوسع عمل بذني العينين منامي * * * ما يعمل أقتنا بذلي التبال

واشتهر معهما يونس بن الناطة الممر بن الفرس قال ابن سميذ ولملا سمع ابن زهير قوله

لله ملكان من يوم بلهيج * * * نهر حصص على تلك المروج

ن سلا القم لمعطفنا على ناعم الخديج * * * تقض ملسك الحنم ...

* * * عن عسجد والدمام * * * وزكا الاصيل يطويه كعب الظلام ...

قال ابن زهير كنا نحن عند هذا الرء وكان معدي في بلدته مطرف * * * أخبر ابن سميذ عن

والده أن مطرفا هذا دخل على ابن الفرس فقام له وأكرمه فقال لا تفعل فقال ابن الفرس

كيف لأقوم لمن يقول بيك ... * * * قاله تراعي دمعاه ...

قلوب مصائب * * * بأحظاظ تصيب * * * فقل كيف يبق بلا وجد

وبعد هذا ابن جرهمون بن سية * * * ذكر ابن الراسين أن يحيى الجزراني دخل عليه في مجلسه

فأنشده موشحة لنفسه فقال له ابن جرهمون لا يكون الموشح بموشح حتى يكوف طريا عن

التكلف قال على مثل ماذا قال على مثل قولي ...

ياهاجر بي هل إلى الوصال * * * منك سبيل ...

والأوهل توي عن هوالك سالي * * * قلب العليل ...

وبأبو الحسن السهل بن مالك بن ناطة قال ابن سميذ كان والدي يمجبا بقوله ...

ابن سبيل الصباح في المشرق * * * معاد بخوا في أجمع الأفق * * * قداءت نوادب الورق له

عن أمه ... * * * رأته أها خافت من المشرق * * * فبكت سجرة على الورق ...

واشتهر بأشيلية لذلك المهد أبو الحسن ابن الفضل قال ابن سميذ عن والده سمعت السهل بن

مالك يقول يا ابن الفضل لك على الوشاحين الفضل بقولك ...

واحسرتا لزمانه مطي * * * عشيقان الهوى والنقضى * * * وأفردت بالرغم بالارضى

وبت على جرات الغضي * * * أناق بالفكر تلك للظلول * * * وألتم بالوهم تلك الرسوم

قال وسمعت أبو بكر بن الصلوني ينشد الاستاذ أبا الحسن الزلاج موشحاته غير مامرة فما

سمعه يقول لله درك الأفي قوله * * * ...

قسما بالهوي لذي حجر * ما ليل الشوق من الجفون
 حمد الصبح ليس يطرد * ما ليلي فيما أظن غدا * صح يا ليل انك الأبد
 أو قطعت قوادم النسر * فتجوم السماء لا تسري ردا
 ومن موشحات ابن الصابوني قوله *
 ما حال صبذي ضناؤا ككتاب * أمراضه يا ويلاته الطيبك
 عامله محبوبه باجتناب * ثم اقتدى فيه الكري بالحبيب
 جفا جفوني النوم لكنني * لم أبكه الا لفقد الخصال
 وذا الوصال اليوم قد غراني * منه الكشا وبماء الوصال
 فليست باللائم من صدي * بصورة الحق او بالمال
 واشتهر بين أهل العدو ابن خلف الجرايري صاحب الموشحة المشهورة له
 يد الا صلح قد قدحت * زناد الانوار * في مجاهر الزهر
 وابن هزر البجائي وله من موشحة *
 نهر الزمان موافق * حيثك منه يا تشام
 ومن محاسن الموشحات طائفة آخرين لموشحة ابن سهل شاعر اشيلية ولقبته من بعدها فتمها
 قوله هل دري ظبي الحى أن قد حنى * قلب صب حمله عن مكش
 فهو في نار وضيق مثل ما * لعبك ربح الصبا بالقبيل *
 وقد نسج على منواله فيها صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب وشاعر الاندلس والمغرب
 لعصره وقد مر ذكره فقال *
 جادك الغيث اذا الغيث هما * يا زمان الوصل بالاندلس
 لم يكن وصلك الا حاما * في الكري أو خاسة الختل
 اذ يقول الدهر أسباب المني * تنقل الخطو على ما لوسم
 زلما آيين فرادي وثنى * مثل ما يدعو الوفا المومنين
 والحياء قد جلل الروض سنا * فسنا الازهار قيسه تبسم
 ورووي النعمان عن ماء السماء * كيف يروي مالك عن الحسن
 فيكسار الحسن ثوبا معاصيا * يزدهى مقه بأبهي فلبس
 في ليل كتمت سر الهوى * بللجي لولا شهوة من القدر
 ما لانجم النكاس فيها وهوى * مستقيم السبي بعد الأثر
 وظهر ما فيه من عيب سوي * أنه امر كلج البصر

حين لذ النوم منا أو كما * هجم الصبح نجوم الحرس
 غارت الشهب بنا أو ربما * أثرت فينا عيون الترحس
 أي شيء لا مرئى قد خلاصا * فيكون الروض قد كفن فيه
 تنهب الأزهار فيه الفرصا * أمنت من مكره ما تنقبه
 فاذا الماء تناجي والحصا * وخلا كل خليل بأخيه
 تبصر الورد غيورا بدما * يكتسي من غيظه ما يكتسي
 وتري الآس ليبياً فهما * يسرق الدمع بأذني فرس
 يا أهيل الحي من وادي الغضى * وبقلي مسكن أتم به
 ضاق عن وجدى بكم رجب الفضا * لا أبلى شرقه من غربه
 فأعيدوا عهد أنس قد مضى * تنقذوا عائدكم من كربه
 واتقوا الله وأحيوا مفرماً * يتلاشى نفساً في نفس
 حبس القلب عليكم كرماً * أفترضون خراب الحبس
 وبقلي فيكمو مقرب * بأحاديث المني وهو بعيد
 قر أطلع منه المغرب * شقوة المغرى به وهو سعيد
 قد تساوى محسن ومذنب * في هواه بين وعد ووعد
 ساحرا المقلّة معسول الهمي * جال في النفس مجال النفس
 سدد السهم وسمى ورمى * بفؤادي نهبة المفترس
 ان يكن جار وخاب الأمل * وفؤاد الصب بالشوق يذوب
 فهو للنفس حبيب أول * ليس في الحب لمحبوب ذنوب
 أمره معتمل ممثّل * في ضلوع قد براها وقلوب
 حكم لاحظ بها فاحتكما * لم يراقب في ضفاف الأنفس
 ينصف المظلوم من ظالما * ويجازي البر منها والمدي
 ما قلبي كلما هبت صبا * عادة عيد من الشوق جديد
 كان في اللوح له مكتتبا * قوله ان عذابى لشديد
 جاب الهم له والوصبا * فهو للأشجان في جهدهم
 لاعج في أضاعي قد أضرمها * فهي نار في هشم اليبس
 لم تدع من مهجتي الا الذما * كبقاء الصبح بعد الغلس
 سلمى يانفس في حكم القضا * واعمرى الوقت برجعي ومتاب

واتركى ذكرى زمان قدمضي * بين عتي قدتقضت وعتاب
 واصرف في القول الى المولى الرضى * ملهم التوفيق في أم الكتاب
 الكريم المنتهى والتمتعي * أسد السرح وبدر المجلس
 ينزل النصر عليه مثل ما * ينزل الوحي بروح القدس
 وأما المشاركة فالتكلف ظاهر على ما عانوه من الموشحات ومن أحسن ما وقع لهم في ذلك
 موشحة ابن سنا الملك المصري اشتهرت شرقا وغربا وأوها

ياحيبي ارفع حجاب النور * عن العذار تنظر المسك على الكافور * في جنبار
 كللى ياسحب تيجان الربى * بالحيلى * واحبلى سوارها منعطف الجدول
 ولما شاع فن التوشيح في أهل الاندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتتميق كلامه وترصيع
 أجزائه نسجت العامة من أهل الامصار على منواله ونظاوا في طريقته باغتهم الحضرية من
 غير أن يلتزموا فيها اعرابا واستحدثوه فناسموه بالزجل والتزموا النظم فيه على منحهم الى
 هذا العهد فجاءوا فيه بالغرائب واتسع فيه للבלغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة * وأول من
 أبدع في هذه الطريقة الزجلية أبو بكر بن قرمان وإن كانت قبله بالاندلس لكن لم
 يظهر حلاها ولا انسبكت معانيها واشتهرت رشاقها الا في زمانه وكان لعهد المثلثين وهو إمام
 الزجالين على الاطلاق قال ابن سعيدورأيت أزجاله مروية ببغداد أكثر مما رأيتها بجواضر
 المغرب قال وسمعت أبا الحسن بن جحدر الاشيلي إمام الزجالين في عصرنا يقول ما وقع لاحد
 من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قرمان شيخ الصناعة وقد خرج الى منتزه مع بعض
 أصحابه فجلسوا تحت عريش وأمامهم تمثال أسد من رخام يصب الماء من فيه على صفائح من
 الحجر مدرجة فقال

وعريش قدقام على دكان * بحال رواق وأسد قد ابتلع ثعبان * في غلظ ساق
 وفتح فمه بحال انسان * فيه الفواق وانطلق يجري على الصفاح * ولقي الصباح
 وكان ابن قرمان مع انه قرطبي الدار كثيراً ما يتردد الى اشبيلية ويبيت بنهرها فاتفق أن اجتمع
 ذات يوم جماعة من أعلام هذا الشأن وقدركبوا في النهر للزفة ومعهم غلام جميل الصورة
 من سروات أهل البلد وبيوتهم وكانوا مجتمعين في زورق للصيد فنظموا في وصف
 الحال وبدأ منهم عيسى البليدي فقال

يطمع بالخلاص قلبي وقد فانونا * وقد ضمو عشقو بسهماتو
 تراء قد حصل مسكين حملاتو * فقلق ولذلك أمر عظيم صاباتو
 توحش الجفون الكحل اذا عاتو * وذلك الجفون الكحل ابلاتو

ثم قال أبو عمرو بن الزاهر الاشيلي

نشب والهوي من لج فيه ينشب * ترى اش كان دغاه يشقى ويتعذب
مع العشق قام في مالو يلعب * وخلق كثير من ذا اللعب ماتوا

ثم قال ابو الحسن المقرئ الداني

نهار مليح تعجبنى أوصافو * شراب وملاح من حولي طافوا
والمعلمين يقولوا بصفصافو * والنوري أحري بمقالاتو

ثم قال ابو بكر بن مرتين

الحق يريد حديث تعالى عاد * في الواد الحمير والمنزه والصاد
تنبه حينان ذلك الذي يصطاد * قلوب الوري هي في شبيكاتو

ثم قال ابو بكر بن قرمان

اذا شمر اكامو يرميها * تري النور يرشق لذيالك الجيها
وليس مراد وأن يقع فيها * الا أن يقبل يديداتو
وكان في عصرهم بشرق الاندلس محاف الاسود وله محاسن من الزجل منها قوله
قد كنت مشبوب واختشيت الشيب * وردني ذا العشق لأمر صعب

يقول فيه

حين تنظر الحد الشريف البهي * تنتهي في الحرمه الى ما تنهي
يا طالب الكيميا في عيني هي * تنظر بها الفضة ترجع ذهب
وجاءت بعدهم حلبة كان سابقها مدغيس وقعت له العجائب في هذه الطريقة فمن قوله
في زجله المشهور

ورذاذ دق ينزل * وشعاع الشمس يضرب
فتري الواحد يفضض * وتري الآخر يذهب
والنبت يشرب ويسكر * والغصون ترقص وتطرب
وتريد نحي الينسا * ثم تستحي وتهرب

ومن محاسن أزجاله قوله

لاح الضيا والنجوم حيارى * فقم بنسا نزع الكسل
شربت ممزوجاً من قراعا * أحلي هي من العسل
يا من يلمني كما تقلد * قللك الله بمسا تقول
يقول بان الذنوب مولد * وأنه يفسد العقول

لارض الحجاز يكون لك ارشد * اش ما ساقك لذي الفضول
مر أنت للحج والزيارا * ودعنى في الشرب منهمل
من ليس لو قدره ولا استطاعا * النيه أبلغ من العمل
وظهر بعد هؤلاء باشيلية ابن جحدر الذي فضل على الرجالين في فتح منورقة بالزجل الذي اوله هذا
من عاند التوحيد بالسيف يحق * أنا برى ممن يعاند الحق
قال ابن سعيد لقيته ولقيت تلميذه الممع صاحب الزجل المشهور الذي اوله
ياليتني ان رأيت حبيبي * أقبل اذنو بالرسلا
ليس أخذ عنق الغزير * وأسرق فم الحجيلا
ثم جاء من بعدهم أبو الحسن سهل بن مالك إمام الادب ثم من بعدهم هذه العصور صاحبنا
الوزير أبو عبدالله بن الخطيب إمام النظم والنثر في الملة الاسلامية من غير مدافع فمن محاسنه
في هذه الطريقة

امزج الاكواس واملالى تجدد * ما خلق المال الا أن يبدد
ومن قوله على طريقة الصوفية ويخو منحي الششري منهم
بين طلوع وزول * اختلطت الغزول * ونضي من لم يكن * وبقي من لم يزول
ومن محاسنه أيضاً قوله في ذلك المعنى
البعد عنك يا بنى * أعظم مصابي * وحين حصل لى قربك * نسيت قرابي
وكان لعصر الوزير ابن الخطيب بالاندلس محمد بن عبد العظيم من أهل وادي آش وكان
إماما في هذه الطريقة وله من زجل يمارض به مدغيس في قوله * لاح الضيا والنجوم
حيارى * بقوله

حل المجون يا اهل الشطارا * مذ حلت الشمس بالحمل
جددوا كل يوم خلاعا * لا تجعلوا اسمها يمل
الها تخلصوا في سبيل * على خضورة ذاك النبات
وصل بغداد واجتياز النيل * أحسن غندي من ذيك الجهات
وطاقتها أصلح من اربعين ميل * ان مرت الريح عليه وجات
لم يلق الغبار أمارا * ولا بمقدار ما يكتحل
وكيف ولا فيه موضع رفاعا * إلا ويسرح فيه النحل

وهذه الطريقة الزجلية لهذا العهد هي فن العامة بالاندلس من الشعر وفيها نظمهم حتي أنهم
لينظمون بها في سائر البحور الخمسة عشر لكن بلغتهم العامية ويسمون الشعر الزجلي مثل

قول شاعرهم

لى دهر بعشق جفونك وسنين * وأنت لاشفقه ولا قاب يلين
حتى تري قلبي من أجلك كيف رجع * صنعة السكة ما بين الحدادين
الدموع ترشش والنار تلتهب * والمطارق من شمال ومن يمين
خلق الله النصاري للغزو * وأنت تنزو في قلوب العاشقين
وكان من المجيدن لهذه الطريقة لأول هذه المائة الأديب أبو عبد الله الآلوسي وله من قصيدة
يمدح فيها السلطان ابن الأحمر

طل الصباح قم ياندي نثربو * وانضحكو من بعد ما نظربو
سيكة الفجر أحلت شققا * في مليق الليل قوم قلبو
تري غبار خالص أبيض نقي * فضه هو لكن الشفق ذهبو
وسقو سكتو عند البشر * نور الجفون من نورها تكسبو
فهو النهار يا صاحبي للمعاش * عيش الفتي فيه بالله ما طيبو
والليل نصا للقبل والعناق * على سرير الوصل يتقلبو
جاد الزمان من بعد ما كان بحيل * واش كملته من يريه عقربو
كما جرع مرو فيما قد مضى * يشرب سواء ويا كل طيبو
قال الرقيب يا أديبا لاش ذ * في الشرب والعشق ترى تحبو
وتعجبوا عذالي من ذا الخبر * قلت يا قوم مما تعجبو
يعشق ما يح الا رقيق الطباع * علاش تكفروا بالله أوتكتبو
ليس يرمح الحس الاشاعر أديب * يفض بكرو ويدع ثيبو
أما الكاس حرام نعم هو حرام * على الذي ما يدري كيف يشربو
ويد الذي يحسب حسابه ولم * يقدر يحسن ألفاظ أن يحلبو
واهل العقل والفكر والمجون * يغفر ذنوبهم لهذا أن أذنو
ظي بهي فيها يطفي الجمر * وقلبي في جمر الغضي يلهبو
غزال بهي ينظر قلوب الاسود * وما لهم قبل النظر يذهبو
ثم يحيمهم اذا ابتسم يضحكوا * ويفرحوا من بعد ما يندبوا
فويم كالخاتم ونثر نقي * خطيب الامه للقبل يحطبو
جوهر ومرجان أي عمد يا فلان * قد صفه الناظم ولم يثقبو
وشارب اخضر يريد لاش يريد * من شبهه بالمسك قد عيو

يسبل دلال مثل جناح الغراب * ليالى هجرى منه يستغربو
على بدن أبيض بلون الحليب * ماقط راعى للفنم يحابو
وزوج هندات ما علمت قبلها * ديك الصلابة ربت ما أصابو
تحت العكاكن منها خصر رقيق * من رقتو يخفي اذا تطلبو
أرق هو من ديني فيما تقول * جديد عتبك حق ما كذبو
أي دين بقالي معاك وای عقل * من يتبعك من ذا وذا تسلبو
تحمل أرداف ثمال كالرقيب * حين ينظر العاشق وحين يرقبو
ان لم ينفس غدر أو ينقشع * في طرف ديسا والبشر تطلبو
يصير اليك المكان حين نحى * وحين تغيب ترجع في عيني تبو
محاسنك مثل خصال الامير * أو الرمل من هو الذي يحسبو
عماداً لمصاروف ضيغ العرب * من فصاحة لفظه يتقربو
بجمل العلم انفرد والعمل * ومع بديع الشعر ما كتبو
ففي الصدور بالرمح ما أطعنه * وفي الرقاب بالسيف ما ضربو
من السماء يحسد في أربع صفات * فمن يعدد قلبي أو يحسبو
الشمس نورو والقمر همتمو * والغيث جودو والنجوم منصبو
يركب جواد الجود ويطلق عنان * الاغنيا والجند حين يركبو
من خاتموا يلبس كل يوم لطيب * منه بنات المعالي تطيبو
نعمتو تظهر على كل من يحبه * قاصد ووارد قط ما خيبو
قد أظهر الحق وكان في حجاب * لاش يقدر الباطل بعد ما يحجبو
وقد بني بالسر ركن التقى * من بعد ما كان الزمان خربو
تخاف حين تلقاه كما ترجمه * فمع سماحة وجهه ما أسيدو
يبقي الحروب ضاحك وهي عابسه * غلاب هو لاشي في الدنيا يغلبو
اذا جبد سيفه ما بين الردود * فليس شيء يغنى من يضربو
وهو سمي المصطفى والآله * لسلطانه اختاروا واستنخبو
تراه خليفة أمير المؤمنين * يقود جيوشو ويزين موكبو
لذي الاماره تخضع الرؤس * نعم وفي تقويل يديه يرغبو
بيته بقي بدور الزمان * يطلعوا في المجد لا يغربو
وفي المعالي والشرف يبعدوا * وفي التواضع والحيا يقربو

والله يقيم مدار الفلك * وأشرق شمس ولاح كوكبو
وما تغني ذا القصيد في عروض * ياشمس خدر ما لها مغربو
ثم استحدث أهل الامصار بالمغرب فنا آخر من الشعر في أعاريض مزدوجة كالموشح نظموها
فيه بلغتهم الحضرية أيضاً وسموه عروض البلد وكان أول من استحدثه فيهم رجل من أهل
الاندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير فظم قطعة على طريقة الموشح ولم يخرج فيها عن مذاهب
الاعراب مطلعها

أبكاني بشاطي النهر نوح الحمام * على الفصن في البستان قريب الصباح
وكف السحر يمحو مداد الظلام * وماء الندي يجري بشعر الاقاح
باكرت الرياض والطل فيها افتراق * سر الجواهر في نخور الجوار
ودمع النواصر ينهرق انهرق * يحاكي ثعابين حلقت بالثمار
لوا بالغصون خلخال على كل ساق * ودار الجميع بالروض دور السوار
وأيدي الندي تخرق جيوب الكمام * ويحمل نسيم المسك عنها رياح
وعاج الصبا يطلي بمسك الغمام * وجر النسيم ذيلو عليها وفاح
رأيت الحمام بين الورق في القضيب * قد ابتلت ارباشه وبقطر الندى
تنوح مثل ذاك المستهام الغريب * قد التف من توبو الجديد في ردا
ولكن بما احمر وساوق خضيب * ينظم سلوك جوهر ويتقلدا
جلس بين الاغصان جلسة المستهام * جناحا توسد والتوى في جناح
وصار يشكي مافي الفؤاد من غرام * منها ضم منقاره لصدره وصاح
فقلت يا حمام أكرمت عيني الهجوع * أراك ما زال تبكي بدمع سفوح
قال لي بكيت حتى صفت لي الدموع * بلا دمع نبق طول حياتي نوح
على فرخ طار لي لم يكن لو رجوع * ألفت البكا والحزن مع عهد نوح
كذا هو الوفا كذا هو الزمام * انظر جفون صارت بحال الجراح
وأتم من بكى منكم اذا تم عام * يقول غنائي ذا البكا والنواح
قلت يا حمام لو خضت بحر الضني * كنت تبكي وترثي لي بدمع هتون
ولو كان بقلبك ما قلبي أنا * ما كان يصير تحتك فروع الغصون
اليوم أقاسي الهجر كم من سنا * حتى لاسيل جملة تراني العيون
ومما كسا جسمي التحول والشقام * خفاني نحو لي عن عيون اللواح
لو جئني المتأيا كان يموت في المقام * ومن مات بمد ياقوم لقد استراح

قال لي لو رقدت لأوراق الرياض * من خوفي عليه ود النفوس للفؤاد
وتخضبت من دمعي وذلك البياض * طوق العهد في عتقي ليوم التناد
أما طرف منقاري حديثو استفاض * باطراف البلد والجسم صار في الرماد
فاستحسنه أهل فاس وولعوا به ونظموا على طريقته وتركوا الاعراب الذي ليس من شأنهم
وكثر سماعه بينهم واستفحل فيه كثير منهم ونوعوه أصنافا إلى المزدوج والكارى والملمبة
وانغزلواختلفت أسماؤها باختلاف ازدواجها وملاحظاتهم فيها فمن المزدوج ماقاله ابن شجاع
من خولهم وهو من أهل تازا

المال زينة الدنيا وعز النفوس * يهوى وجوها ليس هي باهيا
فها كل من هو كثير الفلوس * ولوه الكلام والرتبة العاليا
يكبر من كثر مالو ولو كان صغير * ويصغر عزز القوم اذا يقتقر
من ذا ينطبق صدري ومن ذا يصير * يكاد ينقع لولا الرجوع للقدر
حتى يلتجئ من هو في قومو كبير * لمن لا أصل عند وولا لوخطر
لذا ينبغي يحزن على ذي العكوس * ويصغ عليه توب فراش صافيا
اللى صارت الاذنان أمام الرأس * وصار يستفيد الواد من الساقيا
ضعف الناس على ذا وفسد ذا الزمان * ما يدروا على من يكثر واذا العتاب
اللى صار فلان يصبح بو فلان * ولو ريت كيف يرد الجواب
عشنا والسلام حتى رأينا عيان * أنفاس السلاطين في جلود الكلاب
كبار النفوس جذاضعاف الاسوس * هم ناحيا والمجد في ناحيا
يروا أنهم والناس يروهم تيوس * وجوه البلد والعهد الراسيا

ومن مذاهبهم قول ابن شجاع منهم في بعض مزدوجاته

تعب من تبع قلبو ملاح ذا الزمان * أهمل يا فلان لا يلعب الحسن فيك
مامنهم ملىح عاهد الاوخان * قليل من عليه تحبس ويحبس عليك
يهبوا على العشاق ويتمنعوا * ويستعمدوا تقطيع قلوب الرجال
وان واصلوا من حينهم يقطعوا * وان عاهدوا خانوا على كل حال
ملىح كان هو يتو وشت قلبي معو * وصيرت من خدي لقدمو نعال
ومهدت لومن وسط قلبي مكان * وقلت لقلبي اكرم لمن حل فيك
وهون عليك ما يعتريك من هوان * فلا بد من هول الهوي يعتريك
حكمتو على واراضيت بوأمير * فلو كان يرى حالى اذا يبصرو

يرجع مثل در حولي بوجه الغدير * مرديه ويتعطس بحال انحروا
وتعلمت من ساعا بسبق الضمير * ويفهم مرادوقبل أن يذكرو
ويحتل في مطلوبو ولو أن كان * عصر في الربيع أو في الليالي يريك
ويمشي سوقو ولو كان باصهان * وايش ما يقل يحتاج يقل لو يحبك
حتى أتى على آخرها * وكان منهم على بن المؤذن سلمان * وكان لهذه العصور
القريبة من خولهم بزهرهون من ضواحي مكناسة رجل يعرف بالكفيف أبدع في مذاهب
هذا الفن ومن أحسن ما تلقى له بمحفوظي قوله في رحلة السلطان أبي الحسن وبنى مرين الى
أفريقية يصف هزيمتهم بالقيروان ويعزهم عنها ويؤنسهم بما وقع لغيرهم بعد أن عيهم على غزاتهم
الى أفريقية في ماعبة من فنون هذه الطريقة يقول في مفتتحها وهو من أبدع مذاهب البلاغة
في الاشعار بالمقصدي مطاع الكلام واقتتاحه ويسمي براعة الاستهلال

سبحان مالك خواطر الامرا * ونواصيها في كل حين وزمان
ان طغناه عطفهم لما قسرا * وان عصيانه عاقب بكل هوان

الى أن يقول في السؤال عن جيوش المغرب بعد التخاص

كن مرعى قل ولا تكن راعى * فالراعي عن رعيته مسئول
واستفتح بالصلاة على الداعي * للاسلام والرضا السني الكمول
على الخلفا الراشدين والاتباع * واذ كر بعدهم اذا تحب وقول
أحجاجا تملأوا الصحرا * ودوا سرح البلاد مع سكان
عسكر فاس التسيه الغرا * وين سارت بوغزائم السلطان
أحجاج بالنبي الذي زرتهم * وقطعتم لو كلال اليد
عن جيش الغرب حين يسألهم * المتلوف في أفريقية السودا
ومن كان بالعطايا يزودكم * ويدع برية الحجاز رغدا
قام قل للسد صادف الجزرا * ويعجز شوط بعد ما يخفان
ويزف كردون وتمب في الغبرا * أى مازاد غزاهم سبحان
لو كان ما بين تونس الغربا * وبلاد الغرب سد السكندر
مبنى من شرقها الى غربا * طبقا بحديدا وثانياً بصفر
لا بد الطير أن تحيب نبا * أو يأتي الريح عنهم بفرد خبر
ما أعوصها من أمور وما تري * لو تفرا كل يوم على الديوان
لجرت بالدم وانصدع حجرا * وهوت الخراب وخافت الغزلان

أدر لي بعقلك الفحاص * وتفكر لي بخاطرك جما
 ان كان تعلم حمام ولا رقص * عن السلطان شهر وقبله سبعا
 تظهر عند المهيمن القصاص * وعلامات تنشر على الصمعا
 الا قوم عاريين فلا ستر * مجهولين لامكان ولا امكان
 ما يدريوا كيف يصورا كسرا * وكيف دخلوا مدينة القيروان
 أمولاي أبو الحسن خطينا الباب * قضية سيرنا الى تونس
 فقنا كنا على الجريد والزاب * واشلك في أعراب أفريقيا القويس
 ما بلغك من عمر فتى الخطاب * الفاروق فاتح القرى المولس
 ملك الشام والحجاز وناج كسرى * وفتح من أفريقيا وكان
 رد ولدت لو كره ذكرى * ونقل فيها تفرق الاخوان
 هذا الفاروق مردي الاعوان * صرح في أفريقيا بذا التصريح
 وبقت حى الى زمن عثمان * وفتحها ابن الزبير عن تصحيح
 لمن دخلت غنائمها الديوان * مات عثمان وانقلب علينا الريح
 وافترق الناس على ثلاثة أمرا * وبقي ماهو للسكوت عنوان
 اذا كان ذا في مدة البرا * اش نعمل في أواخر الأزمان
 وأصحاب الحضرة في مكنا سانا * وفي تاريخ كائنا وكيوانا
 نذكر في صحتها آياتنا * شق وسطيح وابن مرانا
 ان مرين اذا انكف براياتنا * لجدا وتونس قد سقط بنيانا
 قد ذكرنا ماقال سيد الوزرا * عيسى بن الحسن الرفيع الشأن
 قال لي رأيت وأنا بذا أدري * لكن اذا جاء القدر عميت الاعيان
 ويقول لك ما دهى المرينيا * من حضرة فاس الى عرب دياب
 اراد المولى بموت ابن يحيى * سلطان تونس وصاحب الابواب

ثم أخذ في ترحيل السلطان وحيوشه الى آخر رحلته ومنتهى أمره مع اعراب أفريقية واتى
 فيها بكل غريبة من الابداع وأما أهل تونس فاستحدثوا في الملعبه أيضا على لغتهم الحضرية
 الا أن أكثره رديء ولم يعلق بمحفوظي منه شيء لردائه وكان لعامة بغداد أيضا فن من
 الشعر يسمونه المواليات ومحتة فنون كثيرة يسمون منها القوما وكان ومنه مفرد ومنه
 في بيتين ويسمونه دويت على الاختلافات المعتبرة عندهم في كل واحد منها وغالبها مزووجة
 من أربعة أغصان وتبعهم في ذلك أهل مصر القاهرة وأتوا فيها بالغرائب وتبحروا فيها في

أساليب البلاغة بمقتضى لغتهم الحضرية فجاءوا بالعجائب ومن أعجب ما علق بحفظي منه قول شاعرهم
هذا جري حي طريا * والدماء تنضح * وقاتي يا أخيا * في الفلا يمرح
قالوا وناخذ بشارك * قلت ذا أقبح

ولغيره

طرت باب الحبأ قالت من الطارق * فقلت مفتون لاناهب ولا سارق
تبسمت لاح لى من نغرها بارق * رجعت حيران في بحر ادمي غارق

ولغيره

عهدي بها وهي لاتأمن علي البين * وان شكوت الهوى قالت فدتك العين
لمن تعني لها غيري عليم زين * ذكرتها العهد قالت لك على دين
ولغيره في وصف الحشيش

دى خر صرف التي عهدي بها باقى * تعني عن الحمر والخمار والساقى
قجبا ومن قجبتها عمل على احراقى * خيبتها في الحشى طلت من احداقى

ولغيره

يامن وصالو لأطفال المحبه مج * كم توجع القلب بالهجران أوه أح
أودعت قلبي حوحو والتصبر مج * كل الوري كخفي عني وشخصك دح

ولغيره

ناديتها ومشبي قد طواني طى * جودي على بقبله في الهوى يامي
قالت وقد لي كوت داخل فؤادي كى * ماهكذا القطن يحشي قم من هو حي

ولغيره

رآني ابتسم سبقت سحب ادمى برقه * ما ط اللثام تبدي بدر في شرقه
أسبل دجي الشعر تاه القلب في طرقه * رجع هدا نا بخيط الصبح من فرقته

ولغيره

يا حادى العيس ازجر بالمطايا زجر * وقف على منزل احبابي قبيل الفجر
وصيح في حيهم يامن يريد الأجر * ينهض يصلي على ميت قتيل الهجر

ولغيره

عني التي كنت أراكم بها بات * ترى النجوم وبالتسبيد اقتات
واسهم الين صابتي ولا فاتت * وسلوتي عظم الله أجركم ماتت

ولغيره

هويت في قطرتكم ياملاح الحكر * غزال يبلي الاسود الضاريا بالفكر
غصن اذا ما انتى يسبي البنات البكر * وان تهمل فما للبدر عندو ذكر
ومن الذي يسمونه دويت

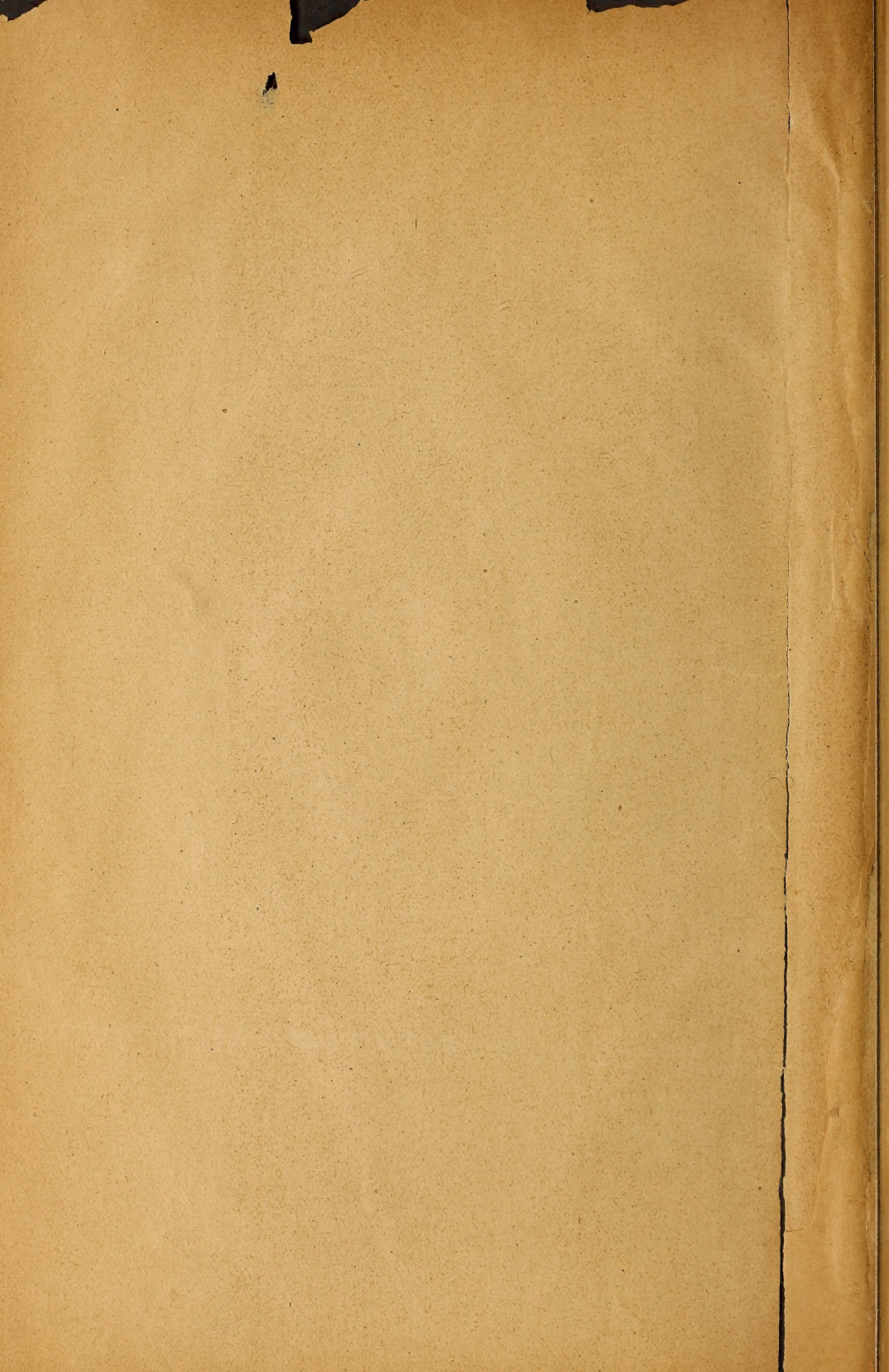
قد أقسم من أحبه بالبارى * أن يبعث طيفه مع الاسحار
يانار أشواقى به فاقدي * ليلا عساه يهتدي بالنار

واعلم أن الاذواق في معرفة البلاغة كلها انما تحصل لمن خالط تلك اللغة وكثر استعماله لها
ومخاطبته بين أجيالها حتى يحصل ملكتها كما قلناه في اللغة العربية فلا الاندلسي بالبلاغة التي
في شعر أهل المغرب ولا المغربي بالبلاغة التي في شعر أهل الاندلس والمشرق ولا المشرقي
بالبلاغة التي في شعر أهل الاندلس والمغرب لان اللسان الحضري وتراكيبه مختلفة فيهم وكل
واحد منهم مدرك لبلاغة لغته وذائق محاسن الشعر من أهل جلدته وفي خلق السموات
والارض واختلاف المستنكم وألوانكم آيات * وقد كدنا أن نخرج عن الغرض وعزمنا أن
نقبض العنان عن القول في هذا الكتاب الاول الذي هو طبيعة العمران وما يعرض فيه وقد
استوفينا من مسائله ما حسبناه كفاية ولعل من يأتي بعدنا ممن يؤيده الله بفكر صحيح وعلم
مبين يغوص من مسائله على أكثر مما كتبنا فليس على مستنبط الفن احصاء مسائله وانما عليه
تعيين موضع العلم وتنويع فصوله وما يتكلم فيه والمتأخرون يلحقون المسائل من بعده شيئاً
فشيئاً الى أن يكمل والله يعلم وأتم لاتعلمون

(قال مؤلف الكتاب عفا الله عنه) أتممت هذا الجزء الاول بالوضع والتأليف قبل التنقيح
والتهذيب في مدة خمسة أشهر آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبعماية ثم نقحته بعد ذلك
وهذبه وألحق به تواريخ الامم كما ذكرت في أوله وشرطته وما العلم الا من عند الله العزيز الحكيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين * والصلاة والسلام على أشرف المرسلين * أما بعد * فقد تم
بمؤن الله الجليل * طبع هذا الكتاب الجميل * مقدمة الأديب المتضلع من الفنون *
الامام البارع الكاتب العلامة ابن خلدون * فهي لعمر الله مقدمة جمعت نتائج
الفضل اليها * وأوجبت أن لا يعول الملوك والأمرء وأرباب السياسة إلا
عليها * وبالجملة فهي مقدمة لم تنتج الأفكار مثلها في مغزاه * ولم يغادر مؤلفها
من فنون الحكمة صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها * ومن عناية عموم
الناس بأمرها * ومعرفةهم بعظيم قدرها * واعترافهم بانها أحسن
مقدمه * تداولتها اللغات الأجنبية ليسهل تناولها بالترجمة *
لهذا قام بطبعها هذه المرة المتوكل على ربه فيما يعيد
ويبيدي * حضرة مصطفى فهمي أفندي * أحسن
الله عمله * وبلغه أمله * وذلك بمطبعة التقدم
العامة * التي بشارع محمد علي بمصر
القاهرة * في أواسط شهر شعبان
المعظم من سنة ١٣٢٢
من هجرة من له الضب
كلم * صلى الله
عليه وسلم



Rev. and Davidson.
Toronto, Canada.

28.1910.

Titel a. d.
andere Decret



3 1761 03934 3272

120.